

بدأ صدورها في 2012م

الرقم الدولي: 2321-7928

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 14 العدد: 4

أكتوبر-ديسمبر 2025م

العدد الخاص

بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رَحْمَةُ اللَّهِ

(الجزء الحادي عشر)

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجو كيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. محمد محمود عبد القادر (مصر)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دانس الأعظمي (البحرين)

هيئة التحكم

د. محمد إقبال أحمد فرحات (قطر)	د. المختار شاكر (المغرب)
د. عامر خليل الجراح (تركيا)	د. محمد فضل الله شريف (الهند)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معتصم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	د. محمد فضل الرحمن مانдал (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (1)

azebazmi@gmail.com (2)

موقع المجلة: www.majallatulhind.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكاتب)

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
 - أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ب. أن يلتزم بالمتاح والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
 - ج. أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - هـ. الأفضل أن يتناول البحث موضوعاً جديداً ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
 2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Amiri) على حجم 11.5.
 3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
 4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
 5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
 6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
 7. تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.
- تعتبر المقالات المنشورة عن آراء كاتبها واجتهاداتهم الشخصية.

في هذا العدد

الصفحة

7	- د. أورنك زيب الأعظمي	الافتتاحية
		مقالات وبحوث:
9	- د. البتول بلهون	من المناسبة إلى النظام: تجديد الإمام الفراهي لبحث التناسب القرآني
37	- أ.د. محمد محمود عبدالقادر	معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي
61	- د. محمد المجود	مقاربة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم: دراسة تحليلية
92	- أ.د. نبيل فولي محمد	ضرب المثل في القرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي
		دراسات مقارنة:
122	- د. محمد فضل الله شريف	مكانة كتاب "نظام القرآن" للعلامة عبد الحميد الفراهي، بين المؤلفات المحررة في نظم القرآن ومزاياه المنهجية والعلمية
		رسالات جامعية:
136	- د. السيد سعيد أحسن العابدي راجعها وعلق عليها وقدم لها: د. هيفاء شاكري	الإمام عبد الحميد الفراهي - حياته ومنهجه في التفسير وأثر ذلك في الهند

قراءة في مؤلفات الفراهي:	
350	"دلائل النظام" للإمام عبد الحميد - د. موسى عيسى زين الدين الفراهي - دراسة في المفهوم والمنهج والأثر وأ. صفية سعيد
373	العلامة عبد الحميد الفراهي وكتابه - د. سيدة مريم غزاله "مفردات القرآن"
386	الإمام الفراهي وكتابه "حجج القرآن" - د. محمود عادل محمود
449	نظرات في مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي (في ضوء ما نُشر في "مجلة الهند" عن الإمام الفراهي) -5
شروح وتوضيحات:	
486	الاستفهام - الإمام عبد الحميد الفراهي تحقيق وتقديم: د. أورنك زيب الأعظمي
495	[مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَا فَعَلَ]
513	شرح لفظ "بلاءة" - د. أورنك زيب الأعظمي
استعراض الأعمال عن الإمام الفراهي:	
521	أفكار الإمام الفراهي - أ.د. أبو سفيان الإصلاحي ترجمة: د. محفوظ الرحمن
557	حجج القرآن (طبعة محققة) - د. غياث الإسلام الصديقي

الافتتاحية

أعزائي القراء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسرنا كثيراً أن نقدم إليكم الجزء الحادي عشر الخاص بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي الذي يرجع إليه فضل إصلاح العلوم القديمة وتطهير العلوم الجديدة في الهند ومن ثم في البلاد الإسلامية كلها. كان الإمام الفراهي شخصية تجمع بين العلم والتقوى بل كما قال المولانا آزاد: صعب لزائره أن يفرق بين علمه وتقواه أيهما أزيد. رحمه الله رحمة واسعة وتقبل جهوده في خدمة علوم القرآن والحديث واللغة العربية.

وهذا الجزء، كدأب الأجزاء السابقة، يحتوي على 15 مقالة وبخناً علمياً تناول فيها الباحثون والمترجمون مختلف جوانب سيرة الإمام الفراهي وأعماله بالبحث والتحقيق فتحدثوا عن حياته وما تحلّى به كما ناقشوا أفكاره عن القرآن والسنة والأدب، وكذا تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد.

ففي المقالة الأولى تناولت الدكتوراه البتول بهودن تاريخ المناسبة في القرآن الكريم وذكرت مساهمة الإمام الفراهي في تجديد هذا البحث، بينما تحدّث الأستاذ محمد محمود عبدالقادر في المقالة الثانية عن معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي. والمقالة الثالثة تناقش مسألة النسخ في القرآن الكريم ورأي الإمام الفراهي فيها إذ المقالة الرابعة تدرس صُرب المثل في القرآن الكريم ودور الإمام عبد الحميد الفراهي في بيانه وتوضيحه. وكشف الدكتور محمد فضل الله في المقالة السادسة عن مكانة كتاب "نظام القرآن" للعلامة عبد الحميد الفراهي بين المؤلفات المحرّرة في نظم القرآن وفصل مزاياه المنهجية والعلمية. تتبعها ضالة الراغبين في سيرة الإمام الفراهي

وعلمه ألا وهي رسالة السيد سعيد أحسن العابدي للدكتوراه بعنوان "الإمام عبد الحميد الفراهي - حياته ومنهجه في التفسير وأثر ذلك في الهند". طلب منا العديد من الراغبين نشرها في المجلة فلبينا دعوتهم ونشكر الدكتور هيفاء شاكري التي راجعتها وعلقت عليها وقدمت لها. فقينا عليها بأربع مقالات تناقش مختلف مؤلفات الفراهي فالمقالة الأولى تناولت "دلائل النظام" والثانية ناقشت "مفردات القرآن" والثالثة درست "حجج القرآن" والرابعة ذكرت "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح". وبعدها جاءت ثلاث مقالات توضّح مباحث من كتاب "أساليب القرآن" وكتاب "أسباق النحو" وتشرح كلمة "بلاء" القرآنية سالكة طريقة الفراهي في شرح المفردات القرآنية.

وأنبينا هذا العدد الخاص بمقالتي إحداهما عن جهود العلماء الهنود في ذكر ترجمة الفراهي وبيان أفكاره وتوضيح آرائه، والأخرى تقدّم دراسة تحليلية لتحقيق أحد كتبه ألا وهو "حجج القرآن".

وأخيراً نشكر كل من ساهم في إعداد هذا الجزء الخاص من الباحثين والمترجمين وأعضاء هيئة التحرير، وكل من كانت له جهود مضيئة في إخراجها في صورته الحالية وتقديمه إليكم.

نسأل الله تعالى أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

د. أورتك زيب الأعظمي

من المناسبة إلى النظام:

تجديد الإمام الفراهي لبحث التناسب القرآني

- د. البتول بلهون¹

يختص علم المناسبة، أحد علوم القرآن الكريم الدقيقة المغمورة، بالإجابة عن سؤال الترابط في القرآن الكريم، غير أنّ التأمل في تراث القدامى يلاحظ انحصار بحثه في بيان بعض العلاقات الجزئية بين الآيات القرآنية، مما كرّس بقاءه في دائرة الاجتهاد الذوقي بدليل تعبير الزركشي في قوله: "المناسبة أمرٌ معقولٌ إذا عُرِضَ على العقول تلقته بالقبول"².

ومن هنا يبرز مشروع الإمام عبد الحميد الفراهي³ (ت 1349هـ/1930م) "نظام القرآن" محاولة تجديدية هامة في التطوير والتفصيل المنهجي لعلم التناسب القرآني، والارتقاء به إلى تصور نظري شامل ومنهج تطبيقي متكامل يفسر وحدة السورة ويبرز انتظام القرآن في كليته.

ويهدف هذا المقال إلى مقارنة تجديد الفراهي في موضوع التناسب القرآني انتقالاً به

¹ دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

² البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، دار الكنتي، ط1، 1414هـ-1994م، 262/7-263 باختصار.

³ هو حميد الدين بن عبد الكريم بن قُربان قنبر بن تاج عليّ، ينظر في ترجمته: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ"زهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، عبد الحفي الحسيني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م، ج8، ص1267. وأجمل الإصلاحي في مطلع كتاب "مفردات القرآن" للفراهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م، ص16. وسيد سليمان الندوي في مقدمته لكتاب "إمعان في أقسام القرآن"، عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، ط1، 1415هـ، ص13.

من مجرد بحث أوجه الارتباط بين أجزاء القرآن الكريم كما كان عليه الحال مع علم المناسبة عند السابقين إلى التأسيس لنظرية النظام التي تقوى معها الوحدة ويبرز الاتساق وتنتضح الدلالة.

وهو ما يتطلب التمهيد بتعريف مشروع الفراهي حول نظام القرآن من خلال الوقوف مع مقصوده بالنظام، وبيان أسس معرفته وخاصة مسألة العمود المحورية في نظريته، مع ذكر منهجه في تفسيره. ثم الانتقال إلى بيان حقيقة الانتقال من المناسبة إلى النظام من خلال المرور على معناها في اللغة والاصطلاح وتبع جذور فكرة نظام القرآن وكيف تطوّرت حتى صارت تبدو نظرية متكاملة عند الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله، نختم ببعض التطبيقات العملية التي تبرز أثر القول بنظام القرآن في تطوير التناسب ومنه تجديد التفسير وتيسير التدبر.

إشكالية البحث: كيف تطوّر رصد الترابط في القرآن الكريم من مجرد استشكالات حول التعلق وملاحظات عن التناسب إلى نظرية نظام القرآن عند الفراهي؟ وما هو الجديد الذي حمله هذا التحول؟

أهداف البحث:

- التعريف بمشروع نظام القرآن للفراهي.
 - إبراز الأثر التجديدي للتحول من المناسبة إلى النظام.
- منهج وخطة البحث: ولأجل هذا سيتم الدمج بين المنهجين الوصفي والتاريخي مع المنهج التحليلي.

وسيتم تقسيم الموضوع على الشكل التالي:

المحور الأول: في التعريف بمشروع نظام القرآن للفراهي

المحور الثاني: الفراهي والتحول من المناسبة إلى النظام

المحور الثالث: الأثر التجديدي لنظرية النظام

المحور الأول: في التعريف بمشروع نظام القرآن للفراهي وبيان منهجه في تفسيره

أولاً- في التعريف بمشروع نظام القرآن للفراهي: ارتبط اصطلاح "نظام القرآن" بالفراهي الذي بالغ في الحديث عنه، منذ أن فتح الله له بإدراكه ثمرة طيبة لصحبته الطويلة مع كتابه الكريم تعلماً وتعلماً وتأملاً وتدبراً، فاتخذ منه مشروعه الكبير الذي وهبه عمره دعوةً وبياناً وتفصيلاً، واختاره عنواناً لثلاثة من كتبه هي: "فاتحة نظام القرآن" و"دلائل النظام" وتفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"؛ فتناوله بالتنظير في الأول والثاني إضافة إلى كتابه "التكميل في أصول التأويل"، بينما خصص مؤلفه التفسيري بإبرازه وبيان تطبيقاته عملياً.

ويمكن القول بأنّ الغالب في استعمال الفراهي للنظام هو قصده النظام الكلي للقرآن الكريم، وهو ما نصّ عليه إجمالاً بقوله: "فردانا بالنظام أن تكون السورة وحدةً متكاملةً، ثمّ تكون ذاتها مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتالي قبلها أو بعدها على بعدٍ ما، كما قدّمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أنّ الآيات ربّما تكون معترضة، فكذلك ربّما تكون السور معترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر. فتبيّن مما قدّمنا أنّ النظام شيء زائد على المناسبة وترتيب الأجزاء".¹ وتحديد هذه ضروري لتصور مقصوده بالنظام وهو أيضاً منهجي من حيث التأكيد على منطلق التمييز بين المناسبة والنظام وتضمن هذا الإضافة والتطوير.

ومن جهة أخرى فقد سلك الفراهي في بحثه مسألة النظام في القرآن الكريم طريقة

¹ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 75.

المنهج العلمي، فانطلق من الاستدلال له نظرياً إلى بيان كيفية استنباطه والاهتداء إليه عملياً باعتباره فناً مستقلاً، ثم إيراد أمثلة تطبيقية من مشكلات النظام لإلغام من استبعدوا القول بالنظام وإقناع من ترددوا في الجزم به.

كيفية معرفة النظام: ينطلق الفراهي من أصالة نظام القرآن الموثقة أدلته في الكتاب الحكيم نفسه،¹ ليجعل مأخذه ومعتمده في الكشف عن نظام القرآن هو القرآن الكريم نفسه، حيث يقول رحمه الله: "أجمع أهل التفسير من السلف إلى الخلف على أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً،² وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، فنقول: كما أنّ القرآن يفسر مطالب آياته بعضها ببعض، فكذلك يدلك نظام مطالبا ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر، وبذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينها، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض حتى يتدرج بك على ما كان أدق وأعمض".³

ومثال ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: "وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ" (البقرة:45). أي استعينوا بالصبر والصلاة على الإتيان بما أمرناكم به، والانتهاه عنه، كما تقدم. واعلم أنّ المراد بهذا الأمر هو التمسك بالصلاة، وأما ذكر الصبر قبلها فلكونه شرطاً وذريعة إليها، فإنّ الصلاة لا يمكن التمسك بها إلا بالصبر، فالصلاة كجسر عظيم، لا بد له من أساس شديد، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا" (طه:21) وبين ذلك في الجملة التالية، فاطلب البيان من تفسيرها.

¹ المرجع نفسه، ص28.

² ذكر الفراهي أن تفسير القرآن بالقرآن هو المراد بالتفسير بالنظائر. يراجع: التكميل في أصول التأويل، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: محمد سمیع مفتی، دون تاریخ، ودون دار نشر. ص44. وينظر لمزيد من التوسع: أصل حمل النظر على النظر عند الفراهي، أماني عبد الحلیم لطفی العتيبي، (رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر) 2024م.

³ دلائل النظام، الفراهي، ص83. وينظر أيضاً: فاتحة نظام القرآن، الفراهي، ص1.

واعلم أنّ المراد من الاستعانة بالصلاة هو الاستعانة بالرب تعالى، كما هو ظاهر، قال تعالى: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا" (الأعراف:127)، أي صلّوا لربكم، وذلك بأنّ الصبر الذي جعله الله تعالى رأس الأمور وأساسها، هو الاستقامة بطمأنينة القلب على وعد الله، والاستحقار لما يقاسيه العبد من البلاء والأذى، كما قال تعالى: "فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (هود:49)، فهذه الصفة هي التي يلتصق بها العبد بربه ولا يزال قائماً بين يدي مولاه تواباً أو اباً، قال تعالى: "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ" (الرعد:24)، وقال تعالى: "فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ" (طه:130)، فالصبر من هذه الجهة من شرط الصلاة، ولذلك يعبر بالصابر عن المصلي، قال تعالى: "اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" (البقرة:152)، فنبه على أنّ الصابرين هم المصلّون، فجعل الصبر دليلاً على الصلاة، فاكتفى بذكره عنها، وههنا جعل الصلاة دليلاً على الصبر، لكونه مشتملاً عليه.¹

استخراج العمود سبيل اكتشاف النظام: يقول الفراهي موضحاً معنى العمود، مقابل التبع، الذي يعتبره من الأجزاء الإجمالية التي يتركب منها الكلام:² "هو جماع مطالب الخطاب فالإيه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه التركيبية ولكنه يسري فيه كالروح والسر، والكلام شرحه وتفصيله وإنتاجه وتعليقه، وربما يحسن إخفاؤه فلا يُطَّلَع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه".³

هذا بالنسبة لعمود الكلام عموماً، والحديث عن العمود أوثق بالسورة، لمركزية السورة في البناء

¹ نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، 233-234.

² يقسم الفراهي الكلام إلى قسمين من الأجزاء التركيبية: أجزاء إجمالية تضم العمود والتمهيد والمنهج والخاتمة، وأجزاء تفصيلية منها: التعليل والتفريع والتأصيل والتفصيل والتمثيل وإيراد المشابه وإيراد المقابل والضد والتنبيه بالوعد والوعيد والتحسين والتقبيح. الفراهي، دلائل النظام، ص72.

³ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص73

القرآني، وكذا لاعتبار الحكمة من تسوير القرآن الكريم، وأيضاً لتعدد العمد بناء على تعدد السور. وهكذا فقد انتقل الفراهي بعد الحديث عن النظام في القرآن الكريم بعمومه وكليته، إلى تناول النظام في مستواه الخاص لأهم جزء قرآني تتجلى فيه الوحدة بمفهومها الشامل ومسمياتها المتعددة (موضوعية وعضوية وبنائية ونسقية...)، وهو السورة الواحدة، حيث يقول: "... وإذا ظهر النظام في القرآن، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مشخصة، فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة. فإذا نظرت الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح".¹

ويدلّ كلام الفراهي على العناية الكبيرة التي يوليها للسورة الواحدة باعتبارها وحدة مركزية في البناء القرآني² لم يقع التحدي بأقلّ منها لما لها من نظام خاص يجعلها كلاماً ذا وحدانية،³ ويمنحها شخصية مميزة تعزز مكانتها وتصيغ تفسير المعاني الواردة في كل أجزاءها. كما يفهم من كلامه أيضاً محورية العمود في نظريته عن "نظام القرآن"، بناء على كون العمود أول وأهم ما يطلب عند محاولة اكتشاف النظام فهو المفتاح لفهم النظام الكلي للقرآن الكريم.

ويستعمل الفراهي عبارة "عمود السورة"⁴ للدلالة على موضوع السورة أو محورها

¹ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 75.

² ليس الفراهي أول المتحدثين عن وحدة السورة القرآنية، بل سبقه إلى ذلك الباقلائي، والرازي، والشاطبي، فيما أبدع البقاعي في تجلية صور الوحدة في القرآن الكريم بكل أجزائه بما فيها سوره التي تنفرد كل واحدة منها بمقصودها (عمودها) الخاص بها. ومن المتأخرين تألق سيد قطب، وسعيد حوى، ومحمد عبد الله دراز في تناول وحدة سورة البقرة ضمن كتابه: النبأ العظيم.

³ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 76

⁴ يشرح العلواني السبب في إطلاق عبارة "عمود السورة" بقوله: "... لأن السورة بمثابة بيت كبير، له دعامة أساسية، أو عمود يقوم عليه البيت، تحيط بهذه الدعامة الأساسية دعامات أو أوتاد فرعية أخرى بالنسبة للعمود الأساس، لتتضافر معه في تشكيل بنية السورة." يراجع: أفلا يتدبرون القرآن، طه جابر العلواني، ص 137

الخاص الذي تدور في فلكه ويكون أساس انسجام أجزائها، والذي يعتبر تحديده الركن الركين في إرساء نظامها: فهو المحور الذي يجمع مطالبها ويصل أجزاءها، ويتم استخراجها من خلال المعرفة بمساق الكلام.

ثم إنَّ الفراهي، وهو يضع القاعدة المعتمدة في استخراج العمود، يحدّد العنصر الأهم في ماهية العمود ووصفه، حيث يقول: "إنَّ النظر في آيات السور لا يدع شكاً أنّ عمود الكلام ليس إلاّ الأمور الكلية التي لا تتعلّق بوقت ولا زمان"¹ بمعنى أنّ عمود الكلام هو مقصده الأساس الثابت الذي لا يتغيّر مهما تبدل الزمان وتغيّر المكان، فهو الأصل المقصود من مجموع الكلام والذي يستند إليه في فهم كل تفاصيله. وهو ما يحيل على تعريف المقاصد والكليات، كما سبق إلى هذه الفكرة البقاعي عندما اعتبر معرفة مقصود (عمود) السورة أساس الإجابة في فقه تناسب القرآن الكريم من حيث العرفان بعلى ترتيب أجزاء البيان القرآني، بدءاً من الكلمة في الجملة وانتهاء بالسورة...²

قال الفراهي مبيناً ما يتطلبه التوصل إلى عمود السورة من الاجتهاد في تدبرها: "اعلم أنّ تعيين عمود السورة هو إقليدٌ لمعرفة نظامها ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلّها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرحمها."³

ثم يمضي في التعميد لنظرية النظام باختصار الطريق لاستخراج عمود السورة ومعرفة نظامها، في خطوتين عمليتين هما:⁴

أولاً- تعيين المثاني وبيان اتصالتها: حيث تخفى جهة الوصل ولا يظهر النظام، والتأمل

¹ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 62

² مصاعد النظر في مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، 118/2.

³ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 77.

⁴ المرجع نفسه، ص 80-81

في اتصالها هو أول خطوة وأكبر مهمة في معرفة النظام، فإذا تيسر وصلها، حصل الاطمئنان إلى نظم السورة.

ثانياً- النظر في معالم السور: وهي الآيات المميزة في السورة بحسبها أو تعليميتها، والتي تسترعي الانتباه بمجرد البدء في تأمل السورة، فيعنى بتوضيح محاسنها ومطالبها وبالذلة على أعيانها.

لكن عملية استخراج عمود السورة ليست بالسهلة المتأتمية لكل أحد، وإنما تعترضها مجموعة من الصعوبات ذكر الفراهي منها: ما يؤول إلى صعوبة الترجيح في تبيين العمود أو يرجع إلى خفائه أو لكثرة المطالب العالية في القرآن.¹ وربما هذا ما دفع بالإمام الفراهي إلى ختم كتابه "دلائل النظام" بمبحث سماه: "عمود السور إجمالاً"، ضمنه بإيجاز عمود كل سورة من سور القرآن الكريم مع الإشارة إلى كونها مكية أو مدنية. فهذا من شأنه إنارة درب المتدبرين المفتشين عن النظام.

منهج الفراهي في تفسيره: عمل الفراهي على الاستفادة قدر الإمكان مما تحقق له من النظر المقاصدي واستثمار ما أتيح له من التكوين الموسوعي² في ثوير المعاني القرآنية وفق نظام القرآن، لإبداع تفسير تكاملي لكتاب الله تعالى الجامع لشؤون العقيدة والشريعة ومسائل الفقه والأخلاق بغرض توحيد المسلمين عليه وتيسير اهتدائهم بأنواره، وأكد في ديباجة فاتحته على اجتهاده في استجلاء نظام القرآن في الآيات والسور، بالتماس معاني الآية من علاقتها بأخواتها، واستنباط نظام السورة من نفس سياقها.³

وهكذا قسم الفراهي تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" من الناحية

¹ نفسه، ص 79

² تميز الفراهي باطلاعه الواسع ومعرفته الغنية بعلوم اللغة العربية وآدابها، وبتمكنه من الفقه وأصوله، وبراعته في الفلسفة والمنطق واللغات، فتوسل بكل هذه العلوم المختلفة إلى تفسير آيات القرآن الكريم واستخراج معانيه، مركزاً على مراعاة مقاصد القرآن واستنباط هداياته.

³ فاتحة نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص 1.

النظرية إلى مئة وأربعة عشر جزء بحسب عدد سور القرآن الكريم، لكن العمر لم يسعفه عملياً لإكمال ما نوى، فتوقف مشروعه الكبير عند تأليف بعض الأجزاء التفسيرية لبعض قصار السور التي اختار البدء منها بسبب إشكال نظامها مع شدة حاجة المسلمين لفهمها: وهي: الفاتحة، الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، الشمس، التين، العصر، الفيل، الكوثر، الكافرون، اللهب، الإخلاص. ثم طبع بعد وفاته تفسير (62) آية من سورة البقرة، وتفسير سورة آل عمران إلى الآية (31)، وتفسير سورة الحج.

وقد وصف رشيد رضا منهج الفراهي في التفسير بقوله: "طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية...، وإنَّ للمؤلِّف لفهماً ثاقباً في القرآن، وإنَّ له فيه مذاهب في البيان...، وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدها".¹

ولقد سبق الفراهي إلى بيان منهجه في التفسير عمومًا في كتابه "دلائل النظام" و"التكميل في أصول التأويل"، وأتم تفصيله في مقدمة تفسيره "فاتحة نظام القرآن"² وملخص هذا المنهج³ أنه أقام تفسيره على الأساسين الكبيرين اللذين قرن بينهما في العنونة لتفسيره؛ فحرص على الجمع بين مراعاة نظام القرآن، والاعتماد في تأويل الفرقان على الفرقان. والمتأمل في كلا الأساسين يجد بأنهما يؤولان في النهاية إلى

¹ مجلة المنار، رشيد رضا، عدد شهر صفر، عام 1327 هـ.

² تعتبر مقدمة الفراهي لتفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" وفيها بيان منهجه في التفسير، وقد طبعت في الدائرة الحميدة بسراي مير في أعظم كره في الهند، عام 1357 هـ. ثم طبعت مع التفسير بعد ذلك بتحقيق عبيد الله الفراهي في ط دار الغرب الإسلامي، 1433 هـ 2012 م.

³ ينظر للتفصيل: الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)، محمد يوسف الشربجي، ضمن مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 20، ع2، 2004 م، ص 459-477.

أصل واحد عام هو تفسير القرآن بالقرآن، وإنما نظام القرآن خاص سبق إلى ذكره تنبيها على أهميته. وفيما يلي تفصيل القول فيهما:

الأساس الأول- مراعاة نظام القرآن: قصد الفراهي في تفسيره إلى بيان نظام القرآن الكريم كما نصّ على ذلك في خطبة الكتاب قائلاً: "فإن شاء ربي سيجلي لنواظرك نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان سفراً، بديعاً في خصائصه بكرة، تجد أسفار القوم عن معظمها صفراً، كاشفاً لك عن بديع نظام القرآن سترًا، متمسكاً بآيات الله ونظامها، فلا أجاوز عنها شبراً..."¹

وتبرز عناية الفراهي بنظام القرآن من خلال تصديره لتفسير السورة بذكر عمودها وبيان مناسباتها الداخلية والخارجية، والتماس الروابط بين آياتها وأجزائها، وبيان الارتباط بين موضوعها وأسلوبها وغير ذلك من أوجه الاحتفاء بالتناسب القرآني.

الأساس الثاني- تفسير القرآن بالقرآن: سار الفراهي على ما عليه علماء الأمة في أحسن طرق التفسير، فاعتبر القرآن الكريم هو الأصل الأول لتفسير القرآن، تليه السنة النبوية المشرفة، ثم التفسير بأقوال الصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم فشهدوا أحواله وفهموه بسليقتهم.² والمطالع في تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" يكاد يقف على اقتصار الفراهي على التفسير بالقرآن إلا ما كان في بعض المواضع القليلة، حيث يلجأ إلى التفسير بالسنة للتوضيح والبيان. ويرجع السبب في عدم إكثار الفراهي من تفسير القرآن بالسنة إلى اعتبارها من المآخذ الخيرية الفرعية في مقابل الأصل الإمام الذي هو القرآن، ولذا فهو يعيب على قطع نظام الآية أو تأويلها لأجل الرواية، لأن الفرع أولى بالقطع من الأصل.³

¹ نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص 12

² دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 83.

³ مقدمة تفسير نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص 28. وينظر تفصيل هذا الأمر كذلك في فاتحة نظام القرآن، ص 7.

المحور الثاني: الفراهي والتحول من المناسبة إلى النظام

لئن بنى الفراهي مشروعه التفسيري على بصيرة نافذة ونقد علمي للتراث التفسيري، ملخصه الاتكاء على الاستبصار للكشف عن النظام، والتحويل على القرآن في تفسيره للقرآن، فإنه قد نفى عن نفسه ابتداءً تتبع النظام في القرآن الكريم، وصرح بسبق المفسرين القدامى إلى تناوله في إطار علم المناسبات.¹

ولكنه عاد بعد هذا ليصف محاولات السابقين في بيان التناسب القرآني بالخلج والقصور عن تلمس نظام القرآن، والاكتفاء بمجرد مناسبات منفردة ومتفرقة هنا وهناك، في حين يتطلب الأمر بحثاً عميقاً قاصداً للظفر بالخيوط النازمة لأجزاء القرآن الكريم، وسعيًا متواصلًا حديثًا للكشف عن نظامه.²

هذا الالتباس الذي يمكن استشعاره عند الحديث عن مصطلحات متقاربة أحياناً ومتطابقة أحياناً أخرى هو ما يستلزم العودة بالمسألة إلى الأصل في تعريف كل من المناسبة والنظام وتحديد المقصود بهما لإمكان تصور مساحة التقاطع وحدود التمايز، ولأجل التقدير لحقيقة التحول من الحديث عن علم المناسبة إلى نظرية النظام.

أولاً- المناسبة في اللغة والاصطلاح:³ تدلّ مادة (ن س ب) في اللغة على معاني الاتصال والتقارب والمشاكلية؛ حيث يقول ابن فارس معرفاً المناسبة: "النون والسين والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء. منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به، تقول: نسبتُ أنسبُ. والنسب: الطريق لاتصال بعضه من بعض".⁴ ثم أضاف

¹ المرجع نفسه، ص 1.

² دلائل النظام، مرجع سابق، ص 74 باختصار.

³ ينظر في مفهوم المناسبة مقالتي بعنوان "علم التناسب القرآني أو أسئلة البلاغة المنسية"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 18 ص 2025 ص 139 إلى 149

⁴ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح عبد السلام محمد هارون. كتاب النون باب النون والسين وما يثلثهما، ط دار الكتب العلمية بيروت 5/ 423-424 باختصار.

الجوهري معنى المشاكلة من خلال قوله: "ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة".¹ ومنه فالمناسبة تشير إما إلى عموم الاتصال والترابط بين الأجزاء المتناسبة، كما يربط النسب الفرع بأصله، وإما أنها تتخذ معنى المشاكلة أو المقاربة، بناء على كون الارتباط مدعاة للتماثل والتشابه.

ولعل أقدم إشارة في تعريف المناسبة عند المشتغلين بالتفسير وعلوم القرآن، كانت بذكر لفظ الارتباط كما في قوله القاضي ابن العربي الموجزة: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض - حتى تكون كالكلبة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني".² وهي كلمة قاصدة تلح إلى وحدة القرآن الكلية وإن كان ظاهر القول هنا يوهم بقصر التناسب على الآيات دون غيرها من أجزاء الذكر الحكيم المنزل من الله العليم الخبير سبحانه.

ثم أضاف ابن الزبير الغرناطي معنى آخر من مقتضيات التناسب وهو الترتيب من خلال تسميته المناسبات القرآنية وجوهاً للترتيب حينما وصف قصده إلى التأليف في مناسبات السور بتوجيه ترتيب السور.³

ويجمع بين معنيي الترتيب والارتباط في صياغة موجزة مع السبق الزمني، الإمام الرازي في جملته المشهورة حيث قال في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".⁴

إلا أن تعريف البقاعي سيظل أدق التعاريف، حيث يقول: "فعلم مناسبات القرآن

¹ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين، بيروت 1407هـ-1987 م. 224/1.

² الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974. 211/2.

³ البرهان في تناسب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: محمد شعبان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1410هـ-1990 م، ص 181-180.

⁴ مفاتيح الغيب، نجر الدين الرازي، 110/10.

مجلة الهند - - - - - تجديد الإمام الفراهي لبحث التناسب القرآني

هو علمٌ تُعرفُ منه عللُ ترتيبِ أجزاءه¹ وذلك بسبب اختياره التعبير بكلمة الأجزاء التي تحتل كل جزء من أجزاء القرآن الكريم مع ما يشاكله ويقارنه: آية كان، أو مقطعاً، أو سورة، أو حكماً، أو قصة...

لكن المتأمل في مجموع هذه التعاريف بما فيها تعريف البقاعي الذي أبدع في محاولة تفسير القرآن الكريم بالاعتماد على التناسب مبرراً للترابط بين أجزائه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، يجدها في الغالب تركز على تعليل الانتقال بين الآيات في حين قد يغيب المحور الكلي للسورة والمراعاة لمقاصدها العامة.

ثانياً- النظام في اللغة والاصطلاح: يعود أصل كلمة "نظام" إلى مادة (ن ظ م) التي تفيد في اللغة معنى التأليف وما يراد فيه من التعلق والاستقامة، وأقدم ما اشتهر من هذه المادة هو مصطلح النظم الذي أكثر من استعماله البلاغيون وعلماء الإعجاز، وقد جاء عند ابن فارس أن أصله يدل على تأليف شيء وتأليفه² وزاد ابن منظور: "نظمه ينظمه نظماً ونظاماً، ونظمه فانتظم، (....) وكل شيء قرنته بآخر، أو ضمت بعضه إلى بعض، فقد نظمته"³. ويقال في المجاز: نظم الكلام. وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام: إذا لم تستقم طريقته⁴.

والنظم في الاصطلاح: "تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل"⁵.

ويعدّ الجاحظ (ت 255هـ) من أوائل من استعمل مصطلح "نظم القرآن" قاصداً به

¹ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، 5/1.

² معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس باب الفاء والنون وما يثلثهما (نظم) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر 1399هـ-1979م، 443/5

³ لسان العرب، ابن منظور، مادة (ن ظ م)، دار صادر، بيروت ط3، 1414 هـ، 462/1

⁴ أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، 284/2

⁵ التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1403هـ-1983م، ص242

الدفاع عن تماسك القرآن وبيان كون نسجه فريداً لا كتنظيم الشعر ولا النثر وقد ألف كتاباً (مفقوداً) بعنوان "نظم القرآن"، يقول: قال الجاحظ: "فلا يعرف نظم القرآن إلا من عرف صنوف التأليف، وعرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام"¹.

وجاء الباقلاني (ت 403هـ) الذي ولج مجال نظام القرآن مبكراً من خلال باب الإعجاز الذي كان أحد رواده الأوائل، وأجاد في البرهنة على سموّ وعلوّ النسق القرآني، لكنه غالباً ما كان يستخدم مصطلح "النظم" لا النظام، ويركز على "روتق الكلام" أكثر من وحدته الموضوعية، واعتباره "نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم"²، يدلّ على أنّ مقصوده من النظم والنظام الأسلوب العجيب الذي يخرج عن مقدور البشر.

ثم إنَّ عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) من أوائل المعتنين بأمر النظم وعرّفه بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"³.

ومع أنّ كتاب "دلائل الإعجاز" عمدة في هذا الباب إلا أنّ الجرجاني، وكما يدلّ على ذلك تسمية نظم (لا نظام)، ركز فيه على نظم الجملة وتوخي معاني النحو بين الكلمات: تقديم، تأخير، حذف، من دون أن يتجاوزها إلى "نظام السورة" الكاملة.

ويمكن القول إنّ الإمام الفخر الرازي (ت 606هـ) أقرب المفسّرين القدامى إلى نظرية الفراهي عن النظام، وذلك من جهة عنايته الكبيرة بالتناسب ولبثته الملح

¹ العثمانية ضمن مجموع رسائل الجاحظ، تح عبد السلام هارون، ط1، 14/3.

² إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م، ص 35.

³ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، 1984م، ص81.

عن نظم السورة ولحظه الثاقب لنظام الكلام الذي يعتبره مكن الإيجاز الحقيقي في القرآن. يقول في تفسير الفاتحة: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك".¹ والنظم من الألفاظ التي توصل بها الرازي لبيان وجوه المناسبات في القرآن الكريم، من خلال استعمال لفظ النظم وما يتصل به من صيغ مثل منتظمة، انتظام، أو ترديد عبارات مثل "كيفية النظم" أو "وجه النظم"، كما يتحدث عن "رعاية النظم" وعن "تفكك النظم".

أما شيخ المناسبات برهان الدين البقاعي (ت 885هـ) الذي ذاع صيت كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" في مجال تتبع التناسب بين السور والآيات، فإنه قد أقام تدبره للقرآن الكريم على قاعدة أنّ "جميع كُله وجمُله وآياته ومعاقده وسُوره يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً معنوياً وبيانياً".² ولذا فقد كان يستعمل مشتقات كلمة "النظام" لإفادة معنى الربط والتناسب.

ثالثاً- التمييز بين المناسبة والنظام: يلاحظ من خلال الاشتقاق اللغوي لكلمتي المناسبة والنظام التقاؤهما حول إفادة التعلق والاتصال. وهذا التقارب نفسه (أو التقاطع بتعبير أدق) هو ما يحكم العلاقة بين مصطلحي (التناسب) و(النظام)، وخاصة في مجال التفسير وعلوم القرآن، حيث يتم استعمالهما بنفس الدلالة الاصطلاحية تقريباً: (ارتباط أجزاء القرآن الكريم) المتضمنة للترتيب والتعلق، مع التأكيد على إضافة معنى الوحدة بالنسبة للنظام. والفراهي نفسه مع تأكيده على الفرق بين علم المناسبة

¹ مفاتيح الغيب، نثر الدين الرازي، 7/ 106

² يراجع: الإمام البقاعي ومنهجه في تأويل بلاغة القرآن، محمود توفيق سعد، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1424هـ، ص138.

عند السابقين وعلم النظام كما أراده، إلا أنه عملياً كان يناوب بين الكلمتين أو يجمع بينهما معاً في النص الواحد، بحيث ترجع الواحدة منهما على الأخرى حين يتعلق الأمر بسياق الحديث عن مضمون التناسب القرآني بشكل عام.¹ وهذا ما يؤكد التقاطع الكبير بين المناسبة والنظام في أصل معنى التناسب، وصعوبة التمييز بينهما، إلا ما يمكن أن يكون من خلال القول بأمر التفاوت واختلاف المستويات بينهما من خصوص وعموم، وجزئية وكلية، وسطحية وعمق، وتدن وتعال...

والجامع بين النظم والمناسبة هو أنّ مدارهما على الترتيب والتنسيق بين ما ظاهره الاختلاف. ويفرق بينهما أنّ التعويل في النظم، بالمعنى الخاص، هو فقط على قواعد النحو المقتصرة على وصل ما نتاج دون ما اختلف وتباعد، بينما في المناسبة تتنوع الروابط لتشمل كل ما من شأنه تقريب المعاني وإن تباعدت الجمل واختلفت الأغراض.²

يشير الفراهي إلى امتلاكه تصوراً جديداً بخصوص نظام القرآن، يتميز عما ألف المتقدمون العناية به أثناء بحثهم في المناسبات بين الآيات والسور، حيث يعتبر التناسب جزءاً من النظام لأنه لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، ولأنّ طالبه ربما يقنع بمناسبة ما، فيغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئاً واحداً، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها في حين قد تكون الآية متصلة بالتي قبلها على بعد منها.³

ويعني كلام الفراهي هذا أنّ معرفة النظام هي أدق وأعمق من مجرد التعرف على المناسبات بين أجزاء القرآن الكريم بالاعتماد على تجاورها المكاني أساساً، بينما يمتد

¹ ينظر: دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 75 حيث جمع بين التناسب والنظام وناوب بينهما كما في مواطن كثيرة منها: عند حديثه عن كثرة وجوه النظام، ص 79، وأيضاً أثناء بيانه لأهمية النظام في فهم الكلام، "فاتحة تفسير نظام القرآن"، ص 3-4، وغيرها كثير.

² ينظر للتفصيل: التناسب في تفسير الإمام الرازي، منال مبطي، ص 63 وما بعد

³ دلائل النظام، مرجع سابق، ص 74 باختصار.

مجلة الهند - - - - - تجديد الإمام الفراهي لبحث التناسب القرآني

نظام القرآن عبر كتاب الله تعالى ولو تباعدت منه الأجزاء سوراً وآيات. ويقتضي هذا الامتداد في فكرة النظام استنادها إلى عناصر أخرى غير مجرد معنى الاتصال المباشر/التجاور البارز في المناسبة.

ويفترض البحث أنّ الوحدة هي أقوى المعاني التي يحملها النظام لتتضاف إلى الترابط والتقارب المتضمنين في التناسب، وقد تكون هذه هي إضافة الفراهي الجوهرية إلى المناسبة في إطار تطوير التناسب القرآني.

يقول الفراهي: "وبالجملة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيته التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليه أجزاءها".¹ وتعدى معاني الوحدة هذه من السورة إلى القرآن الكريم كله ليكون كالكلية الواحدة، بل وإنها لتنعكس على متلقي القرآن في فهمه له، كتاب الله المنظور، ومنه في فهمه وسلوكه وتعامله مع كتاب الله المسطور، ثم من الأفراد إلى مجموع الأمة تشيع معاني الوحدة وتقل الفرقة والخلاف.

ثم يقول الفراهي أيضاً في كلمة موجزة تشبه القاعدة المعادلة: "وبالجملة فلا بد لحسن النظام من أن يكون الكلام: حسن الترتيب، حسن التناسب، قوي الوحدانية".² وهو ما يمكن التعبير عنه بأن: حسن الترتيب (التسلسل)، وحسن التناسب (الاتصال)، وقوة الوحدة هي أركان النظام المتين.

ومن جهة أخرى، فإنّ فكرة النظام عند الفراهي تتجاوز مجرد وجود "المناسبات" بين الآيات والسور، إلى معنى الوحدة الموضوعية التي تجعل السورة والكلام كله شيئاً واحداً متماسكاً ومتناسقاً، وشاملاً لربط معاني الأجزاء بعضها ببعض ربطاً حكيماً. لذا فأثناء البحث عن المناسبة في ظل نظرية النظام، لا يكتفى بالسؤال عن علة التجاور أو الانتقال بين آيتين أو موضوعين ولكن لابد من السؤال عن المبدأ الجامع المفسر لهذا الانتقال،

¹ نفسه، ص 74.

² دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 76

وهذا ما يجعل المناسبة هنا تكون أعمق وأقوى وأقرب إلى الصحة وأبعد عن التكلف. كما يتأكد عنده بأن معرفة النظام سابقة على استخراج المناسبة لأن النظام مظهر البنية الكلية للسورة، القائمة على عمود موضوعي، وبمعرفة هذا العمود تظهر مناسبات الآيات بسلاسة وتلقائية، كما يتأكد النظام ويزداد وضوحاً من خلال تراكم المناسبات واستقراء هذه الاقترانات. وبهذا، يتطور موضوع علم التناسب القرآني بما يجعل أثره بارزاً في التفسير والتدبر.

الخلاصة أنّ الفراهي لم يقتنع، وهو المفسر الموسوعي المتشبع بعلوم الوحي والمنفتح على كثير من العلوم الإنسانية، وقبل هذا ابن بيته المتنوعة لغة وديناً وثقافة والعالم المتفاعل مع عصره المقدس للعقل والمعرفة والقوة المستعمرة، بإعمال المفسرين السابقين للنسابة، فاعتنى بتجديد مفهومها من خلال نظام القرآن الذي أراد به توسيع مفهوم التناسب في القرآن الكريم والارتقاء به مدخلاً واسعاً إلى تفسير وتدبر كتاب الله تعالى.

وينبغي فهم وصف الفراهي لقصور السابقين في إعمال التناسب القرآني عن بلوغ معنى النظام بعيداً عن كل تنقيص مهما دق من علمائنا السابقين بإحسان الذين لا يتصور غياب مفهوم نظام القرآن عنهم في كليته ولا أغراض السور في عمقها وهم الذين كانوا يعتبرون السياق ويشترطون في المفسر استجماع عدد هائل من العلوم على رأسها الأصول والمقاصد... فأغلب الظن الأمر بمسألة التفاعل مع ظروف ومعطيات تأليف التفسير على اعتبار حاكمية ضابط الحاجة وما هو ثابت في تاريخ العلوم من أنها لا تدون ولا تقعد إلا متى برزت الحاجة لذلك. ومعنى هذا أنّ روح النظام كانت حاضرة بالتأكيد عند المفسرين في كل وقت سواء منهم من ألمح إلى ذلك أو من صرح على استحياء، لكن الفراهي عمل على التقاط هذه الإشارات الخفية والإفادات الذكية ليصوغ منها تصوراً واضحاً لنظرية متكاملة في التناسب والنظام يمكنها الإسهام في تجديد التفسير وتجويد التدبر لكتاب الله الكريم.

المحور الثالث: الأثر التجديدي لنظرية النظام

يعتبر الفراهي نظام القرآن المنهاج الأمثل لفهم وتدبر كتاب الله الكريم،¹ والمفتاح لاستخراج كنوز حكمته،² والمرجع الفاصل عند تضارب الأقوال وتعدد الاحتمالات في فهم معانيه.³

ولذلك فقد أفاض في بيان أهميته وحض على تعلمه وتعليمه للعموم، وجعل معرفته من الضروريات للعلماء لأنه وسيلتهم الوحيدة إلى فهم القرآن وترشيد اختلافهم حوله وجمع كلمة المسلمين عليه.⁴

فذلك يمكن القول بأن الأثر المبتغى من نظرية النظام هو تجديد التفسير من حيث هو بيان لمعاد الله تعالى، وتيسير التدبر لأجل تحقق مقصد الهداية الذي هو أعظم مقاصد نزول القرآن الكريم. هذا ناهيك طبعاً عن الأثر المنهجي في تطوير علم التناسب القرآني من خلال تغيرات التماس المناسبة وفق نظرية النظام، وهو ما يدخل طبعاً في إطار التجديد المنهجي في التفسير من خلال التجديد في علوم القرآن المتصلة به اتصالاً وثيقاً. ومنه سيتم تقسيم جوانب هذا الأثر إلى قسمين كبيرين: الأول حول التأويل والتفسير المتعلق به ضمناً، والثاني التدبر وما يتعلق به من معاني الحكمة...

مراعاة النظام من أصول التأويل والترجيح: كذلك يعتبر الفراهي معرفة النظام من أصول التأويل الأولية، وكذا أصلاً من أصول الترجيح عند الاختلاف. ولا يرى الفراهي بأساً من تعدد النظام، فإن ذلك مما يسوغ فيه كثرة التأويل، إذ لا تضاد في

¹ فاتحة تفسير نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص 3-4.

² دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 31 و 38

³ ذكر سبحاني لمراعاة النظام فوائد عديدة وثمرا طيبة مرتجاة ينظر في بيانها بتفصيل: إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، عمان، ط 1، 1424هـ 2003م ص 106

⁴ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 10 باختصار

كثرة وجوه المناسبة، كما لا تضاد في كثرة وجوه الحكمة في أمر واحد.¹ وفي حال كثرة الأقوال في المناسبة، يعتمد في الترجيح بينها على مراعاة النظام أصلاً أول من أصول التأويل المرحة،² وذلك باختيار الأوفق منها للنظام الذي هو الأقرب لتحقيق وحدة الكلام. أوفقها بالنظام والعمود،³ وهكذا أيضاً كلما وقع الاحتمال أو اختلفت الوجوه والاعتبارات، فيقضى للنظم في معاني الألفاظ، وفي الأوامر والقصص والأحكام كذلك.⁴

ولا بد من الإشارة إلى ملاحظة هامة هنا، وهي أنّ تحقيق الاستفادة المطلوبة من التناسب القرآني يستوجب أول شيء تغيير النظر إليه من اعتباره "مجرد" علم شريف منتهى شرفه الاتصال النسبي المحدود بكتاب الله تعالى، إلى علم أساس له مكانته الكبيرة بين علوم القرآن وضمن علم التفسير خصوصاً.

وهذا هو سبب لوم الفراهي وموضوع انتقاده الشديد للقائلين بالتناسب أن لم ينظروا إليه جزءاً من مفهوم القرآن وركناً من أركانه، ففسد التأويل وكثرت وجوهه.⁵ ولقد قرّر الفراهي أنّ العناية بالنظام من شأنها أن تقي التأويل من الانحراف وتقلل

¹ المرجع نفسه، ص 86-87.

² جعل أصول التأويل ثلاثة: (1) أصول أولية (2) وأصول مرحة (3) وأصول كاذبة ذكرها للاجتنب عنها.

فالأصول الأولية: ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى. والأصول المرحة: يتمسك بها إذا احتمل الكلام معاني مختلفة. فإذا عملنا الأصول المرحة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح.

وجعل الأصل الأول من الأصول الأولية: التمسك بنظم الكلام وسياقه، يقول: "وهذا ليس من المرجمات فإنّ الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورباط معانيه، فإنّ خلل النظم منفي عن كلام العقلاء، فما أبعد عن العقلاء، فما أبعد عن كلام الله المعجز؟ وهذا أصل ظاهر. التكميل في أصول

التأويل، عبد الحميد الفراهي ص 71

³ التكميل في أصول التأويل، عبد الحميد الفراهي، ص 25

⁴ ينظر المرجع نفسه، ص 77 و 78

⁵ ينظر: دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 75.

من كثرة الاختلاف في التفسير وتجمع الأمة على القرآن، لأنّ جلّ اختلاف الآراء في التأويل إنما يكون من عدم التزام رباط الآيات، "وبالنظام يتبين سمت الكلام، وينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيف المحرفين كما قال تعالى: "يُحْرِفُونَ أَلَكِيمَ عَن مَّوَاضِعِهِ" (المائدة:13).¹

نظرية النظام وتيسير التدبير: لا شك أنّ اللغويين والبلاغيين سبقوا مبكراً إلى معرفة النظم مفهوماً عاماً وجانباً من جوانب اللغة مضافاً إلى جانبها الخيالي (المجاز) والشكلي (البديع)،² ودرج المفسرون المتقدمون على اعتبار النظم القرآني وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، انبثقت فكرته من الحاجة إلى المناخفة عن كتاب الله تعالى ودحض الشبهات حوله.³ ثم انتقل الحديث عن النظم القرآني مع المتأخرين من مجرد مدخل للدلالة على الإعجاز إلى الإسهام في وظيفة البيان وإفادة معاني الهداية المتضمنة في كتاب الله تعالى من خلال رعاية نظام القرآن، وهو ما لا يتأتى بغير الاستجابة للأمر الرباني بالتدبير في كتاب الله العزيز الحكيم نظراً في عواقب الأمور ووصلاً بين أصلي الإيمان: العلم والعمل.⁴

والتدبير مطلوب من الجميع عامة وخاصة، وهو ممكن متاح للناس، على تفاوت بينهم، بتوكيد الله تعالى: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ" (القمر: 17). لكن لا عذر للخاصة في ترك التدبير والتوصل به إلى معرفة نظام القرآن المناسب مع نظام الكون، يفقهون التناسب بين النظامين ويجعلون نظام القرآن هادياً لنظام الأكوان،

¹ نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص 19

² ينظر: خصائص النظم القرآني، رياض عميراي، مقال ضمن: مجلة المعيار 43 جانفي 2018 ص 21-22

³ ينظر: إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط دار المعارف، القاهرة، ص 35.

⁴ ترجم الغزالي لاقتراح أصلي الإيمان (العلم والعمل) بقيام القرآن على الجمع بين الجواهر والدرر المنظم كل منهما في سلك واحد على أنّ المقصود من سلك الجواهر: اقتباس أنوار المعرفة فقط. والمقصود من الدرر: هو الاستقامة على سواء الطريق بالعمل. ينظر: جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 2، 1406 هـ-1986 م، ص 85

ويعلمون الناس ويرشدونهم عن بيئة ليحيوا بالقرآن وفي كنف القرآن فيسعدوا في الدنيا والآخرة، وتنهض الأمة وينصلح حالها وبذلك تتحقق الهيمنة لكتاب الله تعالى.

يرى الفراهي أنّ لغة القرآن وأسلوبه يتميزان بالخصوصية، ومن "تدبر في القرآن ونظمه الحكيم اطلع على حسن نظامه وأجاز بلاغته ودقائق حكمته، وفتح عليه باب عظيم من المعاني، وكان على نور عند احتمال التأويلات"¹.

وهكذا جعل الفراهي النظام محل التدبر،² وهو المنهج الصحيح لتدبر القرآن والموصل إلى إدراك حقائقه وتحصيل الحكمة من نزوله.

وبناء على تعدد وجوه النظم، ألمح الفراهي إلى أنحاء ينبغي للمتدبر ملتزم النظام استحضارها، وهي:

- النظم التاريخي: ويعني بها تقارب آياته وسوره في الزمان (مثلاً نزولها قبيل الهجرة أو قبيل الفتح...)، وهو اعتبار بحسب رأيه أخص أدق من تقسيم العلماء للمكي والمدني.³
- النظم العمومي: يقصد به أنّ القاعدة في ترتيب الآيات والسور، اعتبار ما نزل بمكة أصل القرآن، وعليه ينبنى ما نزل منه بالمدينة.⁴ وهي قاعدة نصّ عليها السابقون، ومنهم الشاطبي في "الموافقات"⁵.

¹ دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص 42

² المرجع نفسه، ص 33

³ نفسه، ص 89

⁴ نفسه، ص 91، ويذكر هنا مسألة التحزيب وتقسيم السور إلى مجموعة من الجملات...

⁵ يقول الشاطبي: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في النزول، وإلا لم يصح، والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه، دل على ذلك الاستقراء، وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله" يراجع: الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، 156/4.

نظام القرآن وجه من وجوه الحكمة: ينطلق الفراهي من أنّ النظام هو تجسيد لترتيب بياني محكم في القرآن، حيث إنّ كل ما تقدّم أو تأخّر من الآيات والسور مبني على الحكمة والبلاغة، ورعاية مقتضى الكلام، بحيث لو تم تغيير ترتيب شيء منه لفسد النظام وفسدت بلاغة البيان.

ولما كان معنى الحكمة هو: إعمال الفكر ثم العمل بمقتضى الفكر، فيزداد علماً¹، فإنّ الفراهي قد جعل منها قسيمة كتاب الله العزيز، وذهب في تفسير قول الله تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾" (البقرة: 151) إلى أنّ الله عزّ وجلّ قد بعث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بتعليم الحكم كما بعثه لتعليم الأحكام، وربط التزكية بالحكمة وسماها خيراً كثيراً: فمن غفل عنها وقف دون غاية هذه البعثة وإكمال دينه وتعليم نبيه.

ومعنى هذا أنّ استخراج حكمة القرآن المخبوءة تحت دلالات النظام يتم، بحسب الفراهي، باستعمال مفتاح نظام القرآن الذي من ترك النظر فيه ترك من معنى القرآن معظمه.² وفقه النظام هذا هو الذي يسهل للقراء المتدبرين استخراج درر القرآن الكريم من المعاني والغايات الخفية وراء انتظام سوره وآياته.

شمول نظام القرآن للعلم والعمل والحال: ينطلق الفراهي من أنّ القرآن الكريم يعطي العلم والعمل والحال، وهي أصول الرسالة السماوية، وذلك من خلال حركية تبادلية

¹ الحكمة: "علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية، ... وقد فسر ابن عباس، رضي الله عنهما، الحكمة في القرآن، بتعلم الحلال والحرام، وقيل: الحكمة في اللغة: العلم مع العمل، وقيل: هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاه، ولذا انقسمت إلى العلمية والعملية". الجرجاني، "التعريفات"، ط 1 دار الكتب العلمية، بيروت، 1403 هـ-1983 م، ص 91 باختصار

² ينظر الفراهي، "دلائل النظام"، ص 33 وص 38

وتداخلية بين العناصر الثلاثة، تعكس الانسجام والتناسب والحكمة المتعالية¹ في تحقيق التوازن بين حركة العقل وحركة الجسد ونسق الأخلاق (الحال)، وهذه العناصر ليست منفصلة، بل إن بعضها يتحول إلى بعض عند الفراهي، كما أن جملة الخبر تتحول إلى الأمر والإنشاء، وهكذا بعضها إلى بعض، فقوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" يعطيك حالة الشكر، (الرحمن الرحيم) يعطيك حسن الظن بالله علماً وحالاً، و(مالك يوم الدين) يعطيك حال التوكل والطمأنينة إلى ربك، ثم انظر في حسن النظم: أول المعرفة هو العلم بالنعم، وأول الفرائض الشكر، ومن هاهنا ينشأ العلم بكون الخالق رحماً ورحيماً، وتكرار الرحمة تبه على رحمة تكون على الشاكرين، فبه على الجزاء وحث على الدعاء... وغاية التضرع، التفويض والتوكل، ولكن ما أحسن التوكل بعد حسن الظن، ولحسن رباط هذه الآيات وجوه أخر².

وهكذا فإن سورة الفاتحة لا تجسد فقط صلب المهدي الإلهي للإنسانية من خلال التوجيه العلي والعملي والأخلاقي في اتصال واتساق، وإنما تربي الإنسان عملياً بشكل يومي وفي كل صلاة على التأمل في نظام القرآن الذي هو نظام الديانة عند الفراهي³.
خاتمة: للفراهي باع طويل في علم المناسبة، فقد كان مبدعاً لم يقبل الاكتفاء بالتقليد والاقتصار على استخراج ما تيسر من مناسبات جزئية، وإنما آمن بالتناسب القرآني

¹ تبه الفراهي إلى العلاقة بين الحكمة والتعالى في فصل (النظم يهدي إلى الحكمة)، يقول: "ولولا ذلك لما جعل الله نظام كلامه محل التدبر والتفكر، فأما كونه موقع التدبر والتفكر فبسوط في موضعه، وإنما المقصود هنا أن الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة ويرشدهم للملكة هي أصل العلم والمعرفة لا نفس المعلومات، فإنها متحصرة محدودة، ثم العلم بها ليس في شيء من ملكة هي المقصود، وقد أشار إلى كون القرآن (علياً) لاشتماله على الحكمة حيث قال تعالى: "وَأِنَّهُ فِي لَمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ" (الزخرف:3). دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص33.

² دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص105-106.

³ عقد الفراهي فصلاً بعنوان "في نظم القرآن دليل على نظم الديانة كلها"، ينظر: دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص34.

مشروعاً كبيراً وهبه من عمره زمناً طويلاً، اعتكف فيه على تدبر كتاب الله المسطور لإبراز نظامه المتين المتجاوز لآحاد المناسبات والمتصل بنظام الكون المنظور المتناغم إيماناً منه بالله العليم الحكيم. وهكذا فقد عمل الفراهي على تطوير وتعميق القول برعاية النظام، فجعل منه فناً مستقلاً قائماً على أصول راسخة وقواعد واضحة تجمع بين أساليب القرآن وقواعد اللسان، بغرض تأهيله ليكون مدخلاً من مداخل التفسير ومفتاحاً من مفاتيح التدبر يبين معاني القرآن ويكشف أسرارها ليتيسر الانتفاع به علماً وعملاً.

إذا كان السابقون بحثوا المناسبة لإثبات إعجاز لغة القرآن الكريم دفاعاً عن الوحدة ودفعاً للتناقض المزعوم مما جعل تناوله جزئياً، فإنَّ جهد الفراهي قد انصبَّ على بلورة نظرية نظام القرآن التي تمكن من إبراز الوحدة الكلية في القرآن من أوله إلى آخره، وتتيح التجاوز إلى أفق ورحابة الدلالة القرآنية المتجددة بتجدد صور إدراكها، والتحرر من سجن الدفاع وردّ الفعل إلى المبادرة بالفعل حفظاً للمقصد الأصيل، وهو الوظيفة والجدوى ورسالة الهداية الإنسانية علماً وعملاً وحالاً.

- إنَّ تطور الاشتغال بالتناسب القرآني من الاقتصار على بحث المناسبات الجزئية عند السابقين إلى قصد التماس النظام الكلي للقرآن الكريم عند الفراهي وتوسيع تطبيقاته عند تلامذة مدرسته وعلى رأسهم أمين الإصلاح ونظام السبحاني، هو أقوى دليل يثبت قابليته للتطور ويبرهن على إمكان اعتباره مدخلاً حقيقياً لفهم القرآن الكريم والانتفاع به، وتنزيل هداياته في حياة الانسان عملاً بقاعدة صلاحيته لكل زمان ومكان، والتي لا تتحقق بغير قانون التجديد الذي سنه الله تعالى منزله للعالمين رسالة خاتمة وعد بحفظها إلى يوم الدين.

لائحة المراجع

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
2. الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
3. أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1419هـ-1997م.
4. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط دار المعارف، القاهرة، د.ت.
5. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ"نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، عبد الحي الحسني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م.
6. أفلا يتدبرون القرآن معالم منهجية في التدبر والتدبير، طه جابر العلواني، ط دار السلام، 2010م.
7. الإمام البقاعي ومنهجه في تأويل بلاغة القرآن، محمود توفيق سعد، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1424هـ.
8. إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، عمان، ط1، 1424هـ-2000م
9. إمعان في أقسام القرآن، عبد الحميد الفراهي، سيد سليمان الندوي، دار القلم، دمشق، ط1، 1415هـ.
10. البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، دار الكتبي، ط1، 1414هـ-1994م.
11. البرهان في تناسب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفني

- الغرناطي، تحقيق: محمد شعبان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1410هـ-1990م.
12. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ-1983م
13. التكميل في أصول التأويل، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: محمد سميع مفتي، دون تاريخ، ودون دار نشر.
14. التناسب في تفسير الإمام الرازي، منال مبطي، دراسة في أسرار الاقتران، منال مبطي حامد المسعودي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1431هـ-2010م. أصله رسالة دكتوراه، إشراف: محمد محمد أبو موسى، جامعة أم القرى، 2010م.
15. جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1406هـ-1986م.
16. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، 1984م.
17. دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، المطبعة الحميدية، 1388هـ-1968م.
18. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين ، بيروت 1407هـ-1987م.
19. العثمانية ضمن مجموع رسائل الجاحظ، تح عبد السلام هارون، ط1.
20. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ، بيروت ط3، 1414هـ.
21. مجلة المنار، رشيد رضا، عدد شهر صفر، عام 1327هـ
22. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، مكتبة المعارف-الرياض. ط1، 1408هـ-1987م.
23. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت.

24. مفاتيح الغيب، نخر الدين محمد بن عمر الرازي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420 هـ.
25. مفردات القرآن، الفراهي، تحقيق: أجمل الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م.
26. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، القاهرة، ط1، 1417 هـ 1997م.
27. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، الهند، 2000م.
28. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
29. المقالات:
30. الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)، محمد يوسف الشربجي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 20، ع2، 2004م.
31. خصائص النظم القرآني، رياض عميراي، مقال ضمن: مجلة المعيار 43 جانفي 2018م.
32. علم التناسب القرآني أو أسئلة البلاغة المنسية، البتول بلودن، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع18 س2025م.

معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم

عند الإمام عبد الحميد الفراهي

- أ.د. محمد محمود عبدالقادر¹

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي، أحد أبرز رواد التجديد في الدراسات القرآنية في العصر الحديث، من خلال تحليل الأسس اللغوية والمنهجية التي اعتمدها في تفسيره، ولا سيما في كتابه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". وينطلق البحث من فرضية مفادها أن الفراهي قد أسس منهجاً لغوياً متكاملًا يقوم على مركزية السياق والنظم القرآني ووحدة السورة، رافضاً التفسير الجزئي أو القائم على التكلف. وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مع تحليل نماذج تفسيرية تطبيقية، للكشف عن دور الدلالة اللغوية والقرائن السياقية في ضبط المعنى القرآني. وتوصل البحث إلى أن منهج الفراهي يمثل إضافة علمية رصينة في مجال التفسير اللغوي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: التفسير اللغوي - القرآن الكريم - عبد الحميد الفراهي - النظم القرآني - السياق.

المقدمة

يحظى التفسير اللغوي للقرآن الكريم بمكانة راسخة في التراث الإسلامي، بوصفه المدخل الأصيل لفهم النص القرآني واستكشاف دلالاته، ذلك أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين، وجعل الله تعالى اللغة العربية وعاءً لمعانيه، وأداةً لفهم

¹ أستاذ اللغويات (النحو- الصرف- العروض) ورئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، كلية التربية- جامعة 6 أكتوبر- مصر

مقاصده وهداياته. ومن ثمّ، فإنّ العناية بالجانب اللغوي في تفسير القرآن ليست ترفاً علمياً، وإنما ضرورة منهجية يقتضيها التعامل مع نص معجز في بيانه ونظمه ودلالته.

وقد شهد التفسير اللغوي تطوراً ملحوظاً عبر العصور، بدءاً من جهود الصحابة والتابعين في بيان معاني الألفاظ، مروراً بمدارس النحو والبلاغة، وانتهاءً بمحاولات التجديد المنهجي في العصر الحديث، التي سعت إلى تجاوز التفسير الجزئي أو الانتقائي للنص القرآني، والعودة إلى النص ذاته بوصفه وحدة لغوية متماسكة. وفي هذا السياق، يبرز الإمام عبد الحميد الفراهي بوصفه أحد أبرز رواد التجديد في الدراسات القرآنية، حيث أسس منهجاً تفسيرياً قائماً على اللغة والسياق والنظم، ومتحرراً من كثير من القيود التي فرضتها مناهج النقل المجرد أو الروايات غير المنضبطة.

وقد مثل كتابه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" منعطفاً مهماً في مسار التفسير اللغوي، إذ قدّم فيه رؤية متكاملة لفهم القرآن الكريم من الداخل، معتمداً على تحليل البنية اللغوية للنص، والكشف عن العلاقات الدلالية بين الآيات، وإبراز وحدة السورة وموضوعها المحوري. ولم يكن الفراهي في ذلك مجرد شارح للألفاظ، بل كان لغوياً ناقدًا، يتعامل مع النص القرآني بوصفه خطاباً متماسكاً تحكمه قوانين اللغة العربية وسننها في الاستعمال.

وتتبع أهمية دراسة معايير التفسير اللغوي عند الإمام الفراهي من كونها تسهم في ضبط الفهم القرآني، والكشف عن الأسس العلمية التي اعتمدها في تفسيره، فضلاً عن إبراز أثر هذا المنهج في تجديد الدراسات التفسيرية المعاصرة، ولا سيما في ظل الحاجة الملحة إلى مناهج تفسيرية منضبطة تجمع بين أصالة التراث ووعي الحداثة.

مشكلة البحث: تنطلق مشكلة هذا البحث من التساؤل الرئيس الآتي:

ما المعايير اللغوية التي اعتمدها الإمام عبد الحميد الفراهي في تفسير القرآن الكريم، وكيف أسهمت هذه المعايير في ضبط المعنى القرآني وتقديم قراءة تفسيرية منسجمة

مع نظام النص وسياقه؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيس عدد من التساؤلات الفرعية، من أبرزها:

- ما مفهوم التفسير اللغوي عند الإمام الفراهي؟
- ما الأسس النظرية والمنهجية التي قام عليها تفسيره؟
- كيف وظّف الفراهي السياق والنظم والدلالة في فهم النص القرآني؟
- ما أثر هذه المعايير في تجديد الدراسات التفسيرية المعاصرة؟
- أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف العلمية، من أهمها:
- بيان مفهوم التفسير اللغوي عند الإمام عبد الحميد الفراهي.
- تحديد المعايير اللغوية التي اعتمدها في تفسير القرآن الكريم.
- تحليل الأسس الدلالية والسياقية في منهجه التفسيري.
- إبراز القيمة العلمية لمنهج الفراهي في الدراسات القرآنية.
- الإسهام في توجيه الباحثين إلى الاستفادة من المنهج اللغوي في التفسير المعاصر.
- أهمية البحث: تجلّي أهمية هذا البحث في عدة جوانب، من أبرزها:
- إبراز نموذج تفسيري لغوي رصين يعتمد على النص القرآني ذاته.
- الإسهام في تجديد مناهج التفسير اللغوي المعاصر.
- تعزيز الدراسات التي تعنى بالسياق والنظم القرآني.
- تقديم دراسة علمية محكمة صالحة للنشر في مجلة دولية متخصصة.
- منهج البحث وحدوده: اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال:

- وصف منهج الإمام الفراهي في التفسير اللغوي.
 - تحليل نصوص مختارة من كتاب نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.
 - استقراء المعايير اللغوية المعتمدة في تفسيره.
 - الاستعانة بالمراجع اللغوية والتفسيرية الأصيلة.
- وقد اقتصر البحث على دراسة الدلالة اللغوية والقرائن السياقية في تفسير الفراهي، دون التوسع في الجوانب العقديّة أو الفقهيّة، التزاماً بحدود الموضوع وأهدافه.

المبحث الأول: التفسير اللغوي مفهومه ونشأته وتطوره

يُعدّ التفسير اللغوي للقرآن الكريم أحد أقدم مناهج تفسير النص القرآني وأكثرها رسوخاً، إذ يقوم على ردّ المعنى إلى أصوله اللغوية، واستنطاق دلالة الألفاظ والتراكيب في ضوء سنن العربية وأساليبها. وقد ارتبط هذا المنهج منذ نشأته الأولى بسلامة الفهم القرآني، لأنّ اللغة هي الواسطة الأولى بين النص الإلهي والمتلقي، ولا يمكن تجاوزها في إدراك المعنى أو استنباط الدلالة.

أولاً: مفهوم التفسير اللغوي: يُقصد بالتفسير اللغوي للقرآن الكريم تفسيرُ ألفاظه وتراكيبه ودلالاته اعتماداً على أصول اللغة العربية من نحو وصرف واشتقاق وبلاغة، مع مراعاة السياق الذي تردّ فيه الألفاظ، وما يحيط بها من قرائن لفظية ومعنوية. وقد قرّر علماء علوم القرآن أنّ فهم القرآن لا يتحقق إلا بإتقان العربية؛ لأنّ "القرآن نزل بلسان العرب وعلى أساليب كلامهم"¹ (السيوطي، 2008).

ويُفهم من كلام السيوطي أنّ التفسير اللغوي لا يقتصر على شرح المفردات، بل يشمل فهم النظم والأسلوب، وهو ما أكّده الزركشي حين عدّ علم العربية أصلاً من

¹ السيوطي، 2008، ج 1، ص 21.

أصول التفسير، وقرّر أنّ الخطأ في اللغة يؤدي بالضرورة إلى الخطأ في التفسير.¹ (الزركشي، 1999).

ويذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ المعنى في النص لا يُدرك من اللفظ مفرداً، وإنما من خلال علاقته بما حوله، وهو ما يُعرف بالنظم، حيث تتحدد الدلالة من خلال ترتيب الألفاظ وعلاقتها السياقية، لا من خلال المعجم وحده² (الجرجاني، 1992). وهذا التصور النظري شكّل أساساً مهماً للتفسير اللغوي في صورته المتقدمة.

ثانياً: نبذة عن نشأة التفسير اللغوي وتطوره عبر العصور:

1. التفسير اللغوي في العصر الأول: بدأ التفسير اللغوي مع الصحابة رضوان الله عليهم، حين كانوا يفسرون غريب القرآن ويردّون ألفاظه إلى معهود العرب في كلامهم، مستشهدين بالشعر الجاهلي عند الحاجة. وقد كان ابن عباس من أكثر الصحابة عناية بهذا اللون من التفسير، حتى لُقّب بـ"ترجمان القرآن"³ (السيوطي، 2008).

2. التفسير اللغوي عند النحاة والبلاغيين: مع نشأة علوم العربية، اتخذ التفسير اللغوي طابعاً علمياً أكثر دقة، فظهر في تفاسير علماء اللغة، مثل: تفسير الفراء في معاني القرآن، وتفسير الزمخشري في الكشاف. حيث اعتمد هؤلاء على التحليل النحوي والبلاغي في بيان المعنى، مع تركيز واضح على التراكيب والأساليب. وقد أفاد الزمخشري من علوم البلاغة في إبراز الإعجاز البياني للنص القرآني، وإن أخذ عليه أحياناً تغليب الصناعة اللغوية على المقصد الكلي للنص⁴ (الزركشي، 1999).

3. التفسير اللغوي في الدراسات الحديثة: في العصر الحديث، ظهرت محاولات

¹ الزركشي، 1999، ج 1، ص 35.

² الجرجاني، 1992، ص 40.

³ السيوطي، 2008، ج 1، ص 27.

⁴ الزركشي، 1999، ج 1، ص 36.

لتجديد التفسير اللغوي، تجاوزت حدود الإعراب والبلاغة الجزئية، واتجهت إلى دراسة النص القرآني بوصفه وحدة متكاملة. وفي هذا السياق، يبرز منهج الإمام عبد الحميد الفراهي، الذي أعاد الاعتبار لمفهوم النظم القرآني، وربط التفسير اللغوي بالسياق العام للسورة، لا بالآية المفردة فقط¹ (الفراهي، 2008).

ثالثاً: ضوابط التفسير اللغوي عند العلماء: لم يقتصر علماء علوم القرآن على عدد محدود من ضوابط التفسير اللغوي، بل توزعت هذه الضوابط في ثنايا كتب التفسير وعلوم القرآن واللغة، غير أنه يمكن - حصر أبرزها في اثني عشر معياراً رئيساً تمثل الإطار المنهجي الأشمل للتفسير اللغوي المنضبط، وهي معايير متكاملة، لا يعمل بعضها بمعزل عن بعض. ولك على النحو الآتي:

1. مراعاة الاستعمال العربي الفصيح زمن التنزيل: يُشترط في التفسير اللغوي أن يُجمل اللفظ القرآني على ما تعارف عليه العرب في كلامهم زمن النزول، لا على معانٍ حادثة أو اصطلاحات لاحقة؛ لأنّ القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم. وقد نصّ السيوطي على أنّ الجهل بلغة العرب سبب رئيس في الخطأ في التفسير.² (السيوطي، 2008).
2. ردّ الألفاظ إلى أصولها الاشتقاقية: يعدّ الاشتقاق من أهم وسائل ضبط الدلالة، إذ يكشف عن المعنى المحوري الذي تدور حوله استعمالات اللفظ. وقد قرّر ابن فارس أنّ معرفة أصل الكلمة تُعين على فهم معناها الصحيح.³ (ابن فارس، 1991).
3. مراعاة السياق القريب والبعيد: لا يجوز تفسير اللفظ أو الآية بمعزل عن سياقها؛ لأنّ السياق هو الضابط الأهم لتحديد المعنى. وقد أكد الزركشي أنّ إهمال السياق يؤدي إلى فساد الفهم، وأنّ الآيات يفسّر بعضها بعضاً.⁴ (الزركشي، 1999).

¹ الفراهي، 2008، ص 30

² السيوطي، 2008، ج 1، ص 122

³ ابن فارس، 1991، ج 1، ص 6

⁴ الزركشي، 1999، ج 1، ص 36

4. اعتبار النظم والتركيب لا المفردة وحدها: المعنى في القرآن ليس قائماً على المفردات منعزلة، بل على علاقاتها التركيبية داخل الجملة والنص. وقد أصل عبد القاهر الجرجاني هذا المبدأ في نظريته في النظم، وجعل المعنى تابعاً للعلاقات بين الألفاظ.¹ (الجرجاني، 1992).

5. مراعاة القرائن اللفظية: تشمل القرائن اللفظية مظاهر التركيب مثل التقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتنكير، وكلها عناصر تؤثر في توجيه الدلالة. وقد اعتنى الزمخشري بهذه القرائن في تفسيره اعتماداً على البلاغة العربية.² (الزمخشري، 2009).

6. مراعاة القرائن المعنوية: ويقصد بها ما يتعلق بمقاصد السورة، والموضوع العام للنص، والعلاقات المعنوية بين الآيات. وقد جعل الإمام عبد الحميد الفراهي هذه القرائن أساساً لفهم المعنى القرآني، وعدّها جزءاً من النظام الداخلي للنص.³ (الفراهي، 2008).

7. الجمع بين الدلالة المعجمية والسياقية: لا يكفي الرجوع إلى المعجم وحده، بل يجب الجمع بين الدلالة المعجمية والدلالة السياقية؛ لأنّ المعنى يتحدد بالاستعمال لا بالقاموس فقط. وقد أكد الراغب الأصفهاني هذا الأصل في مفردات ألفاظ القرآن.⁴ (الأصفهاني، 2009).

8. عدم إخراج اللفظ عن حقيقته إلا بدليل: الأصل حمل اللفظ على الحقيقة، ولا يُصار إلى المجاز إلا بقريئة معتبرة. وقد قرّر السيوطي أنّ التوسع في المجاز دون دليل يفتح باب التحريف في التفسير.⁵ (السيوطي، 2008).

¹ الجرجاني، 1992، ص 47

² الزمخشري، 2009، ج1، ص 5

³ الفراهي، 2008، ص 23-25

⁴ الأصفهاني، 2009، ص 8

⁵ السيوطي، 2008، ج1، ص 178

9. مراعاة تنوع الأساليب القرآنية: يجب مراعاة اختلاف الأسلوب القرآني بين الخبر والإنشاء، والمجاز والقصص، والوعد والوعيد، لأنّ لكل أسلوب دلالة الخاصة. وقد فصل الزرقاني هذا المبدأ في حديثه عن أساليب القرآن.¹ (الزرقاني، 2002).

10. سلامة المعنى من التكلف والتعسف: من ضوابط التفسير اللغوي رفض التأويلات المتكلفة التي لا يسندها السياق ولا الاستعمال العربي. وقد شدّد ابن تيمية على أنّ التكلف في التفسير خروج عن المنهج العلمي الصحيح. (ابن تيمية، 2005، ص 35).

11. عدم معارضة التفسير اللغوي للمحكمات: لا يجوز أن يؤدي التفسير اللغوي إلى معنى يصادم المحكمات أو كليات القرآن؛ لأنّ النص القرآني يفسّر في ضوء بعضه بعضاً. وقد قرّر الشاطبي هذا الأصل ضمن قواعد فهم النص الشرعي.² (الشاطبي، 2004).

12. مراعاة وحدة السورة والموضوع: يعدّ هذا المعيار من أبرز ما تميّز به الإمام عبد الحميد الفراهي، حيث قرّر أنّ لكل سورة موضوعاً محورياً تنتظم حوله آياتها، وأنّ فهم هذا المحور ضروري لضبط المعنى اللغوي للآيات.³ (الفراهي، 2008).

يتضح من العرض السابق أنّ التفسير اللغوي المنضبط يقوم على منظومة معيارية متكاملة، تتمثل حصيلة جهود علماء اللغة وعلوم القرآن، وقد جاء الإمام عبد الحميد الفراهي ليفعل هذه المعايير جميعاً في مشروع تفسيري واحد، مع إعلاء شأن السياق والنظم ووحدة السورة، وهو ما سيظهر جلياً في المباحث التطبيقية اللاحقة.

وقد مثلت هذه الضوابط الإطار النظري الذي انطلق منه الإمام عبد الحميد الفراهي، غير أنه طوّرها ووسّع من دائرتها، فجعلها أساساً لمنهج تفسيري متكامل، وهو ما سنتناوله المباحث اللاحقة.

¹ الزرقاني، 2002، ج 2، ص 15

² الشاطبي، 2004، ج 3، ص 347

³ الفراهي، 2008، ص 31

ومن ثمّ، فإنّ التفسير اللغوي للقرآن الكريم ليس مجرد بيان لمعاني المفردات، بل هو منهج علمي متكامل يقوم على فهم اللغة في سياقها، والنظر إلى النص القرآني بوصفه بنية لغوية متماسكة. وقد شكّل هذا الإطار المفاهيمي الأساس الذي بنى عليه الإمام عبد الحميد الفراهي مشروعه التفسيري، مع إضافة بعدٍ جديدٍ يتمثل في التركيز على وحدة السورة والنظم القرآني.

المبحث الثاني: الإمام عبد الحميد الفراهي: حياته ومنهجه العلمي

لا يمكن الوقوف على معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي دون التعرف إلى شخصيته العلمية، وتكوينه المعرفي، ومصادره الفكرية؛ إذ إنّ المنهج التفسيري عنده لم يكن نتاج معالجة جزئية، بل ثمرة مشروع علمي متكامل، تشكل عبر مسار طويل من الدراسة اللغوية والقرآنية، في بيئة علمية شهدت تفاعلاً بين التراث الإسلامي وواقع شبه القارة الهندية.

أولاً: ترجمة الإمام عبد الحميد الفراهي: هو عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي، وُلد سنة 1280هـ/1863م في قرية فريها بمحافظة أعظم كره في الهند، وإليها يُنسب. نشأ في أسرة علمية، وبرزت ميوله العلمية المبكرة إلى دراسة اللغة العربية وعلوم القرآن، حتى عدّ من كبار علماء العربية في الهند في عصره.¹ (الشربجي، 2004).

تلقى الفراهي علومه الأولى في المدارس التقليدية، ثم واصل تعليمه على أيدي عدد من العلماء البارزين، وتأثر بوجه خاص بالمدرسة الإصلاحية التي دعت إلى العودة إلى القرآن الكريم مصدراً أول للفهم، ونبت التقليد الجامد. وقد عرّف بسعة اطلاعه على علوم اللغة العربية، وإتقانه للنحو والصرف والبلاغة، إلى جانب معرفته بالشعر العربي الجاهلي، الذي عدّه مرجعاً أساساً لفهم الاستعمال العربي الصحيح.² (المدهد، 2025).

¹ الشربجي، 2004، ص 462

² المدهد، 2025 مجلة الهند، 14(1)، 89-55.

توفي الإمام عبد الحميد الفراهي سنة 1349هـ/1930م،¹ (الشربجي، 2004). بعد أن خلف تراثاً علمياً مهماً، كان له أثر بالغ في الدراسات القرآنية في الهند وخارجها. ثانياً: مؤلفات الإمام الفراهي ومكانتها العلمية: خلف الإمام الفراهي عدداً من المؤلفات، كان محورها الأساس القرآن الكريم ولغته ونظمه، ومن أبرزها:

- 1- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: وهو أهم كتبه، وفيه عرض منهجه التفسيري القائم على فكرة النظم ووحدة السورة، وبين فيه أنّ القرآن كتاب واحد في موضوعه وبنائه، لا مجموعة متفرقة من الآيات.² (الفراهي، 2008).
- 2- مفردات القرآن: وهو معجم دلالي قرآني، يعنى بتتبع دلالات الألفاظ القرآنية في ضوء الاستعمال العربي والسياق القرآني، متأثراً في ذلك بمنهج الراغب الأصفهاني، مع إضافات نقدية واضحة (الفراهي، د.ت).
- 3- رسائل ودراسات لغوية متفرقة: تناول فيها قضايا في النحو والدلالة والبلاغة، وكان لها أثر في تلامذته ومن جاء بعده.

وقد حظيت هذه المؤلفات بعناية الباحثين، وعدّها عدد من الدارسين نقطة تحول في التفسير اللغوي المعاصر في شبه القارة الهندية.³ (المهدد، 2025).

ثالثاً: مصادر الإمام الفراهي اللغوية والتفسيرية: اعتمد الإمام الفراهي في مشروعه التفسيري على مصادر أصيلة، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة محاور رئيسة:

1. مصادر اللغة العربية: استفاد الفراهي من التراث اللغوي العربي، ولا سيما: معاجم اللغة، مثل مقاييس اللغة لابن فارس، وكتب الدلالة، مثل مفردات ألفاظ القرآن للراغب

¹ الشربجي، 2004، ص 462

² الفراهي، 2008، ص 21

³ مجلة الهند، 14 (1)، 55-89

الأصفهاني، والشعر العربي الجاهلي، بوصفه شاهداً على الاستعمال العربي الصحيح. وقد أكد الفراهي أنّ إهمال الشعر الجاهلي يؤدي إلى قصور في فهم دلالة الألفاظ القرآنية.¹ (الفراهي، 2008).

2. مصادر علوم القرآن: أفاد الفراهي من كتب علوم القرآن، مثل: البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي إلا أنه لم يلتزم بها التزاماً تقليدياً، بل أعاد قراءة كثير من قضاياها في ضوء منهجه القائم على النظم والسياق.² (الشربجي، 2004).

3. مصادر البلاغة والنظم: يلاحظ التأثير الواضح للفراهي بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ولا سيما في ربط المعنى بالعلاقات التركيبية، غير أنّ الفراهي وسّع هذا المفهوم ليشمل النظم على مستوى السورة كاملة، لا الجملة فقط.³ (الجرجاني، 1992؛ الفراهي، 2008).

رابعاً: منح الإمام الفراهي في تفسير القرآن الكريم: يقوم منهج الفراهي في التفسير على عدد من الأسس المنهجية، من أبرزها ما يأتي:

1. مركزية اللغة العربية في فهم النص القرآني، واعتبارها المدخل الأول للتفسير.
2. الاعتماد على السياق الداخلي للنص، ورفض التفسير المجتزأ.
3. القول بوحدة السورة وموضوعها المحوري، وهو ما يُعرف بـ"عمود السورة".
4. نقد التفسير القائم على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة.
5. تقديم القرآن لتفسير القرآن، من منظور أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، ثم اللغة،

¹ الفراهي، 2008، ص 19

² الشربجي، 2004، ص 462

³ الجرجاني، 1992، ص 48- الفراهي، 2008، ص 20

ثم السنة الصحيحة.

وقد صرح الفراهي بأن كثيراً من الخلافات التفسيرية ناتج عن إهمال السياق والنظم، لا عن غموض في النص ذاته.¹ (الفراهي، 2008).

خامساً: موقف الإمام الفراهي من المناهج التفسيرية التقليدية: لم يكن الفراهي رافضاً للتراث التفسيري، لكنه كان ناقداً لمنهج التلقي غير المنضبط. فقد انتقد بعض التفاسير المعتمدة على:

1. الاكتفاء بالإعراب دون اعتبار المقصد.

2. التوسع في المجاز بلا قرينة.

3. الاعتماد على الروايات دون تحييص لغوي وسياقي.

ويرى أنّ هذه الممارسات أدت إلى تفكك المعنى القرآني، وإلى تفسير الآيات بمعزل عن وحدتها النصية.² (الشربجي، 2004).

ومن ثمّ، فإنّ الإمام عبد الحميد الفراهي شخصية علمية موسوعية، جمع بين التمكن من علوم اللغة العربية والوعي العميق بعلوم القرآن، وأسس منهجاً تفسيرياً لغوياً متكاملًا، يقوم على النظم والسياق ووحدة السورة. وقد مثل هذا المنهج إضافة نوعية في الدراسات القرآنية المعاصرة، ومهد الطريق لتطوير التفسير اللغوي في إطار أكثر انسجاماً مع طبيعة النص القرآني.

المبحث الثالث: معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي

يمثل هذا المبحث جوهر الدراسة؛ إذ يُعنى بتحليل المعايير اللغوية التي أسس عليها الإمام عبد الحميد الفراهي منهجه في تفسير القرآن الكريم، وهي معايير لم تأت في

¹ الفراهي، 2008، ص 27

² الشربجي، 2004، ص 465

صورة قواعد نظرية مجردة، بل تجلّت في تطبيقاته التفسيرية داخل كتابه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". وقد قام منهجه على ردّ المعنى القرآني إلى أصوله اللغوية والسياقية، في إطار رؤية شاملة تعتبر السورة وحدة دلالية متكاملة، وتُخضع فهم الآية للنظم العام للنص وفيما يأتي بيان ذلك.

أولاً: معيار السياق القرآني: يعدّ السياق عند الفراهي الضابط الأول للمعنى، وهو لا يقتصر على الجملة أو الآية، بل يشمل السورة كاملة، بل مجموعة السور المتقاربة في الموضوع. وقد صرّح الفراهي بأنّ إهمال السياق هو السبب الرئيس في اختلاف المفسّرين واضطراب معانيهم.¹ (الفراهي، 2008).

ويؤكد أنّ اللفظ الواحد قد تتعدد دلالاته بحسب السياق، ولا يجوز حمله على معنى واحد ثابت بمعزل عن موقعه من النظم العام للنص، وهو ما ينسجم مع ما قرره الزركشي من أنّ الآيات يفسّر بعضها بعضاً، وأنّ السياق قرينة لا غنى عنها في الفهم.² (الزركشي، 1999).

ثانياً: معيار النظم القرآني ووحدة السورة: من أبرز ما تميّز به الإمام الفراهي تأسيسه لمفهوم النظم القرآني، حيث يرى أنّ لكل سورة موضوعاً محورياً تُبنى عليه آياتها، وأنّ هذا الموضوع يمثل ما يُسمّيه بـ"عمود السورة". ويقول في هذا السياق ما مؤداه أنّ القرآن ليس مجموعة آيات متناثرة، بل كتاب منظم في سوره وآياته انتظاماً محكماً.³ (الفراهي، 2008).

ويعدّ هذا المفهوم امتداداً لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، غير أنّ الفراهي وسّعها من مستوى الجملة إلى مستوى السورة كاملة، فجعل فهم التراكيب

¹ الفراهي، 2008، ص 27

² الزركشي، 1999، ج 1، ص 36.

³ الفراهي، 2008، ص 23

الجزئية تابعاً للبنية الكلية للنص.¹ (الرجاني، 1992).

ثالثاً: معيار الدلالة اللغوية الأصيلة: يعتمد الفراهي على الدلالة اللغوية الأصيلة للكلمة في الاستعمال العربي الفصيح، مع ردّ الألفاظ إلى أصولها الاشتقاقية، والاستفادة من الشعر الجاهلي بوصفه مرآة للاستعمال العربي الصحيح. وقد أكد أنّ إهمال الاشتقاق أو الاستعمال العربي يؤدي إلى تشويه المعنى القرآني.² (الفراهي، 2008، ابن فارس، 1991).

رابعاً: معيار القرائن اللفظية: تحتل القرائن اللفظية موقعاً مهماً في تفسير الفراهي، إذ يعنى بتتبع مظاهر التقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتكثير، وربطها بالدلالة السياقية للنص. ويتفق في ذلك مع ما قرره الزمخشري في الكشف من أنّ كثيراً من أسرار المعنى لا تُدرك إلا من خلال هذه الظواهر الأسلوبية (الزمخشري، 2009).

خامساً: معيار القرائن المعنوية: لا يقف الفراهي عند حدود القرائن اللفظية، بل يتجاوزها إلى القرائن المعنوية المتصلة بمقاصد السورة وموضوعها العام، ويرى أنّ هذه القرائن هي التي تضبط حركة المعنى داخل النص، وتمنع من التفسير المجتزأ أو المبتور.³ (الفراهي، 2008).

سادساً: معيار الجمع بين الدلالة المعجمية والسياقية: ينتقد الفراهي الاقتصار على المعنى المعجمي، ويؤكد ضرورة الجمع بين دلالة المعجم ودلالة السياق، وهو ما يلتقي فيه مع الراغب الأصفهاني الذي قرّر أنّ دلالة اللفظ لا تُفهم إلا من خلال استعماله في النص القرآني ذاته.⁴ (الأصفهاني، 2009).

¹ الرجاني، 1992، ص 49.

² الفراهي، 2008، ص 19؛ ابن فارس، 1991

³ الفراهي، 2008، ص 25

⁴ الأصفهاني، 2009، ص 35

سابعاً: معيار سلامة المعنى من التكلف: يرفض الفراهي التأويلات المتكلفة التي لا يسندها السياق ولا الاستعمال العربي، ويرى أنّ كثيراً من الخلافات التفسيرية مردّها إلى التكلف في استخراج المعاني، وهو ما يتفق مع ما قرره ابن تيمية من أنّ التكلف في التفسير خروج عن المنهج العلمي.¹ (ابن تيمية، 2005).

ثامناً: معيار عدم معارضة التفسير للمحكّمات: يشدّد الفراهي على أنّ التفسير اللغوي لا يجوز أن يُفرضي إلى معنى يصادم المحكّمات أو كليات القرآن، بل يجب أن يفهم النص في ضوء بعضه بعضاً، وهو أصل أقره الشاطبي في حديثه عن كليات الشريعة ومقاصدها.² (الشاطبي، 2004).

تاسعاً: معيار مراعاة تنوع الأساليب القرآنية: يراعي الفراهي اختلاف الأساليب القرآنية بين الخبر والإنشاء، والحجاج والقصص، ويرى أنّ لكل أسلوب دلالة الخاصة التي ينبغي مراعاتها عند التفسير، وهو ما فصله الزرقاني في حديثه عن أساليب القرآن.³ (الزرقاني، 2002).

عاشراً: معيار وحدة البنية الدلالية للسورة: يرتبط هذا المعيار بفكرة عمود السورة، إذ يرى الفراهي أنّ فهم أيّ آية لا يكتمل إلا بردّها إلى البنية الدلالية العامة للسورة، وأنّ هذا الترابط هو الذي يمنح النص القرآني انسجامه الداخلي.⁴ (الفراهي، 2008) يتضح مما سبق أنّ معايير التفسير اللغوي عند الإمام عبد الحميد الفراهي ليست قواعد متفرقة، بل منظومة متكاملة، تقوم على السياق والنظم والدلالة اللغوية الأصيلة ووحدة السورة، وتجمع بين تراث العربية ووعي التجديد المنهجي. وقد شكّل هذا المنهج نقلة نوعية في الدراسات القرآنية المعاصرة، ومهد لظهور اتجاه تفسيري

¹ ابن تيمية، 2005، ص 32

² السيوطي، 2008، ص 43

³ الزرقاني، 2002، ص 24

⁴ الفراهي، 2008، ص 31.

جديد يعيد للنص القرآني وحدته اللغوية والدلالية.

المبحث الرابع: التطبيقات التفسيرية لمنهج الإمام عبد الحميد الفراهي

يهدف هذا المبحث إلى بيان كيفية تفعيل المعايير اللغوية التي اعتمدها الإمام عبد الحميد الفراهي في تفسير القرآن الكريم، من خلال نماذج تطبيقية تكشف عن أثر السياق والنظم ووحدة السورة في ضبط المعنى القرآني. ولا يقف هذا العرض عند حدود التنظير، بل يتجاوز إلى تحليل نماذج حقيقية من تفسيره الوارد في "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

أولاً: تطبيق معيار السياق في تفسير سورة الضحى: يرى الإمام الفراهي أنّ سورة الضحى تقوم على وحدة موضوعية تمثل في تسلية النبي ﷺ وثبوت قلبه بعد فترة انقطاع الوحي. وينتقد الفراهي التفسير الذي يتعامل مع آيات السورة مفردة دون اعتبار لسياقها العام، ويقرّر أنّ افتتاح السورة بالقسم: "وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝" ليس مجرد تأكيد بلاغي، بل تمهيد دلالي لموضوع السورة كله، حيث يقابل بين نور الضحى وسكون الليل بوصفهما صورتين رمزيتين لحالتي الوحي والانقطاع.¹ (الفراهي، 2008). ويؤكد أنّ قوله تعالى: "مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝" لا يفهم إلا في ضوء هذا السياق، وأنّ الآيات اللاحقة جاءت لتعضيد هذا المعنى وثبوتته، لا لتقديم أخبار متفرقة.² (الفراهي، 2008).

ثانياً: تطبيق معيار النظم ووحدة السورة في تفسير سورة الكوثر: يرى الفراهي أنّ سورة الكوثر تدور حول محور واحد هو المنة الإلهية على النبي ﷺ بالخير الكثير في مقابل طعن المشركين فيه. ويذهب إلى أنّ قوله تعالى: "إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝" هو خلاصة النظم الدلالي للسورة كلها، وأنّ الآيتين السابقتين تمهيدان لهذا الحكم

¹ الفراهي، 2008، ص 67

² الفراهي، 2008، ص 67-70

الختامي¹ (الفراهي، 2008)

وينتقد الفراهي التفاسير التي فسرت الكوثر بالخير الكثير دون ربطه بوحدة السورة، ويرى أن المعنى لا يكتمل إلا إذا فهم في ضوء الردّ على الشائنين، وهو ما يحقّق الانسجام الدلالي بين آيات السورة الثلاث.² (الفراهي، 2008).

ثالثاً: تطبيق معيار الدلالة اللغوية في تفسير لفظ (الفتنة): عند تفسيره للفظ الفتنة في عدد من المواضع القرآنية، يرفض الفراهي حمل اللفظ على معنى واحد ثابت، ويؤكد أنّ دلالاته تتغير بحسب السياق. ففي قوله تعالى: "وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ" يرى أنّ الفتنة هنا ليست مجرد الابتلاء، بل هي الاضطهاد المنهجي الذي يُمارَس لصرف الناس عن دينهم، وهو معنى تؤيده دلالة اللفظ في الاستعمال العربي القديم وسياق السورة.³ (الفراهي، 2008، الأصفهاني، 2009).

رابعاً: تطبيق معيار القرائن اللفظية في تفسير التقديم والتأخير: يعالج الفراهي ظاهرة التقديم والتأخير في القرآن الكريم بوصفها أداة دلالية لا زخرفاً بلاغياً. ففي تفسيره لقوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" يرى أنّ تقديم المفعول إياك يفيد الحصر والقصر، وهو ما يعزّز المعنى العقدي للسورة كلها، ويجعل العبادة والاستعانة مقصورتين على الله تعالى.⁴ (الفراهي، 2008، الزخشي، 2009).

خامساً: تطبيق معيار وحدة السورة في تفسير سورة العصر: يؤكد الفراهي أنّ سورة العصر تمثّل نموذجاً مكثفاً لوحدة السورة، حيث تنتظم آياتها الثلاث حول محور واحد هو خسارة الإنسان إلا من استوفى شروط النجاة الأربع (الذين آمنوا- وعملوا الصالحات- وتواصوا بالحق- وتواصوا بالصبر). ويرفض الفراهي تفسير الآيات الثلاث على أنها قضايا

¹ الفراهي، 2008، ص 112

² الفراهي، 2008، ص 114

³ الفراهي، 2008، ص 153؛ الأصفهاني، 2009

⁴ الفراهي، 2008، ص 201؛ الزخشي، 2009.

مستقلة، ويقرر أنّ كل آية متممة للآخرى دلاليًا.¹ (الفراهي، 2008).

يتبين من هذه النماذج أنّ الإمام عبد الحميد الفراهي لم يكتفِ بوضع معايير لغوية نظرية، بل فعلها في تفسيره تفعيلًا عمليًا دقيقًا، فكانت النتيجة تفسيراً يقوم على السياق والنظم والدلالة الأصيلة، ويبرز وحدة النص القرآني في أعلى صورها. ويمثل هذا المنهج نموذجًا تطبيقيًا متكاملًا للتفسير اللغوي المعاصر.

المبحث الخامس أثر منهج الإمام عبد الحميد الفراهي في تطور الدراسات اللغوية القرآنية المعاصرة

أسهم الإمام عبد الحميد الفراهي إسهامًا بالغ الأثر في إعادة توجيه الدراسات القرآنية المعاصرة نحو فهم النص من داخله، معتمداً على اللغة العربية والنظم والسياق الداخلي للسورة. ولم يبقَ هذا المنهج حبيس مؤلفاته، بل انتقل إلى مدرسة تفسيرية نشطة في شبه القارة الهندية، كان لها أثرها الواضح في الفكر التفسيري الحديث.²

أولاً: انتقال منهج الفراهي من التنظير إلى التأسيس المدرسي: تبلور مشروع الفراهي من خلال تلامذته المباشرين، وعلى رأسهم:

أمين أحسن الإصلاحي (Amin Ahsan Islahi)، صاحب تفسير "تدبر قرآن"، الذي صرح مراراً بأنّ أستاذه الفراهي هو المؤسس الحقيقي لمنهج وحدة السورة والنظم القرآني، وأنّ تفسيره ما هو إلا امتداد علمي لمنهج الفراهي.³ (Islahi, 2002).

ومختار أحمد ندوي، الذي أسهم في نشر أفكار الفراهي وتحرير بعض أعماله بعد وفاته.⁴ وقد أدّى ذلك إلى ظهور ما عُرف بـ"مدرسة الفراهي-الإصلاحي في التفسير"، وهي

¹ الفراهي، 2008، ص 245

² الفراهي، 2008؛ الشربجي، 2004

³ Islahi, A. A. (2002). Tadabbur-e-Qur'an. Lahore: Faran Foundation.

⁴ الشربجي، 2004.

مدرسة جعلت من النظم القرآني وسياق السورة الأساس في فهم المعنى.

ثانياً: ترسيخ مفهوم وحدة النص القرآني: كان من أهم إنجازات الفراهي ترسيخه لفكرة أنّ لكل سورة عموداً موضوعياً تنتظم حوله الآيات، وهو ما طوّره تلميذه أمين أحسن الإصلاح في تفسيره، حيث جعل لكل سورة مدخلاً يحدّد فيه موضوعها المركزي، ثم يفسّر الآيات في ضوءه (Islahi, 2002).

وقد عدّ عدد من الباحثين المعاصرين هذا الاتجاه تحولاً نوعياً في التفسير اللغوي الحديث، لأنه نقل التفسير من قراءة آية مفردة إلى قراءة نصية كلية.¹

ثالثاً: أثره في تجديد التفسير اللغوي المعاصر: يرى الباحثون أنّ منهج الفراهي أسهم في تجديد التفسير اللغوي من خلال ما يأتي:

1. توسيع مفهوم النظم من مستوى الجملة إلى مستوى السورة كاملة.

2. ربط المعنى المعجمي بالسياق النبوي للنص.

3. تقليل انخلاف التفسيري الناتج عن العزل السياقي للآيات.

وقد أشار الجواد إلى أنّ مدرسة الفراهي-الإصلاحية تمثل نموذجاً مبكراً لما يُعرف اليوم بالقراءة التداولية والسياقية للنص القرآني.² (El Moujawad, 2023).

رابعاً: بناء اتجاه تفسيري سياقي في شبه القارة الهندية: انعكس أثر الفراهي في عدد من الدراسات والتفاسير المعاصرة في الهند وباكستان، التي جعلت من السياق وحدة تفسيرية، ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه بعد الإصلاح، هو جاويد أحمد غامدي، الذي تبنّى فكرة النظم ووحدة السورة، وصرّح بأنّ تفسير القرآن لا يستقيم

¹ الهدهد، 2025.

² El Moujawad, M. Y. (2023). Imam al-Farahi's linguistic and contextual approach to Qur'anic interpretation. ANSAQ Journal, 7(2), 145-172.

دون فهم البناء الموضوعي للسور.¹ (Ghamidi, 2009).

وتمت عدد من الباحثين في الجامعات الهندية والباكستانية الذين عالجوا قضايا الترابط النصي في القرآن الكريم متأثرين مباشرة بمنهج الفراهي.²

خامساً: تقويم جهود الإمام عبد الحميد الفراهي التفسير اللغوي للقرآن الكريم: يتضح من استقراء هذه الجهود أنّ الإمام عبد الحميد الفراهي أسس اتجاهاً تفسيرياً متكاملًا يقوم على:

1. وحدة النص القرآني.

2. مركزية السياق.

3. النظم القرآني بوصفه أداة تفسيرية.

وقد مثل هذا الاتجاه إضافة نوعية للدراسات القرآنية المعاصرة في شبه القارة الهندية، وانتقل تأثيره تدريجياً إلى العالم العربي عبر الدراسات الحديثة.

خلص هذا المبحث الأخير إلى أنّ الإمام عبد الحميد الفراهي لم يكن مجرد مفسر لغوي، بل رائد مدرسة تفسيرية متكاملة أثرت بعمق في التفسير المعاصر، وأسهمت في تشكيل اتجاه يقوم على وحدة النص والنظم القرآني، ولا يزال هذا الاتجاه يمدّ الدراسات القرآنية بأدوات منهجية فاعلة حتى اليوم.

الخاتمة: سعى هذا البحث إلى دراسة معايير التفسير اللغوي للقرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي، من خلال تحليل الأسس النظرية لمنهجه، وبيان تطبيقاته العملية في تفسير عدد من السور والآيات. وقد تبين أنّ الفراهي لم ينطلق من معالجة جزئية

¹Ghamidi, J. A. (2009). Mizān: A Comprehensive Introduction to Islam. Lahore: Al-Mawrid.

²الهدهد، 2025

للألفاظ أو التراكيب، بل أسس مشروعاً تفسيرياً متكاملًا يقوم على مركزية اللغة العربية، والاعتماد على السياق الداخلي للنص، والنظر إلى السورة بوصفها وحدة دلالية مترابطة تنتظم حول محور موضوعي واحد.

وأظهرت الدراسة أنّ الفراهي قد طوّر التراث اللغوي العربي، ولا سيما نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، فوسّع نطاقها من مستوى الجملة إلى مستوى السورة كاملة، وربط بين الدلالة المعجمية والدلالة السياقية ربطاً محكماً، رافضاً التفسير المجتزأ أو القائم على التكلف والإسرائيليات. كما كشفت التطبيقات التفسيرية عن قدرته على ضبط المعنى القرآني من خلال القرائن اللفظية والمعنوية، بما يعيد للنص القرآني وحدته وأنسجামه الداخلي.

نتائج الدراسة: توصل البحث إلى جملة من النتائج، من أبرزها ما يأتي:

1. أنّ التفسير اللغوي عند الإمام عبد الحميد الفراهي منهج متكامل، لا يقتصر على شرح المفردات، بل يقوم على منظومة معيارية تشمل السياق، والنظم، والدلالة، ووحدة السورة.
2. أنّ السياق القرآني يمثّل الضابط الأول للمعنى عند الفراهي، وأنّ إهماله يؤدي إلى اضطراب التفسير.
3. أنّ مفهوم عمود السورة يمثّل إضافة نوعية في الدراسات القرآنية، أسهمت في إعادة النظر في البناء الدلالي للسور.
4. أنّ الفراهي جمع بين أصالة التراث اللغوي ووعي التجديد المنهجي، فكان حلقة وصل بين المدرسة الكلاسيكية والدراسات القرآنية المعاصرة.
5. أنّ تطبيقاته التفسيرية تكشف عن دقة لغوية عالية، وقدرة على توظيف القرائن اللفظية والمعنوية في ضبط المعنى القرآني.

التوصيات المقترحة: في ضوء ما سبق، يوصي البحث بما يأتي:

1. ضرورة الاستفادة من منهج الإمام عبد الحميد الفراهي في الدراسات القرآنية المعاصرة، ولا سيما في مجال التفسير اللغوي والسياقي.
2. إدراج مؤلفات الفراهي ضمن المقررات الجامعية في كليات اللغة العربية والدراسات الإسلامية.
3. توجيه الباحثين إلى إجراء دراسات تطبيقية موسعة على سور أخرى في ضوء معايير الفراهي.
4. تشجيع مشروعات تحقيق وترجمة مؤلفات الفراهي إلى اللغات العالمية لإبراز إسهامه في الفكر القرآني.
5. ربط منهج الفراهي بالدراسات اللسانية الحديثة بما يسهم في تطوير البحث القرآني المعاصر.

هذا، (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

المراجع

أولاً: المراجع العربية

1. الأصفهاني، الراغب. (2009). مفردات ألفاظ القرآن. دمشق: دار القلم.
2. ابن فارس، أحمد بن فارس. (1991). مقاييس اللغة (ط. 2، ج 1-6). بيروت: دار الفكر.
3. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. (2005). مقدمة في أصول التفسير. القاهرة: مكتبة السنة.
4. الجرجاني، عبد القاهر. (1992). دلائل الإعجاز (تحقيق: محمود محمد شاكر). القاهرة: مكتبة الخانجي.
5. الزرقاني، محمد عبد العظيم. (2002). مناهل العرفان في علوم القرآن (ج 1-2). القاهرة: دار الحديث.
6. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. (1999). البرهان في علوم القرآن (ج 1-4). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
7. الزمخشري، محمود بن عمر. (2009). الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (ج 1-4). بيروت: دار المعرفة.
8. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (2008). الإتيان في علوم القرآن (ج 1-2). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
9. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (2004). الموافقات في أصول الشريعة (ج 1-4). بيروت: دار المعرفة.
10. الشربجي، محمد يوسف. (2004). الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان. مجلة جامعة دمشق، 20(2)، 487-459.
11. الهدهد، سوسن حسنين. (2025). السياق وأثره في التفسير اللغوي عند

- الإمام عبد الحميد الفراهي. مجلة الهند، 14 (1)، 89.55-
12. الفراهي، عبد الحميد بن عبد الكريم. (2008). نظام القرآن وتأويل الفرقان
بالفرقان. أعظم كره، الهند: الدائرة الحميدية.
13. الفراهي، عبد الحميد بن عبد الكريم. (د.ت). مفردات القرآن. أعظم كره،
الهند: الدائرة الحميدية.
ثانياً: المراجع الأجنبية

1. El Moujawad, M. Y. (2023). Imam al-Farahi's linguistic and contextual approach to Qur'anic interpretation. ANSAQ Journal, 7(2), 145-172.
2. Ghamidi, J. A. (2009). Mizān: A Comprehensive Introduction to Islam. Lahore: Al-Mawrid.
3. Islahi, A. A. (2002). Tadabbur-e-Qur'an. Lahore: Faran Foundation.

مقارنة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم دراسة تحليلية

- د. محمد المجود¹

ملخص البحث: يقدّم هذا البحث قراءة تحليلية لموقف الفراهي من مسألة النسخ في القرآن الكريم من خلال رسالته: "الرسوخ في النسخ والمنسوخ" الغائبة رغم أهميتها عن ساحة النقاش العلمي المعاصر لهذا المبحث. ويعرض البحث وجه اختلافها عن مقاربات مسألة النسخ المعاصرة على مستوى المنهج والمضمون وأساليب الحجج. الكلمات المفتاحية: النسخ في القرآن الكريم، النسخ في الدرس الأصولي، عبد الحميد الفراهي.

المقدمة

استأثر موضوع النسخ في القرآن الكريم بكثير من الاهتمام العلمي عند العلماء القدامى والباحثين المعاصرين، وكتبت فيه مؤلفات عدة لا يتجاوز بعضها مستوى التكرار والاجترار لما قيل من قبل، بينما يقدّم بعضها رؤية وتصوراً وتحجيراً جديداً لهذا المبحث المهم في التفسير وعلوم القرآن، كما هو الحال في مقارنة الإمام عبد الحميد الفراهي لمفهوم النسخ في القرآن من خلال رسالته: "الرسوخ في النسخ والمنسوخ" الغائبة رغم أهميتها عن ساحة النقاش العلمي المعاصر لموضوع النسخ في القرآن الكريم.

والغرض المباشر لهذا البحث يتمثل في تقديم مقارنة منسّية لمسألة النسخ في القرآن وفي الدرس الأصولي على مستوى المنهج والمضمون وأساليب الحجج. فكيف يقدّم

¹ باحث دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر

الفراهي تصوّره لمفهوم النسخ في القرآن وما الجديد في مقارنته؟

مشكلة الدراسة وأسئلتها: تتمثل إشكالية هذا البحث في وجود مقارنة فريدة- تستحق العناية والتمحيص- لمسألة النسخ في القرآن المثيرة للجدل، سابقة تاريخياً لكثير من المقاربات التي تناولت هذا الموضوع، وغير مسبوقة في زاوية النظر والتحليل والعمق، وهي مقارنة الإمام الفراهي- المنسيّة- لمسألة النسخ في القرآن الكريم.

وللاجابة على هذا الإشكالية ينشأ سؤال مركزي هو: كيف نظر الإمام الفراهي إلى قضية النسخ في القرآن الكريم؟ وما المنهج الذي سار عليه في دراسة إشكال النسخ في القرآن الكريم دراسة نقدية؟ وبما اختلفت مقارنته لهذه المسألة عن المقاربات السابقة واللاحقة لها؟

أهداف الدراسة:

1. جمع مقارنة الفراهي لمفهوم النسخ في القرآن والتعريف بها.
2. بيان المنهج الذي سار عليه الفراهي في مقارنته لمفهوم النسخ وفي نقده للدراسات السابقة لهذا الموضوع.
3. بيان وجه اختلاف مقارنة الفراهي لمسألة النسخ عن الدراسات السابقة واللاحقة لها.
4. بيان قيمة توظيف النتائج التي توصل إليها في ضبط وتحرير مفهوم النسخ في القرآن الكريم.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية البحث من جهة أنه يتناول بالدراسة والتحليل والجمع مقارنة متفردة لمسألة من مسائل علوم القرآن وأصول الفقه وهي "مسألة النسخ في القرآن" التي كانت وما تزال محلّ نظر واختلاف عند العلماء القدامى والباحثين المعاصرين لما يصلوا فيه بعد إلى كلمة سواء.

حدود الدراسة: عنيت هذه الدراسة تحديداً ببيان موقف الفراهي من قضية النسخ في القرآن الكريم وذلك من خلال رسالته: "الرسوخ في بيان النسخ والمنسوخ" الغائبة رغم أهميتها عن الدرس الأصولي المعاصر. ومما ورد في تفسيره ورسائله المتفرقة في علوم القرآن الكريم.

الدراسات السابقة: بعد التتبع والاستقصاء لموضوع هذه الدراسة، ومن خلال البحث في قواعد البيانات المتاحة لم أطلع إلا على دراستين أو ثلاث تناولت مسألة النسخ عند الإمام الفراهي بالدراسة والتحليل.

منهج البحث: اعتمدت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، حيث قمت بجمع المادة المتعلقة بالنسخ في القرآن الكريم من رسالة الفراهي "الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ" أساساً، ومن كتبه ورسائله الأخرى توسيعاً أو تمثيلاً أو شرحاً، مع دراستها في ضوء الدراسات الأصولية القديمة والحديثة لهذا المبحث، وبيان وجوه اختلافها، وآفاق استثمارها في الدرس القرآني والأصولي المعاصر.

هيكل البحث:

مقدمة:

المبحث الأول: مقارنة الفراهي لمفهوم النسخ في القرآن الكريم وفي الدرس الأصولي

المبحث الثاني: مجالات النسخ وحكمته

المبحث الثالث: ضوابط القول بالنسخ في القرآن الكريم

المبحث الرابع: قراءة الفراهي للآيات المؤسسة للنسخ في القرآن الكريم

خامساً: نتائج البحث

الخاتمة.

المبحث الأول

مقاربة الفراهي لمفهوم النسخ في القرآن وفي الدرس الأصولي

النسخ لغة: الإزالة والنقل والتبديل والتحويل، جاء في كتاب العين: النسخ والانتساخ: اكتتابك في كتاب عن معارضه. والنسخ: إزالته أمرًا كان يعمل به، ثم تنسخه بجادث غيره، كالأية تنزل في أمر، ثم يخفف فتنسخ بأخرى، فالأولى منسوخة والثانية ناسخة.¹

"النسخ عبارة عن الرفع والإزالة في وضع اللسان، يقال: نسخت الشمس الظل ونسخت الريح الآثار إذا أزلتها، وقد يطلق لإرادة نسخ الكتاب، فهو مشترك ومقصودنا النسخ الذي هو بمعنى الرفع من الإزالة".²

النسخ اصطلاحاً: للنسخ في اصطلاح العلماء مفهومان:

الأول: مفهوم موسع يعني مطلق التغيير الذي يطرأ على بعض النصوص فيصرفها عن ظاهرها أو يحدّ من مضامينها، ويشمل تخصيص العام وتقييد المطلق وبيان المبهم وتفصيل الجمل والاستثناء والزيادة وغيرها، وهذا المفهوم هو الذي عرف للنسخ عند الصحابة والتابعين.³

¹ الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري، كتاب العين، تحقيق، مهدي الخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مادة نسخ، 2014/4.

² الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، المستصفى في علم الأصول، دار الكتب العلمية، 1993م، ص 87.

³ يقول الشاطبي: "الذي يظهر من كلام المتقدمين- أنّ النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد كانوا يطلقون على تقييد المطلق نسخاً، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً، وعلى بيان المبهم والجمل نسخاً- كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخاً، لأنّ جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو مطلق التغيير. أما النسخ في اصطلاح المتأخرين فهو يقتضي أنّ الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرًا فالأول غير معمول به والثاني معمول به وهذا تغيير خاص" انظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، دار ابن القيم، 3/344.

الثاني: مفهوم مضيق وهو المفهوم الذي بدأ مع الشافعي واعتمده الأصوليون من بعده.¹ ومن تعاريفه أنه "الخطاب الدالّ على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً، مع تراخيه عنه".²

وقد أشار الطبري إلى ضرورة التمييز بين هذا المفهومين من خلال تأكيده "على أنه لا ناسخ في آي القرآن وأخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ما نفى حكماً ثابتاً قد لزم العباد فرضه غير محتمل بظاهره وباطنه غير ذلك. فأما إذا احتمل غير ذلك من أن يكون بمعنى: الاستثناء أو الخصوص والعموم، أو المجمل، والمفسر، فن الناسخ والمنسوخ بمعزل،... ولا منسوخ إلا المنفي الذي كان قد ثبت حكمه وفرضه".³

مفهوم النسخ في القرآن عند الفراهي: لم يقدم الفراهي تعريفاً محدداً للنسخ ولكنه لا يقر المفهوم الأصولي للنسخ في الآيات بمعنى إبطال حكمها وإلغائه واستبداله بغيره، فهذا لا يكون عنده إلا في حالة نسخ القرآن للشرائع السابقة أما النسخ الذي يقول به فهو النسخ الموسع الذي يكون بمعنى البيان والتدرج في التشريع فهذا النوع موجود في القرآن بل أغلب ما ادعى فيه النسخ بالمفهوم الأصولي يعود إلى هذا الأصل عند التأمل والنظر. وقد أشار - رحمه الله - إلى أنّ سبب الاختلاف في النسخ بين القائلين بوقوعه في

¹ يقول أبو زهرة "إنّ الشافعي في رسالته قد حرّر معنى النسخ فيما ساق من أدلة وأمثلة فيّره عن تقييد المطلق، وتخصيص العام، وكثير من المتقدمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يسمون تقييد المطلق نسخاً، وتخصيص العام نسخاً، حتى كان منهم من يجعل الاستثناء نسخاً، فلما جاء الشافعي حرّر معنى النسخ وميّزه من بين تلك الإطلاقات الواسعة التي كان يادماجها فيه غير متميز وجعل التخصيص والتقييد من باب المراد بالنص، وأما النسخ فهو رفع حكم النص بعد أن يكون ثابتاً ولا شك أنّ ذلك سبق للشافعي يذكره له". انظر: محمد أبو زهرة، الشافعي حياته وعصره، آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، ص 253.

² الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، المستصفي في علم الأصول، دار الكتب العلمية، 1993م، ص 87.
³ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أبو عمر أحمد بن عطية الوكيل، دار ابن الجوزي: الرياض، 1444هـ ط 1، 982/3.

القرآن الكريم، والمنكرين له ومن يضيق في القول به، ومن يتوسع؛ إنما يرجع إلى الغفلة عن التمييز بين إطلاقات النسخ في القرآن الكريم وعند السلف، ولدى الأصوليين المتأخرين حتى يتحرر النزاع ويتضح وجه الإشكال.

والتأمل في نصوص الفراهي يجده يقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام: الأول مفهوم النسخ في الاصطلاح القرآني، والثاني ما يمكن أن يؤل إليه النسخ في القرآن الكريم، أما الثالث فلم يصرح به الفراهي ولكنه انتقده وبين وجه الخطأ في القول به وهو مفهوم النسخ في الاصطلاح الأصولي.

أ. المفهوم القرآني للنسخ: ما ورد في آيات القرآن الكريم من الحديث عن النسخ فإنما يقصد به حصراً نسخ القرآن الكريم لبعض أحكام الرسالات السابقة عليه. يقول الفراهي: "اعلم أنّ الله تعالى بين لنا في القرآن أنه مصدق لما نزل من قبل ومع ذلك مهيمن عليه... فأنزل الله تعالى فيه قسمين من النسخ:

الأول: بتشريع ما هو خير من الحكم السابق، ليترقى به الإنسان.

والثاني: بردّ ما نسوه من أصل شريعتهم، وذلك قوله تعالى: "مَا يَدُؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٩﴾". (البقرة: 105).

وهذا المفهوم الذي يقصد أصالة من معنى النسخ حيث ما ورد في القرآن الكريم وقد أخطأ بعض الأصوليين والمفسرين في تأويل ما يراد به نسخ الشرائع السابقة إلى نسخ الأحكام في القرآن الكريم.¹

ب. النسخ مرادفاً للتدرج في التشريع: تدرج القرآن الكريم في تربية الأمة

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ، ضمن رسائل في علوم القرآن (المجموعة الثانية) الدائرة الحميدية، الهند، 2011م. ص 157.

وإعدادها ولذلك ورد فيه نسخ ما نزل على الأمة أول الأمر على سبيل الاستثناء والتخصيص والتقييد والزيادة والتبيان، مراعاة لتغير الأحوال وتبدل المصالح.

يقول الفراهي رحمه الله: "كما أنّ القرآن نسخ بعض أحكام الشرائع السابقة فكذلك نسخ بعض ما نزل على هذه الأمة أول الأمر، والأصل واحد. فإنه كما أنّ لنوع الإنسان سمواً وصعوداً طبقاً على طبق فكذلك للأمة الواحدة منهم سير وسلوك".¹

وهذا المفهوم الموسع للنسخ هو الذي درج عليه السلف حيث أطلقوا النسخ على معانٍ متعددة منها: الاستثناء والتقييد والتخصيص والزيادة والتبيين، كما يشمل النسخ عندهم ما أبطله القرآن مما كانوا يفعلون قبل الإسلام من المباح، وما ورد في القرآن بخلاف ما عليه بنو إسرائيل.²

ج. النسخ في الاصطلاح الأصولي: ورد النسخ في الاصطلاح الأصولي بمعنى: "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه".³ ولكن الفراهي لا يقر هذا المفهوم - على ما يبدو - بل يعترض عليه من وجوه:

الأول: أنه تعريف ضيق يحصر النسخ في القرآن في معنى محدد ومتنازع فيه ذلك أنّ "أن كثيراً مما سماه العلماء نسخاً ليس إلا زيادة على حكم سابق، كتحریم الخمر بالكلية بعد أن حرم آلا يقربوا الصلاة وهم سكارى. أو كتخفيف عدة المقاتلين بعد أن دخل في الإسلام كثير ممن لم يبلغوا مقام السابقين منهم وضعفت أحوالهم. أو كتخفيف صلاة الليل عند كثرة المصلين".⁴

¹ المرجع نفسه، ص 157.

² المرجع نفسه، 173.

³ الغزالي، المستصفى، ص 87.

⁴ الفراهي، الرسوخ في معرفة التامخ والمنسوخ، ص 157.

الثاني: أنّ الآيات التي استدلوها بها على وجود النسخ بهذا المعنى في القرآن الكريم؛ لا تدلّ على ما ذهبوا إليه بل هي واردة في شأن نسخ القرآن للشرائع السابقة.

الثالث: أنّ الأصوليين والمفسرين الذين تبنوا هذا المفهوم الضيق للنسخ وقعوا في سوء التأويل للنسخ في القرآن فأولوا ما يراد به نسخ الشرائع السابقة إلى نسخ الأحكام في القرآن ولذلك "بعدوا عن حقيقة التأويل"¹.

وخلاصة القول هنا أنّ الفراهي رحمه الله يرى أنّ النسخ الوارد في القرآن إنما يكون للشرائع السابقة أو بمعنى التدرج في التشريع بين ما نزل على هذه الأمة في أول الأمر وآخره، وأنّ عدم تحرير محل النزاع في هذه الإطلاقات وفي إطلاقات المتأخرين لمفهوم النسخ هو الذي جعل العلماء يختلفون في الموقف من النسخ أو يأولون ما ورد في القرآن من نسخ أحكام الشرائع السابقة إلى نسخ القرآن للقرآن².

المبحث الثاني

دليل النسخ في الدين ومحلّه وحكمته

نقدّم في هذه المبحث مقارنة الفراهي للآيات التي تم الاستدلال بها على مشروعية القول بالنسخ في القرآن الكريم، ومحل النسخ ومجاله في الدين، والحكمة من وقوع النسخ أساساً، وذلك على النحو الآتي:

أ. مناقشة أدلة القول بالنسخ في الدين: لم ينتقد الفراهي المفهوم الأصولي للنسخ

¹ المرجع نفسه ص 158.

² أشار الفراهي أن العلماء اختلفوا في إثبات النسخ ونفيه إلى ثلاثة آراء: من ينكر النسخ جملة، ومن يتوسع في القول بالنسخ فيورد عدداً كبيراً من الآيات المنسوخة، ومن يقر بوجود النسخ في القرآن ويضيق مساحته. ويبدو أنّ الفراهي من هذا القسم الذي توسط فهو يثبت النسخ ولكن بمعنيين فقط الأول: نسخ الشرائع السابقة والثاني النسخ بمعنى التدرج في التبيين (ينظر، الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 164).

صراحة ولكنه اتخذ لإبطال التوسع في القول بالنسخ في القرآن خطوات عملية تمثلت في تقديم تفسير مختلف للآيات التي توصل لوجود النسخ في القرآن الكريم بمفهومه الأصولي وبيان وجه الخطأ في الاستدلال بها، إضافة إلى توجيه الآيات التي قيل بنسخها.

لقد بنى القائلون بالنسخ في القرآن الكريم حجتهم على عدد من الآيات القرآنية التي اعتبرت مؤسّسة لنظرية النسخ في القرآن الكريم فما هي هذه الآيات وكيف قرأها الفراهي وما وجه توجيهه لها؟

الآية الأولى: يقول الله تعالى: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٦﴾ * مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٧﴾". [البقرة: 105، 106].

يرفض الفراهي رحمه الله الاستدلال بهذه الآيات على وقوع النسخ في القرآن الكريم بالمفهوم الذي استقر في أصول الفقه، ويتخذ من منهجه في دراسة النظام القرآني وقراءته للقرآن الكريم في ضوء الكتب السابقة أداة لقراءة هذه الآيات في سياقها النصي والموضوعي ذي الصلة المباشرة بالعلاقة التشريعية بين القرآن الكريم وشرائع التوراة.

يقول الفراهي: "اعلم أنّ الله تعالى بيّن لنا في القرآن أنه مصدّق لما نزل من قبل ومع ذلك مهيمن عليه، فأُنزل الله تعالى فيه قسمين من النسخ:

الأول: بتشريع ما هو خير من الحكم السابق، ليترقى به الإنسان.

والثاني: برّد ما نسوه من أصل شريعتهم، وذلك قوله تعالى: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٧﴾".

أي ما يودون ذلك حسداً منهم، ولكن الله تعالى ذو فضل فيزيد من النعم حسب مشيئته الحكيمة "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا" أي من الأحكام السابقة، فإنهم نسوا كثيراً منها، كما قال تعالى: "فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ" وإنما نسب الإنساء إلى ذاته المقدسة كما نسب الإضلال والإزاغة، ولم يكن ذلك إلا استحقاقاً منهم، كما صرح به القرآن كثيراً كقوله تعالى: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ". "تَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا"، أي بخير مما نسخ من أحكامهم أو بمثل ما نسوه "أَلَمْ تَعْلَمْ" أيها المخاطب "أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فلا يمنعه مانع عن صرف القدرة إلى ما شاء من الحكمة والرحمة.¹

فهذه الآيات إذن إنما وردت لبيان أن ما جاء به القرآن الكريم من الشرائع بخلاف ما ورد في الكتب السابقة من الأحكام؛ إما أن يكون حكماً جديداً حان وقته وتعين أوانه، ولم يعد يصلح للشرعة الكاملة غيره، وإما أن يكون من مثل الأحكام التي نسيت أو حرفت من الشرائع السابقة فأعادها القرآن الكريم إلى سيرتها الأولى.

الآية الثانية: قوله تعالى: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥٢﴾". [النحل: 101-102].

استدل بعض الأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ بالمفهوم الأصولي (ينظر الرازي) أما الفراهي فيرى أن هذه الآيات إنما تقصد نسخ بعض الشرائع التي جاءت في التوراة وتحديدًا نسخ تحريم السبت كما تدل على ذلك الآيات، 124،² و115،³ و118.⁴

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ، 159.

² يقصد قوله تعالى: "إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ آخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ".

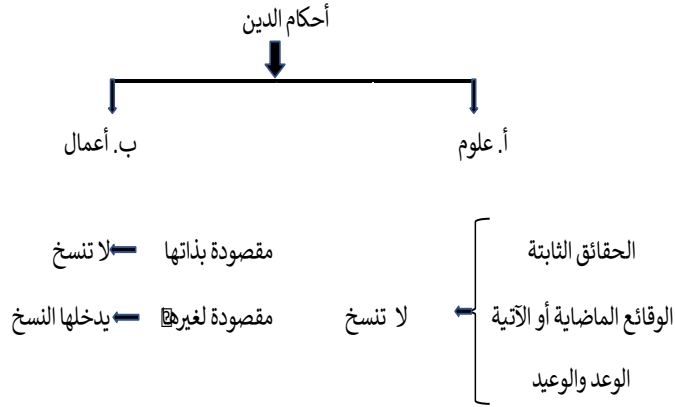
³ يقصد قوله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾".

⁴ يقصد قوله تعالى: "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ".

كما أنها تشير إلى إحدى حكم النسخ وهي الابتلاء والتثبت على الدين الحق ذلك أنّ "المؤمنين يخبتون لما ينزل الله من النسخ فيزيدهم ثباتاً، وأيضاً لو أعطاهم إكمال الشريعة أولاً لثقلت عليهم وتعذر الثبات فينزل الله بالتدرج ليثبتهم على الطاعة".¹

ب. محل النسخ في الدين ومجالاته: يحدّد الفراهي المساحات القابلة للنسخ في القرآن الكريم وما لا يقبل النسخ من خلال التمييز بين ثلاث مساحات في الدين هي: العقائد، والشرائع، والرسالة. "أما العقائد فدائمة ولا نسخ فيه، وأما الشرائع فربما تنسخ لأجل الترقى حتى يتم، ثم لا نسخ فيها. وأما الرسالة فهي ما ينفذ به النبي الدين والشريعة، حيث إنه إمام الأمة. وذلك لا يبقى بعد موقعه، ويتبدل حسب المصالح".²

الشكل (1)



¹ الفراهي، تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 357/1.

² الفراهي، الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ، ص 145، وهذا الرأي قريب مما يشير إليه الشاطبي رحمه الله عندما يؤكد أن "النسخ لا يكون في الكليات وقوعاً وإن أمكن عقلاً، ويدل على ذلك الاستقراء التام، وأن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات التحسينات، وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء". ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، دار ابن القيم، 338/3.

ويوسع الفراهي هذا التحديد في نص آخر يقسم فيه مضامين الدين إلى أقسام هي:
الأول: العلوم التي جاء بها القرآن وتشمل الحقائق الثابتة، والوقائع الماضية أو الآتية
والوعد والوعيد، فهذه لا تقبل النسخ إطلاقاً.

الثاني: الأعمال والشرائع التي جاء بها الإسلام وهذه على نوعين منها ما هو مقصود
لذاته مثل "الحقائق الثابتة في العلوم لبنائها على الفطرة وطبائع الأمور... كالصلاة
والزكاة، والصبر والعفو، وحماية الحق والإصلاح" فهذا لا يتطرق إليه النسخ إطلاقاً.

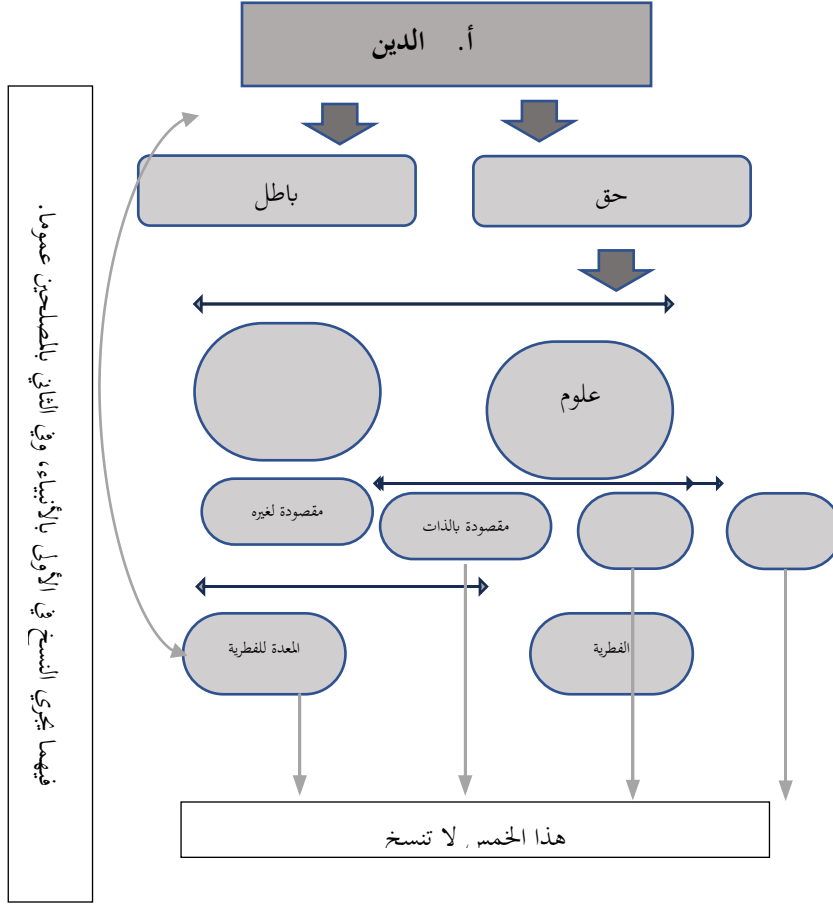
ومنها ما هو مقصود لغيره فهذا يقبل النسخ بحسب تبدل المصالح واختلاف
الأحوال، ويمثل الفراهي لهذا النوع بأفضية النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه إماماً
للمسلمين ينفذ ما جاء به الوحي، ويستشير ويأخذ برأي أصحابه.

يقول الفراهي: "فيما أنزل إلينا بالوحي أمران: علوم وأعمال. ثم فيهما أقسام متفاوتة.
أما العلوم فتلاثة أقسام: الحقائق الثابتة، والوقائع الماضية أو الآتية والوعد والوعيد.

وأما الأعمال فقسمان: المقصود بالذات والمقصود لغيره. فكل ما أخبر عنه الله تعالى لا
يتطرق إليه النسخ عقلاً... فبقي الأعمال وحدها فالمقصود بالذات منها مثل الحقائق
الثابتة في العلوم لبنائها على الفطرة وطبائع الأمور، والنسب بينهما كعانة الصلاة
والزكاة، والصبر والعفو، وحماية الحق والإصلاح. فذلك هو الدين الذي وصى به الله
الإنسان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: "شَرَعَ
لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى أَنَّ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي
إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿٣٤﴾". (الشورى: 13) وذلك هو الإسلام المبني على
الإيمان والالزام له. هذا لا يقبل النسخ، ولذلك وجب الفرق بينه وبين المقصود لغيره.
فتمحض هذا القسم الواحد للنسخ مما كان من الله. ثم القرآن ينسخ ما دخل في

الدين، وهذا النسخ يعم الأعمال والعلوم، وهو نسخ البدع والأهواء".¹

الشكل (2)



ج. حكمة النسخ في القرآن الكريم: تندرج حكمة النسخ في القرآن بحسب مقارنة الفراهي لها ضمن إطار التدرج الذي هو سنة من سنن الله في الخلق والأمر معاً، فبما تعددت الرسائل والرسائل والشرائع واختلفت في كثير من الأحكام

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ، ص 151.

والتكاليف، مراعاة لأحوال البشر فكذلك تدرّجت شريعة الإسلام في تربية الأمة وإعدادها ووقع فيها نسخ ما نزل على الأمة أول الأمر مراعاة لتغير الأحوال وتبدل المصالح.

يقول الفراهي: "من أصول التشريع التدرج وهذا حسب الاستعداد كما نرى في الخلق، وفي ترقية العلوم والصنائع والأخلاق. فلا بد من النسخ على طريق الزيادة. وأما النسخ بالبدل ففيه أيضاً زيادة من جهة الحكمة¹.

ويحصر الفراهي حكمة النسخ في القرآن في أمور:

أولاً: أنّ مبدأ النسخ والتغيير في الشرائع عموماً يندرج ضمن مبدأ التدرج الذي هو سنة من سنن الله في الخلق والأمر.

ثانياً: أنّ النسخ الواقع بين شرائع الإسلام والشرائع السابقة يندرج في إطار التدرج والتمهيد لإكمال الدين.

ثالثاً: أنّ النسخ في شرائع الإسلام فيما بينها إنما جاء على سبيل التدرج في التربية فنسخت بعض الأحكام التي نزلت على هذه الأمة في المرحلة التأسيسية الأولى².

¹ الفراهي، الرائع في أصول الشرائع، ضمن رسائل في علوم القرآن (المجموعة الثانية) الدائرة الحميدية، الهند، 2011م، ص 9.

² من أول العلماء الذين ربطوا النسخ بالتدرج في العصر الحديث الشيخ محمد عبده حيث يقول: أما صور العبادات، وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فصدره رحمة الله، ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . ويسمى بعض العلماء هذا الموضوع "التربية بالنسخ". وكما جرت سنته - وهو رب العالمين بالتدرج في تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً إلى راشد في عقله، كامل في نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره، كذلك لم تختلف سنته، ولم يضطرب هديه في تربية الأمم.

فلم يكن من شأن الإنسان في جملته ونوعه أن يكون مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ الكمال منتهاه، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته قائماً على ما قرره الفطرة الإلهية في شأن أفرادهم" انظر: الموسوعة الكاملة لأعمال محمد عبده، محمد عمارة دار الشروق، ط: الثانية، 2006م،

رابعاً: أنّ في النسخ بين القرآن والشرائع السابقة دعوة إلى الأمة إلى اليقظة والحذر مما تلقىه شياطين الإنس والجن من البدع والأهواء في الدين.

المبحث الثالث

ضوابط القول بالنسخ في القرآن

من مظاهر المقاربة المنهجية لمسألة النسخ في القرآن عند الفراهي، انتقاده للعلماء الذين يتوسعون بالقول في النسخ في القرآن الكريم دون قيود أو شروط، ولذلك يحدّد الفراهي أصولاً وضوابط للحد من فوضى القول بالنسخ في القرآن من أبرزها:

الأصل الأول: لا يصار إلى إبطال حكم إذا أمكن التوفيق بين عام وخاص، أو مفصل وجمل، أو زائد ومزید عليه.¹

المثال على ذلك: مثلاً نهى الله تعالى نكاح المشركات مرة،² ونهى عن نكاحها ونكاح الزانيات مرة أخرى.³ فالأخذ بالنهي الثاني أخذ بما زاد واشتمل على الأول.⁴

الأصل الثاني: يصار من الحسن إلى الأحسن عند التفاوت الثابت عقلاً، وقلوبه

وربما يكون الفراهي رحمه الله قد تأثر بموقف الشيخ محمد عبده من النسخ إذ نجد اتفاقاً بينهما في نقد المفهوم الأصولي للنسخ وما ترتب عليه من التوسع في القول بالنسخ، وكذلك في اعتبار النسخ من باب التدرج، وفي أن النسخ الوارد في القرآن إنما يقصد به نسخ الشرائع السابقة. غير أنّ مقارنة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم قد تميّزت عن مقارنة الشيخ محمد عبده وغيره من المتأخرين على مستوى المنهج والمضمون والنتائج كما سوف يتضح في نهاية هذا البحث إن شاء الله.

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 158.

² يشير إلى قوله تعالى: "وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ" وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْحَيَاةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ". (البقرة: 221)

³ يشير إلى قوله تعالى: "الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" (النور: 3).

⁴ الفراهي، الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 159.

تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾". [البقرة: 106].

المثال على ذلك: مثلاً أمر الله تعالى بصوم عاشوراء أولاً مجملاً لقوله: "كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ" ومعلوم أنه صوم عاشوراء. فإنه وحده كان فرضاً على اليهود وقد بينت السنة أنّ النبي وافق اليهود في صوم عاشوراء، وذلك في شهر ربيع الأول الذي يطابق الشهر التاسع في حساب اليهود. وقد دلّت الآية على أنه في أيام معلومات لما قال فيها: "أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ". قد أجاز في هذا الأمر للمطيقين بالفدية. ثم بين في الآية نفسها أنّ الصوم خير، لقوله: "وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"¹.

تفصيل وجه اختلاف جمع الفراهي بين هذه الآيات عن غيره.

الأصل الثالث: الشريعة تزايد تماماً بالتدرّج، والتدرّج من السهل إلى الصعب أرفق وأسهل. فإن كان خلاف ذلك فلهصلحة وحكمة خاصة، ولا بد من بيان ذلك في الكتاب.²

المثال على ذلك: جاء التخفيف في عدد المقاتلين،³ وصلاة الليل.⁴ فبين الله تعالى

¹ المرجع نفسه، 147.

² المرجع نفسه، ص 147. والفراهي هنا يشير إلى حكمة ترتيب النسخ من الثقيل إلى الخفيف أو العكس.

³ يشير إلى قوله تعالى: "الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعَقًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ". رقم الآية: 66

⁴ يشير إلى قوله تعالى في سورة المزمل (الآية: 20): "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّءُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

مصلحة ذلك التخفيف وصرح به غاية التصريح حتى علمنا أنه لم يخالف الأصل الراجح. فإنّ الحكم الأول نزل فيمن كان أقوى وأثبت، والحكم الثاني حين خالطهم الضعفاء. فاستعمل هذا الأصل أيضاً في نسخ الفدية.¹

الأصل الرابع: وجود دلالة في نفس الكلام على تعيين النسخ والمنسوخ

المثال على ذلك: "قوله تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِكَيْلِمَا أَلْعَدَّةَ وَلِكَيْلِمَا اللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ".

1. أي أمركم بالعدة من أيام أخر لأنه يريد بكم اليسر.
2. وأبطل الفدية لأنه يريد أن تكملوا العدة.
3. وخصّ بالصوم المكتوب هذا الشهر، لتعظموه على أنه هداكم بالقرآن فلا تذهلوا عن منزلته العظيمة فيكون علامة، وتذكّاراً لكم، كما قال: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ" أي فرق الحق من الباطل وفرقكم من أمة باءت بسخط الله، بما حول قبلكم وبدل شهر صومكم، فصار من العلامات الفارقة الظاهرة.
4. وكتب عليكم الصوم لتشكروا به، وبذلك هدى إلى حكمة فرض الصوم. فإنّ الشكر واجب على النعم لا سيما على أكبرها، وهي الهداية والقرآن، ولأنّ في الشكر مزيد النعم. فجمع جهتي الإيجاب والتحريض، كما قال تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾".²

¹ المرجع نفسه، ص 148. والآية (184) التي يشير إليها هي قوله تعالى: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ".

² الفراهي، الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ، ص 148.

المبحث الرابع

مقاربة الفراهي للنسخ نماذج وإشكالات

تنطرق في هذا المبحث إلى نماذج من الآيات التي يقر الإمام الفراهي بوقوع النسخ فيها، وأسلوبه في توجيهها وقراءتها في سياق منهجه في تأويل القرآن الذي يجمع بين القراءتين النصية والسياقية في تأويل القرآن الكريم، كما نعرض لإحدى إشكاليات النسخ وهي حدود علاقة النسخ بالواقع التاريخي الذي نزل فيه القرآن وهل يصلح أن تكون مسألة النسخ مسوغاً للقول بتاريخية القرآن الكريم كما يدعي بعض الحدائين المعاصرين؟

أ. نماذج من الآيات المنسوخة في القرآن الكريم: وصل عدد الآيات التي قيل بنسخها حسب دراسة مصطفى زيد- رحمه الله- القيمة، إلى (293) آية غير أنه بعد الدراسة والتحصيل خلص إلى أنها لا تزيد عن ست آيات،¹ بل إن الدهلوي رحمه الله اعتبرها خمس آيات فقط كما قدمنا.

أما الإمام عبد الحميد الفراهي فرغم إقراره بالنسخ بمفهومه الواسع لا بالمفهوم الأصولي المتأخر فإنه ذكر عدداً من الآيات التي وقع فيها النسخ في القرآن الكريم نذكر منها الآيات التالية:

الآية الأولى: قوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾".

يذهب الفراهي رحمه الله إلى أن هذه الآيات واردة في صوم عاشوراء لا في صيام

¹ انظر: مصطفى زيد، النسخ في القرآن الكريم دراسة تشريعية تاريخية نقدية، الإسكندرية، دار الوفاء، 1987، ص 105.

رمضان ولذلك فهي منسوخة بتمامها يقول الفراهي: "الآية عندي منسوخة، وذلك أنّ الله تعالى فرض صوم عاشوراء كما كان في التوراة فلما حول القبلة وجعل فرقاناً بين المسلمين واليهود، وهدى إلى الصراط المستقيم حول زمان الصوم من عاشوراء إلى شهر رمضان. وعاشوراء ليست بعاشوراء التي ابتدعوها في شهر المحرم، إنما هي في شهر يهودي حسب الحساب الشمسي".¹

الآية الثانية: قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ" (٣٥).

يقول الفراهي: "الآية عندي منسوخة على أصل راسخ وهو أنّ المعروف شرع معلوم، فإذا جاء تفصيل وبيان للمعروف ناب منابه. فأمر الله بالوصية حسب المعروف أولاً، فلما أوصى الله في أمر الوراثة ارتفع المعروف وصار ما أمر الله به هو المعروف".²

الآية الثالثة: قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ" (٣٥) أَلَنْ حَقَّفَ اللَّهُ عِنْدَكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (٣٦). (الأنفال: 65-66).

لقد لجأ كثير من المفسرين إلى درء التعارض بين آيتي سورة الأنفال هاتين بالقول إنّ الثانية ناسخة للأولى ولكن هذا التعارض ظاهري لا حقيقي والنسخ الذي قال به قائم على توهم التعارض، فالقرآن في الآية الثانية يشير إلى أنّ تغير النسبة العددية للمواجهة بين المؤمنين وأعدائهم يعود إلى تغير عملي في قوتهم الروحية والعسكرية وأنّ

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 169.

² المرجع نفسه، ص 168.

ظهور الضعف فيهم هو مناط تغير الحكمين وبالتالي فإن الأمر الأول والثاني منسجمان ضمن مبدأ كلي هو أن التوازن العددي بين المؤمنين وأعدائهم تابع لتغير عناصر القوة والضعف فيهم.

والفراهي يلح إلى أن الضعف ليس مادياً وإنما هو روحي فكثير من الداخلين الجدد في الإسلام ليست لهم صلابة وقوة إيمان السابقين الأولين. وبالتالي فإن من حكمة الله ألا يختبرهم بما اختبر به السابقون الأولون.¹

الآية الرابعة: قوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾"

[المجادلة: 12].

"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا" هذا ليس خطاباً للمنافقين كما زعم من يحرف الكلم عن مواضعه لهوى أشربه قلبه "فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ" كان الشح من ديدن المنافقين فامتحنهم بالصدقة فتميزوا من المسلمين، ثم خفف ذلك عن المسلمين لعموم النجوى واشتمالها على الشورى التي تكثر بين الأصدقاء. وقد حصلت فائدة الامتحان ومنع المنافقين عن النجوى خلاف المسلمين.²

يقول الفراهي في تعليقاته التفسيرية على القرآن الكريم:

"هذه الآية نزلت بعد مدة ولكن قرنت بما قبلها لما أن تقديم الصدقة لم يكن حكماً دائماً من الإسلام، فإنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم وكان تطهيراً لقلوب المؤمنين وكف المنافقين عنه. إذ قضيت المصلحة وتحمى المنافقون تاب الله على فقراء المؤمنين إذ لم يقدرُوا على الائتمار بهذا الأمر. وهذا يظهر مما ذكر الله تعالى فيما بعد

¹ المرجع نفسه، ص 154.

² الفراهي، تعليقات في التفسير، 54/1.

من شأن المنافقين من توليهم اليهود والكفار، واتخاذهم الأيمان جنة، وصددهم عن سبيل الله وعذرهم الباطل بالحلف".¹

الآية الخامسة: قوله تعالى: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثِيهِ وَطَافِيَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۖ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾".

يقول الفراهي "كما أظنّ - والله أعلم - هذه الآية مدنية وألحقت بالسورة لما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بإلحاق الآيات بأخواتها. فإنك ترى في القرآن آيات الاستثناء ملحقات بما استثنيت منه، وذلك من الدلائل على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ربّ القرآن. ووجه الاستثناء ظاهر. فإنّ في أول السورة أمرًا خاصًا بالنبي للصلاة، فإذا صلى بالمسلمين خفف. ألا ترى أنّ في هذه الآية ذكر أمور لم تكن في أول الإسلام من ضرب في الأرض والقتال، ثم قال (علم أنّ لن تحصوه فتاب عليكم) وهذا مثل الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفًا) هذا وبعد أيام رأيت رواية عن عائشة رضي الله عنها تؤيد ما قلت".²

الآية السادسة: قوله تعالى في سورة النور: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَلَيَْشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَافِيَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾" [النور: 2]

¹ المرجع نفسه، 336/2. وقد ذكر الرازي، في مفاتيح الغيب أنّ أبا مسلم قال: إنما نزل ذلك لزوال سببه لأنّ التعبد بها أن يمتاز المنافقون من حيث لا يتصدقون عن المؤمنين. الرازي، مفاتيح الغيب.
² الفراهي، تعليقات في التفسير، 395-394/2.

يدلّ ظاهر هذه الآية على أنّ من زنى من ذكر أو أنثى محصناً أو غير محصن يجب جلده مائة جلدة ولكن جمهور الفقهاء ذهبوا إلى أنّ السنة القطعية فرقت في الحد بين المحصن وغير المحصن واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت "خُدُوا عَنِّي خُدُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنِ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، جَلْدُ مِائَةٍ، وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ" فهذا الحديث يدلّ على أنّ المحصن إذا زنى حكمه الرجم حتى يموت.

أما الفراهي فقد ذهب إلى أنّ هذا الحديث من الأحاديث التي اشتبّه على العلماء مأخذها من القرآن الكريم.

فالآية تدلّ على أنّ أول الحد هو مئة جلدة للزاني البكر والمحصن ثم إذا وقعا في الإثم بعد الحد فالأولى بهما أن يعذبا بعذاب أشدّ فإنهما تجاسرا على حدود الله. وقد نطق الكتاب بتعذيب المفسدين في الأرض والمتعدين حدود الله بدرجات من العذاب من التقتيل والتصليب وتقطيع الأطراف والجلأ حسب درجات الإثم.

وقد صرح النبي صلّى الله عليه وسلّم في أمر ماعز بأنه نكال وبأنه ارتكب إثماً عظيماً فقال صلّى الله عليه وسلّم "ينب نيب التيس" وأما رجم اليهودية فقد قضى عليها بالتوراة وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يقضي بها قبل حكم القرآن. وفي صحيح مسلم أنه لم يعلموا هل كان الرجم قبل آية الجلد أو بعدها. وبالجملة قضى النبي في الثيب بأشدّ النكال وفي البكر بأخفه حسب آية سورة المائدة إذا ارتكبا مرة أخرى، ولذلك قال: "ثم" والواو ربما بمعنى "ثم".¹

ولذلك يرى أنّ آية الجلد محكمة لا منسوخة كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء المتقدمين إذ "الأصل هو التطبيق بين السنة والكتاب، فلا يصار إلى النسخ بمجرد الظن فلا تنسخ هذه الآية القطعية بحديث مظنون".² ثم إنّ القاعدة في القول بالنسخ

¹ الفراهي، أحكام الأصول بأحكام الرسول، ضمن رسائل الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، ص 170.
² المرجع نفسه.

معرفة تقدم الناسخ على المنسوخ وحديث النسخ ليس من هذا القبيل وقد قال عبد الله بن أبي أوفى "لا أدري هل نزلت سورة النور قبله أو بعده"¹. ويخلص الفراهي إلى أنه لا يعول على "ما خالف محكم القرآن وحديث الرجم منه، لا ثقة به"².

ب. علاقة النسخ بالواقع التاريخي: اتخذ بعض الحدائين العرب من مسألة النسخ في القرآن الكريم شبهة للقول بضرورة ملاءة الأحكام الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة، مع الواقع من خلال الدعوة إلى تغييرها كلما تغيرت الوقائع، يقول محمد محمود طه "وتطور الشريعة كما أسلفنا القول إنما هو انتقال من نص إلى نص، من نص كان هو صاحب الوقت في القرن السابع فأحكم، إلى نص اعتبر يومئذ أكبر من الوقت فنسخ. قال تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا". قوله: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ" يعني ما نلغي ونرفع من حكم آية. قوله "أَوْ نُنْسِهَا" يعني نؤجل من فعل حكمها .. "نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا" يعني أقرب لفهم الناس وأدخل في حكم وقتهم من المنسأة .. "أَوْ مِثْلَهَا" يعني نعيدها نفسها إلى الحكم حين يحين وقتها. فكأن الآيات التي نسخت إنما نسخت لحكم الوقت فهي مرجأة إلى أن يعين حينها، فإذا حان حينها فقد أصبحت هي آية الوقت ويكون لها الحكم وتصبح بذلك هي المحكمة. وللقرون السابع آيات الفروع وللقرون العشرين آيات الأصول وهذه هي الحكمة وراء النسخ، فليس

¹ المرجع نفسه.

² الفراهي، تعليقات في التفسير، 395-394/2 من الواضح أن الفراهي لا يقر حد الرجم ويؤل الأحاديث التي ورد فيه الرجم بأنه كان للنكال الثابت في آيات الحراة والإفساد في الأرض الواردة في سورة الأنعام ثم إنه لا يعلم تاريخ الأحاديث التي قضي فيها بالرجم هل كانت قبل آية النور أو بعدها ولا يستبعد أن يكون حد الرجم مما أحقمه اليهود لتحريف القرآن الكريم يقول الفراهي: "القول بالرجم لا يصح ولا يبعد أن اليهود لما رأوا الإسلام قد جاء بالتخفيف وكاونا يكتمون الرجم وضعوا حديث "الشيخة والشيخة" وحديث "قد جعل الله لمن سبيلنا" تحريفا لما جاء في سورة النساء. وأما قصة ماعز فللنكال. وقد صرح به في الحديث والنكال ثابت من الآية: 34 من سورة المائدة.. الفراهي، تعليقات في التفسير، 442/1

النسخ إذن إلغاء تاماً وإنما هو إرجاء يتحين الحين ويتوقت الوقت. ونحن في تطويرنا هذا إنما ننظر إلى الحكمة وراء النص، فإذا خدمت آية الفرع التي كانت في القرن السابع لآية الأصل فرضها حتى استنفدته وأصبحت غير كافية للوقت الجديد- القرن العشرين- فقد حان الحين لنسخها هي وبعث آية الأصل التي كانت منسوخة في القرن السابع لتكون هي صاحبة الحكم في القرن العشرين، وعليها يقوم التشريع الجديد".¹

لقد أوردنا هذا النص الطويل لأنه من النصوص التي تعتبر عند بعض الحدائين "ثورة على المنظومة الأصولية القديمة ومحاولة للملاءمة الأحكام الشرعية مع الواقع من خلال الدعوة إلى تغييرها كلها تغيرت الوقائع، وفي هذا خروج جريء عن الالتزام بالأحكام القرآنية التزاماً حرفياً".²

أما الفراهي فرغم أنّ مقاربتة سابقة لشيوع مثل هذه الأقوال (توفي الفراهي 1930م) فإنه يرفض أن يكون النسخ نوعاً من التدرج في التشريع وفقاً لمقتضيات الواقع، بحيث يكون الواقع هو المحدد لاستعادة الحكم المنسوخ لأسباب منها:

أولاً: أنّ الحالات التي ورد النسخ فيها في القرآن الكريم جاءت مرتبطة بنشأة الإسلام يوم كان ضعيفاً لا يسمح له بالظهور أم الآن وقد أصبح ناراً على يفاع فلا وجه للقياس على الحالة الأولى.

ثانياً: أنّ الحرج في الدين عموماً منفي بأصول القرآن الكريم الراسخة.

يقول الفراهي: "زعم بعض أهل الرأي أنّ في نسخ الشرائع حسب تبدل الأحوال لنا دليلاً على أن لا نسخ في الحقيقة، فإن عادت تلك الأحوال وجب العمل على ما نسخ، وفائدة هذا الرأي تظهر في تدبير من يدعو إلى الإسلام أمة غير مستعدة

¹ ينظر: محمد محمود طه، الرسالة الثانية من الإسلام، ص 9-10.

² ذويب، حمادي، جدل الأصول والوقائع، دار المدار الإسلامي، 2009، ص 681.

لتحمل جميع الشريعة بأسرها. ويظنون أنّ التدريج في التشريع عين الأسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم والعمل حسب التدبير الإلهي".¹

ويرد الفراهي هذا القول لاعتبارات:

أولاً: أنّ الإسلام لم يترك هذا الباب من التشريع فرخص في قصر الصلاة عند خوف الفتنة، وخفف في أمر الصوم والوضوء واستثنى من الوعيد المكروه المضمن القلب والذي يتقي تقواه. ثم جعل لنا قاعدة عامة في قوله تعالى: "لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (الأنعام: 152 الأعراف: 42). وفي قوله تعالى: "فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ... رَجِيمٌ". (المائدة: 3). وفي كل ذلك لم يتجاوز الرخصة لكي يستقيم على البلاء من كان قوياً عليه، فيفوز بأجر عظيم. ولا يقال إنّ حمل الشريعة كان في الأول خفيفاً، كلا إنه جاء التخفيف آخرًا.

ثانياً: أنّ قياس الواقع اليوم على واقع بدء الإسلام قياس مع الفارق لا يستقيم يقول:

"أما المعاملة بضعفاء الناس فربما يفسد حالهم من المداهنة. وملاك الأمر إخلاص أئمتهم في دعوة الناس إلى الصراط المستقيم والدين القويم. ولا يقاس على حال بدء الإسلام، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان في زمانه داعياً واحداً وصوت رجل لا أقول في البيداء بل في شغب الغوغاء. وأما الآن فقد صار الإسلام ناراً على يفاع والداخل فيه يجد أنه من أمة تربو على سائر الأمم فيجد أنساً وقوة وطمأنينة من الأسباب الظاهرة، علاوة على النور وشرح الصدور من جهة الباطن. فلا أقول بإثبات المنسوخ وإبطال الناسخ. وقد رأينا المتقين من الدعاة يعاملون أتباعهم أولاً بالمساحة ثم يوقفهم الله تعالى للتثبت. وفي مثل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يسرّوا ولا تعسّروا".²

وأما أهل الهوى من الدعاة فيدخلون أتباعهم في هوة البدعات، فلا يمكنهم الخروج منها أبداً. وهم بالحق من شياطين الإنس والمحرفين للشرائع، المفترين على الله،

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 164-165.

² المرجع نفسه، ص 165.

الصادين عن سبيله. وقد شنع القرآن عليهم كثيراً.

- (1) وقد علمنا الإسلام ما نتمسك به عند الحاجة، ولم يأمرنا بتشريع.
- (2) والذمة شديدة والأمر صعب، فيعول فيه على التقوى ولا يضرب فيه بحد.
- (3) قد جعل الله الإسلام ظاهراً شائعاً مرغوباً مؤيداً بتأييد ظاهر وباطن.
- (4) ثم الأحكام الثابتة فيه قليل جداً، فلا أرى ضرورة إلى توسيع حتى يبلغ الأمر إلى إباحة الخمر والقمار، وترك الصلاة والصوم مدهانة للمنافقين.

لقد أوردنا هذا النص الطويل جداً لقيمته في مناقشة هذه الفكرة الخاطئة في مقارنة علاقة النسخ بالواقع وبيان مداخل الخطأ فيها ولم نجد أبلغ حجاً وأقوى بياناً من لسان الفراهي فأوردناه بنصه.

بقي أن نشير إلى مسألة مهمة وهي مسألة نسخ القرآن بالسنة، ويمثل موقف الفراهي من هذه المسألة في كونه يرفض رفضاً قاطعاً أن تكون السنة ناسخة للقرآن الكريم فقد جعل من مسائل كتابه: الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ "أن غير القرآن لا ينسخ القرآن" ولكنه لم يفصل حججه في هذه المسألة- إذ لم يكتب له إكمال رسالته: الرسوخ في الناسخ والمنسوخ كما هو الحال في معظم كتبه الأخرى- غير أن موقفه من العلاقة التشريعية بين القرآن الكريم والحديث، قد يسلط الضوء على موقفه من هذه المسألة على وجه الخصوص.¹

أما مسألة نسخ السنة بالسنة فإنّ الفراهي يقرّها من منطق التدرج في التشريع الذي يعده من الحكم والغايات التي يتأسس عليه النسخ في القرآن الكريم.

فقد ذكر الفراهي في حديثه عن النسخ على مستوى الرسالة أنّ ما ورد في القرآن

¹ المرجع نفسه، ص 165.

والسنة من أحكام وأوامر ونواهٍ مرتبطٍ بالاستجابة لمقتضيات الدعوة آنذاك أو من قبيل التصرفات النبوية بمقتضى الإمامة يمكن أن يتطرق إليه النسخ والتغيير متى تغيرت الأحوال والمصالح.

ومن الأمثلة على ذلك تحريم بيع أواني الخمر سداً لأبواب المعاقرة والتنفير منها، مع فيها من التشبه بفعل التحايل عند اليهود الذين لعنوا جراء بيعهم الشحوم التي حرمت عليهم وأكلهم أثمانها. ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك لعدم بقاء الحاجة إليها ولأنّ تحريم بيعها لم يكن من الأحكام التي قصدت بذاتها يقول الفراهي "من الأحكام التي لم تقصد بالذات ما شرع سداً لمحظور فنها ما نسخ بعد قضاء نخبه، كحرمة أواني الخمر".¹

الخلاصة والنتائج: تناولنا في هذا البحث مقارنة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم وعرضنا معالمها الأساسية وذلك بهدف إخراج هذه المقاربة الفريدة من غياهب النسيان إلى ساحة النقاش والتحريض والمتابعة، وقبل أن نختم هذا البحث ونستعرض نتائجه، نشير إلى معالم الجدة في هذه المقاربة وثمراتها والآفاق التي تفتح في الدرس الأصولي والقرآني المعاصر وذلك في النقاط التالية:

أولاً: ملامح الجدة في مقارنة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم: عندما تقارن مقارنة الفراهي النقدية لمفهوم النسخ في القرآن الكريم كما استقر في التراث التفسيري والأصولي نجدتها تختلف عن غيرها من المقاربات القديمة والحديثة.² وتتميز بخصائص تكشف عن جدتها وأصالتها على مستوى المنهج والمضمون:

¹ مسألة العلاقة التشريعية بين القرآن الكريم والسنة من المسائل التي أولاها الفراهي عناية كبيرة وقدم فيها نظرات ثاقبة. وقد أفردناها بحث مستقل نأمل أن ينشر قريباً.

² انظر على سبيل المثال مقارنة النسخ في كتاب: "التجديد الأصولي نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه"، نجد أنها رغم صوت النقد الخافت فيها لا تعدو أن تكون استعادة لما كتب عن النسخ في التراث الأصولي دون جهد تحليلي أو نقدي بارز؛ كما كان متوقعا من كتاب يبشر عنوانه بتقديم الجديد في مباحث علم أصول الفقه! ينظر: التجديد الأصولي نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف الدكتور أحمد الرسوئي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص 185-206.

أ. على مستوى المنهج: اعتمد الفراهي المنهج النقدي في مقارنته لمفهوم النسخ من خلال التمييز بين ثلاث مفاهيم للنسخ أولها: النسخ القرآني الذي ينحصر أساساً في أمرين: أولهما نسخ الشرائع السابقة وهو الأغلب، وثانيهما: النسخ بمعنى التدرج في البيان. والثالث النسخ بمعنى الرفع الكلي للحكم وهو الذي وقع فيه الوهم من قبل الأصوليين.

ويتجلى التمييز- عند الفراهي- بين مفهوم النسخ القرآني ومفهوم النسخ في كتب الفقه والأصول وعلوم القرآن على مستويين:

الأول: مستوى الهدف إذ الهدف من القول بالنسخ في الاصطلاح الأصولي "إزالة الحكم حتى لا يجوز امثاله" أما الهدف من النسخ القرآني فهو تصحيح الشرائع السابقة والتذكير بما نسي منها، وإبطال ما ألفت شياطين الإنس والجن فيها من البدع والأهواء.

الثاني: على مستوى الوظيفة، ذلك أنّ وظيفة النسخ في الاصطلاح القرآني هي التيسير والتدرج في التشريع، أما وظيفة النسخ في الاصطلاح الأصولي فهي درء التعارض الظاهر بين النصوص.

ولم يكتف الفراهي بإعمال المنهج النقدي في مقارنته لمسألة النسخ فحسب بل إنه قدّم ضوابط للقول بالنسخ في القرآن الكريم لم يسبق إليها عموماً في حدود علمنا.

ب. على مستوى المضمون: قدّم الفراهي قراءة نقدية للآيات المؤسسة لنظرية النسخ الأصولي وبين وجه الخطأ في الاعتماد عليها في الاستدلال على إمكان النسخ ووقوعه وفق المفهوم الأصولي المتأخر، ذلك أنّ الآيات التي اعتمد عليها في التأصيل للنسخ إنما نزلت أساساً في بيان نسخ القرآن للشرائع السابقة، أو من باب التدرج في البيان.

وقد أظهر الفراهي قدرة فائقة في توجيه الآيات التي ادعي فيها القول بالنسخ لا

تكشف عن موقفه من تضيق مساحة النسخ وتأويله إلى التدرج في التشريع فحسب، وإنما عن ملكة فريدة في الاستنباط وتأويل القرآن بالقرآن استناداً على السياقين اللغوي والتاريخي إبان نزول القرآن الكريم.

وثمة أمر آخر يجعل مقارنة الفراهي أكثر جدة وأصالة من كثير من المقاربات المتأخرة لهذا المفهوم القرآني والأصولي المثير للجدل، وهو أن الفراهي كتب مقاربه قبل أكثر من قرن من الزمان ما يجعلها سابقة لغيرها من المقاربات الحديثة التي تناولت هذا المفهوم دون أن تصل إلى عمق مقارنة الفراهي له على مستوى المنهج والمضمون وأساليب الحجج.

ثانياً: ثمرات مقارنة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم:

أولاً: تضيق مساحة المصير إلى القول بالنسخ في القرآن الكريم بحيث لا يقال بالنسخ إلا بعد الاستقصاء والتأكد من أنه لا يمكن الجمع بين الآيات التي يفترض أن بعضها ناسخ لبعض.

ثانياً: تحرير محل النزاع في موضوع النسخ: استثمر الإمام الفراهي رحمه الله منهجه في دراسة النظم القرآني وخلفيته في دراسة الكتب السابقة في تحرير محل النزاع في النسخ فأرجع جل ما قيل فيه بالنسخ من الآيات إلى التخصيص والاستثناء والزيادة والتبيين.

آفاق استثمار مقارنة الفراهي للنسخ: تفتح مقارنة الفراهي لمسألة النسخ في القرآن الكريم آفاقاً يمكن استثمارها في الدرس الأصولي والقرآني المعاصر من أهمها: الرد على دعاوى تاريخية مبحث النسخ في القرآن حيث يتذرع كثير من قراء النصوص الإسلامية من منظور المقاربات الحداثية للنصوص الدينية بمسألة النسخ في القرآن الكريم باعتبارها دليلاً ومؤشراً على تاريخية القرآن الكريم غير أن مقارنة الفراهي

لمسألة النسخ تكشف سطحية وتهافت هذا القول ذلك أن النسخ يدخل في مبدأ التدرج في التشريع وهو مبدأ كوني يشمل عالمي الأمر والخلق.

يقول الفراهي: "اعلم أن الحكمة في النسخ ليست من الأمور الغامضة إلا عند من يتغافل فإن التدبير الصائب، لا أقول في الشرائع فقط بل في الخلق كله، هو إخراج ما قد أضر في الطبائع من القوة إلى الفعل. ولك آية في نشأة الأشجار، كما قال تعالى في كلامه المعجز: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" وهذا هو معنى الابتلاء، وبذلك تربية النفوس لتجتهد فتبرز ما انطوت عليه وتخرج من أثمارها الحلو والمر كما قال تعالى: "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ (أي خلقكم) لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ" ... وجملة القول إن النفوس بجهدا في إطاعة الأوامر تتم مصلحة خلقها فتبتلى بما في سعيها وإخراجها عن هواها وغطائها عن شهواتها. فإذا كان الأمر هكذا كان في محض إلقاء شريعة جديدة ونسخ ما تعودوها حكمة الابتلاء غير ما فيه من المصالح الخاصة".¹

فكيف يسوغ بعد ذلك القول بأن مبحث النسخ تاريخي ومتى تكون المبادئ التي تقوم عليها سنن الكون والتشريع تاريخية!

النتائج:

أولاً: يعتبر الفراهي النسخ له إطلاقات وعدم الانتباه لهذه الإطلاقات يخلق لبساً لدى المتلقي فقد يطلق على الاستثناء والتقييد والتبيين وعلى ما كانوا يفعلون قبل الإسلام وعلى ما ورد في القرآن بخلاف ما عليه بنو إسرائيل وعدم تحرير محل النزاع في هذه الإطلاقات هو الذي جعل بعض الناس ينكر النسخ في القرآن أصلاً.

ثانياً: النسخ من باب التدرج في التشريع.

¹ الفراهي، الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ، ص 159.

ثالثاً: النسخ لا يكون إلا في الشرائع التي لم تقصد لذاتها.

رابعاً: أكثر ما في القرآن من النسخ إنما هو للشرائع السابقة ولما جاء في بداية الإسلام لمصلحة التربية والإعداد.

خامساً: الآيات التي أسس عليها الفقهاء مفهوم النسخ واردة في نسخ القرآن لبعض الشرائع السابقة وإعادة ما نسيه اليهود والنصارى منها.

سادساً: يتعين قبل القول بالنسخ التأكد من أنه لا يمكن الجمع بين الآيات التي يفترض أن بعضها ناسخ لبعض.

ضرب المثل في القرآن الكريم عند الإمام عبد الحميد الفراهي

- أ.د. نبيل فولي محمد¹

ضرب الأمثال واحد من طرق الإيضاح والتبيين التي وظفها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من سوره، وقد اعتنى العلماء بأمثال القرآن من قديم اعتناء واضحاً، وتجلت عنايتهم هذه في أمور؛ أهمها أنهم: وضعوا فيها مؤلفات خاصة بها،² وتناولوها في كتب علوم القرآن باعتبارها واحداً من علومه،³ كما بينوا أهدافها وأقسامها؛ إضافة إلى عناية المفسرين وغيرهم ببيان المراد من كل مثل منها.⁴

ومن المعاصرين القرييين منا في الزمن؛ ممن منحوا أمثال القرآن الكريم في مؤلفاتهم جانباً من عنايتهم: عالم الهند ومفكرها الشهير الأستاذ عبد الحميد الفراهي (ت 1349هـ/1930م) رحمه الله، وسنقف معه خلال هذه الصفحات نعرض رؤيته لهذا الموضوع نظراً وتطبيقاً، والهدف من هذا هو الكشف عن موقع المثل في البيان اللغوي في نظره، ووظيفة الأمثال وعلاقتها بالأدلة العقلية، وكيف وظف القرآن

¹ رئيس قسم العقيدة والفلسفة في كلية أصول الدين IIUI - سابقاً

² انظر جانباً من هذه المؤلفات في بحث: سميرة عدلي محمد رزق: وجوه البيان في أمثال القرآن، ص 28-32، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا العربية، فرع الآداب، مكة المكرمة 1406-1407هـ/1986-1987م.

³ انظر مثلاً: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 2/124 وما بعدها، تحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشي وجمال حمدي الذهبي وإبراهيم عبد الله الكردي، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت 1410هـ/1990م.

⁴ من أقدم الأمثلة على هذا: الحكيم محمد بن علي الترمذي في: الأمثال من الكتاب والسنة، ص 4-30، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة 1395هـ/1975م.

الأمثال في حمل رسالته هداية الخلق كما بدا في مؤلفات الفراهي.

ويأتي هذا في ثلاثة مباحث:

يتناول أولها الجانب التنظيري للأمثال عند الفراهي.

ويعرض الثاني لبعض الأمثال القرآنية التي تناولها قلم الفراهي بالشرح والبيان، وهو جانب تطبيقي.

وأما المبحث الثالث فيعرض نماذج من التمثيل لدى الفراهي مما استعان به لإيضاح المفاهيم وتحلية الأفكار.

أولاً: تنظير الفراهي لموضوع الأمثال في القرآن

ورد لفظ "الأمثال" بالجمع في القرآن في أحد عشر موضعاً¹ اثنان في سورة إبراهيم، وموضعان في الفرقان، وموضع واحد في كل سورة من سور الرعد والنحل والإسراء والنور والعنكبوت ومحمد والحشر. وورد التركيب (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) في الكتاب العزيز سبع مرات؛ ثلاث منها في النحل، ومرتان في التحريم، ومررة في إبراهيم، وأخرى في الزمر. وأما بالجمع: (يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) وما شابهها، نجاءت في أربع آيات بسور الرعد وإبراهيم والنور ومحمد، وأما قوله: (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا) وما يقارنها نجاءت في سورة الكهف في موردين، وسورة يس مورد واحد، وهكذا.

ولا غرابة أن ينال موضوع ورد في القرآن بهذه الكثرة عناية العلماء في كل زمان؛ خاصة إذا كان الجزء الأكبر من جهد العالم موجهاً إلى محاولة فهم معاني القرآن الكريم

¹ المقصود موارده في القرآن بالمعنى المراد هنا من "المثل"، وإلا فقد ورد اللفظ بالصيغة نفسها بمعنى الشبيه؛ كما في قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ". [الأنعام: 38]. وقد قصدت في هذه الفقرة الإشارة فقط إلى ما يدل على كثرة ما ورد في القرآن من أمثال وحديث عن الأمثال، ولم أرد الاستقصاء، ومن أراد فعلية بكاتب الشيخ عبد الرحمن حسن حبكة الميداني: (أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع)، وسيأتي الاقتباس منه بعد قليل.

وبيان مقاصده، وإيضاح منهج التعامل معه؛ كما هو حال الإمام عبد الحميد الفراهي.

والمثل - كما يقول بعض المعاصرين - "قول محكيّ بليغ يصوّر المعنى المراد تصويراً دقيقاً لا يتأتى في غيره من الأساليب، و... أمثال القرآن الكريم هي تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء ورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه، أم بطريق الكناية".¹

وقد قسّموا التمثيل إلى بسيط ومركّب، بناء على أجزاء الصورة التي يتضمنها المثل في مقابلته بين الممثل له والممثل به، ويتضمن البسيط "تمثيل شيء بشيء آخر مفرد يمثاله بوجه من الوجوه، أو بجانب من الجوانب؛ كتمثيل من يحمل العلم ولا ينتفع به بالبحار الذي يحمل أسفار العلم على ظهره... وأما التمثيل المركّب، فهو التمثيل الذي يقدّم على شكل عناصرٍ لوحيةٍ تصوّر أكثر من مفرد، والمماثلة الملاحظة بين هذه الصورة وبين الممثل بها ليست مأخوذة من مفرد بعينه، وإنما هي مأخوذة منه ومن غيره، إما على شكل عناصر مفردة متلاقية، وإما على شكل وحدة مركّبة لا يشترط فيها التقابل الجزئي بين مفرداتها وبين مفردات ما ضرب له المثل"،² ومن ذلك المثل الذي ضربه القرآن للهدى بالنور في سورة النور، وسيأتي عنه حديث.

ونلخص بعضهم أغراض ضرب المثل في القرآن الكريم في أمور أهمّها: تقريب المعنى، والإقناع بالفكرة، والترغيب في شيء أو التنفير منه، وإثارة شعور الرغبة أو الخوف في المتلقي تجاه شيء ما، والمدح والتعظيم أو الذم والتحقير لشيء ما، وشحذ الذهن وتحريك الفكر، وغيرها.³

ولما كان القرآن هو الشاغل الأول للفراهي كما سبق، فقد تعرّض لأغلب موضوعاته،

¹ د. محمد بكر إسماعيل: الأمثال القرآنية.. دراسة تحليلية، ص 20، الطبعة الأولى، مطبعة الأمانة، القاهرة 1406هـ / 1986م.

² عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، ص 20، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق 1412هـ / 1992م.

³ الميداني: أمثال القرآن، ص 59-60.

وقدم فيها رؤى جديدة في كثير من الأحيان، ومن ذلك موضوع الأمثال في القرآن الذي أصل لبعض قضاياها تأصيلاً علمياً مهماً نعرض له في هذا البحث.

في تأصيله البلاغي للمثل ذهب الفراهي إلى أنه "نوع من التشبيه... يكون للتعليم"، وأنه "ضرب من الحكمة... يُضرب لإحضار الشيء عند الذهن في صورة شيء آخر يماثله ويشاركه في حكم هو أظهر في ذلك الشيء الآخر"،¹ وهو عنده نوع من التشبيه لوجود طرفين فيه يحاول بهما ضارب المثل إيضاح أحدهما بالآخر. وعنى بالتشبيه هنا معناه العام، أي ما يشمل التشبيه والاستعارة، وتأتي الكناية تبعاً لهما.

عموم الاهتمام بضرب الأمثال: من الناحية التاريخية ذهب الفراهي إلى أن الاستعانة بالأمثال للإيضاح وتحرير المفاهيم هو أمر مرتبط بكل فكر ودعوة تقريباً، ومشارك بين كل دين وفلسفة، فقد "كان المسيح عليه السلام- كما يقول- يعلمهم بالأمثال لكي يتأملوا، ويحزن عليهم إذا لم يفهموا... وكان فلاطن يقول: من لا يقدر على ضرب الأمثال لا يكون حكيماً، وكان سليمان عليه السلام يعلم بالأمثال"،² وأشار بهذا الأخير إلى السفر المنسوب إلى النبي سليمان عليه السلام باسم "سفر الأمثال" من كتب العهد القديم، "ولكن عدة عناصر نقدية تشير إلى ضعف هذه النسبة، ومن هذه العناصر: تنوع الصيغ الأدبية، وتعدد الموضوعات"،³ إلا أن النقاد ينسبون جزءاً من السفر إلى سليمان عليه السلام (الإصحاح 10: 1-22، والإصحاح 16، والإصحاح من 25-29)، ويعتبرون الباقي مما أُضيف إليه خلال القرون بتأثير مصادر مختلفة.⁴

ومن ناحية أخرى، فإن ما حواه السفر أكثره حكم ووصايا، ولا يغلب عليه الأمثال

¹ عبد الحميد الفراهي: حجج القرآن.. الحكمة البازغة والحجة البالغة، ص 155، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح بسراي مير أعظم كره، يوبي، الهند 1437هـ/ 2016م.

² عبد الحميد الفراهي: حكمة القرآن، ص 64، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية مدرسة الإصلاح بسراي مير أعظم كره، يوبي، الهند 1437هـ/ 2016م.

³ د. محمد خليفة حسن: مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، ص 200، بدون بيانات.

⁴ السابق، ص 201.

كما يُفهم من عنوانه، لكن بعض حكمه ووصاياه تبلغ درجة رفيعة من الروعة والفصاحة، ومنها قوله: "يا بني احفظ أقوالي، ووصاياي أحبها عندك، يا بني احفظ وصاياي فتحيا، وشريعتي كحدقة عينك، اربطها في أصابعك، واكتبها في ألواح قلبك، قل للحكمة أنت أختي، والفتنة ادعها صديقتك"¹، ومن أمثال السفر قوله: "لقاء الدُّبَّة إذ أخذت جراؤها أيسر من لقاء الجاهل المتوكل على جهالته"²، وقوله: "الرجل الفقير الذي يثلب فقيراً غيره شبيهه بالمطر الشديد الذي يأتي منه الجذب"³.

ومهما يكن، فإن الصورة التاريخية للنبي سليمان عليه السلام لدى أهل الكتاب قد أظهرته في هيئة الحكيم الذي يتكئ على الأمثال في جانب من تعاليمه ووصاياه، حتى انفراد بنسبة سفر بهذا الاسم إليه دون غيره من الأنبياء، وكأن ضرب المثل لجمعه بين الأدبية الرفيعة والعقلانية قد صار وسيلة ممتازة للاعتماد عليه في بث الأفكار وتوجيه المواعظ وصياغة الوصايا.

وأما المسيح عليه السلام، فع أن الأناجيل لا تخص أمثاله التي ضربها بكتاب منفرد ولا إصحاح خاص، بل جاءت فيها متناثرة، إلا أنها كثيرة نسبياً، حتى جاء في إنجيل مرقس قوله: "وكان يسوع يكثر من هذه الأمثال ليعلم الناس كلام الله على قدر ما يفهمون. وما كلمهم إلا بأمثال، ولكنه متى انفراد بتلاميذه فسّر لهم كل شيء"⁴، وقد بلغت هذه الكثرة النسبية درجة أتاحت لبعض الأقلام أن تؤلف فيها كتباً مستقلة مثل: كتاب (THE PARABLES OF JESUS) الذي حوى مجموعة من

¹ أمثال سليمان الحكيم بن داود، ص 17-18، طبعة قديمة لترجمة قديمة مكتوب في نهايتها: "طبع في بيروت سنة 1842 مسيحية" بدون ذكر لمطبعة.

² أمثال سليمان، ص 46. مع ملاحظة أن صغار الدببة تسمى في العربية "الدياسم" مفرداً "ديسم"، وليس "الجراء".

³ أمثال سليمان، ص 77.

⁴ الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل مرقس: 4: 33-34، ص 61، الطبعة الثلاثون، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصدار الرابع 1993.

البحوث لتوماس ج. سيلبي وآخرين، وأصدرته مدرسة اللاهوت في كاليفورنيا بالولايات المتحدة قبل أكثر من قرن من الزمان، وكتاب (أمثال المسيح) لمنيس عبد النور، و(الأمثال في الأناجيل الأربعة) لمكسيموس صموئيل، وغيرها.

وأما أفلاطون، فقد بنى فكره كله على نظرية النماذج أو "المثل" التي لا تعتبر الوجود الظاهر للعالم والكائنات سوى ظل للعالم الحقيقي، والظلّ شبيه بأصله، لكنه غيره. وقد نسبت بعض المصادر العربية كثيراً من الأمثال إلى أفلاطون، ومن ذلك ما أورده أبو حيان التوحيدي قائلاً: "قال أفلاطون: من يصحب السلطان فلا يجزع من قسوته كما لا يجزع الغوّاص من ملوحة البحر"، إلا أنّ التوحيدي نقل لنا تعليق شيخه أبي سليمان محمد بن بهرام السجستاني المنطقي على مثل أفلاطون بقوله: "هذا كلام ضره أكثر من نفعه، وإنما نفقه صاحبه بالمثل، والمثال يستجيب للحقّ كما يستجيب للباطل، والمعول على ما ثبت بالدليل لا على ما يدعى بالتمثيل، وقد يجب أن يُجتنب جانب السلطان بغاية الاستطاعة والإمكان، إلا إذا كان الدهر سليماً من الآفات الغالبة"¹، وهذا النقد هو قول رجل ما كان يحب مخالطة السلطان، بل كان راغباً عن مخالطة الناس عامة، قليل الأئس إلا بكتاب أو طائفة قليلة من علماء وأدباء عصره، ومع هذا فإنّ قوله يظهر رأي طائفة من أهل العلم في المثل من أنه لا مهمة له إلا التوضيح، وقد يكون هذا في جانب الحق وقد يكون في غيره، وهذا ما سنرى للفراهي رأياً مهماً فيه عما قليل.

المثل والدليل: ومهما يكن من أمر، فإنه لما كان القرآن الكريم هو خطاب الله تعالى لعباده، وكان ضرب الأمثال طريقة من طرقهم في التكلم والتخاطب، فقد اعتبر القرآن به وسيلةً لإيصال المعاني الشرعية للكافرين، فضرب الله تعالى فيه "الأمثال، وبين ذلك- كما يقول الأستاذ الفراهي- ليذكروا ويرجعوا إلى أنفسهم وما أودعت، حتى

¹ أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، 47/2 - 48، صححه وضبطه وشرحه عربيّه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ب. ت.

قال تعالى: "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" [العنكبوت: 43]... وصرف الأمثال والآيات، وبين أنّ ذلك يريك الشيء الواحد من جوانبه المختلفة... وجعل العلم ممزوجاً بالعمل، وهيّج النقطين معاً. ودلّ على موضع الحكمة وأسبابها وأبوابها. وجعل النظم من أكبر دواعي التفكير وأجمع لأنحاء النظر¹، فإذن جاء القرآن في خطابه معنياً بوسائل الفهم التي ألفتها البشر واعتادتها عقولهم، حتى يكون فهمهم عنه أتم وأكمل، وذلك- في نظر الشيخ- كي يرجعوا إلى أنفسهم، ويتفكروا في هذه الأمثال التي تبدو كأنها أسئلة يعرضها الإنسان على عقله بإخلاص وتجرد؛ كي يصل منها إلى الحق والحقيقة.

ونلاحظ هنا جمعه بين الأمثال والآيات التي تعني- كما يظهر لي- الأدلة والبراهين، وتصريف الأمثال والأدلة هو تنويعها وتعدد صورها، والغرض هو الكشف عن المعنى والشيء من مختلف جوانبه؛ وذلك للتعليم والحض على لزوم العمل، وتعليم الحكمة.

ولما كانت نظرية النظم القرآني هي المنهج الذي يتعامل به الشيخ في فهم كلام الله تعالى المنزل في هذا الكتاب، وتقوم على الإيمان بكون القرآن- معجزة النبوة الكبرى- ذا نسق وترتيب خاص في الصياغة وأداء المعاني بحيث تتناسك أجزاءه وتتكامل تماماً من أصغر وحدة فيها إلى أكبرها، ويكون لكل سورة عمود يجمع أبعاضها إليه؛ أقول: لما كانت هذه النظرية بهذه المنزلة عنده، فقد أرجع إليها حتى الأمثال والأدلة التي وظّفها القرآن في أداء معانيه وإثبات أغراضه كما يظهر من النص السابق.

لكن، أليست الأدلة العقلية هي مناط الاعتبار وأساس الإثبات في القضايا النظرية دون الأمثال؟

لا يخالف الفراهي رأي علمائنا في أنّ الأدلة العقلية معتبرة ما دامت مستقيمة، إلا أنّ ضرب الأمثال قد يكون هو الآخر أيضاً طريقة من طرق الاستدلال في العقليات والأخلاقيات على السواء؛ يقول عن العقليات في واحد من أهم نصوص

¹ الفراهي: حكمة القرآن، ص 64.

هذه الدراسة: "قد ظنوا أنّ التمثيل ليس في شيء من الدليل، وهذا لا يصح على إطلاقه، وذلك بأنّ [لعلها: لأنّ] التمثيل نوع من تصوير الشيء وبيانه وإحضار أطرافه وجوانبه عند الذهن، فإنّ الذهن ربما لا يهتدي إلى معرفة أمر لعدم تصويره إياه بأطرافه، فإذا تبين له ذلك عرفه، وتبادر إلى الحكم الصحيح، وقضى بالحق، فيكون التمثيل بهذا الوجه من باب التذكير والتنبيه، ويفعل ما لا يفعل الدليل القاصر عن تصوير الموضوع والمحكوم والحكم".¹

فالفراهي لا يقول بأنّ ضرب المثل طريقة للاستدلال بإطلاق وفي كل حال، بل يكون كذلك في بعض الأحيان؛ وذلك أنّ الأمثال الدقيقة تنبه إلى المفهوم، وتكشف عن جوانب المعنى، وتوضح وجه الكلام، فتنزل بهذا منزلة الدليل، بل يكون المثل عنده في بعض الحالات أقوى في الدلالة من الدليل العقلي المجرد؛ وذلك حين يكتسي الأخير بالغموض، ولا يبدو للسامع بيناً واضحاً، فيأتي المثل في هذه الحالة للكشف عن المعنى وأجزائه ومنطقيته، فيقوم دليلاً في نفسه.

لذا لا بد أن نفهم الاستدلال هنا بمعنى "التنبيه" الذي لا يحقّقه الدليل أحياناً في حين يحقّقه المثل، وقد يكون المثل في هذه الحالة سنداً للدليل بما يكشف عنه من أبعاد المعنى، وربما كانت المسألة برمتها في غير حاجة إلى دليل، بل إلى إيضاح وبيان، وهذا ما يقوم به المثل.

هذا عن توظيف الأمثال في القضايا العقلية في رأي الفراهي، و"أما القضايا الأخلاقية، فوقع التمثيل فيها- على حد قوله- أهمّ جداً؛ فإنّ الحكم بالحسن والقبح كثيراً ما يخفى على الذهن لغلبة الهوى، ولكن إذا بين الأمر في صورته الواضحة يتبين ما كان من الحسن والقبح، وربما يحصل ذلك بالتشبيه الصادق"،² فمعيار الحكم في

¹ الفراهي: حكمة القرآن، ص 76، وقارن له: حجج القرآن، ص 155.

² الفراهي: حكمة القرآن، ص 76.

العقليات هو الصدق والكذب (أو الصواب والخطأ)، ومعياره في الأخلاقيات الحُسن والقُبْح، وفي كلا الحالين يمكن توظيف المثل للكشف عن وجه الحُكم.

والحق أنّ قسمة الاستدلال عند الفراهي إلى عقلي وأخلاقي مما يهمنّا بيانه هنا وبيان علاقته بالأمثال؛ إذ إنّ الخطوة الأولى لالتزام الإنسان بالحق بصورة صحيحة هي ثبوته عنده وقناعته به، وكذلك الخطوة الأولى في العمل بالفضيلة والتأني عن الرذيلة هي الطمأنينة إلى الأولى والاشتمزاز من الثانية. وكما أنّ المستفهم المستدل يحتاج في حال النظر إلى اليقين، فإنّ الذي يستعرض الأخلاق والأفعال ليختار منها، يحتاج إلى تلج صدر وطمأنينة نفس؛ حتى يغالب هواه، ويستعصم بالسّوء الأخلاقي، وضرب الأمثال طريق من طرق الوصول إلى هاتين الغايتين في نظر الفراهي.

ولم يفك الفراهي أن يشير في السياق نفسه إلى الاستعمال غير القويم للأمثال، وأن المغالطين (= السفسطائية) قد يوظفونه في مغالطاتهم كما يوظفه صاحب الحق والصواب في حقه وصوابه، "فيصوّرون الشيء على خلاف الحقيقة بأخذهم بعض المظاهر التي لا أثر لها في حقيقة الشيء، وهذا هو الغالب في التشبيهات الشعرية، وبذلك يلبسون على السامع ليحملوهم على حكم يوافق هواهم"¹، وكأنّ هذا في نظره أساء إلى سمعة المثل - إن جازت العبارة -، فاجتنبه الناس "في الاستدلال عموماً، فإنّ المغالطة ربما تمكّن به، وهذا نوع من الحزم"²، أي أنّ استعمال بعض الناس الأمثال في ترويح مغالطاتهم، قد أدّى إلى تجنب توظيفها في الاستدلال من قبل ناس من أهل العلم والفكر وغيرهم، وهو من قبيل الأخذ بالأحزم، والابتعاد عن الشبهة.

إلا أنّ هذا الاستعمال السفسطائي للأمثال لا يبطل في رأيه هذه الطريقة للاستدلال والتوضيح في كل حال، "وهذا كما لا يبطل الشكل الأول إذا كانت

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 155.

² الفراهي: حكمة القرآن، ص 76.

الكبرى جزئية، وهكذا جميع الأشكال بفقدان شرائطها، فكما أنّ للقياس شرائط لصحته، فكذلك للأمثال شرائط لصحتها¹، أي كما أنّ كل شكل من أشكال القياس المنطقي ينتج بشروط (إيجاب الصغرى في الشكلين الأول والثالث، وكلية الكبرى في الأول والثاني، واختلاف المقدمتين بالكيف في الثاني)²، وغياب هذه الشروط أو أحدها يمنع الإنتاج في الأضرب التي هذا حالها، لكنه لا يضرّ بالأضرب التي تتوفر فيها الشروط السابقة تبعاً للشكل الذي تتبعه.

ونلاحظ هنا أنه وهو يعمل على بيان أهمية الأمثال يضرب لنا مثلاً لتقريب الصورة، فشيئاً بأمثال القياس المنطقي في لزوم توفير الشروط في كل منهما حتى ينتجا إنتاجاً صحيحاً، أو يحققا الهدف المقصود منهما، وستأتي في المبحث الأخير من هذه الدراسة نماذج من أمثال الفراهي التي استعان بها لإيضاح المفاهيم وتجلية الأفكار التي يؤمن بها.

شروط المثل: لكن ما هذه الشروط التي يعينها بالنسبة للأمثال حتى تؤدي الغرض منها؟

لم يعرض الفراهي لهذه المسألة بشكل صريح في كتابه "حكمة القرآن" الذي نظر فيه لكثير من مسائل ضرب الأمثال، إلا أننا نفهم من بعض كلامه فيه شيئاً عن هذا الجانب، وهو قوله: "الحكمة وضع الشيء في محله، فضرب المثل من الحكيم يكون صواباً، وإن لم يكن ذلك صواباً من غيره، فالحكيم إنما يضرب المثل الصادق، ويدل به على أمر جامع"³، ويمكن بيان شروط صحة المثل كما تفهم من هذا النص كما يلي:

¹ الفراهي: حكمة القرآن، ص 76.

² أعرضت عن ذكر شروط الشكل الرابع لجدل طويل ومعروف دار حوله، ولم أذكر الشرط الثاني في الشكل الثالث، وهو كون واحدة من مقدمتيه على الأقل كلية؛ لأنه شرط عام في الأشكال كلها (لا إنتاج من جزئيتين، ولا يوجد شكل اشترط كلية المقدمتين معاً لكي ينتج)، وهو أمر مما فات المنطقيين ضمن مسائل أخرى لعلّي أتفرغ للكتابة فيها.

³ الفراهي: حكمة القرآن، ص 77.

1. أن يكون المثل في محلّه من حيث مناسبته للمتلقّي والسياق الذي يرد فيه.
 2. أن يكون صادقاً؛ وصدقه أن يكون الممثل به فيه مناسباً للممثل له بدون خداع المتلقّي أو إيقاعه في الزيف.
 3. أن يكون بالمثل أمر جامع بين ركّني التمثيل يسوّغ إخراجَه على الهيئة التي يكون عليها، وفي حال عدم المناسبة يكون المثل بارداً خارج السياق.
- وأورد الفراهي في "حجج القرآن" لصحة المثل شروطاً أوضح فقال، والترقيم له: "لا بد
- (1) أن يكون المثل واضحاً في التصوير.
 - (2) وأن يكون الحكم واضحاً في المشبه به...
 - (3) وأن يكون الحكم في نفسه ثابتاً للمشبه.
 - (4) ولكن خفي (يعني الحكم) عند من لم يتصوره كما هو، فإذا صُوِّر له بالحق ظهر ذلك الحكم".¹

وعموم هذه الشروط يتعلق بضارب المثل، والمضروب له، والممثل له (المشبه)، والممثل به (المشبه شبه)، فضارب المثل ينبغي أن يكون حكيماً يملك عقلاً وشعوراً دقيقاً يقدر معه على استعمال هذه الطريقة من البيان بشكل صحيح. وأما المضروب له المثل، فليس فئة بعينها من الناس تتبع نهجاً معيناً، ولكن أناس حالهم حال من غمض عليه الصواب، أو غابت عنه الحقيقة في أمر ما، فاحتاج إلى رفع هذا الغموض أو بيان هذه الحقيقة بوسيلة محببة إلى النفس (كالتصوير الحي) قادرة على الإبانة والإيضاح العميق. وأما الممثل له وبه، فينبغي أن يكون وجه الشبه أو وجه الشبه متحققة وواضحة ومتناسبة بين الطرفين.

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 155. في المطبوع "خفياً" بدل "خفي"، ولعله خطأ مطبعي.

وثمة شروط أخرى لضرب المثل رصدها الفراهي، إلا أنه اعتبرها خاصة بالأمثال البالغة مستوى رفيعاً من البلاغة، واعتبر وجودها "يزيد المثل بلاغة"، وكأن عينه هنا على المثل القرآني، وتمثل هذه الشروط الخاصة في: تركيب الصورة التي يقدمها المثل؛ حتى نتعدد وجوه المقابلة بين طرفيه، وتوضح الصورة للسامع أكثر. ثم تكميل الصورة حتى توحى بالمعنى إلى الذهن بالدرجة المطلوبة؛ كإثبات أنّ المشبه متصف بما اتصف به المشبه به مجرد اتصاف، أو متصف به بشدة وقوة، ثم "فوق ذلك أمر آخر، وهو أن يكون تفاصيل المشبه به المذكورة في المثل مطابقة لتفاصيل المشبه التي لم تُذكر"¹، وبهذا يكون المثل مشعاً بالمعاني التي تبارى العقول والأذواق في الكشف عنها، ويكون لكل عقل وقلب منها نصيب حسب استعداده، وما يهديه الله إليه.

كذلك ليست المشكلة في المثل الرصين هي ضخامة ما يُضرب به المثل أو صغره، ولكن مناسبته، وفي هذا المعنى وقف الفراهي أمام قول الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا"، وعلق عليه قائلاً: "المقصود من المثل ليس نفسه، بل إيضاح أمر ما. واليهود كانوا يضلون على أمثال الإنجيل، وهكذا على أمثال القرآن، فأجاب الله تعالى هاهنا عن اعتراضهم القديم، وبين أنّ إنكارهم نتيجة فسقهم ونقضهم عهد الله، وضلالتهم من الأول"²، أي من البداية.

فالمعول عليه في ضرب المثل هو إيصال الرسالة التي تضمنها، وتبليغ ما حمله به ضاربه من الطاقة المعنوية المقصودة، وبالكم المناسب للسياق والمعنى وللمخاطب والمتكلم، ولا يهم في هذا طبيعة أطراف المثل وطبيعة أجزائه ما دامت محققة للغرض منه؛ لذا ليس لأحد أن يعترض على ضرب المثل ببيت العنكبوت لمن اتخذوا من دون الله أولياء (الآية 41 من سورة العنكبوت)، ولا لضرب المثل لما ينبغي من صلة

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 155 - 156.

² عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 1/234، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس 1433هـ/ 2012م.

المخلوقات بخالقها بصلة الرقيق من البشر بسيدته الذي يأبى أن يشركه في ماله ولا يخاف أن يقاسمه إياه (في الآية 28 من سورة الروم)، بل لو ضرب المثل بالشيء العظيم والمراد هو التهوين والتقليل لكان المثل عاجزاً عن تأدية وظيفته التواصلية.

فوائد ضرب المثل: ومن جهة واقعية رصد الفراهي الفوائد التي يمكن تحقيقها بالمثل، ورأى أنّ ضرب المثل دون أن يكون منه غاية هو من اللغو، وضربه لغاية فاسدة هو إضلال للناس، فلم يبق إلا ضربه لجلاء الحق وبيان الحقيقة؛ لذا قال: "إظهار الحكم هو غاية المثل"،¹ وتفصيل هذا نجده لدى الفراهي في سياق آخر ذكر فيه عدداً من فوائد ضرب المثل؛

وأولها: أنّ المثل يختار صورة واضحة سهلة ليعين الصلة بين طرفي الحكم، وهذا يفيد كثيراً في المسائل التي يخفى فيها نسبة الحكم إلى موضوعه، وكذلك حين يكون الموضوع متصوراً من وجه دون وجه.

وثانيها: فوائد ضرب الأمثال لدى الفراهي: أنّ المثل يبين لطرفي الحكم (المبتدأ والخبر أو الموضوع والمحمول) يعمل على إحضار الحكم في خيال المتلقي، فيكون سنداً للدليل في ترسيخ اليقين لديه؛ أي أنه يصنع للمعنى اليقيني الذي حصل اليقين به بالدليل؛ يصنع له جذوراً نفسية عميقة وقوية لدى المتلقي، فيلتقي اليقين العقلي مع جمال المثل ودقته في تثبيت المفاهيم وترسيخها نفسياً وفكرياً.

كذلك يشارك المثل في رفع الغرابة عن الأحكام التي تبدو لمن لم يعتدها غريبة، وذلك بتمثيلها وتشبيهها بنظير قريب أو معهود.

وأخيراً فإنّ المثل "يجمل على استعمال الفكر والنظر، فيزيدهما قوة".²

ومع هذه الأهمية البالغة لتوظيف الأمثال في البلاغ والبيان، فإنّ الفراهي يرى أنّ

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 155.

² الفراهي: حكمة القرآن، ص 77.

المثل مهما بلغ من الدقة والقوة، فإنه ينتفع به أقوام دون أقوام؛ إذ إن الحق لكي يتلقاه الناس بالإذعان والقبول يحتاج إلى أن يكون المتلقي نفسه على استعداد للقبول به إن ثبتت له حقيقته، لا يمنع من هذا كبر ولا عناد، ومع أن الفراهي أرجع هذا إلى القوى العقلية، فقال عن المثل: "انتفاع الناس به على حسب عقولهم وفكرهم، ولذلك فاسد العقل يضل به لاسيما في فهم الأمثال كما قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ" [البقرة: 26]"¹ مع هذا فيبدو لي أنه قصد الجانب النفسي في عمومته، وليس العقل المجرد وحده، واستشهاده بالآية الكريمة يؤيد هذا.

منهج فهم المثل القرآني: ومن جوانب النظر المهمة في فهم المثل في القرآن لدى الفراهي أنه تبني في تفسير كتاب الله تعالى منهج تفسير القرآن بالقرآن على أنه أولى من غيره في هذا الباب، وأكثر عصمة للذهن من الوقوع في الخطأ في الفهم عن الله تعالى. وقد كانت الإشكالية التي وقف أمامها في هذا الباب - بالنسبة للأمثال القرآنية خاصة - هو أنها جاءت على أعظم وأكمل هيئات المثل؛ دقة في العبارة، وإشراقاً في التصوير، وثراء بالمعاني، وهذا يُحوج المتلقي إلى بذل جهد للظفر بالمعنى، ومن هنا رأى الفراهي أنّ خلط كلام الناس بكلام الله تعالى بقصد تفسيره به يوقع في الغلط، كما حدث مع من أدخلوا من أسلافنا العلوم الوافدة في فهم القرآن والشريعة عموماً.²

وفي تفسير الأمثال القرآنية أيضاً كان يرى البدء في فهمها بتعيين الأمور التي ضربت لها الأمثال، أو ما يمكن تسميته الممثل له؛ وذلك لأنّ "معرفة المشبه مقدمة على

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 156.

² انظر: الفراهي: حجج القرآن، ص 156 وما بعدها. ضرب هنا مثلاً بتفسير الإمام الغزالي للنور المذكور في سورة النور بأنه الله تعالى، لكن الفراهي لم يأت بتفاصيل كلامه، ويمكن مراجعته في: أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، ص 119 وما بعدها، شرح ودراسة وتحقيق: عبد العزيز السيروان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت 1407هـ/ 1986م.

طلب التطابق بينه وبين المشبه به، لاسيما إذا كان بينهما مطابقة من جهة التفصيل، ودلالة على أمور دقيقة¹، فانكشاف معنى المثل لديه بطريقة صحيحة لا يتم إلا بهذه الخطوة؛ لأنّ حضور الممثل له في الذهن ومقابلته بالممثل به تكشف عن المعنى الذي وراء الكلمات التي صيغ فيها المثل. ويجب لذلك أيضاً استحضار "تفاصيل المشبه به قبل التأمل في تطبيقها على تفاصيل المشبه الذي ضرب له المثل"²، وبهذا تقع المقابلة بين طرفي المثل وقوعاً بيناً.

ثانياً: نماذج من تفسير الفراهي لأمثال في القرآن

لم يستوعب الفراهي رحمه الله القرآن كله تفسيراً وبياناً لمعانيه، وإن كان قد ترك لنا منه ما يكفي لفهم منهجه في التفسير كما سبق التنويه بجوانب منه، وكان للأمثال نصيب من الشرح والبيان في تراثه القرآني، وسنعرض فيما يلي لبعض نماذجه:

1. مثلاًن في سورة البقرة لحال قوم يترددون بين نور وظلمات: ورد في أوائل سورة البقرة قول الله تعالى عن قوم لم يصرح باسمهم: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾". [البقرة: 17-20].

ذهب الفراهي إلى أنّ المثل الأول يحكي حال اليهود مع الكتب النبوية السابقة، والثاني يبيّن موقفهم من القرآن، فكان موسى عليه السلام- حسب تحليله المثل

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 159.

² الفراهي: حجج القرآن، ص 161-162.

الأول- "كرجل استوقد لرفقته ناراً في الليل... ولكنهم عصوا بعد العلم مرة بعد مرة وجيلاً بعد جيل، فسلبهم الله الهداية، واختلفوا في كتبهم فوقعوا في ظلمات كثيفة"¹، واختار لضرب المثل موسى عليه السلام دون غيره من أنبياء بني إسرائيل مع أنّ سياق كلامه يشير إليهم على الجملة؛ لأنه أكبر هؤلاء الأنبياء، ولأنّ التوراة التي نزلت عليه بقيت معمولاً بها مع تنابح النبوات فيهم، ونزول الوحي بالكتب على أنبياء آخرين منهم؛ مثل الزبور والإنجيل على داود وعيسى عليهما السلام.

وفي المثل الثاني يقول: "مثل لهم حالة المطر في الليل، فاجتمعت الظلمة من الليل والسحاب المطبق والقَطْرُ (جمع قطرة) التي ملأت الجو، فذلك مثل القرآن لهم، وفيه صاعقة الوعيد، ورعد القول الزاجر، وبرق الهداية الذي لا تحتمله عيونهم العُشْيُ. ولقبولهم بعض الهداية وإنكارهم أخرى حسداً واستكباراً وعصبية، يُشبهون من يمشي في الظلمات ونور البرق الخاطف، فيجري ويقف، ويخاف ويتحذر، ولا ينفعه الحذر، فإن الخطر محيط"².

ثم عَقَّبَ على هذا بقوله: "مما ذكرنا يتبين أنّ المثل الأول تصوير حال الذين كفروا كل الكفر، وقست قلوبهم، وتمت ظلمتهم، والثاني تصوير حال الذين كانوا مذبذبين... فإنّ بعض اليهود قد نبذوا كتابهم فصاروا صماً بكماً عمياً... وبعضهم كانوا يتدبرونه، ويجدون به بشارة هذا النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولكنهم بعد المعرفة لم تطاوعهم قلوبهم أن يؤمنوا به، نخوفهم الله أن يجعلهم كالفئة الأولى فيذهب بسمعهم وأبصارهم"³.

وصرّف المثّلين إلى اليهود بهذه الصورة رأي وجيه، ويدعمه كثرة حديث السورة الكريمة عنهم، وإن كان جمهور المفسّرين على أنّ المقصود بهما المنافقون؛ لأنّ السياق

¹ الفراهي: نظام القرآن، 214/1.

² الفراهي: نظام القرآن، 215/1.

³ الفراهي: نظام القرآن، 216/1.

يتحدث عنهم بعد أن تحدث عن فريق المتقين وفريق الكافرين.¹ وقد يكون التوفيق بين الرأيين سهلاً، وهو أن يقال: إن طائفة من المنافقين كانوا يهوداً، كما كان من المنافقين من يحافظ بشدة على حلفه مع القبائل اليهودية مما كان عُقد بينهم قبل إسلام الأنصار وهجرة المهاجرين إلى المدينة، فكانوا يتولونهم ويدافعون عنهم ويحرضونهم على الكيد للإسلام، وهو ما حكى القرآن أطرافاً منه في مثل قول الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَتَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾". [الحشر: 11].

كما كان موقف اليهود من الإسلام عند نزول سورة البقرة في السنة الثانية للهجرة، وقبل أن تنشب الحروب بينهم وبين المسلمين، أشبه ما يكون بموقف المنافقين؛ إذ كانوا في العلن يسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعقدون معه العهود، إلا أنهم كانوا يخفون خلاف ذلك كما بدا من تصرفاتهم الفردية والجماعية الكثيرة فيما بعد.

ومن هنا ساغ التوفيق أو التقريب بين الرأيين السابقين في تعيين المقصود بالمثلين السابقين من سورة البقرة؛ هل هم المنافقون أو اليهود؟

2. أمثال النور والسراب والظلمات في سورة التور: وردت هذه الأمثال الثلاثة متتابعة في سورة النور في قول الله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

¹ انظر: محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، 1/318 وما بعدها، 1/347 وما بعدها، حقه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرجه أحاديثه: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د. ت.

... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾. [النور 35 و39-40].

ومهد لتفسيرها ببيان أنّ الإيمان بالله يلزم عنه فهم أنه سبحانه في غاية الرحمة، وبهذا الإيمان يحصل الإنسان على العلم (لأنّ الإيمان بالله هو قمة العلم وأصله وأهم حقائقه)، وبه يصلح العمل، ومن حرم الإيمان لا يبقى له علم ولا عمل؛ لأنه لن تكون له غاية حينئذ إلا الحياة الزائلة، "إذا حققت أمره وجدته في ظلمة علمية وبطالة عملية، وهي ظلمة الأعمال، كمن يمشي ولا يعلم إلى أين يذهب، وبخلاف ذلك حال من آمن بالله الواحد الرحيم، فإنه يمشي في النور، يعلم ما يعلم باليقين، ويعمل ما يعمل لغاية حسنى كما قال تعالى: "أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾". [الأنعام: 122]، ثم عقب بقوله: "وبالجملة فهنا أربعة أمور: (1) العلم الحق، و(2) العمل الصالح، وخلافهما: (3) الجهل المظلم، و(4) العمل الباطل السيئ، ولكل من العلم والعمل نهاية، إما الفوز، وإما الخسران".¹

وفي بيان المقصود بالأمثلة الثلاثة على العموم ذهب إلى أنّ مثل النور ضربه الله تعالى للإيمان، ومثل السراب ضربه لأعمال الكافرين، ومثل الظلمات ضربه للكفر، "وصرح بالمشبه والمشبه به في المثل الثاني- كما يقول - ...؛ ليدلّ بالمقابلة على ما قبله وبعده من المثلين، فإنّ التقابل بين العلم والعمل في غاية الوضوح كما هو بين النور والظلمة، وكما هو بين الإيمان والكفر... ثم زاد على ذلك قوله في المثل الأول: "يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ"، فدلّ على أنّ المراد بالنور هو نور الإيمان، وقد كثر في

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 159-160.

القرآن نظائر هذا المعنى".¹

وفي تحليله للمثل الأول من هذه الثلاثة، استعان بالآيات من قوله تعالى: "فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾". [النور: 36-37]، واعتبرها مُدرّجة في المثل الأول، ليثبت أن المقصود بالنور هو- كما ذكر سابقاً- نور الإيمان، فقابلت الآيات في نظره بين صورة النور الساطع في الآية الخامسة والثلاثين وخصائص المؤمنين في الآيتين التاليتين، قال: "فانظر كيف ضرب الله مثلاً لنور الإيمان، حيث شبهه الله تعالى 1- بمصباح في 2- زجاجة يوقد من 3- شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد 4- زيتها يضيء من غير نار، ووصف الزجاجة بقوله: "كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ"، وذكر موضع المصباح في 5- مشكاة، وموضع المشكاة في 6- بيوت رُفعت لذكر الله، فإنّ فيها رجالاً 1- مسبحين لله 2- معرضين عن غفلات الدنيا 3- دائمين في ذكر الله 4- مقيمين الصلاة و5- مؤتئين الزكاة 6- خائفين يوم القيامة. فانظر كيف جمع الأنوار من وجوه ظاهرة وباطنة، فإنّ في الزيتونة البركة وطيب المنبت، وفي الزيت غاية اللطافة والمناسبة بالنور، وفي المصباح أول ظهور النور، وفي الزجاجة اتحاد المصباح كأنها هو"²، فعين المشبه أو الممثل له، ثم ركب الصورة في هيئة طبقات يعلو بعضها بعضاً، أو أجزاء يركب بعضها إلى بعض حتى تكتمل الصورة بمجموعها، واستعان في هذا بالأرقام كي يتضح مراده، فكما أنّ نور المصباح الموضوع في المشكاة والمضروب به المثل يتضاعف مع كل سبب يأتي من

¹ الفراهي: حجج القرآن، ص 160-161، وانظر: عبد الحميد الفراهي: تعليقات في تفسير القرآن، 446/1، إعداد: د. عبيد الله الفراهي وأمانة الله الإصلاحية، الطبعة الأولى، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح بسراي مير أعظم كره، يوبي، الهند 1431هـ/ 2010م.

² الفراهي: حجج القرآن، ص 162. في المطبوع: المعرضين، الدائمين، المقيمين... إلخ، فخذفت "ال" من كل منها؛ حتى تطابق الصفات الموصوف "رجالا" في التنكير، وإلا احتجنا إلى تقديرات نحوية نحن عنها في غنى. وقارن: نفسه، ص 296.

الزجاجة الشبيهة بالكوكب الدرّي والوقود الذي يكاد يضيء، فكذلك الإيمان المضروب له المثل يتضاعف في قلب المؤمن مع كل عمل صالح يعمله.

وقد أضاف الفراهي تحليلات أخرى في بيان الأمثلة الثلاثة؛ خاصة مثل النور، غير أنا نكتفي بما سبق منها، ونترك القارئ ليراجع بقية كلامه في موضعه بعد أن يبيّنه بالقدر الذي يناسب المقام، إلا أنا لا بد أن نؤكد أنّ الفراهي في نقده لمن فسّروا النور في السابق بأنه نور ذات الله تعالى، ذكر كذلك أنّ السلف لما لم يخطوا العلوم الغريبة بالقرآن وتفسير القرآن قد أحسنوا توجيه الآيات، وهذا ما نجده فعلاً لدى مفسّر متقدم نسبياً مثل مكي بن أبي طالب (ت 437هـ)، إذ أورد جملة من كلام السلف في تفسير المثل الأول في آيات سورة النور، وعقب عليه مستلهماً روح كلامهم بقوله: "ليس الله هو النور؛ لأنه قد شبه النور المذكور بالمشكاة الموصوفة، والله لا يشبهه شيء، ولا يشبهه بشيء سبحانه، فوره إنما هو هداه ودلالة خلقه على مصالحهم في دينهم ودنياهم"¹، فبدا توافق نظرة الفراهي مع هذه النظرة الأصيلة، أو اقترابها منها على الأقل.

3. ضرب المثل بحال الإنسان مع مملوكه في سورة الروم: قال الله تعالى: "ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [الروم: 28]، وقال الفراهي تعليقاً على الآية الكريمة: "وهذا من البدييات، ولا تحتاج إلى تقليد وخبر، والدليل أنّ المملوك لا يشارككم في أموالكم؛ فكيف المخلوق يشارك خالقه في ملكه"²، فضرب هذا مثلاً للعلاقة بين الله تعالى وخالقه، ومثلها بالعلاقة بين الإنسان ومملوكه، فلا يرضى الإنسان أن يشاركه عبده فيما يملك، ولا

¹ مكي بن أبي طالب: الهداية إلى بلوغ النهاية، 5099/8، الطبعة الأولى، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة 1429هـ/ 2008م.

² الفراهي: تعليقات، 67/2.

يخاف أن يقاسمه ماله، والله تعالى أولى أن لا يرضى بأن يكون له شريك من خلقه. وفي هذا يقول بعض المفسرين المعاصرين: "ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه... وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليمهم في شيء مما تحت أيديهم من مال، ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الاعتبار".¹

4. ضرب الأمثال بالنساء: أفرد الفراهي حديثاً خاصاً لمسألة ضرب المثل بالنساء في القرآن وهو يفسر سورة المسد وما فيها من شأن امرأة أبي لهب، وذهب إلى أن ضرب الأمثال بالكافرات ليس من قبيل الهجاء والسب لامرأة بعينها، ولو كان هذا مراداً لكانت المرأة التي وضعت السم للنبي صلى الله عليه وسلم في الطعام (زينب بنت الحارث) أولى بالذكر في سياق الذم والسب، وكذلك أبو جهل وأصحابه ممن آذوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إيذاءً شديداً، والرجل الذي أدمى وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد (عبد الله بن قثمة)، والذين آذوه في الطائف حتى أدموا قدميه الشريفتين.

إلا أن هذا ليس نهج القرآن، ولذلك تقف خلف ذكر كل شخص فيه- في سياق مدح كان أو ذم- حكمة كما يؤكد الفراهي، فالله تعالى ضرب مثلاً بأقوام وأفراد للاتعاض بهم، ولم يكف الرجال في هذا؛ لأن بعض الخصال أظهر في النساء منها في الرجال، وتنبهياً من القرآن على "خطر منزلة النساء" لعمق تأثيرهن في أزواجهن وأولادهن، ثم ذكر أن زوجة أبي لهب كانت مفرطة في الشح وحب الزينة، وقد سرى تأثير ذلك إلى زوجها، حتى جمع المال من غير حله، وامتنع عن أداء حقه، وقطع الرحم، وعادى الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم بقسوة، "فإن تبينت هذه الأمور...، ثم رأيت أن الله تعالى أشرك امرأته في عذابه، لم تشك في أنها قد شاركته

¹ سيد قطب: في ظلال القرآن، 2766/5، الطبعة الثانية والثلاثون، دار الشروق، القاهرة 1423هـ/ 2003م.

أسبابه... فَمَا أَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ أَبَا هَبٍّ مَثَلًا لِلرِّجَالِ، ضَرَبَ امْرَأَتَهُ مَثَلًا لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مَعًا، لِيَنْتَهِنَ عَنِ الشُّحِّ وَحُبِّ التَّبَرُّجِ، وَيَنْتَهُوا عَنِ فِتْنَةِ أَزْوَاجِهِمْ وَإِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُنَّ إِذَا صَدَدْنَ عَنِ إِيفَاءِ الْحَقُوقِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الْمَكَارِمِ".¹

واستعمال الفراهي اصطلاح "المثل" هنا ليس بمعنى التصوير والتشبيه لتقريب المعنى، بل بمعنى تقديم شخصية على أنها نموذج لمعنى ما من المعاني الحسنة أو السيئة، وقد قال الفراهي عن ضرب المثل وهو يفسر بعض المواضع من سورة النحل: "له معنيان: جعل له مثلاً، وجعل لإفهامه مثلاً"،² أي أنه كان على وعي بهذا الأمر، وأن ضرب المثل بشخص معين إنما يأتي لإبراز معنى ما من خلاله هو ظاهر فيه من ناحية صفاته أو أوضاعه الاجتماعية وما شابه ذلك، وليس بمعنى ضرب المثل التصويري الذي سبق عرض نماذج منه.

ثالثاً: أمثال ضربها الفراهي بنفسه

اهتم الأستاذ الفراهي في إنتاجه العلمي بتقريب المعاني وإيضاحها، واستعان في هذا بأدوات متعددة؛ منها: التكرار، والإسهاب في الشرح،³ وتعدد الأدلة على المسألة الواحدة، وضرب أمثال من عنده. ويدل هذا الأخير على أهمية الأمثال لديه، وهو من التأثير الواضح بالقرآن ونهجه في البيان.

وقد بدا الجمال والطرافة على كثير من هذه الأمثال التي صنعها الفراهي، كما بدت الدقة ظاهرة على طائفة منها، وتعددت موضوعاتها ما بين مسائل اعتقادية وعبادية واجتماعية وفكرية.

¹ الفراهي: نظام القرآن، 887/1، في المطبوع "سددن" بدل "صددن". وقارن به أمثال سورة التحريم الأربع: السابق، 522/1-528

² الفراهي: تعليقات، 353/1.

³ كثير من مؤلفات الأستاذ الفراهي مات قبل تمام تأليفها؛ لذا لا تبدو عليها هذه الخاصية، وربما بدت في الأجزاء التي أتمها من كتاب دون التي لم يتمها منه.

ومن أمثله هذه: قوله في بيان منزلة الرسول من قومه: "الني هو القلب الحساس لقومه، فهو منهم بمنزلة السمع والبصر والفؤاد، فكما يجب على الناس إطاعة نور قلوبهم، فكذلك يجب على جماعتهم الطاعة لنبيهم، وكما أنّ الفاجر يخالف نور قلبه ويُطعم شهواته مع علمه بفجوره، فكذلك الفجار يعصون النبي مع معرفتهم بصحة رأيه ونصحه ومودته"،¹ فطرفا المثل هما: حال الأقوام مع أنبيائهم، وحال الإنسان مع نور قلبه وثمره فكره، فكما أنّ القلب المقبل على الحق مخلّصاً في طلبه يضيء له نور يهديه إليه، فكذلك نظرة الناس إلى نبيهم طالبين الحق بإخلاص تؤدي بهم إلى طاعته واتباعه.

وقد نستخرج من هذا النص مثلين اثنين لا واحداً، الأول: مثل من أقبلوا على النور النبوي مؤمنين مصدقين وتشبيه هذا بمن يسلم للحق حين يشرق على نفسه، والثاني: مثل المعاندين للنبوة مع تجلي صدقها ووضوح برهانها وتشبيهه بالمعاندين للحق الذي أشرق على نفسه وقلبه ولكنه صدّه ورفضه.

وفي المثلين تشبيه للجمع بالمفرد كما يبدو من ظاهر الكلام، إلا أنه في الحقيقة تشبيه حال جمع بحال مفرد، وقد عرض الإمام محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ) لهذه القضية في تفسيره عند تأويله قول الله تعالى: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...". [البقرة: 17]، فذكر أنّ له أمثالا في القرآن مما يبدو أنه تشبيه جمع بمفرد، منه قول الله تعالى: "تَدْوَرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ". [الأحزاب: 19]، ثم أوضح المسألة في آية البقرة بأنّ تمثيل جماعة من المنافقين بمستوقد واحد "إنما جاز لأنّ المراد من الخبر عن مثل المنافقين الخبر عن مثل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيره مستبطنون؛ من اعتقاداتهم الرديئة، وخلطهم نفاقهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر. والاستضاءة- وإن اختلفت أشخاص أهلها- معنى واحد لا معان مختلفة".²

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: القائد إلى عيون العقائد، ص 142، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، أعظم

كره، يوتي، الهند 1431هـ/ 2010م.

² الطبري: جامع البيان، 1/318-319.

ولو نقلنا هذا إلى لغة أكثر استعمالاً للمصطلحات المعهودة، لقلنا: إنه تشبيه حال جماعة بحال فرد، وليس تشبيهاً لجماعة كاملة بفرد واحد، ومن هنا ساغ التشبيه، فالجماعة المطيعة لنبيها في المثل الذي ضربه الفراهي حالها كحال من أطاع نور فؤاده ولبه، وحال من عصوه كحال من عصا هذا النور الذي يشرق على العقول والقلوب بالحقيقة.

ومن أمثلة الفراهي كذلك ما أوضح به إعداد الأنبياء لتلقي الوحي من الله تعالى، فقال: "كلام الله المسموع يأتي النبي بعد إصلاح قلبه، كما أنّ البذر يُلقى في الأرض بعد إصلاحها، وذلك تأويل شرح صدر النبي وغسله"¹، والصورة مقابلة بين مشهد الأرض التي يحرثها أصحابها لإعدادها للزراعة والغرس، والنبي الذي يُعده ربه تعالى لتلقي كلام الله تعالى ووحيه سبحانه؛ إذ يحتاج هذا التلقي إلى قوة وإلى نقاء؛ لأنّ الوحي قول ثقيل، وتلقيه ليس ككلامي أي كلام آخر، فإذا جُلب قلب النبي وصُقل فؤاده كان مستعداً لتحمل القول الثقيل، وتبين الرسالة المرادة من الوحي النازل عليه.

والمثل شبه هذا الإعداد للنبي بفعل الحرث للأرض إعداداً لها كي تنبت حين تتلقى البذور، وليس من شروط المثل المطابقة التامة بين المشبه والمشبه به فيه، فقد ضرب الله تعالى المثل لحال عبده الموحد معه سبحانه بحال العبد يملكه سيّد واحد من الناس، ولحال المشرك به تعالى علواً كبيراً بحال عبد يملكه عدد من السادة المتنازعين؛ قال سبحانه: "صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا". [الزمر: 29]، ولا يعني هذا أن نقول بالمطابقة بين أطراف التمثيل في الآية، ولهذا لا ينبغي أن يقال إنّ المثل الذي ضربه الفراهي لإعداد النبي

¹ الفراهي: القائد، ص 147. أما شرح صدر النبي صلى الله عليه وسلم فقد ورد في "سورة الشرح"، وأما غسل قلبه الشريف فقد وردت فيه أحاديث صحيحة، منها ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فُجَّ سَقْفَ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيْلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَشَقَّ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلَى حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي" صحيح مسلم، الحديث رقم 263، 88/1، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات.

للسلالة وتلقي الوحي وشبهه فيه بإعداد الأرض وحرثها كي تنبت؛ لا يقال: إن هذا يعني أن النبي بعد هذا يستولد الوحي من داخله، ويستغني عن الوحي الخارجي، فهذا ليس مراداً من المثل.

ولعل الأصح أن نقول في فهم مثل الفراهي: إن الإعداد الرباني للنبي يجهزه لتلقي الوحي الدائم إلى أن تنتهي حياته في هذا العالم، وهو مثل البذور التي تأتي الأرض من خارجها، لكن هذا الوحي الدائم نفسه يطلق الحكمة من لسان النبي، كما هو شأن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الذي آتاه الله الكتاب والحكمة، أو الكتاب ومثله معه.¹

وفي موضوع آخر فكري أراد الفراهي أن يؤكد أن خطأ العقل والحس لا يعني ترك أحكامهما، فقال: "إن قائد الجيش ربما يخطئ، وسيد القوم ربما يخطئ، فلا ينبغي لتابعيه أن يتركوه، فإن الخطأ ههنا من حالات خاصة لا تبطل مزية فضله وعقله، فإن أعضاءنا يطيعون رأينا وإن كان الرأي أحياناً يغلط"،² وهو تشبيه جميل وموج ومتعدد كذلك؛ إذ نشأت لدى أهل الجدل والسفسطة شبهة أن العقل يغلط أحياناً في أحكامه، والحس كذلك قد يظن أن شيئاً قيل لم يقل، أو شيئاً موجوداً وهو مجرد خيال أو سراب، فدعاهم هذا إلى الشك في ما تأتي به وسائل الإدراك، أي العقل والحس، شكاً عاماً، بل أنكروا المعرفة إنكاراً.

وهذا التمثيل لحال من رفض أحكام العقل والحس لأجل وقوعهما في الخطأ أحياناً شبه المثل المذكور بحال قائد الجيش أو سيد القوم الفاضل العاقل، وأن خطأه في بعض الحالات لا يعني إسقاط قيادته، والامتناع عن طاعته واتباعه. ومما جعل

¹ قال الله تعالى: "وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا". [الأحزاب: 34]، وجاء في الحديث النبوي: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" رواه أبو داود في سننه، الحديث رقم 4604، 13/7، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حققه وضبط نصه ونرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ومحمد قره بللي وعبد اللطيف حرز الله، الطبعة الأولى، دار الرسالة العالمية، بيروت 2009هـ/1430م.

² الفراهي: القائد، ص 157.

المثل مشرقاً جميعاً هذا التقابل بين حالات إدراكية نظرية وأوضاع اجتماعية تتجلى في حياة الجماعات البشرية في شتى بقاع الدنيا وسائر مراحل التاريخ.

وفي قوله في نهاية النص السابق: "إنّ أعضاءنا يطيعون رأينا وإن كان الرأي أحياناً يغلط" مثل تصويري آخر، إذ شبه لزوم طاعتنا للعقل والحس، مع وقوعهما في الغلط أحياناً، بطاعة أعضاء جسمنا لما اختارته عقولنا من المواقف والأفعال والتروك، وهو مثل لطيف كما يظهر؛ خاصة لجمعه بين طرفي التشبيه في الممثل له (طاعة العقل والحس) والممثل به (طاعة الحس أو الأعضاء للعقل).

وقد سبق تمثيله للخطأ في المثل بالخطأ في القياس، وأنّ امتناع الإنتاج في القياس يرجع إلى نقص في شروط الإنتاج، وأنّ هذا هو حال المثل كذلك، ولما لم يكن هذا داعياً إلى إهمال القياس، فإنه بالمثل لا يعني الاستغناء عن ضرب الأمثال وتوظيفها في التواصل.

ويذهب فقهاء الشريعة إلى القول بتأسيس ظواهر الشريعة على لبها وقلبا وأنّ الظواهر مطلوبة ولازمة، إلا أنّ البواطن والحقائق والمقاصد هي التي تمنحها معناها، وتعطيها قيمتها، وتحولها إلى رمز عميق ذي دلالة في التعبير عن جانب أو آخر من الدين، وقد وافق الشيخ على هذه الرؤية، وحين أراد أن يصور هذه العلاقة قال: "ظواهر الشريعة مع أصولها وحقائقتها كعامّة الناس مع العلماء وأخبارهم، ولا ترى غلبة السّفلة على العالية إلا بغلبة ظاهر الشريعة على مخنها"¹ في فهمهم وتفكيرهم، والتصوير يوجد في العبارة الأولى؛ إذ صورّ حقائق الدين وظواهره بعامّة الناس وأفاضلهم في العلم والعمل.

وأخيراً ضرب الفراهي مثلاً لما يبتي الله به عباده في الدنيا قائلاً: "هذه الحياة الدنيا مثل جزيرة ذات أشجار وأزهار وملاعب، ووقعت نار في جانب منها، والريح تهب، والنار تسرع وتحيط حتى لا ينجو منها أحد، وإذا بسفينة والبحر متلاطم، ويدعو الربُّ أهل

¹ الفراهي: حكمة القرآن، ص 69.

الجزيرة إلى السفينة، فمنهم من خاف السفينة وفر منها وأسخط الرب بسيئاته، فتركهم الرب، ومنهم من ألقى نفسه في السفينة طوعاً، ومنهم من رحمه الرب بحسناته فألقاه في السفينة كرها، ومنهم من ألقاه الملائكة في السفينة ولكنه لم يصبر وأساء الظن بها فألقى نفسه في البحر، فأفلح من صبر، وهلك من جزع"¹، وهي أشبه ما تكون ببيان الهداية والضلالة في هذه الحياة، وأن الله تعالى يفعل في كونه ما يشاء، إلا أنه تعالى لحكمته ربط الأمور في العادة بقوانين وأسباب، حتى في مسألة الهداية والضلالة.

خاتمة: يمكن في ختام هذه الدراسة استخلاص النتائج التالية منها:

- (1) أن ضرب الأمثال وسيلة معتبرة في الكلام العالي، وليس مجرد تزيين لفظي للمعاني، ولا هي من الوسائل الخاصة بعامة الناس مما يحقق لهم التشويق دون أن يعطيهم فائدة؛ لذا أكد الفراهي عموم اهتمام الناس بالأمثال، ومنهم الأنبياء والفلاسفة.
- (2) اهتم الأستاذ الفراهي بأمثلة القرآن نظراً وتطبيقاً، ودافع عن هذه الطريقة في البيان، واعتبرها طريقة للاستدلال والإثبات بإيضاح ما غمض من المعاني.
- (3) وافق الفراهي أهل العلم في توجيه الأمثال القرآنية التي حلّ لها، وإن بدا له اجتهاد خاص في بعضها، فإنه لا يبتعد كثيراً عن الموروث عن السلف الأول في توجيهها.
- (4) تأثر الفراهي باهتمام القرآن بضرب الأمثال للناس، فلجأ إليه ضمن وسائله التعبيرية الأخرى التي خاطب قُراءه بها.

¹ الفراهي: القائد، ص 80.

المصادر والمراجع

- بكر، د. محمد بكر إسماعيل:
الأمثال القرآنية.. دراسة تحليلية، الطبعة الأولى، مطبعة الأمانة، القاهرة 1406هـ/ 1986م.
- الترمذي، الحكيم محمد بن علي:
الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة 1395هـ/ 1975م.
- التوحيدى، أبو حيان:
الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح عربيّه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ب. ت.
- خليفة، د. محمد خليفة حسن:
مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، بدون بيانات.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني:
سنن أبي داود، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط
ومحمد قره بللي وعبد اللطيف حرز الله، الطبعة الأولى، دار الرسالة العالمية، بيروت 1430هـ/ 2009م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله:
البرهان في علوم القرآن، تحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي وجمال حمدي الذهبي
وإبراهيم عبد الله الكردي، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت 1410هـ/ 1990م.
- سليمان الحكيم:
أمثال سليمان الحكيم بن داود، طبعة قديمة لترجمة قديمة مكتوب في نهايتها: "طبع في
بيروت سنة 1842 مسيحية" بدون ذكر لمطبعة.

- سميرة عدلي محمد رزق:
وجوه البيان في أمثال القرآن، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا العربية، فرع الآداب، مكة المكرمة 1406-1407هـ/ 1986-1987م.
- الطبري، محمد بن جرير:
جامع البيان عن تأويل القرآن، حققه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د. ت.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد:
مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، شرح ودراسة وتحقيق: عبد العزيز السيروان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت 1407هـ/ 1986م.
- الفراهي، عبد الحميد:
تعليقات في تفسير القرآن، إعداد: د. عبید الله الفراهي وأمانة الله الإصلاح، الطبعة الأولى، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح بسراي مير أعظم كره، يوبي، الهند 1431هـ/ 2010م.
- حجج القرآن.. الحكمة البازغة والحجة البالغة، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح بسراي مير أعظم كره، يوبي، الهند 1437هـ/ 2016م.
- حكمة القرآن، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية مدرسة الإصلاح بسراي مير أعظم كره، يوبي، الهند 1437هـ/ 2016م.
- القائد إلى عيون العقائد، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، أعظم كره، يوبي، الهند 1431هـ/ 2010م.
- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس 1433هـ/ 2012م.
- قطب، سيد:
في ظلال القرآن، الطبعة الثانية والثلاثون، دار الشروق، القاهرة 1423هـ/ 2003م.

- مرقس:
الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل مرقس، الطبعة الثلاثون، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصدار الرابع 1993.
- مسلم بن الحجاج القشيري:
صحيح مسلم، عناية: أبي قتيبة نظر محمد الفريابي، الطبعة الأولى، دار طيبة، الرياض 1426هـ / 2006م.
- مكي بن أبي طالب:
الهداية إلى بلوغ النهاية، الطبعة الأولى، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة 1429هـ / 2008م.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة:
أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق 1412هـ / 1992م.

مكانة كتاب "نظام القرآن" للعلامة عبد الحميد الفراهي، بين المؤلفات المحررة في نظم القرآن ومزاياه المنهجية والعلمية

- د. محمد فضل الله شريف¹

الحمد لله الذي أنزل القرآن كتاباً محكماً متشابهاً، وجعله هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

يُعدّ نظم القرآن الكريم من أدقّ وأعمق القضايا المتعلقة بفهم كتاب الله تعالى، إذ لا يقتصر على الجوانب البلاغية أو اللغوية الجزئية؛ بل يتجاوزها إلى الكشف عن البنية الكلية للخطاب القرآني، وعن العلاقات العضوية بين الآيات والسور، وقد تنبّه علماء الإسلام منذ القرون الأولى إلى هذا المعنى، إلا أنّ جهودهم - على جلالها - ظلت في الغالب جزئية أو استقرائية غير مؤطرة بمنهج تفسيري مستقل.

وفي العصر الحديث، برز الإمام عبد الحميد الفراهي (ت 1349هـ) بوصفه من أكثر العلماء عناية بهذا الجانب، حيث ألف كتابه الشهير "نظام القرآن"، الذي يعدّ منعطفاً مهماً في تاريخ الدراسات القرآنية، إذ نقل البحث في النظم من مستوى الإشارات والتناسبات الجزئية إلى مستوى النظرية التفسيرية المتكاملة.

ويهدف هذا البحث إلى:

بيان مفهوم نظم القرآن وتطوره في التراث.

استعراض أبرز المؤلفات المحررة في هذا الباب قبل الفراهي.

¹ الأستاذ المساعد بكلية إيه كيه إيم الشرقية (التابعة للجامعة العثمانية) غانثي غورة، حيدرآباد

إبراز منهج الإمام الفراهي في كتاب نظم القرآن.

تحديد مكانة هذا الكتاب بين تلك المؤلفات.

الكشف عن مزاياه العلمية وأثره في الدراسات القرآنية.

مفهوم نظم القرآن: يقصد بنظم القرآن- في أصله العام- الترتيب المحكم الذي جاءت عليه ألفاظ القرآن ومعانيه، والانسجام الدقيق بين أجزائه، بما يحقق مقاصده الكلية. ويشمل هذا المفهوم:

نظم الألفاظ في الجملة وترتيب الآيات داخل السورة، والعلاقة بين مقاطع السورة الواحدة، والتناسب بين السور في ترتيب المصحف، ووحدة القرآن كله كوحدة موضوعية كبرى، وقد عبر العلماء عن هذا المفهوم بألفاظ متقاربة، مثل:

التناسب، الارتباط، المناسبة، حسن الترتيب غير أن اختلاف الاصطلاح لا يعني اختلاف المقصد العام، وهو إثبات أن القرآن ليس مجموع آيات متفرقة، بل كتاب محكم البناء.

وإلى ذلك يشير الزركشي فيقول: "إنه الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه، وأنّ التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه، أن الله أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أنّ أحداً من البشر لا يحيط بذلك، وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة"¹.

1 الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 79/2، دار إحياء الكتب العربية عيسى بالباني الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان. د.ت.

جدور الاهتمام بنظم القرآن في التراث العربي:

أولاً: دلائل القرآن: عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ): يُعدّ الجرجاني المؤسس الحقيقي لفكرة النظم البلاغي، حيث قرّر في دلائل الإعجاز أنّ الإعجاز لا يكمن في المفردات، بل في طريقة تأليفها. غير أنّ بحثه كان بلاغياً في المقام الأول، ومنصباً على الجملة والنص الجزئي، غير معني بوحدة السورة أو القرآن كله.

فيقول الزركشي وهو يلقي الأضواء على إعجاز القرآن في كتاب الله العزيز العلام، ثم تطرّق الحديث في وجوه إعجاز القرآن، فيقول: "فقلنا: أعجزتم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطععه، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبية، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان وبرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينوب بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والثاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حك بياFOXه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تقول".¹

البرهان في علوم القرآن: الزركشي (ت 794هـ): خصّص في البرهان في علوم القرآن باباً لعلم المناسبة، وأشار إلى الحكمة في ترتيب الآيات، وجود روابط دقيقة بين المقاطع، إلا أنّ معالجته كانت جمعية وصفية لا تأصيلية.

فيقول في مقدمة كتابه: "إلى غير ذلك مما أجرى الصياغة البديعة، والصناعة الرفيعة، فالآذان بأقراطه حالية، والأذهان من أسماطه غير خالية فهو من تناسب ألفاظه

1 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: 40/1، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني، بجدة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م.

وتناسق أغراضه قلادة ذات آساق، ومن تبسم زهره وتنسم نشره، حديقة مبهجة للنفوس والأسماع والأحداق، كل كلمة منه لها من نفسها طرب، ومن ذاتها عجب، ومن طلعتها غرة، ومن بهجتها درة، لاحت عليه بهجة القدرة".¹

الإتقان في علوم القرآن: السيوطي (ت 911هـ): تناول علم المناسبات في الإتقان، ونقل أقوال العلماء، لكنه لم يقدم نظرية مستقلة. فيقول: في تذكرة الشيخ تاج الدين السبكي ومن خطه نقلت سأل الإمام ما الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح والكهف بالتحميد وأجاب بأنّ التسبيح حيث جاء مقدم على التحميد نحو: {فسبح بحمد ربك} {سبحان الله والحمد لله} وأجاب ابن الزمكاني: بأن "سورة سبحان" لما اشتملت على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبه تكذيب لله سبحانه وتعالى، أتى "سبحان" لتنزيه الله تعالى عما نسب إلى نبيه من الكذب وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين بل أتم عليهم النعمة بإتزال الكتاب فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة".²

كتاب نظم الدرر للبقاعي: أوسع الكتب في باب التناسب، وتوسّع في بيان العلاقات بين الآيات والسور؛ لكنه، وقع في التكلف أحياناً. لم يضع معياراً ثابتاً لما يسميه "مقصود السورة". مثلاً يقول في سورة الناس وبيان التناسب بين السور:

"لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة

1 الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ¼، المصدر السابق

2 السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 640، تحقيق: العلامة شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م

فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعائب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعائب الداخلة اللاحقة للنفس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر".¹

نظام القرآن وتأويل الفرقان للفراهي

جمع بين التراث العربي الأصيل والدقة المنهجية. تميّز بالاستقلال العلمي ونقد التقليد، وهو كتاب أصولي في التفسير، يهدف إلى إثبات أنّ القرآن كتاب واحد متماسك، لا يفهم إلا من خلال نظمه.

وأما النظام عند الفراهي، ما يسميه المعاصرون بالوحدة الموضوعية، فكل سورة لها موضوع معين، يسميه الفراهي "عمود السورة" تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً، ويختلف النظام عن التناسب الذي عني به جماعة من علماء القدامى، وعدوه علماً شريفاً مستقلاً، والفرق بينهما:

"إنّ التناسب جزء من النظام، فإنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، وربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئاً واحداً، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإنّ الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فإنّ عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً.

وكذلك منها مما نرى فيه اقتضاباً بيناً بحيث كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة

¹ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 424/22، دارالكتاب الإسلامي، القاهرة. د.ت.

بالتي على بعد منها".¹

يعني المراد بـ"النظام" أن تكون السورة كاملاً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتالي قبلها أو بعدها على بعد ما، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة معترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذات مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول والآخر، ولكن الأئمة المتقدمين لم يراعوا بذلك رعاية تامة، والفراهي يهتم بهذه الأمور، ويطبّق تطبيقاً كاملاً للمناسبات والنظام القرآني.

فالنظام هو الذي يعطي السورة عند الفراهي مناسبة تامة مستقلة بنفسها ذات عمود تجري إليه أجزائها، ولا بد لحسن النظام من أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، قوي الوحدانية.²

والنظام عند الفراهي ليس أمراً مقصوداً بنفسه، وإنما هو المنهج الصحيح، الطريقة الصحيحة لتدبر القرآن، وفهم وعقله، وهو الحكم عند تراكم الأقوال وتضاربه، وهو المرجع عند تعدد الاحتمالات، وهو المفتاح الذي المهم الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن الكريم.

الأسس المنهجية للكتاب

- وحدة السورة الموضوعية (عمود السورة): إنّ المراد بالوحدة الموضوعية أو "عمود السورة"، يعني المحور الأساسي والموضوع الأساسي الذي تدور حوله السورة بأكملها؛ لأنّ الفراهي يعتقد أنّ كل سورة من سور القرآن الكريم لها موضوع معين يمثل عمودها، وكل آية أو مجموعة آيات في السورة ترتبط بهذا العمود برباط معنوي محكم.

لأنّ الفراهي يرى أنّ القرآن الكريم كله مرتب منظم، من أوله إلى آخره، على غاية

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: دلائل النظام: 74-75، المطبعة الحميدية، 1388هـ

² المصدر نفسه: 75

حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقتصاب (التقطيع). حتى إنه يفرق بين النظام والتناسب، فالتناسب الذي اعتنى به بع العلماء كالبقاعي هو: الربط بين الآيات المتجاوزة أو السورة المتتابعة، والنظام: (عمود السورة) هو أعم وأشمل، فهو يكشف عن كون السورة بأكملها "شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه" له غرض رئيس واحد، أنه يصل إلى تلك العمود بتفسير القرآن بالقرآن، وهو الأصل الأصيل عنده، والتدبر العميق في السورة ثانياً، للوصول إلى الغاية الكبرى والمقصد الأسمى الذي تدور حوله السورة، مراعاة السياق: الانتباه إلى سياق الآيات والسورة بشكل عام، ويتكل على محاور السورة ومحورها الرئيسي، ربط الأجزاء والمواضيع الفرعية (مقاصد السورة) بالعمود الأساسي (المحور الرئيسي). فيقول في سورة تفسير سورة الكوثر تحت عنوان "عمود السورة وربطها بما قبلها وبعدها":

"قد مرّ في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها، وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباؤوا بالويل واللعنة.. ولا شك أنّ هذا العطاء هو الفوز الكبير والخير الكثير، وهو الضمان للحوض الكثير الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة، فوضع هذه السورة بالتي قبلها للحوض الكثير الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة، فوضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النعمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المهلكين، وذلك أسلوب عام للقرآن الكريم.. ثم لما كانت هذه السورة بشارة للنبي بكثرة أحبائه، ويقطع أعدائه، عن بركات الكعبة جاءت سورة الكافرون بياناً لأصل هذه المقاطعة، وهو التوحيد الذي بني عليه هذا بيت الله، وهذا إجمال القول في عمود السورة وربطها، وأما الاطمئنان بما ذكرنا فيرجي من تفصيل يبتعه"¹.

وهذا استمر الفراهي في بيان تفصيل إلى ثلاثين سبعة يا لها من عجب العجاب الذي

1 الإمام الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: 779/1، 789، دار الغرب الإسلامي، تونس.

أتى به في كتابه في بيان الترابط بين السورة المتقدمة والمتأخرة وفي السورة نفسها.

- تفسير القرآن بالقرآن: يرى الفراهي أنّ القرآن الكريم نظام محكم متكامل، وأنّ آياته وسوره ليست متفرقة؛ بل هي بناء واحد، وهذا النظام هو الإقليد الذي تفتح به كنوز القرآن، لأنّ تفسير القرآن بالقرآن لا يقتصر لديه على مجرد إيراد آية تفسر أخرى، بل هو جزء من عملية أوسع للكشف عن عمود السورة ونظامها الداخلي والخارجي.

فأساس منهجه هو "تأويل الفرقان بالفرقان" أي أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وهو يعتبر هذا هو الطريق الصحيح لتدبر القرآن، ومرجاً عند تضارب الأقوال وتعدد الاحتمالات.

فيقول عند قوله لتفسير سورة العصر عند آية "وعملوا الصالحات" يعني العمل الصالح ما به صلاح الخلائق وتكميلها.

فيقول الله عزّ وجلّ: "وعملوا الصالحات" قول جامع لأشتات الأعمال الحسنة، وهذا ظاهر، ولكن اللفظ دلالة على حكمة عظيمة، وهي أنّ الحسنات لما سماها الله "صالحات" علم الإنسان بذلك أنّ فيها صلاح حاله، وقوام أمره في معاشه ومعاده، وأفراده وجماعته، وجسمه وعقله، وقبله، فالعمل الصالح ما به حياة الإنسان ونماؤه، حسبما أودع الله في فطرته واستعداد خلقته، فبه يتم غاية وجوده حتى ينتهي إلى كماله، وهو المراد بفطرة الإنسان، كما قال تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (التين: 4) وهو المراد من العبادة، كما قال "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات: 56) أي لطاعتي، وبها صلاح نفسه وسائر الخلق، لأنّ الإنسان جزء من العالم بأسره، فالصالح من أعماله ما يجري حسب حكم أودعها الله في خلاقته، وتديبر قدره في كلية نظامه.¹

- السياق هو المربّح الأعلى: تنبثق مكانة السياق العليا عند الفراهي من نظريته

1 المصدر نفسه: 702

الأسياسية "نظام القرآن" (أو الوحدة الموضوعية) والتي تقوم على أنّ القرآن ليس مجرد مجموعة من النصوص المتفرقة، بل هو بناء متماسك، بحيث تتآزر كل آية في السورة لخدمة هدف واحد ومركزي، فرة باعتبار السياق يرحح في الألفاظ المشتركة، ويحلّ المشكلات، والإبهامات (المشكلات القرآنية)، ويعين سبب ورد الآية، يعني السياق عند الفراهي هو الدليل العقلي والبنائي الأعلى الذي يستنبط منه مراد الله، وهو بذلك يقدمه على الأدلة النقلية الجزئية التي قد لا تتوافق تماماً مع نسيج السورة الكلي. فإلى ذلك سياق الآيات ودلالاتها على المفاهيم والعاني يئنه الفراهي:

"والآن انظر في قوله تعالى: "والشمس" إلى قوله تعالى " (دساها) تبين تأويلها، وهو أنه تعالى كما جعل العالم الجسماني ذا طرفين: ضياء وظلمة وعلو وسفل، وجعل في كل طرف مصلحة، وفي جمع الطرفين مصالح أخر من تربية الإنسان، فإنه طحا الأرض، وذلها، فأثبت منها متاعاً وبلغه، وغشى الليل فجعلها سباتاً سكاً فكذلك في عالم النفس جعل الليل والنهار والأرض والسماء، وجعل فلاحها في هذا التدبير" ويقول أخيراً: "وعلمنا بسياق هذه الآيات وأمثالها أنّ كل ذلك لتربية النفوس وتزكيتها، فهي اللب في تلك القشور، والجوهر في هذه الصخور".¹

- رفض التكلّف في التناسب: الشيء المهم الذي يميز الفراهي عن الآخرين في نظم القرآن وترتيبه، والتناسب فهو أنه لا يتكلف كثيراً في إيجاد التناسب بين الآيات، بل يرفض التكلّف رفضاً باتاً، أنه لا يكثف الجهود في محاولة إيجاد مناسبة أو رابطة بأيّ ثمن، حتى لو كان المعنى ضعيفاً أو أدى إلى صرف الآية عن معناها الظاهر، (نعوذ بالله) بل لا بد العلاقة المعنوية والوحدة الموضوعية التي قصدها الشاعر، مما يفقه به عمود السورة ومحورها الأساسي. فيقول:

"فإن شاء ربي سيجلي لنواظرك من "نظام القرآن" وتأويل الفرقان بالفرقان" سفراء، بديعاً في خصائصه بكرة، تجد أسفار القوم عن معظمها صفراء، كاشفاً لك عن بديع نظام القرن سترًا، متمسكاً بآياته في التأويل، فكأنني نذرت نذرا، أن أتمسك بآيات الله ونظامها، فلا أجاوز عنها شبرا، ناشراً بين يديك حبرات من معجز بلاغته نشرًا، مطلعاً بك على ذروة الحكمة التي تعجز الحكاء دونها بهرا، معتصماً بأصول راسخة للتأويل يدعن لها أولو النهي إلا غمرا".¹

- اللغة العربية أساس الفهم: إنَّ الفراهي يرى أنَّ القرآن الكريم ليس مجرد مجموعة من الآيات المتفرقة، بل هو بناء محكم متناسق النظم حيث ترتبط كل سورة بأخرى، وكل آية بآية، وتخدم جميعها فكرة مركزية واحدة السورة، وخاصة أنَّ العربية وفهمها شيء مهم لفهم الترابط اللغوي والبلاغي بين الجمل وال فقرات، وهذا يتطلب إحاطة واسعة بأسرار اللغة العربية. وكتابه "دلائل النظام" وهو كتاب مهم يوضح فيه نظريته عن النظم والترابط في القرآن، وكيف أنَّ اللغة هي الأداة التي تكشف هذا النظام.

مكانة كتاب "نظام القرآن" بين المؤلفات المحررة

إنَّ الفراهي يعد من أبرز المجددين الذين تناولوا قضية "نظم القرآن" (أي التناسق والترابط بين آيات السورة الواحدة وبين السور) وفصلوا فيها القول، وبل جعلوها أساساً ومنهجاً لتفسير القرآن، وهو لم يكتف بتناول المناسبة بين الآيات أو السر كسألة جزئية كما فعل بعض المتقدمين، بل أقامها نظرية مستقلة مثلاً إنَّ الفراهي في النظم يلتقي مع ما كتبه الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل القرآن" من الحديث عن النظم وسره في بيان المعنى لكن الفراهي اقترق عنه بما أورده من نكت

1 المصدر نفسه: 12

وفوائد خاصة بالنظم القرآني المتمثل في ربط الآيات والسور.

من حيث التأصيل: من حيث البناء والتأصيل للقواعد المنهجية المعرفية للنظم القرآني، يمكن القول أنّ الفراهي يتمتع بمكانة عالية غير عادية؛ لأنه لم يكتف بتوظيف "علم المناسبة" كفن بلاغي إضافي (كما فعل بعض من سبقوه) بل أصله كمنهج كامل وشامل لفهم القرآن، مؤسساً نظريته على أنّ القرآن كله وحده متكاملة ومتماسكة.

كما أصل الفراهي مصطلح "عمود السورة" (أو الغرض الأصلي للسورة) واعتبره مفتاحاً لفهم النظم، هذا العمود هو الفكرة المركزية التي تدور حولها السورة، وكل آياتها مقدمات أو نتائج أو براهين له، هذا التأصيل قدّم أداة منهجية جديدة لتحليل السورة، كما أنشأ فكرة أنّ النظم مظهر الإعجاز الأساسي للقرآن، وأنّ التفاسير التي لا تدرك هذا النظم تفقد جانباً مهماً من إعجازه وبيانه، لأنّ الفراهي كان لغوياً مدققاً، واستخدم قواعد اللغة والبلاغة في خدمة التفسير. فيقول في موضع من كتاب "دلائل النظم":

وقد ترى أنهم أفروا بذلك واشتغلوا بالعلوم التي هي وسائل إلى فهمه، وأكثروا في تفسير الكتاب، ولم يتركوا من هذه العلوم ما يظنونها نافعا لهذا المطلب الأساسي، وجمع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف تكثر بهم الآراء... فإنّ فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام وإنه هو السبيل الوحيد إلى فهمه.¹

نقل علم المناسبة من الجزئية إلى الكلية: كان علم المناسبة قبل الفراهي ينظر إليه كـ"فن" بلاغي ثانوي أو وسيلة لإزالة شبهة التفكك، ولم يكن يعتبر أصلاً من أصول التفسير، لأنّ التركيز الأساسي عند المفسرين الآخرين (مثل البقاعي في "نظم الدرر" أو السيوطي في "أسرار ترتيب القرآن") ينصب على مناسبة الآية للآية التي تسبقها مباشرة (جملة بجملة) ومناسبة نهاية السورة لبدايتها، ومناسبة السورة للسورة التي تليها مباشرة.

1 الإمام الفراهي، دلائل النظم، المصدر السابق

قام الفراهي بتحليل هذا الفن الجزئي إلى "علم أصيل" ومنهج تفسيري متكامل، مؤسساً ذلك على مبدأ نظام القرآن الكلي، بحيث يرى الفراهي السورة كالجسد الواحد لا يمكن الاستغناء عن جزء منه دون إخلال ببقية الأجزاء، هذا المنهج ليس مجرد إثبات توافق، بل هو إثبات الضورة العضوية لكل جزء من مكانه. حيث يقول في كتابه "دلائل النظام" وهو ينتقد على الباقلاني:

"وظن بعض العلماء كالباقلاني رحمه الله تعالى أنّ الغرض من تبديل الأسلوب إظهار الإعجاز، وعندني والله أعلم، أنّ الإعجاز ليس من أغراض الكلام، إنما هو من لوازمه، ألا ترى في كل ما خلق الله تعالى من حبة خردل، بل من ذرة إلى السماوات العلى كلها معجزة، وليس في أمر في خلقها لغرض الإعجاز بل لحكمة في خلقه، نعم عجز غيره عن الإتيان بمثلا دليل على كونها من الله تعالى.

فالغرض عن اختلاف الأسلوب ليس إلا زيادة فائدة غير ما كان لأجل ما ينبغي في الكلام من الحسن والصيانة عن التكرار، فإنّ الشيء الواحد إذا ترأى لك مراراً بأطوار كثيرة، لا بد أن تفهمه تماماً، فإن فانتك منه لحظة ستأخذ بك منه آخر، كما قال الله تعالى: "انظر كيف نصّرف الآيات لعلهم يفقهون" (الأنعام: 65).¹

من حيث الأثر العلمي: أسّس مدرسة تفسيرية كاملة، لأنه لم يترك مجرد كتاب، بل ترك مدرسةً ومنهجاً صار أساساً لجيل من العلماء والمفسرين، الأثر الكبير تجسد في تلاميذه المباشرين، وعلى رأسهم العلامة أمين أحسن الإصلاحي، الذي سار على منهج "النظم" وألّف تفسيره الضخم "تدبر القرآن" (تسعة مجلدات ضخمة) كاملاً وفقاً لأصول الفراهي، وهذا يعدّ تطبيقاً علمياً وعملاً موسوعياً لأصول الفراهي، مما ضمن استمرارية أثره. ثم تفرعت المدرسة بعد ليعمّ العلماء الآخريين من البلاد، كتابةً وبجثاً وتحصيماً إطلاعاً، وإلقاء الأضواء على هذا الكتاب من المناحي العديدة.

1 المصدر نفسه: 52

ضبط الفهم القرآني: هدف الفراهي الأساسي هو محاربة التفسير التجزؤي (أو التفسير التجزئي) وهو المنهج المتعامل مع الآية أو الجملة القرآنية بمعزل عن سياقها، فالفراهي ربط الآية أولاً بـ"عمود" المركزي، بدلاً من تفسير الآية لذاتها، يفرض منهج الفراهي على المفسر أن يجد العلاقة العضوية بين الآية وبين "عمود السورة" مثلاً يقول: سورة الفاتحة: جامعة كالدياباجة، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن، وسورة البقرة: سورة الإيمان المطلوب، وهو الإيمان ببعثته محمد صلى الله عليه وسلم فجُمعت دلائلها، وسورة آل عمران: سورة الإسلام، وهو طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فهي أشبه بالسابقة لما أن الإسلام إنما هو الجانب الظاهر من الإيمان، سورة النساء: كالرداء لسورة الإسلام، بما أنها تبين أن الشريعة رحمة على الناس كافة وكذلك صاحبها.¹

تقليل الخلاف التفسيري: السبب الرئيسي لكثرة الخلاف التفسيري هو الغياب المعياري الخارجي (خارج الآية نفسها) الذي يدعم تعدد الأقوال، ومنهج الفراهي أنه يثبت أن للسورة غرضاً أصلياً واحداً (عمود السورة) يصبح هذا العمود بمثابة "مرشح" للأقوال التفسيرية، كما يتم بذل استبعاد أو إضعاف كل قول تفسيري يبعد عن خدمة المقصد الكلي للسورة أو يعارضه، فالآية لا يمكن أن تحمل على معنى يتعارض مع وظيفتها.

خلاصة البحث: إن كتاب "نظام القرآن" للإمام عبد الحميد الفراهي يحتل مكانة فريدة ومركزية بين المؤلفات المحررة في نظم القرآن؛ إذ لم يكن مجرد إضافة إلى علم المناسبات، بل كان تحولاً منهجياً في دراسة القرآن الكريم. فقد جعل النظم مفتاح الفهم، والسياق حاكماً في التفسير، ووحدة السورة أصلاً لا فرعاً.

1 المصدر نفسه: 93

المصادر والمراجع

1. الإمام الفراهي، دلائل النظام، المطبعة الحميدية، 1388م.
2. الإمام الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، دار الغرب الإسلامي، تونس. د.ت.
3. البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دارالكتاب الإسلامي، القاهرة. د.ت.
4. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى بالباني الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان. د.ت.
5. السيوطي: الإتيان في علوم القرآن: 640، تحقيق: العلامة شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م
6. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني، بجدة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م.

الإمام عبد الحميد الفراهي حياته ومنهجه في التفسير وأثر ذلك في الهند (رسالة الدكتوراه للسيّد سعيد أحسن العابدي)

راجعها وعلق عليها وقدم لها: د. هيفاء شاكري¹

[نشر فيما يلي رسالة الدكتوراه للسيّد سعيد أحسن العابدي بعنوان: "الإمام عبد الحميد الفراهي، حياته ومنهجه في التفسير وأثر ذلك في الهند" والتي تقدّم بها لنيل شهادة الدكتوراه في جامعة الأزهر الشريف عام 1970م. ورسائله عن الفراهي من أوائل ما نيل عليه شهادة جامعية، وبعد قراءتها كاملة شعرت أنّ هناك من التفاصيل والتي لا نحتاج إليها خلال ذكر منهج الفراهي في التفسير وخاصة في الفصول الأولى من الرسالة، لذلك قمتُ بخذفها وعدم ذكرها هنا، قمتُ كذلك باختصار بعض الفقرات الطويلة التي احتوت على تفاصيل سبق ذكرها سواء في الرسالة نفسها أو في مقالات سابقة نُشرت في المجلة مثل ذكر أساتذة الفراهي وأسلوبه الذي جاء الحديث عنه عدة مرات. كما قمتُ بإصلاح الأخطاء اللغوية والنحوية والمطبعية، وقارنتُ المطبوع مع المخطوط إذ معظم رسائل الفراهي كانت مخطوطة حينما كتب العابدي هذه الرسالة. وهكذا جاءت الرسالة في الشكل الذي نراها. وأحمد الله على أنّ وقّفتُ لإخراج عمل تمّ تقديمه حول شخصية قضت معظم أوقات حياتها في تدبر معاني القرآن الكريم. والجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة ذات أهمية مع أنّ ما قدّمته من دراسة لا يقارن في عمقه بما قدّم فيما بعد من الأبحاث حول الفكر الذي عرف به الفراهي، وتكمن أهميتها إضافة إلى مكوناتها، في الزمن الذي قدّمت فيه، وهي فترة السبعينيات، ولم تكن كتابات الفراهي المطبوعة متوفرة في تلك الفترة، وبغض النظر عن الموافقة مع فكره أو عدمه فإنّ الرسالة لفتت الانتباه إلى كاتب وضع أغلب كتاباته باللغة العربية في بلد كالهند، وهذا دليل على أنه أراد منذ البداية مخاطبة العلماء من العرب ومنهم إمام بالعربية.

¹ مشارك في التحرير وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

وأشكر كل من ساعدني في تقديم هذا العمل وإخراجه لاسيما زميلي الأخ الدكتور أورنك زيب الأعظمي الذي بحث عن الرسالة بعد أن طلب منه الباحثون العرب نشرها كما طلب معارف العابدي، وعلى رأسهم الدكتور عزيز شمس، من العابدي نفسه، وكذلك أشكر من الطلاب كلاً من محمد فيصل وقاصد رضا ومحمد عادل الذين كان لهم دور في إخراج الرسالة في صورتها الحالية. اللهم زدهم علماً وتقوى.

وفي البداية نقدم ترجمة السيد سعيد أحسن العابدي حتى يتسنى للقارئ التعرف على شخصيته وأماكن تعلمه والأعمال التي قام بها.

فهو السيد سعيد أحسن العابدي بن السيد عابد علي. والعبادي نسبة إلى الإمام زين العابدين (علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب) لا إلى والده "عابد علي" كما يظنه الآخرون. ولد سعيد العابدي في موهوا (Mahuwā) إحدى قرى كوندراكرانت (Kondragrānt) في نحو 1940م¹ وكوندراكرانت كانت آنذاك تابعة لمحافظة بسبي (Basti) والآن هي تابعة لمحافظة سدهارث نكر (Siddhārth Nagar). ولكن سجل تاريخ مولده في جميع الوثائق الثامن عشر من يونيو 1945م. وهو خطأ كما قال الدكتور سعيد. له أربعة إخوة: عبد المعبود، عبد الودود، سعود وسعيد، وثلاث أخوات، وهو أصغرهم. توفي الجميع إلا هو.

لما بلغ سن التعليم ألحقه والده بكتاب تابع لمدرسة "بحر العلوم" التي أنشأها هو ولكنه لم يقض إلا سنة ونصف سنة إذ أخرجه أبوه من هذا الكتاب وجعل بنفسه يعلم ولده مبادئ الدين وترتيل القرآن الكريم وهو يرافقه في طريقه إلى مختلف المناطق التي كان السيد عابد علي يبيع الأدوية فيها.

ثم ألحقه شقيقه الذي كان يدرس الطب في تكميل الطب بلكاؤ بمدرسة "الفرقانية" ليكمل حفظ القرآن وتجويده. وحصل على خمس رويات هندية كمنحة دراسية شهرية. ولكن العابدي لم يقم بها إلا لبضعة أشهر. ثم ذهب به شقيقه الآخر إلى "كنز العلوم" الذي ذهب إليها مرة أخرى ليكمل تعليمه النهائي. التحق السيد العابدي بكنز العلوم في يوليو 1955م. وذلك ليكمل حفظه للقرآن الكريم مرة أخرى. و"كنز العلوم"، كما ذكرها السيد العابدي، مدرسة دينية للأحناف لا تحتل إلا الدرجة الثالثة من بين المدارس الدينية في الهند كما يراها السيد العابدي. وقد تم انضمامها إلى هيئة إله آباد للغة العربية والفارسية. فجعلت تدرّب طلابها حتى شهادة "فاضل أدب". استفاد العابدي بالشيخ علم الله الذي كان مسؤولاً عن المدرسة وزميلاً في درس للشيخ حسين أحمد المدني. كما استفاد من الأساتذة الآخرين.

تعلم العابدي اللغة الفارسية والعربية وآدابهما والنحو العربي والفقه وأصوله والتفسير والبلاغة فالكتب التي درسها خلال قيامه بكنز العلوم هي: الكتاب الأول للغة الفارسية، أمداًمه، كلزار دبستان، كلستان، بوستان، أنوار سهيلي، سكندرنامه في اللغة الفارسية وآدابها، وميزان منشعب، نحو مير، صرف مير، تيسير المبتدي، هداية النحو، بنج كنج والكافية في النحو العربي وما لا بد منه، القدوري، أصول الشاشي، شرح وقاية ونور الأنوار في الفقه وأصوله وأزهار العرب، ديوان المتنبي، نفحة اليمين، البيان والتبيين، الأمالي، مغني اللبيب، الكامل، أدب الكاتب، نقد الشعر، ديوان الحماسة وأحسن ما سمعت في اللغة العربية وآدابها وتفسير الجلالين والنسفي في التفسير وتلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان. ومن ميزة هذه المدرسة أنّ الأستاذ الذي كان يدرس الحديث هو من أهل الحديث وهو الشيخ فضل الرحمن. ولم تكن في تانده (Tandah) عائلة أخرى لأهل الحديث. ولكنه تقاعد لطول سنه وضعفه حينما وصل العابدي هناك. فلم يجد العابدي فرصة للاستفادة منه. وكانت المدرسة (كنز العلوم) خالية من العصبية المذهبية. وفي فبراير 1958م أدى السيد العابدي امتحان "مولوي" من هيئة إله آباد العربية والفارسية. وفي فبراير 1959م أدى امتحان "عالم" من هيئة إله آباد العربية والفارسية. وفي 1960م أدى امتحان "منشي" واجتازه بتقدير "جيد" (2nd Division). وفي فبراير 1961م أدى امتحان "فاضل أدب" من هيئة إله آباد العربية والفارسية. واجتازه بتقدير ممتاز. وهكذا أتم علم العربية في خمس سنوات وستة أشهر. وكذا نال شهادة "أديب كامل" من الجامعة الأردنية لعلي كره في نوفمبر 1961م بتقدير "جيد".

رغب العابدي في التعلم في الجامع الأزهر عندما قرأ مقالة في كتاب الأردوية الثاني عن الأزهر الشريف. وبعد أن فرغ العابدي من كنز العلوم وسعى لالتحاقه بالجامعة الإسلامية والجامع الأزهر التحق بالجامعة الرحمانية ببنارس في 15 شوال (سنة 1963م). ولكن لم يمض على هذا الالتحاق شهر بكامله إذ بلغه خطاب وكيل الأزهر يبشّره بالالتحاق بالأزهر الشريف. ففي 1/ يناير 1964م غادر العابدي مصر للتعليم العالي. كان من زملائه في الدرس من الطلاب الهنود الشيخ مظهر أحسن الأعظمي والدكتور عبد العلي والدكتور مقتدى حسن الأزهري. فضل العابدي وزملاؤه الثلاثة الالتحاق بقسم الدعوة والإرشاد في كلية أصول الدين.

وفي 1968م تم تعيينه كمذيع في راديو القاهرة، وأتم العابدي رسالته بعنوان "حميد الدين الفراهي حياته ومنهجه في التفسير وأثره في الهند" تحت إشراف الدكتور فتح الله بدران

ولكنه ذكر في سيرته الذاتية أنّ موضوع رسالته "حميد الدين الفراهي، حياته ومنهجه في التفسير". توفي مشرفه رحمه الله قبل أن يتم إجراء مناقشة رسالة العابدي.

في 1974م بدأ يدرّس القرآن على راديو القاهرة. وخلال هذه المدة نقل كتاب "التنسك الإسلامي" للدكتور محمد غلاب إلى اللغة الأردوية بعنوان "إسلامي تصوف". في 10/ نوفمبر 1974م أنسلك براديو جدة. فأقام بالسعودية لنصف قرن، وغادرها في 21/ يناير 2020م. ولو أنه لم يكن يريد أن يرجع إلى الوطن إلّا جبراً. لأنّ زوجته الحبيب قد توفيت قبل ذلك في 2017م وأنّ أولاده يقطنون خارج الهند ولكن حبّ ابن أخته طفيل أحمد، وإصرار الدكتور عزيز شمس، وتكريمه من قبل الشيخ عبيد الرحمن المدني أجبر كلاً على أن يرجع إلى الهند فيقيم نهائياً بمدرسة "الفاروق" في إطوا.

له خطابات أذيعت على الراديو أو كتبها على طلب من الناشرين فله كتاب في جزيرين بعنوان "موضوع اور منكر روايات" نشرته مكتبة بيت السلام بالرياض في 2005م و2008م. وهذه مجموعة نشرياته. وله كتاب آخر اسمه "حديث كا شرعى مقام" في مجلدين. هذه أيضاً مجموعة نشرياته. وله كتاب ثالث عنوانه "صحيح بخارى، ايك جامع هدايت نامه" طُبع في 2020م.

وكذا له مقالات عدة نُشرت كلّ أسبوع في صحيفة "أردو نيوز" بجدة التي صدرت في مايو 1994م. ومازالت تنشر حتى سنتين. وله انتقادات شديدة على "أحسن البيان" الذي قام مقام ترجمة الشيخ محمود الحسن.

ورسالته عن الفراهي من أوائل ما نيل عليه شهادة جامعية، وبعد قراءتها كاملة شعرت أن هناك من التفاصيل التي لا تحتاج إليها خلال ذكر منهج الفراهي في التفسير وخاصة في الفصول الأولى من الرسالة، لذلك قُتُ بخذفها وعدم ذكرها هنا، قُتُ كذلك باختصار بعض الفقرات الطويلة التي احتوت على تفاصيل سبق ذكرها سواء في الرسالة نفسها أو في مقالات سابقة نشرت في المجلة مثل ذكر أساتذة الفراهي وأسلوبه الذي جاء الحديث عنه عدة مرات. كما قُتُ بإصلاح الأخطاء اللغوية والنحوية والمطبعية، وقارنتُ المطبوع مع المخطوط إذ معظم رسائل الفراهي كانت مخطوطة حينما كتب العابدي هذه الرسالة. وهكذا جاءت الرسالة في الشكل الذي نراها. وأحمد الله على أن وُقُتُ لإخراج عمل تمّ تقديمه حول شخصية قضت معظم أوقات حياتها في تدبر معاني القرآن الكريم. المصدر: كاروان سلف، 206-123/9

نص الرسالة

المبحث الأول: حياة الفراهي

أولاً: مديرية أعظم جرة: إنّ شبه القارة الهندية المكونة من 28 ولاية و 8 أقاليم اتحادية تحتوي على مديريات كثيرة منها مديرية "أعظم جرة" الشهيرة التي تقع في الولاية الشمالية "Uttar Pradesh" وهذا الاسم - أعظم جرة- جديد لهذه المديرية والمدينة التي سميت به وهو مكون من كلمتين "أعظم" و"كره" الكاف الفارسية المفتوحة التي تنطق بين الكاف والجيم مثل نطق أهل القاهرة بالجيم ونطق الريفيين في مصر بالكاف وقد ضبطتها "جرة" حسب نطق أهل القاهرة- وهي تكتب بالإنجليزية "Garh" ومعناها حصن. ويقول العلامة السيّد سليمان الندوي في كتابه "حياة شبلي" إنّ تخطيط أعظم جرة جاء في عهد الإنجليز ولكنها معروفة منذ قديم الزمن ولها قسمان: قسم استوطنت فيه الطبقة الهندوكية المعروفة "راجبوت" (Rajput) وفي قسم آخر سكن المسلمون الذين هاجروا إليه من البلاد الإسلامية أو المدن الإسلامية ولا يزالون موجودين باسم "المكي"¹. وقد نالت أعظم جرة شهرة عظيمة في تاريخ الهند بكثرة العلماء والباحثين وبكثرة المراكز الدينية والثقافية في مدنها وقرائها فلا نبالغ إن نسميها بأرض المفكرين والعباقرة.

وقد أثبت ابن خلدون في مقدمته الشهيرة أنّ الهواء والجوّ لهما تأثير كبير في ذكاء الناس وبلادتهم.² وقد لا أستطيع هنا أن أبسط القول في هواء أعظم جرة وجوّها. ولكن أستطيع أن أقول إنّ أعظم جرة أخصب منطقة بالولاية الشمالية- إن لم أقل بالهند كلها- من حيث خلق العلماء والمفكرين والأدباء والخبراء في المجالات المختلفة وذوي الأخلاق الكريمة وإن لم توجد في هذه المنطقة مدن كثيرة، بل

¹ حياة شبلي، ص 55

² مقدمة ابن خلدون (تح: عان عبد الواحد وافي)،

معظم سكانها حياتهم ريفية، ولكنهم مثقفون ومتحضرون بأدق معنى كلمتي الحضارة والثقافة وليست في مدن أعظم جرة صناعة غير صناعة الأقمشة التي تنسج باليد ولكنها ذات شهرة عظيمة في جميع أنحاء البلاد، وأهل أعظم جرة معروفون بحب العلم والأدب، وتدلّ على ذلك كثرة المدارس والمراكز الثقافية والفكرية فيها. ففي مدينة صغيرة من مدنها اسمها "مئو" (Mau) توجد أكثر من سبع مدارس عربية كبيرة لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامي وكلها تعتمد على تبرعات المسلمين في نفقاتها. وهكذا الأرياف مليئة بالمدارس والمعاهد العربية والإسلامية تنشر الإسلام والثقافة العربية، وفي أعظم جرة قرية كبيرة تشبه المدينة اسمها مباركفور (Mobarakpur) قد حظيت بشهرة عظيمة بكثرة العلماء والحقّقين ففيها ظهر المحدث الشهير العلامة عبد الرحمن المباركفوري الذي شرح "الجامع للترمذي" باسم "تحفة الأحوزي في شرح الترمذي" وهو معروف بالبلاد العربية وخاصة بمصر فتوجد نسخ كثيرة من كتابه هذا في مكتبات القاهرة. ومن أسرته ظهر عالم كبير متضلع من العلوم الإسلامية خاصة "علم الحديث وأصوله" وهو العلامة الشيخ عبيد الله. وشرح "مشكاة المصابيح" شرحاً يحلّ المعضلات التي نتجت منها شبهات كثيرة حول بعض التعاليم الإسلامية التي وردت بلسان النبي صلى الله عليه وسلم، وله اطلاع واسع على جميع العلوم الإسلامية ويملك ناصية اللغة العربية.

وثانياً: مولده: وفي أعظم جرة قرية اسمها فريها (Phariha) تقع في شرق أعظم جرة على بعد عشرة كيلومترات والتاريخ يسكت عنها ولعل سبب ذلك يرجع إلى عدم ظهور شخصية فيها كبيرة في العلم والأدب. وإن لم تخل عن المثقفين ثقافة عادية ولكن قد قدر الله لها أن يلع نجمها في وقت فتفوق شهرتها شهرة المدن الكبيرة لا في الولاية الشمالية فحسب بل في الهند كلها، وذلك بفضل ابنها العملاق العبقري العلامة حميد الدين الفراهي وقد ولد صاحبنا سنة 1280هـ-1862م أي بعد أن مضت ست سنوات على الثورة الهندية الكبيرة وقد سماه أبواه بـ"حميد الدين" ولعلّ من توفيق الله أن وفقهما إلى اختيار هذا الاسم وإن خفي عليهما ما سيقوم به ابنها العظيم من خدمات جليلة في ميدان العلم والدين. وهنا نرى

بعض الناس قد اختلفوا في اسمه فقال بعض الناس إنه "عبد الحميد" وقال الآخرون إنه "حميد الدين"، ولعل سبب هذا الاختلاف أنه كان يكتب اسمه "عبد الحميد" ولكنه يدعى بين الناس بـ"حميد الدين" فهل كان له اسمان؟ للإجابة على هذا السؤال أنقل ما قاله العلامة السيد سليمان الندوي فإنه معاصره وقد قضى معظم عمره معه كما أنه معروف بالتحري وبالبحث الدقيق في كل ما يقول ويكتب فهو يقول إن اسمه كان حميد الدين ولكنه لقبٌ حسب القواعد العربية فكان يعتبره فوق مكانته. ولذلك كان يكتب اسمه في مؤلفاته "عبد الحميد".¹

إن أسرة صاحبنا لم يتنبه لها التاريخ ولذلك لا نعرف عنها كثيراً. وقد بحثنا في كتب التاريخ الحديث فلم نجد شيئاً يجدي بهذا الصدد ولكن بعد ما اتصلت بالعلماء الذين لهم صلة قريبة أو بعيدة به وبأسرته وصلت إلى نتيجة أن أسرته كانت على قسط كبير من العلم والدين. وكان لها احترام بالغ في قلوب الناس لزعامتها الدينية والعلمية. ولذلك نرى أنه لم يبدأ دراسته في الكُتاب بل حينما بلغ سنّ التعلم بدأ دراسته في بيته وقد حفظ القرآن الكريم أولاً على عادة الأسر الشريفة المسلمة فكان أبناؤها يحفظون القرآن الكريم أولاً حين ذلك. وبعد ما أكمل حفظ القرآن الكريم بدأ يدرس اللغة الفارسية لأنها كانت لغة الدراسات الإسلامية هناك في ذلك العصر. وقد أعطاه الله ذهنًا قوياً وفكراً ثاقباً فنبح في مدة قليلة في اللغة الفارسية والأدب الفارسي وحصلت عنده ملكة شعرية جعلته ينظم القصائد باللغة الفارسية على منوال الشعراء الفحول. قال السيد سليمان الندوي في ترجمته: "وبرع فيها فنسج قصيدة صعبة الرديف بارى فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت خاقاني الشرواني² فأتى فيها بما أعجب الشعراء³ وكان عمره حين ذلك ست

¹ وفاة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، مجلة "معارف".

² شاعر إيراني من أب نجار اسمه علي ومن جارية لسطورية ابتاعها أبوه من سوق النخاسة. ولد في غنجا سنة 1106م وتوفي في تبريز سنة 1200م. أقام في الموصل ومن مؤلفاته "كليات خاقاني". وله شهرة عظيمة في عالم الأدب الفارسي ويعرف بين الناس باختيار القوافي الصعبة في شعره لكيلا يباريه أحد من الشعراء.

³ ترجمة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، ص 1

عشرة سنة.¹ وأصدق شاهد على ذلك أنّ علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني الذي كان ابن خاله قد عرض هذه القصيدة التي نظم الفراهي في مباراة خاقاني الشيرواني على أديب العصر في الفارسية والعربية الشيخ فاروق الشريباتوتي وسأله عن صاحبها فأجاب الشيخ: لا أعرف صاحبها ولكن الأسلوب والخيال يدلان على أنّ صاحبها من فحول الشعراء القدامى.²

وثالثاً: رحلات الفراهي لطلب العلم: وبعد أن أتمّ الفراهي دراسته الابتدائية خرج من البيت وذهب إلى أخيه ومربيّه العلامة شبلي النعماني الذي مضى ذكره آنفاً. وكان من ناهبي الذكر في الهند والمتضلعين من الأدب الفارسي والعربي بحيث يعتبر حجة فيهما وكان شبلي النعماني يحبّ الفراهي غاية الحب لما عرف ذكاه فبدأ عليه دراسته العربية وقد اعتنى به شبلي اعتناءً بالغاً. وكان النظام الدراسي أو المنهج الدراسي حينذاك في الهند يحتوي على الفلسفة والمنطق والنحو والبلاغة والأدب، فكل هذه العلوم عنده في مدة قصيرة ونبغ فيها حتى أصبحت عنده قدرة كاملة على الكتابة والقراءة في اللغة العربية.

ولما قام شبلي النعماني برحلة علمية خرج معه الفراهي أيضاً وكانت لكناؤ عاصمة الولاية الشمالية مركزاً علمياً وكان العلامة أبو الحسنات عبد الحي اللكنوي صاحب المؤلفات القيمة في الفقه والحديث يعقد حلقاته المشهورة التي ينساب إليها الطلاب من جميع أنحاء البلاد فالتحق بها الفراهي ودرس على الشيخ العلامة أبي الحسنات عبد الحي الفقه الإسلامي مدة قصيرة وفي أثناء مكثه في لكناؤ اتصل الفراهي بالأديب الكبير خواجه عزيز الدين عزيز اللكنوي الذي كان مدرساً بكلية الملك الفارسية

¹ مقدمة ديوانه "نوائه پہلوي" بقلم الشيخ بدر الدين الإصلاحی، ص 1

² ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحی)، ص 22 وقد ذكر هذه الحكاية السيد سليمان الندوي في مقاله الذي كتبه بعد وفاة الفراهي ونشر في مجلة "معارف".

(Persian King College) ويعتبره الناس أديباً ذا طراز خاص في اللغة الفارسية فاستفاد منه الفراهي وأصبحت بينهما علاقة ودية راسخة بقيت إلى أن فرّق الموت بينهما.¹

قد تبين أنّ الفراهي قد أكمل الدراسة العربية والفارسية حسب المنهج الدراسي الذي كان قائماً في ذلك العصر ولكن قلبه الطموح لم يشبع بهذا القدر من العلم والثقافة ونشأ في ذهنه أن يتخصص في الأدب العربي وكانت في ذلك الوقت مدينة لاهور التي تقع حالياً في باكستان الغربية مركزاً علمياً كبيراً وكانت بها كلية شهيرة تسمى بـ"كلية العلوم الشرقية" وكان يدرّس فيها العلامة الأملعي فيض الحسن السهارنفوري الذي كان يرجع إليه العلماء والفضلاء فضلاً عن الطلاب. وفيض الحسن هذا درس على العلامة المجاهد الفاضل الشيخ فضل حق الخير آبادي الذي كان من القلائل- في التاريخ الإسلامي بالهند- الذين انتهت إليهم رئاسة العلم والدين. وتنتمي سلسلته التعليمية إلى الإمام المجاهد الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي ابن الإمام الأكبر الشاه ولي الله الدهلوي صاحب "حجة الله البالغة" الكتاب الفريد في أسرار الشريعة والدين فقد قام فضل حق الخير آبادي بخدمات جليلة لإحياء العلوم العربية والثقافة العربية في الهند- كما غير منهج الدراسة للعلوم الدينية والفلسفية. وقد كان علماء المسلمين في عصره متمسكين بقشر هذه العلوم معتمدين على الكتب الجافة في الفقه الإسلامي التي ألقت في عصور الانحطاط- فهؤلاء العلماء لم يكونوا يهتمون بلبّ العلوم وروح الدين- ولا يهتمون برفعها إلى مكانها المناسب وهكذا بذل العلامة فضل حق جهوداً جبارة لإعادة مجد المسلمين الماضي فثار ثورة ضد الإنجليز الذين احتلوا الهند وأمسكوا بأيديهم زمام أمرها، فقبض عليه ونفي إلى جزيرة "أندمان" فتوفي هناك بعيداً من الوطن شهيداً فيه سنة 1378هـ. وقد اعترف المؤرخون الهنوكيون أيضاً بخدمات فضل حق القومية ولا شك أنه أول من أثار روح الثورة في قلوب المسلمين ضد الاستعمار الإنجليزي

¹ مجلة "معارف" سنة 1931م، ص 8

البعيضة، كما مهد لهم سبيل التقدم العلمي والديني، وقد اشترك في الثورة الهندية الكبيرة وأظهر شجاعة نادرة المثال لقمع الفساد وتطهير الأرض من الإنجليز كما أنه ألف كتاباً يعتبر مرجعاً وحيداً لتاريخ هذه الثورة وهو "الثورة الهندية" باللغة العربية.

وقد استفاد تلميذه الوفي البار فيض الحسن من علمه وتجلده في سبيل العلم والدين فسلك مسلكه في تطوير النظام القديم الجامد في المدارس العربية ولم يجعل بما كان يملك من وقت ومن قدرة، وبما أمكنه من جهد وكفاح فنجح في تغييره وأدخل في المدارس الكتب القديمة في الأدب والشعر بدل الكتب الجافة نتاج العصور المنحطة وبالإضافة إلى ذلك كان فيض الحسن معروفاً بدقة النظر وعمقه في الأدب العربي واللغة العربية وقد شرح ديوان الحماسة لأبي تمام شرحاً يضارع شرح الحماسة للعلامة التبريزي ولكنه لم يشرح الكلمات العويصة والغريبة فحسب كما صنع التبريزي بل وقف مع كل بيت من كل قصيدة وأظهر مكانته الأدبية والفنية حتى أصبح شرحه هذا يفوق شرح التبريزي من حيث التحليل والنقد وتقريب المعنى من ذهن القارئ. ومع ذلك كان فيض الحسن شاعراً في اللغة العربية. يقول المؤرخ الإسلامي عبد الحي الحسيني الهندي في كتابه "الثقافة الإسلامية في الهند": إن مولانا فيض الحسن السهارنفوري أحد الشعراء المفلحين، لم يكن له نظير في زمانه في معرفة الفنون الأدبية، له شروح على الحماسة والمعلقات وغيرهما، وكتاب في أيام العرب، وديوان الشعر العربي.¹ وقد نقل عبد الحي من ديوانه الأبيات الآتية:

مالي بذي الأرض من والٍ ولا واقٍ ولا طيبٍ ولا آسٍ ولا راقٍ
ولا حميمٍ ولا جارٍ ولا سكنٍ ولا نديمٍ ولا كأسٍ ولا ساقٍ
أبكي عليّ بكاءً غير منقطعٍ فلينظر الناس أجفاني وآماتي²

¹ الثقافة الإسلامية في الهند لعبد الحي الحسيني الهندي، ص 49

² المصدر نفسه، ص 49

وقد سمع صاحبنا حميد الدين الفراهي عن فيض الحسن حينما كان مقيماً في لكناؤ فذبّ في قلبه ديبب الشوق للاستفادة من علمه وفضله فرجع إلى البيت ليعدّ عدة السفر إلى لاهور. ولكنه لما وصل إليها أخبر أنّ الكلية- كلية العلوم الشرقية التي كان فيض الحسن مدرّساً بها- لا يمكن الالتحاق بها لقوات أوان القبول ولكن قلبه الطموح وحبّه العلمي جعلاه يتصل بالعلامة فيض الحسن ويعرض عليه أمره شخصياً. ولكن العلامة ردّ عليه بأنه مشغول جداً وليس عنده وقت متسع لما تريده كله، وقد حكى لي أستاذ من أساتذتي الثقات حينما كنت طالباً بمدرسة الإصلاح بالهند سنة 1961م فقال إنّ العلامة فيض الحسن السهارنفوري قال للفراهي ليس عندي وقت غير الذي أفضي في الطريق من البيت إلى الكلية ومن الكلية إلى البيت وأنا أستخدم للهجيء والذهاب عربة يجرها الخيل، فهل تستطيع أن تدرس عليّ في الطريق بحيث أن تمشي وراء العربة وأنا راكب فيها وكانت العربة لا تسع إلا مكان رجل واحد فقبل الفراهي وبدأ عليه الدراسة. يركب أستاذه العربة ويجري وراءها وهو يدرس عليه كتاباً في الأدب العربي ولا ننس هنا أنّ الفراهي كان من الأثرياء نشأ في الترف والنعم. ولكن حبّه العلمي جعله يتحمل كل الصعوبات في سبيله.¹ فلها رأى العلامة فيض الحسن السهارنفوري أنّ تلميذه الجديد يملك روحاً نادرة وصبراً فريداً للعلم والأدب غير سلوكه معه ومنحه وقتاً في بيته وبدأ يعتني به اعتناء بالغاً فنبغ الفراهي بتوجيه الأبوي في الأدب العربي وصار يكتب ويقرأ اللغة العربية كأهلها. يقول العلامة السيّد سليمان الندوي: "فبرع في الآداب العربية وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء. قرأ دواوين الجاهلية كلها وحلّ عقد معضلاتها وقصص شواردها. فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم".²

¹ هذه قصة ابن عمته العلامة شبلي النعماني ونُسبت خطأ إلى الإمام الفراهي، راجع: حياة شبلي، ص 97 (ه.ش.).

² ترجمة الفراهي (السيّد سليمان الندوي)، ص 2

ولا أعرف مدة إقامة الفراهي بلاهور غير أنه قد حصلت بينه وبين أستاذه الشيخ العلامة فيض الحسن السهارنفوري علاقة ودّية راسخة وكان الفراهي متأثراً جداً بأستاذه فلم ينسَ طول حياته بل كلها ذكره ذكره بكلمات تملأها الرقة والحب العميق وهو الذي طبع ديوانه العربي على حسابه الخاص ووزعه بين العلماء لينتشر فنّه. ولما توفي الأستاذ رثاه برثاء يتقطر دماً ويعدّ من أجود كلامه الشعري في اللغة العربية لأنه نبع من فيض خاطره وسويداء قلبه لا يشوبه التكلف والتصنع.

وكان الشيخ فيض الحسن السهارنفوري يحترم الفراهي غاية الاحترام، بل كان يفخر بأنّ مثل الفراهي من تلاميذه. وقد أهدى إليه النسخة الخطيّة من شرحه للمعلقات السبع الطوال، وكتب عليه كلمات تذكارية تبين مدى حبه لتلميذه الجليل الوفي فكان الفراهي يحتفظ بها كشيء "نادر" ومازال بها إلى أن لقي ربه، وقد حكى تلميذ الفراهي الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي حكاية طريفة بهذا الصدد: فقال: إنّ شرح فيض الحسن للمعلقات الذي أهدى إليه كان أعزّ الكتب وأحبّها إليه وقد وصفه مرة أمام الوافدين إليه بأنه من صنع يد أستاذه اليسرى، وكان في قول الإمام تلميح لطيف لم يفهمه إلا من كان يعرف أنّ العلامة فيض الحسن كان يكتب بيده اليسرى فظنّوا أنه آلفه بدون أن يبذل جهداً بالغاً في المثل الهندي "كلّ عمل يتأتى بدون مشقة يوصف بأنه صنع اليد اليسرى".

وقد أتم الفراهي دراسته العربية والفارسية وتخصّص فيها قبل أن يتجاوز العشرين من عمره فبلغ في العلوم الإسلامية والعربية ذروة الكمال حتى فاق أساتذته.²

ورابعاً: دراسته اللغة الإنجليزية: قد أكل الفراهي الدراسة العربية والفارسية وهو في العشرين من عمره وكان ذلك سنة 1300 هـ الموافق 1882 م نشأ في ذهنه أن يتعلم اللغة الإنجليزية رغم أنّ دراستها كانت تعتبر بمثابة الكفر في ذلك الوقت عند علماء المسلمين

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 24

² وفاة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، مجلة "معارف"، سنة 1931 م.

ولكن الفراهي أثبت أنّ اللغة الإنجليزية والثقافة الغربية لا بد من تعليمهما لأبناء المسلمين لأنّ الدفاع عن الإسلام وصاحبه وتاريخه وثقافته كما أنّ نشر الإسلام وتعاليمه لا يمكن إلا بعد الجمع بين العلوم القديمة العربية والعلوم الحديثة الغربية إذ كان ذلك العصر عصر الانتقال من طور إلى طور، وكان أهل الغرب قد نبغوا في الفلسفات الحديثة وأوجدوا علومًا تقوم على التشكيك في العلوم الإسلامية خاصة والعقائد وما بعد الطبيعة عامة- كما أوضحت بالتفصيل في الفصل الخاص للاستشراق في الهند. وقد تأثر الجبل الجديد من المسلمين بالثقافات الغربية وآراء علماء الغرب حيال الإسلام وثقافته فكان من الضروري توجيههم توجيهًا سليمًا وذلك لا يمكن إلا بعد الوقوف الكامل على مناهج أهل الغرب في البحث والتفكير وكانت طريقته الوحيدة التعمق في الثقافات الغربية ففتح صاحبنا حميد الدين الفراهي بالتحاقه بكلية علي جرة الإسلامية الباب المغلق أمام أبناء المسلمين وكان قد وصلت شهرته إلى أصحاب الكلية وأربابها وذاع صيته بين العلماء النابغين ويدلّ على ذلك أنّ السير سيّد أحمد خان مؤسس الكلية كتب كلمة التعريف إلى عميد الكلية الإنجليزي مدح فيها الفراهي إلى أنّ قال مخاطبًا العميد: إني أبعث إليكم طالبًا جديدًا ليس له نظير- في اللغة العربية والفارسية- في أساتذة الكلية وطلابها مع أنه كان في أساتذة الكلية مثل العلامة شبلي النعماني أستاذ الفراهي الأوّل وأخوه. فلم يعجب العميد هذا المدح بل اعتبره إهانة له وللأساتذة جميعًا. فذهب على الفور إلى شبلي النعماني وعرض عليه ما خطر بباله من هذا الخطاب. وقال له: هل ليس في الكلية من يعرف اللغة العربية والفارسية كما يعرفهما هذا الطالب الجديد؟ وهل ليس فيه إهانة لكم ولعلومكم؟ وكان العميد يريد إثارة شبلي ضد السير سيّد ومبعوثه. ولكن شبلي لم يغضب بل ظهرت البسمة على وجهه وقال في هدوء: لعل في خطاب السير سيّد إهانة لكم. أما أنا فافتخر به لأنّ الطالب الجديد تلميذي في اللغة العربية والفارسية.¹

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 24 وقد ذكر السيّد سليمان الندوي هذه القصة فزاد فيها أنّ السير سيّد أحمد خان كتب إلى عميد الكلية أن يعفى الفراهي من العلوم الشرقية أي العربية والفارسية فإنه في هذه العلوم مثل الأساتذة. وفاة الفراهي، مجلة "معارف"، سنة 1931م.

فهذه الحكاية تدلّ على عبقرية الفراهي ومكانته الكبيرة في اللغات الإسلامية وآدابها على الرغم من أنه لم يتجاوز العشرين من عمره ولا شك أنّ الفراهي التحق بكلية علي جرة الإسلامية لدراسة اللغة الإنجليزية ولكنه بدأ يستفيد من الندوات العلمية والأدبية التي كانت تعقد فيها ويشترك فيها أفاضل الهند أمثال العلامة شبلي النعماني والأديب الكبير والشاعر البارح ألطاف حسين حالي- كما كان يشترك فيها المستشرق الإنجليزي المعروف توماس أرنولد الذي كان يدرّس الفلسفة الحديثة حينذاك وكانت تسمّى هذه الندوات روحاً علمية. وكما أكمل الفراهي في كلية علي جرة الثقافة الإنجليزية فإنه كذلك استفاد من المستشرق توماس أرنولد في الفلسفة الحديثة فأصبح مجمع البحرين وملتقى الثقافات الإسلامية والغربية وزادت هذه الثقافات فكره وذهنه عمقاً ورسخ إيمانه بمبادئ الإسلام السمحة الغراء. فلم يكن مثل العلماء السطحيين الذين ينسون تقاليدهم الإسلامية ويتشككون في التعاليم الإسلامية بدراسة الثقافة الغربية. أما الفراهي فلم تؤثر فيه هذه الثقافات غير أنّ منحته الثقة والإيقان بالإسلام وأحكامه وأصوله. وقد كتب العلامة السيّد سليمان الندوي أنه في الوقت الذي دخل الفراهي الكلية الإسلامية بعلي جرة لدراسة اللغة الإنجليزية قد تخرج فيها كثير من أبناء المسلمين ولكنهم قد ضعف إيمانهم بالإسلام ومبادئه نتيجة للثقافات الغربية الإلحادية رغم أنّ كثيراً منهم كانوا مثل الفراهي أي درسوا العلوم العربية والإسلامية أولاً ثم دخلوا المدارس الإنجليزية ولكن الثقافات الحديثة قد غيرت مناهج تفكيرهم فأصبحوا متفرنجين. أما الفراهي فدراسته الثقافات الغربية ووقوفه على مناهج أهل الغرب زاد من إيمانه واتسع أفقه الفكري والديني.¹ وأصدق شاهد على ذلك أنّ الفراهي كان يدرس على المستشرق توماس أرنولد الفلسفة الحديثة- كما مضى- وكان أرنولد يعدّ من القلائل الذين أثروا في أذهان المسلمين وغير المسلمين تأثيراً قوياً جعلهم ينظرون إليه وأمثاله كأنهم قدوة في البحث والتفكير ويقبلون آراءهم بدون نقاش. أما صاحبنا الإمام الفراهي فإنه لم يعتبر أرنولد غير مستشرقٍ هدفه

¹ وفاة الفراهي (السيّد سليمان الندوي)، مجلة "معارف"، سنة 1931م.

القضاء على الإسلام وعلومه والتشكيك فيها ونشر الثقافات المسيحية في المجتمعات الإسلامية. فإنه حينما كان يدرس عليه لا يسكت على أفكاره سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية، بل كان يناقشه في كل الدرس ويظهر آراءه عنه بدون خوف ويقول إنه من العلماء الغرب الذين بعثتهم الحكومة البريطانية لنشر الأفكار الغربية أو الاستعمارية وإماتة الثقافة الإسلامية والعربية.

ولما ألف توماس أرنولد كتابه "الدعوة إلى الإسلام" (Preaching of Islam) ملأ قلوب الناس غبطة وسروراً فكانوا يعتبرونه أكبر خدمة للإسلام والدعوة الإسلامية. ولكن الفراهي أول من وقف على اتجاهه الاستشراقي وأعلن أن هذا الكتاب - رغم أنه من خير الكتب التي ألّفت في الدوائر الاستشراقية عن الإسلام وصاحبه ودعوته - قد أهمل فيه المؤلف إهمالاً كبيراً عن مكانة الإسلام الروحية وتسامحه بغير المسلمين، ولم يكتف بذلك، بل هدم ركن الجهاد الذي يعدّ من أهم أركان الإسلام. وكما قال الرسول "وذروة سنامه الإسلام - الجهاد" فوقف صاحبنا على هذه النواحي الخطيرة في هذا الكتاب.¹

وفي سنة 1892م، حصل الفراهي على شهادة "ليسانس" في اللغة الإنجليزية من جامعة الله آباد (Allahabad University) بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف في الفلسفة الحديثة. ثم التحق بقسم الماجستير ولكن لبعض الأسباب التي لا أعرفها وربما كان للسياسة أو الاستعمار دخل كبير لم يدخل الامتحان. ويعلّل تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عدم دخوله في امتحان الماجستير بقوله بأنه قد وصل إلى درجة كبيرة من حيث البحث والنقد والتحقيق في هذه اللغة وعلومها. ولذلك لم ير حاجة إلى الدخول في الامتحان لمحض الحصول على الشهادة.²

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 25 بتصرف

² ترجمة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، ص 3

وعلى الرغم من إتقانه اللغة الإنجليزية فإنه لم يترك وراءه آثاراً علمية كثيرة فيها إلا كتباً فند فيها آراء المسيحيين التي تقول: إن المسيح عليه الصلاة والسلام مخلصهم وأنه أدى الكفارة عن ذنوبهم. وفي مكتبة "مدرسة الإصلاح" التي أسسها الشيخ محمد شفيع كتب عديدة باللغة الإنجليزية قد درسها الفراهي دراسة الباحث والناقد وترك على هوامشها آراءه عن هذه الكتب ولكنه على عادته كتب هذه الآراء باللغة العربية- وذلك كله يدل على اطلاعه الواسع على الثقافات الغربية، وتمكّنه من ناصية هذه اللغة. كما يدل بقوة وعمق على تمسك الفراهي باللغة العربية لغة الإسلام ومحاولة ترويض الهنود عليها.

وقد ذكر أمين أحسن الإصلاح في ترجمته بأنه درس عليه نظرية الدولة (Theory of State) للفيلسوف الألماني الشهير متشلي مع التحليل والنقد لأفكار المؤلف ومع المقارنة العلمية بين نظريات العلماء المسلمين.¹

ويقول العلامة السيد سليمان الندوي: كان عالماً بالعلوم العربية والدينية وفاضلاً في العلوم العصرية والإنجليزية،² وبالإضافة إلى ذلك فإن نظرياته في النقد الأدبي التي يبنيها في كتابه القيم "جمهرة البلاغة" تدلّ على أنه كان متعمقاً في الأدب الإنجليزي وواسع الاطلاع على الفنون الأدبية الإنجليزية لأنني أراه يتعرض كثيراً لشعراء الإنجليز وأدبائهم أمثال شكسبير وملطن وغيرهما.

وخامساً: دراسته اللغة العبرانية: في سنة 1906م قدّمت الحكومة الهندية الإنجليزية مساعدة مالية كبيرة إلى جامعة علي جرة الإسلامية للقسم العربي بشرط أن يدرّس فيه أستاذ أوربي- فقبلت الجامعة مساعدتها المشروطة وانتخبت المستشرق الألماني الشهير "جوزيف هارويز" لتدريس اللغة العربية. كما عينت الفراهي أستاذاً مساعداً له ولكن المستشرق الألماني عندما استلم منصبه واتصل بمساعده الفراهي عرف مكانته

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاح)، ص 26

² المصدر نفسه، ص 35

العلمية ومهارته في اللغة العربية وآدابها فعرض عليه أن يدرسه اللغة العربية فقبل ذلك الفراهي. وكان المستشرق عالماً باللغة العبرانية فانتزح الفراهي هذه الفرصة وبدأ يدرس عليه هذه اللغة ليستفيد بها في دراسة الثقافات اليهودية والمسيحية، وبلغ فيها إلى درجة جعلته يفهم نصوص التوراة والإنجيل العبرية بدون مشقة. وقد استفاد بها كثيراً في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" ولا سيما كتابه الشهير "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" كما سيأتي تفصيل ذلك في مكانه المناسب.

المبحث الثاني: التعريف ببعض أساتذة الفراهي

1. هو محمد شبلي النعماني الملقّب بـ"شمس العلماء" ولد سنة 1857م أي سنة الثورة الهندية الكبرى بقرية من قرى أعظم جرة تسمى بـ"بندول" وكان قد منح شبلي ذهناً ثاقباً وطبعاً سليماً وكان والده الشيخ حبيب الله حريصاً على تثقيف ابنه وتربيته ومن حسن الحظ كان في قرينته الأديب الأملعي العلامة محمد فاروق الشرياكوتي الذي كان ماهراً في العلوم العربية والآداب الفارسية كما كمل الأدب العربي عند العلامة الشيخ فيض الحسن السهارنفوري أستاذ الفراهي. أما علم الحديث فقد أخذ عن المحدث الشهير العلامة أحمد علي الديوبندي. وبعد فراغه من التحصيل دخل خدمة الحكومة ولكنه لم يلبث أن تركها من تلقاء نفسه ثم عين مدرساً للغة العربية في كلية علي جرة الإسلامية فاتخذ له بيتاً بجوار السيد أحمد خان رئيس الكلية ومؤسسها وكان السيد أحمد خان يبحث في العلوم المختلفة فاقتبس منه ومن المستشرق الإنجليزي أرنولد معلومات في الفلسفة والعلوم الحديثة. كما أنه علم المستشرق أرنولد كثيراً من العلوم الإسلامية.

ولا شك أن العلامة شبلي النعماني لم يدرس في المعاهد والمدارس كما كانت عادة الناس حينذاك ولكنه بجده واجتهاده وصحبته مع المحققين والباحثين أصبح نابغة من نوابغ الهند في العلوم العربية والآداب الفارسية والأردوية. نعم كان في الهند في عصره

مَنْ يَعِدُّ أَوْسَعَ مِنْهُ عِلْمًا وَاطْلَاعًا فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالْأَصُولِ وَلَكِنْ قَلْبًا يَوْجِدُ مَنْ يَمِثَلُهُ أَوْ يَشْبَهُهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى نَفْعِ النَّاسِ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْعُلُومِ أَوْ التَّأْلِيفِ فِيهَا، وَلَا أَعْرَفُ فِي مَعَاصِرِهِ ضَرِيبًا لَهُ فِي إِتْقَانِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَطُولِ الْبَاعِ وَحَسَنِ الذَّوْقِ فِي فَهْمِ مَنْثُورِهَا وَمَنْظُومِهَا وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكِتَابَةِ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ. فَاسْلُوبُ كِتَابَتِهِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ سَلِيمٌ مِنْ كَلْفَةِ الْعِجْمَةِ وَخَيْرٌ مِمَّا عَلَى ذَلِكَ كِتَابَتُهُ فِي نَقْدِ تَارِيخِ التَّمَدُّنِ الْإِسْلَامِيِّ لِـ"جُورْجِي زِيدَان"، أَمَا فِي اللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ وَالْأُرْدُودِيَّةِ فَكَانَ أَدْبِيًّا عَدِيمَ النَّظِيرِ مِنْ حَيْثُ الْكِتَابَةُ وَالْإِنْشَاءُ وَسَعَةُ الْاطْلَاعِ عَلَى جَمِيعِ فَنُونِهَا فَكَتَبَهُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْفَارْسِيِّ "شَعْرُ الْعِجْمِ" يَعْتَبَرُ مَرْجَعًا وَحِيدًا عِنْدَ أَهْلِ إِيرَانَ وَنَاطِقِي الْفَارْسِيَّةِ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا.

وكان شبلي وسطاً بين أولي التفريط الجامدين على التقاليد القديمة وبين أهل الإفراط من المفتونين بالتقاليد الحديثة. إذ كان صاحب مشاركة صالحة في العلوم الإسلامية مكنته من التدريس والتأليف فيها بطريقة استقلالية وصاحب مشاركة في العلوم الكونية من رياضية وطبيعية واجتماعية عرف بها حال العصر، وما يحتاج إليه المسلمون فيه. وقد أتقن علم التاريخ إتقاناً لعله لا يوجد في العالم الإسلامي الكثير ممن يساويه فيه. وقد أشاد بمهارته في علم التاريخ وسعة اطلاعه على الوقائع التاريخية وقوة تمييزه بين الغث والسمين كجاء علماء العرب والإسلام.

مكث شبلي في علي جرة إلى سنة 1898م ثم ذهب في هذه السنة إلى حيدرآباد وهناك كانت قد أسست الجمعية العلمية "السلسلة الآصفية" فتوظف فيها براتب 200 روبية شهرياً وألّف بضعة كتب باسمها. وهناك نشأ في ذهنه تأسيس معهد علمي حديث يجمع بين العلوم القديمة والحديثة وقد اختار مدينة لكناؤ. وبذل جهوداً جبّارة لتنفيذ فكرته وتحقيق مشروعه فقام بفضل جهوده المعهد العلمي الشهير "ندوة العلماء" ولذلك لما رجع من حيدرآباد طلبه محسن الملك أن يرجع إلى حيدرآباد ولكنه رفض وأقام في لكناؤ وكان في الندوة عضواً كبيراً عاملاً وقد فهم مقاصدها حق الفهم وأراد أن يثمرها فنظم

شؤونها وأصدر مجلة كبيرة باسم "الندوة" كانت من أكبر المجلات في اللغة الأردوية وأرقاها. ولكنه لما انتخب رئيساً لندوة العلماء بعد اعتزال رئيسها الشيخ محمد علي لم يقدر على استخدام الأعضاء كلهم كما استخدمهم سلفه: لأنه اشتهر بحرية الرأي والاجتهاد في كل شيء فخالفه بعض العلماء وأخذوا يطعنون عليه حتى رماه بعضهم بالإلحاد وإفساد المعهد فاضطرَّ إلى الاستقالة من الرياسة وسافر إلى "أعظم جرة" حيث رسم تأسيس "دار المصنِّفين" التي لا تزال باقية إلى الآن وتعتبر أكبر مجمع علمي يمتاز بين سائر الجامعات العلمية في الهند من حيث أعماله ومنجزاته وأسس بجوارها كلية إنجليزية باسم كلية شبلي (Shibli College) فوقف حياته لخدمة "دار المصنِّفين" و"كلية شبلي".

وحيثما كان شبلي في كلية علي جرة الإسلامية كان المستشرقون يهاجمون الإسلام وصاحبه وبقار الشخصيات الإسلامية فرأى واجباً عليه أن يردَّ على هؤلاء المستشرقين ومفترياتهم.

يقول العلامة السيد سليمان الندوي: "لم يقيم شبلي النعماني بردَّ كل مَنْ وجه إلى الإسلام المطاعن والاعتراضات. بل اختار من علماء الغرب والمستشرقين مَنْ كان ذائع الصيت في البلاد الغربية والشرقية وكان على مكانة كبيرة في المجالات العلمية الثقافية. فقد سلك شبلي مسلكهم في البحث عن نوادير الكتب المخطوطة أو المطبوعة ورجع إلى المصادر والمراجع التي استقى المستشرقون منها فبين بأدلة قاطعة أخطاءهم وغلطاتهم التي وقعوا فيها عامدين أو غير عامدين وأثبت بأسلوبه العلمي البليغ ما أقام المسلمون من حضارات رائعة في دور حكمهم استناداً إلى الوقائع التاريخية التي لم يستطع المستشرقون إنكارها فأثار الأمل في قلوب المسلمين عن الحياة الدينية والروحية والثقافية التي حاول المستشرقون القضاء عليها وإطفاء نورها ففشلت مهمة أعداء الإسلام. وماتت في مهدها.¹

¹ حياة شبلي، ص 18 بتصرف.

ولهذا الغرض ساح شبلي في البلاد الإسلامية للاستعانة على تأليف كتاب في سيرة عمر بن الخطاب وكتب أخرى في الموضوعات الإسلامية الأخرى مثل "الجزية" و"حقوق الذمين" و"الكلام" و"عالم جبر أورنج زيب".

أما كتابه في سيرة عمر بن الخطاب الذي ساح لأجله البلاد العربية وذهب إلى مصر وتركها فإنه من أحسن الكتب التاريخية على طريقة حديثة وسيكون نفعاً له إلى الأبد، ولكن من خير ما ألف العلامة شبلي النعماني وما لا تستطيع الأمة الإسلامية أن تنساه كتابه في سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان شبلي يريد أن يختم حياته بكتابة السيرة المقدسة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولذلك بدأها بعد ما فرغ من الموضوعات الأخرى، ولكن المنية حالت دون تحقيق أمنيته فلم يستطع إلا أن يكمل الجزء الأول فقام بهذه المهمة تلميذه الوفي الرشيد العلامة السيد سليمان الندوي وكلّهما في سبعة مجلدات ضخمة تعتبر في الوقت الحاضر موسوعة نادرة للسيرة النبوية المقدسة قلما يوجد لها نظير في أية لغة أخرى.

ومن مزايا شبلي الكبرى أنه كان متحمساً للعرب محباً لهم يعتبرهم قدوة في التفكير ويعدهم أحسن الأمم، وقد فضّلهم الله على سائر الأقوام إذ بعث فيهم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

فنظرة عجيبة في كتب شبلي الأدبية والتاريخية تبين لنا موقفه المتحمّس من العرب ومن قضاياهم وحضارتهم رغم أنّ عصره كان مليئاً بالمستشرقين الذين كانوا يهاجمون العرب ويقلّون من شأنهم. كما كان أعداء الإسلام الذين كانوا يعيشون في جنب المسلمين ويتمتعون بتسامحهم الديني يسلكون مسلك علماء الغرب في بثّ السموم ضد العرب. فنهجهم كان العالم المسيحي "جورجي زيدان" الذي ألف تاريخ الأدب العربي وتاريخ التمدن الإسلامي. فهذا الكتاب الأخير قد استهزأ فيه المؤلف بالعرب ولكن بأسلوب خادع. وحينما وصل الكتاب إلى الهند وعثر عليه شبلي بدأ يغلي قلبه بالغضب على المؤلف وصمّم أن يردّ عليه. يقول في خطاب له إلى الإمام الشيخ السيد رشيد رضا صاحب مجلة "المنار":

إلى حضرة الفاضل الأستاذ مولانا رشيد رضا أطال الله بقاءه.

لا يخفى على أمثالكم أنّ إغارات جرجي زيدان على أعراض العرب في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" أكثر من أن تحصى وإنّ كلّ ما دسّه وموّه به لا أصل له أصلاً وحين اطلعتُ على ذلك كاد قلبي أن يتميز من الغيظ، غير أنني صبرت وأمعنت النظر فيما له نظر ولما عيل عني الصبر قمت على ساق وألّفت رسالة أكشف فيها دسأسه وهي الآن تطبع وأريد إرسال ما فرغ من طبعه منها إليكم لكي تدرجوه في جريدتكم.¹ وقد نشرها السيّد رشيد رضا في "المنار" مع التعليق عليها والإشادة بها وبجراحة المؤلف وسعة اطلاعه على التاريخ الإسلامي.

أثر شبلي على الفراهي: إنّ شبلي كان عالماً ذا طراز جديد لم يكن يُحرّم البحث والتحقيق والتقدّم لما وصل إلينا من كتب القوم ولا سيما ما ألّفه العلماء في علوم البلاغة والأدب، والفلسفة والتاريخ وهلمّ جراً، بل كان يرى أنّ في هذه العلوم مجالاً واسعاً للنقد والبحث حتى في الفقه الإسلامي. كما لم يكن عالماً تقليدياً قبل كل ما كتبه العلماء، بل كان يرى من واجب الباحث أن يمعن النظر في الكتاب والسنة، ثم يبحث عن مدى المطابقة بين الفقه بين هذين الركنين من أركان الإسلام مع غاية الاحترام والتقدير للأسلاف ولخدماتهم الجليلة في هذا الميدان. وبالإضافة إلى ذلك أنّ شبلي بعد ما اتصل بالسير سيّد أحمد خان بصرف النظر عن أفكاره والمستشرقين الذين كانوا موجودين في كلية علي جرة الإسلامية تنور ذهنه وعرف أنّ علماء الإسلام لا بد لهم أن يعيشوا في عصرهم لا في العصر الماضي ويعرفوا مقتضيات العصر الحاضر فإنها قد تغيّرت تغييراً مهبوساً واتسعت دائرة الحياة. ولعل هذه الأفكار هي التي جعلت العلماء المتزمّتين يخالفونه ويرونه بعيداً عن الإسلام- على حد قولهم- ولا شك أنّ شبلي يشبه في هذه الناحية بالشيخ محمد عبده الذي كان يرى ضرورة

¹ مجلة "المنار"، المجلد الثامن عشر، ص 236

التطوير والتغيير في المنهج الدراسي ويرى ضرورة التعمق في القرآن والأدب العربي حتى يستطيع الطالب بعد التخرج معالجة العصر ومشكلاته.

وقد بينت فيما سبق أنّ إمامنا الفراهي قد بدأ دراسته على شبلي فأثرت أفكاره التعليمية ومناهج تفكيره وتربيته في ذهنه واتضحت أمامه سبل الحياة كما عرف بفضل دراسته عليه أنّ النزاع والخلاف المذهبي الذي ساد أوساط العلماء لا يمتّ إلى الإسلام بأية علاقة، بل إنه نتيجة لضعف عقلية بعض المسلمين وسطحية تفكيرهم. وبالإضافة إلى ذلك كان شبلي يوجّه تلميذه وأخاه الفراهي للدراسة الواسعة لجميع العلوم الدينية والأدبية. كما يتضح بالمقال الذي كتبه السيّد سليمان الندوي في مجلة "معارف". يقول: إنّ الفراهي حينما كان في كراتشي طبع ديوانه الفارسي وبتوجيهات العلامة شبلي وكثرة طلبه مال إلى البحث والنقد في العلوم.¹

وقد يكون من المناسب لي هنا أن أشير إلى بعض العلوم [التي] لم يكن الفراهي مقلداً لأحد فيها، ولم يكن أحد مرشداً له. بل كان ذهنه هادياً ومرشداً له مثل تفسير القرآن والنظم والربط بين سوره وآياته. كما أبيت في الباب الثاني منهجه في تفسير القرآن. وهكذا علوم البلاغة والتاريخ ولكن كان شبلي محرضاً له كما أنه غرس في قلبه حبّ الدراسة والمطالعة وهذا ليس بهين.

2. العلامة فيض الحسن السهارنفوري: قد تكلمت في الصفحات الماضية عن العلامة فيض الحسن السهارنفوري وعن مكانته العلمية. كما بينت كفاحه وجهده لتفسير المناهج الدراسية في المدارس العربية، ولذلك لا أريد هنا إعادة ما قلته فيما سبق. بل اكتفي ببيان أثره على الفراهي. إنّ العلامة فيض الحسن السهارنفوري مع مكانته العلمية الكبيرة كان إنساناً بأدقّ معنى هذه الكلمة، وكان معروفاً بحبّ العلم والأدب، فهذا الحبّ هو الذي أوصله إلى مكانة بارزة في العلوم العربية والإسلامية. وكان يملك ذوقاً سليماً يفهم

¹ مقال بقلم العلامة السيّد سليمان الندوي، ص 12

المعضلات الأدبية في أول نظرة، وأصاب من قال: إنه لم يكن له نظير في معرفة الفنون الأدبية.¹ فإنه قد أثر في عقلية الفراهي ومناهج تفكيره وسلوكه في الحياة. ويتبين هذا الأثر من القصيدة الرثائية التي نظمها الفراهي بعد وفاته بالعربية، وكما قلت فيما سبق إنَّ الفراهي اتصل بفيض الحسن بعد ما أكمل الدراسة العربية حسب المناهج المعمول بها، وذهب إليه ليتخصص في العلوم الأدبية، فإنه قد عرف بأول لقاء مع فيض الحسن بأنه أديب عديم المثال، وبعد ما درس عليه تبين له أنَّ فيض الحسن وصل إلى هذه الدرجة من العلم والمعرفة بعد ما بذل جهوداً جبّارة في هذا السبيل، ومن هنا نشأ في ذهنه حبّ العلم والأدب ودراسة اللغة العربية دراسة مستفيضة جدّية. كما تغيرت مناهج تفكيره ومناهج كتابته وبحثه فقد كان يكتب العربية- قبل أن يذهب إلى فيض الحسن- بأسلوب أعجمي جاف، ولكن بعدما درس على فيض الحسن بدأ يكتب العربية على سبك بلغاء العرب وفصحائهم.²

3. المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد: من أساتذة كلية علي جرة الإسلامية الذين درس عليهم الإمام الفراهي المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد. ولد في سنة 1864م وتعلم في كبريدج: وهو من المستشرقين الذين درسوا الإسلام وألّفوا فيه وعنه. وبعد ما قبض الإنجليز على زمام الحكم في الهند وقامت كلية علي جرة الإسلامية بتعيين المستشرق أرنولد أستاذاً فيها سنة 1888م فبقي فيها إلى سنة 1898م وفي أثناء إقامته في الكلية ألّف كتابه الشهير "الدعوة إلى الإسلام" (Preaching of Islam) وهذا الكتاب مع أنه لا يخلو عن المطاعن في الإسلام ودعوته يعدّ من خير الكتب التي ألّفت الدوائر الاستشراقية ويقول الأستاذ نجيب العقيلي عنه وكان معجباً بالإسلام متضلعاً من علومه منصفاً له في أبحاثه عنه "فلم تعد عليه هفوة واحدة على كل ما كتبه عنه في دائرة المعارف الإسلامية وحقّق من المصنّفات فيه".³

¹ الثقافة الإسلامية في الهند، ص 49

² ترجمة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، ص 2

³ المستشرقون للأستاذ نجيب المتبقي، 504/2

وكان أرنولد أستاذًا للفلسفة في كلية علي جرة الإسلامية فحضر الفراهي المحاضرات التي كان يلقيها في الفلسفات الحديثة عامة والفلسفة الإسلامية خاصة، فأعجب به وسعة اطلاعه على العلوم الإسلامية- فضلاً عن العلوم الغربية التي هو كان من أهلها- فنشأ في قلبه حبّ الدراسة للفلسفات الغربية حتى يستطيع أن يقارن بين أبحاث علماء الغرب وأبحاث علماء الإسلام ويردّ على ما أُلّف في الدوائر الغربية والاستشراقية والهدامة ضد الإسلام ودعوته، وحينما أُلّف أرنولد كتابه "الدعوة إلى الإسلام" ملأ قلوب الناس غبطة وسروراً، فكانوا يعتبرونه أكبر خدمة للإسلام والدعوة الإسلامية، ولكن إمامنا الفراهي عرف بأول نظرة ألقاها عليه اتجاهه الاستشراقي فأعلن أنّ هذا الكتاب- رغم أنه من خير الكتب التي أُلّفت الدوائر الاستشراقية عن الإسلام وصاحبه ودعوته- قد أهمل فيه المؤلف إهمالاً كبيراً عن عمد مكانة الإسلام الروحية وتسامحه بغير المسلمين ولم يكتف بذلك بل هدم ركن الجهاد الذي يعدّ ركناً من أهم أركان الإسلام. كما عرف الفراهي أنّ المستشرق توماس أرنولد من العلماء الغربيين الذين اختارتهم الحكومة البريطانية لنشر الأفكار الغربية أو الاستعمارية وإماتة الثقافة الإسلامية العربية. كما أيقن أنّ الخدمة الصحيحة للإسلام وثقافته وتعاليمه لا تتمكن بدون الوقوف الكامل على مناهج علماء الغرب في البحث والتفكير. ومن هنا بدأ يبذل جهداً لدراسة الفلسفات الغربية والآداب الغربية فصار "مجمع البحرين" و"بينهما برزخ لا يبغيان" كان عالماً بالعلوم العربية والدينية وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية فاجتمعت فيه خصال الجنسين المثقفين من العلماء الراسخين والمتنوّرين من الفضلاء الكاملين.¹

4. جوزيف مورفيتس: وهو معروف بالجامعة الإسلامية بعلي جرة باسم يوسف هارفيز. ولد في برلين سنة 1874م ودرس هناك. وكان يحبّ الإسلام وثقافته، فدرس

¹ ترجمة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، ص آ

اللغة العربية وحينما فتح في الجامعة الإسلامية قسم اللغة العربية انتدبه الحكومة البريطانية لتدريس اللغة العربية فكان أستاذاً فيها من سنة 1907م إلى سنة 1914م وقد عينت الجامعة الفراهي أستاذاً مساعداً له وفي أول اجتماع بينه وبين الإمام الفراهي عرف المستشرق يوسف أنّ الفراهي متبحر في العلوم العربية فبدأ يكمل عليه اللغة العربية ولم ير حرجاً أن يدرس على مساعده. وكان المستشرق الألماني يوسف هارويز ماهراً في اللغة العبرانية- فانتبه الفراهي هذه الفرصة ودرس عليه هذه اللغة حتى تمكن من قراءة الكتب العبرانية وفهمها وقد استفاد منها كثيراً في تفسير القرآن الكريم وكتبه التاريخية. وسأحدث عن مدى إتقانه لهذه اللغة في فصل خاص وهو إنتاجه.

وقد ألف هذا المستشرق كتباً عديدة عن الإسلام وتاريخه وثقافته وله كتيب باسم "المغازي الأولى ومؤلفوها" نقله إلى العربية الدكتور حسين نمار. طبعته مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

المبحث الثالث: معالم شخصية الفراهي

لا يمكن تقريب الشخصية إلى الإدراك وتعريفها إلا ببيان معالمها والشخصية- في الحقيقة- مجموعة الصفات الجسمية والخلقية والعقلية سواء كانت حسنة أم قبيحة. كما أنّ هذه الشخصية توهب بالفطرة وتكتسب بالتربية- ولكن التي توهب بالفطرة أقوى من المكتسبة.

ويتضح من دراسة شخصية الإمام الفراهي أنه كان يتصف بما تتطلبه الشخصية المكتملة من مزايا خلقية ومحلية.

أولاً- صفاته الجسدية: قد بحث كثيراً في كتب التاريخ وراست كثيراً من العلماء الذين كانت لهم صلة قوية بالفراهي لأحصل على وصف دقيق كامل له يعينني على رسم عام لصفاته الجسمية ولكن- للأسف الشديد- لم أحصل على شيء معروف لأنّ سلسلته العلمية تنتمي إلى الامام لم يرض أن يساعدني بهذا الصدد بل إنه لم يعمل

شيئاً لتعريفه ونشر علومه بين الناس على أني رأيت صورته الشمسية وقابلت أبناءه وأحفاده فوصلت إلى نتيجة أنه كان مديد القامة، نحيف الجسم، قوي البنية، أسمر اللون إلى الأدمة، واسع العينين، وكانت صحته جيدة بسبب تَعَوُّده الرياضة غير أنه كان يشتكي الصداع المؤلم الذي أنهك قواه. فحينما يظهر هذا المرض يجعله يصاحب الفراش وهكذا أصابه في آخر حياته مرض "حبس البول" الذي اضطر إلى العملية الجراحية بعد ما لم يفده الدواء ولكن فشلت العملية التي قام بها الطبيب وذهبت بحياته. وذلك في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة 1349 هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930 م، رضي الله عنه وأرضاه.

وثانياً- صفاته الخلقية وورعه: قد اختلف من كانت لهم صلة قريبة بالإمام الفراهي: هل كان علمه فوق تقواه أم تقواه فوق علمه. وفي الحقيقة يصعب علينا أن نقول قولاً نهائياً بهذا الصدد لأنه مع حدة ذهنه وسعة علمه كان سليم الإيمان قوي اليقين طاهر السريرة تقي القلب، بعيداً عن الرذائل، برّاً بوالديه مطيعاً لأوامرهما في الخير، وحينما كان صغيراً كان يقرأ "قصص الأنبياء" على عمته التي كانت تحب أن تسمع القصص المقدسة للأنبياء الكرام، وبمزاولة هذا العمل قد تغيرت مناهج تفكيره ورسخ في قلبه حبّ الأنبياء والرسول حتى عرف وهو لم يبلغ سنّ الرشد يعدّ أنّ خير مسلك للحياة هو مسلك الأنبياء فلا بد للناس أن يسلكوا هذا المسلك الصحيح في الأخلاق والمعاملة مع إخوانهم.

وكان من ورعه أنه التزم الصدق منذ صغره وكان يقول "حيث لا يجد الناس حرجاً في قول الكذب قد التزمت الصدق وقد جربت في حياتي أنّ صاحب الصدق لن يخسر أبداً".

كما يحكي في هذا الصدد حكاية طريفة تدلّ على مدى التزامه صفة الصدق فهو يقول: "عندما كنت استعد للسفر إلى (لاهور) للتخصص في الأدب العربي عند العلامة فيض الحسن السهارنفوري قد ودّعت أمّي وخرجت من البيت فلقيت أبي بالباب

فسألني عن المبلغ الذي أعطيتني أمي- ففكرت في ذهني إن أخبرت أبي بالمبلغ الذي أخذته من أمي فيمكن أن يخضم مما يريد أن يعطيني من النقود ف وقعت في مشكلة لا أدري ماذا أفعل ولم يكن لي محيص عن الكذب ولكن صممت على أن لا أكذب. فأجبت على سؤال أبي: لن أقول لك شيئاً فسرّ أبي بهذا الكلام وقال: إن حميداً لا يكذب أي لا يستطيع أن يكذب وأعطاني من النقود أكثر مما كنت أتوقعه.¹

ومن مظاهر ورعه أنه لم يكن يحب الاختلاط مع الناس فمن كان يختلط معهم لا يتجاوزون عدد الأنامل ومعظمهم من طلبته وأهل العلم. ومن مزايا مجلسه أن يكون بعيداً عن الغيبة والنميمة والنيل من أعراض الناس فإن كان يتجاوز الحديث عن العلم والدين إلى التحدث عن أخلاق الناس وعاداتهم فيحوّله الفراهي إلى المباحث العلمية والدينية بحيث لا يشعر به أحد.

ومن ورعه أيضاً أنه كان يجتنب الشبهات فضلاً عن المعصية الظاهرة ويحكم بالحق ولو كان فيه خسرانه وذلك يدلّ على مدى خوفه وخشيته من الله وقد كتب تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: إنه كان نزاع بين أبيه وبين رجل من قريته في أرض فقد جعل الرجلُ الفراهيَّ حكماً لهذه المشكلة وأذن له أن يحكم بما يشاء فبعد ما درس الفراهي المشكلة عرف أنّ الحق مع الرجل لا مع أبيه وحكم بإعطاء هذه الأرض للرجل. وقد خسرها بذلك لأنها كانت تنتقل إليه بعد وفاة أبيه.²

وثالثاً- آباؤه: ينبي من تعقب أخلاق الإمام الفراهي في جميع حالاته عن أنفة وعزة نفس وإباء، فلم يذلّ مرة ولم يستهن بكرامة نفسه مرة، ولم يخضع أمام أيّ إنسان مهما كان، وإني لاستدلّ على إباته أنه حينما كان عميداً في دار العلوم بحيدرآباد كان شغله الشاغل التدريس والدراسة والتأليف، وقد مكث هناك أعواماً ولكن لم يتصل مرة

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 38 (بتصرف)

² وفاة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، مجلة "معارف"، سنة 1931م، ص 36.

بنظام عثمان والي حيدرآباد الذي كان الناس يتمنون لقاءه. بالرغم أنّ نظاماً قد رغب كثيراً أن يقابل الفراهي ويستفيد من آرائه وعندما ضغط عليه الناس اضطرّ إلى المقابلة ولكن يوم المقابلة لنظام عثمان والي حيدرآباد كان آخر يوم له فيها وسبب ذلك يرجع إلى إباطه لأنه بعد ما قابل نظام عثمان عرف أنه لا يستطيع أن يحافظ على كرامته وعزته ففضّل ترك حيدرآباد مع المحافظة على الكرامة وعزّة النفس على المرتب الهائل مع ما قد يتوهم من الخضوع أو التملق. ويدلّ على أنفته وإباطه أنه عندما خرج من قصر نظام سأله رجل كبير من حاشيته كيف كانت مقابلتك مع صاحب الجلالة فردّ عليه الفراهي بغضب: كما تقابلونه أنتم. فقال الرجل: "من لم يطمع لم يخف". ومن مظاهر أنفته وإباطه أنه فضّل العزلة على الشهرة التي تصاحبها المذلة ويدلّ على ذلك أنه عندما كان طالباً بكلية علي جرة الإسلامية رافق الحاكم العام للهند اللورد كرزن في رحلته السياسية للشواطئ العربية والخليج العربي ليجتمع بالشيوخ العرب، وقد قبل هذه المرافقة- كرهاً- بأمر أخيه الشيخ العلامة شبلي النعماني، ولو كان في مكانه غيره لاستغلّ هذه الفرصة واستلم بذلك الوظيفة الكبيرة في الحكومة. ولكن الفراهي كان يعتبر ذلك أكبر غلطة ارتكبها في حياته فكان يتأسف عليها طوال حياته رغم أنّ اللورد كرزن لم يستطع أن يخضعه لمصالحه السياسية غير أنّ الخطاب السياسي الهامّ باللغة العربية الذي تلي على الأمراء العرب قد أعدّ بعضه الفراهي.

ويبين العلامة السيّد سليمان الندوي إباءه بقوله: إنه لم يمدد يده إلى الناس لطلب المعونة والمساعدة للرفاهية العامة وللخير العام وللشعب المسلم فضلاً عن نفسه. حتى إنه كان في آخر حياته وقف كل وقته لخدمة "مدرسة الإصلاح" التي أقيمت لتدريس القرآن الكريم واللغة العربية فكان يقيم بها ثلاثة أيام من كل أسبوع ويأخذ معه كل حاجياته من الأكل والشرب لئلا يضطرّ إلى استعمال أشياء المدرسة.

ورابعاً- تواضعه: إنّ التواضع أهم صفة من صفات المؤمن والعالم. وقد حثّ عليه الرسول الكريم. كما قدّم له مثلاً حسناً بحياته المقدسة. فإنه كان يخدم الناس،

ويعيش معهم غير مميّز شخصيته، وقد سلك مسلكه أصحابه. والحق أنّ التواضع علامة العظمة خصوصاً في العلماء وأصحاب الجاه. ولكن حينما نقرأ تاريخ العلماء نرى بعضاً منهم يزهون بمعارفهم ويدلون بمكائنتهم ويعتبرون ذلك من مقومات شخصيتهم ومن مكملات المظهر ورفعة الشأن.

كما نعرف في كثير منهم سماحة النفس ودماثة الخلق ورقة المعاملة والتواضع الذي لا يمسّ المظلمة. بل يعليها ويرفعها. وقد كان الإمام الفراهي من هؤلاء. كان ورعاً تقياً زاهداً في الدنيا راغباً عما بأيدي الناس. وكان عظيم الأنفة والإباء. وكان واسع العلم غزير الثقافة. فاستغنى بهذا كله عن الزهو والخيلاء فقد عاش مع كثرة علمه وغزارة ثقافته وغدائه العادي عيشة الطلاب. كان يأكل أكلهم ويلبس لباسهم ويجلس معهم في الأرض لا يميّز شخصيته عنهم حتى إذا رآه الرائي لا يعرف أنه هو الشخص العظيم والإنسان الكامل الذي انتهت إليه رياسة العلم والأدب في عصره. واليّنوع الذي استقى منه كثير من أفاضل العلماء والأدباء.

وكان لا يباهي بعلمه بل إنه لم يقبل أيّ لقب علمي أو سياسي حتى أنه غير اسمه "حميد الدين" إلى "عبد الحميد" لأنه لقبٌ حسب القاعدة العربية واللقب فيه شيء من الافتخار. وكان من عاداته أن يصحو من النوم في ساعة مبكرة من الصباح فينظم سريره وفراشه بنفسه اجتناباً عن تكليفه التلاميذ والخدم هذا العمل فيدلّ ذلك كله على أنه كان متواضعاً حقّ التواضع وبعيداً عن الزهو والخيلاء كلّ البعد.

وخامساً- جرأته في الحق: إنّ الإمام الفراهي كان شجاع القلب جريئاً في إعلان الحق لأنه قد استكمل الأسباب التي تصلحه بهذه الجرأة من علم واسع وورع مشهود وإباء مترفع واستهانة بالدنيا ومظاهرها وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم.

ويدلّ على جرأته في الحق أنه أول من أعلن آراءه عن كتاب "الدعوة إلى الإسلام" للمستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد. فقال إنّ المؤلف قد أهمل في هذا الكتاب

إهمالاً كبيراً عن عمدٍ مكانةَ الإسلام الروحية وتسامحه بغير المسلمين. كما أنه هدم ركن الجهاد الذي يعتبر أهم ركن في الإسلام كما أعلن بدون خوف ومداهنة أنّ المستشرق توماس أرنولد من العلماء الذين بعثهم الحكومة البريطانية إلى الهند لنشر الأفكار الغربية وإماتة الثقافة الإسلامية.

ومن أشدّ جرأته إعلان آرائه عن السير سيّد أحمد خان مؤسس الكلية بعلي جرة وعن أفكاره ونظرياته. رغم أنه لم يكن أحدٌ قبل الفراهي أن يتفوه بكلمة ضد السيّد أحمد خان، ولكنه حينما كان يدرس بالكلية عرض السير سيّد عليه أن يترجم له تفسيره للقرآن الكريم إلى العربية رفض الفراهي، فلما سأل السيّد عن السبب ردّ عليه قائلاً: "لا نريد أن نساهم في إشاعة المعصية حتى ندخل في زمرة المتعاونين على الإثم رغم أنّ السير سيّد كان معجباً بالفراهي غاية الإعجاب وكان يمدح علمه وفضله أمام العلماء. وهو الذي كتب إلى عميد كلية علي جرة الإسلامية الإنجليزي عندما بعث إليه الفراهي: "إني أبعث إليكم طالباً جديداً ليس له مثيل في اللغة العربية ولا الفارسية في تلاميذ الكلية وأساتذتها ولكن ذلك كله لم يستطع أن يحمل الفراهي على قول الباطل أو كتمان الحق.

وسادساً- صفاته العقلية: ذكاؤه وتبوعه في العلوم الإسلامية: وهنا أريد أن أنقل حكيتين فيما دلالة واضحة على عبقريته التي ألفت العلماء الكبار في دهشة وحيرة بالغتين. فقد نقل تلميذه أمين أحسن الإصلاح في ترجمته: "أنّ الإمام الفراهي حينما كان يدرس بالكلية الإسلامية بعلي جرة، أراد السير السيّد أحمد خان مؤسس الكلية ورئيسها اختباره في اللغة الفارسية فدعاه يوماً وطلب منه أن ينقل بعض الفصول من طبقات ابن سعد الكبرى التي حدّدها بنفسه إلى اللغة الفارسية فقبله الفراهي وترجم ما طلبه السير سيّد أحمد خان فلما جاء به إليه ورآها السير سيّد اندهش من أسلوبه الأدبي البليغ وقدرته النادرة على اللغة العربية والفارسية كليهما. وأعجب بترجمته حتى

أدخل ما ترجم الفراهي من الفصول المطلوبة في مقررات الكلية بالقسم الديني.¹

والحكاية الثانية: أنّ السير سيّد أحمد خان كان يريد طبع رسالة خطيّة للإمام الغزالي عثر عليها في بعض المكتبات وكانت الرسالة بالية ممزقة مشطوبة الحروف وقد أكلتها في معظم المواضع "أرضة" وكان هو مع شبلي وحالي يصحّح هذه الرسالة اعتماداً على سياق الكلام حيناً، وعرضها على النسخ الأخرى حيناً آخر، ولكن تصحيحه كان أمراً شاقاً يتطلب بذل جهود جبارة ولذلك قال شبلي للسير سيّد متضائلاً عن هذا العمل أن يفوضه إلى حميد الدين الفراهي فتحيّر من كلام شبلي وقال: هل من المعقول والمتصور أن ينجح الطالب- الفراهي- فيما لم يقدر عليه أمثال شبلي وحالي. ولكن لما ألح عليه شبلي أرسل السير سيّد إلى الفراهي وقال له إني قد حدّدت بعض الصفحات من هذه الرسالة وأريد منك تصحيحها وتحقيقتها فقبل الفراهي وأخذ منه الرسالة فأكمل الفراهي عمله في مدة قصيرة وذهب به إلى السير سيّد فلما عرض السير سيّد ما صحّحه الفراهي على النسخ المطبوعة أدركته الدهشة البالغة لأنه كتب نفس الكلمات التي كانت توجد في النسخ المطبوعة أو ما يشابهها. فسأله السير سيّد عن المراجع التي رجع إليها أثناء التصحيح. فأجاب الفراهي: إني لم استعن بالمراجع بل وضعت هذه الكلمات اعتماداً على سياق الكلام وأسلوب الغزالي.²

المبحث الرابع: إنتاجه

قد اتضح مما قلت فيما سبق أنّ الإمام الفراهي بدراسته العميقة للغة العربية وآدابها وعلومها قد صار عربياً في التعبير والتحيير وصار ذوقه الأدبي كالعرب الخالص ولكن مع كل هذه المزايا التي تجسّدت في شخصيته كانت مزية أخرى قد غلبت تلك المزايا كلها وهي حبّ القرآن الكريم وقد ورث هذا الحبّ من أسرته وإن لم يظهر فيها مفسّر

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 24

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

للقرآن وكان الإمام يحبّ كتاب الله وتلاوته حينما كان صغيراً لا يفهم معانيه ولا يدرك بلاغته ولكنه كان يلتذّ بالصوت المعجز الذي ينبع من تنسيقه المعجز ونظمه البديع فلما درس اللغة العربية وآدابها وتضلع منها جعل هدفه الوحيد القرآن الكريم وتدبره فكان الكتاب العزيز النقطة التي تدور حولها كل العلوم التي تخصص فيها فقد استخدم هذه العلوم القديمة والحديثة لفهم معانيه وتعاليمه وشرح كلماته وتفسير مجمله، فلا أبالغ إن أقول إنه تدبر القرآن حقّ التدبر الذي يستحقه ودرس كل العلوم والآداب بالدقة والنقد لتعيينه على التعمق فيه وفهمه الحقيقي وكان يحفظ كثيراً من الأشعار الجاهلية والخطب الجاهلية عن ظهر قلب وأنفق أموالاً طائلة للحصول على الدواوين الجاهلية من الشعر والخطب، كما تعلم اللغة العبرانية من الأستاذ الألماني جوزيف هورفيتس الذي كان مدرساً بكلية علي جرة الإسلامية فدرس الكتب المقدّسة وشروحها في هذه اللغة واستدل بها على نظرياته وعرف كيف حرّف أهل الكتاب كتبهم وكان يستغلّ التاريخ والجغرافية خير استغلال لمعرفة الأمكنة التاريخية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. كما أنّ القرآن يحتوي على الأمور الاجتماعية والسياسية والطبيعية كما يشمل الأمور الغيبية أو ما بعد الطبيعة فإنه كان يملك نظراً عميقاً في الفلسفات القديمة والحديثة ودرس كل الكتب بهذا الصدد التي أمكن الحصول عليها. وهكذا قد درس الحديث النبوي والفقهاء الإسلامي- تاريخهما وتطورهما- أحدهما كأساس التشريع الإسلامي والثاني كصورة تطبيقية للأصول الإسلامية.

وقد بلغ الاستعمار الإنجليزي في عصر الفراهي أوج كاله واشتدّت حملات المستشرقين على الإسلام والمسلمين واتّسع دائرتها، فكان عصره أصعب عصر فقيه جدّت الأحداث والفتن وحدثت الحركات المعادية للإسلام وانتشرت الأفكار الإلحادية المعادية لفكرة التوحيد التي هي ميزة الإسلام الكبرى فلم يكن من أسباب هذه الآراء والأفكار- في الدرجة الأولى- أنّ المستشرقين والمبشّرين الإنجليز والفرنسيين قاموا بدور خطير لنشر النظريات المناهضة للإسلام وبذلوا جهوداً جبّارة لإثارة الشكوك

والشبهات في الأجيال الناشئة عن تعاليم الإسلام الخالدة فقط بل - للأسف الشديد - سبقته غفلة المسلمين أنفسهم عن دينهم وقيمه الأخلاقية والإنسانية لأن الاستشراق أو التبشير لم يدخل أي بلد من العالم الإسلامي والعربي إلا بعد ما رأى أنّ المسلمين قد خارت قواهم الذهنية والفكرية والعقلية وضعف تمسكهم بالدين الخفيف فحينما دخل الاستعمار الإنجليزي الهند كان المسلمون قد وهنت صلتهم بالإسلام وكانوا غافلين عن التراث الإسلامي القيم وكانوا يسبحون على سطح العلوم والآداب ويحرمون على أنفسهم التعمق وكانت الغاية عندهم الشروح والحواشي فعند ذلك قام التفكير الغربي الاستشراقي الذي كان ينتهز هذه الفرصة فالأجيال الناشئة كانت معذورة إذا أعرضت عن التمسك بالإسلام - معذورة أيضاً في الزيادة عن أهله والاستهزاء بالمنتسبين إليه من علماء وشيوخ متبطلين علمياً ومادياً لم يكونوا قادرين على فهم الإسلام فهماً حقيقياً لبعدهم عن روح القرآن الكريم وتعاليمه النبيلة الخالدة التي بلغ بفضلها مجد المسلمين في العصر الأول ذروته وتغلّبوا بفضل تعاليمه على القياصرة والأكاسرة وملؤوا الدنيا كلها من مشارق الأرض ومغاربها بنور الإسلام ولكن لما بعدوا عن الدين وتركوا العمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خارت قواهم وزالت هيبتهن عن أعين أعداء الإسلام. وكذلك جدت بينهم الخلافات المذهبية والطائفية التي مهّدت السبيل للمستشرقين وعلماء الغرب أن يغرسوا أفكارهم في أذهان الأجيال المسلمة الناشئة فلم يكن القضاء على هذه الفتن وعلى هذه الخلافات المذهبية والطائفية سهلاً إلا بجمع المسلمين على كلمة الإسلام فكيف يتحقق ذلك مادام سائداً فيهم دراسة القرآن الكريم دراسة تقليدية فكان من الواجب الحتمي أن يوجه المسلمون توجيهاً سليماً وأن يثار فيهم التشوق إلى دراسة القرآن وتدبره حتى يتحقق تقريب المسلمين من تعاليم الإسلام وإنارة أذهانهم بنوره.

ولذلك لم يقدّم صاحبنا الفراهي بالردّ على المستشرقين والمبشرين فقط - كما فعل بعض العلماء مشكورين - بل أراد أن يقوم بدور إيجابي بهذا الصدد وهو أن يصحح أفكار المسلمين ويجعل لهم مدخلاً لفهم كتاب الله.

كما أنّ الفراهي لم يكن مصنّفًا محترفًا، بل كان أمامه إصلاح المسلمين عامة بطريق إصلاح العلماء إذ يدهم زمام أمورهم الدينية وجاء في وصفهم أنهم ورثة الأنبياء، ولذلك أراه قد بدأ يكتب عن جميع العلوم التي لها علاقة بالقرآن وسيتبين ذلك من قائمة مؤلفاته التي سأسجلها فيما بعد. كما أنه اختار لكتابه اللغة العربية لأنها هي اللغة الموصلة إلى فهم الإسلام حقيقة وهي كذلك اللغة المشتركة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وعندما بدأ يؤلف كتبه باللغة العربية ولا سيما تفسيره للقرآن الكريم اعترض عليه بعض معاصريه قائلًا لماذا تفسّر القرآن الكريم بهذه اللغة وعارفوها في الهند لا يتجاوزون عدد الأنامل فردّ عليه: إني أفسّر كتاب الله للعلماء لأنهم هم الذين بعدوا عن جادة الطريق فكريًا وعلميًا فبدون إصلاحهم لا يمكن إصلاح المسلمين فبتفسيره لكتاب الله أريد إصلاحهم إصلاحيًا فكريًا وعلميًا لتزول الانحرافات التي جسدت في المجتمع الإسلامي- كما أرى لا أريد أن أجعل رسالتي مقتصرة في بلد دون بلد آخر من العالم الإسلامي- بل أريد أن تعمّ وتنتشر هذه الرسالة في جميع البلاد الإسلامية وأنّ من المعروف أنّ لغة علماء المسلمين المشتركة في اللغة العربية لغة كتاب الله ولذلك اخترتها لنشر أفكاره ورسالتي¹. وبالإضافة إلى ذلك كان الفراهي متحمسًا للعرب ولغتهم غاية التحمس لا نرى له مثيلًا في هذا الميدان فإنه كان يرى أنّ الدفاع عن العرب دفاع عن الدين لأنهم حاملوا هذا الدين والرسول صلّى الله عليه وسلّم بعث فيهم ومنهم إلى الناس كافة فبعض كتبه أمثال "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"تفسيره لسورة الفيل" و"جمهرة البلاغة" وغيرها خير دليل على تحمسه للعرب.

أولاً- الفراهي الشاعر: وقبل أن أتعرض لمؤلفاته الثرية أريد أن ألقى نظرة عجي على كاشع لأنّ ذلك جانب من أهم جوانب شخصيته الفنية. فالفراهي وإن لم يكن شاعرًا محترفًا ولكنه كان شاعرًا موهوبًا، كانت الملكة الشعرية فيه راسخة قوية وقد

¹ المصدر نفسه، ص 36-37 بتصرف

بيّنت فيما سبق أنه نظم قصيدة مدحية في اللغة الفارسية ولم يتجاوز السادسة عشر من عمره، ففاق فيها الشعراء الفرس. وهنا أريد أن أسجّل آياتاً من قصائده العربية من ديوانه التي قالها متأثراً بحرب طرابلس الغرب وأترك للقارئ العربي حرية الحكم على الناحية الفنية. وعلى مدى حبه للعرب وللعروبة وللإسلام ومدى حرصه على تجميع كلمة الأمة ووحدة الصف والمهدف.

كلمة عن حرب طرابلس الغرب: حينما كانت الإمبراطورية العثمانية قد منيت بالفشل في الأمور الخارجية وكانت بمعزل عن الهدوء والاطمئنان كانت إيطاليا تبحث لسكانها المتكاثرين في اطراد عن مستعمرة في حوض البحر المتوسط لكي تضع حداً لهجرة شبانها إلى البلدان الأجنبية بعد أن استولت فرنسا على تونس التي كانت قد استوعبت عدداً كبيراً جداً من المهاجرين الإيطاليين. فإذا بأنظارها تقع على طرابلس الغرب. وكانت الإمبراطورية العثمانية تنظر إلى طرابلس الغرب دائماً نظرتها إلى ثغر مفقود. حتى إذا أبى رجال تركية الفتاة حفاظاً على الشرف أن يتخلوا عنها بعد أن فاجأهم الطليان بهذا الطلب أعلنت إيطاليا الحرب في 29 من سبتمبر سنة 1911م فوطئت قواتها الأرض الإغريقية في 5 من تشرين الأول (أكتوبر) ووقع عبء الدفاع على عاتق أنور باشا ومصطفى كمال الذي كسب ههنا أول إكليل من أكاليل مجده العسكري. وعلى الرغم من أنّ المواطنين العرب والبربر ناصروا الأتراك في حماسة واندفاع فقد هزموا آخر الأمر ففي سنة 1912م تخلت الدولة عن طرابلس وبنغازي لإيطاليا.¹

وقد جعلت هذه الحرب المسلمين الهنود ييكون من أعماق قلوبهم لأنّ هزيمة العرب في طرابلس الغرب كانت هزيمتهم ولكن بكاء المسلمين لم يكن بكاء الضعف والجبن بل كانوا ييكون لأنّ إخوانهم قد أغير عليهم واحتلّ أرضهم أعداء الإسلام، واتحدوا في الدفاع عن شرف العرب بالمال والنفس والفراهي قد حزن على الكارثة

¹ تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكهان، 81/4-82

مجلة الهند الإمام عبد الحميد الفراهي حياته ومنهجه ...

التي نزلت عليهم وبكى وأبكى وحرّض المسلمين ودعا إلى الله والجهاد في سبيل الله لتحرير أرض العرب وللقضاء على جميع الخلافات والاستعداد لخوض المعركة في جانب العرب:

كَيْفَ الْقَرَارُ وَقَدْ نُكِسَ أَعْلَامُنَا بِطَرَابَلُسَ
 كَيْفَ الْقَرَارُ وَحَوْلَنَا أَلْ أَعْدَاءُ تَرْتَقِبُ الْخُلْسُ¹
 مِنْ كُلِّ² ذَنْبٍ إِنْ رَأَى مِنْ غِرَّةٍ فِينَا اخْتَلَسَ
 أَوْ أَفْعَوَانَ مُطْرِقٍ إِنْ لَمْ نُبَادِرْهُ نَهَسَ
 نَبِيٍّ عَلَى إِخْوَانِنَا بَيْنَ الْقَتِيلِ وَمَنْ حُسِ
 كَمْ مِنْ تَقِيٍّ طَاهِرٍ فِيهِمْ وَنَحْرِيذٍ نَدَسَ
 نَبِيٍّ لِرَبَاتٍ الْخُدُو رِ شَرْقَنَ بِالْمَاءِ السَّلْسِ
 جَرَتْ الْحُتُوفُ عَلَى الْأَلْوِ فِ مِنْ الزُّحُوفِ وَمَنْ جَلَسَ
 هُمْ أَهْلُنَا وَعَشِيرُنَا أَفِيَالُونَ وَلَا نُحْسَ
 يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ يَا أَبْنَاءَ آبَاءِ شَمْسِ
 هَلْ تَتَعَسُونَ وَخَصَمَكُمْ عَنْ كَيْدِهِ مَا إِنْ نَعَسَ
 هَلْ تَرْتَضُونَ بِذَلَّةٍ وَالْأَمْرُ لَيْسَ بِمِلْتَسِ
 إِنْ لَا تَهَبُوا الْيَوْمَ فَالْإِسْلَامُ يَتَعَسُ بَلَّ تَعَسَ
 قَدْ زُلْزِلَتْ أَرْكَانُهُ حَتَّى تَقْعَقَعَتِ الْأُسُسُ
 فَالْخَصْمُ يَجْهَدُ أَنْ يَرَى أَلْ فِي بُؤْسٍ بِلْسِ

¹ سلب الشيء بالمخاتلة والعجلة

² "الكل" لا يوجد في مكاتيب فراهي، ص 77

هَلْ لَا ذَكَرْتُمْ مَا أَصَا	بَ الْمُسْلِمِينَ	بَانَدُلُسْ
سَلْبُوكُمْ شَطْرَ الْبِلَا	دِ وَمَا لَهَا مِنْ	مُلْتَمَسْ
أَفْكَلَ يَوْمٍ يَنْكِصُ الِ	إِسْلَامٌ حَتَّى	يَنْدِرِسْ
هَذَا وَلَمَّا يَنْكَأِ الِ	حِجْرَحِ الْقَطِيعِ	بَانَدُلُسْ
هَلْ يَذْهَبُ الْحَقُّ النَّقِيذُ	يُ وَيَغْلِبُ الْكَذِبُ	الرَّجْسُ
هَلْ تَرْتَضُونَ بِذُلِّ دِي	نِكْمٌ وَلَيْسَ	بِمَلْتَبَسْ
وَاللَّهِ لَا نَرْضَى بِهِ	مَا دَامَ فِينَا مِنْ	نَفْسِ
فَالْيَوْمَ إِنْ لَمْ تَدْفَعُوا	فَلْيَاتِينَ يَوْمَ	نَحْسِ
إِنِّي أَرَى فِتْنًا تَمُؤُ	جُ وَقَدْ ظَهَرَ لِمَنْ	حَدَسْ
نَارًا تَأْجَّجُ فِي الْبِلَا	دِ وَقَدْ تَلَهَّبَتْ	الْأُطْسُ
الْخِصْمُ لَيْسَ بِمُؤْتَلٍ	حَتَّى يَرَى الْحَقَّ	طَمَسْ
يَبْغُونَ قُسْطُنطينِيَّةَ	ةَ وَبَعْدَهَا أَرْضَ	الْقُدْسِ
وَاللَّهِ يَا بِي أَنْ يَدْنُ	نِسَ قُدْسَهُ الْقَوْمُ	النَّجِسِ
قَدْ صَبِحَ فِي حِجْرَاتِهَا	وَلتَسْمَعَنَّ لَهَا	الْجِرْسِ
فَلنَنْضِحَنَّ أَوْ نَقْتَلَنَّ	عَنْ قُدْسِنَا الْقَوْمَ	النَّجِسِ
فأَحْمُوا ذِمَارَ الْمَلَّةِ الِ	بِيضَاءِ كَالْأَسَدِ	الشُّكْسِ
وَاسْتَجْمِعُوا عِدْدًا فَمَا	تَجْرِي السِّفِينُ عَلَى	الْيَبْسِ
أَعْنِي الْمَرَائِبَ وَالْمَدَا	فَعِ وَالْكَائِبَ	وَالْحَرَسِ
وَتَعْلَمُوا حَيْلَ الْحَرِ	بِ لِتَغْلِبُوا الْخِصْمَ	الشَّرْسِ
فَتَاهِبُوا وَتَالِبُوا	وَتَلْبِئُوا لَوْغَى	ضَرْسِ

وَأَسْتَنْصِرُوا اللَّهَ الْمَهِيءَ مِنْ فِي الْعِشِيِّ وَفِي الْغَلَسِ
"وَلِيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ" فليَحْتَمِسْ¹

وعندما عقدت تركيا الصلح مع إيطاليا وتخلت عن طرابلس وبنغازي لها اشتعل العرب غضبها على الأتراك وغضب معهم المسلمون فيقول الفراهي- نيابة عن عواطف المسلمين الهنود- مخاطباً الأتراك:

يَا تُرْكُ لَا تَبْغُوا الْهُوَيْنَا لَا تَنْعَمُوا الْحَسَادَ عَيْنَا
أَ تُسَالِمُونَ الظَّالِمِيْنَ نَ الْغَائِمِيْنَ لِمَا حَمِينَا
النَّاهِيْنَ بِأَدَانَا وَالْغَاصِبِيْنَ لِمَا حَوِينَا
أَ تُسَالِمُونَ عَدُونَا وَتَرَكْتُمُونَا بَيْنَ بَيْنَا
هَلْ لَا ذَكْرْتُمْ يَوْمَ أَلْ قَيْمْتُمْ أُمُورَكُمْ إِلَيْنَا
كُنْتُمْ لَنَا الْإِخْوَانَ إِذْ فِي الدِّينِ وَالْوَدِّ اسْتَوِينَا
فَنَفُوسُنَا وَنَفُوسَكُمْ خُلِطَتْ مَعًا لَمَّا التَّقِينَا
حَتَّى تَخَاطَبْنَا كَأَمْ وَاجِ الْخَلِيَجِ إِذَا جَرِينَا
نَحْيِي الْخِلَافَةَ بِالسُّيُوفِ فِي الْبَاتِرَاتِ إِذْ اتَّضَبِينَا
فَرَبَّتْ حَدَائِقُ مَجْدِهَا بِدَمَائِنَا لَمَّا سَقِينَا
لَا سَلَدَ بِالطَّلِيَانِ حَتَّى تَرَكُوا بَلَدًا ثَوِينَا
نَنْفِيهِمْ عَنْ أَرْضِنَا لَا نَزَعُوِيْ عَمَّا قَضِينَا
فَالْمُوتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ هَذِهِ حَتَّى نَحْتَوِيْ ذُلًّا وَشِينَا
إِنَّا لَأَحْرَارٌ نَعُدُّ دُ الْقَتْلَ لِلْأَحْرَارِ زِينَا

¹ ديوانه، ص 14

في هذه الأشعار نعرف مدى حماسه وحبّه للعرب وإلا مثل هذه الأشعار الحماسية لا يمكن أن يقولها أحد في عهد الاستعمار إلا مَنْ كان قلبه مليئاً بالشجاعة والجرأة النادرتين ولذلك كانت مخبرات الحكومة الإنجليزية تراقبه في كلّ خطواته وخاصة عندما رأت أنّ الفراهي هندي الجنسية ولكنه عربي النزعة والدين يجري في عروقه الدم العربي وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه الأبيات وأمثالها تدلّ على عبقريته الفنية وتمكّنه من ناحية اللغة العربية وقدرته الكاملة على صياغة الشعر لا بالتصنع بل بالموهبة فإنه لا ينسى للمحة واحدة أنّ الشعر فن لطيف لا يتحمل الخطابة ولا بد فيه من ائتلاف الألفاظ وحسن التركيب والابتكار في المعاني والإجادة في اختيار الألفاظ ولذلك نجد في شعره جميع القيم الصوتية أو التصويرية لأنه قد أوتي من الله الإحساس الشعري والملكة الفنية الكاملة مع سعة اطلاعه على أساليب العرب، والحق أنّ الإمام الفراهي يستحق أن يبحث عنه كشاعر أو أديب في رسالة خاصة لأنها ناحية مهمة من نواحي حياته الفكرية والفنية ولو جمع شعره كله وطبع لكانت خدمة كبرى للأدب العربي. ولكن للأسف الشديد قد لعبت بها يد الزمان. وما بقي منها لم يستطع أحد إلى الآن أن يطبعه بالتحقيق والتعليق حتى ينتفع به أصحاب الفن¹ وأنا ليس بوسعي في هذه الرسالة أن أتعرض لشعره تعرضاً تفصيلاً وأتناوله بالنقد والتحليل لأني بذلك أخرج عن الموضوع الرئيس للرسالة ولذلك اكتنيت بهذا القدر وانتظر فرصة ملائمة لتأليف رسالة عن شعره وأدبه فقط والله هو الموفق.

وثانياً- الفراهي الناثر: قد تكلمت فيما سبق عن الأسباب التي دفعت الفراهي إلى التأليف وخاصة في العلوم والفنون التي لها علاقة بالقرآن. أما تفسيره للقرآن الكريم فيأتي الحديث عنه بالتفصيل في الباب الثاني كما بينت سبب اختياره اللغة العربية للكّابة. فهنا أيسجل أسماء مؤلفاته حتى يتبين للقارئ العربي عبقريته وسعة اطلاعه على العلوم الإسلامية وغير الإسلامية.

¹ تم طبعه مراراً وكذا صدرت طبعته المحقّقة من تركيا وفي صفحات هذه المجلة. (ه.ش.)

أسماء مؤلفاته

[أولاً:] الكتب المطبوعة:

1. فاتحة نظام القرآن
 2. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان
 3. الإمعان¹ في إقسام القرآن
 4. التكميل في أصول التأويل
 5. أساليب القرآن
 6. دلائل النظام
 7. مفردات القرآن
 8. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح
 9. جمهرة البلاغة
 10. ديوان حميد (ديوانه العربي)²
 11. نوائه پهلوي (ديوانه الفارسي)
 12. أسباق النحو
- [وثانياً:] الكتب المخطوطة:

1. حجج القرآن
2. فقه القرآن
3. أسباب النزول

¹ اسمه الحقيقي: إمعان في أقسام القرآن، ولكن ذكر خطأ في العديد من الكتب حول الإمام الفراهي. (ه.ش.)

² هذا ليس بديوانه العربي بل فيه بعض قصائد الفراهي العربية. (ه.ش.)

4. كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ
 5. أوصاف القرآن
 6. القائد إلى عيون العقائد
 7. كتاب الحكمة
 8. [في] ملكوت الله
 9. كتاب العقل وما فوق العقل
 10. الأزمان والأديان
 11. إحكام الأصول بأحكام الرسول
 12. فلسفة البلاغة
 13. سليقة العروض
 14. الإكليل في شرح الإنجيل
 15. النحو الجديد¹
- التعريف في بعض مؤلفاته:

1. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سأتحدث عن هذا التفسير ومنهجه وقيمتها العلمية في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى. أما هنا فأريد أن ألقى نظرة عجيلى على الفترة التي ألفت فيها فأقول إن فكرة تفسير القرآن الكريم لم تحدث في ذهن الإمام الفراهي عفواً أو حباً لأن يشتهر في الناس كمفسر فإنه رحمة الله عليه كان يدرك مسؤولية الخطر العظيمة والخطيرة. ولكن هناك عوامل وأسباب دفعته إلى هذا التفسير. وقد بينها رحمه الله في مقدمة تفسيره فقال: إني كنت مولعا بتلاوته-

¹ قد طبعت هذه الكتب سوى الكتب ذات الرقم: 2، 5، 12، 13 و14. (ه.ش.)

القرآن- وهو أحب الكتب وأذها عندي والله الحمد. وقد كنت أسمع أن القرآن أشد الكتب نظماً لنزوله نجماً نجماً ولكن بعدما ظهر لي النظام في سورتي البقرة والقصاص حثني على التدبر في باقياها وكنت في حدث السن وغور الرصة فضت عشر سنين حتى وفقني الله تعالى أن ابتدأت من أول القرآن ويسر لي الإتمام في سنة كاملة، وهممت أن أبرز للناس فروعي عظم الذمة وروعي كبير المغبة فمكثت أراجع فيه النظرة مرة بعد مرة أمداً طويلاً مستعيذاً بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل. ومع ذلك وددت لو طويته على غرة وسكت عن حلوه ومره نجوت من إثمه وبره. ولكن اضطرني إليه أمور:

الأول: إني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وجعلنا معتصمين بجبل كتابه كما قال تعالى: "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا"¹ وكيف الخلاص عن التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتاً في ظنونهم وهو بحمد الله متين "لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"² فيأوله كل فريق حسب ظنه. ويحرف طريق الكلام عن متنه وبالنظام بين سمة الكلام فنفي عن آيات الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيف المحرفين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه والذين يفعلون كلام الله عما بين يديه ومن خلفه ويضمون به ما يعجب هوى نفوسهم.

والثاني: إني رأيت الملحدون قد طعنوا في القرآن من جهة سوء النظم ورأيت جمهور علماء المسلمين عوض الشهادة بالحق والمنافعة عن حقيقة كتاب الله فقد تفوهوا بمثل ما قالوا- الملحدون- كبرت كلمة تخرج من أفواههم، "وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

¹ سورة البقرة: 103

² سورة فصلت

الْمُؤْمِنِينَ سَيِّئًا"¹ وقد علمت حق اليقين أنّ قولهم باطل وجتهدم داحضة فلم يسعني أن أسكت وأرى الباطل قد عمّت بلواه وبلغ السيل زياه.

والثالث: أنه لا يخفى أنّ نظم الكلام بعض منه فإنّ للتركيب معنى زائداً على أشتات الأجزاء فلا شك أنّ مَنْ حُرِمَ فَهْمَ النظام فقد حرم حظاً وافراً من الكلام ويوشك أن يشبه حاله بمن قبله من أهل الكتاب. كما أخبر الله تعالى عنهم "فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"² وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء التي نراها في المسلمين من هذا النسيان فلا تبدأ عداوتهم ولا يرجعون من اختلافهم وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول. لأننا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلف أهواءنا فصرنا مثل أهل الكتاب غير أنّ رجاءهم كان بهذا النبي وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ.

وهناك أسباب أخرى لم يتعرض لها الفراهي لأنه لو ذكرها لما كان له محيص عن التعرض لبعض الناس الذين وردوا في هذا الميدان- ميدان التفسير- ولا يصلحون له. فخرّفوا القرآن الكريم وأولوه تأويلاً ياباه الإسلام، وكان كثير منهم متأثرين بالأفكار الغربية التي انتشرت بفضل الاستعمار والاستشراق. فلنيل المكانة عند الحكام الإنجليز بدأوا يحرّفون كتاب الله وكان منهجهم في تفسيرهم عدم الاعتماد على اللغة العربية وأساليب الأدب العربي والحديث النبوي، بل كان اعتمادهم على أهوائهم، فكما اقتضت أهوائهم أدخلوه في تفسير القرآن وسمّوه بالتفسير العلمي. وكان على رأس هؤلاء المفسرين السير سيّد أحمد خان مؤسس جامعة علي جرة الإسلامية هو الذي مكّن المستشرقين من الهجوم على الإسلام فإنه كان قليل البضاعة من العلوم الدينية وخاصة في علمي الحديث والتفسير- ولذلك نراه قد أضلّ كثيراً من الشباب المسلمين بتفسيره للقرآن الكريم- فصاحبنا الإمام

¹ سورة النساء: 141

² سورة المائدة

الفراهي كان يعتبر تفسيره فتنة وإشاعته إشاعة المعصية.

كتب تلميذ الفراهي الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في ترجمته لأستاذه الفراهي يقول: إنَّ العصر الذي بدأ فيه الفراهي تفسير القرآن كان السير سيّد أحمد خان يفسّر القرآن الكريم ويأوّله وفق آراء علماء الغرب واتجاهاتهم نحو الإسلام وصاحبه صلوات الله عليه وسلامه، كما أنه كان خائفاً من الإنجليز فأراد بتفسيره أن يقرب نفسه إليهم وينال مكانه عندهم وكان الشباب المسلمون الذين تثقفوا بالثقافة الغربية يستقون على أفكار السير سيّد كما يسقط الذباب على الحلوى ويقبلونها بدون علم وفهم. فرأى الفراهي أنّ مثل هذه الفتن في المجتمع الإسلامي كما ظهرت بسبب سياسة الإنجليز الاستعمارية والتبشيرية فكذلك كانت نتيجة لأمثال هؤلاء العلماء الذين باعوا الدين بالدنيا. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنّ العلماء الذين كانوا متمسكين بالإسلام قبل اهتمامهم بدراسة القرآن وانضموا في انخلافات المذهبية والطائفية فضعفت قوتهم الفكرية والمادية وبدأ يؤثر في أبناء المسلمين كل ما يأتي من الإنجليز أو العلماء المتفرنجين.

فرأى أنّ القضاء على هذه الفتن لا يمكن إلا أن يوجّه المسلمون توجيهاً سليماً وذلك بدراسة القرآن الكريم دراسة جدية حتى تتضح لهم حكم القرآن وفلسفاته وتعاليمه ويستطيعوا الصمود أمام التحديات الغربية الاستعمارية الإلحادية والدفاع عن الإسلام.¹

فهذه هي العوامل التي شجعت الفراهي على القيام بتفسير القرآن الكريم وبطريقة جديدة ومنهج علمي وأسلوب واضح بحيث يشرح كلمات القرآن وألفاظه استناداً إلى أسلوب العرب الذي نزل به. ثم يبيّن مقاصده العالية ومطالبه السامية في ضوء أصول قوية استمدّها من الكتاب والسنة وإذا كان الإمام الفراهي يرى أنّ كثيراً من الفتن قد جدّت في المجتمع الإسلامي بسبب بعد العلماء المسلمين عن دراسة القرآن الكريم

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 30 بتصرف بسيط

دراسة جدية. فقد بدأ يضع أصولاً متينة لتفسيره قبل أن يبدأ التفسير، فإنه قد آلف لهذا الغرض مقدمة التفسير التي سماها بـ"فاتحة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" وهي تحتوي على سبعة عشر أصلاً على هذا الترتيب:

1. أسباب النزول
2. المآخذ الخبرية
3. المآخذ اللسانية
4. الكتب المنزلة على مَنْ قبلنا
5. إنَّ القرآن قطعي الدلالة
6. المناسبة والترتيب
7. إنَّ كل سورة من سور القرآن منظمة ومرتبطة
8. نسبة القرآن إلى الكتب السابقة
9. مقدار السور
10. عيون تعليم القرآن
11. المعروف والمنكر
12. إنَّ النظام له دلالة خاصة
13. أجزاء النظام
14. أسماء السور من عمودها
15. تعيين الخطاب في القرآن
16. كيفية النزول
17. تأويل القرآن بالحديث

وقد وقف الإمام الفراهي عند كل أصل من هذه الأصول المذكورة وتناوله بالبحث المستفيض كما أنه قد التزم كل هذه الأصول بدقة في تفسيره. وقد آلف لشرح بعض هذه الأصول كتباً خاصة أمثال "دلائل النظام" و"التكميل في أصول التأويل" و"أساليب القرآن" و"كتاب الرسوخ في معرفة النسخ والمسخ" و"مفردات القرآن" و"الإمعان في أقسام القرآن". وبحمد الله تعالى قد تم طبع كل هذه الكتب في الهند غير كتاب "الرسوخ في معرفة النسخ والمسخ". طبع بعضها في حياته ك"مفردات القرآن" و"الإمعان في أقسام القرآن" وطبع الباقي بعد وفاته.

أما تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" فقد بدأ تأليفه عندما كان أستاذاً في كلية علي جرة الإسلامية. ولكن طريقته تختلف عن طريقة الناس في تأليف الكتب من حيث إنه لم يبدأ من أول القرآن كما فعل المفسرون الآخرون، بل للكشف عن نظريته وهي أنّ القرآن منظم ومرتبب بعضه ببعض من أوله إلى آخره كما أنّ في كل سورة نظاماً خاصاً بدأ من السور التي كان فيها النظام واضحاً جلياً لكي يتضح للناس هذا الجانب الخطير من كتاب الله ويقتنعوا بفكرته. كما أنه جعل نصب عينيه أن يفسر أولاً السور القصار التي تدعو إلى الإيمان بأصول الإسلام، وهي التوحيد والرسالة والمعاد وتذير الناس من عاقبة العناد والكبر بهذه الأصول. وفي ذلك إشارة إلى موقف الإمام من السير سيد أحمد خان وأتباعه الذين كانوا يرون أنّ المسلمين ليسوا بحاجة إلى الحديث النبوي لأنّ القرآن يكفي لهم، كما كانوا يرون أنّ المعاد أو البعث بعد الموت ليس له حقيقة جرياً وراء الأفكار الغربية المناهضة للإسلام. فكان الفراهي بتفسيره لمثل هذه السور يردّ على أمثال هؤلاء الناس. وقد آلف لهذا الغرض تفسير سورة الفاتحة، الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، الشمس، التين، العصر، الكوثر، الكافرون، أبي لهب والإخلاص، وقد طبع تفسير هذه السور في حياته وبعد حياته مراراً كما أنه ترجم إلى اللغة الأردوية ليستفيد به جميع الناس.

ثم بدأ الإمام بعد ذلك تفسيره من أول القرآن وأكمل تفسير السور الطوال ولكن المنية حالت دون تكميله كله. كما أنه رحمه الله لم يستطع أن يطبع ما كمل من تفسير هذه السور لأنّ المنية عاجلته، ولم يوفق الله أحداً أن يقوم بطبعه وسبب ذلك- عندي- يرجع إلى عدم الإمكانيات المالية.

وقد حصلت على معظم أجزاء هذا التفسير عن طريق أساتذتي وأصدقائي بالهند الذين نسخوها ثم أرسلوها إليّ فجزاهم الله خير الجزاء، كما أنني أرجو من كل من ينتمى إلى مدرسة الفراهي خاصة ومن يحبّ الدين والعلم عامة أن يساهموا في إنقاذ هذه الدرر الثينة من الضياع ويقدموا خدماتهم العلمية والمادية لطبع تفسير الإمام وكتبه الأخرى القيمة ففيها خير كثير للمسلمين.

هذا وسأبين في المبحث الذي أتناول فيه منهجه في تفسير القرآن الكريم كيف حاول الإمام أن يجمع المسلمين على صعيد واحد وكيف زرع فيهم حبّ الدراسة لكتاب الله كما أبين قيمة تفسيره العلمية ومكانته بين المفسرين. وهنا انتقل إلى التعريف ببعض كتبه المطبوعة.

1. الإمعان في أقسام القرآن: إنّ هذا الكتاب كما يظهر من عنوانه يبحث عن أقسام القرآن ويبين حكمتها ولعله أول من تعرض لمشكلة أقسام القرآن تعرضاً تفصيلياً لأنّ العلماء قبله لم يتعرض منهم أحد لهذه المشكلة إلا الإمام نجر الدين الرازي في تفسيره الكبير والإمام ابن القيم في كتابه "التبيان في أقسام القرآن" ولكن دراسات العلامة الشيخ حميد الدين الفراهي كانت مختلفة تماماً عما قال في هذه المشكلة والحق أنه في هذا الباب قد أتى بأشياء لم يأت بها أحد قبله¹ فيذهب الإمام إلى أنّ القسم للاستشهاد كذلك لا للتعظيم فقط كما زعم المفسرون ومؤلفوا علوم القرآن فيقول إنّ أصل القسم ليس في شيء من التعظيم وإنما يفهم هو من بعض أقسامه.² فالفراهي لا ينكر أنّ بعض

¹ وفاة الفراهي (السيد سليمان الندوي)، مجلة "معارف" سنة 1931م

² إمعان في أقسام القرآن، ص 13

الأقسام الواردة في القرآن الكريم للتعظيم فإنه حينما يقول إن القسم أصله للاستدلال والاستشهاد فيثبت بذلك الهدف الذي أقسم الله لأجله في كتابه المحكم. وهنا نرى الفراهي بحث بحثاً مستفيضاً واسعاً لإثبات نظريته فيبين أولاً معاني القسم أو اليمين معتمداً على كتب الأدب والشعر ثم يتناول تاريخه والضرورة التي يقسم الناس لأجلها، كما يناقش من المفسرين والعلماء حول هذه المشكلة أمثال الإمام نجر الدين الرازي والإمام ابن القيم رحمهما الله، ثم يبدأ لإثبات مذهبه استدلالاً بآيات الله البينات ودواوين الشعر الجاهلية. فيقول إن القسم أصله الاستشهاد وإنه لا يراد منه التعظيم إلا إذا كان بالله تعالى وشعائره¹ ثم يشرح مذهبه في ضوء الآيات القرآنية مثلاً في قوله تعالى "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ" ² وقوله "فَلَا أُقْسِمُ بِاللُّجُنَّيْنِ ۖ الْخَوَّارِ الْكُنَّيْسِ" ³ وقوله تعالى "وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّلِيَّاتِ ذِكْرًا" ⁴ وقوله تعالى "وَالذَّرِّيَّتِ ذُرْوًا ۖ فَالْحَمِيْلَتِ وِقْرًا ۖ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ۖ فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا" ⁵ وقوله تعالى "وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ" ⁶ فهويّ (النجم) وصف الملائكة وذرو الرياح وتقسيمها الأمور، وملامة النفس أقرب إلى الاستدلال منها إلى التعظيم.⁷

هذا بيان وجيز لآرائه في أقسام القرآن وتعريف مختصر لكتابه في هذا الموضوع "الإمعان في أقسام القرآن". وسأتناول تفصيلات أخرى عندما أتحدث عن مكانته بين المفسرين إن شاء الله. ولكن أرى من المناسب أن أبتّل هنا ما ترك الإمام الفراهي بكتابه هذا من أثر عند العلماء المعاصرين الهنود. فيقول العلامة السيد سليمان الندوي في مقاله

¹ المصدر نفسه، ص 41

² سورة النجم: 1

³ سورة التكوين: 15-16

⁴ سورة الصافات: 1-3

⁵ سورة الذاريات: 1-4

⁶ سورة القيامة: 2

⁷ إمعان في أقسام القرآن، ص 43-44

الذي كتبه بعد وفاة الفراهي ونشرته المجلة الشهيرة التي تصدرها دار المصنفين بأعظم جرة: آلف كتابه "الإمعان في أقسام القرآن" وهو مقيم في علي جرة في سنة 1895م، وقد بين فيه الحكمة في الأقسام التي وردت في القرآن الكريم وهي مشكلة قد شغلت أذهان المفسرين من قبل وأول من تعرض لها هو الإمام الرازي في تفسيره في مواضع شتى. ثم آلف الإمام ابن القيم كتابه "التبيان في أقسام القرآن" ولكن دراسات العلامة حميد الدين الفراهي كانت مختلفة عما قالوا في هذه المشكلة. والحق أنه جاء في هذا الباب بأشياء لم يأت بها أحد قبله وقد نشر المرحوم العلامة شبلي النعماني ملخصاً لكتابه في مجلة "الندوة" التي كانت تصدرها دار العلوم [التابعة ل] ندوة العلماء بلكاؤ- عدد أبريل سنة 1906م وطبع كتابه في ذلك الوقت. ثم قام بمزيد من البحث في هذا الموضوع وأضاف فيه أشياء وطبع باسم "الإمعان في أقسام القرآن" في علي جرة ومنذ ذلك الحين كل من كتب في هذا الموضوع فهو مدين للشيخ الفراهي وكتابه.¹

2. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح: إن هذا الكتاب- كما يظهر من عنوانه- يبحث عن الذبيح في ولدي إبراهيم: إسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام، ولا أبالغ إذا أقول إن هذا الكتاب نسيج جديد لم ينسج على منواله ولم يكشف النقاب عن التحريفات اليهودية في التوراة لإثبات عظمتهم على العرب. كما كشف الفراهي- فكتابه هذا كما يدل على سعة اطلاعه وتعمقه في التوراة وكتب اليهود الأخرى وكذلك يدل على تحمسه وحبّه للعرب الذي جعله يتكلم ضد المستشرقين اليهود والمسيحيين في عصر يعتبر أخطر عصر للمسلمين الهنود، وهو عصر الاستعمار الذي حاول فيه الإنجليز القضاء على كل الآثار من الحب والحماس للعرب التي كانت توجد في قلوب المسلمين. ولكن كيدهم قد زاد حماس الفراهي لقضية العرب وهي قضية السلام وحثّه على أن يتفرغ للكشف عن مزايا العرب وعرضها أمام الناس حتى يعرفوا خبث اليهود ومكرهم وكيدهم.

¹ مجلة "معارف"، سنة 1931م.

وإني لا أريد هنا أن أحلل هذا الكتاب القيم لأنني لست بصدد التحليل بل أعترف به تعريفاً موجزاً ثم أتناول تفصيلات أخرى عند تعرضي للجوانب البارزة من شخصية الفراهي إن شاء الله.

ولكن أريد هنا أن أبادر فأؤكد أنّ هذا الكتاب بهذا التحليل والمقارنة يعتبر بحثاً جليلاً قيماً في "مقارنة الأديان" كما أنه يعتبر نموذجاً عظيماً للدعوة إلى الله. وفي هذا الكتاب القيم يرى الفراهي أنّ القرآن الكريم قد تعرض لكثير من الوقائع التاريخية التي حدثت في حياة شعوب العالم ولكن ما هي الأغراض التي يهدف إليها القرآن في ذكر هذه الوقائع التاريخية فالإجابة على هذا السؤال مقتصرة على شيء واحد. وهو غرض ديني بحث فالقرآن حينما يذكر هذه الوقائع لا يهدف إلا إلى إثبات الوحي والرسالة وإثبات وحدانية الله والإنذار والتبشير ومظاهر القدرة الإلهية وعاقبة الخير والشر ثم كثيراً من الانبياء قد ذكر القرآن حياتهم وطبائعهم وأوصافهم وذلك لمعرفة كلاً منهم بصفاته الخاصة وفضل بعضهم على بعض، ولكن القرآن لم يتجاوز في هذا المجال- الإشارات الموجزة ولذلك نرى عدداً غير قليل من المؤرخين والمفسرين قد وقعوا في غلطات فاحشة- ولم يدركوا الأوصاف الخاصة لكل من الأنبياء فخلطوا بينها خلطاً جعلها غامضة.

فعلى سبيل المثال أذكر قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام فأسماعيل عليه السلام الذي أصبح جداً أعلى للعرب الذين قد بعث فيهم وفهم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم قد منح من عند الله صفة لم تكن لأي من الأنبياء وهي صفة "الذبيح" وفيها إشارة لطيفة لعظمة العرب الذين جاء فيهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإنّ الله قد اصطفاهم من بين الشعوب ليصلحوا لتولية البيت الحرام الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليكون مركزاً لدين التوحيد. وهو أول بيت بني لهذا الغرض النبيل كما جاء في القرآن وقد جاء ذكر صفة الذبيح في

كتب اليهود بالتفصيل كما ورد في القرآن- سورة الصافات- إلا أن القرآن لم يذكر اسم الذبيح واكتفى بالإشارة. أما التوراة فقد ذكرت اسم الذبيح وذكرت قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق بالتفصيل والبسط.

فلما رأى اليهود- في التوراة- أن الذبيح هو إسماعيل- الجد الأعلى للعرب- لا إسحاق- جدهم- عرفوا عظمة بني إسماعيل- العرب- فاشتعلت قلوبهم غيظاً وعداوة للعرب فبدأوا يبحثون عن الوسائل التي تمكنهم من إثبات أن إسحاق هو الذبيح لا إسماعيل. لأنهم كانوا من نسل إسحق حتى ثبت مزيتهم على بني إسماعيل، وما كان لهم لإشباع رغبتهم وإطفاء نار أهوائهم إلا أن يحرفوا صفهم. وبالفعل قد حرفوا لإثبات مزاعمهم جميع الوثائق التاريخية من التوراة التي كانت ثبت عظمة بني إسماعيل، كما حرفوا التعاليم الأخرى التي اصطلحت بأهوائهم البهيمية ومن المؤسف أن بعض المفسرين والمؤرخين الذين اعتمدوا على الإسرائيليات لم يدركوا مؤامرات اليهود الشيطانية فظنوا أنهم مصيبون في قولهم أن إسحق هو الذبيح، وعلى رأس هؤلاء المفسرين والمؤرخين الإمام ابن جرير الطبري في أرحح أقواله. فرأى الفراهي من واجبه أن يكشف هذه المزاعم الخبيثة. ويثبت ما أقره التاريخ الصحيح فهو أول من قام بإدلاء هذه الخدمة الجليلة. ففي تفسيره لسورة الصافات قد تناول هذه الواقعة التاريخية فأثبت بطريقة علمية كذب اليهود في دعواهم وآلف بهذا الغرض كتابه القيم "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" الذي أنا بصدد تعريفه. فذكر فيه قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحق عليهم السلام كاملة مستنداً إلى القرآن والتوراة وذكر فيه تعاليم الإسلام واليهودية والمسيحية حيال التضحية والقربان. ثم تعرض للعلماء الذين ذهبوا إلى أنه "إسحق" هو الذبيح. وأدلتهم على ما ذهبوا إليه ثم بين الغلطات التي وقع فيها اليهود والنصارى في هذه القصة عامدين أو غير عامدين كما أثبت إثباتاً قوياً بأن الأسفار اليهودية تدل على نواياهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين رغم تحريفهم الكلم عن مواضعه، فكشف الستار عن خيانة العلماء اليهود العلمية والتاريخية إذ إنهم غيروا أصل كلمة "مروءة" ليثبتوا أن القربان وقع

عند الهيكل في "يروشلّم" ثم بدأ بتنفيذ آراء العلماء المسلمين الذين رأوا رأي اليهود واتخذوا بعبارات التوراة ثم جاء إلى الإسلام فتعرض أولاً لمكانة التضحية في الإسلام وبين أنّ ديانة اليهود خالية منها وذلك يدلّ على أنّ إسحاق ليس بالذبيح لأنه لو كان ذبيحاً لبقى في ديانتهم شيء من آثار هذه التضحية.

وهنا أرى تضلع الإمام الفراهي من اللغة العبرانية فإنه لم يكتف بدراسة تراجم التوراة باللغة العربية والإنجليزية والأردوية والفارسية بل درسها باللغة العبرانية ورجع إلى كتب التاريخ اليهودية التي ألفها كبار علماء الغرب. ولبيان قيمة هذا الكتاب ألقى نظرة عجي على بعض عناوينه واستدلالاته:

1. الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب بصفات إسماعيل.
2. بعض المعارف مما يتعلق بشريعة القربان وبالوحي الذي يكون في الرؤيا.
3. أصول النظر في صحف اليهود.
4. قصة الذبيح حسب ما توجد في صحف اليهود.
5. الاستدلال الأول بمسكن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
6. الاستدلال الثاني بأن إسماعيل كان هو أحبّ إلى أبيه كما تقرّ ذلك التوراة.
7. الاستدلال الثالث بأنّ إسماعيل كان هو وحيد أبيه كما تقرّ ذلك أيضاً التوراة فإن إبراهيم كان ابن ست وثمانين سنة لما ولد إسماعيل وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق فثبت أنّ إسماعيل كان وحيد أبيه حتى ولد إسحاق.
8. الاستدلال الرابع بأنّ موضع الذبح هو المروة التي عند الكعبة.
9. الاستدلال الخامس بأنّ إسماعيل كان هو الأولى بأن يقرب لأنه كان بكرًا والبكر هو الذي يقرب.

10. [الاستدلال] السادس بأنه لا أثر لهذا الأمر العظيم في شريعة اليهود وهو الأساس في ملتنا- التوضيحية.

هذا بعض عناوين الكتاب واستدلالات الفراهي بكتب اليهود نفسها بأن إسماعيل هو الذبيح.
3. مفردات القرآن: ليس هذا الكتاب معجماً لغوياً لألفاظ القرآن الكريم كما يظهر من عنوانه بل قد يشرح فيه صاحبنا الإمام الفراهي بعض ألفاظ الكتاب العزيز التي قد خالف فيها اللغويين والمفسرين وطريقته فيه أنه قبل أن يفسر هذه الكلمات برأيه، يبحث عن مماثلها في القرآن نفسه جرياً على قاعدة "القرآن يفسر بعضه بعضاً" ثم يستدل على آرائه بكلام العرب الجاهلي من الشعر والنثر، كما أنه كثيراً ما يستدلّ باللغة العبرانية لشرح بعض الألفاظ مثل "الأب" و"الإيمان" و"سفرة" وغير ذلك فنظرة عجي على هذا الكتاب القيم تبين تمكن الفراهي من اللغة العربية وسعة اطلاعه على أساليب بلغاء العرب وفصحائهم وستجد بعض تفصيلات هذا الكتاب في هذه الرسالة إن شاء الله.

4. دلائل النظام: إنّ الامام الفراهي يعتني اعتناء بالغاً بإثبات النظام بين آيات القرآن وسوره- كما يتبين عندما أتناول منهج تفسيره في الباب الثاني- فهذا الكتاب الذي هو موضوع الحديث الآن قد جمع فيه آراءه ودلائله عن النظم القرآني بحيث يثبت أنّ القرآن ليس فيه أيّ تشكك وتفكك لنزوله حسب الوقائع والأحداث كما يزعم بعض المفسرين، بل إنّ في آياته وسوره يوجد غاية النظم والربط. ولإظهار أهمية هذا النظم ألف كتابه هذا فيقول بعد خطبة الكتاب: أما بعد فهذا كتاب أفردناه لذكر دلائل النظام ونريد بالدلائل:

1. ما يدلّ على وجود النظام في القرآن ويثبته.

2. وما يهديك إلى معرفته وطريق استنباطه.

فهذان قسطان: الأول نظري، والثاني علمي وكلاهما أصولي يبحث فيه عن الأصول

الكلية للنظام عموماً ولنظام القرآن الحكيم خصوصاً. ومن هذه الجهة هو فنّ مستقل من البلاغة، بل هو الذروة العليا منها، ولولا القرآن وإعجازه ما اهتدينا إليه كما أنا لم نطلع على حقيقة البلاغة ونهجها لولا كشف القرآن القناع عن وجهها.

ثم نزيد عليهما قسطاً ثالثاً نورد فيه أمثلة لترتيب المطالب وترتيب سورة مع سورة وهذا البحث وإن كان خصوصياً وعادياً وكان أولى بأصل التفسير فإنما وضعنا لونا منه هنا لثلاثة أمور:

الأول: أنّ القلوب على الأكثر لا تطمن بمحض الدلائل حتى تشهد المدلول عليه، وذلك بأن استعمال الكليات وسوقها إلى ما يقتنى منها الصعب جداً بل كل ما يكشف من العلوم فقدماتها معلومة من قبل. ولكن الفكر لم يهتد إليه إلا إذا شاء الله تعالى.

والثاني: إنّ الأمثلة وإن كثرت لا تزيل الشبهة ممن يظنّ أنّ أكثر القرآن منظم وإنما الاقتضاب في مواضع خاصة وفي سورة خاصة مثل الطوال وكثير من المفصلات فأردت أنّ أذكر في هذا القسط من مشكلات النظام حتى إذا اتّضح النظام في المواضع الصعبة لم يستبعده في ما دونها أو مثلها.

والثالث: أنّ بيان النظام الكلي بحيث يعلم أنّ القرآن كله كما أنه مرتب الآيات فكذلك منظم السور فإن قدّمت وأخرت. ذهب طرف من الحكمة كما لو بدّل ترتيب الآيات. فهذا البيان الكلي لا يوجد له موضع في تفسير بعض السور دون بعض. فذلك وضعناه في القسط الثالث من هذه المقدمة.¹

ولعل القارئ العربي يتساءل لماذا يعتني الفراهي بإثبات النظام والربط؟ وما الفائدة عن معرفته؟ فيجيب الفراهي على هذا السؤال بقوله: إنّ لطائف البلاغة ووجوه الإعجاز ليست مقصودة لذواتها، ولا هي غاية ما تفوز به بل ليست معرفة نظام

¹ دلائل النظام، ص 11-12

الكلام وروابط معاني الآيات ما هي طلبتنا، إنما المقصود هو التدبر في معنى القرآن الذي سبق إليه ومعرفة النظام إنما هي الوسيلة إليه.¹
ولا شك أنّ هذا الكتاب خير سفر في هذا الموضوع. فقد أثبت بالبراهين القاطعة أنّ القرآن الكريم منظم غاية التنظيم.

1. التكميل في أصول التأويل: إنّ هذا الكتاب - كما يظهر من عنوانه - يبحث عن أصول التأويل والتفسير في القرآن الكريم. ولعل ما دفع الإمام الفراهي إلى تأليف هذا الكتاب أنّ بعض العلماء في عصره كانوا يؤولون القرآن على أهوائهم ولذلك هو يضع أصولاً عامة لتأويل في ضوء الكتاب والسنة وأساليب العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لكيلا يتفشى التفسير بالرأي.

فأولاً يدعو إلى جعل علم التأويل أو أصوله فناً مستقلاً وضعه في علم التفسير وذلك يضع عن التفسير بالرأي الذي فتح أبواب الفتن، ثم يؤكد أنّ التدبر والتفكر في كتاب الله فرض على المسلمين بالقرآن والسنة فيقول بهذا العدد: غاية هذا الكتاب هي معرفة الأصول التي تعين على فهم القرآن الحكيم حسب فهم البشر، وهذه الأصول تنقسم إلى قسمين الأول: ما يعصم عن الزيغ في التأويل، والثاني: ما يهدي إلى الحكم التي تضمنها كتاب الله والأمر الجامع لهذين هو التفكير في نظم القرآن، فالنظم هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيغ.²

وهنا يبيّن الفراهي الفرق بين التأويل والتحريف والتفصيل فيقول: التأويل حمل الكلام على ما يحتمله نقلاً أو عقلاً. والتحريف حمله على ما لا يحتمل والتفصيل ذكر أجزاء لم تذكر لجامع يحتملها والفرق بين هذه الثلاثة من أشد الأمور وجوباً لفهم

¹ المصدر نفسه، ص 97

² التكميل في أصول التأويل، ص 13

القرآن والتمسك به والضرر من تخليط التأويل بالتفصيل أهون من ضرر تخليط التحريف بهما فإنه باطل محض، واقتراء على الله وهدم لدينه وإقامة لدين آخر.¹ ثم بيّن الفراهي أسباب الخطأ وشرحها شرحاً وافياً مع ذكر الخلافات التي وقع فيها المسلمون بسبب اختلافهم في فهم القرآن ويقول بهذا الصدد إن القرآن ليس فيه آيات مفصلات- كما أنه لا يحتمل إلا وجهاً واحداً فهذه الوجوه الكثيرة في التأويل التي نراها جدّت بسبب اختلافنا وبعدها عن فهم مبادئ الدين. وأحسن الأصول للتأويل عند الفراهي تأويل القرآن بالقرآن.

وستجد تفاصيل أخرى عندما أتناول منهج تفسيره فهناك سآتي بالأمثلة لشرح آراء الفراهي ونظرياته ولذلك هنا اكتفي بهذا القدر من التعريف.

2. جمهرة البلاغة: إن هذا الكتاب قد بين فيه الإمام الفراهي آراءه ونظرياته في البلاغة ووضع أصولاً جديدة في ضوء القرآن وأساليب بلغاء العرب وفصحاءهم لفهم بلاغة القرآن.

والفراهي مع تقديره واحترامه للجهود التي بذلها البلاغيون لوضع أصول البلاغة العربية يرى أن هذه الأصول معظمها مأخوذة من كلام اليونان الذي دخل العربية بواسطة التراجم، ولذلك لا يمكن فهم محاسن أسلوب القرآن ومزايا كلام العرب البلاغية بهذه الأصول لأن كل شعب له أسلوب خاص في التعبير والتجوير والعرب كانوا أرقى الأمم في أساليب كلامهم. ولذلك كان على البلاغيين أن يأخذوا أصولاً للبلاغة لشعر العرب وخطبهم لا من كلام اليونان، فيقول بهذا الصدد: كما أنّ علماء الإسلام أقبلوا على هذا الفن لأجل الكشف عن إعجاز القرآن فلو أنهم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه وقيدوها بالحدود ونظموها في ترتيب حتى

¹ المصدر نفسه، ص 17

يصير لهم ميزان ومحك لمعرفة محاسن الكلام. ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز لكانوا أقرب إلى معرفته، ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم، فإنهم أثرت فيهم علوم العجم كما خالطتهم سجاياهم. إلا الأولين منهم كالجاحظ فإنه لا يبعد عن سنن العرب كبعد صاحب "دلائل الإعجاز" ولم يبعد هذا إلا لقلّة ممارسته بكلام العرب الخالص، فلو تيسر له ذلك لعرف منزلتهم في هذه الصناعة.¹

ويثبت الفراهي بعد ذلك أنّ من أخذ أصول البلاغة من اليونان كأنه قد تجاهل أنّ العرب كما كانوا على ذروة من البلاغة، فكذلك كانوا يملكون ملكة التميز بين محاسن الكلام ومساوئه فيقول: إنهم كانوا يباهون ببراعة الكلام ويحكمون بينهم من كان أيسرهم بنقده- الكلام- والأخبار في ذلك كثيرة حتى بلغ أمر البلاغة فيهم منزلة نظام المعاشرة، فكان خطيبهم يأخذ بزمام القوم فيقودهم إلى حيث شاء، ويقوم شاعرهم فيرفع قومه من الأرض إلى السماء، فأجدر بقوم هذا شأنهم أن يجري ذوقهم في هذه الصناعة على سنة وأصول معلومة وإلا كيف يقضي فيهم حكمهم أم كيف يدعن لحكمة أرباب العقل فيهم.² ثم يقول: لو التزم البلاغيون كلام العرب ولم يلتفتوا إلى أصول مهّدها المتأخرون لكان خيراً لهم، وكانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن عن طريق الذوق وإن لم يكونوا من طريق الصناعة.³

ويستطرد الإمام الفراهي فيوجب على العلماء البلاغيين أن يضعوا أصولاً فنية دقيقة ثم يحكموا على الشيء بالحسن والقبح. وذلك لا تأتي عنده إلا أن يقرأوا جميع آداب الأقوام ويقارنوا بينها، والشيء المهم بهذا الصدد هو أن لا يأخذوا الأصول من لغة ويفرضوها على لغة أخرى: بل لكل لغة ميزة خاصة لا بد من النظر إليها ومعرفتها.

¹ جمهرة البلاغة، ص 3

² نفس الكتاب، ص 4

³ نفس الكتاب، ص 7

ثم يخوض الفراهي في أكبر مشكلة أدبية وهي مشكلة الصدق والكذب في الشعر. فكثير من النقاد قد تكلموا عن الفن كأنه وسيلة لجلب اللذة الجسمانية وإثارة الغرائز البهيمية. ولذلك نراهم يهتمون للصياغة والأسلوب ولا يعطون أي حظ من عنايتهم للمعاني وهذا المسلك جد خطير للإنسانية لأن الفن ليس مجرد وسيلة للذة ولا إشباع جوع النفس، بل هو وسيلة لنشر القيم الأخلاقية والتعاليم النبيلة بأسلوب ممتع جذاب. فالإمام الفراهي حينما يتكلم عن البلاغة أو الأدب يتكلم كأديب مؤمن وناقد مسلم تقي يجعل نصب عينه القيم الأخلاقية والمعاني السامية التي استهدف إليها القرآن الكريم. فيقول بهذا الصدد: إن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفاً ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار فإننا إنما نعطي الأشياء اسماً لحناً إلى سلامة الحال وإلا لزمك أن تسمي الكلام حسناً وقيحاً معاً أو تسميه شيئاً. وهذا يتضح لك كل الاتضاح إذا بحثنا عن أسباب بلوغ المعاني القلوب فترى أن الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجاباً وثقلاً عليه كما أن ملكاً جعل نفسه سفيراً. فالبلغ هو المعنى واللفظ مركبه فالمعنى أجدر بالنظر في حسن الكلام. وهنا يؤيد الفراهي قوله بكلام شاعر أصيل عربي بالنظر في حسن الكلام وهو زهير بن أبي سلمى الذي يقول:¹

وذي نعمة تَمَّتْهَا وشكرتها وخصم يكاد يغلب الحق باطله
دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل الناطقون مفاصله
وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلهم به فهو قائله
عبأت له حلماً وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتله²
ثم يقول: إن أحسن الكلام ليس في محض كونه محاكاة، بل في إبلاغ المعاني من

¹ المصدر نفسه، ص 10

² ديوانه، ص 138-139

المتكلم وإنّ غايته ليست إطراب السامع بل كونه سفيراً صادقاً للعقل وإنّ التلذذ بها ليس لكون المحاكاة داخلة في عنصر الإنسان بل لأنّ فيه استعمال أرفع قواه وأنّ ليست المحاكاة بل النطق من خصائص الإنسان وإنّ الصدق يلزم المخبر فإنّ خالطه الكذب أحبطه عن درجته وأنّ سوء المعنى يحو عنه اسم البلاغة.¹

والفراهي ليس وحيداً في هذا المضممار بل أشهر شعراء العرب وأدبائهم معه. انظر إلى الجاحظ فإنه جعل مدار البلاغة نور العلم وطهارة القلب،² وإلى طرفه بن العبد البكري حيث يقول:

وإنّ أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً³
والحقيقة أنّ الشاعر يصوّر ويحكي عما يجد في قلبه ويحسّ ولا يحكي عما يحسّه الناس. فهو في تصويره وحكايته صادق لا كاذب كما زعم النقاد وهذا باب عالٍ لم يبلغ إلى كنهه إلا قليل. فلها رأى النقاد أنّ الشاعر يقول خلاف ما يجده الناس فمثلاً يصوّر الليل بأنه طويل - رغم أنه قصير - لأنه يشعر بالألم وفي حالة الألم يشعر الإنسان بأنّ عجلة الزمان واقفة وهكذا جميع الأمور فزعموا أنه كاذب، فلما ثبت لديهم أنه كاذب حكموا بأنّ الشعر بناؤه على الكذب. وهذا خطأ شنيع فاحش. ومن ثمّ لا بد لنا أن نعرف بأنّ في مثل هذه الأحوال يريد الشاعر أن يثير في الناس الإحساس الذي في قلبه لا أن يبعدهم عن حقيقة الأشياء لأنّ الشاعر يعرف حق المعرفة بأنّ الناس لا يحسّون إحساسه ولا يشعرون شعوره ولكنه لا يصرح بهذا بل يأخذ بأسلوب الكتابة والتشبيه والاستعارة والمجاز وما إلى ذلك من أنواع البلاغة لكي يصحبه الناس في الشعور والإحساس وثور في قلوبهم العواطف التي في قلبه فلا

¹ جمهرة البلاغة، ص 13

² البيان والتبيان، 4/2

³ ديوانه (تح: كرم البستاني)، ص 98

يصح لنا أن نقول إن أحسن الشعر أكذبه. لأننا نرى الشاعر يقول خلاف الموجود العام، بل ترى بعين الشاعر حتى تستطيع أن تفرّق بين الإحساس والكذب.

وفي الكتاب فوائد جمة تحتاج في تحليلها وشرحها إلى مؤلف خاص فأكتفي بهذا القدر.

3. أساليب القرآن: إن هذا الكتاب قد ألفه الإمام الفراهي لبيان الأساليب التي استعملها القرآن الكريم ولا يوجد لها نظير إلا في كلام العرب. فموضوع هذا الكتاب يختلف تماماً عن موضوع كتاب في البلاغة، لأنّ البلاغيين يتكلمون عن محاسن الكلام ومساوئه في ضوء أصول وضعوها. أما هذا الكتاب الذي أتكلّم عنه فإنه يحتوي على القواعد والأصول التي استنبطها الإمام من كتاب الله. ثم شرحها وفصلها في ضوء كلام العرب الأصيل لكي يسهل على الناس فهم كتاب الله. فيقول رحمه الله في خطبة الكتاب: قال الله تعالى "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانٍ قَوْمِهِ" واللسان ليس الألفاظ المحض بل هو يشمل أساليب كلامهم وفيهم إشاراتهم. وأفردنا لكل هذه الأمور كتاباً على حدة. لكي يسهل التأمل ويجمع الفكر لأمر واحد والمقصود من الكل فهم القرآن حسب مراده ثم يبين غاية الكتاب: المقصود من هذا الكتاب إحاطة العلم حتى الوسع بدلالات الصور والأساليب ومواقع استعمالها. فإنّ محض العلم بأسلوب خاص من دون تخصيص مواقعه يفتح باباً عظيماً لسوء التأويل فهذا الكتاب رغم صغر حجمه كثير النفع. وقد طبع أول مرة في سنة 1969م بدون تحقيق وتقديم.

وهنا انتهى الحديث عن المؤلفات المطبوعة للإمام الفراهي.

ومن بعض كتبه المخطوطة:

4. كتاب الرسوخ في معرفة النسخ والمنسوخ: إن هذا الكتاب القيم قد بين فيه الإمام الفراهي عن القرآن الكريم وسيأتي الحديث عنه حيندا أتعرض لأنه في النسخ.

5. القائد إلى عيون العقائد: إنَّ القرآن الكريم يهتم كثيراً بالتوحيد والمعاد والرسالة، بل يجعل هذه الأشياء الثلاثة بمثابة أصول وأسس للإسلام. فالإمام الفراهي قد شرح في هذا الكتاب الأدلة القرآنية التي تبرهن على ضرورة الإيمان بالتوحيد والمعاد والرسالة. وفند اليهودية والنصرانية التي تقلل من شأن هذه الأصول. كما دعا الإمام إلى تأسيس علم الكلام على أصول القرآن لا على أصول الفلسفة الإغريقية فالقرآن الكريم منبع جميع العلوم. وهو بهذا يعتبر من أحسن الكتب للبحث في الدين ومقارنة الأديان والدعوة للحقة إلى الله.

6. حجج القرآن: إنَّ الإمام الفراهي قد تناول في هذا الكتاب القيم الفلسفة والمنطق والعلوم الأخرى العقلية ثم أثبت بالبراهين والأدلة القوية بأنَّ هذه العلوم التي وضعها الناس في ضوء الفلسفة الإغريقية والعجمية لا تستطيع أن تفنع عقل الإنسان. كما أوضح أنَّ القرآن الكريم وأدلته لا تعارض العقل وإن لم تصل عقولنا إلى كنهها ولا تستطيع أن تحيط بها.

7. الأزمان والأديان: إنَّ الإمام الفراهي قد كشف في هذا الكتاب عن أسرار اهتمام الدين ببعض الشهور والأيام والأوقات.

8. إحكام الأصول بأحكام الرسول: إنَّ تعاليم الرسول وتوجيهاته للناس ودعوته كلها مأخوذة من الكتاب فالرسول لم يكن مجتهداً، بل كان مبلغاً عن الله وشارحاً بعمله وأقواله للتعاليم التي دعا إليها القرآن. فالإمام الفراهي قد قارن بين بعض الأحاديث والآيات القرآنية مستدلاً بقوله تعالى عن الرسول صلى الله عليه وسلم "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿١٦﴾" وأثبت أنَّ الرسول كل ما كان يدعو إليه يستنبطه من كتاب الله وعلى هذه الأصول يستطيع المتعمق في القرآن أن يفرق بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث المختلقة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنها بريء.

9. [في] ملكوت الله: إنَّ الفراهي قد درس في هذا الكتاب أسباب تقدّم الأقسام وانحطاطها في القرآن وأوضح أنّ الحق لا بد أن ينتصر وأنّ الباطل لا بد أن ينهزم مهما أوتي أصحابه من القسوة والشوكة العارضة أو الطارئة، ثم بين الأصول والأسس التي يجب أن تقوم عليها الحكومات الإسلامية.

وهنا أختتم الحديث عن التعريف بكتب الإمام راجياً من محبي العلم والدين والدعاة إلى الله أن يقدموا خدماتهم العلمية والمادية لإنقاذ هذا التراث العظيم من الضياع وأن يقوموا بطبعه ونشره في الناس لينتفعوا به، كما أدعو الله أن يوفقني ويمنحني فرصة مناسبة لتحقيق هذه الكتب حتى أستطيع أن أقدمها إلى إخواننا العرب الذين قد لقي الإمام ربه وهو يفكر لأمرهم ويدعو الناس إلى الوقوف في صفهم حتى ينتصر الحق وينهزم الباطل. وكأني به قد جمع كل عواطفه ووجهه للعرب في بيته هذا.

هم أهلنا وعشيرنا أفيالمون ولا نحس
والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الخامس: منهج الفراهي في تفسير القرآن

وأبدأ هذا الباب بذكر المصادر التي استفاد الفراهي منها في تفسيره للقرآن الكريم ثم أبدأ منهجه في تفسير القرآن فأذكر فيه الطريقة التي التزمها في إثبات الانسجام والتآلف أو النظم والربط بين آيات القرآن وسوره كما أتناول فيه إبراز جوانب شخصيته المتعددة كالفراهي المفسر اللغوي الفراهي، الفراهي المفسر البلاغي الأديب، الفراهي المفسر النحوي، المفسر المؤرخ والذوق عند الفراهي. وبعد ذلك أظهر الابتكار في تفسير الفراهي، ثم أحدد مكانته بين المفسرين وفي النهاية أبين وجهة نظري عن تفسيره.¹
أولاً- مصادره: إنَّ الفراهي قد درس جميع العلوم المتداولة في عصره واستفاد بها في

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاح)، ص 36-37 (بتصرف)

تفسيره للقرآن الكريم ولكنه لم يعتمد على كتب القدامى والمحدثين اعتماد المقلد الأعمى بل عرض كل ما قرأ ودرس بهذا الصدد على محك النقد وخاصة ما يتعلق في أية ناحية من النواحي في القرآن الكريم. فإذا صح وثبت قبله، وإلا رفضه لأن العمدة عنده القرآن وحده. ما يخالف روحه وأهدافه وتعاليمه وليس له أية قيمة تذكر عنده:

1. كتب التفسير: إن كتب التفسير- للأسف الشديد- مع جلاله شأنها وعظمة نفسها لا تفي بشرح مطالب القرآن الكريم العلم الخالد في إبراز معانيه وتوضيح أحكامه وأهدافه هو الكثير من المفسرين القدامى استنفدوا جميع قواهم الذهنية والفكرية للكشف عن بلاغة القرآن. ولا شك أن بلاغة القرآن لا يمكن أن تقارن إليها بلاغة العرب والعجم وهذه ميزة كبرى ولكنه لم ينزل من عند الله ليكون كتاب البلاغة فحسب، بل أنزله الله تعالى ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم ويوثق ملتهم بخالقهم وربهم التي كانت منقطعة عن نزوله أو تسرب إليها الضعف والتفكك ولا يسعاد المؤمنين به والعاملين بتعاليمه في الدنيا والآخرة، وكأنهم لم ينظروا إلى قوله تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ"¹. ويأتي مفسر آخر فيجعل همه حلّ المشكلات النحوية فحسب- ثم يأتي بعده من يجمع الروايات الصحيحة والمختلفة ولا يميز بينهما، وهكذا نرى كثيراً من المفسرين يأولون القرآن وفق أهوائهم لإثبات مذاهبهم ونظرياتهم. كما أن عدداً غير قليل منهم جعلوا كتاب الله كتاب المجادلة الفلسفية ولذلك نرى صاحبنا الفراهي قد درس كل التفاسير القديمة والحديثة التي استطاع الحصول عليها، ولكنه درسها ناقداً لا مقلداً فلم يأخذ كل ما جاء فيها بدون علم ونظر، وكان رحمه الله يعتبر تفسير الإمام ابن جرير الطبري عمدة عنده لأن الإمام الطبري جمع في تفسيره كل الأحاديث الصحيحة والضعيفة. كما جمع أقوال أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينها وميزة الطبري أنه لا يفسر القرآن على أهوائه بل يجمع الروايات والأقوال ويترك للقارئ الاختيار، ثم يأتي عند الفراهي في الدرجة الثانية الكشاف للزمخشري والتفسير

¹ سورة النحل: 16

الكبير للرازي، لأنّ الأول يسلك مسلماً مأموناً في شرح النصوص القرآنية شرحاً لغوياً رغم أنه كان معتزلياً يفسّر القرآن تفسيراً موافقاً للفكرة الاعتزالية. أما الرازي فبالرغم أنه تعرض كثيراً للمشكلات الفلسفية والكلامية، لأنّ عصره كان عصر الفلسفة والكلام وكان ذكياً يفهم الكثير من حكم القرآن ويفهم أنه كتاب الهدى والنور، وقد تكلم الفراهي عن هذه الكتب الثلاثة فقال: إنّ تفسير ابن جرير رحمه الله هو الجامع لكل ما جاء من طريق النقل من غير نقد في الرواية ولكنه بعد نقل الوجوه المتقولة بين ما هو الصواب عنده. وإذا أمكنه يجعل المفهوم جامعاً للوجه، ويبحث عن اللغة والإعراب وكثيراً ما يستند بكلام العرب ومن أجلّ محاسن هذا التفسير كونه جامعاً لروايات السلف مع التعرض باللغة والنحو وترجيح الأولى بالصواب عنده ولهذا الوجه أقبلت العلماء عليه. وأما النظر في الروايات من جهة القرآن والمعقول والتاريخ فليس من شأنه حتى أنه جمع من المناكير الكثير من غير تنبيه على نكارتها وإنما ترك ذلك لأهل النظر فإنه لو أراد، لعله لم يتيسر له إتمام هذا الجامع الكبير.

وأما تفسير الرازي فهو جامع لأقوال المتكلمين فهو كابن جرير في جمع الأقوال وربما يرحح الصواب وينتصر لمذهب الأشاعرة وأجلّ محاسنه كونه جامعاً فيجد فيه الناظر المتأمل محلاً للاختيار وإعمال النظر ومع ذلك لا ينظر بالإمعان والتأمل. ولو فعل لعله لم يتيسر له هذا الإثثار في القول فإنّ ذلك ليس من شأنه ولذلك جمع من المناكير الكثير، فهو كابن جرير في خلط الغثّ بالسمين.

وأما الزمخشري فينظر في نفس عبارة القرآن ولا يبعد عنها ويبحث عن اللغة والإعراب وربط الكلام وينتصر لمذهب المعتزلة من غير تطويل ويورد قليلاً من الروايات وجلّ محاسنه أنه وجيز وقليل السقطات في اللغة والإعراب.¹

ومن المفسرين من يأتي ذكره في تفسير الفراهي- غير الطبري والزمخشري والرازي-

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 6

مثل ابن كثير والسيوطي والشاه ولي الله الدهلوي والشاه عبد القادر ابن ولي الله الدهلوي والسيد أحمد خان، فابن كثير لم يرد ذكره في كتب الفراهي وتفسيره إلا مرة أو مرتين. أما السيوطي فقد أكثر الاستفادة من كتابه القيم "الإتقان في علوم القرآن"، أما تفسيره "الدرر" فلم يتعرض له إلا في موضع أو موضعين. أما ولي الله وعبد القادر والسيد أحمد خان فلم يتعرض لذكرهم إلا حينما فند بعض آرائهم، فإنه لم يجعل من كتب التفسير مرجعاً له إلا تفسير الطبري وتفسير الرازي. ثم يقول: "وما أخذت معنى الآيات من كتب التفسير ولكنني تأملت في رباط الكلام وآيات متماثلة، فإذا تقررت عندي معنى جملة من الآيات، نظرت في تفسير الطبري والرازي رحمهما الله فربما وافقتي واحد من أقوال السلف وربما كنت قريباً من بعضهم، وربما فهمت معنى ثم رجعت منه وربما أشكل عليّ شيء فوقفت¹."

2. كتب الحديث: لا خلاف بين المسلمين في أنّ القرآن الكريم أساس الإسلام ولباب دعوته، ومناطق شرائعه، وإنه ينبوع الأول لشتى تعاليمه في أحوال المعاش والمعاد، وأنّ محمداً صلى الله عليه وسلّم مبلغ عن الله ومبين عن مراده فكل ما نطق به من السنن الراشدة والأحاديث الهادية أصل ثانٍ من أصول التشريع الإسلامي، وحكم ينتفع به الناس، وهدى يرشدهم إلى الصراط المستقيم. ولكن هذه السنن، منزلة ثانية بعد القرآن لأنّ الصورة المتقنة للإسلام أنها تعرف أبعادها وملاحمها البارزة من القرآن أولاً، ثم يأتي دور السنة في الإيضاح والتفصيل والبيان.

فهكذا الإمام الفراهي مع احترامه للسنة النبوية لا يمنحها منزلة مساوية للقرآن الكريم فهو يفسر القرآن بالقرآن، فإذا ما أعياه الأمر رجع إلى الحديث لأنه شارح له وموضح. وقد تكلم عن موقفه من السنة بالتفصيل. يقول: "ولعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه. وإني مع اليقين بأنّ الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي

¹ مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 17

بها إلا كالتبع بعدما فسرت الآيات بأمثالها لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم والملاحدين الذين يلزموننا ما ليس له أصل في القرآن¹ فوجب على من يحاول فهم القرآن ألا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه، فإني رأيت بعض الروايات تقلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تأول ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها والفرع أولى بالقطع. والعجب كل العجب من يقبل ما هو مكذّب لنص القرآن مثل كذب إبراهيم عليه السلام² ونطق النبي صلى الله عليه وسلم من غير وحي،³ فينبغي لنا أن لا نأخذ إلا ما يكون مؤيداً للقرآن ومصداقاً لما فيه، كما أن الآثار المنقولة عن ابن عباس أقرب الأقوال في نظم القرآن، فيشير إليه كالتبع⁴ والذي يهكم هو أن تعلم أن الخبر وإن تواتر لا ينسخ القرآن، وصفة التأويل أو التوقف. ألا ترى أن الإمام الشافعي⁵ وأحمد بن حنبل وعامة أهل الحديث يضعون نسخ القرآن بالحديث وإن كان متواتراً وصاحب البيت أدري بما فيه فن خالفهم من الفقهاء والمتكلمين لا نقيم لرأيهم وزناً ونعوذ بالله أن ينسخ الرسول كلام الله.⁶

فالقرآن هو الحاكم عند اختلافه بالأحاديث وكنت أفرق عن طعن بعض أخواننا ولكن ذهب بهم الشغف بالحديث إلى أن قالوا إن الحديث داخل آية "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" ⁷ ولم يفكروا في نتائج هذا القول⁸ فخان لي أن أرفع راية الصدق ولا أبالي ولو قطعوا رأسي وأوصالي. فاعلم أن في قلوب أكثر أهل الحديث

¹ المصدر نفسه، ص 7

² إشارة إلى الحديث الذي جاء فيه أن إبراهيم كذب في حياته ثلاث مرّات، صحيح البخاري، رقم الحديث: 2217

³ إشارة إلى قصة الغرانيق [وتحقيقه في "نصب الغرانيق" للألباني، ص 46-48]

⁴ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 10

⁵ الرسالة للشافعي، ص 106

⁶ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 11

⁷ سورة الحجر: 1

⁸ مفردات القرآن، ص 9

أنّ كل ما رواه البخاري والمسلم لا مجال فيه للشك، فنورد بعض ما فيهما لكي تعلم أنّ الله تعالى منع اتخاذ العلماء أرباباً فلا تؤمن بما فهموا من غير النظر والفكر.

قال الفراهي: أخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا"¹. قال مستقرها تحت العرش، وأخرجنا عنه قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عن غروب الشمس فقال يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت لله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا"².

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر ابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى "فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ"³. قال وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعها على صدره في الصلاة.⁴

قد أطلت في نقل آراء الفراهي في حال التفسير بالحديث ليتضح موقفه واتجاهاته

¹ سورة يس: 36

² صحيح البخاري، رقم الحديث: 3199، 4802 و7424.

³ سورة الكوثر: 2

⁴ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 32-33. قد جمع الشيخ صديق حسن خان الروايات التي وردت في تفسير الآية في كتابه "مثل المرام في تفسير آيات الأحكام". انظر ص 405-407. هذه الروايات لا تصلح للقبول. وذلك لسببين: الأول أنها تفسر الآية خلاف ما تذهب إليه اللغة والثاني أنّ القرآن لم يتعرض في السور الطوال للمسئلة الفرعية حتى لم يحدّد ركعات الصلوات الخمس التي تعتبر ركناً فهل أسند تبينها وإيضاحها إلى الرسول. فكيف تعرض في هذه السور القصيرة لحكم لا يتجاوز حدّ الاستعجاب. فهذا الحياض عن القياس. أما الرواية الأولى التي جاءت في تفسير قوله تعالى "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا" فلا أدري لماذا تشكك الإمام الفراهي فيها. فليس من الممكن حملها على التمثيل أو المجاز، وقد تكلم الفراهي نفسه عن هذا الأسلوب في كلام الأنبياء وقد ورد في القرآن أيضاً مثال هذا الأسلوب في قصة ذي القرنين جاءت كلمة الغروب والطلوع فهل وصل ذو القرنين حقيقة إلى مغرب الشمس ومطلعها. أم هو مجاز؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يوجد التعارض بين الآية والحديث حتى نضطر إلى إنكاره فهل تنكره لمجرد ألا تصل إلى كنه معناه؟

فهذا باب خطير قد وقع فيه كثير من المفسرين في غلطات فاحشة إذ أولوا الآيات القرآنية اعتماداً على بعض الروايات ولم يؤولوا الروايات فهذا حيف عظيم وظلم كبير على كتاب الله. فالنبي لم يأت لنسخ القرآن أو لفتح الباب لتأويلات آياته تأويلاً يخالف روحه وأهدافه بل جاء ليبلغ عن الله ويبين عن مراده. قال الله تعالى في كتابه "يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ"¹ وكما قال: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ"²، وقد امتن الله عليه بهذا الوحي المبارك فقال: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا"³.

ونحن نحترم السنن النبوية ونؤمن بها ونطرق رؤوسنا أمامها إجلالاً وتعظيمًا خصوصاً وقد قال الله تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"⁴. كما نقدر الخدمات التي أداها الأئمة المحدثون في جمع الأحاديث وتنقيحها ووضع القواعد والأصول لها. ولكن لا نستطيع أن نجعل منزلته مساوية لكلام الله تعالى فكان الإمام الفراهي يعتبر الحديث، الركن الثاني من أركان التشريع الإسلامي ويعتمد عليه كمؤمن محب للرسول وأسوته الحسنة، وكان أحب التفسير عنده ما جاء من عند النبي وأصحابه ولكن هذا الحب أو الشغف بالحديث لم يجعله مقلداً أعمى. فإنه درس كل الكتب المتداولة في الحديث وأصوله ولا سيما الصحاح الستة دراسة جدية مستفيضة، واستفاد بها في تفسيره للقرآن الكريم ولكنه كان يعتبر القرآن عمدة

¹ سورة المائدة: 67

² سورة يونس: 15

³ سورة النساء: 113

⁴ سورة الحشر: 7

وأساساً متمشياً مع أصول الأئمة المحدثين. أما العلماء المتأخرون الذين جعلوا السنة فوق كتاب الله فلا يقيم لهم ولآرائهم وزناً، ولا يخاف في دين الله لومة لائم.

3. الكتب المنزلة على مَنْ قبلنا: إنّ النظرة العجلى في تفسير الفراهي وكتبه الأخرى في علوم القرآن تبين لنا اطلاعه الواسع على التوراة والإنجيل، فإنه قرأ بدقة وعمق بالغين ترجمة العهد القديم والجديد في اللغة العربية والأردوية والإنجليزية والعبرانية واستفاد منها في التفسير وخاصة قصص الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرهم في التوراة والإنجيل. وقد كتب الآخر الذكر شرحاً سماه بـ"الإكليل في شرح الإنجيل" فقد بين فيه بالمقارنة بينه وبين القرآن الكريم الأمكنة التاريخية التي حرفها النصارى، ولكن حالت المنية دون تكميل هذا الكتاب القيم.

وليتضح هنا أنّ الإمام الفراهي لم يعتمد على الكتب المقدسة ولم يستخدمها للاستدلال بها على نظريته بل استخدمها ضد اليهود والنصارى وضد أفكارهم الباطلة التي نسبوها إلى الله. فعلى سبيل المثال لما فسر الآيات التي وردت فيها قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام استخرج الأدلة على نظريته من كتب اليهود أنفسهم، ثم كشف الستار عن تحريفاتهم حيال ذبح إسماعيل وفدائه وأثبت بالبراهين القاطعة والأدلة القوية، أنّ الذبيح هو إسماعيل لا إسحق كما مضى ذكر ذلك [في] تعريف كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" وكما سيأتي بعض تفاصيله. وقد بين عن موقفه من الكتب المقدسة فقال "إنّ القرآن أحد الكتب المنزلة ونبينا واحد من الأنبياء ونحن المسلمون مع كثرة الرسل أمة واحدة. لا بد لنا أن ننظر فيما سبق لنعرف قدر القرآن الحكيم ونشكر فضل الله الجسم ويظهر لنا تأويل تلميحات القرآن التي خفيت عن الخلف من المفسرين فلم يهتدوا لوجه الكلام في غير موضع، وتبين لنا سبيل إغمام أهل الكتاب وأما أهل التفسير فعنهم أكثرنا من الإسرائيليات تركوا الكتب المقدسة إلا قليلاً من العلماء الذين أظهروا الحق على أهل الكتاب

وأقاموا عليهم الحجّة كابن تيمية فنعموا فعلوا فكأنّي على أثرهم.¹

ثم تكلم عن هدف القرآن وهدف نزوله بعد الكتب القديمة فيحدثنا بأنّ الله أراد لإنزال كتابه أن يكمل الدين ويبين اختلاف أهل الكتاب ليبتدوا إلى الحق. ويظهر ضلالهم ونسيانهم ما فرض عليهم وتبديلهم ما أنزل عليهم كما قال سبحانه: "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشَأْتُوا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٦﴾".²

وهنا يخطر ببالنا سؤال: ما الفائدة من الكتب المقدسة بعد القرآن الكريم ولماذا نهتم بدراستها؟ فيجيب الفراهي عن هذا السؤال: أ- يمكن لنا أن نصحّ الكتب المقدسة ونأولها بعرضها على القرآن الكريم ليظهر الحق على أهل الكتاب، ب- نعرف مدى صحة القصص الواردة في القرآن وفيها لكون القرآن محفوظًا. ح- من يريد أن يفهم التطورات من أول الشريعة إلى الشريعة الإسلامية فتبين له فضيلتها. د- تمييز الإسرائيليات من غير الإسرائيليات ونصحّ من آراء من تبعها من المسلمين. هـ- تين لأهل الكتاب أنّ القرآن لا يستمد من كتبهم.³ بل جاء ليصحّ أفكارهم الباطلة ويهديهم إلى الحق. و- نفهم الآيات التي تشير إلى التوراة ولكن المفسرين زعموا أنها تتعلق بالقرآن مثلا آية "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا"⁴ وآية "فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ".⁵

¹ يقصد بقوله "أهل التفسير" فع أنهم أكثرنا من الإسرائيليات تركوا الكتب المقدسة أنهم أدخلوا في كتبهم المقدسة ما جاء من طرق الرواة ولم يأخذوا مباشرة من الكتب المقدسة نغلطوا بين الإسرائيليات والأحاديث النبوية فاعتمدوا عليه كما كان عليهم أن يعتمدوا على الأحاديث النبوية ظناً منهم بأن الإسرائيليات وصلتهم منقحة.

² سورة البقرة: 106

³ زعم السيد أحمد خان أنه لم يبق عند العرب من الدين الحنيف إلا الخنثة والحنية. فكل ما جاء به الإسلام من الأحكام جاء من عند أهل الكتاب.

⁴ سورة البقرة: 106

⁵ سورة الحج: 52

فقد اتضح أن الفراهي لماذا يهتم بالكتب المقدسة ولماذا يستدل بها في تفسيرها. فإنه كما بينت لا يجعلها حجة على المسلمين ولا يستمد منها نوراً ليوضح أحكام الإسلام وتعاليمه لأنها محرفة، بل كل ما أراد أن يستفيد منها هو إغاث أهل الكتاب وإقامة الحجّة عليهم من كتبهم فإنه قد تكلم بالتفصيل عن قيمة هذه الكتب، ومدى جدواها يقول: تاريخ أهل الكتاب أقرب من الأخبار المنقولة عندنا فالصواب أن نأخذ هذه الأخبار من كتبهم المعتبرة كالمطلع في حيث تختلف عن القرآن تركها لأنهم كتبوا الشهادة كما نجد في قصة فداء إسماعيل فالقرآن هو الأصل والأساس، (ب) لا يحسن بنا أن نفرق بين الكتب المنزلة- والقرآن منها- فإذا وقع الاختلاف بينهما نظرنا في صحة الرواية فرجحا الأثبت رواية وإذا لم يكن اختلاف بينهما فلا بأس أن نأخذ مما لم يثبت رواية بعد عرضه على محك الدراية. (ح) إن ما أشار إليه القرآن مثل "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٨﴾"،¹ و"إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٧﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٧﴾"،² "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ"³. فلا بأس أن نأخذه ونذكره (د) لا بد من العلم لكل مفسر بأن القرآن الكريم لا يحتاج إلى هذه الكتب لإيضاح معناه لأنه هو المهيم عليها. يردّ الخصاص ويقضي بين المتخاصمين، ولكن النظر في الفروع يفيد ويزيد إيماناً واطمئناناً ويبين فضل القرآن عليها كما يكشف الستار عن بعض ما نسوه وبدلوه.⁴

ففي ظل هذه الأصول التي وضعها في مقدمة تفسيره، استفاد من الكتب المقدسة فإنه كما منع أن يعتمد عليها ويجعلها حجة على المسلمين، كذلك منع أن يشتم أهل الكتاب لأن ذلك يزيد الخلاف والعداوة وبينهم فلا يجوز الاستهزاء بآيات الإنجيل

¹ سورة الأنبياء: 105

² سورة الأعلى: 19

³ سورة الإسراء: 4

⁴ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 10-11

والتوراة فإنه يعتبر الاستهزاء بالقرآن لأن كلها خرجت من ينبوع الواحد. حتى لما تجاهل أهل الكتاب نختار أسلوباً حسناً عملاً بقوله تعالى "وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"¹ ولما نتكلم معهم وبتناقش لا نكذبهم فقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا تصدقوا أهل الكتاب يعني فيما ورد عن الكتب المقدسة فإنهم لم يحفظوه، ولا تكذبوهم، فإنه يمكن أننا لم يأتنا تأويله.²

4. كتب الأدب واللغة: لم يرد في تفسير الفراهي ذكر أي كتاب في الأدب، أما في اللغة فيذكر أحياناً "لسان العرب" لابن منظور و"الصحاح" للجوهري، ولكن النظرة الخاطفة في تفسيره تين لنا اطلاعه الواسع على أساليب العرب الرفيعة في الشعر والنثر. وقد سألت تلميذ أمين أحسن الإصلاحي الذي التزم معه في حله وترحاله وكان أحب التلاميذ عنده، عن مصادر تفسيره في الأدب واللغة فكتب إليّ يقول إنّ الإمام الفراهي كان يعتمد على دواوين الشعر الجاهلي والخطب الجاهلية وكان معجباً بامرئ القيس غاية الإعجاب ومن كتب اللغة والمعاجم كان يعتمد على "لسان العرب" و"الصحاح" وإن كان له آراء كثيرة خالف فيها "لسان العرب" و"الصحاح" وقد بين الفراهي موقفه من كتب اللغة في مقدمة تفسيره، فإنه يجعل كتب اللغة قاصرة عن شرح الكلمات القرآنية شرحاً صحيحاً واضحاً فالكتب اللغوية - عنده - لا تستطيع التمييز بين العربي الصحيح والمولد ولا ترشد الطالب إلى أصل اللفظ، كما لا تستطيع أن تفرق بين الأصل والفرع والحقيقة والمجاز ولذلك يوجب على المفسر ممارسة كلام العرب البليغ. فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا.

¹ سورة العنكبوت: 46

² مقدمة تفسير نظام القرآن، 15-16. روى البخاري من حديث أبي هريرة أنّ أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال النبي: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالله". صحيح البخاري، رقم الحديث: 4485

فلا يعرف ما هو منحول وما هو شاذ. ولكن لا يصعب التمييز بين المنحول والصحيح على الماهر الناقد، فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة¹ فهكذا بين عن موقفه من كتب اللغة. وأصوله التي التزمها في تفسيره للقرآن الكريم. أما كتب الأدب فقد قرأها بدقة ونقد وبدل على حبه للكتب العربية والدواوين الجاهلية في النثر والخطب أنه أنفق أموالاً طائلة لاقتنائها من البلاد العربية رغم أن الحصول على كتاب واحد كان أمرًا شاقًا في عصره، لبعد المسافة بين الهند والبلاد العربية وقلة الإمكانيات ولكنه قد استورد جميع الكتب المتداولة في الأدب واللغة والتفسير والنقد والبلاغة، وهلم جرا فن يزور مكتبته التي أهدت إلى مدرسة الإصلاح التي مضى ذكرها، لا يفرق بينها وبين مكتبة عالم كبير محقق في البلاد العربية.

5. كتب النحو والبلاغة: لم يصرح الفراهي في تفسيره ولا في كتبه الأخرى بأن أي كتاب من البلاغة والنحو كان عنده مرجعاً ومصدرًا ولكنه حينما يتعرض للمشكلات النحوية أو البلاغية في تفسيره، يذكر آراء العلماء النحويين والبلاغيين ويناقش معهم وعلى رأس هؤلاء العلماء الذين جاء ذكرهم في تفسيره الفراء، المبرد، ابن هشام، الزمخشري في النحو وفي البلاغة، قدامة بن جعفر، والباقلاني، وعبد القاهر الجرجاني، والسكاكي، ولكن يظهر من تفسيره أنه لم يكن يعتمد على أحد من العلماء النحويين والبلاغيين في حل المشكلات النحوية والبلاغية اعتماداً كلياً فإنه مع غاية احترامه لهؤلاء العلماء لم يجعل كتبهم مرشدة له فهل كان الأساس الأول عنده القرآن الكريم نفسه، ثم كلام العرب الخالص من الشعر والنثر، كما يسترشد بدوقه الأدبي، فنراه لما يشرح المشكلات القرآنية يستدل على نظريته وآرائه بالأشعار الجاهلية والخطب الجاهلية، وقد قال عن كتب هذه العلوم بأنها مقصرة غاية التقصير وتحتاج إلى زيادات بل إلى تأسيس جديد فهو لا يسمح للمفسر "بأن يبالغ في تطبيق

¹ مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 12-13

كلام الله بأصول النحو فيرممه ويؤوله فيظنّ ظانّ أنه جائر عن قصد السبيل، بل عليه أن يأتي بشهادة من أشعار العرب ليعلم الجاحد أنه هو الأسلوب الأعلى.¹ وقد أراد الفراهي تأليف الكتب في هذه الفنون على المنهج الجديد، ولكن سبقت المنية تكميل مهمته، فلم يستطع إتمام غير "جمهرة البلاغة" في فن البلاغة و"أسباق النحو" في جزئين في سلسلة الكتب الدراسية.² أما الكتب الناقصة فهي فلسفة البلاغة وسليقة العروض والنحو الجديد.

وغير هذه العلوم، درس الفراهي الفقه والأصول والفلسفة والمنطق واستفاد منها كعالم ناقد البصيرة وقد كان يرى أنّ هذه العلوم أيضاً تحتاج إلى تأسيس جديد لأنّ غفلة العلماء قد جعلتها بعيدة عن مسaire الزمن، والتمشي مع عجلة الحياة المعاصرة. ومن العلماء المجتهدين والمحدثين الذين كان الفراهي يعجب بهم ويشيد بخدماتهم أبو حنيفة والشافعي والبخاري ومسلم وابن تيمية، كما كان يشيد بعقلية الجاحظ وعباراته الأدبية السلسلة.

المبحث السادس: منهجه في تفسير القرآن

أولاً- رأي الفراهي في النظام والربط: إنّ معرفة النظام والربط عند الإمام الفراهي معرفة نصف القرآن فمن فاته النظام والربط فقد فاته شيء كثير وكذلك يرى أنّ الخلافات التي حدثت في الأمة الإسلامية وأثارت بينها عداوة وبغضاء نتيجة عدم اعتناء العلماء بالنظم القرآني وعدم معرفتهم إياه فلو فهموا النظام لفهموا روح القرآن وحاولوا إزالة هذه الخلافات، لإشعال نيرانها كما يفعلون في رأيي جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء "كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في

¹ المصدر نفسه، ص 14

² ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاح)، ص 47

السَّمَاءُ".¹ وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا".² وكيف انخلاص عن التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتاً في ظنونهم وهو بحمد الله متين "لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ".³ فيأوله كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن متنه، وبالنظام يتبين سمت الكلام، فقد نسي عن آيات الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيع المحرفين "الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ"⁴ والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه ومن خلفه ويضمون به ما يعجب هوى نفوسهم.⁵ ثم يقول: إنه لا يخفى أنّ نظم الكلام بعض منه فإن تركته ذهب بعض معناه فإن للتركيب معنى زائداً على أشتات الأجزاء، فن حرم فهم النظام فقد حرم حظاً وافراً من الكلام ويوشك أن يشبه حاله بمن قبله من أهل الكتاب كما أخبر الله تعالى عنهم "فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".⁶ وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء التي نراها في المسلمين، من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون من اختلافهم وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول لأننا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب غير أنّ رجاءهم كان بهذا النبي وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ⁷ فكيف نهتدي ونعرف الحق ونجمع على صعيد واحد لغاية واحدة وهذا القرآن الكريم مهجور فينا، تركا الاهتداء بهديه والتدبير في نظامه الذي يستطيع أن يحسم الخلافات التي تنقض ظهورنا.

¹ سورة إبراهيم: 24

² سورة آل عمران: 103

³ سورة فصلت: 42

⁴ سورة النساء: 46

⁵ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 2

⁶ سورة المائدة: 14.

⁷ مقدمة تفسير ونظام القرآن، ص 4

ونحن لا ندرك حقيقة الخلافات بين المسلمين التي أشار إليها الإمام الفراهي إلا إذا نظرنا إلى أحوالهم في عصره وبعده، فترى أنصار كل مذهب من المذاهب يبذلون كل ما يملكون من قوى مادية وذهنية لتأييد مذهب إمامهم في أصوله وفروعه وتطبيقاته العملية وجعلوا اعتمادهم الكلي على أقوال أئمتهم ولم يكلفوا أنفسهم بالتدبر في كتاب الله بل تركوه وراء ظهورهم ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل زاد الطين بلة أن كثيراً من أتباع كل مذهب، قد نسوا روح الإسلام وهدفه الأعلى في تأييد مذاهبهم. فهذا الحنفي الديوبندي لا يرى من تمسك بمذهب غيره من المذاهب الآخر مسلماً كاملاً فلا يصلي وراءه ولا يعقد معه العلاقات العائلية. وهكذا فأذكر هنا فتوى من عالم كبير¹ يعتبر إماماً ووجه في الدوائر الديوبندية: "إذا صلي أحدكم وراء أهل الحديث،² فيحسن به أن يعيد صلاته³ وهذا عالم آخر يتزعم العدد الهائل من مسلمي الهند يحكم على كل من ابن تيمية وابن عبد الوهاب بأنهما خارجان عن الإسلام وضالان ومضللان.⁴ لأنهما حاولا فتح باب الاجتهاد المغلق وخالف الإمام أبي حنيفة في بعض المسائل فهل تمت هذه العصبية المذهبية بأية علاقة إلى الإسلام؟ كلا لأن القرآن كتاب الإسلام نزل من عند الله ليهدي الناس إلى الحق ويخرجهم من الظلمات إلى النور وينفخ في قلوبهم روح المحبة والتعاون. "وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ".⁵ فنتيجة لهذه الخلافات فقد المسلمون كل ما كان لهم من الملك والعزة والكرامة وأصبحوا العوبة في أيدي الإنجليز والمستعمرين والدسّاسين يلعبون بها

¹ كان زعيم الحركة الديوبندية في الهند وله خدمات جليلة في تحرير الهند من الاستعمار.

² جماعة في الهند لا تقلد أي إمام من الأئمة الأربعة بل تستنبط الأحكام رأساً من الكتاب والسنة يدعى أصحابها بـ"غير مقلدين".

³ الفتاوى الديوبندية، ص 20

⁴ الشهاب الثاقب لحسين أحمد المدني، ص 42

⁵ سورة آل عمران: 103

كيف يشاؤون وخرج الحكم من أيديهم وأصبحوا محكومين بعد ما كانوا حاكمين، ولم تكن آثار هذه الخلافات المذهبية مقتصرة فيما بين العلماء بل شملت كل الهند، وجعلت الأجيال الناشئة من المسلمين بعيدة عن الإسلام ومتشككة فيه كما نفرت غير المسلمين من الإسلام ودراسته، ومهدت السبيل للمستشرقين والمستعمرين أن يثيروا أفكارهم الإلحادية وأن يؤمنوا ببيان الإسلام إما عن طريقهم مباشرة أو عن طريق مذاهب أقاموها وتولّى زعامتها بعض من ينتسبون إلى الإسلام أو يتظاهرون به، فالمسلمون لولم يتركوا التدبر في القرآن تدبراً حقيقياً ولم يندوه وراء ظهورهم لما أصبحت حالهم على هذا الشكل السيئ المؤلم، فعرفة نظام القرآن عند الفراهي هي الوسيلة الصحيحة لتدبر القرآن¹ هو التدبر هو الذي يفتح باباً للهدى والتقوى² فهذه الخلافات التي نراها عند المفسرين في تأويل القرآن الكريم والتي جعلت عقائدنا وقلوبنا وألفتنا متشتتة وأوهنت كياننا³ لا يمكن إزالتها إلا بالرجوع النظام القرآني فإنه يستطيع أن يردّوا إلينا الوحدة التي فقدناها باختلافنا في العقائد والأعمال ويجمعنا في صعيد واحد.

وبتعبير آخر أنّ الانتفاع بالقرآن والاستفادة منه موقوفة على فهمه والكلام لا يمكن فهمه إلا بالوقوف على تركيب أجزائه وتناسب بعضها ببعض، لأنّ الاطلاع على المراد من معاني الأجزاء لا يتأتى إلا بعد الوقوف على الناحية التأليفية فلا يستطيع أحد أن يستفيد من كتاب وينتفع به بدون أن يفهمه. ومن المعروف أنّ الفهم لا يمكن بدون علم الروابط بين أجزاء الكلام ومواقع كل منها⁴ فهل يتصور أن يستطيع أحد أن يفهم كتاب الله وهو يجعله مقتضباً ومشتتاً لا يلتئم بعضه ببعض.

ولابد لنا أن نوضح أنّ الفراهي كما يرفض الفكرة السائدة عند كثير من المفسرين بأنّ

¹ دلائل النظام، ص 17

² المصدر نفسه، ص 9

³ المصدر نفسه، ص 39

⁴ المصدر نفسه، ص 16

القرآن ليس فيه ترتيب ونظم، لأنه كلام الله الذي نزل على حسب الوقائع والأحداث لا يمكن أن يوجد في آياته وسوره انسجام وتآلف. فكذلك هو ينكر ما قال المفسرون المعتنون بترتيب ونظم، بأن علم المناسبات علم عظيم شريف، ولطائف القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه مودعة فيه لا يدركها ولا يبلغ إلى كنهها إلا من له إلمام بنظامه وحسن ترتيبه فالإمام الفراهي يحترم هؤلاء العلماء ويقدر خدماتهم الجليلة في هذا الشأن لأنَّ إيجاد هذا الفن يرجع فضله إليهم.¹ فإنهم مشكورون في سعيهم وما بذلوا من جهود لفتح باب المعرفة بالنظام القرآني، فيقول إنَّ لطائف القرآن وبلاغته ووجوه إعجازه لا تأتي إلا في المنزلة الثانوية في علم القرآن،² فالذي يأتي في الدرجة الأولى هو تدبر القرآن من حيث أنه يهدي إلى الحق ويخرج الناس عن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان³ "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُكَّرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهُآ" ⁴ "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ" ⁵.
فالنظم القرآني يهدي الناس إلى معالي الأمور وحكمها وهذه المعالي هي الحقائق والغاية، فن لم يعرف النظم يجهل الحقائق والغايات والحكم فقلَّ حظُّه في طرفي الاعتقاد والعمل.⁶ وقد فسَّر العقائد والأعمال وتأثير قلة الفهم فيما بقوله قلة المعرفة بصحيح العقائد ربما توقع في سوء الظن بالرب تعالى وتصرفه عن النسبة الصحيحة بربه تعالى أما الأعمال فلأنَّ أمرها بالنيات وكلها متفرعة من العقائد فقلة المعرفة بحكمها وغايتها ربما تسدَّ عليه باب الإتيان بما كما ينبغي، مثلاً عدم الذكر في الصلاة وعدم التقوى في الزكاة، وربما تصرفه من وجهه بالكلية غير امتثال ظاهر العمل كما يقع في أعمال الحج

¹ المصدر نفسه، ص 24

² المصدر نفسه، ص 52

³ المصدر نفسه، ص 17

⁴ سورة محمد: 24

⁵ سورة النحل: 89

⁶ دلائل النظام، ص 38

لكثير من الناس¹ ولأجل هذه الأهمية الكبيرة للنظام والربط في القرآن الكريم هو يخالف العلماء الذين قالوا بأنّ القرآن متناسبة أجزاءه كلها بعضها ببعض تناسباً ما. ولم يقولوا بأنّ القرآن ككتاب واحد يوجد بين أجزائه ترتيب وتنسيق كامل فإنّ الفراهي أولاً يفرّق بين التناسب والنظام ثمّ يثبت أنّ في القرآن نظاماً ليس تناسباً فحسب. فيقول: إنّ التناسب إنما هو جزء من النظام، فإنّ التناسب بين آياته بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما فربما يغفل عن المناسبة التي ينظم بها الكلام فيصير شيئاً واحداً... فرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً ثمّ تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتالي قبلها أو بعدها على بعدما فكما أنّ الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر فالنظام شيء زائد على المناسبة وترتيب الأجزاء.²

ولكن لا يعني ما قلت فيما سبق أنّ الإمام الفراهي يوجب معرفة النظام والربط على الجمهور من الأئمة العلماء وغير العلماء فإنه مع أهمية هذا العلم لا يوجب إلا على العلماء لأنهم هم المسؤولون عن الأمة ودعوتها إلى سبيل الله فيحتاجون إليه لتعليمها وإرشادها إلى الصراط السوي والطريقة المثلى فكيف يتأتى لهم ذلك ما داموا غير فاهمين روح القرآن التي تجلي وتنعكس في نظمه ومختلفين فيما بينهم في تأويل آياته، حتى لم يبقوا صالحين لقيادة أنفسهم فضلاً عن قيادة غيرهم فلا يمكن حسم الخلافات التي لا تزال تشتعل نيرانها في المسلمين، وتوحيد صفوفهم وجمعهم على صعيد واحد إلا أن يفهموا كلام الله وروحه حق الفهم فيعرفوا غاية الدين وهدفه الأعلى فيقول الفراهي "إنّ معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة، حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا، فإنهم إن لم يفهموه، واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس بل

¹ المصدر نفسه، ص 38

² المصدر نفسه، ص 74-75

يشدد ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين.¹

وإنّ ما نراه في كتب التفسير من كثرة الوجوه والأقوال فإنه نتيجة عدم التمسك بالنظام والربط، فلو راعه العلماء عند تفسيرهم للقرآن الكريم لما خبطوا خبط عشواء في غابات الأقوال والتأويلات بل لذهبوا إلى قول واحد أو أمر واحد كما كان دأب السلف الصالحين لأنّ النظام هو الذي يوجه إلى الوجه الصحيح ويزيل احتمال الوجوه الكثيرة.²

الأدلة والبراهين على النظام في القرآن (الدليل الثقلي): إنّ منكري النظام استدلوا على نظريتهم بأنّ القرآن الكريم نزل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب.³

ولكني أريد أن أقف معهم هنيئة وأسألهم، أنا معكم وأسلم بأنّ القرآن نزل في أوقات متفرقة لأسباب مختلفة ولكن هل ربّ كما نزل؟ أو عدل عنه فإن كان جوابهم أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم رتبه غير ترتيب النزول، فأسألهم سؤالاً آخر فما هو السبب لعدول النبي صلّى الله عليه وسلّم عن ترتيب النزول، فيضع آخر الآية التي نزلت عليه في السورة السادسة- في الترتيب المصحفي- ويؤخر ما نزل عليه أولاً إلى السورة السادسة والتسعين وهكذا .. فهل فعل النبي كل ذلك قدّم وأخر مخالفة لإرادة الله، أو بأمر عنه تعالى لأنه صلّى الله عليه وسلّم كان مأموراً من عند الله وليس له خيرة أن يفعل ما يشاء في أمر الوحي كما قال تعالى: "وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيَّمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ

¹ المصدر نفسه، ص 25

² المصدر نفسه، ص 25

³ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص 221

لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِيَّ إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾¹. فهل هذا الترتيب الذي جاء به القرآن من عهد الرسول إلى يومنا هذا وسبقه إلى يوم البعث على أحسن الوجوه أو إنما هو آيات منتشرة غير مرتبة النظام؟² فإن أجابوا عن ذلك بـ"نعم" وقالوا إنَّ الرسول خالف الترتيب النزولي في الترتيب المصحفي ولكنه لم يضع آية بجانب آية أخرى لا المناسبة بينهما. فسأقول ردًّا عليهم بأنَّ قولكم هذا سيسبب أكبر طعن في القرآن الكريم، فهل ترضون أن يقال عن القرآن بأنَّ ترتيبه خالٍ عن الحكمة والنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدل عن جميع القرآن حسب ما نزل عليه، بدون أيِّ فرض وهدف؟ يقول الإمام الفراهي: نحن نرى فيما روي من الأصحاب أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأمر بوضع الآيات في مواقعها وكان جبريل يقرأ عليه السورة بعد تمامها ثم نرى أنَّ الأمة - بنعمة الله - لم تختلف في ترتيب وليس في أيدي جميع فرق المسلمين إلا القرآن بهذا الترتيب،³ وكذلك نرى أنَّ سور القرآن منها قصار ومنها طوال بأضعاف من قصارها فلو لم يكن أمر واحد ومنهج كامل تتم السورة بتمامه لجعل القرآن كله سورة واحدة، ولما لم يرد الله أن يجعل السور على مقدار خاص، فلو لم يرد أمرًا واحدًا ونظمًا كاملًا في سورة واحدة لما سلك آياتها في سلك واحد بل فرق بين أشنتها،⁴ فهذا هو الدليل النقلي من الأدلة على النظام القرآني. وقد تكلم الفراهي عن الأدلة النقلية بالتفصيل ولكن اكتفينا بهذا القدر، لأنه يكفي في إثبات أنَّ القرآن الكريم رتب خلاف ترتيبه النزولي لحكمة عليا وهدف عظيم - سيأتي تفصيلهما - فنريد أن نأتي ببعض الأدلة العقلية على هذا الموضوع.

¹ سورة يونس: 15

² دلائل النظام، ص 14

³ مقدّمة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 4

⁴ المصدر نفسه، ص 21

الدليل العقلي: أنه لا يرضى عاقل أن يترك بين الناس كلاماً له، وهو يعلم أنه مختلّ النظم بل لو لاح له بعد زمان شيء من الاختلال راجع فيه النظر وهذب به غاية ما يمكنه وكذلك لا يهتم به مَنْ حسن فيه ظنّه، وإنما يهتمه إذا عجز عن فهمه ولم يهتم فيه نفسه بالتقصير، فحينئذ ينسب إلى القائل إساءة الصناعة وذلك إذا كان الكلام من مخلوق، فإذا كان من الخالق تعالى وتقدس وهو محفوظ ومرتب على غير ترتيب النزول، وألقاه الملك الأمين إلى نبي كريم فصيح اللسان من قوم مشهورين بالفصاحة والبيان، وقد قرأ عليه، ولا شك أن حسن الشيء ونفعه مودعان في تناسب أجزائه لا سيما الكلام البليغ، ولا سيما إذا تحدّى به البلغاء فعجزوا عن الإتيان بمثله ولو بسورة واحدة فلا أدري كيف يظن به ظانّ وهو من المسلمين المؤمنين بالله وتنزيهه أنه خالٍ عن حسن النظام؟¹

ثم يقول إنَّ حسن الترتيب من أكبر محاسن الكلام البليغ، ونحن نؤمن بإعجاز القرآن، فهل نرضى بأن يكون عارياً عن حسن الترتيب؟ وكيف تترك النظر في فهم رباط معانيه، واعتناق بعضها ببعض وإتقان ترتيبها ألا تراك لا ترضى بأن تجعل كلام عاقل ورزين خالياً من ترتيب فيه؟ وربما يحط عندك قدر خطيب مصقع أتى بفنون من البلاغة وأثر في النفوس بخلافة بيانه لمحض أنه ذهل عن ربط الكلام، فهام من واد إلى واد، وهو معذور بأنه ألقى الخطابة عفواً ولم يعمل فيها النظر والرواية، وليس ذلك إلا لأن الكلام البليغ لا يحتتمل سوء الترتيب، فإن كان الأمر كذلك، أليس على الموقن بإعجاز القرآن أن يثبت حسن نظمه وإحكام ترتيبه² ثم يقول إنَّ التركيب هو أصل ماهية كل شيء. وحقيقة وجوده، فكَّ عنه التركيب، ينقلب كأنه لا شيء. ولذلك ليست الصنعة وكلها إلا في صحة التركيب وإنما يمدح الصانع أو يعاب حسب إتقان التركيب أو ضعفه وكذلك كل عمل وتديير. فإن تبينت ذلك التفت إلى موضع التركيب في الكلام. فإنه شيء مؤلف ركب بعضه ببعض، ولم تصر ذا معنى إلا بعد

¹ المصدر نفسه، ص 22

² المصدر نفسه، ص 39

تركيبه فإنما هي الصورة التركيبية ما دلّ على معناه، ألا ترى ذلك عياناً في اللفظة الواحدة، فإنما صارت كلمة ذات معنى بما وضعت حروفها على ترتيب خاص؟ وكذلك الحال لتركيب الكلمات في جملة. فإنها لم تصر ذات معنى خاص إلا بما وضعت كلماتها على تركيب مخصوص. وهكذا الأمر في تركيب الجمل حتى تصير كلاماً حسناً أو حديثاً عجباً أو حجة دافعة أو كلمة بالغة مشتملة على فنون البلاغة وأطراف البراعة. ولا شك أنّ تركيب الكلمة بالكلمة يفيد معنى، ولكن أين ذلك من معنى يعطيك تركيب الجملة وكذلك مجموعة من الجمل يتضمن تأليفاً آخر له دلالة على ما لا يدلّ عليه أجزاء هذا التأليف من حيث الانفراد، فلا شك أنّ الكلام إنما هو بنظامه، فإنه يحسن أو يبلغ أقصى البلاغة لا يخص أجزاءه بل بنظمه وترتيبه على ما ينبغي فن أراد أن يطلع على حسن بيانه وقوة استدلاله، وتأثيره في النفوس، ودلالته على مكنون الحكمة، لا بد أن يتلّس ذلك من معرفته بتركيب جملة فإنّ ذلك حصل للكلام من مواقع معانيه وترتيبها.¹

الأمثلة على النظام القرآني: وبعد ما تكلم الفراهي عن النظام والربط في القرآن الكريم ودعم نظريته بالأدلة النقلية والعقلية، جاء بأمثلة كثيرة لتوضيح فكرته، فيقول عن نظام سورة المائدة: "إنّ الله تعالى ذكر فيها ما أحلّ من المشاكل ثم من المنائح ثم الوضوء، فهنا أمران؛ الشيء وشرط الشيء، فذكر من الشرائط ما يتطهر به، فالذبح طهور للبهائم والمهر وقصد الإحصان طهور للنساء، والوضوء طهور للصلاة ثم هدى الله إلى هذه الحقيقة فقال في آخر الآية "مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدُ لِيُظْهِرَكُمْ لِيَلْتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ".² أما الشيء نفسه فهنا ذكر ثلاثة أشياء طبيّات؛ الطعام والنساء والصلاة، فإن تدبّرت علمت أنّ هذا العالم عالم الفناء والكون فالشخص والنوع والروح ثلاثة عوامل، فحبر اضمحلالها بالطعام والنكاح والصلاة، هذه هي الحكمة في ذكر هذه الأشياء، أما المناسبة بينها والنظام فإنهما في

¹ المصدر نفسه، ص 19

² سورة المائدة: 6

تخصيص محل النكاح والطعام حتى أن تنزل آيتها على صورة واحدة.¹
كذلك المناسبة بين النكاح والصلاة من جهة أخرى، فالنكاح وازع عن التدنس
والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم انظر المناسبة في هذا المثال بين النكاح والصلاة
من جهة الطهور وفي سورة البقرة من جهة التخفيف حيث قال "حَفِظُوا عَلَى
الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَنَّتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا"².
فالحفظ على النكاح واجب حتى الوسع ثم فيه بعض التخفيف فكذلك في الصلاة.

وقال عن نظم سورة "والضحى": إنَّ ازدياد النور بعد الظلام، ثم ازدياد الكلام
بعده، شهد بأنَّ هكذا طريق الرب بعباده مما ودعك للأبد ولا سخط بك إذا كثرت الشر
في أمتك وقلَّ برهم فلا شك أنَّ آخر أمركم خير من الأول وعن قريب يزيد أمتك
حتى تقرَّ عينك، كما وقع بعد فتح مكة وهكذا يكون في آخر الزمان كما قال عليه
السلام: أمتي كالمطر، لا أدري أولها خير أم آخرها.³ وهذا كما قال: "وَالسَّابِقُونَ
السَّابِقُونَ ﴿٥١﴾".⁴ وقال: "ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾".⁵

وقد جعل الله حالك مرآة لحال أمتك، وجدك يتيماً فأواك، ووجدك على غير بينة
من أمرك لا تدري ما تفعل؟ فأنزل عليك الوحي، ثم وجدك فقيراً فأغنك وهكذا
تكون أمتك تصير يتيماً وتضلل في أمرها لا تدري ما تفعل؟ كما قال تعالى في بيان
سنته: "نَسُوا اللَّهَ فأنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ"⁶، وكذلك "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا

¹ إشارة إلى التشابه التام الذي يوجد بين الآية "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ"، سورة النساء: 24

و"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ"، سورة المائدة: 3

² سورة البقرة: 238-239

³ مقدمة نظام القرآن، ص 20

⁴ سورة الواقعة: 10

⁵ السورة نفسها: 14

⁶ سورة الحشر: 59.

الصلوة وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾¹. وكذلك: "فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ"²، فكهذا هذه الأمة تضلّ بعد مرور الزمان وتصير لا مأوى لها، وتسلب غناها، فإذا وقع عليهم هذا البلاء فما دواؤه؟ فهدانا بمرآة النبي، وخاطبه لنعلم ما نفعل فقال: "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾"³ فهذا دواؤنا.

وأما الحديث بنعمة ربك فهو ذكر أنعامه علينا فلا نياس ونرجو ذهاب الشر وأيضاً نصلي كثيراً، فإن الصلاة جلّها الشكر، وأيضاً نسعى في إشاعة العلم والدين فإنّ النعمة التي أعطانا الله وربط بهما نعماً أخرى. وتعليم القرآن تحديت بالنعمة المذكورة في قوله تعالى: "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾".⁴

الردّ على مَنْ قال إنّ النظام لما كان ثابتاً فلم سكت عنه الصحابة؟: قال الفراهي إن سألتني أنّ النظام إن كان كما وصفته بجلالة الشأن وعظم النفع ودقة المسالك فلم سكت عنه الصحابة ولم يبينه النبي صلى الله عليه وسلّم؟ فاستمع هداك الله أنّ مواقع الآيات ومواردها كانت أبين شيء عند الصحابة فإنها كانت على حسب حالاتهم وما بين أيديهم من الأمور فلو كما في ذلك العصر لما خفي علينا نظامها ومثل ذلك سبب لقلة التفسير عنهم، فإنّ اللسان لسانهم والأسلوب أسلوبهم والأمور أمورهم فلا نشاركهم في ذلك ولكن في تصريف القول وفصل الخطاب وسوق البرهان لنا دلالات على ما وراءه، وتخرج منه لامعات لمن قلب الطرف في أطرافه.⁵

هذا هو جواب الإمام الذي في مكانه قوي ودقيق ولكن أريد أن أزيد عليه فأقول إنّ مثل هذا السؤال يظهر سطحية السائل، وجهله فالله الذي خلق الإنسان على أحسن

¹ سورة مريم: 59

² سورة الحديد: 16

³ سورة والضحي: 10

⁴ سورة والضحي: 7، دلائل النظام، ص 110

⁵ مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 7

تقوم، وجعل الكون على غاية تنسيق وتنظيم ليس فيه تفاوت واقتضاب "مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۗ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝" ¹ "وَصُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝" ² فلم يزل كتابه مرتباً ومنسقاً رغم أن الترتيب من شروط الكتاب وعناصره الضرورية، ولذلك لم يكن هناك عن الصحابة داع أن يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجه الاتصال بين آيات القرآن وسوره لأنّ الكتاب لا يطلق عليه اسم الكتاب إلا أن يوجد بين أجزائه كلها ترتيب ونظام يربطها في سلك واحد والقرآن يقول عن نفسه إنه كتاب مبين فكيف يكون كتاباً مبيناً ما دام يتناقض بعضه مع بعض ولا يوجد في أجزائه انسجام وتآلف؟ وكيف ثبت لشيء من مثلك الإعجاز الذي اعترف بالعجز أمامه بلغاء العرب وفصحائهم واستلموا له؟ أعلى هذا الاقتضاب وعدم التناسب؟ أما الذين قالوا إنّ القرآن لو نزل على مثال الكتب في الترتيب والتبويب وكان فيه الربط والتناسب لكان كتاباً وضعياً لا سماوياً فالترتيب والنظام خاص للكلام البشري وليس ضرورياً لكلام الله سخافة قوهم هذا لا تستحق أن يضيع أحد وقته في الرد عليها فلا أدري أنهم كيف يقولون إنّ كلام الله بليغ ومعجز مثل البلاغة والإعجاز، عبارة عن شرّ الترتيب وعدم الانسجام ليتهم يفقهون فتعالى كلام الله عن ذلك.

كيف نهتدي إلى معرفة نظام القرآن؟ إنّ الفراهي لم يكتف ببيان أهمية النظام في القرآن وضرورته لفهم معانيه وحكمه وبلاغته بل وضع أصولاً إذا التزمها قارئ القرآن فلن يخفى عليه نظامه وحسن ترتيبه وقد استخرج الإمام هذه الأصول كلها من نفس الكتاب العزيز فالقرآن الكريم كما يفسّر مطالب آياتها بعضها ببعض فكذلك يدلّ على نظام مطالبها ومناسبتها³ فأريد هذا أن أعرض بعضها لتكميل البحث.

¹ سورة الملك: 4

² سورة النمل: 88

³ دلائل النظام، ص 71

1. العمود: يقصد الإمام الفراهي بالعمود العنوان الرئيسي لسور القرآن فمعرفة تؤدي إلى معرفة نظام القرآن وانسجامه ولذلك نراه يعتني بالغاً باستخراج العمود من كل السور ويختار لها الأسماء التي تلائم مطالبها ولم يعتمد الفراهي في استخراج العمود على كتب التفسير بل تدبر القرآن حتى تدبره ونظر في معانيه وأهدافه نظر المطلع والخبير فهدها هذا التدبر إلى معرفة العمود ثم النظام فيقول: "إن تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها ولكنه أصعب المعارف ويحتاج إلى شدة التأمل والتحصيل، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة المتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح فيضيء به ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص ويتعين من التأويلات المحتملة أرحمها وإنما صعب ذلك لوجه نذكر بعضها هنا:

الأول: إن القرآن إنما نزل متشابهاً مثاني، فترى سوراً متشابهة المطالب مع اختلاف عمدتها، ومتحدة العمود مع اختلاف المطالب، فن لم يقم بإجالة النظر في مطالبها مرة بعد مرة وجمعها تحت عمد مختلفة- فإن الشيء الواحد يدخل تحت كليات مختلفة حتى يتبين له من بينها ما هو الأرجح- كان كسالك سبيل بلغ مجتمع الطرق فضلًا، فكلمها ذهب بعد عن مستقيمتها.

والثاني: إن الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب لواجبات العقائد والشرائع، فكذلك أنزله لتعليم الحكمة وجعل ذلك من أخص صفات نبينا صلى الله عليه وسلم، وبذلك جعله خير المعلمين وأعطاه من الآيات ما تكون أكثر اتباعاً وأكمل تعليمًا.

ولا يخفى أن تعليم الحكمة لا يتأتى بإلقاء المعارف، وإنما يتأتى باستعمال الفكر والعقل وحثه وتنبهه على النظر حتى يبرز قواه الكامنة كما هو الأصل في كل تربية فعلى هذا كما جعل القرآن جانباً منه ظاهراً بيناً فكذلك جعل جانباً منه باطنياً مكنوناً، ولكي يهتدوا إلى بطونه جعل الباطن على مدارج لكي يرتقي المجتهد في درجاته من الأقرب إلى الأبعد فإن التربية لا تتم بدون ذلك.

والكلام إذا كان منظماً من جهته الظاهرة ولم يحتج الناظر فيه إلى تأمل ولكن إذا كان اتصاله تارة ظاهراً وتارة خفياً توقف الناظر وتأمل فيه فإنه كيف يرضى بالحلل الفاحش في كلام الحكيم العليم. ولذلك آمن من آمن بالنظام.

ثم جعل الله تعالى ما أخفى من النظام على مراتب فجعل أكثر على غاية البطون وإذ جعل النظام من أكبر ما يحثّ به على النظر والتأمل، أخفى العمود فلو خرج بالعمد لم يبق كبير مشقة في فهم النظام وإذ خبّاه الله ليمتحن به العقول، لا بد أن يكون صعب المطلاع، فكأنه وضعه مناط الثريا.

والثالث: أن الله تعالى لمثل المصلحة التي ذكرنا آنفاً، جعل القرآن على نهاية الإيجاز، ومع ذلك ملاءمة كلاً جملة فلكثرة المطالب العالية والأطانب الغالية يتخير الناظر فيه ويصعب عليه أن يصطفي من بين معانيه معنى واحداً كالعمود كمن يطلب من بين الجواهر واسطة للعقد ومن غاية الحسن كلها يروقه، فلا يدري أيها أولى.¹

ولم يكتف الفراهي ببيان أهمية العمود لمعرفة نظام القرآن بل جاء بأمثلة متعددة لتوضيح فكرته فطريقته في تفسير القرآن أنه يعين أولاً عمود السور حتى يتضح له الهدف الذي تستهدف إليه السورة ثم يفسر مطالبها ومعانيها وأحكامها، وأنه يتبع هذه الطريقة في كل سورة من سور القرآن. فأريد أن أعرض هنا بعض الأمثلة من تفسيره: يقول عن عمود سورة الفاتحة إنها "جامعة لمطالب القرآن كلها ومعانيه،² وهي التوحيد والرسالة والمعاد فكما أنها جامعة لمطالب القرآن الثلاثة، فكذلك هي جامعة له من جهة نظامها أيضاً فإنك إذا تلوت الفاتحة تجلت لك جملة القرآن حسب نظامها فمثلها كمثل مرآة صغيرة تريك شيئاً عظيماً في هيئته وصورته.³

¹ المصدر نفسه، ص 77-79

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 41

³ دلائل النظام، ص 93

ويقول عن عمود سورة البقرة: إنه الإيمان المطلوب وهو الإيمان ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، أو هو إنجاز لعهد الله تعالى بخليته إبراهيم عليه السلام، ولما كانت الفاتحة جامعة لمطالب القرآن على غاية الإيجاز أتبعها سورة تفصل تلك المطالب فإن التفصيل بعد الإجمال هو الأسلوب الأوفق بالتعليم، وهو المرعي في القرآن كما قال تعالى: "كَيْتَبُ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾".¹ بل هو المرعي في تنزيل الكتاب كله فإن المتأخر إنما جاء بتفصيل ما تقدم حتى جاء القرآن مفصلاً للكتب السابقة بأسرها. فأما كون هذه السورة جامعة مفصلة لمطالب الكتاب فإنها تشمل على حقيقة الإيمان وأصول أدلة التوحيد، النبوة والمعاد وعلى تفاصيل العقائد، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ويوم الآخر، وصفاته تعالى من العلم والقدرة والعدل والحكمة والرحمة والربوبية، وعلى أصول العبادات من الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وعلى أصول السياسة من الخلافة والجهاد والعلم والطاعة، وحفظ النفوس، والأموال، وعلى أصول التمدن من حقوق النساء واليتامى والبيع، التدوين، وعلى أصول الآداب من المداراة، والفضل، والتعفف، واجتناب الأرجاس، من الخير والشر وغيرها، ومما ذكرنا يتبين موقعها في أول الكتاب بعد الفاتحة، وأما موقعها قبل سورة آل عمران فلكونها متشابهتين غير أنه فصل في الأولى جانب العلوم وفي الثانية جانب العمل مع الاتحاد في المطالب.² ويتعبير آخر أن البقرة سورة الإيمان وآل عمران سورة الإسلام، فالإسلام هو الجانب الظاهر من الإيمان.³ ويقول عن عمود سورة الحجرات إنه: التوبيخ على سوء الخلق ظناً وقولاً وعملاً فتهى عن التقدم بين يدي الرسول ورفع الصوت فوق صوته والجهير له كجهير بعضهم لبعض ونداءه، والثوب على قوم بقول كل فاسق، وأمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين وبالعون على الباغي ثم بالعدل بينهما ثم نهى عن السخر من الناس

¹ سورة هود: 1

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 31

³ دلائل النظام، ص 93

ولزهم والتنايز بالألقاب وسوء الظن والنجس والفخر بالنسب وتركية النفس، وأقبحها أن يمنّ أحد على النبي بإسلامه.¹

1. لحذف: اعلم أنّ كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم الذي جميعاً غير العرب ولأنهم مولعون برزانة القول وتهذيبه من أمور لا داعي لها يمكن فهمها لأصحاب التفكير والتدبير فهم يجردون كلامهم من كل رابطة ولو فعلوا ذلك كان عاراً على السمع فإنه يفهم الروابط بذكائه فلذلك كثر فيهم الحذف. كان كلامهم قد وضع حسب اقتضاء الفكر والفهم، فترى كلامهم مربوطاً برابطة عقلية. وعليك أن تميز بين الروابط من كل قسم فإنهم لا يصرحون بها.²

ثم يتكلم عن معنى الحذف فيقول: الحذف إسقاط الفضول عن القول. والفضول ما يفهم الكلام بدونه ويتأثر به المستمع، فإنّ الغرض من الحديث ليس إلا الإفهام والتأثير، وكما زاد على هذين أذهل وأبعد وأثقل.³ وإذا إنّ المستمع على مراتب متضادة من الذكاء والتأثر، اختلفت الألسنة في قدر الحذف. أما العرب فلذكائهم وتوقد أذهانهم، كان أنجح الاقوال عندهم ما قلّ وكفى، فإن كان الكلام لم يهدّب عما لا يعني شيئاً، سقط عندهم وسُمّ سمعهم بالمسهب فإنهم يعتبرون الذي يجيء في كلامه الفضول أو الحشو أو الزيادة إما أحمق أو يحمق المستمع فكان أمر الحذف في كلامهم من بعض سبحاهاهم وكأنهم طبعوا عليه فلذلك تراهم يكثرون الحذف في الكلام.⁴

والقرآن قد نزل بلهجة قريش التي بلغت الذروة من البلاغة والفصاحة، فكان عليه أن

¹ مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 18-19

² المصدر نفسه، ص 65

³ أي أنّ الكلام يهدف إلى الإفهام والتأثير في السامع فإذا ازداد المتكلم على الإفهام والتأثير ثقل الكلام على السامع فيعلمه ويستنفر عن الاستماع إليه ولذلك يكتفي بالبلغاء بالكلمات التي تؤدي إلى هذا الغرض وتثير في السامع التشوق إلى الاستماع والتأثر به.

⁴ كتاب الأساليب (أساليب القرآن)، ص 8 (مخطوط)

يسلك مسلكتهم في التعبير والتصوير مع التحدي بالإتيان بمثله والعجز عن مضارعتة. ولكن المفسرين لم يتأملوا في أساليب كلامهم فلم يدركوا مواقع الحذف في القرآن ولذلك فقد وقعوا في غلطات فاحشة، فإنهم لو تدبروا كتاب الله وأدركوا مواقع الحذف لما أخطأوا في تفسير مطالبه ولما خفي عليهم نظام القرآن الذي هو ميزته الكبرى. فهذه الاحتمالات الكثيرة التي نراها في كتب التفسير نتجت عن عدم معرفة المفسرين بالحذوفات فإنهم يعتبرون الحذف من ضعف الكلام وردائه قياساً على قولهم وأساليبهم.¹

فهذه الأصول التي وضعها الفراهي لمعرفة نظام القرآن لا تجدي نفعاً بدون التدبير الحقيقي في كتاب الله فإنه من أهم الوسائل في هذا الصدد يقول الفراهي: كما أنّ النظر في أشتات أمور العالم من غير تأمل في تناسب بعضها ببعض يعمي عن الحكمة التي فيها ويحمل على الإنكار بالمدير الحكيم فكذلك من قصر النظر على الحوادث الخارجية أو الوقائع التاريخية ولم يتفكر في عللها وآثارها في النفوس، لم يهتد لما فيها من المنافع ورعاية الحكمة فهؤلاء إما ذهبوا إلى الإنكار بالإله مطلقاً وإما إلى ما هو قريب منه، وهو القول بالجبر، ونفي رعاية المصالح، فإن ذلك يتضمن إنكاراً بالرحمن الرحيم.

فكما أنّ النظر في الأنفس والآفاق ومجاري أحوالها على قسمين: فكذلك النظر في كتاب الله المتلوّ فمن نظر في مطالب الآيات على حداثها ولم يتأمل في مناسبتها بعضها ببعض عميت عليه الحكمة وحسن نظامها من جهة البلاغة والاستدلال، بل لم يجد محرّجاً عند احتمال المعاني، بل ربما اختار التأويل الباطل لما تعلق به بعض رأي زائع أو مذهب مرجوح أو عقيدة فاسدة فكان في ظلماتها بعضها فوق بعض، وأشد وأفظع من كل ذلك أنه يفتح للمبطلين والمبتدعين أبواباً لتأويلاته الفاسدة، فترى منهم من يأول القرآن فيضللّ الناس بحض رأيه أو يعني نفسه أنه أعلم بحقائق الأمور

¹ دلائل النظام، ص 66

وأسرار الدين، ولكن من تدبير القرآن ونظمه الحكيم، اطلع على حسن نظامه وإعجاز بلاغته ودقائق حكمته، وفتح عليه باب عظيم من المعاني، وكان على نور عند احتمال التأويلات فاختر ما هو الحق الواضح ولم يتمم في نبذ الباطل.¹

هل نجح الفراهي في إثبات النظام في القرآن؟ وسأل سائل قرأ المباحث المتقدمة قائلاً: قد قرأت ما أسلفت من القول وجمعت من الأدلة ما يؤكد أنّ القرآن الكريم منسجم ومنظم غاية الانسجام والتنظيم لا يوجد في آياته وسوره شيء من التشتت والانفكك فهل نجح صاحبك الفراهي في إثبات هذا الانسجام والتآلف أو اكتفى بهذه الدعاوي فحسب؟ فقلت رداً على سؤال السائل: نعم، ولكن قبل أن أقوم بالإجابة عن سؤالك أحب أن أشكر لك لأنك قد نبهتني إلى ناحية مهمة لا يكمل البحث بدون ذكرها. فكثير من المفسرين القدامى قد تعرضوا لإظهار النظام والربط في كتاب الله ولكن قد جانبهم التوفيق حينما حاولوا إثباته فعلياً ففتحو- معذورين- باباً للطعن في كتاب الله الخالد المعجز ولكن صاحبي الفراهي كما صاحبه التوفيق في استخراج الأدلة على نظام القرآن فكذلك وفق في إثباته عملياً إلى حد كبير. ولا أقول ذلك حباً للفراهي لأن البحث والتحقيق لا سبيل إليهما للحب الأعمى رغم أنه من أحب الشخصيات الإسلامية إليّ: لأنه دعا إلى الله ودينه حينما أصبحت الدعوة إلى الله معرفة. وفتح طريقاً سليماً واضحاً لفهم القرآن وتديره حينما كان يقرأ في الأديرة والمساجد وليس له حق التدخل في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك من الميادين الأخرى. فقف معي هنية ندرس بعض تفسيره حتى يتيسر لنا الحكم على نجاحه في إثبات النظام والربط في كتاب الله العزيز. وقلت للسائل المحترم هل أنت تختار بعض الأمكنة من تفسيره للدراسة أو أنا فقال لك أمر الاختيار لأنك قد درست تفسيره فتعرف الأمكنة التي تبين من دراستها مكانته

¹ المصدر نفسه، ص 41-42.

فقلت له، وهو كذلك تعال فاختر أولاً تفسير سورة الذاريات ثم ندرس تفسير سورة القيامة لأنهما من أصعب سور القرآن من ناحية النظام والربط.

يقول الإمام الفراهي في فاتحة تفسيره لسورة الذاريات: إن هذه السورة هي السورة الثانية من جملة السور السبع التي ثبتت الرسالة والقرآن من جهة كونه خبراً عن الجزاء ونذيراً لمن أشرك بالله وكذب برسله وما أنزل معهم، فعمود¹ هذه السور كلها أمر واحد ولكن من جهات مختلفة فنذكر هنا من جهات ذلك العمود ما يخص بهذه السورة وما يبين الفرق بين هذه والتي قبلها² ثم قال: إن في السورة السابقة (ق) إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه، وفي هذه السورة إثبات الجزاء فبدأ السابقة بقوله: "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَعْدَاً مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾" ثم أتبع ذلك استدلالاً على البعث وأشار إلى عاقبة المكذبين فقال تعالى: "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَنَمُودُ ﴿٤﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٥﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿٦﴾" ⁴ ولم يفصل قصصهم بل اكتفى بالإشارة إليها وذكر الدلائل الفطرية الواضحة على البعث وختم السورة بأمر النبي بالصبر والصلاة والتذكير وجعل آخرها قوله: "يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سِيرٌ ﴿٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٨﴾" ⁵

أما هذه السورة فلها جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها وصرح

¹ العنوان الرئيس للسورة.

² تفسير سورة الذاريات، ص 1

³ سورة ق: 1-3

⁴ السورة نفسها: 12-14

⁵ السورة نفسها: 44-45

بها حيث قال تعالى بعد إيراد الشهادة: "إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُوا ﴿٦﴾".¹ وهذا الوعد والدينونة كلاهما يعمّ الرحمة والنعمة فإنّ الوعد قد جاء بكليهما وكذلك لفظ الدين عام فإنه إيفاء كل ذي حق حقه وبحسب هذا العموم جاء ما بعد ذلك فإنّ الله تعالى ذكر فيها من القصص ما فيه جهتان كما قال: "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢١﴾".² ف"مَا تُوعَدُونَ" يعمّ الجهتين وبعد ذلك قال: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيَّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢١﴾".³ فهذا الحديث هو البشرى بإحياء قوم وإماتة قوم ولما جعل في هذه السورة الإنذار ذكر وقائع إهلاك الأمم ولكن في كلها عذاب ورحمة وإنما لم يذكر جانب الرحمة بالتصريح في هذه القصص وعقد عليها سوراً آخر حيث ذكر نجاة المؤمنين في كل هذه القصص ولذلك بعد إيراد الوقائع المنذرة أشار إلى أصل ذلك وهو أنه تعالى وحده الخالق لكل شيء بقوة وحكمة فجعل الخلق زوجين لإتمام الفائدة فلم يخلق عبثاً ولا ترك خلقه سدى فلا بد من الأجل لإتمام الغاية ولا بد من النعمة لأجل الرحمة فدعا إلى التوحيد على وجه خاص يدلّ على الجزاء والدينونة.⁴

وضع الإمام الفراهي قواعد وأصولاً لتفسير القرآن بالقرآن وأنه لا يعتمد على ذوقه الخاص بل كل ما يقول يأتي له بالأدلة والشواهد حتى تقتنع به عقول الناس وهنا أريد أن ألقى نظرة خاطفة على ما وضع لهذا النوع من التفسير من الأصول والقواعد، ثم آتي بالأمثلة التي تبين طريقتة ومدى نجاحه في هذا المجال. فيحدث رحمه الله بأنّ القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالاً وأخرى تفصيلاً، فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر. وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ ولكن قلّ استعمال هذا الأصل وذلك بأنّ طرق الدلالة على المعاني

¹ سورة الذاريات: 4-5

² السورة نفسها: 22

³ السورة نفسها: 24

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة الذاريات)، ص 2

غير محصورة، فربما تدل آية على معنى يكون دليلاً على معنى في آية أخرى وربما يدل اقتران آيتين أو جملتين على معنى خفي بعض الخفاء فإن بينا طرق هذه الدلالات تيسر استعمال هذا الأصل¹ ويفسر هذا الأصل الذي ذكره فيقول إن القرآن كثيراً ما يترك مجملاً ما فصله في مقام آخر والمعنى يفهم من غير أن نحتاج إلى تفصيله من نفس الكلام، مثلاً في أواخر سورة الأنفال جاء "إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" وبعد ذلك جاء "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" فلم يذكر "بأموالهم وأنفسهم" وهو مفهوم. ثم جاء بعد ذلك "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ" فلم يذكر "في سبيل الله" ولا "بأموالهم وأنفسهم" ولكن ذلك مفهوم، وقد دل عليه "معكم".

وهذا باب واسع يهدي إلى كثير من المعاني. مثلاً جاء في أوائل سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾".

فهننا من "الَّذِينَ كَفَرُوا" مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وصفاته من العدل ولذلك كفر بالجزاء وفهمنا من "لَا يُؤْمِنُونَ" أنهم لا يصيرون مؤمنين ومهتدين بهذا الكتاب. وذلك مما سبق من قوله تعالى: "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ" أي: يؤمنون قبل يوم الشهود، فالذين كفروا هم ضد هؤلاء. وقد ذكر عيون صفات المؤمنين فيما سبق حتى قال: "أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾" ثم ذكر الذين هم مخالفون لهؤلاء.

وإنما دعانا إلى هذا التأويل أن المبتدأ والخبر لا بد من الفرق بينهما ثم وجدنا في السياق ما يستكشف عن المفهوم ثم التمسنا نظائر هذه الآية فوجدناها موافقة لما فهمنا

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 32

وذلك أوائل سورة يس.¹

وأيضاً قوله تعالى: "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٥٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبِرِهِمْ نُفُورًا ﴿٥٦﴾". فأخبرنا القرآن بأن من أشرك بالله وأنكر بالآخرة لا يسمع ولا يفقه القرآن ويتنفر منه.²

ولزيد من التوضيح يقول الإمام الفراهي إن آية "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٦﴾" واضحة في تعيين بعض الأوقات: فقد قال الله تعالى في موضع آخر: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٦﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبِرَ السُّجُودِ ﴿٤١﴾" وقال في موضع آخر: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْكُجُومِ ﴿٤١﴾" وقال في موضع آخر "فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٧٨﴾" وقال في موضع آخر: "فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿٣٧﴾". وقال في موضع آخر: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ" ⁸ وقال في موضع آخر: "أَقِمِ الصَّلَاةَ

¹ يشير إلى الآيات الواردة في سورة يس وهي "لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٥٥﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهِمْ آغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٦٠﴾".

² التكميل في أصول التأويل، ص 53-54

³ سورة غافر: 155

⁴ سورة ن: 39

⁵ سورة الطور: 48

⁶ سورة الروم: 17

⁷ سورة طه: 13

⁸ سورة هود: 114

لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسْقِي اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾¹

ومن النظائر التي تميز لنا التشابه بين آي القرآن الكريم قوله تعالى: "خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ"² في الموت زاجر وواعظ وفي الحياة جالب إلى الذات، والابتلاء لا يكون إلا بها فلولا الشهوات لم يغفلوا ولم يضلُّوا ولولا الموت لم ينتبهوا ولم يستعدوا لما بعد الموت وقد هديت إلى هذا المعنى ثم لمح لي نظيره وهو قوله تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٧٨﴾"³

وثانياً- طريقة الفراهي في تفسير القرآن بالقرآن: فقال الفراهي في تفسير آية من سورة الذاريات "فَتَوَلَّىٰ بُرْكُنَيْهِ" أي: أعرض إنكاراً واستكباراً. فالركن هنا هو المنكب والباء للتعدي كما قال تعالى: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ"⁴. ويشبه هذا المعنى قوله تعالى في قصة فرعون وقومه: "فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا"⁵

فلم يكن إنكارهم من شكٍّ فإن الآية كانت مبصرة. ولكنهم استكبروا وحجَّجوا بها ظلماً وعلواً.⁶

ويقول في تفسير قوله "يَتَأْتِيهَا النَّجِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ" يتضمن أشد التبليغ ليتوب منهم

¹ سورة الإسراء: 78

² سورة الملك: 2

³ سورة الكهف: 7-8

⁴ سورة الإسراء: 83

⁵ سورة النمل: 14

⁶ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 26-27

مَنْ فِيهِ أَدْنَى الْإِسْتِعْدَادِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ قَدْ جَاءَتْ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ بِعَيْنِهَا وَبَعْدَهَا: "يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾".¹

فترى أنّ الغلظة لأجل أن يتوب منهم من يتوب ثم يبقى من حقت عليه كلمة العذاب والكلام على أنّ الغلظة لأجل التوبة تجذب مبسوطاً في سورة التوبة فلم تكن هذه الغلظة إلا لتلخيص الخير من الشر وذلك ربما يكون بالغلظة كما أنه يكون باللين وقد ضرب الله لهما مثلاً حيث قال: "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا (فهذا مثل استعمال اللين) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (أي: يضرب بعضه ببعض فينكسر الباطل) (كما قال "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ" (وهذا مثل استعمال الغلظة) فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧٥﴾".³

ففي هذا التلخيص تنقطع علائق القرابة وأسبابها ويفصل المرء من أمه وأبيه وصاحبه وبنيه وذلك هو التطهير كما قال تعالى: "وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا".⁴

والإمام الفراهي في شرحه للآيات القرآنية تنعكس شخصيته الأدبية ومكانته البلاغية كما تظهر سعة اطلاعه على مطالب القرآن التي تنتشر في جميع صفحاته، وهذا يدل على أنه درس القرآن دراسة جديّة فتعمق فيه وحصل له الذوق الخاص، فيقول عند

¹ سورة التوبة: 74

² سورة الأنبياء: 18

³ سورة الرعد: 17

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة التحريم)، ص 21-22

تفسيره لقوله تعالى: "ظَلَّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ" في سورة المرسلات.

إنه يصور جهنم مقبلة إليهم بشعب دخانها من ذوات العقول وقد جاء في القرآن تصويرها هكذا مثلاً في قوله تعالى: "وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾".¹ وأوضح من ذلك قوله تعالى: "يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٢﴾".² ومنه قوله تعالى: "إِنَّهَا لَطِي ﴿١٤﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوْىِ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مِّنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾".³

والظاهر من ثلث شعب شدة وهيجان النار فقط ثم للتدبير مجال في التأويل. وذلك أن أصل الكفر ثلاث خصال؛ الذهول عن الخالق تعالى وعدم المساواة للمخلوق والإنكار بيوم الدين، كما هو مبسوط في موضعه فنكتفي ببعض الشواهد مثلاً ما جاء في ذكر سؤال أهل الجنة أهل النار "مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿١٤﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوبِينَ ﴿١٣﴾ وَ لَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَيْسَكِينَ ﴿١٢﴾ وَ كُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿١٥﴾ وَ كُنَّا نُكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٦﴾".⁴ والمراد بالخوض هنا تكذيب القرآن وكان أهل ذلك إخباره عن يوم الدين وهكذا قوله تعالى: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾".⁵ فبحسب هذه الثلاث من خصائصهم تخرج ثلاث شعب من جهنم وتقبل السهم وتطل عليهم كالمظلة والله تعالى أعلم ثم ذكر الإمام الفراهي ما جاء في بعض الروايات بصدد هذه الخصال المتقدم ذكرها. فقال: روي عن أبي عبد الله الجدلي قال: أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر وكعب الأحبار يتحدثون في بيت

¹ سورة الفرقان: 11-12

² سورة ق: 30

³ سورة المعارج: 15-17

⁴ سورة المدثر: 42-46

⁵ سورة الليل: 5-10

المقدس فقال عبادة: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، ويقول الله: "يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْقُضَلِّ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾"¹ لا ينجو مني جبار عنيد ولا شيطان مرید فقال عبد الله بن عمر فإننا نحدث يومئذ أنها تخرج من النار فتنتقل حتى إذا كانت بين ظهرائي الناس نادى إليها الناس: إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الأب بولده، ومن الأخ بأخيه لا يغيهم عني وزر ولا يخيفهم عني خافية، الذي جعل مع الله إلهاً آخر وكل جبار عنيد وشيطان مرید فتطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة.² يقول الفراهي بعد نقل هذا الحديث: لعل ما ذكر من ثلاث فرق أخذه من قوله تعالى: "الْقِيَامَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٤١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٤٢﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفَيْتَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٤٣﴾".³ ولنتأمل في تبين الصفات التي ذكرنا أي ذم الماوسة بالخلق والإنكار بالآخرة والذهول عن الرب تعالى فإن الشرك من ذلك الباب.⁴

هل في القرآن آيات معضلات: إن بعض الائمة أو الفقهاء لما يفوتهم فهم بعض آيات من الذكر الحكيم يحكمون عليها بأنها "معضلة" فهل هذا الحكم صحيح؟ كلا! لأن القرآن الكريم يصف نفسه بأنه كتاب مبين لا غموض فيه ولا إبهام، فإن لم نفهم بعض آياته ولم ندرك معانيها فسبب ذلك راجع إلى قصور عقولنا لا إلى أن كتاب الله مبهم ومعضل. ونستطيع أن نوضح هذه المشكلة بالمثال فثلاً الطفل الذي يدرس في المراحل الإعدادية هل له الحق أن يحكم على كتاب من كتب الأدباء بأنه غامض لأنه لا نفهمه؟ وهكذا عقولنا أمام أسرار كتاب الله الكريم كعقول الأطفال أمام

¹ سورة المرسلات: 38-39

² أخرجه ابن أبي حاتم

³ سورة ق: 24-26

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة المرسلات) ص 15-16

كتاب أدبي بل أقلّ منها بكثير، فكيف يجوز لنا أن نقول بالنسبة لآية من آياته البيّنة بأنها معضلة؟ يقول الشيخ محمد الغزالي معلقاً على تفسير العلامة الألوسي بقوله تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا" ¹ الآية من معضلات القرآن ² يقول الشيخ الغزالي: والله إن الآية ليست معضلة ولا مشكلة وليس في القرآن معضل إلا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات وإلا عند من اتخذوا المذاهب المحدثّة بعد القرآن أصولاً للدين يعرضون القرآن عليها عرضاً. فإذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا. وإلا عدّوها من المشكلات والمعضلات. ³ انتهى قول الغزالي.

وقبل أن نبيّن رأي الإمام الفراهي بهذا الصدد نحبّ أن نلقي نظرة عجي على وصف القرآن لنفسه، قال الله تعالى: "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" ⁴ وقال في موضع آخر: "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ" ⁵. وقال عزّ من قائل: "يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا" ⁶ وقال تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ" ⁷ فهل هذا الكتاب الذي يصفه منزله إلى رسوله بأنه كتاب مبين، بل تبيان لكل شيء يمكن أن يكون معضلاً؟ كلا. فليتهم يعلمون.

¹ سورة النساء: 43

² روح المعاني للألوسي، ص 39/5

³ نظرات في القرآن، ص 176

⁴ سورة يوسف: 1

⁵ سورة الحجر: 1

⁶ سورة النساء: 174

⁷ سورة النحل: 89

أما الإمام الفراهي فقبل أن يبين رأيه في وضوح القرآن يوضح سبب الخطأ في فهم القرآن، فقال رحمه الله: لا يخفى أن الدين معظمه ترقية النفوس وتربية العقول وإصلاح الأعمال الظاهرة أي الأخلاق والمقائد والشرائع، والقرآن قد تكفل كل ذلك بأحسن ما يكون، وكل ذلك متصل بعضها ببعض وبجمعها تحصل التزكية وهي الغاية والمطلوب.¹ ولهذا الثلاث نشأت ثلاثة علوم: علم الأخلاق والمواعظ وعلم الكلام وعلم الفقه. وإذا جعل علم التأويل مقصوراً على الفقه بقي علماء الأخلاق والكلام فارغين عنه. فلا تجده مستعملاً فيهما، ثم يقول: أما علم الأخلاق فأتسع بأهله حتى تشبثوا لكل ما راقهم وأعجبهم فمنهم من ينه على الحكمة العملية التي تلقوها من الفلاسفة ومنهم من يعتمد على تجاربه ومنهم من يعتمد على الروايات الضعيفة، وربما يأخذون من القرآن حسب تأويلاتهم الركيكة. وذلك لظنهم بأنه لا حاجة إلى صحة الاستدلال في الترغيب والترهيب ومدح الحسن وذم القبيح.

ومنهم طائفة زعموا أنهم من المتصوفة تكلموا في العقائد يأولون القرآن إلى ظنونهم لجهلهم بالعربية وبحقيقة هذا الدين ويزعمون أنهم أعرف بالقرآن وأسراره.

وأما علم الكلام فأصحابهم لا اشتغالهم بالملاحظة قلّ اعتمادهم على النقل وكان معظم احتجاجهم بما يجمع إليه العقول لكي يسلمه الخصم وربما يأولون القرآن إلى غير مراده، فراراً عن اعتراضات المعاند. إذ لم يهتدوا لصحيح التأويل وتطبيق المعقول بالمتقول. فجعلوا للتأويل - ولا نقول أبواباً بل سلماً - يخرجون منه حين لم يمكنهم الدفاع على وجه مستقيم، حتى قال بعضهم - عفا الله عنهم - إنه لا اعتماد على ظاهر القرآن لعله يكون من المتشابهات. فجعلوا القرآن كله ملتبساً ولم يكن ذلك إلا لعدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن سواء

¹ إلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة "رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٥﴾". سورة البقرة.

كان من فروع الشرائع أو الأخلاق والعقائد ثم يقول: فإن جعلت القرآن أصلاً لتمام علم الدين كما هو في الحقيقة صار من الواجب أن يؤسس أصول التأويل بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن.¹

فأسباب الخطأ في فهم القرآن عند الفراهي هي أنه لم توضع أصول للتأويل يبني عليها باحث القرآن ومفسره.

ومن أسباب الخطأ في التأويل عند الفراهي من المسلمات أن الحق لا يناقض بعضه بعضاً، فعلى هذا كل من اتخذ عقيدة وثبتت عنده من أي دليل كان ووجد ظاهر القرآن لا يوافقها. التزم تأويل القرآن إلى ما اعتقده ومن هذا الباب دخل كثير من التأويلات التي لا تصح وما يعلم تأويله إلا الله شأن العلماء وضع الآيات المتشابهة إلى الآيات المحكمة عند التأويل، أما شؤون الراسخين بالعلم فالتسليم وصلوا إليه أو لم يصلوا والراسخون بالعلم.

ثم إنهم ربما التزموا تأويلاً يمكن تصحيح العقيدة التي لأجلها أولوا بغير ذلك التأويل فالأصل الراسخ استعمال أصول مختصة للتأويل وإن وجدت عقيدة لا توافق القرآن. فأما أن تصلح تلك- العقيدة حتى تعتبر موافقة بالكتاب أو تنظر مرة أخرى في القرآن لعل الله تعالى يهدي إلى التوفيق أو توقف، وأما صرف القرآن من معناه على غير أصول التأويل فهو التعرض للتحريف.²

ولذلك لا يرى الفراهي أن المتشابهات لا يمكن تأويلها فهي أيضاً آيات من الكتاب المبين الذي لا غموض فيه ولا إبهام، ولكنها إذ تتعلق بالصفات التي لا يبلغ إلى كتبها عقول الناس ولا تختص بالأحكام التي لا بد من معرفتها تركت بدون التأويل

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 3-4

² المصدر نفسه، ص 18

لئلا يفتح باب الفتنة¹ حتى أنّ حروف المقطعات التي استهلت بها بعض سور القرآن معلومة المعنى عند الفراهي. فيقول إنّ أسماء حروف الهجاء كانت معلومة للعرب يتكلمون بها فالمفردات من أسماء السور مثل ص. ق. ن. من العربي المبين. أمّ المركبات مثل حم الم المص صمق فأيضاً بعد الدلالة على أنها أسماء السور التي تبتدئ بها صارت من العربي المبين. فإن قلت إنها كلمات لم تعرفها العرب قلنا إنهم كانوا يسمّون بالمركبات فيجعلونها معنًى خاصاً لم يفهم من مفرداتها فكانوا يسمّون رجالهم وأولادهم وأفراسهم وألويتهم وأسبابهم بأسماء خاصة.

فإن قيل أنّ الأسماء التي كانت العرب تضعها بإزاء المعاني الخاصة لم تكن خالية عن مناسبة بين مدلولها العام ومدلولها الخاص وأما هذه الحروف المقطعة فلا نجد مناسبة بينها وبين هذه السور قلنا عدم العلم بمناسبة بين الاسم والمسمّى لا بأس به بعد الدلالة على ما خصّ به، فإنّ أكثر الأسماء الجوامد لا نعلم المناسبة بينها وبين مسمّاتها ثم لا يلزم من جهل المناسبة نفسها.²

ويوضح الفراهي هذا المعنى في مكان له آخر فقال: قد تفكر العلماء في وجه التسمية بهذه الحروف وذهبوا في كل مذهب ووجدنا لهم فيه حسبما اطلعنا تسعة وعشرين قولاً ولكن لم أجد بها تمسكاً بالقرآن فليس لها محلّ في كتابنا هذا.

ثم يقول: اعلم أنّ العرب إذا وضعوا للشيء اسماً جديداً عمدوا إلى ما يناسب المسمّى ويدلّ على خاصة مميزة، كما ترى فيما لقبوا به بعض الرجال كالمملك الضليل، والمرقش، وتأبط شراً، فإنّ الاسم من الوسم فما يكون علامة يصلح للاسمية. هكذا سمّيت بعض السور مثل الروم والنمل والبقرة والعنكبوت، وإذا قد ثبت أنّ هذه

¹ المصدر نفسه، ص 23

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (تفسير سورة البقرة)، ص 9 (مخطوط). قد أوضحت فيما سبق أنّ الفراهي كان يفسّر القرآن سورة سورة لأن هدفه كان إثبات النظام والربط، فهذه السورة لم يطبع تفسيرها. وقد بعث إليّ هذا المخطوط زميلي وصديقي السيّد عبد البارئ مشكوراً.

الحروف المقطعات أسماء للسور فلا بد أن تكون الحروف ذوات المعاني والمركبات منها مثل الأسماء المركبة كعمديكرب، وقد علمنا أن أسماء الحروف في لسان العرب لم تكن في الأصل أسماء الأصوات المجردة كما هي في الهندية والإنكليزية بل كانت أسماء للأسماء تماثيل لها، ولذلك بقي كثير منها ملفوظة بأسماء تلك الأسماء ومكتوبة بهيئات- منها بقايا تماثيل تلك الأشياء، كما أن حروف أهل الصين بقايا تماثيل كانت حروفهم في الأوائل على هيئاتها، وقد علمنا طرفاً من معاني أسماء حروفنا مثلاً ألف اسم البقرة وكانت سورة رأس البقرة والباء فإنها مسمّى بالعبرانية بيت أي البيت والجيم فاسمها بالعبرانية جميل أي الجمل وهكذا في الأخر وهذا السر ثابت معلوم لا يخفى على من له معرفة بتاريخ الكتابة العربية فإننا نعلم أن حروفنا هذبت من العبرانية التي أخذت من حروف العرب القديمة التي أخذ عنهم القبط الكتابة بالتماثيل التي توجد الآن على الأهرام المصرية ولكنهم غيروها وابتدعوا فيها حسب أفكارهم.

ذلك، ثم قد دلّنا القرآن على هذا السرّ بما قد سمّي سورة بحرف بقيت في لسان العرب دالة على معناها وهي حرف "ن" فإنها الحوت والسورة المسماة بها جاء فيها ذكر يونس عليه السلام ولم يذكر فيها غيره من الأنبياء وذكره الله تعالى باسم صاحب الحوت ففي ذلك إشارة للبتوسم إلى وجه التسمية. فإن كانت هذه السورة قد سمّيت بحرف "ن" لأجل معنى هذه الأحرف فعسى أن تكون السور الباقية المسماة بالحروف أيضاً قد سمّيت حسب معانيها الأولية. وهذا بحثنا على النظر في المعاني التي كانت حروفها دالة عليها في خط التمثال. فلها نظرنا فيها وجدنا ما يؤيد هذا الرأي فإن حرف "ط" صورتها في العبرانية ومعناها الحية وكانت على صورة حية رفعت أعلاها وجعل أسفلها كحلقة ونجد السورة المسماة بـ"ط" تبتدئ بعد التمهيد بقصة موسى وقلب عصاه حية ثم وجدنا كذلك أن السور الأخرى التي سماها الله تعالى بأسماء تبتدئ بالطاء أعني "طسم" و"طس" كلها تبتدئ بقصة موسى مع ذكر عصاه وانقلابها حية، وكذلك وجدنا أن غير هذه السور الأربع لا تذكر قصة موسى عليه السلام وأما

ذكرها وهي كثيرة فلا تذكر حية إلا سورة الأعراف ولكنها جاءت بقصة موسى تابعة لقصاص السابقين عن الأنبياء من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام فلم تكن حرف الطاء أولى بها ولست أول من جعل هذه السور مخصوصة بموسى عليه السلام، فإن بعض العلماء اطلعوا على طرف منه، فقال السخاوي إن سورة طه تسمى سورة الكليم¹ وسمّاها الهذلي في الكامل سورة موسى².

والم فالألف صورتها رأس البقرة وكانت هذه الحروف دالة على الإله الواحد ولم نجد السور التي تبتدئ أسماءها بالألف إلا ومن أعظم مطالبها الإيمان بالله الواحد³.

وقد نقلت قول الإمام الفراهي بالتفصيل ليتضح أماننا رأيه في وضوح القرآن الكريم. ولا شك أن أقواله حيال الحروف المقطعات لا تختص بمشكلة معضلات القرآن ولكن لها علاقة تامة بها ولذلك نقلتها هنا ولعل الفراهي قد أوضح أيضاً كاملاً بأنه لا يذهب إلى أن القرآن فيه معضلات.

وثالثاً- القرآن لا يحتمل إلا وجهاً واحداً وأسباب كثرة التأويلات: يقول الإمام الفراهي كان للقرآن عند الصحابة تأويل واحد لتقواهم وعلمهم باللسان وبشأن النزول، ولذلك قلّ منهم السؤال والتفسير.

أما التابعون للصحابة نخفي عنهم بعض شؤون النزول: فأولوا القرآن إلى آياته وآثار الصحابة فكأنهم اعتصموا بأصلين.

الأول: أن القرآن لا يخالف بعضه بعضاً والثاني: أن أفعال النبي وأقواله وعمل الصحابة أقرب شيء موافقه بالقرآن، فوقع بعض الاختلاف في وجوه المعنى واحد وهذا لا يبعد عن الصواب، ولكن في ذلك العصر كثرت الروايات الضعيفة واعتمدوا عليها في

¹ الإتيان في علوم القرآن، 56/1

² المصدر نفسه، ص 57

³ تفسير سورة البقرة، 14-15 (مخطوط)

التفسير فصارت كتب التفسير حاملة لروايات من اليهود والدجالين الواضعين.

ثم ظهرت الفلسفة واختلفت الآراء في العقائد فصنّفوا الكتب على نمط الكلام وأرخوا عنان الخيال وتشبّثت كل فرقة من الروايات والفلسفة ما أعجّبها. فكثرت وجوه التأويل حتى صار الأمر الواضح مشتبهًا وأظلمت سبل التفسير وأغلق باب القرآن ولكثرة الآراء وتشاجر الروايات ضاع الحكم الفيصل، وتفسير الرازي أصدق شاهد على ما نقول فإنه جعل القرآن كتابًا مشتبهًا ملتبسًا لا رجاء في فهمه لما جاء بوجوه كثيرة حيث لا يحتمل الكلام إلا سمّا واحدًا فلا تراه إلا يغادرك بين سبل متفرقة لا تدري أيها تسلك؟ ثم قال إن القرآن كله مظنون الدلالة وهنا نورد أمثلة لإثماره بالوجوه؛ قال في آية "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ": فتح مكة- فتح طائف- فتح خيبر- فتح عام- فتح العلوم- فتح المعقولات.¹

وما علمت دواء لهذا الداء العضال إلا التمسك بالقرآن وردّ الروايات والآراء إلى كتاب الله، وهذا لا يكون إلا أن تؤمن بأن القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا وقد فصل الفراهي القول في أنّ القرآن قطعي الدلالة وليس لعبارته إلا مدلول واحد ثم يضع أصولًا تهدي الناس إلى فهم التأويل الواحد فيقول:

1. أكثر الطبائع طلعة. فإذا سمعت أمرًا مجملًا لم تقنع به إلا أن يفصل لها مثلًا إذا سمعت أنّ الساعة آتية فسألت أيّ يوم وفي كم مدة؟ ومنهم الذين يلتمسون حقائق الآخرة ويبحثون في ذات الله وهم لا يعرفون أنفسهم فلو تديروا القرآن سكتوا كثيرًا وأحبّوا كما قال تعالى: "تَقَشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ"². وكما قال تعالى: "لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ

¹ التفسير الكبير للرازي، 150/32 فقد ذكر فيه الرازي ما هو المراد بالفتح فقال المراد فتح مكة، فتح طائف، فتح بلاد الشرك على الإطلاق، فتح العلوم، فتح المعقولات وهلم جرا.

² سورة الزمر: 23

لَرَأَيْتَهُرْ خَشِيْعًا مُتَّصِدًا مِّنْ خَشِيَّةِ اللَّهِ¹. وهكذا كان السلف الصالح.

2. وكذلك أكثر الأفهام قعدة طلعة فلا تسري ولا تستقيم في أمور عامة رفيعة إلا أن يجسم ويشخص لها فلا تطمئن بعلم أو حكم إلا تعرفها فثلاً بالاسم والشكل، والمكان مثلاً قولهم ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ أو قولهم ما هي؟ وما لونها؟ فلاتطمئن هذه الطباع جاءت في كتب التفسير تفاصيل القصص وانفتح باب الإدخال في القرآن ما ليس منه ثم نشأ الاختلاف.

3. ثم جاءت حاجة سياسية دعت إلى تأويلات ركيكة وفتحت باباً للجدال وذلك لأنّ الملك في الإسلام نشأ في حجرة النبوة والخلافة الراشدة. فكانوا يقضون بكتاب الله وسنة رسوله ولا يحيدون عنهما فأستت قواعد السياسة على حكم الله، فلها صارت الخلافة إلى الذين هم أشبه بالملوك، لزمهم اتباع أحكام الشريعة، فالتجأوا إلى العلماء لتدوين جزئيات الأحكام والعلماء كذلك لم يسع لهم أن يقترحوا من عند أنفسهم حكماً خوفاً من الله الذي أعلن بإكمال الدين، ثم أراهم النبي صلى الله عليه وسلم كيف تشبثوا في كل أمر بالشريعة؟ فالتجأوا إلى إعمال الرأي والقياس في القرآن وفيما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك حملاً باهظاً لاختلاف الروايات.

فمنهم من اطمأنوا بالأحاديث بعد النقد كأكثر أصحاب الروايات لما علموا أنّ كلام النبي لا بد أن يوافق بالقرآن وهكذا كلام الصحابة بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ووجدوا في الأحاديث فيها فسحة فجعلوها أصلاً لقلّة الخطر وفسروا القرآن بها حتى أصبح زمام القرآن بين الحديث. فقلّ اعتناؤهم بفهم معاني القرآن وأولوه إلى ما يخالف آياته، وكان عليهم أن يؤوّلوا الأحاديث إلى القرآن فإني رأيت كم من روايات متضادة حسب الظاهر توافقت حين أولناها إلى القرآن، فإنّ القرآن كالمركز وإليه ترجع الأحاديث من

¹ سورة الحشر: 21

جهات مختلفة كما تجد تفصيله في كتابنا "إحكام الأصول بأحكام الرسول".¹

ومنهم من احتاطوا لوهن أسباب الجرح والتعديل ورأوا التشبث بالقرآن أرحم من أخذ الروايات اقتداءً بالمجتهدين من الصحابة كعمر وعائشة وابن مسعود فبدلوا جهودهم في استنباط المسائل منه. فما ظهر لهم من الجزئيات أرحم وأوفق بالعدل والقسط، التمسوه في القرآن نقيلاً إليهم من إشارات في سورة البقرة وغيرها.

إذا احتملت كلمة أكثر من معنى واحد سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها، فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم وتركها القرآن علمنا أن القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه، فتركنا ذلك المعنى وأولناها إلى ما هي أصوب له ...، وبهذا الأصل احتج الشافعي رحمة الله عليه خلاف تأويل ابن عنية لحديث "من لم يتغنّ بالقرآن" فإنه كان يقول: يستغني به فستل الشافعي عن هذا فقال: نحن أعلم بهذا لو أراد به الاستغناء لقال "من لم يستغن بالقرآن" ولكن قال: "من لم يتغنّ بالقرآن" فأراد به التغني.²

ويقول الفراهي عند اختلاف الوجه والاعتبار يؤخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام³ ويوضح هذه الفكرة فيقول "إنّ ما من كلمة إلا لها أطراف وجهات فهي كالمعاني لها وكذلك كل أمر وقصة لها اعتبارات شتى. وكما أنّ اللفظ المشترك يأول حسب محله فكذلك لا بد أن تأول الألفاظ والأمور حسب محلها. مثلاً صفة "الأمديّة" الكاملة مختصة بالله تعالى ومع ذلك نرى ذكره تعالى بأسماء مختلفة وعلى ترتيب متغير مثل "رب الناس، ملك الناس، إله الناس" ومثل "رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين"، ومثل "الملك القدوس، العزيز الحكيم" ومثل "العزيز الغفور" ومثل "الملك القدوس السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر" فن لا يتدبر القرآن لا

¹ كتاب مخطوط

² زاد المعاد، 1/136

³ العنوان الرئيس للكلام أو الذي قد سبق له الكلام.

يلتفت إلى محل الكلمات ولا يجتهد لفهم لجهة الكلمة، ولكن البصير المستبصر لا يمكنه التدبر لما يظهر له بعض الجهات الظاهرة. فتجلبه إلى ما وراءها.

فإن صحّ لديك هذا الأصل يسهل لك التدبر في ترتيب أسماء الرسل والأنبياء فمع أنّ درجاتهم مختلفة ترى ذكر أسمائهم على أنواع من الترتيب، فإن تدبّرت محلها وغلبت على إشارات غامضة لم يلتبس عليك موقعها.

ويلقي على ذلك مزيداً من الضوء فيقول إذا كان الكلام والاحتمالات تؤخذ منها ما كان لها نظير في باقي القرآن، فما لم يوافق القرآن غير ما فيه النزاع يترك مثلاً قوله تعالى: "أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِتَّيَّهَ تَحْشُرُونَ" ^(٢٤).^١ فيه تأويلان: الأول: أنه تعالى أعلم بضمائركم منكم والثاني: أنه يعوق المرء عن إرادته.

فالأول له نظير في القرآن ثم يعضده النظم فإنّ النظم أيضاً يؤوّل إلى ما كان أشبه بالقرآن بقوله "تحشرون" بات مع التقوى، والتقوى تأتي مع علم الله، وهذا كثير، فكأنه قيل اتقوا الله فإنه أعلم بسرائركم وأنكم تحشرون إليه. فهذا من جهة تشابه المعنى والنظم.

وأما التأويل الثاني فبناؤه على تشابه لفظي فإنه جاء في القرآن وحلّ بينهم وبين ما يشتمون^٢ أي منعوا عن مشتمهم، وهذا أيضاً أصل لكنه أضعف مما ذكرنا. فإنّ اللفظ المشترك يأتي لمعان مختلفة ولا يقضى فيه إلا بالسياق وصحة المعنى. مثلاً كلمة "أمة" في قوله تعالى "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً" لا تؤوّل إلى معنى أريد به في مواضع آخر فإنه لا يلتئم بالسياق ولا صحة المعنى والمعنى المراد أنه لا نظير له من جهة اللفظ. فإنّ الأمة في باقي القرآن: أما المدة من الزمان أو لطائفة من الناس أو للطريق. ولكن إذا تمسكا بالأصل الأول والثاني اتضح معناه.

^١ سورة الأنفال: 24

^٢ سورة سبأ: 54

أما الأصل الأول: فإن كلمة "قائماً" بعدها تفسيرها فإن الأمة هو الطائع بتمامه وهو أوفق بالقائت. وأما الأصل الثاني، فلوجود نظائره لما جاء في صفاته من الطاعة الكاملة، ولكن بقي علينا بيان أن الأمة هي الطائفة فإن الجمهور من أهل اللغة قد خفي عليهم هذا المعنى ولكنهم قد قاربوه.¹

قد تبين ما أسلفت من القول رأي الفراهي في تأويل القرآن وطريقته في هذا الصدد كما اتضح رأيه في سبب كثرة التأويلات في القرآن واختلاف الأمة في فهم معانيه، ولكن بقي علينا بيان متى يصح اللجوء إلى الحديث في تفسير معاني الآيات ومطالبتها.

قد بينت في مبحث "مصادر الفراهي" موقفه من الحديث النبوي وهنا أزيد عليه شيئاً حتى يكمل البحث؛ يقول تحت عنوان "هل يؤول الحديث إلى القرآن أم يعكس الأمر؟":

كم من آيات القرآن إن تدبرت وفهمت معناها وجدت من الأحاديث ما جاء موافقاً له: فالحديث لم يزد شيئاً على القرآن. ولكن صرح من الآية أمرًا غامضاً يكاد يخفى على من لا يتدبر مثلاً في آية الميراث ترى وصية من الله وسمها فريضة من الله، وقال فيها: "ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" ² وصية أخرى من الميت وجعل التقدم لوصية الميت.

وقد علمنا أن الله أعلم وأحكم ووصيته أقدم فلا بد أن تكون هذه وصية الميت لغير وارثه من الخيرات. ثم ترى النبي عليه الصلوات صرح بذلك فقال: "ألا لا وصية لوارث".

ويفهم من هنا أن الحكم إذا ناقضه حكم آخر خصّ بعضهما بعضاً حتى يرفع المناقضة. ثم بين الفراهي أن الحديث النبوي يؤيد القرآن لأن كليهما خرج من نبع واحد ولكنه يحذر من الاعتماد على كل ما يروى ويحدث باسم الحديث النبوي فيقول:

¹ السورة نفسها: 54

² سورة النساء: 11

إنك إذا- قبل أن تفهم القرآن- تتهافت على الحديث وفيه صحيح وسقيم أي ما جاء في كتب الحديث لا يحكم عليه بأنه صحيح النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيعلق بقلبك من الآراء ما ليس له في القرآن أصل وربما يخالف هدى القرآن فتأخذ في تأويل القرآن إلى الحديث فيلبس عليك الحق بالباطل.¹

ولعل القارئ يجد غلظة في قول الفراهي حيال الحديث وتأويل القرآن به ولكنه لو عرف أنّ العصر الذي عاشه الفراهي كان الناس قد تركوا القرآن وراء ظهورهم أو كان اعتمادهم الكلي على كل ما جاء في كتب القدامى باسم الحديث أو باسم "روي عن النبي" بدون التمييز بين الصحيح والسقيم، لعرف تشدده في النكير على أمثال هؤلاء الناس الذين تتهافتوا على الحديث وتركوا القرآن لا قيمة له عندهم، وهنا يبين الفراهي طريقة تأويل القرآن بالحديث فيقول: فالسبيل السوي أن نتعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادي النظر أولته إلى كلام الله فإن تطابقت عينك وإن أعياك فتوقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن وقد أمرنا أولاً بإطاعة الله ثم بإطاعة رسوله ولا شك أنّ الأمرين واحد كأن لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روي عن الرسول فإذا أراد بهذا الأمر.²

وقد نقل الإمام الفراهي في مقدمة تفسيره ما قال الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" حيال تفسير القرآن بالقرآن ثم قال تعلمت من هذا أنّ أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه ثم بعد ذلك فهم النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه. ولعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقد أسس تفسيره بعض العلماء على الأحاديث كابن جرير الطبري الذين حكموا على تفسيره أنه لم يصنّف مثله ولكن الأحاديث فيها أكثرها ضعاف والمرفوع فيه قليل وإنما جمع فيه أقوال

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 65

² لعله يشير إلى الاثنتين من القرآن الكريم "أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ"، سورة آل عمران: 32 "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ". سورة نفسها: 132

أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينهما وأني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن لا أتى بها إلا كالتبع بعد ما فسّرت الآيات بأمثالها.¹

ورابعاً- هل كلام الرسول ينسخ كلام الله؟ في الصفحات الماضية التي قد بينت فيها رأي الفراهي في تأويل القرآن بالحديث، قد تبين موقفه بوضوح حيال الحديث النبوي ومكانته في توضيح الكتاب، ولكن بقي لي أن أبين وجهة نظره عن نسخ الكتاب بالسنة، لتكميل البحث ولأنّ هذه المشكلة خطيرة، ولأجلها قد وقعت الخلافات بين الناس واختفت في نظرهم مكانة القرآن الكريم الفراهي قد ألف كتاباً خاصاً في النسخ سمّاه "كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" وإني قد بذلت جهوداً جبارة للحصول على هذا الكتاب وصورة منه جميعه فالكتاب مخطوط لم يظهر في صورة الطبع بعد، وقد وفقني الله للاطلاع على الغالبية الغالبة من الكتاب، حيث تفضل أحد أصدقائي في الهند بنسخه وإرساله إليّ مشكوراً، وقد أوضح فيه رأيه في هذه المشكلة، وفوق هذا فإنّ في مقدمة تفسيره قولاً موجزاً بهذا الصدد يقول إنّ الخبر وإن تواتر لا ينسخ القرآن وحقه التأويل أو التوقف. ألا ترى أنّ الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وعامة أهل الحديث ينعون نسخ القرآن بالحديث، وإن كان متواتراً، وصاحب البيت أدري بما فيه، فن خالفهم من الفقهاء والمتكلمين لا نقيم لأبيهم وزناً. ثم يقول "ونعوذ بالله أن ينسخ الرسول كلام الله، ولا بد أن يكون وهم أو خطأ من الرواة".

فهذا القول الموجز كان لمعرفة رأيه عن نسخ القرآن بالحديث، وكأني به لم ير حاجة لإطالة الكلام وخاصة بعدما بين رأيه في الحديث ومكانته في تأويل القرآن. وقد فصلت القول فيه في الصفحات الماضية ولكن ما يظهر من كلامه هذا أبينه فيما يلي:

1. الخبر وإن كان متواتراً لا يبلغ درجة القرآن في القطعية والصحة فلا يجوز لنا أن نجعله ينسخ القرآن.

¹ مقدمة تفسر نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 7

2. إذا وقع التعارض بين الحديث والقرآن تؤول الحديث أو نلتزم التوقف لا أن تؤول القرآن تأويلاً يوافق الحديث، فالحديث فرع والفرع يحتاج إلى التأويل لا الأصل.¹
3. في معرفة مكانة الحديث، لا يعتمد على الفقهاء والأصوليين والمتكلمين فإنهم في استنباط الأحكام واستخراج المسائل يغمضون أعينهم عن مكانة القرآن ويقبلون كل ما يؤيد رأيهم سواء كان مخالفاً لروح القرآن أو موافقاً.

فثبت أن الفراهي يرى أن القرآن هو العمدة والمهيمن، والحديث موضح مبين لمراده لا ناسخ فنصب الرسول عليه الصلاة والسلام، كما جاء في القرآن الكريم، أن يبين للناس ما نزل عليهم من عند الله بأقواله وأعماله، ولا داعي هنا لبيان الفرق بين التبين والنسخ، فالأول يعني إيضاح وشرح ما خفي من مطالب القرآن ومعانيه على الناس، أما الثاني فيطلق إما على إبطال شيء مطلقاً أو إبطال شيء وإقامة آخر مقامه،² فهل يظن أحد من المسلمين بأن الرسول قد جاء ليبطل ما أنزل عليه، ولذلك قال الإمام الشافعي - كما أشار إليه الفراهي - إنما نسخ ما نسخ من الكتاب بالكتاب، وأن السنة لا تكون ناسخة للكتاب وإنما هي تبع للكتاب، تمثل ما تنزل نصاً ومفسرة معنى ما أنزل الله منه جملاً. قال الله تعالى "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي".³ فأخبر الله أنه فرض على نبيه اتباع ما يوحى إليه. ولم يجعل له تبديله من تلقاء نفسه. وفي قوله "ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي" بيان ما وصفت من أنه لا ينسخ كتاب الله غير كتابه. كما كان المبتدئ لفرضه فهو المنزل المثبت لما شاء منه جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه، وكذلك قال:

"يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" ⁴.

¹ المصدر نفسه، ص 11

² لسان العرب، 28/4

³ سورة الأنفال: 15

⁴ سورة الرعد: 39

وقد قال بعض العلماء في هذه- والله أعلم- دلالة على أن جعل لرسوله أن يقول من تلقاء نفسه بتوفيقه فيما لم ينزل به كتاباً- والله أعلم- ويمثل في قوله "يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ" يحو فرض ما يشاء ويثبت فرض ما يشاء وهذا يشبه ما قيل، وفي كتاب الله دلالة عليه- نسخ الكتاب بالكتاب- فقال الله: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٦﴾".¹ فأخبر الله أن نسخ القرآن وتأخير إزالته، لا يكون إلا بقرآن مثله، وقال: "وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾".² انتهى قول الإمام الشافعي ولا داعي هنا لمزيد من القول لأن المسألة قد اتضحت تماماً ولأني أنا لست بصدد بيان أقوال الأصوليين والفقهاء، فأنتقل إلى مشكلة أكبر من هذه المشكلة، وهي:

هل في القرآن نسخ ورأي الفراهي فيه؟ هل في القرآن آيات معطلة الأحكام بقيت في المصحف للذكرى والتاريخ تقرأ التماساً لأجر التلاوة فحسب، وينظر إليها كما ينظر إلى التحف الثمينة في دور الآثار غاية ما يرجى من المحافظة عليها إثبات المرحلة التي أدتها في الماضي. أما الحاضر والمستقبل فلا شأن لها بها؟

من العلماء المسلمين من يرون هذا الرأي حين يقولون بالناسخ والمنسوخ، على أساس أن الناسخ الأخير أبطل ما صدر قبله من أحكام. أما الفراهي فإنه أيضاً يقول بالنسخ في القرآن، ولكنه لا يسلك مسلك من يرى الآيات المقيّدة والمفسّرة والمخصّصة، فيحكم بدون فهم ونظر- بأنها ناسخة لأخواتها، فإنه قد بسط فكرته في كتابه المسمى بـ"كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ". أنقل منه بعض آرائه حول هذه المشكلة.

فالإمام الفراهي يتكلم أولاً عن الأصول التي تتعلق بـ"النسخ" فبعض منها فيما يلي:
الأصل الأول: لا يصار إلى ارتجال الحكم بالنسخ إذا أمكن التوفيق بين عام وخاص

¹ سورة البقرة: 106

² الرسالة للإمام الشافعي، ص 106-108 (سورة النحل: 101).

ومفصل ومجمل أو زايد ومزيد عليه، مثلاً نهى الله عن نكاح المشركات مرة ونكاح الزانيات مرة أخرى، فالأخذ بالنهي الثاني أخذ بما زاد واشتمل على الأول.

الأصل الثاني: يصار عن الحسن إلى الأحسن عند التفاوت الثابت عقلاً. ولقوله تعالى: "مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّثْلَهَا أَوْ مِثْلَهُ" مثلاً أمر الله تعالى بصوم عاشوراء أولاً مجملاً بقوله "كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ" ومعلوم أنه صوم عاشوراء فإنه كان فرضاً على اليهود، وقد بينت السنة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم وافق اليهود في صوم عاشوراء وذلك في شهر ربيع الأول الذي يطابق الشهر التاسع في حساب اليهود، وقد دلت الآية على أنه في أيام معلومات كما قال فيه: "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ"¹. وقد أجاز في هذا الأمر للمطيقين بالفدية ثم بين في الآية نفسها أنّ الصوم خير بقوله تعالى "وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ"، فلما فرق الله بين اليهود والمؤمنين وأمر بالبراءة منهم وحول القبلة، حول زمان الصوم إلى رمضان وفي كل ذلك تحول من حسن إلى أحسن منه.

الأصل الثالث: الشريعة تتزايد تماماً بالتدرج والتدرج من السهل إلى الصعب، أرفق وأسهل كما كان خلاف ذلك فلمصلحة وحكمة خاصة. ولا بد من بيان ذلك في الكتاب، كما جاء التخفيف في عدد المقاتلين.²

الأصل الرابع: دلالة في نفس الكلام على تعيين الناسخ والمنسوخ كقوله تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (سورة البقرة: 185).³ أي: أمر بكم من أيام أخر لأنه يريد بكم اليسر وأبطل الفدية، لأنه يريد أن تكملوا العدة. وخصّ بالصوم المكتوب هذا الشهر لتعظيمه على أنه هداكم

¹ سورة البقرة: 183

² إشارة إلى الآيتين (65-66) من سورة الأنفال.

³ سورة البقرة: 185

بالقرآن فلا تزهلوا عن منزلته العظيمة، فتكون علامة وتذكيراً لكم كما قال: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ"¹ أي: فرق الحق من الباطل وفرقكم من أمة- اليهود- بأن بسخط الله بنا حول قبلتكم وبدل شهر صومكم، فصار القرآن من العلامات الفارقة الظاهرة، وكتب عليكم الصوم لتشكروا به، وبذلك هدى إلى حكمة فرض الصوم، فإنّ الشكر واجب على النعم لا سيما على أكبرهما وهي الهداية.

ثم يتكلم الفراهي عن النسخ في القرآن فيقول: كما أنّ القرآن نسخ بعض أحكام الشرائع السابقة، فكذلك نسخ بعض ما نزل على هذه الأمة في أول الأمر والأصل واحد، فإنه كما أنّ لنوع الإنسان سمواً وصعوداً طبقاً على طبق فكذلك للأمة الواحدة منهم سير وسلوك، والذي أنكر النسخ في هذا الدين فإنما أخذ للنسخ معنى خاصاً محدوداً ولا شك في أنّ كثيراً مما سمّاه العلماء نسخاً ليس إلا زيادة على حكم سابق كتحریم الخمر بالكلية بعد أن حرّم أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، أو كتخفيف عدد المقاتلين بعد أن دخل في الإسلام كثيرٌ ممن لم يبلغوا مقام السابقين منهم وضعفت أحوالهم، وكتخفيف صلوة الليل عند كثرة المصلين وجملة القول ههنا أنّ نسخ الشرائع السابقة أهم وأكبر من نسخ أحكام هذه البعثة بعضها ببعض، وقد غفل أكثر المفسرين عن هذا الأصل، فأولوا آيات فيما ذكر النسخ إلى النوع الثاني وبعثوا عن حقيقة التأويل.²

ولا تفوت الفراهي الإشارة إلى أنّ النسخ معظمه للشرائع السابقة، فيقول إنّ الله تعالى بين لنا في القرآن أنه مصدق لما نزل من قبل ومع ذلك مهيمن عليه. فأنزل الله تعالى فيه قسمين من النسخ: الأول، بتشريع ما هو خير من الحكم السابق ليرتقى به الإنسان والثاني، برد ما نسوه من أصل شريعتهم وذلك قوله تعالى: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

¹ السورة نفسها والآية ذاتها.

² الناسخ والمنسوخ (مخطوط)، ص 144

وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٥﴾¹. أي ما يؤدون ذلك حسداً ولكن الله تعالى ذو فضل فيزيد من نعم حسب مشيئته الحكيمة ثم قال بعد ذلك "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ" الآية من الأحكام السابقة فإنهم نسوا كثيراً منها كما قال: "وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ"².

فالفراهي حينما يسلّم بالنسخ في القرآن، لا يذهب مذهب من يجعلون كل آية من الآيات المقيدة، والمبينة، والمفسرة، والمخصصة، ناسخة، ولكن الفراهي كما تبين من هذه السطور المتقدم ذكرها لا ينكر النسخ ولكنه يجعله أولاً للشرائع السابقة كما أوضح بالأمثلة والدلائل، ثم يأتي إلى القرآن فيحاول التطبيق بين الناسخ والمنسوخ، فيجعله الزيادة أو التقييد أو البيان أو التخصيص، وفي الآخر يرى أنه لا محيص من التسليم بأن النسخ موجود في القرآن، وعنده في ذلك حكمة وهي التدرج في تربية الناس وهذا ما وجدت في كتابه من الآراء في النسخ.

المبحث السابع: بعض الجوانب البارزة من شخصية الفراهي في تفسيره

أولاً- الفراهي اللغوي: كان الفراهي واسع الاطلاع على فن اللغة عارفاً بأساليب البلاغ العرب، ومناهج الشعراء، فقد درس بجد واجتهاد بالغين الأدب العربي وفنونه ولكن رغم هذا الاطلاع الواسع والتضلع الكامل لم يعتمد على المعاجم العربية في تفسيره للقرآن الكريم. بل قبل أن يمسك القلم بيده ليكتب شرح كتاب الله الذي أنزله ليكون دستوراً وميثاقاً للناس إلى يوم يبعثون، بدأ يتدبر القرآن فقد قضى رحمه الله ثلاثين سنة أو أكثر في تدبر وتفهم معانيه وقد رأى أنّ كثيراً من الجهلاء- في الهند- يفسرون كتاب الله فيحرفون الكلم عن مواضعه فلم يصبر ولم يتحمل أن يكون كتاب الله العوبة في أيدي الناس يلعبون به حسب أهوائهم وهو حي يرزق، وقد كان على رأس هؤلاء الجهلاء السير سيد أحمد

¹ سورة البقرة: 105

² سورة المائدة: 13

خان مؤسس الكلية الإسلامية بعلي جرة. فإنه مع قلة بضاعته من اللغة العربية وأدبها، بدأ يفسر القرآن الكريم لنشر أفكاره الإلحادية باسم الإسلام، وقد فصلت القول فيما سبق عن تفسيره واتجاهه الديني. فاكتفي هنا بإلقاء نظرة عجي على موقف الفراهي من كتب اللغة وكيف فسّر ألفاظ القرآن فهل اعتمد على المعاجم العربية اعتماداً كلياً، أو جعل نصب عينيه القرآن وحده لأنّ بعضه يفسّر بعضاً. فإنه نفسه يحدّثنا عن موقفه من المعاجم العربية فيقول: إنّ كتب اللغة فقصرة فإنها كثيراً ما لا تأتي بحدّ تامّ ولا تميز بين العربي القح والمولد ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا تدري ما الأصل وما الفرع؟ وما الحقيقة وما المجاز؟ فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله. ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا ما هو منحول وما هو شاذّ ولكن لا يصعب التمييز بين المنحول والصحيح على الماهر الناقذ، فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا بما ثبت وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة كما قيل في معنى "التمني" أنه التلاوة. وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذّ الذي لم يثبت إلا فراراً من بعض الإشكال. وهذا أفتح لأبواب الفتنة واختلاف الأمة، فن ترك جادة الطريق واذلها لعبت به الأوهام والأهواء.¹

هذا هو رأي الفراهي في كتب اللغة. وقد أصاب في قوله فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب إذ نرى المفسرين الذين اقتصروا على كتب اللغة ولم يعرضوا ما ورد فيه شرح بعض كلمات القرآن الكريم على محك النقد، قد وقعوا في غلطات فاحشة، فعلى سبيل المثال نذكر هنا لفظ "التمني" فقد فسّره المفسرون واللغويون بالتلاوة.² ولكنهم لم يفكروا للمحة قصيرة أنّ هذا المعنى يورد اعتراضاً كبيراً على عصمة الأنبياء عامة وعلى عصمة النبي محمد صلوات الله وسلامه عليهم خاصة، فكيف نستطيع أن نحكم عليهم بأنهم معصومون،

¹ مقدمة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 12

² تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص 294

مادام الشيطان قادراً على أن يغيّر تلاوتهم ويفسد كلامهم. قال الإمام الفراهي في تفسير الآية الكريمة التي وردت فيها هذه الكلمة، تمنى أي تلا كما قال المفسرون والقاضي عياض ظنه أحسن الأقوال، وبذلك قال عبد القادر الجيلاني. وعندي- والعلم عند الله- أنّ هذا تكلف وفرار عن حل المسئلة، فالأمانى في الآية المستندة بما ليس بمعنى التلاوة، لأنّ السياق يأباه فقد أراد الله بقوله: "ما من نبي ولا رسول إلا له عدو من شياطين الإنس والجن. كلما أراد النبي أن يفعل شيئاً سبق الشيطان فألقى في أمنيته إشكالاً وفيما أراد من التعليم اعتراضاً، كما ترى أبا لهب حين قام النبي صلى الله عليه وسلم لينذر قومه، فقبل أن يجيب أحد بادره بالقول الباطل وهكذا يجري أمر الشياطين فيضلون الناس بأقوال كاذبة باطلة، وهذه السورة انعقدت لبيان هذا الأمر الخاص¹ من أعداء النبي بالشياطين وهكذا في سورة الأنعام والفرقان والشورى فإنهم اعتراضوا فيما أحل من الطيبات، فقال في سورة الأنعام: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَلِتَضَعِيَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيُقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٣٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٥﴾ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنِ الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِقَائِلَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا" ². وهكذا قال الله تعالى في سورة الفرقان: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ

¹ تفسير القرطبي، 82/12 والطبري، 131-134/17، ولسان العرب، 164/20 والقاموس المحيط،

392/4

² سورة الأنعام: 112-118

نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾¹.

فأحبّ هنا أن أعرض أمثلة من تفسيره اللغوي حتى نعرف مدى نجاحه بهذا الصدد. يقول في تفسيره للآية الكريمة "وَأَلْتَقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ" ﴿٣١﴾². المعنى الآ يقدر المرء على المشي ويكون هذا من شدة الضعف. فإذا مات الإنسان تبين أن قد التقت ساقاه بعد أن كان جوالاً كما قال دريد بن الصمة:³

فإن يك عبد الله حلّى مكانه فما كان وقافاً ولا طائش اليد
كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع أنجد
وتصوير الضعف بالتفاف الساق أمر ظاهر وجاء في كتب الأنبياء. فعنى الآية أنه بعد ما يئس منه الطيب وودعه القريب وخانه أطوع أعضائه فكيف يكون مآله وهو مسوق إلى ربه قليل الأزر كثير الوزر، وأما الساق بمعنى شدة الأمر فقول من لا يعرف من اللسان غير اسمه فلا يميز بين دلالة المجموع ودلالة الأجزاء. والكشف عن الساق إنما يدل بمجموعه على الجذ والتشمير والكشف هو الكشف والساق هو الساق.⁴

وحيثما يعرض الفراهي للفظ القرآني عرضاً عرفته العرب في معاني منطقتها لأنّ القرآن عربي فيثبت أصل الكلمة ويفند قول من يقول إنّ هذه الكلمة لم تكن معروفة عند العرب، فيقول شارحاً كلمة "الأبّ" التي وردت في الآية الكريمة "وَفَكَهَةً وَأَبًّا" ﴿٣١﴾⁵. "الأبّ" العشب والمرعى من أبّ يؤب وأباباً وأبابةً نشأ وطلع، وهي مادة قديمة جرى فيها تصرف اللسان فتجدّها في صور متشابهة مثلاً أمّ، همّ، هبّ، تأهبّ" فأبّ

¹ سورة الفرقان: 31

² سورة القيامة: 9

³ شاعر إسلامي اشتهر بالشجاعة والبسالة، قتل بعد وقعة حنين في 629هـ، ترجمته في الأصمعيّات، ص 105

⁴ تفسير نظام القرآن (سورة القيامة)، ص 19-20 ومفردات القرآن، ص 42

⁵ سورة عبس: 31

صورة أخرى لهبّ، ولذلك نظائر مثلاً هزّ، أزّ، أراق، هراق، قال الأعشى¹:

أخ قد طوى كشحاً وأبّ ليذهبا²

أي هبّ وهمّ، وإنما سمّي المرعى أباً لنشئه أولاً بعد المطر، ومنه إبان النبات لأوّل خروجه. ثم توسع فقيل إبان الشباب لمناسبة ظاهرة ثم إبان كل شيء أول وقته، يقال "كل الفواكه في إبانها" وتوهم الجوهري وغيره فجعل "الإبان" فعلاً من مادة ابن ولا مناسبة بينهما فإنّ ابنه بشيء اتهمه به من الابنة وهي العقدة في العود، وإنما هو فعلان من أبّ لما يدل عليه المناسبة بينهما ولما تجد هذه المادة بهذا المعنى في العبرانية وهي أخت العربية اأبب (أ ب ب) اأب (أ ب) الخضرة والثرّة اأبب (أيب) السنبلة الخضراء، وأول شهرهم هو الربيع لظهور النبات فيه أولاً. ومما ذكرنا تبين أنّ هذه المادة مما عرفته العرب وإنما قلّ استعمالها في أشعارهم لخفة مرادفاتهما ولكن إذا أريد استعمال كلمة جامعة وحسن موقعها لم تترك بل تكون أحسن من غيرها³.

وقد ورد في بعض الروايات أنّ عمر وأبا بكر رضی الله عنهما لم يكونا يعرفان معنى "أبّ" و"تخوّف" فقد جاء في حديث أنس أنّ عمر بن الخطاب رضی الله عنهما، قرأ قوله عزّ وجلّ "وَفَكَهْمَةً وَأَبًّا" ^٤ وقال فما الأبّ؟ ثم قال ما كلفنا وما أمرنا بهذا⁴ وقد ناقش الفراهي هذه الرواية ثم قال: لا يصح الاعتماد عليها لأسباب منها:

1. إنّ هذه السورة مكية والصحابة أهم شغلهم القرآن وتلاوته فكيف لم يسألوا

¹ شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم لحبّه للمال وهو من شعراء العرب المفلقين، يعدّ من أصحاب القصائد العشر، طبع ديوانه باعتناء المستشرق رودلف نيمير.

² لسان العرب، 407/2

³ تفسير نظام القرآن (سورة عبس)، 18، قد جاء الفيروزآبادي بهذا اللفظ في باب ابنه، ولكن فسّره الفراهي، فقال إبان الشيء: بالكسر حينه وأوله، القاموس المحيط، 114/4، لسان العرب، 111/1

⁴ لسان العرب، 11/1

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن معنى الكلمة مع طول مدة الصحابة وكيف لم يعلمهم النبي إياها حتى إذا توفي النبي فقرأوه اطلعوا على عدم علمهم بهذه الكلمة وانتبهوا فاعترفوا بجهلهم بها.

2. إننا نجد القرآن أسهل وأبين لساناً من عامة أشعارهم وخطبهم وكانت قریش يحكمون على الشعراء في عكاظ وكان أبوبكر من رؤسائهم وخطبائهم وكان عمر لسان قریش وسفيرهم فلا بد أن يكونا أعلمهم بصروف الكلام وقد علمنا كثيراً من انتقاد عمر ما يدل على علو محله في علم اللسان العربي.

3. إن القرآن إنما أنزل بلسانهم عربياً مبيناً ليدعى الناس به ويعقلوه كما قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ"¹. وقال تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"².

4. إنّ الوضّاعين لم يذكروا ذلك إلا عن أكبر الصحابة وأعلمهم لأن يوهنوا بذلك كيان الإسلام.³

ومن الكلمات التي زعم بعض اللغويين والمفسرين بأنها كانت غريبة عند العرب وقت نزول القرآن، كلمة "الرحمن" فقال الفراهي حول هذا اللفظ: "الرحمن اسم مخصوص بالرب تعالى والعرب عرفته ولم تسم به غير الله إلا رحمن اليمامة"⁴. ولكن

¹ سورة إبراهيم: 4

² سورة الزخرف: 3

³ تفسير نظام القرآن (سورة عبس)، ص 19. وقد تناول أحد المستشرقين هذا اللفظ وكان أستاذاً للدراسات الشرقية بجامعة ماينز MRINZ فقال إن هذه الكلمة ليست من العربية وقد ردّ عليه الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه القيم "ما يقال عن الإسلام"، ص 217. وقد تكلم الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه "الرسالة" عن ألفاظ القرآن الكريم بأنها عربي مبین، انظر: ص 40 إلى 53، طبع مصطفى البابي الحلبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

⁴ وهو مسيلة الكذاب. انظر لسان العرب، 121/15

بغير حرف التعريف، فكلمة "الرحمن" لم يعرفوا بها إلا الله تعالى فهو قريب من اسم الذات، وزعم أكثر الناس خلاف ذلك فظنوا أنّ العرب لم تعرف هذا الاسم لله تعالى وتمسكهم قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿١٠٠﴾".¹ ولكنهم إن لم يكونوا يعرفونها فكيف جاء استعمالها في أشعارهم. قال حاتم الطائي (وهو جاهلي):

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد وماكنت لولا ما تقولون سيّدا
كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا فإنّ على الرحمن رزقكم غدا
والقرآن أنزل بلسان قوم نبينا وحينئذ كيف يستعمل اسماً لمعنى جديد؟ ثم القرآن نقل
عن المشركين تسميتهم الرب تعالى باسم "الرحمن" وذلك قوله تعالى: "وَقَالُوا لَوْ شَاءَ
الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا لَهُمْ". وقال أعشى قيس:²

ولا جعل الرحمن بيتك في العلا بأجباد غربي الصفا والمحرم
وقال المثقب العبيدي:³

لحى الرحمن أقواماً أضاعوا على الوعواع أفراس وعيس
وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري:⁴

كتب الرحمن، والحمد له، سعة الأخلاق فينا والضعف

¹ سورة الفرقان: 6

² قد مضى ذكره.

³ من شعراء الجاهلية في العراق كان زمن عمرو بن هند توفي 520 من شعره الذي استحسنته الناس:

لا تقولن إذا ما لم ترد أن تتم الوعد في شيء نعم

حسن قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم

انظر شعراء النصرانية للأب لويس شيخو، ص 377 طبع بيروت 1790 م

⁴ المصدر نفسه، ص 120-121

ولم يكن الإمام الفراهي عالماً لغوياً فحسب بل كان عالماً فلكياً نرى كثيراً من ملاحظه في تفسيره فإنه حينما يفسر الآيات الكونية يكشف لنا عن مدلولاتها ويصور معانيها تصويراً حسيماً دقيقاً كأنه يشاهدها بعينه، يقول في تفسير قوله تعالى "وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴿٥١﴾": اعلم أنّ النجم يراد به الثريا وهذا أمر معلوم وكثر في كلام العرب¹ ثم اعلم أنّ للنجم اعتبارين، اعتباراً لطلوعه في الفجر وهو المراد بالنوء² وكانوا ينسبون المطر إليه ونهى الشرع عن ذلك، واعتباراً بأفوله ويجعل الله على كونه عبداً ساجداً لربه وجعله لنا وقت السجود كما قال "وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومَ ﴿٥١﴾"³ ثم اعلم أنّ المراد بهويّ النجم سقوطه في المغرب كما قال "فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾" أي بمساقطها في المغرب ثم اعلم أنّ القسم في القرآن بهذه الأشياء ليس إلا من جهة أنها من الآيات الدالة⁴ ثم اعلم أنّ العرب كانت تذكر مواقع النجوم كناية عن الأوقات كما قال تعالى "وَإِدْبَرَ النُّجُومَ" فكأنّ به عن نصف الليل فإنّ المراد به إدبار النجوم التي رآها الناظر في أول الليل فإذا هبّ مجتهد رآهن قد أدبرت وهذا إلى الصبح فهو يصلي والنجوم راكعة ساجدة معه فيرى الخلق عابدة والأرض ساكنة هامدة فبكر

¹ لسان العرب، 46/16 قال ابن منظور: "وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ" قال أبو إسحق: أقسم الله تعالى بالنجم وجاء في التفسير أنه "الثريا" وكذلك سمّتها العرب ومنه قول ساجعهم:

وطلع النجم هدية وابتغى الراعي شكية
وقال:

فبات تعدّ النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها

² النجم الذي مال للغروب (المطر) يقولون "صدق النوء" إذا كان فيه مطر ولم يخلق. وقيل معنى النوء سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيقه وهو نجم يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح فينسبون كل غيث يكون عند ذلك فيقولون مطرنا بنوء الثريا أو بنوء الدبران.

³ سورة الطور: 49

⁴ قد تكلم الفراهي عن القسم بالتفصيل في كتابه القيم "الإمعان في أقسام القرآن".

للحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم هبوه في الليل ما يدل على هذه المعاني.¹

ثم اعلم أنّ الهوى أعمّ من الإدبار فإنّ النجم إذا جاوز كبد السماء فقد هوى وأدبر وإذا سقط في المغرب فقد هوى، ولكنه أدبر قبل ذلك، ثم إدبار النجوم لا يدل إلا على ما بعد نصف الليل في جميع أزمنة السنة وأما هوى النجم أي "الثريا" فطلق يكون من ابتداء الربيع فإنك إذا ترى الثريا من أول الليل مائلة إلى المغرب واعتبار الهابط يكون بالمساء والطلع بالصبح، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون الأنواء بطلوها في الصبح ويسقطها في المساء، ويسمّون الساقط رقيباً فإنه بعد زمن يسير يطلع من المشرق وإنما اعتبروه الرقيب لأجل أنّ النوء خفي تحت نور الصبح فلا يظهر عند كونه نوراً فنظروا إلى الساقط الذي سيكون النوء فكانوا يرتقبونه وسمّوه رقيباً كأنه ينتظر زمان طلوعه نوياً أو لأنه خلف له فإن خلف الرجل رقبته، ولذلك يسّمون العيون رقيب "الثريا" وقد أخطأ في هذا الأمر أكثر المنصفين فظنوا أنّ الرقيب ما يسقط في الصبح وقد ذكرت العرب سقوط الثريا في أول السحر أيضاً ولكن مع القرائن وأما على الإطلاق فكما ذكرنا فعنى قوله تعالى "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ" أنه إذا سقط في أول الليل وهذا يقع في الربيع وبعد ذلك زمان استقلاله بالصبح. ويتبدئ سقوط الثريا من آخر الشتاء فيظهر أولاً في الأفق الأعلى ثم يدنو ويتدلّى إلى أنه يغيب ثم بعد أيام يظهر من المشرق في الصبح.²

وعندما يشرح الفراهي الألفاظ الدينية في القرآن الكريم يظهر كأنه مستوعب لمطالب

¹ قد ورد في الأحاديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حينما يقع في الليل لصلاة التهجد ويريد التوضي يخرج من البيت ثم يتوضأ جاعلاً وجهه إلى السماء وهو يتلو هذه الآيات الكريمة "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ... إلى آخر السورة، وهي الآيات من 190 إلى 200 من سورة آل عمران ولعل الفراهي قصد إليها. انظر صحيح البخاري، 2/51-53 من كتاب التفسير.

² تفسير نظام القرآن (سورة النجم)، ص 396. وكتاب الأديان والأزمان (مخطوط)، ص 14

القرآن ويعرف روحه لتديره الطويل ويشرح هذه الكلمات شرحاً يجعل القارئ كأنه لم يبق في ذهنه أي غموض. يقول في تفسير لفظ "الإيمان". هو من الأمن فالإيمان هو الاعتماد ومن هنا آمن به: صدقه وأيقن به، الفرق بين الإيمان والإيقان أن الإيمان تصديق وتسليم، وضده التكذيب والجحود والكفر، والإيقان ضده الظن والشك فليس كل من أيقن صدق، بل إنما يكذب المرء عتواً ومكابرة وقد أيقن بالشيء كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: "فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا"،¹ وكذلك ليس كل من آمن فقد أيقن فربما يؤمن الرجل بغلبة الظن ثم يوفقه الله فيخرج عن الظن ولكن لا يكمل الإيمان إلا بالإيقان فالإيمان جزءان علم وتسليم وبكاملهما يكمل، وآمن له: أذعن لقوله، آمنه أعطاه الأمن. فهذا هو الأصل لغة وهو قديم في العبرانية אֱמַן (أمن) معناه الصدق والاعتماد والتعدي فيه إيمان وتصديق ومنه אֱמִינָה "أمين" كلمة التصديق. ثم علمنا القرآن فروع هذا الأصل. فمنها أن المؤمن لا بد أن يتوكل على الله كما قال تعالى: "زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".² ومنها أن لكونه جزءاً واعتقاداً لا بد أن يسوق إلى العمل كما قال تعالى: "يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣١﴾".³

ويقول الفراهي شارحاً لفظ "الإسلام": معناه ظاهر بين وهو الطاعة والخضوع ولكن القرآن رفع هذه الكلمة نخصها لطاعة الله مثل كلمة الدين فإنه الطاعة أصل اللغة وقد استعمله العرب لطاعة الله. ثم لهذا المعنى المبين وجوه ونتائج تاريخ والقرآن دل على كل ذلك فنذكر ما يتعلق بهذه الكلمة من وجوها:

¹ سورة النمل: 14

² سورة الأنفال: 2

³ سورة البقرة: 3

الإسلام هو العبودية وهو تسليم النفس لرضى الله بالكلية وبه يتقرب العبد إلى مولاه ويرفع منزلته حسب كماله في الإسلام قال تعالى: "وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَوَصَّى بِهَا (أي بملة الإسلام) إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ (أي وصى بها يعقوب بنيه قائلين، لأبناهما) يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ (أي القيام بالدين وخدمته وتعليمه للناس) فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾".¹ فذكر هنا طرفاً من تاريخ الإسلام وهو عهده بالله على القيام به ووصيته لذريته أي جعلهم الله أمة مخصوصة لخدمة الدين وهذا هو معنى الإسلام لله ويتقرب منه معنى القربان والندر كما يتبين لك من القرآن حيث ذكر طرفاً من تاريخ إسلام إبراهيم ودلّ على كمال معنى الإسلام وسماه إحساناً، فقال تعالى: "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٤﴾ وَتَدَيَّنَاهُ أَنْ يَأْتِ بِإِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّعْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾". فهذا هو كمال الإسلام المسمى بالإحسان.

ثم ذكر طرفاً آخر من إسلام إبراهيم حين دعا لأمة مسلمة وارثة لملته ولأن بيعت نبياً منهم كما قال تعالى: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٩﴾".² وليعلم أنّ هذه الأمور ليست وقائع متبددة بل كل ذلك يجتمع حول نقطة واحدة. وهي واقعة القربان التي حفظها الله لشريعة الحج ومناسكه لنعلم تاريخ القربان وإسلام إبراهيم وإسماعيل، وأخبر الله عن حالة الذين حققوا حجهم بقوله: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٤٠﴾". فإسلام النفس لمرضاة الله هو معنى الحج والإسلام. ثم

¹ السورة نفسها: 127-128

² السورة نفسها، 207

علنا الله تعالى سعة معنى هذا الإسلام حيث قال: "أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" ﴿١٠٨﴾¹. تدلّ على أربعة أمور:

الأول: أنّ كل شيء أسلم لله، والثاني: أنّ كلهم يرجعون إليه وهذا معنى الإسلام فإن رجعوا إلى غيره كان الإسلام باطلاً فدلّ على المعاد. والثالث: أنّ الإسلام يتحقق بإطاعة رسله لما يظهر من سياق هذه الآية. والرابع: أنّ الإسلام لا يختلف فيه فإنّ كلهم أسلموا لله فدينهم واحد فلا مشاجرة فيه كما صرح في قوله: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠٩﴾ فَإِنْ حَاجَبَكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١١٠﴾². ثم الإسلام ينافي الشرك فالمسلم هو الموحد لأنّ من أشرك بالله لم يسلم نفسه لله تعالى، قال تعالى: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" ﴿١١٣﴾³. أي أتم لستم بمسلمين فأنتم خلاف ملة إبراهيم الذي وصّى بنيه بالإسلام كما مرّ ولذلك قال بعد آيتين: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" ﴿١٣٠﴾⁴. فبين معنى الإسلام ويشبه هذه الآيات قوله تعالى: "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ﴿١٣١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (أي تولى عن الشرك وأقبل إلى ربه كالعبد) وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ

¹ سورة آل عمران: 83

² السورة نفسها: 17-20

³ السورة نفسها: 64.

⁴ السورة نفسها: 67

أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾¹. وهو محسن أي أحسن إسلامه بالاستقامة وبالأعمال الصالحة ورضى القلب فدلّ على تمام معناه لا على أمر زائد فإنّ من أسلم وجهه لله لا بد أن يكون محسناً وفي هذا التوضيح فائدتان؛ الأولى بيان أنّ العمل الحسن يلزم الإسلام والثانية أنّ البقاء على الإسلام لازم فن أسلم مرة فكأنه عامله بالطاعة ولذلك قال تعالى: "فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"³.

قد أطلت في نقل رأي الفراهي في معنى الإسلام والإيمان وذلك ليتبين أمامنا أنه لما يشرح أي كلمة من الكلمات القرآنية لا يمرّ بها سريعاً بل يحيط بها إحاطة تجعلها واضحة أمام القارئ. كما اتضح من هذا البيان المتقدم ذكره أنّ الفراهي لا يأول في الآيات القرآنية تأويلاً يأباه روح القرآن ليثبت رأيه ونظريته بل إنه يقرأ القرآن كله قراءة الواعي البصير ثم يبدأ يشرح آية من آياته أو كلمة من كلماته، ولعلي بما أسلفت من القول له أوضحت أمام القارئ مكانة الفراهي في اللغة العربية وتضلعه من أساليبها المتنوعة، فانتقل إلى بيان الناحية الأدبية في شخصية الفراهي.

وثانياً- الفراهي البلاغي الأديب: فالفراهي كأديب تطالعنا شخصيته من ثنايا تفسيره فهو إذ يفسّر القرآن الكريم يتذوق معناه وجماله ومطلوبه وحلاوته وأنّ فضل قراءته على قراءة الكتب الأخرى فضلها لجمال معناه وأسلوبه ولأنه كتّاب ربّاني يهدي الإنسانية إلى ما فيه خيرها وبه فلاحها، وكان رحمه الله يحبّ القرآن وتلاوته حينما كان لا يفهم معانيه ولا يدرك بلاغته ولكنه كان يلتذ بالصوت المعجز الذي ينبع من تنسيقه المعجز ونظمه البديع فلما درس اللغة العربية وتضلّع منها جعل هدفه الوحيد تلاوة القرآن الكريم، وتديره فكان كتّاب الله تعالى أحبّ الكتب وألذّها عنده.⁴

¹ سورة البقرة: 111-112

² مفردات القرآن للفراهي، ص 22-24

³ مقدمة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 3

⁴ المصدر نفسه، ص 2

وهنا أعرض لناحية إحساسه البلاغي وشعوره الأدبي وتذوقه الجمالي للنص القرآني فهو يحيا بجسمه وبروحه في ثنايا النص ثم يعود إلينا وقد لمع معاني نفسية استشفها من باطن النص من طول ألفته به. فيحدثنا مثلاً عن تقديم المتأخر وصحة التصوير في قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي آعُودُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ" ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ¹ فلننظر كيف ضمّ السلام والبركات بدعائه فإنّ دعاء نوح في ابنه ورده من الله تعالى واستغفار نوح والاستجابة كل ذلك جاء متأخراً بعد تمام الواقعة ولا شك أنّ سؤال نوح في ابنه كان قبل فراقه وقبل استواء الفلك على الجودي. فلو وضع هذه الأمور في محلها الزماني تباعدت أجزاء التصوير ولم يتضح حتى إنك لو شئت لمثلته على القرطاس. ثم انظر كيف أدمج القصة في خمس آيات وجعل الخمس الباقية لدعاء نوح والبركة فجمع القصة في آيات عشر،² وجعلها صورتين كاملتين إحداهما ببعض الثانية فهذا هو الوجه الصحيح للتقديم والتأخير. ثم من أحسن البيان منه أنّ إهلاك ابنه صورة بغتة وفي أسرع حالة ومن ذلك هو أبين تصويراً، ولا أدري كيف ألقى في قلبك ما أجد في قوله تعالى: "وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ"³ فيمثل بين يديك الطوفان والسفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال ثم وليرنّ في أذنيك كلام الوالد الذي يحنّ إليه ويلطفه بقوله "يٰٓأَبْنَىٰ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ" ثم بقوله "لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ" ثم يأس فيقع ما يقع، ولو رأيتني حين أكتب هذه الكلمات لوجدتني باكياً أردّ حشرجة الصدر،⁴ ومثل هذه السرعة ترى في قصة إبراهيم "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" ﴿١٣١﴾

¹ سورة هود: 47-48

² إشارة إلى الآيات (39-49) من سورة هود التي جاءت فيها قصة نوح عليه السلام.

³ سورة هود

⁴ جمهرة البلاغة، ص 64

وَنَدَيْتَهُ أَنْ يَتَابِرْهِيمُ ﴿٦٤﴾¹. ولقد بكيت عليها كما أبكي اليوم على هذه.²

أما من الناحية الأخرى من التصوير القرآني فيحدثنا الفراهي عنها قائلاً إذا أردت أن تصور شيئاً فانياً ماضياً تستعمل له الحال، فالحال أشد تصويراً من الماضي ولكنك إذا أردت أن تصور أمراً غائباً في المستقبل تستعمل الماضي كأنك تريد أن تجعل ما هو كائن كأنه قد كان كما ترى في قوله تعالى: "مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٦٤﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٥﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٧﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٦٨﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾".³ فانظر كيف بدأ بالحال ثم ذهب إلى الاستقبال إخباراً ثم لتمثيل الحال التي أخبر عنها جاء بالماضي فإذا فرغ من التمثيل رجع إلى المستقبل. ثم انظر كيف أنه جعل المستقبل ماضياً فيه الحال فيصور لك ما تظنه غائباً فقوله تعالى: "فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ" وقوله تعالى: "فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ"⁴ إدراج الحال في الماضي.⁵

وحيثما بيّن الفراهي اللطائف والحكم الموجودة في الآيات القرآنية تبين لنا مكانته العلمية والأدبية كما يظهر أنه واسع الاطلاع على أساليب العرب. يقول عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الذاريات: "مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ" لا يخفى أنّ المفهوم منه مع ما قبله أنّ بعثكم وجزاءكم حتى آي واقع ولا ريب فيه مثل ما أنكم تنطقون فلا تشكّون فيه، وهذا القدر في غاية الظهور من الكلام ثم في هذا التمثيل من الحكمة ما

¹ المصدر نفسه، ص 64

² سورة الصافات: 103

³ جمهرة البلاغة، ص 64

⁴ سورة يس: 49-54

⁵ جمهرة البلاغة، ص 76

يحتاج إلى التدبر وقد نبّه على ذلك بما اختار مثال النطق، فلم يقل مثل ما أنكم تنظرون أو تسمعون أو تأكلون أو تشربون أو غير ذلك من الأفعال الظاهرة فإذا تفكرت في حكمة اختيار هذا المثال هديت إلى أمرين عظيمين:

الأول هو كون النطق أولى باليقين من سائر أطوار النفس، والثاني كونه متضمناً لما يستدلّ به على المعاد كما سيأتيك وستجد في كلا الأمرين من الحكمة ما يري العقول ويشفي الصدور.

ويفصل هذا القول فيقول: أما الأمر الأول وهو كون النطق أولى باليقين فمن ثلاث جهات: الأولى: إنّ النطق أقرب إلى النفس من سائر أطوارها وذلك بأنّ النفس تنتبه على كل شيء بوساطة الفكر وأما الفكر فليس بينه وبين النفس واسطة والفكر هو النطق الحقيقي ولذلك سمّي العقل نفساً ناطقة، والنطق المسموع إنّما هو ظهور ذلك النطق الحقيقي، فعلم النفس بنطقها الحقيقي هو أبده البديهيّات وأولى باليقين.

والثانية: أنّ النطق أرسخ في النفس وذلك بأنه داخل فطرة الإنسان وخاصته ولذلك عرفوا الإنسان بالحي الناطق وقد عرفت العرب ذلك، قال المرقش الأكبر:¹

هل بالديار أن تجيب صمم لو أنّ حياً ناطقاً كلم²
والثالثة: أنه ليس في أطوار النفس ما يساوي النطق في كثرة الشهادات المتواطئة ولا يخفى أن تطابق الشهادات على شيء أمر زائد على كونه بديهيّاً أو فطريّاً واليقين إنّما يتم بكثرة الشهادات فإذا نظرت إلى النطق من هذه الجهة وجدته أوفر نصيباً من غيره وذلك بأنّ الناطق أولاً يفكر وهو النطق الحقيقي، ثم يرى فكره يجري على لسانه

¹ هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة كان على عهد مهلهل ابن ربيعة وشهد حرب بكر وتغلب، معجم الشعراء ص 4، والأغاني، 189/5

² المفضليات، ص 237

مطابقاً لما فكر ثم يسمع بأذنيه ما نطق به لسانه فيجدهما مطابقين ثم يسمع الجواب من المخاطب مناسباً لما تكلم به ثم هذه الشهادات تتكرر بأن في كل حرف شهادة على هذه المطابقات فلا شيء كالنطق دليلاً على وجود النفس ومن هنا حسن اختيار فعلية النطق. فلم يقل مثل نطقكم بل قال "مثل ما أنكم تنطقون" وتبين لما قدمنا أنّ اليقين بكل شيء فرع على اليقين بالنطق فهو أصل اليقينية والاستدلالات.¹ ثم بين الفراهي أنّ التمثيل حيناً يكون دعوى ويكون دليلاً حيناً آخر فعلى هذا تمثيل النطق ههنا ليس دعوى محضاً ولكنه دليل استدل به على ثبوت المعاد.² وقد أطال الفراهي القول في شرح الآية والكشف عن بلاغتها وحكمتها ولكن أتركه خوفاً من الإطالة ولأنّ الهدف من سوق الكلام قد تحقّق وهو أنّ الفراهي كأديب واسع الاطلاع على أساليب العرب البليغة يدرك بلاغة القرآن ويكشف عن حكمها ولطائفها.

وهناك بعض العلم أو قلّ بعض الرموز والإشارات في القرآن الكريم التي لا يستطيع أن يقف عليها إنسان أو يدركها بتليذه على الأساتذة في الجامعات أو بمطالعة الكتب في الفلسفة والبلاغة والأدب، بل إنه يحتاج في فهمها ومعرفتها والكشف عن غطائها إلى روح صافية وقلب ذكي ونية صادقة لا تشوبها شائبة من الرياء أو السمعة وهذا بالإضافة إلى تدبر عميق متواصل في كتابه العظيم حتى يتأتى له ذوق خاص ليرى بنور الله، وأنا أريد أن أبين مثل هذه الأمور تحت عنوان: "الذوق عند الفراهي".

كان الفراهي يفكر في القرآن وللقرآن، فكل ما قرأ أو آلف، علم أو تعلم ليفهم القرآن الكريم ويفهمه الناس، فمن كان هذا رأيه لا يستبعد أن يكون له ذوق خاص لا يشاركه فيه أحد. فيقول رحمه الله في تفسيره لسورة الفاتحة "إنّ هذه السورة لكونها أصل الصلاة إذا قدّمت على سائر القرآن استنبطنا من موضعها أنّ الصلاة أول

¹ نظام القرآن (سورة الذاريات)، ص 17

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

الأحكام وأن تارك الصلاة نابذ للدين ولما كان هذا الاستنباط بطريق الإشارة نظرنا في أحكام القرآن والسنة فوجدناه موافقاً لهما فصحت هذه الإشارة عندنا وعظمت لدينا منزلة الصلاة بأن الله تعالى جعلها فاتحة عهده بها. وإن عهد الرب بهذه الأمة إقامة الصلاة. فتمسكنا بها تمسكنا بجلل الله عز وجل وعروته الوثقى، فینصرنا على أعدائنا ويحفظنا عن أعدى عدونا الذي بين جنبينا كما وعد بنا كثيراً في كتابه.¹

ويكشف عن بعض رموز هذه السورة الدقيقة فيقول: اعلم أنه - القرآن - لم يصرح بعد بعدد آيات سورة غير هذه بل سماها الله تعالى بعدد آياتها² فدعينا إلى التدبر فيه وللعهد اعتبار عظيم في الكتب المقدسة وكذلك عند الحكماء جميع أمور العالم مقدر بالأعداد وبمثل ذلك جاء القرآن حيث قال تعالى: "إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٥٥﴾" ومثله "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ" ثم يحدث بأن القرآن يخبر بأن عدد حملة العرش ثمانية، ويشير بذلك إلى الآية الكريمة "وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ"³. ولكنه يقول إن عددهم اليوم أربعة فقط فيزيد يوم تأتي القيامة، ثم يطبق بين هذه الأرواح العليا أو حملة العرش الذين عددهم ثمانية وبين آيات سورة الفاتحة، فيقول إن عدد آيات هذه السورة منازل ودرجات سبع وفوق كلها كالتاج المبارك آية بسم الله الرحمن الرحيم في درجة ثامنة عليها تجليات أنوار الله التي عبر عنها بالعرش وكما بين في قوله: "إِنَّ الْمُنْتَقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٦﴾" في مقعد صدق عند مليك مقتدر⁴. فهذه السورة كما هي جامعة للقرآن فهكذا هي جامعة لعوالم الأرواح وحاملة لعرش ربنا.⁴ وقد استدلل الإمام الفراهي هنا على قوله بالكتب المقدسة ولكن تركا ذلك خوفاً من الإطالة.

¹ تفسير سورة الفاتحة، ص 45

² يشير إلى الآية "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾" من سورة الحجر: 87

³ سورة الحاقة: 17

⁴ القرآن يشتمل على ثلاثة علوم- وهي التوحيد والرسالة والمعاد، فهذه السورة قد جمعت هذه العلوم في وقت واحد.

ويستطرد الفراهي إلى الكشف عن حكم أخرى في هذه السورة وهي أنها تبين درجات الأنبياء الكبار فيقول: إن الآية الأولى "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" تشير إلى درجة محمد، والآية الثانية "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" إلى درجة عيسى لما كان على غاية صفة الرحمة لوجوه ظاهرة وخفية فمن الخفية أن اسم الرحمن يستعمل كثيراً في سورة خصت بذكره وهذه نكتة لا أدري ذكرها أحد من المفسرين، ومن الوجوه الظاهرة أن الله ذكر خاصته في صفة اتباعه "وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً"¹. والثالثة "مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" تذكر لنا منزلة موسى لما كان على كمال العدل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يعط الله نبياً قبله من الأحكام المفصلة ولا بعده لأنبياء بني إسرائيل مثل ما أعطاه كما شهد به القرآن ومثل لهم دينونة القيامة وملكوته عز وجل. فكان الله تعالى عليهم ملكاً وأراهم آياته ليوقنوا بيوم الدين ومالكة، تأمل في قوله تعالى: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بَلِقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ"²، والآية الرابعة "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" تذكر لعهد داود لأن شعب الله قد دارت عليهم الدوائر فتداركهم بعون جديد وأعطاهم ملكاً عظيماً وأقام فيهم بيتاً لنفسه ليعبده ويباركوا بهذا المقدس، وقد ذكر الله قصة داود في سورة البقرة بحيث تذكر عون الله ونصرته وتعلم أن مقصده ليس غير العبادة وخلاص بيته المقدس قال تعالى: "وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَعَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"³. والآية الخامسة "أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" ظاهرة الإشارة إلى درجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإن الصراط المستقيم هو التوحيد والتوجه إلى الله وما من نبي إلا على هذا

¹ نظام القرآن (تفسير سورة الفاتحة)، ص 50-51، سورة الحديد: 27

² سورة الأنعام: 154

³ سورة البقرة: 251

الصراف ولكن إبراهيم هو رأس الموحدين وكم في القرآن من الآيات تسمى هدي إبراهيم صراطاً مستقيماً وهو أول من كسر الأصنام وهو الذي رفع قواعد بيت التوحيد، وهو أول من فر إلى الله تعالى بدينه فصار رأس المهاجرين ولذلك أمر الله نبينا باتباعه، وهو الذي سمنا مسلمين من قبل فالمسلمون أحق بإبراهيم. اتل قوله تعالى "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾" ¹ وقوله تعالى: "قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾". ² فتبين لك أن الصراط المستقيم له دلالة خاصة على درجة إبراهيم لإقدامه وتشهيره واستقامته. ³

وبعدما أثبت الفراهي مطابقة الآيات الخمس بهؤلاء المسلمين فقال: الآية السادسة إشارة إلى درجة نوح عليه السلام لما نرى في القرآن والتوراة لا نبي يذكر قبل إبراهيم إلا نوح كما جاء في بيان المنعم عليهم من الناس تفصيل الدرجات الأربع، فكذلك جاء تفصيل درجات المنعم عليهم من النبيين حيث قال تعالى: "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا"⁴، فقدّم نوحاً في الذين أنعم عليهم ولا شك أن نعم الله شاملة لجميع الخلق ومع ذلك فيه خصوصية وقد جعل الله نوحاً أول من خصه الله بها. فصار قدوة للذين أنعم الله عليهم من جهة ولذلك عرفنا لهم مقام هذه الآية والباقيون من أهل الأنعام معه، وقد جعله الله مبشراً بأكبر نعمة وهو تكميل الدين بنينا عليه الصلاة والسلام حيث جعل الله ذرية "سلم" أهل الدين وأن الباقي من

¹ سورة آل عمران: 68

² سورة الأنعام: 161

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (تفسير سورة الفاتحة)، ص 52-54 بتصرف.

⁴ سورة الذاريات: 51

نسله ينعم بهم ولم يصدق هذا إلا على نبينا عليه السلام لأنّ بعثة من قبله لم تكن عامة لكافة الناس، والآية السابعة درجة الذين خرجوا من المغضوب عليهم إلى المرحومين ومن الضالين إلى المهتدين وهم الذين تابوا من أهل الكتاب وغيرهم. فالمغضوب عليه مَنْ نبذ بالحق بعدما عرفه وتبين له كاليهود والضالّ من أخذ إلى الباطل وألح عليه كالنصارى، فالمنقذون هؤلاء هم الملحقون الآخرون بأولئك الأربعة وبهم يكمل ويتم خاتم كمال آدم عليه السلام وهناك يغلق باب الجنة، فالآية السابعة متعلقة بالتوايين من اليهود والنصارى اللاحقين بالذين أنعم عليهم الله. ولما كانت التوبة أودعت الفطرة وبها بدأ السلوك على الصراط وعلّمنا أنّ آدم عليه السلام رأس التوايين فهمنا من الآية السابقة درجته.¹

هذه خلاصة ما قال الفراهي عند كشفه عن الحكم واللطائف المودعة في هذه السورة. وقد بينتُ فيما سبق أنه قد هداه ذوقه ووجدانه إلى هذه الأمور فنّ يحبّ أن يعرف ويحيط بكل ما قاله في التفسير للسورة فليرجع إلى "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" ولأنّ المكان لا يتسع لذكر كل ما قاله بهذا الصدد فأكتفي بذلك.

وأنتقل إلى أمر آخر وهو استدلال على الأمور الخفية بالأمور الظاهرة. قال الله تعالى في سورة الذاريات: "وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" ²، فبعد ما فسّر الفراهي هذه الآية وبين ما تشتمل عليه من المعاني والإشارات، استطرد إلى بيان ما خفي على معظم الناس فأثبت أنّ الآية يذكرها أنّ الله قد خلق من كل شيء زوجين، تدلّ على التوحيد وما يلزمه من الإيمان بالرسالة والمعاد بقوله إنّ الخلق مع سعته واختلافه في الطبائع شاهد على رب واحد مدبر قاهر كأنه لو كان في كل خلق ربّ يديره لم يكن بين طبائع أفراده تواطؤ على نتيجة ليست فائدة إليها لأنك ترى أفرادها مستترّة فيه لنفع

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة الذاريات)، ص 38-39

² سورة مريم: 58

أبعدها وزعم الملحدون أنّ كل موجود نشأ وتم وترقى لقوى مستترة فيه فأبرز أعضاء لما يصلح بشؤونهم ويقضي حاجاته، فهذا مع سخافته لا يكتشف عن أمر خارج عن نفس الشيء وهو مناسبة لما هو في غاية البعد من علمه وحاجاته، فناسبة زوج لزوجته تستدعي خالقاً خارجاً عنها عالماً بمصالحهما لكي يجعل أحد الزوجين موافقاً للآخر ولا يخفى أنّ هذا العالم بأسره شيء واحد وفيه أمور غير تامة تقتضي لتمامها زوجاً يتم به وتتم به مصلحة كليهما وهي الدار الآخرة فهذا الاستدلال يتضمن أمرين عظيمين: الأول إثبات خالق قادر حكيم جعل الخلق بعضه تماماً وزوجاً للآخر وأصلح هذا لذلك حتى ينتع منافع لعباده، والثاني إثبات معاد ودار أخرى لهذه الدار المشهودة.

وهناك وقائع وأخبار الأمم الذين هلكوا بعذاب الله، قد ذكرها القرآن بأساليب مختلفة فهل ذكرها بدون هدف. كلا، بل يسردها القرآن الكريم ليتعظ بها الناس ويعرفوا أنّ الله لا يحبّ اللحم والدم بل يحبّ العمل الصالح وقد أهلك بني إسرائيل أن وقعوا في الزعم بأنّ الله اختارهم من بين الأمم لأنهم ينتمون إلى سلالة شريفة ولكن هذا الزعم الباطل لم يغن عنهم من الله شيئاً، وحقّت عليهم كلمة العذاب وباءوا بغضب من الله في الدنيا والآخرة. فهذه الوقائع والأخبار الماضية يذكر القرآن الناس الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلّم وسيجيئون بعده بأنهم إن سلكوا مسلك المفترين من الأقسام الماضية سيحلّ عليهم غضب الله كما حلّ على أسلافهم، وانتمأؤهم إلى الأمة الإسلامية لا يغني عنهم من الله شيئاً وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلّم هذه الفكرة في قوله لفاطمة ابنته: "يا فاطمة، اعلمي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً أو كما قال¹." وقد كشف الفراهي عن هذه الحقائق عند تفسيره لقوله تعالى: "نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا" من سورة "الشمس". فقال: كانت طغوى ثمود أنهم لم يقتنعوا بتكذيب رسولهم وتسفيهه بل

¹ صحيح البخاري، رقم الحديث: 2753، 3527 و477 وصحيح مسلم، رقم الحديث: 348 و350 و351 وصحيح الجامع للألباني، رقم الحديث: 7982 وتختلف ألفاظ الرواية. (ه.ش.)

اجترأوا على عقور ناقة الله وقتل نبيهم بعدها غرة، كما قال تعالى: "قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ ﴿٥١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾" ¹ وجاء في مكر قريش برسولهم: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتِلُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾"، ² فتشابه أمرهما وقد علم الله تعالى من قريش أنهم يريدون بينهم كما أرادت ثمود بصالح وإنما عقروا الناقة أولاً لينظروا عاقبته فإن لم يأخذهم عذاب كما أخبرهم صالح قتلوه، فعلم الله ما في صدورهم فأخذهم قبل أن يرتكبوا أمراً أشنع مما ارتكبوه فبادرهم الله بعذابه وحال بينهم وبينما كانوا يَمْكُرُونَ. ولم يذكر هنا تمام قصة ثمود وإنما أشار إليها كما نرى في القرآن كثيراً فمن يتذكر قصة ثمود بتامها يرى فيها تعريضاً إلى ما ذكرنا من أمر فريق. وهذا من قسم تقديم قول محكم يكشف عن أمر مكنون عند وقوع الأمر وإثبات تأويله. ويستطرد الفراهي فيكشف عن شيء غريب في حق الأمة الإسلامية، فيقول: ليس من مقصد هذا الكتاب الخوض في الكتابات المكنونة ولكن لا بأس بأن نذكر ما بين عاقبة الطغوى ومنتهى النفس إن لم ترد عن الهوى. فإن هذه الأمة وإن لم تهلك كل الهلاك فرمما كادت وما العلم إلا الانتفاع بما علمنا والاعتبار بأمثال ضربت في كتاب الله تعالى من القوم الأولين. فاعلم أنّ اليهود كان من أكبر سيئاتهم قتلهم الأنبياء والصلحاء كما جاء في صحف أنبياء بني إسرائيل والقرآن ففهمنا أنّ قتل الصلحاء الذين يأمرهم الناس بالقسط أمر عظيم عند الله وليس كقتل أحد الناس فذكره بعد قتل الأنبياء فإنّ علة كبر هذا الإثم هو العصيان بحكم الله كما مرّ آنفاً والمقت لا يعمّ أمة إلا إذا دخل فيه أكثرهم وقعد عن منعه الآخرون فإنّ إقامة القسط والغضب له واجب

¹ سورة النمل: 49-51

² سورة الأنفال: 30

على عامة الأمة. وقد تعرض الإمام الفراهي بعد ذلك لسنة الله في مؤاخذه الأمم ثم بين من هو مثله كمثل ناقة الله في هذه الأمة. فقال: أعلم أنه كما كان في يهود مثل طغوى ثمود لهمهم بقتل عيسى عليه السلام وكان مثل ناقة الله لكونه آية بنفسه كما جاء في سورة الأنبياء: "وَجَعَلْنَاهَا وَابِّنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ"¹ فدمر الله عليهم وسلبهم نعمة النبوة. فكذلك في أمتنا مثل ناقة الله علي بن أبي طالب، وسلبت الأمة الخلافة لقتله فكان بعده ملوك إلا قليل منهم يرثون الملك كوراثة الأموال. وقد أخبر النبي عن هذا وسمّاهم عضوًا وكذلك روي أنه قال لعلي: قم يا أبا تراب، ألا أخبرك بأشقى الناس أحر ثمود عاقر الناقة. والذي يضربك على هذا- يعني قرنه- فيخضب هذه منها- يعني لحيته".²

وهنا بعض الاعتراضات التي يمكن أن تأتي على قول الفراهي فيما سبق وخاصة فيما يتعلق بأن علي بن أبي طالب مثل ناقة الله في هذه الأمة، فإنه لم يشبه عمر وعثمان اللذين قتلا ظلمًا ووجدت في الأمة الإسلامية الفتن والوقائع الدامية لقتلهما. ثم جاء قتل الحسين الذي فتح في الإسلام هشًا كبيرًا وجاء بالمصيبة الكبرى. فدفع الفراهي هذه الاعتراضات بأن عمر لم يقتله مسلم بل كان قاتله نصرانيًا، فثله مثل زكريا عليه السلام لأنه قتل في المسجد. وأما عثمان فإنه يشبه يحيى الذي قد قتله قومه في السجن فكان دم عليّ دمًا ثالثًا كدم عيسى فأفعم لهم كأس الشقاء ففاضت بالدماء، أما قتل الحسين فهو المصيبة الكبرى على الإسلام وفت شديد في العضد أو كقرح يدمى إلى الأبد فما ذلك إلا من أسوأ نتائج تلك الشقوة.³

هذه بعض الأمثلة على طريقة الفراهي في الكشف عن الرموز القرآنية التي أستطيع أن أسميها بالتفسير الرمزي.

¹ سورة الأنبياء: 91

² الاستيعاب لمعرفة الأصحاب، 483/2

³ تفسير نظام القرآن (سورة الشمس)، ص 12-16 بتصرف.

وثالثاً- الفراهي النحوي: قد بينت في البداية [أنّ الفراهي] كان له اطلاع واسع على القواعد النحوية وقد أفاد منها كثيراً في فهم القرآن وحلّ مشكلات القرآن النحوية. وهنا لا أخوض في التفاصيل بل أكتفي بذكر بعض الأمثلة من تفسيره بهذا الصدد. فقال في قوله تعالى "فَالْحَمِيدُ وَقَرًا" من سورة الذاريات: "عطف الصفات بالفاء دليل على ترتيب في الصفات وذلك يدلّ على كونها صفات شيء واحد، بل ربما يعطف بالواو مع كون القسم بشيء واحد كما ترى في أول سورة "المرسلات" فالقول بأنّ هذه الصفات لأشياء مختلفة يخالف النظائر وكلام العرب مثلاً¹ "وَالْعَدِيدَاتِ صُبْحًا² فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا³ فَأَلْمُعِيرَاتِ صُبْحًا⁴ فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا⁵ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا⁶" وقال ابن زياية:

يالهِف زيايه للچارث السابج فالغانم فالآيب²

ثم لا حاجة إلى جعل هذه الصفات لأشياء متعددة، فإنها كلها مناسبة بالموصوف الواحد.³ ويتكلم عن "لا" التي وردت في مستهل سورة القيامة أنها منفصلة أي باطل ما يحسب الإنسان. والقول بزيادة "لا" سخيّف جداً وبأنها متصلة سقيم لضعف المعنى والتصريح القرآني بخلافه، حيث جاء "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ⁴ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ⁵" وانفصال "لا" قبل القسم بانفصال "كلا" قبله كما قال تعالى: "كَلَّا وَالْقَمَرَ" وتكرارها كتكرارها كما قال: "زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ⁶ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ⁷ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ⁸". وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظنّ سابق لأنّ في تقديم "لا" دلالة على أنّ الكلام جواب وردّ لما قيل من قبل وعلى أنّ

¹ إشارة إلى أقوال بعض المفسرين الذين جعلوا هذه الصفات لأشياء مختلفة، انظر تفسير النسفي، 182/4

² شرح ديوان الحماسة للفيض والتبريزي، ص 74 (مطبوع الهند)

³ تفسير نظام القرآن (سورة القيامة)، ص 5-6، انظر تفسير النسفي، 312/4

الإنكار به لا يحتمل مكثاً فإنَّ القسم عادته الابتداء وقدمت عليه كلمة الإنكار لشدة الاعتناء به، والقسم على الأكثر تأكيد الإثبات فإذا كان الإنكار ينبغي أن يصدر الكلام بالنفي، ولذلك قالوا "لا والله" وإن قيل "والله لا" كان ضعيفاً.

فالملاحح النحوية من شخصية الفراهي مبسطة في تفسيره، ولكن أكتفي بهذا القدر فلعله كافٍ لبيان وجهة نظره ومكانته في علم النحو.

ورابعاً- الفراهي المفسر المؤرخ: ومن النواحي البارزة في تفسير الفراهي الناحية التاريخية، وقد أحرناها في البحث لجلالة شأنها وعظمة مكانها.

إنَّ القرآن الكريم قد تعرّض لكثير من الوقائع التاريخية التي حدثت في حياة شعوب العالم، ولكن ما هي الأغراض والأهداف التي استهدف إليها القرآن في ذكر هذه الوقائع التاريخية؟ فالإجابة على هذا السؤال مقتصرة على شيء واحد وهو فرض ديني بحت، فالقرآن حينما يذكر الوقائع التاريخية لا يستهدف إلا إلى إثبات الوحي والرسالة وإثبات وحدانية الله وتوحد الأديان في أساسها والإنذار والتبشير ومظاهر القدرة الإلهية وعاقبة الخير والشر والصبر والجزع والشكر والبطر وهلمَّ جراً. ثم كثيراً من الأنبياء عليهم السلام قد ذكر القرآن حياتهم، وطبائعهم الخلقية وأوصافهم وذلك لنعرف كلاً منهم بصفاته الخاصة، وفضل بعضهم على بعض ولكن القرآن لم يتجاوز- في هذا المجال- الإشارات الموجزة ولذلك نرى عدداً كبيراً من المؤرخين والمفسرين قد وقعوا في غلطات فاحشة ولم يدركوا الأوصاف الخاصة لكل من الأنبياء نفلطوا بينها تخليطاً جعلها غامضة.

فعلى سبيل المثال أذكر هنا قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام، فإسماعيل عليه السلام الذي أصبح جداً أعلى للعرب الذين قد بعث فيهم ومنهم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم قد منح من عند الله صفة لم تعط لأي من الأنبياء وهي صفة الذبيح. وفيها إشارة لطيفة لعظمة العرب الذين جاء فيهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأنَّ الله تعالى قد اصطفاهم من بين الشعوب ليصلحوا

لتولية البيت الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليكون مركزاً لدين التوحيد، وهو أول بيت بني لهذا الغرض النبيل كما قال تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ" ^١. وقد جاء ذكر صفة الذبيح في كتب اليهود بالتفصيل كما ورد في القرآن الكريم- سورة الصافات- إلا أنّ القرآن لم يذكر اسم الذبيح، واكتفى بالإشارة. أما التوراة فقد تناولت قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق بالتفصيل والبسط، ووردت فيها قصة الذبيح.

فلما رأى اليهود أنّ الذبيح هو إسماعيل الجدد الأعلى للعرب لا إسحاق جدّهم عرفوا عظمة بني إسماعيل- العرب- فاشتعلت قلوبهم غيظاً وعداوة للعرب فبدأوا يبحثون عن الوسائل التي تمكنهم من إثبات أنّ إسحاق هو الذبيح لا إسماعيل لأنهم كانوا من نسل إسحاق حتى ثبت مزيتهم على بني إسماعيل وما كان لهم لإشباع رغبتهم البهيمية وإطفاء نار أهوائهم إلا أن يحرفوا صحفهم وبالفعل قد حرفوا لإثبات مزاعمهم جميع الوثائق التاريخية من التوراة التي كانت ثبت عظمة بني إسماعيل كما حرفوا التعاليم الأخرى التي اصطدمت بأهوائهم البهيمية ومن المؤسف أنّ بعض المفسرين والمؤرخين الذين اعتمدوا على الإسرائيليات لم يدركوا اليهود ومؤامراتهم الخبيثة الشيطانية ضد بني إسماعيل. فظنوا- لا أقول زعموا- أنّ اليهود مصيبون في قولهم أنّ إسحق هو الذبيح. وعلى رأس هؤلاء المفسرين والمؤرخين الإمام أحمد بن جرير الطبري في أرحح أقواله ومظاهر رواياته، فالإمام الفراهي رأى من واجبه أن يكشف عن هذه المزاعم الخبيثة ويثبت ما أقرّه التاريخ الصحيح فهو أول من قام بأداء هذه الخدمة الجليلة في القدامى والحديثين ففي تفسيره لسورة الصافات قد تناول هذه المشكلة التاريخية، فأثبت إثباتاً علمياً أنّ اليهود كذابون في دعواهم. لأنّ الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ولم يكتف بذلك بل ألف- في الردّ عليهم- رسالة خاصة سماها بـ"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، فذكر فيها

¹ سورة آل عمران: 96

قصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحق عليهم السلام كاملة مستنداً إلى التوراة والقرآن، وذكر فيها تعاليم الإسلام واليهودية والمسيحية حيال التضحية والقربان ثم تعرض للعلماء الذين ذهبوا بأن إسحاق هو الذبيح، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه ثم بين الغلط التي وقع فيها اليهود والنصارى في هذه القصة عامدين كما أثبت إثباتاً قوياً بأن الأسفار المقدسة لليهود تدلّ على نواياهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين رغم تحريفهم الكلم عن مواضعها، فكشف الستار عن خيانة العلماء اليهود العلمية والتاريخية، إذ إنهم غيروا أصل كلمة "مروه" ليثبتوا أن القربان وقع عند الهيكل في "يروشلّم" ثم بدأ بتفنيد آراء العلماء المسلمين- كالطبري- الذين رأوا رأي اليهود واتخذوا بعبارات التوراة ثم جاء إلى الإسلام فتعرض أولاً لمكانة التضحية في الإسلام وبين أن ديانة اليهود خالية منها وذلك يدلّ على أن إسحق ليس بالذبيح، لأنه لو كان ذبيحاً لبقى في ديانتهم شيء من آثار هذه التضحية. ثم استطرد الإمام إلى تفنيد مزعم اليهود بخفاء بالدلائل الحاسمة القوية من التوراة والقرآن الكريم وأثبت إثباتاً قوياً علمياً أن اليهود ليسوا بصادقين في دعواهم. وقد سلك في هذه الرسالة مسلكاً منفرداً لا أرى له نظيراً. فلا أبلغ إذ أقول إن هذا الكتاب لم ينسج على منواله أحد من القدامى أو المحدثين. وقد فصلت القول عنه عند تحليل بعض كتبه في الباب الأول. فهنا أكتفي بعرض ما يتعلق بتفسير الآيات التي وردت فيها قصة الذبيح، ودعاء إبراهيم للولد ثم بشارته بإسحق فأولاً أنقل الآيات كلها لتتضح لنا الواقعة بشكلها الصحيح. قال الله تعالى: "قَالُوا أَبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٣٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿٤٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَا بُرْهِيمُ ﴿٤٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّعْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٤٦﴾ وَقَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ

﴿١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّهُ
مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ
إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٢٤﴾¹

قال الفراهي بعد ذكر هذه الآيات الكريمة: إنما أوردنا هنا شيئاً قليلاً من السابق والتالي لقصة الذبح لتعلم أنا لم تترك منها حرفاً واحداً، واعلم أنّ هذه الآيات وإن لم تصرح باسم الذبيح فإنما تضمنت لوازم جمة يستدل بها على أنه هو إسماعيل عليه السلام، ومدار البحث هنا أن تعلم أيّ ابني إبراهيم عليهم السلام هو المراد في قوله تعالى "قَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" فإنه هو الذبيح بالاتفاق بصراحة الدلالة واستطرد الفراهي إلى دعاء إبراهيم فقال: دعاء إبراهيم "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ" إنما كان حين لم يكن له ولد وإلا ليقول "وقد وهبنا لك من الصالحين" وقد ذكر الله الإجابة في عقب الدعاء ووصلهما بالفاء فقال: "قَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ". فدلّ على أنّ ذلك ذكر الولد الذي أعطاه الله إجابة لدعائه حين لم يكن له ولد فلا بد أن يكون هذا الغلام الحليم أول مولود لإبراهيم وصرح القرآن بكونه ذبيحاً فلا بد أن يكون إسماعيل الذي هو أول مولود لإبراهيم ذبيحاً، فإنما المذكور في قوله تعالى "قَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" هو الابن الذي ولد له قبل سائر ذريته إجابة لدعائه. وهو إسماعيل فإنّ ذكره وصل بالدعاء وفرع عليه. فهو الذي وقعت له الإجابة. ثمّ منّ وهب الله بعد ذلك كان فضلاً ونافلاً. وقد صرح القرآن بذلك حيث قال "وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً"² ولذلك سمى إبراهيم أول أولاده بإسماعيل أي سمع الله.³

إنّ النظم بين الآيات المذكورة يدلّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل. فكما أنّ الله تعالى ذكر

¹ في سورتي الصافات وإبراهيم

² الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 34

³ سفر التكوين: 16/16

الذبيح في هذه القصة متصلًا بالدعاء وذكر إسحق بعده. فكذلك ذكرهما في موضع آخر حيث ذكر شكر إبراهيم على إجابة دعائه وهو "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ" ¹. فالدعاء المذكور هنا يشير إلى دعائه المذكور في قصة الذبيح وهو "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ" وإذ قد تبين تطابق الموضعين في ذكر الدعاء والإجابة فلا يخفى أن الله تعالى هنا أيضًا ذكر الموهوب له أولاً بقوله "فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" والموهوب له ثانيًا "وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ" ².

تسمية إسماعيل تدلّ على أنه هو أول مولود إبراهيم: قال الفراهي: إن الله في الآية الآتفة الذكر لم يكتف بتقديم إسماعيل في مقام الشكر بل دلّ أيضًا على أنه سمى إسماعيل لكونه إجابة دعائه فقال "إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ" ³ واسم إسماعيل معناه سمع الله، فكأنه قال: الحمد لله الذي وهب لي إسماعيل إجابة لدعائي ثم وهب لي إسحق نافلة. وهكذا في قصة الذبح دلّ بوصول الموهوب له أولاً بالدعاء على أنه إجابة لدعائه فتطابق الموضعان² في ذكر الدعاء والموهوب إجابة ودلّ في الأول على أنه إسماعيل وفي الثاني على أنه هو الذبيح، فدلّ بذلك على أن المراد في قوله "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ" ³ و"فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" ³ لا يكون إلا إسماعيل.³

العطف بين البشارة الأولى والثانية يدلّ على أن إسماعيل أول ولد لإبراهيم فهو الذبيح. فقال الفراهي إن ظاهر العطف بين البشارتين يدلّ على كون المبشر بهما اثنين، والاعتذار بأن البشارة الأولى كانت من جهة كون إسحق غلامًا حليمًا والثانية من جهة كونه نبيًا مخالف لظاهر القرآن. وهذا يتضح من النظر إلى الجملتين معًا مثلًا تقول: قال إبراهيم ربّ هب لي من الصالحين فبشره الله بغلام حليم وكان من أمره

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 37

² سورة الصافات: 97

³ سورة إبراهيم: 39

كذا وكذا وبشّره الله بإسحق نبياً من الصالحين قد علمنا من غير خلاف بين أهل الكتاب والمسلمين أنّ غلاماً حليماً قد ولد لإبراهيم قبل إسحق¹. فما المخرج إلى جعل المعطوفين واحداً خلافاً لظاهر الكلام².

إنّ البشارة بإسحق وبنبوته وبأنه سيولد تمنع أن يكون ذيحاً، فيحدثنا الفراهي، لا يخفى أنّ الذبيح حين قرب كان غلاماً لم يدخل في حد الرجال لقوله تعالى "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ" وخطاب إبراهيم إياه بقوله "يَبُوءُ" وهكذا في التوراة والبشارة بإسحق تتضمن البشارة بنبوته فكيف يمكن لإبراهيم أن يظن أنه أوحى بذبحه بعد صراحة البشارة من الله تعالى بخلاف ذلك فإنّ الله تعالى بشّر بإسحق وبابنهما قبل ولادته كما في قوله تعالى: "وَأَمْرًا تُهْرَقَانِمْهُ فَصَحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ" ³ أي بآبن وابن لذلك الابن والإخبار بأبوته أشدّ منعاً من كونه ذيحاً من نبوته فبطلت الفائدة⁴.

وصف الله تعالى إسماعيل بالحلم وإسحق بالعلم يدلّ على أنّ إسماعيل هو الذبيح لأنّ الحلم خالق جبليّ يرى فيمن أوتي الفهم والصبر ويظهر من الصغر، وأما العلم فلا يظهر إلا بعد تجربة الأمور والتحكّم. ألا ترى قوله تعالى في قصة يوسف: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا"⁵، وذلك في غاية الظهور فعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: "وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ" أنّ هذا الغلام يشبّ ويصير من العلماء. وهذا نظير لقوله تعالى: "وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ" أي أنه يشبّ ويكون من الأنبياء والبشارة بإسحاق بكونه عليمًا إنما جاءت قبل ولادته⁶، فلا بد أنها تمنع أن يكون هو الذبيح وذكر كونه عليمًا ينبّه على

¹ تفسير نظام القرآن (سورة الصافات)، ص 329. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 33 بتصرف.

² سورة إبراهيم: 39

³ سورة هود: 71

⁴ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 36

⁵ سورة يوسف: 22

⁶ سورة الذاريات: 28

الفرق الذي ذكرنا¹ وكذلك من الدلائل الحاسمة على كون إسماعيل ذبيحاً، وصفه بالصبر وصدق الوعد كما قال هو عن نفسه: "سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" وإسحق مع كثرة ذكره في القرآن لم يوصف بكونه صابراً. وأما إسماعيل فقد وصفه الله بالصبر كما جاء في سورة الأنبياء: "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ"². وتقديمه في الذكر أبلغ في بيان اتصافه بهذه الصفة ومن يكون أصبر وأحقّ بأن يوصف بهن غلام أسلم نفسه لربه.³ فلو كان ذلك لإسحق لوصفه الله تعالى به وعرفه بهذا الخلق العظيم.⁴ وينبّه ذلك ما ذكر الله تعالى من وصف إسماعيل بصدق الوعد، فقال تعالى: "وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا"⁵. فإن كنت موقناً بأن القرآن لا يذكر أمراً إلا وله شأن عظيم أيقنت بأن إسحق لو كان هو الذبيح لوصفه تعالى بهذا الوصف وعرفه به في القرآن أو التوراة ولكن الله تعالى لم يصفه به وإنما وصف به إسماعيل. ثم لم يذكر في القرآن ولا في التوراة من أمر إسماعيل ما يكون في مصداق هذا الوصف غير ما ثلوه في حال الذبيح من قوله "سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" فوعد بالصبر ثم صدق حين أسلم نفسه وسكنها تحت السكين كما قال تعالى: "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ"⁶. فالمطابقة بين وصف إسماعيل والذبيح وعدم تأويل آخر لما وصف الله به إسماعيل والذبيح وعدم التأويل الآخر لما وصف الله به إسماعيل، وعدم وصف إسحق لما كان أجدر بالذكر لو كان ذبيحاً كلّ ذلك لا يدع شكاً في أنّ إسماعيل هو الذبيح.

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 37

² سورة الأنبياء: 85

³ إشارة إلى الآية الكريمة "قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ"⁶. سورة الصافات.

⁴ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 27

⁵ سورة مريم: 54

⁶ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 38 وتفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة الصافات)، ص 380

وقد ذكر الفراهي بعد ذلك من الدلائل القوية على أن إسماعيل هو الذبيح ولكن أتركها خوفاً من التطويل لأن ما سبق من القول كافٍ لإثبات فدية الذبيح لإسماعيل عليه الصلاة والسلام.

والحادثة الثانية من الحوادث التاريخية قصة أبرهة الأشرم- أمير النجاشي في اليمن- فكتب السير والتاريخ وكتب التاريخ وكتب التفسير كلها تذهب إلى أن أبرهة بنى كنيسة في اليمن لم ير مثلها في زمانها. ثم كتب إلى النجاشي أني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يئن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها جميع العرب فسمع رجل من العرب هذا الخبر فغضب وذهب إلى اليمن، وأحدث في الكنيسة. فأخبر به أبرهة فغضب وحلف: ليسيرن إلى بيت الله الحرام حتى يهدمه فلما قرب أبرهة من البيت أخبر به العرب وأخبر سيد أهل مكة عبد المطلب فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، ثم ذهب عبد المطلب إلى أبرهة وطلب منه أن يردّ عليه مئتي بعير قبض عليها في الطريق، فردّ عليه أبرهة: كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل وإنّ للبيت رباً سيمنعه. فردّ عليه أبرهة إبله ورجع عبد المطلب، ثم ذهب مع كبار أهل مكة إلى الكعبة ودعا الله واستنصره على أبرهة، ثم خرج بأهل مكة إلى شعب الجبال. هذا، وقد ذكرت كتب التاريخ والسير أن أبرهة كان حليماً وكرماً، لما دخل عليه عبد المطلب نزل من على سريره وجلس على بساطه وأجلس معه عبد المطلب، هذا ملخص قصة أبرهة الأشرم التي جاءت في كتب التاريخ والسير والتفسير.¹

وقد فند الإمام الفراهي هذه الروايات كلها واعتبرها من الإسرائيليات التي لا يصحّ

¹ سورة البقرة: 127

الاعتماد عليها، فلم يترك العرب بيت الله للمحة واحدة ولم يفرّوا إلى شعب الجبال، بل حاربوا أبرهة الأشرم بكل ما كان عندهم من عدة وعتاد لأجل حماية البيت والدفاع عنه كما يشير إليه كلام العرب الذي هو ديوانهم، ولم يكن أبرهة حليماً ولا كريماً بل كان من أشرار الأمراء، وكذلك لم يكن من أسباب مجيئه لهدم الكعبة تنجس أحد من العرب الكنيسة التي بناها، فهذا كله مختلف من الأول إلى الآخر. وقد فصل الفراهي القول أولاً عن عظمة بيت الله الحرام وأهله على سائر المعابد وذويها. ثم تكلم عما يتعلق بتقديس المسجد وحفظه وحمايته. وبعد ذلك بدأ لإثبات وجهة نظره حول هذه المشكلة الخطيرة. فقال عن تفضيل الله الكعبة وأهلها على سائر المساجد وذويها فقال: إنّ بيت الله الحرام كان أول بيت وضع للناس مركزاً للتوحيد والإطعام. وهذا مما بدّله اليهود مع أنّ حقيقة الأمر تلعج من التوراة. فأول بيت الله أحقّ بالحفظ فكان كالأساس والأمّ للدين والحق، وأما بيت يروشلّم فكان بناء سليمان كما صرّحت به التوراة ولم يكن لهم بيت العبادة قبله - قبل بيت يروشلّم.

والثاني: أنّ الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما. والبيت المقدس من بنته العمالة المكرهة المعذبة كما صرّحت به التوراة وفي القرآن إشارة إليه. ثم دعا إبراهيم أن يتقبلها الله تعالى، كما قال: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" ^(١٣١)،¹ ودعا إبراهيم لمكة بالأمن والبركة، ولكنه خصّ بدعائه المؤمنين، فعمه الله الكافرين أيضاً في الدنيا حيث قال: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" ^(١٣٢)،² فلرعاية حرمة البيت الحرام لم يرض الله أن يعذب ذريته فيه بعد كفرهم،

¹ السورة نفسها: 127

² السورة نفسها: 126

وأما وعد الله في بيت يروشلم فجاء في "الملوك الأول": ولما أكل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك. وكل مرغوب سليمان الذي مرة أن يعمل، إن الرب ترى لسليمان ثانية كما ترى له في جعبون ووعد له لن يقيم كرسيه على إسرائيل مادام هو وأتباعه يحفظون وصايا الرب، ويوحدونه، فإن تسرب إليهم الشرك، فيقطع الرب بإسرائيل عن وجه الأرض التي أعطاهاهم أباهما،¹ ولا شك أن المسجدين رفعا بتقوى الله والخضوع له ولكن شتان ما بينهما، فإن مسجد يروشلم كان بناءً ملوكياً من الأجار الثمينة والذهب والأبريز وعمل رجال مسخرين كارهين فيهم مسلم وكافر.²

والثالث: أن بيت الله الحرام أسس على كمال الإسلام وذلك بأن إبراهيم عليه السلام قرب ابنه هناك وهما أسسا هذا البيت ودعوا الرب أن يتقبله.

الرابع: أن إبراهيم بنى الكعبة بأمر الرب فإنه أمره بالهجرة إلى موضعها وأراه مكانها ووعد أن يعذب من جاء إليها ملحدًا وظالمًا وأوفى هذا الوعيد بأصحاب الفيل.

الخامس: يدل على صبر من سكن عند البيت من ذرية إبراهيم، وقد جاء ذكره³ في التوراة والقرآن كليهما إبراهيم عليه السلام أسكن ذريته من "سارة" في أخصب البلاد في الأرض التي تجري عسلاً ولبناً، وأما ذريته من هاجر عليها السلام فأسكنها في واد غير ذي زرع عند بيت الله الحرم، وقد ذكرت التوراة أن هاجر اعتصمت بالصبر على المشقة والهوان لما أصابها من سارة لما غارت عليها حين رأتها مثمرة، فباركها الله وجاءها كلام الرب مرتين، ولم يكن هذا لسارة. وفي ذلك عبرة لنا فإن الله رؤوف على المنكسرة القلوب. كما ذكر كثيراً في الكتب المقدسة. وقد ورد في سفر التكوين:

¹ والفراهي قد ترجم الملوك الأول من 8/1-9 من النسخة الإنجليزية لأن النسخة العربية الموجودة عندي تختلف عبارتها عن العبارة التي نقلت هنا.

² الملوك الأول، 5/12

³ راجع تاريخ الطبري، 2/139، السيرة النبوية لابن هشام (تح: محمد محي الدين عبد الحميد)، 1/28-36

قال لها ملك الرب "فكثيراً أكثر نسلك فلا يعدّ من الكثرة، وقال لها ملك الرب ما أنت حبلى فتلدن وتدعين اسمه إسماعيل لأنّ الرب قد سمع لمذلتك.¹ ونادى ملك الرب هاجر من السماء وقال لها ما لك يا هاجر لا تخافي لأنّ الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، قومي واحملي الغلام وشدي يدك لأنّي سأجعله أمة عظيمة.²

السادس: يدلّ على حسن معاملة بني إسماعيل مع إخوانهم بني إسحق مع إساءتهم إليهم، فتنفضّل الله عليهم وذلك حسب قول اليهود أنّ سارة قد حقرت هاجر وسمّتها جارية ثم مضت سنتها فعيّرت أولادها أولاد هاجر باسم ولد الأمة ولم يكونوا أحراراً فما لبث أولاد سارة أن صاروا عبيداً في مصر كما جاء في سفر التكوين³ ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجماهم حاملة كثيراً ولبساناً ولاذنّاً ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر فقال يهودا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا وتخفي دمه، تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمننا. فسمع له إخوته واجتاز رجال مديانويون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر ففرّق ثيابه.³

السابع: لصوق بني إسماعيل بالرب تعالى أكثر من بني إسحاق فإنّ الله تعالى عدّب اليهود لسوء أعمالهم وتهالكهم على الوثنية وترك الإله الحيّ الذي أنعم عليهم.⁴

الثامن: كان بنو إسماعيل أقرب إلى العذر من بني إسرائيل. فإنّ بني إسماعيل لم يضلوا عن أصل دينهم إلا بعد ما طال عليهم الأمد ونسوا وصايا إبراهيم، ولم يبعث

¹ سفر التكوين: 12-10/16

² سفر التكوين: 19-18/21

³ سفر التكوين: 39-25/37

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة الفيل)، ص 7-13 بتصرف.

فيهم نبي يذكرهم ومع ذلك نشأ فيهم من اتخذوا الحنيفية ديناً وتركوا الأوثان، فأما اليهود فعبدوا العجل والنبي بين أظهرهم وقد آمنوا به وشاهدوا آياته البيّنات، ثم بعد ذلك تركوا عبادة الله للأوثان مرة بعد مرة ولم يبعد عهد النبي، فلهذه الأسباب قد حى الله تعالى بيته المحرم.¹

وبعد ما أثبت الفراهي عظمة بيت الله المحرم وفضله على سائر المعابد، بدأ بمناقشة الروايات التي ذكر فيها سبب محيي أبرهة الأشرم وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب، فقال إنّ هذه الروايات ضعيفة من ناحية السند لأنها جاءت بطريق ابن إسحق ومعلوم عند جهازة أهل الحديث أنه يأخذ الروايات من اليهود ومن لا يوثق به. ثم تبطل هذه الأمور روايات أخرى، ويظله ما ثبت عندنا من عادات العرب ومما يدلّ على كونها من أكاذيب الأعداء أنها ما تعمدت إلا فضاضة من العرب وحميتهم وإهانة لرئيسهم عبد المطلب القرشي، وتوحيهاً بحسن خلق أبرهة الحبشي ومسبته على من هيجه على هدم الكعبة وبسطاً له ذوه فلم يترك الكذابون شيئاً من الذلة والمنقصة والعار إلا نسبوه إلى العرب وقريش ورئيسها ثم بدأ الفراهي يكشف النقاب عن الحقيقة فيقول:

الأول: أنهم- المؤرخون- زعموا أنّ عبد المطلب قال إنّ لهذا البيت رباً يمنع، فقام على باب البيت ودعا الله ثم تحرز مع جميع أهل مكة بشعب الجبال. فنقول ردّاً عليه: إنه ليس على وجه الأرض قوم لا يعتقد أنّ معبده بيت الله فهل تراهم مع ذلك يتركون معابدهم في أيدي العدو ولا يدافعون عنها. هذا لا يتصور من سكّان السهول فكيف من قريش بل سائر بني إسماعيل. فإنّ أفراسهم وجبالهم وأسيافهم ونبالهم كانت لهم أحصن معاقل ولذلك بقوا على حريتهم منذ كانوا كما اعترف به المؤرخون الأجانب.

الثاني: أنّ الرواة زعموا أنّ عبد المطلب جاء إلى أبرهة ليسأله ما أخذ عسكره من إبله

¹ المصدر نفسه (سورة الفيل)، ص 7-13 بتصرف.

فلما رآه أبرهة أجّله وأكرمه فنزل من سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم جرى الكلام بينهما فقال أبرهة أتكلّمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك فقد جئت لهدمه فلا تكلمني فيه. فهل يمكن أن يترك عبد المطلب المتكلم في أمر البيت بعد ما رأى وسمع من أبرهة ما يستيقن بأنه لو سأله الانصراف عن هدم البيت لفعل، ثم إنه لم يترفع عن المجيء إليه والسؤال لإبله.

الثالث: أنّ أهل السير يروون أنّ القبائل من أول خروج أبرهة كانت تحمل على جيشه وتمنعه عما أراده وذلك يدلّ على أنّ العرب كلها صارت مخالفة له، وقتالهم بأبرهة أصبح من الوقائع المشهورة.¹

والرابع: أنّ علماء السير يروون أنّ جيش أبرهة جاء في موسم الحج ويؤيده قول عكرمة بن هشام بن عبد مناف يذكر أخذهم هجمة من البدن:

لاهم أنز الأسود بن مقصود الأخذ الهجمة فيها التقليد
بين حراء وثير فالبيد وحبسها وهي أولات التطريد
فضمّها إلى طماطم سود أخفره يا ربّ وأنت محمود²
فإن خانت فريش، فهل دخل الفشل في جميع العرب وقد كانوا يقاتلون جيش أبرهة
وهم متفرون فكيف أذعنوا له إذا أمكنهم دفع العدو وعن مركز واحد بقوة مجتمعة
ومعبدهم بين أعينهم أو بقرب منهم.

والخامس: أنهم عابوا ثقيفاً لفرارهم عن حماية الكعبة كما قال ضرار بن الخطاب:³

وفرت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر⁴

¹ السيرة النبوية لابن هشام، 29/1

² المصدر نفسه، 51/1

³ الأغاني، 80/11

⁴ السيرة النبوية لابن هشام، 47/1

والروايات متفقة على موافقة ثقيف بأبرهة ورجم قبر أبي رفال الثقفي الذي صار دليلاً لجيشه فلو فرّت العرب كلها مثل ثقيف لما عابوا ثقيفًا ولا لعنوا رئيسها أبا رفال وظنوا العلة قد أجبرته.

السادس: أنّ الرواة قد زعموا أنّ أبرهة كان رجلاً حليماً وأنه هيجّه أحد بني فقيم إذ دخل كنيسته ونجسها، ويبطل هذه الرواية سائر أحوال أبرهة وتعصبه في دينه، فإنه لما استولى على اليمن قتل أميرها أرياط اليهودي وأبطل اليهودية من اليمن وبني كنيسة لم ير مثلها ثم كتب إلى النجاشي أني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم بين مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليه حجّ العرب. وقد رأى أنّ الكعبة عقبة كؤود في طريقه لحبّ العرب بها فعزم على هدمها فذلك أمر وقع على مجرى الطباع وحوادث الأمور، والذين وضعوا قصة التنجيس ورووها إنما وضعوها لأحد الأمرين؛ لمحض التماس سبب لغضب أبرهة ولم يخطر ببالهم شيء لغيرها. أو لحسن ظنهم به- أبرهة- فنسبوا مجيئه إلى ما يكون قدراً لجرأته على هذا الأمر العظيم.

السابع: أنّ القرآن صرح بكيد أصحاب القيل وما زعموا من مجيء أبرهة ليس فيه كيد إنما هو مجاهرة بالقدرة وإرغام لجميع العرب. وأما على ما يستنبط من الروايات الموثوق بها فيثبت منها كيده من وجوه:

الأول: أنه جاء في الشهر الحرام إذ ظنّ إن تمسّك فيه عن القتال وحمل السلاح. والثاني: أنه أراد دخول مكة حين تخلو من أهلها وهم مع سائر العرب في حجهم. والثالث: أنه أراد الهجوم عليهم خاصة في أيام التشريق. والعرب حينئذ إما واقفون بمبى أو مسرعون إلى أوطانهم بعد طول الشعث والكلال والسأمة. فثبت من هذه الدلائل الحاسمة أنّ أهل مكة دفعوا أصحاب القيل عن بيت الله ورموهم بالحجارة، ولا مانع لهم عن ذلك. وأن ما ذكروا من حلم أبرهة ورفعة قدره يبطله المنقول والمعقول والقرآن والحمد لله.

والدليل الأخير على أنّ العرب حاربوا أبرهة الأشرم الذي جاء لهدم الكعبة، كلام

الشعراء الذي يعتبر ديوانهم- العرب- فكل ما جرى بينهم من الوقائع التاريخية الحربية، سجّله الشعراء في أشعارهم. وعلى ذلك إذا رجعنا إلى ديوانهم وجدناه مملوءاً بذكر قصة أصحاب الفيل وقاتل العرب معهم حتى اضطرّوا إلى الفرار ولكن الله لم يدعهم أن يفروا بل أنزل عليهم عذابه فأصابهم الجدري فتقطعت أجسادهم، ومات بعضهم في مكة وبعضهم في الطريق.¹ قال الفراهي إنّ قتالهم بأبرهة كان من الوقائع المشهورة، فقد افتخر به بعض الشعراء. قال ذو الرمة وهو من قدماء الإسلاميين:

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا جهاراً وعشون العجاجة أكر
تنحى له عمرو فشكّ ضلوعه بنافذة نجلاً والخيل تضير²
فصرح الشاعر بأنه طعنه رجل من قومه وبأنه كان في يوم ذي غبار كثيف مرتفع إلى السماء وذلك بأنّ الله أرسل عليهم ريحاً حاصبة فحسبتهم. فإنّ العرب دافعوا عن بلد الله الحرام وهذا هو أقرب إلى العقل، فإنّ جمهور العرب كانت تعظم الكعبة فلا أدري كيف غلب الرعب على قريش حتى أنهم لم ينتصروا لما عليه بناء رياستهم وشرفهم فضلاً عما اشترأت النفوس من الذب عن دينها ومعبدها.³

المبحث الثامن: مكانة الفراهي بين المفسرين

ما هي مكانة الفراهي بين المفسرين؟ الإجابة على هذا السؤال كامنة فيما قدّمته في الصفحات السابقة، ولكن إن أراد القارئ أن أحدّد بكلمات مختصرة قليلة، فأستطيع أن أقول إنّ الفراهي في مصاف رجال التفسير البارزين، بل يسبقهم في بعض النواحي الهامة، ولكن هذه الإجابة ليست بمقنعة فلا يقبلها أحد، لأنها عارية

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (تفسير سورة الفيل)، ص 16

² ديوانه، ص 230، نشره كارليل هنري هيس بتصحيحه وتنقيحه، وطبع بمطبعة كلية كيمبردج سنة 1919م=1327هـ. وقد جاء في الديوان تعبير تصبر بدل تخمير وشرح بمعنى الوشي أي تجمع بين قوائمه ثم ثب.

³ تفسير سورة الفيل، ص 17

من الأدلة والشواهد فما أسبق من الكلام في الصفحات القادمة سيكون بمثابة الأدلة والشواهد أو بتعبير آخر سيكون تفصيلاً لهذه الإجابة، ولكن قبل أن أخوض في التفاصيل أريد أن أصرح للقارئ بأني لا أطيل الكلام بهذا الصدد، بل أكتفي بذكر بعض المميزات التي تميز بها. وذلك لأني قد بينت فيما سبق، منهجه في تفسير القرآن والأصول التي وضعها لتدبر القرآن، كما ألقى نظرة عجلة على بعض الجوانب البارزة من شخصيته العلمية التي تنعكس من تفسيره، فأليك بعض المميزات التي قد وعدت بذكرها وبالبحث عنها وها هي ذي.

1. التدبر والتعمق في القرآن.
2. الاستشهاد بالكلام الأصيل من الأدب الجاهلي. والاجتناب من المعاني الشاذة التي قد أخذها بعض اللغويين والمفسرين عند تفسيرهم للكلمات القرآنية.
3. وضع الأصول السليمة والمبادئ الصحيحة والتزامها بدقة وهذا تفصيلها:
 1. أسباب نزول القرآن.
 2. الربط والتناسب في القرآن.
 3. تأويل القرآن بالقرآن.
 4. أقسام القرآن.
 5. تعيين الخطاب في القرآن.
 6. عصمة الأنبياء.
 7. الدعوة إلى الله.

1. التدبر والتعمق في القرآن: نرى الإمام الفراهي لا يدعو الناس إلى مذهب من المذاهب بل أنه يدعو إلى تدبر القرآن، لأنه يعرف جيداً أنّ التدبر الحقيقي

سيفتح لهم باب الفهم للدين وسيزيل الخلافات المذهبية والطائفية التي أذهبت كرامة المسلمين وكرامة الإسلام وأوهنت كيانهم المادي والروحي. يقول:

1. إن الله تعالى قد أمر بالتدبر في غير ما آية أمرًا صريحاً¹.
2. بين مواضع التدبر والاستدلال والنظر ولم يبين ما يكشف بعد التدبر.
3. بعث النبي عليه الصلاة والسلام معلماً للحكمة كما بعثه معلماً للشرائع². وقد علّمها وحثّ عليها وهدى إلى طرقها.

وهكذا كان الصحابة يتسألون فيما بينهم عن معاني القرآن ويعملون فيها الفكر كما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عما كان من الإشارة في سورة النصر فلم يجدها في من حضره من كبار الناس غير عبد الله بن عباس وصوّب عمر قوله³.

وهنا بعض الناس قد منعوا ويمنعون عن التدبر وحرية القول حيال التفسير وقد علّل الفراهي ذلك بقوله:

لما رأى أهل السنة أنّ أهل البدعة والباطل جعلوا يأولون القرآن بالهوى ويحملون النصوص على غير مرادها تخرجوا الاشتغال بالأقويل في التفسير إلا ما روي عن الصحابة والتابعين، ولا شك أنهم لم يريدوا بذلك إلا سداً لأبواب الفتنة، وكان ذلك هو الطريق فإنّ التأويل إذا لم يؤسس على قواعده التي تكون فارقة بين الحق والباطل لم يمنع عن القول بالرأي المحض.

¹ النظرة السريعة في القرآن الكريم تبين لنا أهمية التدبر والتفكير وهنا أكتفي بالإشارة إلى بعض الآيات بهذا الصدد. قال الله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ"، سورة النساء: 82 وقال في موضع آخر "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"، سورة محمد: 24 وقال عزّ من قائل "كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ رَأْيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"، سورة ص: 29

² إشارة إلى الآيات التي بينت منصب الرسول صلى الله عليه وسلم.

³ التكميل في أصول التأويل، ص 10

وأما الصحابة والتابعون فأولوا القرآن بالعلم والنظر فإن تصفحنا الأصول التي جروا عليها كانت لنا أسوة حسنة في تدبر كتاب الله. وقد أجمع أهل التأويل نبذاً من أقوالهم. ولكنهم لم يجمعوا أصولاً لتدبرهم والحاجة إلى ذلك شديدة فإن الله تعالى أوجب التفكير في كتابه بصريح القول في غير ما آية.

وإذا غلب على أكثر الناس أنّ القول بما لم يرو عن السلف هو القول بالرأي، فصار ذلك مانعاً عن التفكير والتدبر، احتجنا إلى بيان الفرق بين القول بالرأي المنهي عنه وبين طريق السلف الذين تفكروا وتدبروا القرآن وإلى بيان الحاجة الشديدة إلى استعمال الفكر والتدبر في كتاب الله تعالى.

ومن العجائب بل من المصائب أن يشتبه الحق بالباطل عند أهل الحق فيتعصبون للباطل ويعثرون في وضع النهار بعد ما جاءتهم البيّنات، فمن ذلك حرّموا الفكر والنظر في آيات الله المشهودة والمتلوة وجعلوا السنة بدعة والبدعة سنة، وذلك بعد أن علموا أنّ القرآن قد حثّ على الفكر والتدبر في كليهما وأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتدبرون القرآن ويقولون بما فهموا منه.¹

فالإمام الفراهي كما حثّ على التدبر والتفكير في كتاب الله وأشار إلى ضرورتهما في فهم القرآن الكريم، فقد التزم بهما في تفسيره لكتاب الله العزيز وقد رأينا ملامح هذا التدبر والتفكير في الفصول الماضية، والحقيقة أنّ بعد تلاوة آيات الله البيّنات التي قد حثّت على إعمال النظر والفكر، القول بأنّ التدبر والتفكير بدعة عجيب جداً.

2. والميزة الثانية التي تميّز بها الفراهي: الاستشهاد بالكلام الأصيل من الشعر الجاهلي أو النثر الجاهلي والاجتناب من المعاني الشاذّة التي قد أخذها بعض اللغويين والمفسّرين: فالفراهي مع أنّ له اطلاعاً واسعاً على المعاجم والقواميس

¹ المصدر نفسه، ص 8

العربية- كما بينت فيما سبق- لا يعتمد على ما قال اللغويون والمفسرون في شرح الألفاظ القرآنية، بل إنه يبحث عن معاني هذه الألفاظ، في تعبيرات العرب شعرائهم وخطبائهم ولا شك أنّ كلام العرب القديم خير معين لفهم تعبيرات القرآن الكريم لأنه نزل بلسانهم وأسلوبهم. يقول الفراهي عن ذلك: إنّ الألفاظ القرآنية، وأساليب حقيقتها ومجازها فالأخذ فيها كلام العربي القديم والقرآن نفسه. وأما كتب اللغة فقصرة فإنها كثيراً ما لا تأتي بحدّ تامّ ولا تميّز بين العربي القح والمولد ولا تهديك إلى جرثومة المعنى، فلا تدري ما الأصل وما الفرع وما الحقيقة وما المجاز فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا ما هو منحول وما هو شاذّ. ولكن لا يصعب التمييز بين المنحول والصحيح على الماهر الناقد فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذّ من اللغة.¹

فالفراهي لم يضع هذه الأصول فحسب بل التزمها بدقة تامة في تفسيره يقول في تفسير قوله تعالى "وَأَلْسَمَاءٍ ذَاتِ الْحُبُكِ" ﴿٧﴾²: "الحبك تكسر كل شيء كالرملّة إذا مرّت عليها الريح الساكنة والماء القائم إذا مرّت به الريح. وفي حديث الدجال أنّ شعره حيك جلبك" والسحاب يوصف بذلك فإنّ الحبك فيه تجدد قطعاته مثل الموج المزبد المتراكم أو كسبائب القطن. قال امرؤ القيس يصف القصور الشاخات المكّلة بالسحب:

تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رؤس الجادل
مكللة حمراء ذات أسرة لها حيك كأنها من وصائل³

¹ مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 12

² سورة الداريات: 7

³ ديوانه، ص 96

أي مكللة بسحب حمراء ذات طرائق وهذا وصف سحب الشتاء من جهة لونه وقطعاته. قالت الخنساء تصف السحاب الشتوي:

حين الرياح بلائيل نكب هواؤها صوارد
ينفين عن بسط السماء ظللاً والماء جامد
مرناً تطردها الريا ح كأنها خرق طرائد¹
وما قيل من أن المراد به السماء التي فيها النجوم إما لإحكامها أو لكونها مجردة
بالكواكب فلا يصح. فإن الحبك ههنا ليس بالمصدر إنما هو جمع بمعنى الخبوط
والتكسر والغضون، فلا يكون وصفاً لهذا السقف المكوكب لا من جهة إحكامه
ولا من جهة نجومه.²

3. وضع الأصول السليمة والمبادئ الصحيحة ثم التزامها بدقة: ومن ميزات تفسير
الفراهي أنه يحتوي على الأصول السليمة والمبادئ الصحيحة لفهم القرآن وتديره
وقد بينت كثيراً منها عند الكلام عن منهج الفراهي في تفسير القرآن الكريم.
فهنا أكتفي بعرض بعض أصوله عرضاً سريعاً.

1. أسباب النزول: ما هو المراد بأسباب نزول القرآن فهل هي الوقائع التي كانت
تجري وقت نزول الآيات القرآنية فصادفتها أم كانت هذه الوقائع سبباً لنزول
هذه الآيات؟ ففي الإجابة عن هذا السؤال قد اختلف العلماء فبعض العلماء
ذهبوا إلى أن كثيراً من الآيات والسور من القرآن الكريم نزلت لأنّ هنا كانت
بعض الوقائع والأحداث التي اقتضت نزولها فإنهم فسّروا القرآن اعتماداً على
هذه الوقائع والأحداث. ولكن بعضاً منهم لم يذهبوا هذا المذهب، فإنهم رأوا أنّ
القرآن الكريم نزل حسب الهداية الانسانية سواء كانت هناك أسباب لنزوله أم لم

¹ أنيس الجليس في شرح ديوان الخنساء للأب لويس شيخو، بيروت، 1896م، ص 60-61

² تفسير نظام القرآن (سورة الداريات)، ص 5

تكن. والفراهي مع هذه الجماعة ولكنه لم يضع الأصول لفهم هذه المشكلة مشكلة أسباب النزول فحسب. بل إنه التزمها بدقة في تفسيره للقرآن الكريم، فإني أرى من الضروري أن أبين ما قاله بهذا الصدد ثم أحدث كيف طبّقها. يقول في مقدمة تفسيره: ليس شأن النزول كما قيل تسامحاً سبباً لنزول آية أو سورة بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلاً للكلام. فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين. وذلك تحت عمود السورة فلك أن تلمس شأن النزول من نفس السورة فإنّ الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه. كما أنّ الطيب مثلاً يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة، فإذا كان سوق الكلام لموضوع يناسب هذا الكلام والموضوع كتناسب اللباس والجسم بل كتناسب الجلود والأبدان، والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض، وما جاء في الآثار أنّ كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فعنائه أنّ كذا وكذا من الأمور كان موجوداً حين نزول السورة. لكي يعلم أنّ الآيات كانت لها دواعٍ ومواقع. قال السيوطي، قال الزركشي في البرهان: "قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أنّ هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع. قلت والذي يتحرّر في سبب النزول أنه ما نزلت أيام وقوعه¹ وبهذا ينحلّ ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير آية "وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِحَاثِيَتِنَا" حيث قال: ولي هنا إشكال وهو أنّ الناس اتفقوا على أنّ هذه السورة نزلت دفعة واحدة وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أنّ سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه. فإنّ الأمر عندي كما علمت أنّ الله تعالى حين أنزل حوّل وجه العتاب في سورة عبس، فإنه لو تدبر السورة لاهتدى إلى

¹ التفسير الكبير للرازي، 4-3/13

الصواب، ولا تجنب عن مثل هذا القول. يقول الفراهي: أقول وهذا الوجه- الذي جاء في كلام الرازي- في غاية الشناعة أيتنفر النبي عن الأعمى لعماه بل هو أولى بالرحمة والأسى لعمرك هذا بعيد عن مؤمن فكيف بنبي. فانظر كيف اهتدى الرازي رحمه الله أولاً لما هو الحق الصريح وهو أنّ هناك لا وجه للعتاب على النبي ولكن اعتماده على الروايات الضعيفة أورده هذا المورد الشنيع فلئن زهّ جانب الرب تعالى عن العتاب في غير محله فقد دنس جانب الرسول بما نسب إليه ما أقله لا يظنّ بخلقه العظيم.¹

ولذلك نرى الفراهي أنه لا يلتفت إلى بيان الوقائع والأحداث التي كانت موجودة وقت نزول آيات وسور من القرآن الكريم، إلا أن يكون ضرورة قصوى لبيانها والكشف عنها بل أنه يفسّر القرآن تفسيراً يوضع علينا أسباب النزول ويبيّن هدف القرآن العظيم- في وقت واحد- ففي تفسيره لسورة التحريم يتحدث عن سبب نزول السورة فيقول:

اعلم- هداك الله وإياي- أنّ الناس كما أنهم وقعوا في الشرك من جهلهم فكذلك زعموا أنّ للقرابة محلاً عند الله. وكان ذلك من أسوأ حماقات الناس وهلكت به أمم لا سيما اليهود لغرورهم بأبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وكونهم من أمة فضّلهم الله بالنبوة والنصر والملك. وهذا مع الحمافة دناءة للعبد وكفر بنعمة ربه. فإنّ علوّ همته لا يرضى له أن يكون بثمن الخلف وإحساس الشكر يردعه عن الافتخار بنعم منحه الله تعالى فضلاً من غير استحقاق والافتخار بالنسب والأصل خاصة الشيطان وبها هلك ويهلك أتباعه. فاقترضت رحمة الله تعالى أن يبلو اليهود بالعقوبات المذلة المهينة لعلمهم يذكرون ويطهرون. فأسروا وقتلوا ولم تزل الدوائر تدور عليهم ووبخهم أنبياءهم كثيراً ولكنهم لم ينتفعوا به إلا قليلاً. ونكتفي هنا بما جاء في أول ذكر تعليم يحيى قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة ولا

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة عبس)، ص 11

تفتؤوا وإن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر.¹ وقد أخرج القرآن كثيراً باستقلال الإنسان بنفسه في حمل أمانته كما قال في سورة لقمان "يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ"². ثم قال الفراهي: أراد الله أن ينبه المؤمنين لما يلزم هذا الأصل - الإيمان والعمل الصالح - من شدة النصح لأهلهم والغلظة عليهم في الاحتساب، وهكذا أراد أن يحذرنا عن الإفراط في الاحتساب لكيلا نحرم الطيبات ونشوّه فطرتنا فهذه الأمور الثلاثة - النصح للأهل، الشدة في الاحتساب، وعدم الإفراط فيه - شعب لأصل واحد فانتظر الوحي واقعة مناسبة لهذا التعليم الكامل أصلاً وفرعاً حتى جاءت المقادير بأمر هين حسب الظاهر ولكن الله تعالى جعله سبباً لجلب القلب إلى معرفة حقائق عظيمة، فالمقصود هنا أن تعلم أنّ الوحي ينتظر الموقع المناسب، دقّ أو جلّ، لكيلا يذهب القول منسياً ولكي يصغى إليه كل الإصغاء فإذا جاء الموقع المنتظر لم يكتف بذلك ما يتعلق بمحض الواقعة بل عمد إلى أصل الأمر وفرعه ووصل بحسن النظام أموراً متباعدة حسب الظاهر ولذلك وجب التدبير في كتاب الله.³

هذا هو رأي الفراهي في أسباب النزول وطريقته في بيانها في تفسيره لكتاب الله العزيز.

2. الربط والتناسب بين آيات القرآن وسوره: فهذه هي ميزة كبرى لتفسير الفراهي

وقد بحث فيها بحثاً شاملاً في الصفحات الماضية فلا حاجة هنا لإعادته.

3. تأويل القرآن بالقرآن: قد تناولت هذا الأصل بالبحث والتحقيق عند الحديث

¹ إنجيل متى: 11-3/4

² سورة لقمان: 33

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (تفسير سورة التحريم) بتصرف.

عن منهج الفراهي في تفسير القرآن الكريم.

4. أقسام القرآن: قد تكلمت عن رأي الفراهي في أقسام القرآن عند تحليلي لكاتبه الخاص في هذا الموضوع وهو "الإمعان في أقسام القرآن" فلا داعي هنا لإعادة ما قلته سابقاً فأكتفي ببيان تطبيق نظريته ورأيه بالفراهي- كما يتبين لنا فيما سبق لنا من القول- يرى أنّ القسم أصله الاستشهاد لا التعظيم كما ظنّه بعض الناس فوقوا في غلطات حينما لم يجدوا وجه التعظيم والتقدّيس في "التين والزيتون" اللذين قد ورد ذكرهما في سورة "التين" وليس من الحرج أن نقل قوله بهذا الصدد مرة أخرى ثم أرى كيف طبّق نظريته في تفسيره.

يقول إنّ القسم أصله الاستشهاد وإنه لا يراد منه التعظيم إلا إذا كان بالله تعالى وبشعائره فإن قال قائل: هب أن أصل القسم هو الإشهاد ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمقول وأصله كالمدهول، ولذلك نهى عن القسم بغير الله تعالى فلا يصار إلى الأصل إلا بدليل واضح بين، قلنا، أسلمنا ولكنا لم نذهب إلى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن إلا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة ودونك بيانها.

الأول: ما علمنا من سنة القرآن من استعماله بعض الكلمات مرة للعبد وأخرى لله تعالى، وحينئذ بين وجوهها حتى لا يكون مخالفاً بجلالة ربنا جلّت عظمته مثل كلمة الصلاة فإنها الدعاء من العبد والرحمة من الله تعالى، وكلمة الشكر فإنها من العبد الاعتراف ومن الله تعالى قبوله الحسنات من عبده، فما من كلمة إلا يميز بين وجوه معانيها إذا استعملت لله تعالى. ويؤخذ بأحسنها ويترك ما لا يليق بذاته المقدّسة. وقد علمنا الوجوه الكثيرة للقسم فحملناه على وجه يليق بجلالة ربنا وأخذنا بما هو خير وأحسن تأويلاً.

والثاني: ما تهتدي إليه من حمل النظير وتفسير الآيات بعضها ببعض فإنك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة تارة على أسلوب القسم بها وأخرى على أسلوب الآية والعبرة، وكلها أشهاد لمن يتفكر فيها، وهنا نقل الفراهي الآيات من سورة آل عمران للاستدلال بها على

نظرته ثم قال، يذكر الله تعالى آياته ويحتج بها، ثم ترى هذه الآيات أشهد بها القرآن على أسلوب القسم فأشهد بالسماء والأرض والشمس، والقمر، والليل والنهار، والفجر والضحي، والريح والسحاب والجبال، والبحر، والبلد، والإنسان والوالد والولد، والذكر والأنثى، والشفع والوثر، فكونها آيات دالة له لا سبيل إلى إرادة تعظيمها.

والثالث: ما يدلّك عليه نفس المقسم به فإنّ العاقل لا يتوهم أنّ الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدّس لا سيما الذي ليس له كبير تقدّس كالجبال العادية والريح والذارية وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذلة طائعة على نفس المقسم بها دلالة على أنّ المراد محض الإشهاد بها.

والرابع: ما ترى من المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه فإنّ القرآن وضع أكثر هذه الأقسام بحيث لا يخفى على العاقل جهة دلالتها على ما أقسم عليه، ولذلك نرى صاحب التفسير الكبير رحمه الله مع ظنه بأنّ القسم للتعظيم وتكلفه لبيان فضائل التين والزيتون، لم تخف عليه جهة عامة في دلالة الأقسام التي جاءت في أول سورة الذاريات فقال إنها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان.¹ ولو تأمل - أي الرازي - في سائر أقسام القرآن التي جاءت على وجه الاستدلال لاختار هذا التأويل في جميعها.

والخامس: ما ترى من تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة كما قال تعالى "قَلَّا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾".² فلم يترك شيئاً إلا وقد أقسم به كما قال: "وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا لِيُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ"³ فلم يترك شيئاً إلا وقد أنطقه بحمده وأشهده بحمده. ويشبه هذا التعميم استعمال المتقابلين حيث يقسم بالليل والنهار والأرض والسماء. فكيف يظن أنّ

¹ التفسير الكبير للرازي، 194/28

² سورة الحاقة: 38

³ سورة الإسراء: 44

الله عظم كل شيء والسبيل إلى جعله آية دالة ظاهر فلا يصار إلا إليه.

والسادس: ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء كما قال تعالى "وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥" ¹ فهذه الجملة الأخيرة مثل ما تجد كثيراً في القرآن بعد ذكر الدلائل كما جاء في سورة النحل: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ² أو كما جاء في سورة طه "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى" ³ أو كما جاء في سورة آل عمران "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ" ⁴ وهذا كثير، فهكذا هاهنا بعد ذكر الأقسام نبه على كونها دلائل لذي عقل وبصيرة ويشبه ذلك ما جاء من التنبيه بعد القسم في سورة الواقعة حيث قال: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦" ⁵ أي أنها فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به.

والسابع: ما ترى في ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير إلى جهة الاستدلال كقوله تعالى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ 6" و"فَلَا أُقْسِمُ بِاللُّحْنِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦" ⁷ وقوله تعالى: "وَالصَّغِيرَاتِ صَفًا ١ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ٣" ⁸ وقوله تعالى: "وَالذَّرِّيَاتِ ذَرًّا ١ فَالْحَمَلَاتِ وَفَرًا ٢ فَالْجَرِّيَاتِ يُسْرًا ٣ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ٤" ⁹ وقوله تعالى: "وَلَا أُقْسِمُ

¹ سورة الفجر: 1

² الآية 12

³ الآية 54

⁴ سورة آل عمران: 13

⁵ الآية 75-76

⁶ سورة النجم: 1

⁷ سورة التكويد: 15-16

⁸ سورة الصافات: 1-3

⁹ سورة الذاريات: 1-4

بِالتَّقْسِيسِ اللَّوَامَةِ¹ وغيرها فهوى الثريا، النجوم، وخنوس النجوم ووصف الملائكة وذرو الرياح، وتقسّمها الأمور، وملازمة النفس أقرب إلى الاستدلال منها إلى التعظي.²

وقد أطال الفراهي القول بهذا الصدد ولكنه اكتفى بهذا القدر لأنه كافٍ لبيان رأيه. وهنا يجوز لسائل أن يسأل: سلّمنا أنّ القسم أصله الاستدلال والاستشهاد فكيف نفهم وجه الاستدلال من القسم بالتين والزيتون وأمثالهما؟ ولكن أقول ردّاً على السائل: لا تستعجل، فأبيّن لك كيف كشف الفراهي عن وجه الاستشهاد عن التين والزيتون. فالفراهي كما قلت سابقاً يرى أنّ القسم بالتين والزيتون ليس للتعظيم والتقديم بل القرآن قد أشهدهما على سنن الله التي مضت على الأقسام الماضية ولا تبديل لسنة الله، فإن سلك المسلمون مسلك الأقسام الماضية سيحلّ بهم ما حلّ بتلك الأقسام. فالفراهي لإثبات نظريته يتحدث عن معنى التين والزيتون، فيذهب إلى أنّ المراد بهما الموضعان اللذان وقعت فيهما الوقائع الخطيرة³ فالتين موضع خاص عرفته العرب بهذا الاسم لكونه منبت التين، والعرب يسمّون الموضع باسم ما ينبت فيه كالغصن والنخلة، وليس ذلك خروجاً عن أصل معنى الكلمة وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف. قال النابغة الذبياني من بني غطفان.

وهبت الريح من تلقاء ذي أرل تزجي مع الليل في صرّادها صرما
صهب الظلال أتين التين عن عرض يزجين غيماً قليلاً ماؤه شهما³
أراد بالتين جبلاً في الشمال: قال الأولون هو بين حلوان وهمدان. وأما خلافهم من أبي حنيفة الدينوري مستدلاً بأنّ ذلك الموضع بعيد من بلاد غطفان. فلا يلتفت إليه

¹ سورة القيامة: 2

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 41-44 بتصرف

³ لسان العرب، 224/16. وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (ص 532): إنّ التين والزيتون جبلان بالشام يقال لهما طور سينا وطور زينا بالسريانية سمياً بالتين والزيتون لأنهما ينبتانها.

فإن الشعراء ربما يذكرون ما بعد عن بلادهم جداً وهذا النابغة نفسه ذكر بابل وسدّ يأجوج وتدمر فهل هذه في بلاد غطفان، وجبل التين على قول الأولين ليس بهذا البعد فإنها هو على جانب من العراق ولعل أبا حنيفة أخطأ معنى قوله "أتين التين". وظنّ أنّ النابغة أراد به الإتيان إلى بلاده وإنما هو أراد المرور فإنه يصف الريح الباردة الشمالية التي تزجي السحب القليلة الماء التي مرّت بجانب جبل التين فازدادت به برودة والعرب تذكر كثيراً هبّ الريح الباردة من جانب الشمال.¹

وأما الزيتون فأيضاً أطلق اسمه على منبته حسب السنة العربية كما أمر أنفاً ولا يخفى أنّ المراد جبل الزيتون الذي كثر ذكر تضرعات المسيح عليه، كما جاء في إنجيل لوقا: وكان في النهار يعلم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدعى جبل الزيتون".

وبعدما فرغ الفراهي من تحديد معنى التين والزيتون، بدأ بالكشف عن وجه الاستشهاد بهما على الدينونة فقال: إنّ التين هو أول موضع لظهور الدينونة على الإنسان وذلك بأنّ آدم لما نسي عهد الرب وسمع لقول حاسده وتمّت عليه وعلى زوجه الدينونة فأهبطا بعد الرفعة وسلباً لباس الجنة كما قال تعالى: "وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ"² وجعل الله تعالى ذلك الأمر تذكراً وموعظة لنسله فقال تعالى: "يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا"³. وقد صرح في التوراة بأنّ الشجرة التي خصفا عليها من ورقها كانت شجرة التين. ثم عند ذلك تابا إلى الربّ وتاب الربّ عليهما ووعدهما بإنزال هديه وأجر من تبعه من ذريته، فأعطاه عهداً ثانياً فواقعة التين جمعت السلب والعطاء؛ الأول لنسيانه العهد والثاني لإنابته إلى الرب. وكذلك وقعت الدينونة على نسله في عهد نوح

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة التين)، ص 6

² سورة الأعراف: 22

³ السورة نفسها: 27

عليه السلام عند جبل التين فأهلك الظالمون وبورك الباقون، فصار التين آية وتذكرة لما وقع على الإنسان من الدينونة وقضاء الرب تعالى.

أما جبل الزيتون فيقول الفراهي: قد وقعت عليه الدينونة العظمى من سلب الأمانة والناموس من اليهود وإعطائهما لدوحة أخرى من شجرة إبراهيم، إذ وقع ما وقع في آخر عهد المسيح في ليلة سهرها على جبل الزيتون. وقد ناجى الرب إلى الشجرة ويثس من قومه فخرن غاية الحزن لما علم أنّ اليهود يهّمون بقتله وبذلك يلعنون ويلبسون الأمانة فتعطي لأمة جديرة بها كما صرح به المسيح حيث قال أما قرأتم قط في الكتاب الحجر الذي رفضه البائون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا.¹ ثم فسّر المسيح ذلك بقوله: لذلك أقول لكم إنّ ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه² فهذا ملكوت الله وقع على جبل الزيتون. وجاء أيضاً في الإنجيل: "وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون ويتبعه أيضاً تلاميذ، ولما صار إلى المكان قال لهم صلّوا لكيلا تدخلوا في الفتنة العظمى - الفتنة العظمى التي تأخذ اليهود عن قريب فيلعنون بها- كما جاء في القرآن: "وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ"³. وانفصل عنهم المسيح نحو رمية حجره وحنا على ركبتيه وصلّى قائلاً: يا ربّ، إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك، وظهر ملاك من السماء يقويه ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه- اليهود- فوجدهم نياماً فقال لهم: لماذا أنتم نيام قوموا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة، وبينما هو يتكلم إذا جمع والذي يدعى يهوذا واحد من الاثني عشر يتقدمهم فدنا من يسوع يقبله فقال له يسوع يا يهود البقية تسلم ابن الإنسان. فلها رأى

¹ إنجيل متى: 42/44-44

² المصدر نفسه والآيات ذواتها.

³ سورة المائدة: 71

الذين حوله ما يكون قالوا يا رب، أنضرب بالسيف. وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى فأجاب يسوع وقال دعوا لي هذا وليس أذنه وأبرأها.¹ ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيخ المقبلين عليه، كأنه لص، خرجتم بسيف وعصي إن كنت معكم كل يوم في الهيكل لم تمدوا علي الأيدي ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة.²

ثم يجمع الفراهي من أطراف قصة المسيح التي وقعت على جبل الزيتون، ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا. ثم تقدم قليلاً وخرّ على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن، وقال يا أب الأب كل شيء مستطاع لك. فأجز عني هذا الكأس ولكن ليكن لا مشيئتي بل مشيئتك.³ ثم جاء ووجدهم نياماً فقال لبطرس يا سمعان، أنت نائم أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة. اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة أما الروح فندشيط وأما الجسد فضعيف. ومضى أيضاً وصلّى قائلاً ذلك الكلام بعينه. ثم رجع ووجدهم أيضاً نياماً. إن كانت عينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه ثم جاء الثالثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا يكفي، قد أتت الساعة.⁴ قال الفراهي أي قد حمّ الأمر ووقعت على اليهود سيئات ما كسبوا وأنا لم آل جهداً في دعائي لهم.

وبعد ما نقل الفراهي ما جاء في الأناجيل من قصة المسيح واليهود التي ظهرت ببجل الزيتون قال: ومما ذكرنا يتبين للمتأمل ما وقع من الدينونة العظمى على بقعة الزيتون، طرد قوم ودعي قوم. ثم يدعى التائبون من الأول، فكان اختلاط الرحمة والنقمة والنور

¹ السورة نفسها: 71

² إنجيل لوقا: 39-21/52

³ في النسخة الموجودة عندي جاء "ولكن ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت" ولعل الفراهي قد ترجم من النسخة الإنجليزية أو العبرانية أو يكون في النسخة الموجودة عنده هكذا.

⁴ إنجيل مرقس: 41-33/14

والظلمة، وعند ذلك تسكب العبرات وتصعد الزفرات وترى المسيح هناك كالشمع في آخر ذوبانه وشدة هيجانه: أفرغ جهده لقومه ثم غمّه اليأس ثم سكنه الرجاء، فاضطرب تحت عواصف الهموم كالبحر المتلاطم¹ فالقرآن يبين بالقسم بالزيتون أنّ اليهود بعدما انحرفوا عن جادة الطريق. ونسوا ما عاهده الله عليهم، نزل غضب الله بهم وحلت عليهم الذلة والمسكنة فإن سلك المسلمون مسلكهم ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم سينزل بهم ما نزل باليهود من الذلة والمسكنة والغضب وكأني بالقارئ قد اتضح له رأي الفراهي في أقسام القرآن واتضح له أيضاً كيف يطبق رأيه عند تفسيره للآيات القرآنية.

5. تعيين الخطاب في آيات القرآن وسوره: إنّ الخطاب في القرآن الكريم جاء بأساليب مختلفة، فحيناً يخاطب الله تعالى الناس مباشرة وحيناً بواسطة من نزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم، مرة يخاطبهم بصيغة الجمع ومرة بصورة الواحد. وكذا فيه الخطاب من العبد إلى الله كما من الله إلى العبد. فالمفسرون لعدم اعتنائهم بأنواع الخطاب قد وقعوا- أحياناً- في غلطات كبيرة. ولذلك نرى الفراهي اعتنى اعتناء بالغاً بتعيين المخاطب في القرآن ليتضح مفهومه ومنطوقه وثلاً يلتبس الحق بالباطل. فإنه قد أفرد فصلاً خاصاً في مقدمة تفسيره أوضح فيه رأيه. فأريد أن أُلخّص ما قاله بهذا الصدد:

لا خلاف بين المسلمين على أنّ القرآن كله كلام الله تعالى نزلّه على عبد محمد صلى الله عليه وسلم ولكن ليس معناه أنّ القرآن كله خطاب من الله إلى العبد بل في القرآن خطاب من العبد إلى الله كما في قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" فالخطاب له جهتان من وإلى من وكلتاها ربما تعمّ والمراد خاص وربما يعكس الأمر وإن يختلف المعنى كثيراً باختلاف جهتي الخطاب وعمومه وخصوصه وجب البحث عن أصول تهدي إلى الصواب فإن الخطأ فيه ربما يسقط المرء في الشرك.

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة التين)، ص 7-14 بتصرف.

قال الرومي رحمه الله: ¹ إنَّ الله تعالى جعل الناس عباداً للنبي حيث أمره أن يدعوهم بقوله: "قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... الآية" ² وظني به أنه لم يرد الشرك بالله تعالى ولكن القول يضاهي قول الذين كفروا فيغفر الله له. والأمر ظاهر فإنَّ قوله تعالى: "قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا" خطاب منه تعالى إلى العباد، وصدره بقوله "قُلْ" خطاباً للنبي لكي يبلغه إلى العباد حرفاً بحرف واعلم أنَّ هذا العلم طرف من علم توجيه القول العام إلى جهته الخاصة، ومن لم يعلم جهته الخاصة لا يصيب تأويله الصحيح فكان ذلك مفتاحاً لفهم التأويل ونظم الحديث والجهل به من أكبر مثرات الخطب والتخليط وتقليب المعاني". ثم يقول: إنَّ الخطاب إذا احتمل وجوهاً كان كاللفظ المشترك فلا بد من أخذ بعضها وترك البواقي ³ وضعنا في المشترك أن نعلم أولاً معانيه كلها ثم نرجع إلى سوق الكلام وغايته فنأخذ بعض المعاني المحتملة ونترك البواقي، فأول شيء في الباب أن تعلم وجوه الخطاب كلها.

ثم بدأ الفراهي يتحدث عن وجوه الخطاب فيقول إنَّ للخطاب مصدراً ومنتى فالمصدر إما هو الله تعالى أو جبريل أو الرسول أو الناس وأما المنتى فهو الله تعالى أو الرسول أو الناس. والناس إما المؤمنون أو المنافقون أو أهل الكتاب أو ذرية إسماعيل أو اثنان منهم - الناس - أو ثلاثة أو أجمعهم، وأهل الكتاب إما اليهود أو النصراني أو كلاهما، فبعض ظواهر الوجوه ثم فيها ما يقصر الأمر. أما الالتباس في المصدر فهو بين الله تعالى والرسول وجبريل، فإنك إذا مررت على القرآن غير ذاكر ومتفكر لم تعلم من القائل؟ فإن النبي وجبريل رسولان من الله تعالى فربما يتكلمان لقول من أرسل وربما يؤديان ما أجرى الله على لسانهما".

¹ هو جلال الدين الرومي صوفي شهير فلدوانه الشعري "المتنوي" أثر كبير في مجال التصوف والأدب الفارسي. يعتبر مرشداً للشعراء الفرس كما يعتبر أباً روحياً للصوفية. أخذ التصوف من شمس الدين التبريزي.

² سورة الزمر: 53

³ فالمشترك يؤخذ معنى من معانيه حسب القرائن وسياق الكلام.

ويوضح الفراهي هذه الفكرة بالأمثلة فيقول: سورة اقرأ كلام بلسان جبريل أولاً حتى إذا بلغ مقام الغضب جاء الكلام من الله تعالى صريحاً: "كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿٥٥﴾". ويتكلم عن المخاطب فيقول: ربما يخاطب الله النبي ووجه الخطاب إلى الأمة فإن النبي هو وكيل من الأمة إلى الله تعالى فهو لسانهم وسمعهم، ونعلم من سياق نظم القرآن من هو المخاطب في سورة التوبة "إِن تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ وَتَسَبِّحْنَهُنَّ وَإِن تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَأْتِ بِهَا خُبْرٌ" ¹ معناها إن تصيب المؤمنين كما صرح في الجواب "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا" وهكذا في سورة بني إسرائيل خاطب النبي والخطاب إلى الأمة بقوله: "إِنَّمَا يَبْتَلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا تَنْهَزْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٢٣﴾". وغير ذلك خطاب عام وهكذا في سورة البقرة: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧٧﴾". ² فالفراهي يؤدي أهمية كبيرة لتعيين الخطاب لأن الخطاب عنده له نصيب كبير في تعيين المراد من الكلام. فإذا فات المفسر فهم الخطاب فإنه يفوته فهم الكلام ولذلك نراه حينما يبدأ تفسير سورة أو آية من القرآن الكريم وفيها خطاب يوضح أولاً نوعه ثم يبدأ في التفسير.

فهنا أريد أن أبين ما قال الفراهي عند تفسيره لقوله تعالى "أَلَمْ تَرَ" من سورة الفيل فإنه لم يذهب مذهب المفسرين في تعيين المخاطب فيه بل إنه يرى أن الخطاب فيه موجه إلى من رأى واقعة الفيل أو كان يؤمن بها، وفي إثبات نظريته استدلل بالآيات القرآنية الأخرى على أن الخطاب للواحد بما يقصد به الجميع ليعتبر كل واحد منهم نفسه مخاطباً كما أنه أثبت نظريته بالمناسبة التي توجد بين السورة السابقة واللاحقة فلا حرج أن نقل ما قاله بهذا الصدد ملخصاً فإنه ينقل كثيراً من الآيات القرآنية ليستدل بها على أن القرآن ربما يأتي بالخطاب للواحد ليقصد به الجميع

¹ الآية 50

² مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 29-31 بتصرف.

وبالعكس فمثلاً قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ عَائِيَتِهِ¹" بدأ فيه بالواحد وأعقبه بالجمع فإن المراد من الواحد، كان هو الجمع، وهكذا قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ²" وربما يبدأ بالجمع ويعقب الواحد فإن المراد هو الجمع، كما قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا" حتى قال: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ³" فبدأ بالجمع ثم أعقبه الواحد، ثم أعقبه الجمع، ولا داعي هنا لنقل كل الآيات التي جاء بها الفراهي. فبعد انتهاء ذكر هذه الآيات يورد سؤالاً ويوضح بجوابه فكرته التي يريد إثباتها. يقول: قيل نعم- أن الخطاب في "أَلَمْ تَرَ" إلى من رأى الواقعة ولكن كيف نجعل المخاطب جماعة في هذه السورة والمشهور أن الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا مانع عنه في الكلام، قلنا لذلك أسباب:

الأول: أن كلمة "أَلَمْ تَرَ" تجيء عموماً لعموم الخطاب،⁴ فصرفها إلى الخصوص من غير قرينة خلاف سنتها، بل القرينة الظاهرة أن الذين رأوا هذه الواقعة أولى بالخطاب. فإن قيل أن القرآن تنزّل من الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم فالأصل في بدء الكلام أن يخاطبه إلا أن يمنع مانع؟ قلنا قد علمنا من سنة القرآن أنه يخاطب الناس في بدء الكلام كما في طيه مثلاً "أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ" و"يَا أَيُّهَا النَّاسُ" وفي طي الكلام "قَبَائِرِ آلِ رَبِّكَ تَتَمَارَى⁵"،⁶ وأيضاً "قَبَائِرِ آلِ رَبِّكَ مَا تَكْذِبَانِ⁶".

¹ سورة لقمان: 31

² سورة إبراهيم: 16

³ سورة البقرة: 104-107

⁴ كما في الآيات التي ورد ذكرها.

⁵ سورة النجم: 55

⁶ سورة الرحمن قد جاء فيها هذا الأسلوب 31 مرة.

ومن يلتمس حسن التأويل يجد كثيراً مما يراه الناس خطاباً إلى النبي أنه خطاب عام،¹ فنه قوله تعالى: "فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ" ² وهكذا "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" ³ "وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةَ" ⁴. وقد أكثر القرآن من خطاب الإنسان عموماً أو المخاطبين حسب موقع الكلام، بالواحد والجمع والمثنى فالأصل في حرف ذلك ليس إلا ما يدلّ عليه حسن التأويل.

والثاني: أنّ ظاهر هذه السورة يدلّ على حماية مكة وأهلها عن عدوّهم والاستفهام هنا ليس إلا للردع والتنبية كما هو ظاهر، وذلك لا بد أن يصرف إلى من ظهر منه تغافل عما استفهم فينبه على ما علم كأنه قيل له "كيف تفعل ذلك وأنت تعلم ما يسدّك عن فعلك هذا"، فكيف يصرف الخطاب إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم. وليس في السورة شيء يدلّ على تغافل عنه أو أمر يقتضي تنبيهه، وأما أهل مكة فإنهم لشركهم وصدّهم المسلمين عن الصلاة أظهروا أنهم غير شاكرين لربهم، وعلى هذا المعنى دلالة واضحة في السورة التالية فهؤلاء المشركون أولى أن ينبّهوا على ما غفلوا عنه كأنه قيل لهم: هلاّ تعبد ربّ هذا البيت وتوكلّ عليه وتدع الشرك فإنه هو الذي نصرك وأمّنك من خوف الأعداء الأقوياء.⁵

والثالث: أنّ القرآن إنما نزل ليقرأ على الناس كما قال تعالى: "وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ".⁶ فإنّ صرف هذا الخطاب إلى النبي لا بد أن يراد به تسليته من

¹ لأنّ عمود سورة الفيل أي مضمونها تخويف وتهديد قريش مكة من العذاب الذي نزل على الذين أرادوا هدم البيت فأهلكهم ونصر من حافظوا عليه، عليهم فإن استمروا في إيذاء النبي وفي إلقاء العقبات في طريقه فسينزل عليهم ما نزل على أبرهة وجنوده.

² سورة التين: 7

³ سورة القارعة: 3

⁴ السورة نفسها: 10

⁵ إشارة إلى مضمون سورة قريش.

⁶ سورة الإسراء: 106

الله تعالى وأنه كما هزم جنود أعداء هذا البيت فكذلك سيهزم هؤلاء المشركين الأقوياء فإنهم أعداء الله فهذا المحمل وإن صح خطاباً بالنبي ولكن إذا قرأه النبي على الناس صار حجة لهم فإنهم حينئذ يقولون: نحن أولى بنصر الله. فإننا ولاية بيته ألا ترى كيف انتصر الله لنا وأهلك أعداءنا. فلا يحسن تأويل السورة إلى تمديدهم وإنما يحسن تأويلها إلى تحريضهم على التعريض بذكر النعمة التي أنعم عليهم بها كما صرح به في السورة اللاحقة وهذا يقتضي صرف الخطاب إليهم. ثم يقول: تبين مما قدمنا أن السورة ليست بخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما أنزلت ليخاطب النبي بها قريباً كلها على سبيل الانفراد وفي اختيار صيغة الواحد دلالة على أن كل امرئ منهم يجب عليه أن يشكر ربه ويذكره ويخافه كما يخاف العبد مولاه المنعم فيعبده.¹

هذا هو رأي الفراهي عن المخاطب في "ألم تر" قد وضعت أمام القارئ مع دلائله فعليه أن يحكم عليه بالصواب أو الخطأ. أما أنا فأبين رأيي في الفصل الذي يليه.

6. عصمة الأنبياء: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم- نماذج جيدة في التحدث عن الله بألسنتهم وكانوا قبل بعثتهم وبعدها نماذج أجود في جذب الناس إلى الله بطيب أنفسهم ونقاء معدنهم وصفاء سيرتهم ووصولهم في مدارج الكمال الإنساني إلى ذروة تزرع الإعجاب في النفوس وتجعل الأتباع عشاقاً لشمائلهم فالقرآن الكريم حين يتحدث عنهم يصفهم بالأمانة، والصدق وصفاء القلب وطهارة العاطفة وبالأخلاق العالية التي يصعب الوصول إليها بل يستحيل إلا بإذن الله تعالى الذي بعثهم واختارهم، ولكن هنا عتاب في القرآن الكريم على الأنبياء عامة وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، فما هو نوع العتاب وعلى ما عوتبوا؟ فقد وقع كثير من المفسرين في غلطات فاحشة في بيان وجوه العتاب ولكنهم لو وضعوا في

¹ تفسير نظام القرآن (سورة الفيل)، ص 4-6 بتصرف

نظرهم أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عامة ومحمد صلى الله عليه وسلم خاصة لم يعملوا- في أمر الدين والدنيا- تحت تأثير العاطفة البشرية بل لم ينطقوا كلمة من عندهم بل كان باعثها وحي أوحاه الله إليهم. فإنهم كانوا مأمورين من الله بتبليغ رسالاته إلى الناس وشهادة الحق بالقول والعمل، لما وقعوا في مثل هذه الغلطات الفاحشة، فهذا الإمام الرازي¹ الذي هضم العلوم الثقيلة والعقلية وكلّ المعضلات الفلسفية قد أخطأ خطأ شنيعاً في بيان وجه العتاب في سورة عبس فإن عوتب النبي على ميلانه إلى صناديد قريش لأنهم كانوا من أقربائه وإعراضه عن رجل كفيف مثل ابن أمّ مكتوم الذي كان كرهه المنظر، ولا يمتّ إليه بصلة وقربة. فإن كان الرسول الذي وصفه القرآن أنك لعلی خالق عظيم يعمل هذا العمل الذي لا يليق برجل عادي فضلاً عن الرسول فمن يكون سواه الذي نعدّه مثلاً أعلى للإنسانية. ومن يكون ملجأ ومأوى للضعفاء إذا كان الرسول يتنفر عنهم. فكان لهؤلاء المفسرين قبل أن يخوضوا في مثل هذه المباحث أن ينظروا نظرة دقيقة في عصمة الأنبياء ثم في الوقائع التي نزل لأجلها العتاب عليهم. فهنا أريد أن أبين الأصول التي وضعها الإمام الفراهي بهذا الصدد. ثم أتحدث كيف هو يكشف عن وجوه العتاب. فالفراهي لا يغيب عن ذهنه أنّ الرسول على ذروة من الكمال الإنساني- كإخوانه من الأنبياء السابقين، بل إنه قد أوتي في هذا المضار حظاً من المجادة والشموخ لا يعرف لني من قبل- يقول الفراهي في تفسيره لسورة عبس: أقدم علينا بصرح العقل والنقل أنّ الله اصطفى للرسالة أكرم الناس وأتقاهم، كما قال تعالى "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ"². وقال "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ"³ وذكر الخبر

¹ انظر: ص 220 من هذا الفصل فإن هناك بياناً لرأي الرازي عن وجه العتاب في سورة عبس.

² سورة الأنعام: 124

³ سورة القلم: 4

الذي جاء في الصحيحين عن وزن النبي بكفة وجميع الناس بكفة حتى إذا رحمهم أعطى الرسالة. ثم بعد اصطفتائهم يصرفهم الله كيف يشاء فيأمرهم ويعلمهم ما لم يعلموا فكأنهم بين إصبعيه ويمشون بين يديه، كما قال تعالى: "فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا"¹. وقال تعالى: "فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٧٨﴾".² وأنه تعالى يعصم رسوله عن كل زيغ ويتداركه قبل أن يقع فيه، فإذا جرى في سمته خطر لا يمهلها إلا ريثما يتم فرض نبوته ويفرع سجل قوته حسب سنة الله وحكمته في خلقه، فإنه يتبلي عباده ويخرج ما في سرهم، وعلى هذا فإذا رأى بين يدي رسوله معثرة نهبه وربما نهاه بجهير الصوت وأسلوب العتاب إذا وجده يذهب فارزاً رأسه لكي ينتبه ولكن يعلم قضاة المنهي عنه. ولكي يتذكر أن لولا الله لعثر، فيشكر ربه ويتذلل أمامه ويزداد قرباً منه والتصاقاً به، كرضيع تخوفه أمه فيلتصق بلبانها، فالأنبياء متقلبون بين حسنيين فإن الله تعالى نفاهم عن أوضار الهوى، فلا يعمدون إلا إلى مرضاة الله، إلا أنهم ربما يفرطون في جانب فيرددهم بهم إلى الجادة والأمر الوسط وذلك لأن النبي كالأصل لأئمة كأنهم شقوا من نبعه وجبلوا على طبعه وهم مأمورون باقتفاء آثاره واقتباس أنواره فأدنى إفراط منه إضافة لجميع الأمة وأما سبب إفراطهم أنهم لا يعلمون من سرائر للناس نهاية غورها فلا يقطعون الرجاء من إصلاحهم فيجاهدون بهم كطييب آسٍ وحميم مواسٍ حتى يتبين لهم أنهم أعداء الله فحينئذ يتبرأون منهم. كما أخبر الله عن إبراهيم "فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾"³ وكذلك ربما يقع أن النبي قد قطع الرجاء لما

¹ سورة الطور: 48

² سورة الجن: 28

³ سورة التوبة: 114

ظهر عليه من تمردهم ومع ذلك فيهم مطمع كما وقع ليونس، وذلك بأن الله تعالى وحده عليم بما تكنه الصدور، وربما يأمرهم بالإعراض والاستغناء وربما يثبتهم على المجاهدة بهم والحاصل أن الله يصرف نبيه كيف يشاء، فتارة يمنعه عن رحمة ووضعها غير موضعها. وأخرى يثبتته على الصبر واحتمال الأذى والعتاب على الأول دليل على كمال رحمته، والثاني دليل على كمال غيرته في جنب الله وهو في كلتا الحالتين بريء عن هوى النفس والزيف والباطل.¹

هذه هي الأصول التي وضعها الفراهي لفهم العتاب الذي نزل على الأنبياء عامة وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خاصة. فتعال نرى كيف طبقها في تفسيره. وأريد أن آتي للمثال بسورة عبس التي قد أخطأ في تفسيرها الإمام الرازي، فالفراهي أولاً ينكر أن الرسول عبس لشخصية ابن أم مكتوم ودليله على ذلك القرآن نفسه كما سيأتي بيانه، وثانياً [أن] العتاب موجه إلى صنديد قريش لا إلى الرسول كما فهم المفسرون. والفراهي قد نقل هنا الروايات التي جاء فيها أن ابن أم مكتوم حضر إلى النبي ليتعلم منه، ولكنه بعد نقله هذه الروايات كلها يقول إن هذه الروايات كلها تنتهي إلى الذين لم يكن واحد منهم شهد الواقعة فلو صحّت لم يكن إلا استنباطاً لا خبراً، ثم يتحدث عن أن أسانيدنا ضعيفة مع الاختلاف فيها، فلا يعتمد عليها كما أن القرآن على خلافها فإنه يشرح أولاً كلمات السورة شرحاً لغوياً ف"عبس وتولى" (كلمة لكراهية وأعرض) أن جاءه الأعمى (أي لأن جاءه)² وهذا ذكر سبب العبوس فإن سبب الكراهية في ذلك الوقت كان مجيئه نفسه.³ "الأعمى" اتفقوا على أنه ابن أم مكتوم عبر عنه بهذا الوصف للدلالة على ضعفه واحتياجه وعدم اطلاعه على ما كان فيه النبي من الشغل وما كان مقتضى الحال، ثم يستطرد إلى موقع الآيات وتصوير قصتها فيقول:

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة عبس)، ص 23

² انظر: تفسير الجلالين، ص 548 والبيضاوي، ص 784

³ إن العلامة البيضاوي يقول: وذكر الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم للقوم، أو الدلالة على أنه أحق بالرافة والرفق أو لزيادة الإنكار كأنه قال قولي لكونه أعمى، ص 784. فانظر البيضاوي مع كبر شأنه لم يحتز من مثل هذا القول الشنيع.

موقع هذه الآيات منع النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة الوقت بالمصرين على الكفر، وحثه على التزام المؤمنين وبيان ذلك أن الله تعالى أمره بتقديم الدعوة إلى رؤساء قومه الذين كانوا ذوي الرئاسة وبالاعراض عنهم إذا تبين إصرارهم على الكفر وبالترام من تبعه من الناس كما قال تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٧﴾ الَّذِي يَرْزُقُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٦٩﴾".¹ فاشتغل النبي بدعوتهم وقد رأى منهم شدة الأنفة والكبرياء. وكان من شدة رحمته بهم وشفقته عليهم وإيثاره بفریضة الرسالة العظمى الخاتمة المتممة، ورجاء أن يعز الإسلام بإيمان الأقوياء ذوي البأس والنجدة وقد صدق ظنه بإيمان أبي بكر وعمر وحمزة وخوفاً من أن يكون قد قصر من الجهاد والصبر فيما فرض عليه ولكن لما كان في ذلك بعض شغل عن الذين هم أحق بعنايته وتنزل عن سمو محله صرفه الله إلى الأمر الوسط وإلى الانتقال بالصلحين.²

العتاب موجه إلى الكفار وفيه ثناء على النبي: وكان الرسول "مما يخاف عند مجيء عبد الله بن أم مكتوم في ذلك المجلس أن يذر أصحابه في عيون المنكرين فإن النبي لسعة جوده ورأفته بالناس كان يحفه الفقراء والنبي من شدة غيرته وحياته لم يكن ليرضى بما يطعون في أصحابه الذين آمنوا ابتغاء مرضاة الله لا لطمع دنيوي. فلما وقع هذا الأمر حان أن يبين الله لنبيه أنه قد بلغ من الغلو في الدعوة ما لا ينبغي له وأخرج الكلام مخرج عتاب حسب الظاهر، ولكنه في الحقيقة زجر للكافرين وثناء على النبي وتطبيب لقلوب المؤمنين. والنبي في هذا الخطاب مثله مثل رابع صالح خرج في طلب خروف سمين شريد حتى ذهل ساعة عن قطيعته الصالحة التي تتبع أثره وتسمع نداءه فإن لم يكن هذا الشريد أجدر برأفته عن سائر الغنم فالذنب له لا للراعي الشفوق. فإن خاطبه مالك الغنم يعاتبه "ما لك قد ضربت الصفح عن القطيع الصالحة وتهالك على خروف غير

¹ سورة الشعراء: 214-219

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة عبس)، ص 3-6 بتصرف.

طائل دعه يأكله الذئب فإنه أولى به"، علم كلّ ذي عقل أنّ العتاب هنا وإن كان بحسب الظاهر موجهاً إلى الراعي ولكنه في الحقيقة سنخبط بالحروف الأحمق، ومدح للقطيعة الصالحة ودليل على شدة رافة الراعي وغلوّه في طاعة مالكه.

النبي لم يكن يعرف أنّ ابن أمّ مكتوم جاء للتزكي: فيقول الفراهي: "وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكِّي ۖ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۗ" صريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم أنّ الأعمى جاء إليه ليظهر قلبه أو ينور عقله بالذكر فإنّ النبي لو علم بذلك لالتفت إليه بالبشاشة، فكأنه قيل له: لقد ضقت ذرعاً بأنّ جاءك بما تكونه وما يدريك ذاك لعله جاء بما يقرّ عينك. وبالجملة، فالقرآن يأبى أن يكون النبي قد علم بأنّ الأعمى جاء لأمر ديني من التزكي أو التذكر ثم عبس له.¹

7. الدعوة إلى الله: هذه هي ميزة الفراهي الكبرى، بل هي بيت القصيد من تفسيره. ولكن هل - يا أيها القارئ- هو كوّن حزباً دينياً أو سياسياً، أو كان يشترك في المجالس والحفلات ليخطب فيها الناس ويدعوهم إلى اعتناء آرائه؟ فالفراهي سلك مسلكاً أصبح غريباً في عصره، وكان هو مسلك الأسلاف، وهو توحيد كلمة المسلمين وجمعهم في صعيد واحد وإثارة أذهانهم بنور الإسلام وإيقاظ شعورهم بالواجبات والفرائض وإزالة الخلافات التي جدت فيهم لبعدهم عن الإسلام وتعاليمه ولسوء فهمهم روح القرآن ونسيانهم ما عاهده الله عليهم من القيام بأمر الدين، فهل كان يمكن ذلك في عصر الفراهي إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم الذي هو نقطة الالتقاء للناس حينما قلّ أناس يدعون إلى الله وإلى ما فيه خير للفرد والمجتمع. فتفسير الفراهي الذي قد أشبعت القول في السطور الماضية عن مطالبه ومباحثه عبارة عن الدعوة إلى الله. ولكن هنا بعض الصفات لا بد للداعي أن يتصف بها فتعال نرى ما هي؟ وهل كان الفراهي متصفاً بها؟

¹ المصدر نفسه (سورة عبس)، ص 7-9

1. صلة بالله: وتلك الدعاة الأولى في أخلاق الدعوة، إذ كيف تدعو الناس إلى أحد صلاتك به واهمية ومعرفتك به قليلة ومن ثم لا يفهم أن يتصدى أحد للدعوة إلى الله والأخذ بصراطه وهو لا يعرف الله ولا يدري صراطه، فحى على الدعوة ألا يهتوا في الحياة أو يموتوا وألا يعدلوا بنسبتهم إلى الله شيئاً ولنعرف مدى صلة الفراهي بربه نسمع ما قاله الناس عنه. فهذا العلامة شلي مؤرخ الإسلام وأستاذ الفراهي الأول يقول: عند الفراهي تنفر الطبيعة عن الدنيا ويذهل عن ذهن الناس حبّ ملذاتها¹ ويقول بعض العارفين للفراهي للناس تعالوا نزد الإيمان بالله² أي تذكر الفراهي وذلك بعد وفاته رحمه الله، وقد حكى تلميذ الفراهي أمين أحسن الإصلاحي أنه سأل أستاذه مرة هل خطر بباله في أي وقت شكّ في وجود الله فردّ عليه قائلاً: كلا ولكن حينما كنت طالباً بالجامعة الإسلامية بعلي جرة جاء في ذهني هل الله موجود ففكرت في ذلك حوالي ساعتين نتج عن ذلك الإيمان بوجوده، وثم بعد ذلك لم أصادف قط في حياتي هذا الخيال³. ويقول العلامة السيد سليمان الندوي- صاحب المؤلفات القيمة في الأردوية والعربية- إن الثقافات الغربية قد غيرت مناهج تفكير الناس وتسربت إلى أذهانهم الشكوك والشبهات في القيم الإسلامية وتعليمه، ولكن الفراهي قد زاد إيمانه بالله بهذه الثقافات الحديثة، وقوي إيقانه بالإسلام وتعاليمه⁴.

2. إصلاح النفس: فالفراهي كما فصلت في الفصل الخاص عن حياته لم يدع الناس إلى شيء إلا عمل به أولاً، فحياته خير مرآة لدعوته التي قام بها وهذا المفكر العظيم مولانا أبو الكلام آزاد يقول: "لا أعرف هل علم الفراهي يفوق عمله أم عمله يفوق علمه"⁵. فالناس- سواء كان من موافقيه أو من مخالفيه

¹ ترجمة الفراهي (أمين أحسن الإصلاحي)، ص 40

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ المصدر نفسه، ص 38

⁴ وفاة الفراهي، مقال بقلم السيد سليمان الندوي، مجلة معارف سنة 1930م

⁵ مجلة "دوام" بالأردوية، العدد التاسع، ص 16 بقلم عبيد الله الفراهي

متفقون على أنّ الفراهي كان إنساناً عظيماً وكاملاً. ولم يعترض عليه أحد من الناحية العملية أو بتعبير أدق من الناحية الإنسانية.

3. دقة الفهم للدين والدنيا: الفراهي حينما يفسّر القرآن الكريم يفسّر كالداعي ويبيّن للناس في ضوء القرآن الطريقة التي يجب أن يسلكها المسلمون ويكشف لهم عن أسباب انحطاط المسلمين. كما بيّن أصول الدعوة وصفات الدعاة في ضوء الطريقة التي سلكها الأنبياء في دعوتهم. فيقول في تفسيره لسورة "هَب":

"إنّ الله تعالى لم يجعل محمداً صلّى الله عليه وسلّم ملكاً فيكون أعدى عدوّه من نازعه ملكه، بل بعثه داعياً إلى الحق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً وأمره بالصبر والصلاة وإعلاء كلمة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يردّهم إلى ملة إبراهيم وأن يطهّر بيته من أوضار الشرك إنجازاً لما وعد بانيه. ولذلك أمره بإنذار عشيرته الأقربين الذين هم سدنة بيته وذلك هو طريق الأنبياء. ألا ترى عيسى عليه السلام كيف كان يعنّف على علماء اليهود ويغلظ لهم القول فإنّ أولئك هم الذين حملوا أمانة الله فهم يسألون ثمّ أنهم قادة الجمهور فيدعون أولاً لتصلح العامة بصلاحهم ولو ترك الأنبياء سادة الناس كان مدهانة في الدين وهدماً للسلام كما تفعل الخوارج من كل قوم فإنهم يثيرون العامة ومن هنا يظهر الفرق بين طلاب الملك وبين أنبياء الله. ألا ترى كيف أمر الله تعالى موسى عليه السلام حيث قال عزّ من قائل: "أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنِي ﴿٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿٩﴾".¹

وترى دانيال عليه السلام يدعو الملك العظيم نبوخذ نصر، هو الذي يسمّونه بخت نصر وترى يرمياه عليه السلام تنبأ على ملوك الشمال، وهكذا ترى محمداً صلّى الله عليه وسلّم خاطب ملوك الأرض ودعاهم إلى الإسلام.²

¹ سورة النازعات: 16-17

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة هَب)، ص 3

المبحث التاسع: أثر الفراهي في الهند

أولاً- آثاره العلمية: قد اتضح مما سبق من الكلام في البابين السابقين، أنّ صاحبنا الإمام الفراهي قد قضى حياته كلها مجاهداً وداعياً إلى الله في سبيل إعزاز الدين واللغة العربية والتمكين لهما في نفوس شباب الإسلام ودرع شبه أعداء الدين والعربية والعرب الذين زاد عددهم في عصره واشتدت هجماتهم بإيحاء من الاستعمار الغربي ومساعدته لهم. ولا شك أنّ الفراهي فعل ما فعل في سبيل الدين واللغة ليلبغى وجه الله وتحقيق المثل العظيم الذي يجب أن يختاره كل مسلم لنفسه وهو الجهاد الدائب في سبيل الدين الذي ارتضى الله له واللغة العربية التي أنزل فيها كتابه الخالد حتى يحظى برضى الله الذي هو فوق كل شيء عند المسلم، ولكن- للأسف الشديد- الإمام مع خدماته العظيمة في هذا المجال، ومع جلالته شأنه، وغزارة إنتاجه لم يشتهر بين الناس كما كان يستحق، ولم ينتشر علمه كما كان ينبغي أن ينتشر، بل مني بخمول الذكر. وذلك يرجع عندي إلى سببين رئيسيين:

السبب الأول: أنّ الإمام الفراهي اختار اللغة العربية لكاتبته ودعوته، والإعراب عن أفكاره، فإنّ كل ما ترك وراءه من كتب قيمة، ولا سيما تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" باللغة العربية. ولذلك لم يستطع الانتفاع به إلا شريحة قليلة من العلماء الذين يعرفون اللغة العربية في الهند، ولكنهم مع إشادتهم البالغة بكتب الفراهي، وأسلوبها ومنهجها، ومع اعترافهم بأنّ طريقة الفراهي لدراسة القرآن هي الطريقة الصحيحة لدراسته في عصره قد بلغت التأويلات الركيكة لآياته والتحريفات لكلمه ذروتها، لم يستطيعوا التمشي مع الأصول التي وضعها لتدبر القرآن ثم تفسيره. أو لم يريدوا وذلك لأنّ هذه الأصول كانت تتطلب منهم بذل الجهود الجبارة في دراسة اللغة العربية وآدابها، وترك المنهج التقليدي الذي كان معمولاً به عندهم منذ قرون عديدة.

والسبب الثاني: أنّ تلاميذ الفراهي لم يقوموا بنشر علمه وثقافته وأفكاره بين الناس كما كان

يجب عليهم. ولعل قلة الإمكانيات حالت دون سرعة تنفيذ هذا، فالكتب التي لم يستطع طبعها في حياته لا تزال موجودة بدون طبع في مكتبة مدرسة الإصلاح "ماذا سيكون مصيرها؟ وعلمه عند الله، ولا شك أنّ بعض كتبه المخطوطة قد طبعت في العامين الماضيين أمثال "دلائل النظام" و"التكميل في أصول التأويل" و"أساليب القرآن" ولكن بدون تحقيق كما أنّ فيها أخطاء كثيرة تذهب بنفعها، فالعلماء الذين لهم صلة قريبة بفكر الفراهي وخاصة تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي- الذي يقيم حالياً في باكستان ويفسّر القرآن الكريم بالأردوية كما سيأتي الحديث عنه وعن تفسيره- يجب عليه أن ينقذ هذه الكتب الثمينة من الضياع وإن لم يستطع أن يمنح وقتاً كافياً لتحقيق هذه الكتب والرجوع إلى المصادر التي استفاد منها الفراهي فعلى الأقل يجب عليه أن يقدم خدماته كشرف على الدائرة الحميدية التي أسست بطبع كتب الفراهي ونشرها، لتستطيع أن تطبعها على صورة علمية حديثة. وذلك تقديراً لفضل الفراهي عليه ونظراً لقيمة هذه الكتب التي إن ضاعت خسر المسلمون خسراناً عظيماً. فشهرة أمين أحسن الإصلاحي العلمية يرجع فضلها إلى الإمام الفراهي. وذلك يقتضي منه أن يؤدي ما يجب عليه لأستاذه. ولكن كيف نأمل منه ذلك وكما يصح لنا أن نأمل؟ وقد طلبت منه بعض المساعدات حينما حرمت على إعداد بحثي وظننت أنّ هذا الخبر سيسرّه. وقد قلت في خطابي أنك عشت مع الإمام ودرست عليه، فستكون عندك معلومات وافية عن حياته، وعلمه وآثاره. فأرجو منك المساعدة ولكن للأسف الشديد لم يجد فرصة للردّ على خطابي. فالكتب والمراجع التي حصلت عليها سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة ليس لأمين أحسن يد في إرسالها، بل الذين لم أكن أعرفهم جيداً لما عرفوا بأني أعد رسالة عن الإمام الفراهي تكرموا عليّ- بدون طلب مني مشكورين- بإرسال مؤلفات الفراهي والمعلومات عنه، ودفعوا مصاريف البريد من جيوبهم. كما أنّ بعض أساتذتي قد شجعوني على إعداد البحث عن الفراهي وقدّموا إليّ جميع المساعدات الممكنة لهم فأشكرهم من أعماق قلبي على تفضلهم عليّ وأدعو الله أن يعطيني جزاءهم.

قد أطلت الحديث عن السبب الثاني، فأرجع إلى الموضوع وأقول إنه لو لم تكن هناك مدرسة الإصلاح التي يدرس فيها القرآن الكريم واللغة العربية على نهج سليم لزال آثاره من الوجود ولم يبق من يعرف أفكاره ونظرياته فلا بد لي هنا من كلمة قصيرة عن هذا المعهد الديني (مدرسة الإصلاح). لما استقال الإمام الفراهي من منصبه بدار العلم بحيدرآباد حيث كان يشتغل عميداً للدار، لأنه أثناء إقامته هناك ولا سيما بعد مقابله مع والي حيدرآباد النواب نظام بدأ يشعر بأنه لا يستطيع أن يحافظ على كرامته وعزته عند أهل الدنيا والمادة- كما بينت فيما سبق- فترك هذا المنصب الكبير والمرتب الهائل الذي كان يتقاضاه شهرياً رغم إصرار أحبائه وأصدقائه على البقاء، ورجع إلى وطنه أعظم جرة. وهناك نشأ في ذهنه أو كان قد نشأ من قبل فكرة تأسيس معهد ديني على طراز جديد لتدريس القرآن الكريم والحديث النبوي، واللغة وآدابها مع تربية الطلاب تربية دينية سليمة حتى يستطيعوا بعد الحصول على الشهادات معالجة المشكلات العصرية في ضوء الكتاب والسنة. وقد دعا الناس إلى هذه الفكرة وتنفيذها، فلبوا دعوته لأنهم كانوا يعرفون إخلاصه وحبّه لدينه، ولكي نعرف خطته وأهدافه- أنقل أول تقرير سنوي لمدرسة الإصلاح قد أعدّه الفراهي بنفسه أو أمر بإعداده ثم عرض عليه قبل النشر يقول فيه:

"الانحطاط الذي نشاهده في جميع جوانب حياة المسلمين نتيجة للفساد الذي طرأ منذ قرون عديدة في الدراسات الدينية. وكان التقدّم والرفق عند المسلمين ما دامت دراساتهم الدينية سائرة على وجهها السليم ولكن من يوم أن انحرفت بهم الطريق بدأ انحطاطهم برغم كثرة المدارس الدينية وكثرة العلماء ورجال الدين. ثم ما زالت الحالة تتدهور يوماً بعد يوم. ففي هذه الحالة السيئة والظروف المظلمة وفقّ الله جماعة من المسلمين فأدركت أنّ الأسلوب أو النهج الذي تمثلي عليه الدراسات الدينية عقيم وغير كامل. وإذا كانت إيماننا بأنّ القرآن هو وسيلة لنجاحنا في الدين والدنيا فينبغي أن يكون الهدف من دراستنا هو أنّ القرآن الكريم لا يكون لنا دستوراً في العبادات فقط بل يكون مصباح الهدى في

جميع نواحي الحياة، وإذا كان هناك علاج لما أصابنا من الانحطاط والتدهور فليس علينا أن نقضي على الطريقة السائدة في الدراسة فحسب، بل وأن نقيمها على أسس سليمة وهي عبارة عن الوسعة والجامعية- الإحاطة الشاملة- اللتين يريدن الإسلام ويعبرن عنهما بالثقافة في الدين. فقد وضعت هذه الجماعة هذا المستوى العالي أمام أعينها وأسست مدرسة تسمى بـ"مدرسة الإصلاح" فهي تدعي بأنها قد وجدت النهج السليم للدراسة الدينية، وجعلتها من أهدافها الأساسية فما هو الهدف الأساسي وما هو النهج السليم؟ هو ما ترك عليه النبي صلى الله عليه وسلم أمته، وما أوصى به في آخر خطبته "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله" وترى "مدرسة الإصلاح" أن السبب الرئيسي لتأخر المسلمين وانحطاطهم أنهم قلّ اهتمامهم بدراسة القرآن الكريم تدريجياً. والعلوم التي كانت وسائل لفهم القرآن أصبحت مرغوبة لديهم حتى سارت مقصودة لذاتها، ولم تترك مجالاً لدراسة كتاب الله وبحثه. وقد بلغ الأمر إلى أن يكفي تلاوته وحفظه، وصدقت فينا شكوى الرسول عليه صلوات الله وسلامه "يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" ولكن بتوفيق الله وعونه قد اهتمت مدرسة الإصلاح لهذا السرّ وجعلت دراسة القرآن فوق الدراسات الأخرى لأنها تتعلق بمصدر الهدى والتقدم. وتقوم هذه المدرسة بتدريس مواد أخرى كالأدب والفقّه والحديث والتاريخ والسيرة، والمنطق والفلسفة وما إلى ذلك ولكن بحيث أن كل خطوة إلى أيّ فرع من فروع العلم تكون في ضوء القرآن ويفتح بابه منه.¹

وكأني بالقارئ العربي قد اتضحت أمامه أهداف هذه المدرسة من هذا التقرير فأتقل إلى نظامه التعليمي وهو ينقسم إلى قسمين أو مرحلتين:

فالمرحلة الأولى: وهي الكتاب، فإنها موزعة على خمس سنوات، يدرس فيها الطلاب المواد الابتدائية المألوفة في المدارس الهندية بالإضافة إلى الاعتناء بتربية الطلاب

¹ مجلة "معارف"، عدد سنة 1930م

تربية دينية وبتقويم سلوكهم.

المرحلة الثانية: وهي تشمل سبع سنوات وتتضمن ترجمة القرآن وتفسيره مع دراسة مختلف مدارس الفكر للتفسير وأقوال المفسرين والعلماء، والصحاح الستة في الحديث النبوي، والأدب العربي والتاريخ، وعلم الكلام، وعلم أسرار الدين، وأصول الشريعة وأصول الفقه حسب المذاهب الأربعة بدون تعصب وتحيّز لأيّ إمام من الأئمة الأربعة إلى جانب تدريس اللغة الإنجليزية وبعض العلوم العصرية، مستوى تعليم اللغة الإنجليزية بالمدرسة يبلغ مستوى ليسانس بالكلية الرسمية وقد أقيمت في المدرسة دور السكن والبيوت للطلبة حيث توقّر لهم جميع أسباب الراحة من طعام ووسائل الرياضة والألعاب والترفيه.

ومن أجل تدريب الطلبة على الخطابة والكتابة في اللغتين الأردوية والعربية توجد بالمدرسة نوادٍ وهيئات تمارس نشاطها العلمي والثقافي تحت إشراف الأساتذة وبإدارة الطلبة أنفسهم. وكذلك توجد بالمدرسة مكتبة غنيّة في أمهات الكتب الأدبية واللغوية والدينية تعار للطلبة بدون مقابل، ومعظم هذه الكتب قد أهداها إلى المدرسة الإمام الفراهي.

والشيء الذي يميز متخرجي مدرسة الإصلاح عن غيرهم هو أنهم يملكون عقلاً مستنيراً وفهماً ثاقباً لكتاب الله. كما يمتازون بلزانة الأخلاق وحسن السلوك والأمانة. ولا أبالغ إذ أقول إنّ دراسة القرآن الكريم دراسة جدية شاملة جاءت من دعوة هؤلاء العلماء الذين ينتمون إلى مدرسة الإصلاح في نسبهم التعليمي بعد أن كان هذا الكتاب كتاباً مهجوراً أو كان يعتبر كتاب الجدليات، أو كتاب النحو والبلاغة والفلسفة بحيث كان يدرس لمعرفة هذه العلوم أما معرفة الحياة أو معرفة القيم الإسلامية التي هي الهدف الرئيسي من دراسته فلم تكن تجدها أثراً قبل الفراهي وقبل قيام هذه المدرسة ولكن بعد هذا الحديث يناسب لي بل يجب عليّ أن أبين مصيرها في المستقبل، الذي تنبي عنه حالتها الراهنة. فعلى سنة "لكلّ شيء إذا ما تم نقصان" إنّ هذه المدرسة قد أدت خدمات

عظيمة في سبيل الدين واللغة في نصف قرن من الزمان وقامت بنشر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، بدأ يتسرب إليها التدهور والانحطاط وبدأت هي تفقد ميزتها، وذلك منذ أن ملك حبّ المصلحة الذاتية قلوب من في أيديهم زمام الأمور، وقد رأيت بعينيّ رأس الأساتذة فيها والمسؤولين الإداريين مشتبكين فيما بينهم للحصول على مصالحهم لا لتربيتها ولعلمهم إذا أطرقوا رؤوسهم ونظروا إلى تاريخها المجيد وفكروا في إخلاص في مؤسسها الإمام الفراهي رحمه الله تركوا هذه الخلافات واتحدوا فيما بينهم وجعلوا تسير على أحسن وجه كما أنّ أساتذتها الذين يدرسون فيها حالياً سطحياً، فن كان عنده علم خرج منها حفظاً لكرامته وعزته واعتزل عن الحياة العامة أو يخدم الذين واللغة بعيداً عن شغب المدرسة. فإن لم يغير مسؤولونا طريقتهم ولم يتخدوا لخدمة الدين واللغة لم يرجعوا إلى تعاليم الإسلام تفقد هذه المدرسة ميزتها بل تفقد وجودها. ويبقى اسمها في التاريخ كأخوتها التي تأسست وتقدمت ثم لغفلة أربابها اختفت من الوجود فلا تعرف عنها إلا أسماءها. وبعد هذه الكلمة القصيرة عن أهم أثر من آثار الإمام الفراهي العلمية والدينية، أرجع إلى المعاهد الأخرى التي في تأسيسها يد للإمام الفراهي فتنها:

الجامعة العثمانية بحيدرآباد التي تعرف عند العرب كما تعرف عند أهل الهند بخدماته الجليلة بنشر الثقافات الإسلامية بعد جمعها من مكتبات العالم، كما أنها هي الجامعة الوحيدة التي تعني بالدين واللغة العربية وآدابها اعتناء بالغاً ولكن كم من الناس من يعرف أنها تأسست على نظرية الفراهي وفكرته العلمية. يقول العلامة السيد سليمان الندوي:

"وهو الذي - يعني الفراهي - ارتأى تأسيس هذه الجامعة وبذل جهده في تحقيق هذا الأمل وإنجازه حتى نال القبول من مالكي أزمة الأمور والجمهور وصادق عليه دولة الأمير الأعظم نظام الملك آصف جاه الثامن عثمان علي خان وسميت بالجامعة العثمانية، وهي يومئذ من أحداث جامعات العالم منا ولكن أعجبها نظاماً".¹

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 3

كما أنّ المجمع العلمي الكبير "دار المصنّفين" كان الإمام الفراهي أحد مؤسّسيها، يقول العلامة السيّد سليمان الندوي: "كان- الفراهي- رئيساً للجنة المديرين لـ"دار المصنّفين" التي أسّست تذكّاراً لأخيه الشيخ شبلي النعماني فكان هو أحد مؤسّسيها وكان يبذل أوقات فراغه في التأليف والتدوين والنظر في القرآن ومعانيه وإلقاء دروسه على تلامذته الملتفتين حوله"¹.

وتقع دار المصنّفين في مدينة أعظم جرة مديرية الفراهي ومن أهداف تأسيسها:

1. خلق جماعة من الكّتاب الباحثين الكبار.
 2. وضع كتب قيّمة ومؤلفات زاخرة باللغة الأردوية وترجمة ما توجد باللغات الأجنبية من الكتب الهامة إلى اللغة الأردوية.
 3. القيام بطبع إنتاج المحقّقين بالأكاديمية والكّتاب الآخرين ونشره وتوزيعه.²
- فبند تأسيسها حتى الآن قد صدرت عنها مئات الكتب القيّمة التي تعتبر دائرة معارف في موضوعها، في السيرة والتاريخ الإسلامي والتاريخ الوطني للهند والفلسفة وعلم الكلام وغير ذلك من الموضوعات الأخرى.
- وتصدر الدار مجلة علمية وأدبية باللغة الأردوية "معارف" وقد تأسّست في شهر يوليو عام 1916م.
- وهي تعتبر- بحق- أرقى المجلات الهندية وأوسعها مادة يكتب فيها كبار من العلماء والباحثين والمفكرين بالهند.

كما أنّ للدار مكتبة كبيرة غنية بالكتب الثمينة في شتى لغات العالم، العربية والإنجليزية والفرنسية والفارسية والأردوية وغير ذلك من اللغات الأخرى، ويوجد فيها بعض

¹ ترجمة الفراهي، ص 4

² مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية في الهند، ص 116.

المخطوطات النادرة لا توجد لها نسخة ثانية في مكتبات العالم،¹ وكانت الدار تؤدي خدماتها تحت رئاسة الفراهي في حياته ثم انتقلت الرئاسة إلى العلامة السيد سليمان الندوي الذي مضى ذكره، ورئيسها الحالي العلامة الشاه معين الدين أحمد الندوي صاحب الكتب القيمة باللغة الأردوية ورئيس تحرير مجلة "معارف" هذه هي بعض آثاره العلمية التي تنطق بفضله على المسلمين وعبقريته العلمية وإخلاصه للدين واللغة.

المبحث العاشر: حركة مقاومة البدع والانحرافات في الدين وأثر الفراهي فيها

حين انتشرت دراسة القرآن على منهج الفراهي، اختار تلاميذ الفراهي والذين ينتمون إلى مدرسة فكره مسلكه في الدعوة الإسلامية أي عدم الهجوم على أحد والتعرض لأعراضهم واختاروا الطابع العام لدعوتهم هو التسامح الديني، فالكتب والتفاسير للقرآن الكريم التي ألّفت على منهج الإمام الفراهي تشرح روح القرآن وتبين أهل السنة وتعاليمه بدون تعرض وهجوم على فرقة أو جماعة ولذلك أقبل عليها كل الفرق والجماعات لدراستها فتبينت لها روح الإسلام وعرفت أنّ المسلك الصحيح للمسلم هو ما كان عليه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وصلحاء الأمة. فكلّ ما يخالف مسلكهم فلا يمتّ إلى الإسلام بأية صلة.

هذه هي نظرة عجلي في أثر الفراهي في حركة قمع البدع والانحرافات ومقاومتها.

أولاً- تلاميذ الفراهي: قد تبين مما سبق من الحديث عن حياة الفراهي، أنه لم يكن مدرساً أو أستاذاً بمعنى عام أي أنه لم يختار التدريس كحرفة، بل قضى عمره كله في تدبر القرآن ودراسته وتفهم معانيه. ثم تدوين وتأليف نتائج فكره وبحثه ولذلك ليس له تلاميذ بمعنى عام إلا عدد قليل سأعرّف ببعض منهم في هذا الفصل.

1. العلامة اختر أحسن الإصلاحي: وهو من أشهر تلاميذه وأعظمهم، ولكنه مع

¹ المصدر نفسه، ص 123 بتصرف.

غزارة علمه وعظيم خدماته في مجال الدين والعلم، لا نعرف عن حياته شيئاً يعتدّ به، فقد مني بخمول الذكر مثل أستاذه بل أكثر منه لأنّ الإمام الفراهي قد خلف وراءه آثاراً علمية تدلّ على عبقريته كما أنّ أبنائه وأحفاده حريصون على نشر ثقافته وأفكاره على قدر إمكانهم. أما اختر أحسن الإصلاحية فإنه لم يترك وراءه آثاراً علمية بصورة الكتب فإنه لم يكن من أصحاب القلم، فقد قضى حياته كلها في تدريس القرآن الكريم واللغة العربية. فإنه رحمه الله كان ورعاً، زاهداً يعيش عيشة السلف الصالح، زاده التقوى وغذاؤه العلم وشيمته الإخلاص وثقافته على يديه مئات من أهل العلم والأدب، وتعمقوا في القرآن الكريم فيعدّون الآن من طلائع العلماء في الهند لا سيما في تفسير القرآن والأدب العربي ويساهمون مساهمة فعالة في خدمة الدين واللغة أمثال العلامة الأديب المفسّر جليل أحسن الندوي، والعلامة الباحث صدر الدين الإصلاحية فهذان العالمان لهما فضل كبير في نشر الإسلام وتعاليمه بين أبناء المسلمين بالهند. فقد ألفا كتباً قيّمة في هذا المجال، كما أنّ أستاذه الأديب عبد الحسيب الإصلاحية قد استفاد من أستاذه اختر أحسن الإصلاحية في فهم معاني القرآن ودراسة الأدب العربي استفادة كبيرة فيعتبر الآن من أفاضل العلماء الهنود في فهم القرآن وتفهمه للناس، كما أنّه صورة صادقة حيّة لأسلافنا الصالحين.

فالمعلومات التي وصلتني عن العلامة اختر أحسن الإصلاحية عن طريقة أستاذه عبد الحسيب هي أنه رحمه الله قد ولد في قرية "شكيا شيخ أحمد" من مديرية أعظم جرة ولكن أباه الشيخ جنيد أحمد قد هاجر إلى سلطانفور من أعمال لكناؤ وتوطن هناك نهائياً، وعندما بلغ اختر أحسن سنّ الدراسة أدخل مدرسة الإصلاح حيث كمل دراسته ثم عين فيها مدرساً لتفسير القرآن والأدب العربي ولم يزل في منصبه إلى أن لقي ربه سنة 1959م. رحمه الله ورضي عنه.

منهجه في تدريس القرآن: إنّ العلامة اختر أحسن الإصلاحية، قد هضم كل ما درس

على الإمام الفراهي وقد سلك مسلكه في دراسة العلوم والآداب وخاصة علوم القرآن، وأنه لم يكن مقلداً لأحد حتى لأستاذه الإمام الفراهي نفسه، فقد سمعت من أساتذتي الذين درسوا عليه تفسير القرآن يقولون: إنّ منهج العلامة أخطر أحسن في تدريس القرآن كان أن يجمع جميع المعلومات الممكنة الحصول عليها بصدد الآيات التي يفسرها، ثم يبيّن آراء الإمام الفراهي ويبيّن أخطائه إن أخطأ مع تقديره واحترامه لخدمته التي قام بها لأجل الدين، فالحقيقة لم يكن يدرس تفسير الفراهي بل كان يدرس القرآن دراسة حرة جلّ اعتمادها على أساليب اللغة وروح القرآن ومزاجه وشرح الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وبذلك لم يكن يحشو أذهان الطلبة بالمعلومات المنقولة من الكتب، بل كان يعدّهم للتفكير والتدبر وهكذا كان دأب الإمام أيضاً. فقد حكى أستاذه الكبير جليل أحسن الندوي مرة أثناء الدرس أنه قد طلب منه حلّ مشكلة بعض الآيات القرآنية بقوله: بأنها تبدو لي معقدة، ففهمه أخطر أحسن وقال القرآن سهل ولكن ذهنك معقد. ثم قال له ابحث عن معنى الآية في كتب التفسير فستجد فيها طلبتك. ومضى أستاذه في حكايته فقال: قد بحثت عن معناها في كتب التفسير التي أشار إليها فلم أعر على شيء. فرجعت إليه ثانياً. وعرضت مشكلتي فذكر لي رأيه قائلاً: كنت أستطيع أن أبين لك رأيي فور ما طلبت مني ولكنني كنت أريد أن أثير فيك التشوق والحبّ للدراسة وحبّ الرجوع إلى المصادر حتى تدرك قيمة العلم فلا تنساها. فالشيء الذي يحصل عليه ببذل الجهد لا يترك أن يغلبه النسيان.

وهكذا قال لي أحد العلماء الهنود: إنه قد عرض عليه الآية الكريمة "ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" ^١ وقال له إنّ الآية تفيد بأنّ الله ليس بظلام أي تنفي منه صفة المبالغة ولكنها لا تنفي فعل الظلم فابتسم العلامة - كعادته عند ورود السؤال - قليلاً ثم أنشد له بيت الشاعر الجاهلي الشهير امرئ القيس:

¹ سورة آل عمران: 282

يغط غطيظ البكر شدّ خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتال¹ وسأله عن معنى "ليس بقتال" فلم يستطع أن يشرح معناه، وهناك قال العلامة: إنّ الشاعر يصف حريفه بأنه يهدّدي بالقتل، فيخرج من فمه صوت كما يخرج من فم البعير عندما يشدّ خناقه أي أنه جبان ليس فيه أية قدرة على القتل. فكما تكون المبالغة في الإثبات فكذلك تكون في النفي فالآية الكريمة تفيد بأنّ الله تعالى منزّه عن صفة الظلم. فهاتان الحكايتان كما تبيّنان منهج تدريسه وتفهمه القرآن الكريم كذلك تدلّان على سعة اطلاعه على أساليب الكلام.

ولا شك أنّ العلامة أختّر أحسن لم يترك وراءه من كتب ومؤلفات تضمّ آراءه وأفكاره وهذه كارثة عظيمة في مجال العلم والدين. فكل ما نعرف عنه، نعرف عن طريق تلاميذه المنتشرين في أرجاء البلاد. فلو جمع هؤلاء التلاميذ أفكاره وآراءه التفسيرية في كتاب لنفع المسلمين واستطاعوا الاستفادة منه.

2. [العلامة] أمين أحسن الإصلاحي: هذا تلميذ ثانٍ للإمام الفراهي. وقد جاء ذكره كثيراً في الصفحات الماضية من البحث. ولد في قرية "بمهور" من قرى أعظم جرة، وعندما بلغ من الدراسة أدخل مدرسة الإصلاح حيث أكمل دراسته. وقد لازم الإمام الفراهي في آخر حياته ملازمة مستمرة، فيحكى أنه بعدما كمل الدراسة الرسمية عزم على أن يعيش مع الفراهي ويستفيد من آرائه وأفكاره فقضى معه حوالي ست سنين ليلاً ونهاراً إلى أن لقي الإمام ربّه في سنة 1931م. وأمين أحسن هذا بعد إتمامه الدراسة عين مدرساً في مدرسة الإصلاح كما نيظ به إصدار مجلة علمية أدبية دينية من المدرسة، فأسس مجلة "الإصلاح" وكان رئيس تحرير لها، وكان هدف هذه المجلة نشر آراء وأفكار

¹ ديوانه، ص 23

الإمام الفراهي والدعوة إلى الإصلاح الفكري في الدين ولم يزل في منصبه هذا حتى انقسمت القارة الهندية إلى الهند وباكستان فهاجر إلى باكستان كغيره من المسلمين فهو يقيم حالياً في لاهور يشتغل في تأليف تفسير للقرآن الكريم باللغة الأردوية باسم "تدبر القرآن" على منهج الفراهي، كما تصدر مجلة دينية وتفسيرية تحت إشرافه اسمها "ميثاق" وكان هو مؤسس هذه المجلة ورئيس تحريرها في مستهل الأمر ولكن لكثرة أعماله وكبر سنّه أسند أمور المجلة إلى أحد أصدقائه وهو الدكتور أسرار أحمد.

إنّ أمين أحسن الإصلاحي ألف كتباً كثيرة قيّمة في تعريف الإسلام وشرحه، وفي مجال الدعوة الإسلامية. كما ألف كتباً في مجال القانون الإسلامي والتصوف الإسلامي، ولكنه معروف في الهند وباكستان كمفسّر للقرآن الكريم. ولذلك يحلوي أن أتعرض له كمفسّر.

إني بعد أن قرأت كتب أمين أحسن التي ألفها في مجال شرح الإسلام والدعوة الإسلامية وصلت إلى نتيجة أنه رجل ذكي واسع الاطلاع على أساليب الأدب العربي، كثير المعلومات، محبّ للبحث والتنقيب قادر على عرض آرائه وأفكاره بأحسن أسلوب وأحدثه، بحيث ينتفع به العلماء وعامة الناس على السواء.

أما تفسيره "تدبر القرآن" فإنه خير عمل يقوم به. فهو صادق في دعواه بأنه قد هضم كتب أستاذه الإمام الفراهي وفي نظره كل ما ألف الفراهي وقال¹ ولم يتيسر لي دراسة تفسيره هذا إلا بعض الأجزاء التي نشرت في مجلة "ميثاق". أما مقدمة التفسير فقرأتها مراراً وهي أيضاً نشرت في أعداد المجلة المذكورة التي لا تزال موجودة عندي، فلا أبالغ إذ أقول إنّ أمين أحسن قد استطاع في هذه المقدمة، بل

¹ مجلة "ميثاق" 12/4/12 أكتوبر 1966م

وفق في شرح الأصول التي يجب الاعتماد عليها لتدبر القرآن ودراسته، وإني لم أقل "وضع الأصول" بل قلت "شرح الأصول" لأنه لم يأت بشيء جديد بل جمع الأصول التي وضعها الإمام الفراهي في مقدمة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" مع شيء من الشرح والتفسير، وقد تلخصت هذه الأصول في الباب الثاني من الرسالة، ومعنى ذلك أن أمين أحسن لا يفسر القرآن الكريم على منهج الإمام الفراهي كما يفهم منه بل يعرض تفسير الإمام باللغة الأردوية بالجمع والترتيب على أسلوب حديث جذّاب بحيث يستطيع أن ينتفع به العلماء وعامة الناس على السواء.

3. العلامة أبو الكلام آزاد: إن العلامة أبو الكلام آزاد غني عن التعريف فهو معروف عند العرب كما هو معروف عند العجم بفضل خدماته التي قام بها لتحرير بلاد الهند من الاستعمار البغيض ولكنه مع شعوره السياسي ووعيه الوطني كان في طليعة علماء الدين فكتبه التي ألّفها في المجال الديني ومجال الدعوة الإسلامية تدلّ على عمق فكره واطلاعه الواسع على الثقافة الإسلامية والتاريخ. وقد منح رحمه الله ذهنًا عملاقًا وفكرًا ثاقبًا وذاكرة قوية. وهنا قبل أن أبدأ بيان تأثير الفراهي في ذهنه، ومنهج تقديره، يناسب لي أن أقول إنّ أبا الكلام آزاد لم يكن من الناس الذين درسوا على الإمام الفراهي دراسة علمية رسمية بل إنه لم يدرس قط في أية مدرسة أو معهد فإنه قد تثقف بالثقافة العربية والإسلامية على أبيه واكتفى بها ولكنه عندما أسس علامة الشرق الشيخ شبلي النعماني دار العلم ندوة العلماء وأجرى فيها مجلة علمية باسم "الندوة" دعا أبا الكلام آزاد للاشتراك في مجلس تحريرها. وكان في وقت ذلك الإمام الفراهي عميدًا لدار العلم بحيدرآباد فعند ما يرجع من حيدرآباد إلى وطنه لقضاء إجازة سنوية يمكث لبضعة أسابيع في لكناؤ عند أخيه شبلي النعماني بناء على طلبه. ويعطي دروسًا للقرآن الكريم فقد كان من دأب أبي الكلام آزاد أن يشترك في هذه الدروس، ويستفيد منها، وقد غيرت هذه الدروس منهج تفكيره وطريقة دراسته للقرآن الكريم في وقت قليل وكان العلامة الشهير والمؤرخ الإسلامي السيد سليمان الندوي أيضًا

يشارك في هذه الدروس، وهو الذي يحكي هذه الحكاية؟ ولكي يتضح لنا تأثير الفراهي على أبي الكلام آزاد أقارن هنا بين بعض أقوالهما في التفسير، فمثلاً يقول أبو الكلام آزاد في مقدمة تفسيره "ترجمان القرآن" شارحاً معنى الإسلام ما ترجمته: ¹ إنَّ القرآن قد اختار للدين لفظ الإسلام لأنَّ معناه خضوع لشيء وقبوله. وبين القرآن أنَّ ماهية الدين أن ينقاد الإنسان لكل ما وضعه الله له لسعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة كما أنه يقرَّر أنَّ هذه القوانين الإلهية لا تخضع الإنسان وحده قبل كل ما في الكون خاضع له ومطيع "وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" ² ثم يؤكد القرآن أن لا دين عند الله سوى الإسلام، فمعناه أن المنهج الذي يفلح الإنسان بالسلوك عليه، هو الإسلام وحده، وكان هو دين جميع الأنبياء وإليه دعوا الناس. أما ما وضعه الإنسان من القوانين فلا يقبل عند الله. ³ أما الفراهي فأقل خلاصة ما قاله بصدد الإسلام: "معنى الإسلام ظاهر بين وهو الطاعة والخضوع للإسلام هو العبودية وتسليم النفس لرضى الله تعالى بالكلية. وبه يتقرب العبد إلى مولاه ويرفع منزلته حسب كماله في الإسلام، وقد علمنا الله معنى هذا الإسلام حيث قال: "أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" ⁴. فدلَّ على أربعة أمور: الأول أن كل شيء أسلم لله. والثاني أن كلهم يرجعون إليه. والثالث: أن الإسلام يتحقق بإطاعة رسله، والرابع أن الإسلام لا اختلاف فيه، فإن كلهم أسلموا لله فدينهم واحد فلا مشاجرة فيه كما صرح في قوله "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ" ⁵.

¹ مجلة "معارف" سنة 1930م مقال بقلم السيد سليمان التدوي.

² سورة آل عمران: 83

³ مجلة "آج كل" عدد خاص عن أبي الكلام آزاد مقال بقلم الأستاذ سعيد أحمد الأكبرآبادي، ص

165 مارس 1959م

⁴ سورة آل عمران: 82

⁵ السورة نفسها: 19

فمن هذه المقارنة يتبين لنا بوضوح أنّ أبا الكلام آزاد قد استفاد استفادة كاملة من دروس الإمام الفراهي، ولمزيد من توضيح هذه الفكرة أحبّ أن أبين رأيه- أبي الكلام- في التفسير بالرأي، ثمّ آتي برأي الإمام الفراهي: يقول أبو الكلام آزاد إنّ الناس قد أخطأوا كثيراً في فهم معنى التفسير بالرأي، فوجب الاقتناع عن مثل هذا التفسير لا يعني ألا يستخدم العقل والفكر في فهم معاني القرآن. لأنه لو كان المراد منه هذا لبطلت فائدة درس القرآن وتلاوته، والقرآن نفسه يحرّض على التدبر والتفكير، فيقول "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" ¹. فانضح أن ليس المراد بالتفسير بالرأي معنى لغوياً، بل هو مصطلح ديني معناه لا يفسّر القرآن ولا تأول آياته على الهوى، مثلاً أن يقرّر أولاً رأي ثم تطبق الآيات القرآنية عليه سواء أوافقة أم لا. ²

أما الإمام الفراهي فيقول بهذا الصدد: إنّ السلف اختلفوا في تأويل القرآن كثيراً لكونه جامعاً لوجوه كثيرة ولكونهم متفاوتين في مدارج العقول ومن قال إنّ التفسير الذي لم يكن منقولاً عن السلف فهو التفسير بالرأي فحمول على أنّ من ترك المنقول أو شك أن يقع في أوهامه، فيرى الباطل معقولاً ولا يحصل ذلك على ترك النظر في دلالة القرآن وحمل الآية على نظائرها، والجمود على المنقول المحض. وإذا غلب على أكثر الناس أنّ القول بما لم يرو عن السلف هو القول بالرأي فصار ذلك مانعاً عن التفكير والتدبر احتجنا إلى بيان الفرق بين القول بالرأي المنهى عنه وبين طريق السلف الصالح الذين تفكروا وتدبروا القرآن. كما أنّ القرآن قد حثّ على التفكير والتدبر في أكثر من آية وأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتدبرون القرآن ويقولون بما فهموا منه. ³

ولا أقصد من هذه المقارنة أنّ أبا الكلام آزاد كان مقلداً أعمى للإمام الفراهي،

¹ سورة محمد: 24

² مجلة "آج كل"، ص 168.

³ التكميل في أصول التأويل، ص 7-9 بتصرف

فليس قصدي بذلك أبداً، ولا يليق بأبي الكلام أن يكون مقلداً لأحد مهما يكون. فكل ما أردت بهذا الكلام أنه قد تدبر القرآن وسلك مسلك الفراهي في دراسته وقبل الأصول التي وضعها الفراهي لدراسة القرآن وفهم معانيه، فهذا التشابه الذي يوجد بين الأستاذ والتلميذ لم يأت إلا أن أبا الكلام آزاد قد هضم أفكار الفراهي واستفاد من دروسه للقرآن الكريم التي كان يلقيها في ندوة العلماء. وبالإضافة إلى ذلك أن الدعوة التي قام بها أبو الكلام آزاد ودعا إليها في جريدته التاريخية "الهلل" كان فيها متأثراً بالإمام الفراهي، فهو لا يقول قولاً إلا يدعو فيه إلى جعل القرآن كتاباً ودستوراً للحياة عامة. ولذلك قال السيد سليمان الندوي إن ما درس أبو الكلام آزاد على الفراهي من تفسير القرآن تجلّت نتائجه في صفحات "الهلل".¹ كما أن أبا الكلام آزاد كان يعتبر الفراهي رجلاً مثالياً في العلم والعمل. وهو مصيب في اعتباره هذا لأن الإمام مع عبقريته العلمية كان رجلاً تقياً زاهداً متوكلاً على الله يعيش عيشة السلف الصالح ويسلك مسلك الصحابة والتابعين في التأسي بأسوة الرسول حتى يقول الناس بعد أن لحق بخالفه "تعالوا تؤمن ساعة".² أي تذكر حياة الفراهي.

وثانياً- آراء العلماء في الفراهي:

1. العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة "المنار" المصرية: "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: أهدانا المعلم عبد الحميد الفراهي من العلماء في الهند بضع رسائل في تفسير سور متفرقة من القرآن العزيز سماها بما ذكر في العنوان، وهي سورة التحريم والقيامة والشمس والعصر والكافرون والحمد وتبت، وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر فإذا طريق جديد من التفسير يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون

¹ حياة شبلي، ص 444

² ترجمة الفراهي، ص 40

المباحث الفنية العربية، ويفسّر كل آيات السورة وكلها، ولا يتكلم على ما يفسّره بالترتيب. وإنما يتكلم عن المسائل الكلية والمقاصد التي تهدي إليها الآيات كلاماً مبسوطاً مفصلاً، معدوداً بالأرقام فن فصول تفسير سورة التحريم:

1. نظام السورة.
2. موقع آياتها.
3. سنة الله في الاحتساب.
4. عمود السورة هو الاحتساب والتبشير له.
5. دين الفطرة هو الاعتدال بين الفسق والرهبانية.
6. الفرق بين الفسق والرهبانية.
7. نزول القرآن حسب أحسن المواقع.
8. شأن نزول هذه السورة حسب الكلمات.
9. حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي ست الح ..

وإنّ للمؤلف لفهماً ثاقباً في القرآن وإنّ له فيه مذاهب في البيان وطرائق في الاستطراد منها القريب والبعيد، وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدا. فقد كتب في تفسير كلمة "صغت" من قوله تعالى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" أكثر من صفحة على أنه صنّف كتاباً في مفردات القرآن كما فعل الراغب الأصبهاني، وإن أدري أفسر القرآن كله على هذا النمط أم يشتغل بذلك الآن، ويريد طبع تفسير كل سورة عند إتمامها. وقد رأيت فيما قرأت ذكر كتب أخرى له في القرآن والدين كالمفردات، وتاريخ القرآن والأمثال الإلهية وأصول الشرائع، فعسى أن يتفضل بأخبارنا عنها أي تامة أم لا؟ أطبع منها شيء أم لا؟¹

¹ مجلة "المنار"، المجلد الثاني عشر سنة 1909م

2. رأي العلامة السيد سليمان الندوي: السيد سليمان الندوي من كبار العلماء المسلمين الهنود وهو معروف بدقة النظر وسعة الاطلاع على العلوم الإسلامية، وقد ذاع صيته من الهند إلى البلاد العربية بفضل كتبه القيمة مثل السيرة النبوية (ستة مجلدات ضخمة) وأرض القرآن. وقد أشاد بهذه الكتب العلماء العرب، كما أنّ له كتاباً في الدفاع عن السنة- بالاشتراك مع الشيخ محبّ الدين الخطيب- وكان العلامة السيد سليمان الندوي قد عاش مع الفراهي وكان تلميذاً لأخ الفراهي وأستاذه علامة الشرق الشيخ شبلي النعماني صاحب السيرة النبوية والكتب القيمة في الموضوعات الإسلامية. وقد كتب ترجمة الفراهي فور وفاته في مجلة علمية شهيرة كان رئيس تحريرها. وهي مجلة "معارف" التي تصدرها دار المصنّفين بأعظم جرة، فأريد هنا أن أنقل من هذه الترجمة ما يتعلق بعقيدة الفراهي وعلمه وخدماته الدينية والثقافية، إلى اللغة العربية بدون أيّ تصرف من عندي:

"الصلاة على ترجمان القرآن "نداء" سمع من مصر والشام إلى حدود الصين للصلاة على الإمام ابن تيمية قبل ستة قرون وأن له أن تتردد أصداؤه مرة أخرى من ربوع الهند إلى بلاد مصر والشام على الأقل بأن ابن تيمية هذا العصر قد لبّى نداء ربه في 19 جمادى الأخرى سنة 1346هـ، الموافق 11 نوفمبر سنة 1930م. هذا العالم الجليل الذي كانت شخصيته الجامعة بين العلوم الشرقية والغربية معجزة من معجزات الدهر، ولا يبدو أنّ الدهر سيجود علينا بمثله في العلم والفضل من بين أبناء العالم الإسلامي.

كان نابغة اللغة العربية خريج اللغة الإنجليزية صورة حية للزهد والتقوى، وجامع الفضائل والكجالات عندليب شيراز في الفارسية وعكاظ العربية كان فرداً ولكنه عالم العلم ومحيط المعرفة، وحيد دهره في العلوم العربية وآدابها وفريد عصره في العلوم العقلية والدينية، المطلع على خفايا القرآن والخبير بأسرار آياته غني عن الدنيا وأهلها

منعزل في زاوية العلم لا يبالي بمدح الناس أو قدحهم، ملك دنياه على نفسه ثلاثين سنة كاملة في تدبر القرآن، وفهمه وتدرسه للطلاب العلم، ولكن مما يؤسف له أن علمه لم ينقل إلينا على صفحات الكتب، فإنه كتب كثيراً ولكنه لم يطبع حتى الآن إلا القليل ومن يستطيع أن يقوم بتنظيم ما كتب وطبعه، طبعت له عدة كتب باللغة العربية لم يقدرها العلماء فضلاً عن العامة، كانت شخصيته ملجأً لنا وخير عون لدار المصنّفين وبعد وفاته فقدنا هذا العون ولم يبق لنا غير عون الذي لا عون من سواه. ومما يحزننا أكثر هو أن هذه الشخصية جاءت ومضت ولم تعرف الدنيا على قدرها الحقيقي ولم تعلم فضلها وكما لها.

وكيف ندعو له بالمغفرة- نحن المذنبون- وكانت حياته كلها وقفاً على ذكر الله عزّ وجلّ والشكر على نعمه والصبر على قضاائه. كانت شخصيته النقية النقية تبعث على ذكر الله وكان رأى في حياته في المنام أنه قد غفر له.

اللهم وفقنا لاتباع خطواته لكي نستحق الأجر والمغفرة من عندك وأسكنه في جنة رضاك وحبك فإنه كان يبحث عن رضاك.

كانت أكبر أمنية له في آخر حياته أن يعدّ عدة تلامذة على غرارها في فهم العلوم النقلية والعقلية وقد قام بتدريب طالبين على نهجه ونرجو أن يقوم هذان الطالبان برعاية أمور مدرسة إصلاح المسلمين التي هي أكبر وأعظم ما خلف الشيخ حميد الدين الفراهي من آثاره. سنبدل جهودنا في طبع الأجزاء التي نجدها كاملة من تفسيره، ولكن المشكلة في أنه من سيقدر هذه الدرر الثمينة في هذا العالم؟ ومن سيتكفل نفقات طبعتها.

والذين نعى إلينا وفاتهم- حتى الآن- وأقيم عليها الحداد من علماء الهند كانوا من جيل ما قبل الثورة الداهية الكبرى، عاشوا وماتوا قبلها واليوم لأول مرة نفقد عالماً عاش في العصر الحديث، كان مع كونه مثقفاً بالثقافة الإنجليزية مثلاً رائعاً للأخلاق

الحسنة والزهد والتقوى كان مطلعاً على العلوم الحديثة وخبيراً بمتطلبات عصره. وكان أول من كتب وتحدث في الفلسفة الكلامية بعد البحث والتحصيل والدراسة فالذين تصدّوا للكلام في هذا المجال قبله، كانوا يريدون، كل ما قاله الآخرون وإن كانوا يزعمون أنهم مؤسسون لعلم الكلام.

وهكذا نعرف عدة من العلماء الذين توجهوا بعد تكميلهم دراسة العلوم العربية إلى دراسة اللغة الإنجليزية والثقافة الغربية، وأخذوا فيها شهادات الليسانس والماجستير والدكتوراه، ولكن تغلب الجديد على القديم فلم يبق لديهم أي أثر لما درسوه أولاً من العلوم الإسلامية، ولكن الشخصية التي نترجم لها ونبكي على فقدانها، لم تذهب دراسته الجديدة بما درس في القديم، بل زادت توسعاً وجعلته أكثر تماسكاً به حتى أصبح من الصعب أن يعرف واحد أنه من خريجي جامعة إله آباد (Allahabad University) وكلية علي جرة الإسلامية (Aligarh Muslim University) والحقيقة أنّ سذاجته كانت تشكك العامة في أنه يملك هذه الثقافة العالية، ولكنها كانت شيئاً لم يوجد في أبناء عصره.

قيمة مؤلفاته: ألف كتابه "أقسام القرآن" وهو مقيم في علي جرة في سنة 1895م وقد بين فيه الحكمة في الأقسام التي وردت في القرآن، وهي مشكلة قد شغلت أذهان المفسرين من قبل. وأول من تعرض لها هو الإمام الرازي في تفسيره في مواضع شتى، ثم ألف الإمام ابن القيم كتابه "التبيان في أقسام القرآن" ولكن دراسات العلامة الشيخ حميد الدين كانت مختلفة عن ما قال في هذه المشكلة والحق أنه جاء في هذا الباب بأشياء لم يأت بها أحد قبله. وقد نشر المرحوم العلامة شبلي النعماني ملخصاً لكتابه في مجلة "الندوة" التي كانت تصدرها دار العلوم [التابعة ل] ندوة العلماء بلكاؤ، عدد أبريل سنة 1906م وطبع كتابه في ذلك الوقت، ثم قام بمزيد من البحث في هذا الموضوع وأضاف فيه أشياء وطبع باسم "الإمعان في أقسام القرآن" في علي جرة ومن ذلك الحين، كل من كتب في

هذا الموضوع فهو مدين للشيخ الفراهي وكتابه، ثم طبع بعد ذلك في أغسطس سنة 1906م، تفسير سورة أبي لهب وتفسير سورة القيامة ولقيا تقديراً عظيماً من أصحاب العلم، وأشاد العلامة السيد رشيد رضا المصري صاحب "المنار" الذي كان مشغولاً في تأليف تفسيره في ذلك الوقت بهذين التفسيرين.

وكان من عادة العلامة الشيخ الفراهي منذ سنة 1904م أنه في طريقه من كراتشي أو علي جرة إلى بلده كان ينزل لبضعة أيام عند أخيه العلامة (شبي النعماني) في لكناؤ، ومنذ سنة 1905م كان شبي النعماني يوجه إليه دعوة خاصة لكي يأتي إلى لكناؤ ويقيم عنده لكي يستفيد منه طلبة دار العلوم [التابعة ل] ندوة العلماء، فكان يقبل دعوته، فقد أقام مرات عديدة في الندوة على إصرار أخيه شبي وأعطى دروساً للطلبة في الفلسفة الجديدة وتفسير القرآن وكنت أنا أيضاً (السيد سليمان الندوي) طالباً في الندوة في ذلك الحين واستفدت من دروسه ومحاضراته.

وتصادف أن كان يقيم حينئذك العلامة المجاهد وبطل تحرير الهند أبو الكلام آزاد في الندوة ويساعد العلامة الشيخ شبي النعماني في تحرير مجلة "الندوة". وقد استفاد هو الآخر من مجالس العلامة الشيخ حميد الدين الفراهي وبدأ يجد إرشاداً وتوجيهاً سليماً في دراسة القرآن الكريم. ثم بدأت نتائج دراسته تظهر على صفحات مجلة "الهلل" (التي أيقظت الهند وأهلها وزلزلت أركان الاستعمار البريطاني في الهند) وفي تلك الفترة أيضاً اختير حميد الدين عضواً في الهيئة الإدارية لندوة العلماء وبقي في هذا المنصب إلى وفاته.

وقد أقام في حيدرآباد إلى سنة 1916م واستقال في الوقت الذي كانت قد بدأت الترتيبات لإنشاء الجامعة العثمانية التي قد قدم هو اختراع إنشائها والمسؤولون كانوا يرغبون في بقاءه ولكنه ترك منصبه الذي كان يدرّ عليه ألف روبية شهرياً ولم يبال به، وكان في مدة إقامته في حيدرآباد مستغنياً من الناس محبباً إليه، محترماً لحق العلم

ومحتفظاً لاستغناؤه. وقد جزع لفراقه أصدقاءه الذين ربطتهم به صلات شخصية وعلبية قوية. وكانوا قليلين في العدد ولكنهم كانوا يعرفون طبعه الزاهد الغني فلم يصرّوا عليه البقاء، وأنه لم يعط أية علاوة أو منحة من حيدرآباد. ولم يحاول الحصول على أيّ مساعدة مالية من هناك. ولأنه كان مبعوثاً من جامعة إله آباد إلى حيدرآباد فقررت الجامعة أن يعطي له معاشاً قدره ثلاثون روية شهرياً. ورجع إلى أعظم جرة وأقام في قريته "فريها" (Phariha) وبدأ يتعهد ضيعته التي ورثها عن أسرته ويعطي دروساً خاصة للطلاب المعيّنين ولكن كان يقضي معظم أوقاته في الصلاة وتلاوة القرآن الكريم ودراسته ثم وجه اهتمامه إلى مدرسة الإصلاح بسرائير¹.

3. رأي العلامة أبو الكلام آزاد: إن العلامة أبو الكلام آزاد غني عن التعريف، وله خدمات جليلة للدين والوطن وكان من القلائل الذين يغيرون مجرى التاريخ بفكره وقلمه وقد أشاد بعبقرية ذهنه وفكره علماء الشرق والغرب. وقد اختير بعد استقلال الهند وزيراً للمعارف- وزيراً للتعليم العالي- وبقي في منصبه هذا إلى أن لقي ربه سنة 1957م. وأنا لا أعرف أنّ أبا الكلام قد تكلم عن أحد من معاصريه. ولكن قال عن حميد الدين الفراهي وكتبه: "لا أعرف هل علم الفراهي فوق تقواه، أم تقواه فوق علمه"، وقال في مرة أخرى: "إنّ كتب الفراهي منبع العلم ومقاليد المعارف"².

4. رأي الشيخ عبد الماجد الدرايبادي: من العلماء الكبار، تعلم الثقافة الغربية والفلسفة الحديثة أولاً ثم درس العربية وتعمق فيها وهو متحمس للإسلام وصاحبه لا يخاف في الله لومة لائم ولا جور الحكام، ألف تفسير القرآن الكريم باللغة الإنجليزية ويؤلف الآن تفسيراً باللغة الأردوية. مرّ بالمرحل

¹ وفاة الفراهي بقلم العلامة السيد سليمان الندوي، مجلة "معارف" سنة 1131م

² مجلة "دوام" مقال بقلم عبيد الله الفراهي في عدد سبتمبر 1968م

العديدة والتطورات الكثيرة التي طرأت على الهند وقد جاوز التسعين من عمره. يقول عن تفسير الفراهي إنّ العلامة حميد الدين الفراهي كان من المفسرين القلائل الذين امتازوا في منهج تفسيرهم للقرآن الكريم امتيازاً فائقاً. ولا نبالغ إذ نقول إنّ الفراهي قد فاق جميعهم من القدامى والمحدثين في وضع الأصول السليمة الجديدة لتفسير القرآن. فناحية تفسيره البارزة هي إثبات النظام والربط بين آي القرآن وسوره، فهو يفسر القرآن تفسيراً يجعل كل سورة من سور القرآن متناسبة ومنظمة. لا تحلل فيها ولا انفكك كما يزعم كثير من المفسرين وأثبت العلاقة التامة لكل سورة بالسور التي قبلها والتي بعدها".¹

5. رأي مولانا سعيد أحمد الأكبرآبادي: عالم شهير وباحث كبير، يشتغل رئيساً للقسم الإسلامي في جامعة علي جرة الإسلامية وقد حضر إلى القاهرة سنتي 1964-1965م للاشتراك في مؤتمر البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، وله كتب قيّمة باللغة الأردوية ويصدر مجلة علمية شهيرة اسمها "برهان". يقول: كان العلامة الشيخ حميد الدين الفراهي من العلماء البارزين في العصر الحديث في الهند، فقد ألهمه الله فهماً فريداً وذوقاً سليماً للقرآن الكريم، يميزانه عن غيره من المفسرين، وكان متضلعا من اللغة العربية وآدابها من القديم والحديث وكان في علمه كل ما كتب عن علوم القرآن وتفسيره فقرأ ذلك كله بدقة وجدية. ومن خصائص تفسيره أنه يظهر أولاً النظام والربط بين آيات القرآن وسوره ويعين لكل سورة عموداً أي عنواناً رئيسياً من عنده أداه إليه تدبره وذوقه، ثم يبدأ شرح الكلمات شرحاً لغوياً فإنه لا يعتمد كثيراً على كتب التفسير لهذا الغرض بل يغوص في بحر اللغة العربية وآدابها ويجول في أساليب البلغاء والشعراء فيأتي منها بحلّ مناسب لمفردات القرآن. ولكنه قبل ذلك يبحث في القرآن نفسه عن

¹ قائمة مطبوعات الدائرة الحميدية، ص 2

حل المشكلات اللغوية جرياً على الأصول "القرآن يفسر بعضه بعضاً".¹

6. الشاه معين الدين الندوي: هو رئيس لمجمع علمي دار المصنفين بأعظم جرة ورئيس تحرير مجلة "معارف" التي تعتبر أرقى المجلات العلمية والدينية في الهند وقد أسسها العلامة السيد سليمان الندوي. قد منح الإمام الفراهي رحمه الله تعالى فهماً نادراً للقرآن الكريم وقدوة فائقة لحل مشكلاته فكان - بدون نزاع - ترجمان القرآن في العصر الحديث".²

7. العلامة السيد أبو الحسن الندوي: وهو عميد دار العلوم [التابعة ل] ندوة العلماء الشهيرة، ويعرفه العرب كما يعرفه العجم بكتبه الكثيرة القيمة باللغة العربية [يقول]: "الإمعان في أقسام القرآن" للعلامة حميد الدين الفراهي وجمهرة البلاغة ورسائل في تفسير سور القرآن تدلّ على عمق فكره ودقة نظره واطلاعه الواسع على التوراة والإنجيل وتضلعه من علوم العربية والبلاغة ...".³

¹ مجلة "آج كل"، ص 165 مارس 1959م

² قائمة مطبوعات الدائرة الحميدية، ص 5

³ المسلمون في الهند، ص 43

قائمة المراجع

المراجع العربية:

1. الإتيان في علوم القرآن للعلامة جلال الدين السيوطي، المطبعة الأزهرية المصرية.
2. الاستيعاب في معرفة الأصحاب للحافظ ابن عبد البر، دائرة المعارف بحيدرآباد.
3. الأصمعيات، تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر.
4. الأغاني للعلامة أبي الفرج الأصفهاني، دار القومية للطباعة والنشر.
5. الإمعان في أقسام القرآن للإمام حميد الدين الفراهي، المطبعة السلفية ومكتبته بمصر.
6. أساليب القرآن للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند (مخطوط)
7. أسباب النزول للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند (مخطوط)
8. الأزمان والأديان للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند (مخطوط)
9. إحكام الأصول بأحكام الرسول للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند (مخطوط)
10. أوصاف القرآن للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند (مخطوط)
11. البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي مكتبة عيسى البايي الحلبي.
12. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم لأستاذ أحمد محمود الساداتي، مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميز.
13. تاريخ الإسلام في الهند للأستاذ عبد المنعم النمر، دار العهد الجديد بمصر.
14. تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، دار العلم للملايين ببيروت.
15. تبصير الرحمان وتيسير المنان للعلامة علي بن أحمد المهاشمي الهندي، مطبوع بالهند.
16. تفسير القرآن بكلام الرحمن لمولانا أبو الوفاء ثناء الله الأمرتسري، مطبوع بالهند.
17. تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، تحقيق: الأستاذ السيد أحمد صقر، مكتبة

عيسى البابي الحلبي.

18. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق: الأستاذ السيد أحمد صقر، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

19. تفسير النسفي للإمام عبد الله بن أحمد النسفي، مكتبة عيسى البابي الحلبي.
20. تفسير القرطبي للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي.
21. تفسير الطبري للإمام ابن جرير الطبري، مصطفى البابي الحلبي ودار المعارف.
22. تفسير الجلالين للإمامين السيوطي والجلالي، مكتبة عيسى البابي الحلبي.
23. تفسير البيضاوي للإمام عبد الله بن عمر البيضاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي.
24. تاريخ الأمم والملوك للطبري، تحقيق: الأستاذ محمد أي الفضل إبراهيم، دار المعارف.
25. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند.

26. التكميل في أصول التأويل للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند.
27. جمهرة البلاغة للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند.
28. جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن الخطّاب القرشي، دار بيروت للطباعة والنشر.
29. ديوان الحماسة لأبي تمام شرح التبريزي والفيض، مطبوع بالهند
30. ديوان ذي الرمة، تحقيق: كارلايل هنري، مطبوع بيروت.
31. ديوان الخنساء، تحقيق: الأب شيخو، مطبوع بيروت.
32. ديوان امرئ القيس، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
33. ديوان زهير (شرح) للإمام ثعلب، دار القومية للطباعة والنشر.
34. ديوان كعب بن زهير (شرح) للإمام أبي سعيد الحسن السكري، دار القومية للطباعة والنشر.

35. ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: كرم البستاني، مكتبة صادر بيروت.

36. الديوان للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحمديّة بالهند.

37. دلائل النظام للإمام حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية بالهند.
38. دلائل الإنجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة الفتوح الأدبية.
39. الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مصطفى الباي الحلبي.
40. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للإمام حميد الدين الفراهي، دار المصنّفين بأعظم جرة (الهند).
41. الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ للإمام حميد الدين الفراهي، مخطوط.
42. روح المعاني للعلامة محمود الألوسي، إدارة الطباعة الحجرية بمصر.
43. زاد المعاد للإمام ابن القيم الجوزية، المطبعة المصرية ومكاتبها.
44. زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة.
45. السيرة النبوية للعلامة ابن هشم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عيسى الباي الحلبي.
46. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي، دار القومية للطباعة والنشر.
47. سبق الغايات في نسق الآيات للشيخ أشرف علي التهانوي، مطبوع بالهند.
48. شعراء النصرانية للويس شيخو، مطبوع ببيروت.
49. الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف.
50. [صحيح] البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مطابع الشعب.
51. العمدة للعلامة ابن رشيح القيرواني، مكتبة التجارية الكبرى.
52. قصة الحجارة لول ديورانت، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة.
53. القاموس المحيط للعلامة الفيروزآبادي، مطبعة السعادة بمصر.
54. القائد إلى عيون العقائد للإمام حميد الدين الفراهي، مخطوط.
55. كفاح المسلمين في تحرير الهند للأستاذ عبد المنعم النمر، مكتبة وهبية.
56. لسان العرب للعلامة ابن منظور، دار القومية للطباعة والنشر.
57. معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف للأستاذ عبد الحيّ الحسني، مطبوع دمشق.

58. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ أبي الحسن الندوي، لجنة التأليف والترجمة بمصر.
59. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية.
60. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، مطابع الشعب.
61. معجم الشعراء للعلامة المرزباني، عيسى البابي الحلبي.
62. مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية للأستاذ عبد الحليم الندوي، مطبوع بالهند.
63. المسلمون في الهند للأستاذ أبي الحسن الندوي، مطبوع دمشق.
64. مفردات القرآن للإمام حميد الدين الفراهي، دار المصنّفين بأعظم جرة (الهند).
65. المفصّليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر.
66. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: الدكتور علي عبد الواحد وفي، لجنة البيان العربي.
67. المستشرقون للأستاذ نجيب العقيقي، دار المعارف.
68. المنار (تفسير) للعلامة رشيد رضا، مطبعة القاهرة بالأزهر.
69. المنار (مجلة) للعلامة رشيد رضا، مطبعة القاهرة بالأزهر.
70. المقال عن الإسلام للأستاذ عباس محمود العقّاد، دار العروبة.
71. نزهة الخواطر للأستاذ عبد الحي الحسني، دائرة المعارف بجيدرآباد.
72. نيل المرام في تفسير آيات الأحكام للشيخ صديق حسن خان، مكتبة التجارية الكبرى.
73. نظم الدرر في تناسب الآي والسور للعلامة برهان الدين البقاعي، مخطوط في مكتبة الأزهر الشريف.
74. نظرات في القرآن للشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة.
75. نقد الشعر لقدامة ابن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر.
- المراجع الأردوية والفارسية:
76. أورانج زيب عاجبر للعلامة شبلي نعماني، دار المصنّفين بأعظم جرة (الهند).
77. أنوار خلافة ميرزا بشير الدين محمود أحمد، مطبوع باكستان.

78. أعلى حضرة لظفر الدين رضوي، مطبوع باكستان.
79. ترياق القلوب لميرزا غلام أحمد، مطبوع باكستان.
80. ترجمة الفراهي للأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، مطبوع باكستان.
81. ترجمان القرآن للعلامة أبي الوفاء ثناء الله الأمرتسري، مطبوع الهند.
82. تاريخ هند للأستاذ السيد الهاشمي، مطبوع الهند.
83. تذكرة للعلامة أبي الكلام آزاد، مطبوع الهند.
84. تاريخ فرشته للمؤرخ فرشته، مطبوع الهند.
85. حياة شبلي للعلامة السيد سليمان الندوي، مطبوع الهند.
86. حقيقة نبوت لميرزا بشير الدين محمود أحمد، مطبوع باكستان.
87. الشهاب الثاقب للعلامة حسين أحمد المدني، مطبوع الهند.
88. مجلة "دوام"، مطبوع الهند.
89. مجلة "هدى"، مطبوع الهند.
90. مجلة "الفضل"، مطبوع الهند.

المراجع الإنجليزية:

91. Review of Religion.
92. Life of Lord Lawrono by Baaworth Smith.
93. The Muslim World.
94. Unhappy India.
95. Discovery of India.

"دلائل النظام" للإمام عبد الحميد الفراهي

دراسة في المفهوم والمنهج والأثر

- د. موسى عيسى زين الدين¹ وأ. صفية سعيد²

المستخلص

تقدّم هذه الدراسة قراءةً نقديةً وتحليليةً معمّقةً لكّاب "دلائل النظام" للإمام عبد الحميد الفراهي، متتبّعةً مشروعه الفكري في بناء مفهومٍ منهجي لما يسمّيه "النظام القرآني"، ومحلّةً مناهجه التطبيقية وأدواته التحليلية، ومقوّمةً أثره العلمي وفلسفته التفسيرية ضمن السياق التراثي والحديث، وتمّ ترتيب الورقة في ثمانية مطالب لتغطية المفهوم، الأصول، الأدوات، حالات تطبيقية، المقارنات المنهجية، والنتائج المنهجية والتوصيات البحثية.

الكلمات المفتاحية: الفراهي- دلائل النظام- التفسير البنائي- المقاصد القرآنية- المنهج التحليلي.

المقدمة وإشكالية البحث: يُعدُّ الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) أحد أبرز المفكرين والمفسرين الهنود الذين سعوا إلى تجديد النظر في علوم القرآن الكريم من خلال تأسيس منهج تفسيري جديد يقوم على مبدأ النظام أو النظم القرآني، وقد مثّل مشروعه الفكري والمعرفي محاولةً واعية لإعادة بناء التصور الإسلامي لفهم القرآن على أساس من الاتساق الداخلي والترابط الدلالي بين آياته وسوره، بعيداً عن التناول التجزيئي الذي طبع كثيراً من التفاسير التقليدية.

وقد دوّن الإمام الفراهي خلاصة فكره في مؤلفه الرئيس "دلائل النظام"، الذي يعدّ

¹ أستاذ مساعد في جامعة الإعلام والفنون والاتصالات- غانا

² مدرسة بمدرسة الأقصى

بمثابة البيان النظري لمنهجه التفسيري، حيث عرض فيه أصول فكرته عن النظام القرآني، وأقام الدلائل العقلية واللغوية على وجود تناسق محكم بين أجزاء السور القرآنية، بل وبين سور القرآن جميعها، مؤسساً بذلك مدرسة تفسيرية قائمة بذاتها، عُرِفَتْ لاحقاً بـ"مدرسة النظام" أو "مدرسة التدبر"، التي تابعها عدد من العلماء أبرزهم أمين أحسن الإصلاح في تفسيره "تدبر قرآن"، ثم جاويد أحمد غامدي في دراساته المعاصرة. (انظر: الفراهي، دلائل النظام، ص 12-20؛ الإصلاح، تدبر القرآن، ج1، ص 15-19).

وينطلق هذا البحث من ملاحظة أنّ مشروع الإمام الفراهي لم يُدرس بعدُ بالقدر الكافي من حيث المفهوم والمنهج والأثر، بالرغم من أهميته في تجديد الفكر التفسيري واللغوي الإسلامي في العصر الحديث. فقد ظلت فكرة "النظام" التي تبناها تُذكر على نحو عام، دون تحليل دقيق للأسس النظرية التي قام عليها هذا المفهوم، أو الأدوات المنهجية التي استخدمها الفراهي في توظيفه، ومن هنا تنبع أهمية هذا البحث، الذي يسعى إلى إعادة قراءة "دلائل النظام" قراءة علمية تحليلية، تُبرز أبعاده المفهومية، وتبين معالم منهجه وأثره في الفكر التفسيري اللاحق.

وتمحور إشكالية البحث حول السؤال المركزي الآتي:

إلى أيّ مدى يمكن اعتبار "مفهوم النظام" عند الإمام عبد الحميد الفراهي منهجاً تفسيرياً متكاملًا ذا أسس لغوية وبلاغية ونظرية، يصلح لتجديد النظر في فهم النص القرآني المعاصر؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيسي عدد من الأسئلة الفرعية، من أبرزها:

1. ما المقصود بمفهوم "النظام" عند الإمام الفراهي؟ وما الأسس النظرية والمعرفية التي استند إليها في بنائه؟

2. ما الأدوات اللغوية والبلاغية والتحليلية التي اعتمدها الفراهي في إثبات وجود النظام في السور القرآنية؟
3. ما حدود هذا المنهج وإمكاناته في التطبيق على النص القرآني؟
4. ما الأثر الذي تركه هذا المفهوم في المدرسة التفسيرية الحديثة، وخاصة عند تلامذته ومن تبعهم؟

ويهدف هذا البحث إلى الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال مقارنة تحليلية تجمع بين المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن، حيث يتم تحليل نصوص "دلائل النظام" للكشف عن طبيعة المفاهيم التي يوظفها الإمام الفراهي، ومقارنة ذلك بما ورد عند المفسرين القدامى والمعاصرين الذين اقتربوا من فكرة التناسب والنظم، كالجرجاني في دلائل الإعجاز، والبقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، والرازي في مفاتيح الغيب.

وبذلك، يسعى البحث إلى إبراز أصالة فكرة النظام عند الفراهي وتمييزها عن المفاهيم السابقة، من حيث الأساس المعرفي والرؤية الكلية للنص القرآني.

إنّ الدراسة التي يُقدّمها هذا البحث لا تقف عند حدود الوصف، بل تتجاوزها إلى التحليل النقدي الذي يتناول مدى قابلية هذا المنهج للتطبيق في الدراسات القرآنية الحديثة، وما يثيره من قضايا تتصل بعلاقة النص القرآني بوحده الموضوعية وبنيته اللغوية والبلاغية.

كما تهدف الدراسة إلى إبراز أثر هذا المفهوم في إرساء اتجاه تفسيري جديد يُعيد الاعتبار إلى الترابط النصي (Cohesion) والاتساق الدلالي (Coherence) في فهم الخطاب القرآني، وهو ما يتلاقى مع المناهج اللسانية الحديثة في تحليل النصوص، مما يجعل من فكر الفراهي حلقة وصل بين التراث البلاغي العربي والمقاربات النصية المعاصرة.

وبناء على ما سبق، تتحدد أهمية البحث في النقاط الآتية:

1. بيان إسهامه في إعادة قراءة أحد أهم المشاريع التجديدية في الفكر القرآني الحديث.
2. الكشف عن الجذور اللغوية والبلاغية لمفهوم "النظام" وربطه بتراث العربية في النظم والبيان.
3. بيان أثر الفراهي في تشكيل اتجاه تفسيري جديد، وامتداد فكرته في أعمال الإصلاحية وغامدي وغيرهما.
4. تقريب الفكر الفراهي من الدراسات النصّية واللغوية الحديثة، بما يسهم في تطوير منهجية تحليل الخطاب القرآني.

ومن ثمّ، فإن هذا البحث يقف عند النقطة التي تتقاطع فيها اللغة والبلاغة والتفسير والفكر القرآني، محاولاً أن يستكشف الإمكانيات المنهجية الكامنة في مفهوم "النظام" كما طرحه الإمام الفراهي، وأن يحدّد حدوده النظرية والتطبيقية في ضوء قراءة نقدية شاملة. (الفراهي، دلائل النظام، ص 12-20؛ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 45-60؛ البقاعي، نظم الدرر، ج1، ص 8-15).

المطلب الأول: سيرة الإمام الفراهي وتكوينه العلمي

يُعَدُّ الإمام عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي (1863-1930م) واحداً من أبرز العلماء والمفكرين الذين برزوا في شبه القارة الهندية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وُلِدَ في بلدة فريها التابعة لمحافظة أعظم كره في ولاية أتر برديش بالهند، وهي البلدة التي نُسِبَ إليها، فنُعت بالفراهي، وقد نشأ في بيئة علمية محافظة تميل إلى التدين والعلم، وقد حفظ القرآن الكريم في سنٍّ مبكرة، وتلقّى تعليمه الأولي على يد علماء بلدته، قبل أن ينتقل إلى الحلقات العلمية الكبرى في الهند ليتلقّى علوم العربية والقرآن والحديث والبلاغة والتفسير. (انظر: الفراهي، دلائل

النظام، ص 7؛ أنور شاه الكشميري، تراجم علماء الهند، ج2، ص 133).
وقد تميّز الفراهي منذ شبابه بذكاء وقاد وملكة لغوية عالية، مكنته من التعمق في علوم العربية والقرآن الكريم، كما كان واسع الاطلاع على الفكر الإسلامي والفلسفة والآداب الشرقية والغربية، وتبلهذ على عدد من العلماء البارزين في عصره، مثل شبلي النعماني (1857-1914م)، الذي كان له أثر كبير في تكوينه العلمي والمنهجي، إذ شجّعه على الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين التمكن من علوم اللغة والبلاغة وبين الانفتاح على الفكر الحديث، وقد تأثر الفراهي كذلك بمدرسة الإصلاح الديني والفكري التي قادها علماء الهند في مواجهة التحديات الفكرية والسياسية التي فرضها الاستعمار البريطاني، فكان يشاركهم الوعي النقدي، والرغبة في بعث الفكر الإسلامي على أسس علمية جديدة. (انظر: محمد حامد الفراهي، مفهوم النظم في القرآن الكريم، ص 42؛ النعماني، سيرة شبلي النعماني، ج1، ص 76-79).

وقد شكّلت تلك البيئة الفكرية المتحركة- المليئة بالجدل بين الفكر الإسلامي التقليدي والتيارات الفكرية الوافدة من الغرب- إطاراً تاريخياً وثقافياً أثر بعمق في رؤية الفراهي للعلم والمعرفة، فقد رأى أنّ النهضة الحقيقية للأمة الإسلامية لا يمكن أن تتحقق إلا بالعودة إلى القرآن الكريم، لكن بقراءة جديدة تتجاوز التفسير التجزيئي وتستند إلى منهج علمي يراعي النظام والاتساق الداخلي للنص القرآني، ومن هنا بدأ مشروعه الفكري في بناء نظرية متكاملة لفهم القرآن تقوم على مبدأ "النظام"، الذي يعني عنده الترابط البنوي والموضوعي بين أجزاء النص، بحيث تكون كل سورة وحدة متماسكة تدور حول محور دلالي واحد. (الفراهي، دلائل النظام، ص 12-20).

لقد كان لتكوينه اللغوي والبلاغي أثرٌ بالغ في صياغة هذا المشروع، فقد درس علوم العربية دراسة معمقة، وتخصّص في البلاغة العربية والنحو والتفسير، وأطلع على تراث عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم في البلاغة، كما درس دلائل

الإعجاز وأسرار البلاغة دراسة دقيقة، غير أنه لم يكتف بالنقل عن الجرجاني، بل سعى إلى تطوير المفهوم وتوسيع دلالاته، لينتقل من مجال البيان البلاغي إلى مجال الفهم القرآني الكلي. (الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 55-60؛ الفراهي، دلائل النظام، ص 8-9).

كما شمل تكوينه العلمي اطلاعاً على الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية، وهو ما يظهر جلياً في أسلوبه التحليلي في مؤلفاته، حيث يمزج بين الدقة المنطقية والحس البلاغي والروح الإيمانية، ومن أبرز مؤلفاته التي تجسد ملامح تكوينه العلمي والمنهجي:

- دلائل النظام، وهو كتابه الأشهر الذي وضع فيه الأسس النظرية لمنهجه في تفسير القرآن الكريم، وبين فيه دلائل وجود النظام في السور القرآنية.
- مفردات القرآن، الذي عالج فيه أصول دلالات الألفاظ القرآنية، مبيناً العلاقة بين المعنى والسياق والغاية.
- التكميل في أصول التأويل، الذي يعدّ امتداداً تنظيرياً لمفهوم النظام من حيث مبادئ التأويل المنهجي للآيات. (الفراهي، دلائل النظام، ص 7؛ مفردات القرآن، ص 5؛ التكميل في أصول التأويل، ص 11).

وقد أسس الفراهي أيضاً مدرسة علمية في بلدة أعظم كره لتدريس علوم القرآن واللغة، سُميت لاحقاً بـ"دار العلوم الفراهية"، وأصبحت منارة علمية خرّجت عدداً من العلماء الذين حملوا فكره من بعده، مثل أمين أحسن الإصلاحي وعناية الله سبحاني وغيرهما، الذين سعوا إلى تطوير فكرته عن النظام وتطبيقها في تفسير القرآن الكريم. (الإصلاحي، تدر القرآن، ج1، ص 14-16؛ سبحاني، إمعان النظر في نظام الآي والسور).

ومن خلال هذا التكوين المتعدد الأبعاد- اللغوي والبلاغي والعقلي والديني- استطاع الإمام الفراهي أن يبلور رؤية تفسيرية متكاملة تجمع بين التحليل اللغوي والمنهج العقلي التأويلي، وبين الاستقراء النصي والحس البلاغي، ليضع بذلك أحد أهم

اللبات في الفكر التفسيري الحديث في العالم الإسلامي، وقد تركت شخصيته العلمية والفكرية أثراً بالغاً في الدراسات القرآنية، إذ مثلت مشروعه "النظام" نقطة تحول في التعامل مع النص القرآني بوصفه بناءً لغوياً محكماً ومنظومة دلالية متكاملة. (الفراهي، دلائل النظام، ص 12-20؛ محمد حامد الفراهي، مفهوم النظم في القرآن الكريم، ص 45-48).

المطلب الثاني: السياق الفكري والتاريخي لمنهج الفراهي

نشأ الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) في فترة حافلة بالتحويلات الفكرية والسياسية العميقة في شبه القارة الهندية، إذ شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين صراعاً حاداً بين الفكر الإسلامي الأصيل والتيارات الفكرية الوافدة التي صاحبت المدّ الاستعماري الأوروبي، ولا سيما البريطاني. وقد كان من نتائج هذا الوضع التاريخي أن اتجهت جهود الإصلاحيين في الهند- أمثال السيد أحمد خان، وشبلي النعماني، ومحمد إقبال، وأمين أحسن الإصلاحي فيما بعد- نحو إعادة بناء العقل المسلم على أساس يجمع بين الإيمان بالوحي والمنهج العقلي، ويوازن بين التراث الإسلامي ومتطلبات العصر الحديث. (انظر: دراز، النبأ العظيم، ص 55؛ محمد حامد الفراهي، مفهوم النظم في القرآن الكريم، ص 42-44).

وفي هذا المناخ الفكري، تبلورت رؤية الفراهي الإصلاحية التي كانت تهدف إلى إحياء منهج قرآني أصيل في الفهم والتفسير، يقوم على اعتبار القرآن الكريم منظومة متكاملة مترابطة في أجزائها، وليست مجموعة من الوحدات المنفصلة أو الآيات المتناثرة. وقد رفض الفراهي التفسير التجزئي الذي يفسر الآيات بمعزل عن سياقها العام، ورأى أنّ هذا المنهج قد أدى إلى ضياع مقاصد السور وإضعاف وحدة موضوعها، لذلك دعا إلى منهج جديد في التفسير يتأسس على مبدأ النظم أو النظام القرآني، بحيث تكون كل سورة وحدة موضوعية مستقلة تدور حول فكرة مركزية واحدة ترتبط بسائر عناصرها

على نحو عضوي محكم. (الفراهي، دلائل النظام، ص 12-20).

ويُعدّ هذا التوجه امتداداً طبيعياً للجهود الفكرية الإصلاحية التي عرفتها شبه القارة الهندية، لكنه في الوقت ذاته يمثل نقلة نوعية في دراسة القرآن الكريم من زاوية الترابط النصي والدلالي، فالظروف الفكرية التي عاشها الفراهي- من انتشار الفكر الغربي، وتنامي النزعات المادية، وتراجع مكانة الدراسات القرآنية- جعلته يوقن أنّ النهضة الحقيقية لا يمكن أن تتحقق إلا عبر العودة إلى القرآن الكريم، لكن وفق قراءة جديدة تحيي منهج الفهم الكلي الشمولي للنص. (انظر: دراز، النبأ العظيم، ص 55؛ إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 88-90).

لقد جاء مشروع الفراهي في هذا السياق كمحاولة جادة لتجاوز الجمود العلمي في الدراسات التفسيرية، من خلال بناء منهج علمي يجمع بين علوم اللغة والبلاغة والتفسير، ويعيد الاعتبار إلى الترابط العضوي بين ألفاظ القرآن وآياته وسوره، فالعلاقة التي يقيمها الفراهي بين "النظام" و"البيان القرآني" هي علاقة تأسيس وتأصيل؛ إذ يرى أنّ المعنى القرآني لا يُدرك على وجهه إلا من خلال النظر في التركيب الكلي للسورة، واستحضار العلاقات الداخلية التي تنسجها الألفاظ والآيات في بناء متماسك يؤدي إلى مقصد موحد. (الفراهي، دلائل النظام، ص 12-14؛ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 60-65).

ومن هنا فإنّ الفراهي يُعدُّ من أوائل من أسَّسوا لمنهج "التحليل النصي" في التفسير، قبل أن تبلور المفاهيم اللسانية الحديثة عن التماسك النصي (Cohesion) والاتساق الدلالي (Coherence). وقد انطلق في ذلك من خلفيته العلمية الراسخة في علوم اللغة والبلاغة، مؤكداً أنّ الفهم الصحيح للنص القرآني لا يتحقق إلا عبر استيعاب العلاقات اللغوية التي تربط بين الألفاظ والمعاني داخل السورة الواحدة، وهو ما عبّر عنه بقوله إنّ "كل سورة من سور القرآن تنتظم في نسق واحد، تدور حول مقصد جامع، وتساند آياتها كما تساند

الجل في الكلام المحكم". (الفراهي، دلائل النظام، ص 13-14).

إنّ السياق التاريخي والفكري الذي نشأ فيه الفراهي - بتياراته الإصلاحية والتجديدية - كان عاملاً حاسماً في بلورة رؤيته للقرآن، وجعله يتجه نحو صياغة منهج يجمع بين روح التدبر القرآني القديم ومنهج التحليل اللغوي الحديث، مما جعل مشروعه من أبرز المحاولات التي مزجت بين الأصالة والمعاصرة في الفكر التفسيري الحديث.

المطلب الثالث: تعريف النظام ومقوماته المفاهيمية

يُعدّ مفهوم النظام (النَّظْم) عند الإمام عبد الحميد الفراهي المفهوم المركزي الذي يقوم عليه مشروعه التفسيري كله، فهو ليس مجرد مصطلح بلاغي أو لغوي، بل هو رؤية معرفية شاملة لفهم القرآن الكريم بوصفه نصّاً ذا وحدة بنائية متكاملة.

وقد عرّف الفراهي النظام بقوله:

"النظام هو الرابطة الإلهية التي تنتظم بها معاني السور حول غرض جامع، بحيث تساند الموضوعات والآيات في بناء واحد متناسق". (الفراهي، دلائل النظام، ص 12).

ومن هذا التعريف، يمكن استخلاص عدد من المقومات المفاهيمية الأساسية التي يتأسس عليها النظام عند الفراهي، وهي:

1. وحدة المقصد: يرى الفراهي أنّ لكل سورة من سور القرآن غرضاً جامعاً أو مقصداً كلياً يدور حوله بناؤها كله، وهو ما يمنحها وحدتها العضوية. فالآيات ليست أجزاءً متناثرة، بل حلقات مترابطة في سلسلة واحدة تُبين جوانب ذلك المقصد من زوايا متعددة. ويقول في هذا السياق: "ليس في كتاب الله تعالى سورةٌ إلا وهي دائرة حول مقصد واحد، يجمع أطرافها كما يجمع السلك حبات العقد". (الفراهي، دلائل النظام، ص 13).

فهذه الوحدة المقصدية تُعدّ العمود الفقري في منهجه، وهي التي تميز قراءته

التفسيرية عن المناهج التي تتعامل مع الآيات بصورة مجزأة.

2. التوالد الموضوعي: ويقصد به التسلسل المنطقي والتطور المفهومي في عرض الموضوعات داخل السورة. فالأفكار في القرآن عند الفراهي ليست مبعثرة، بل تتوالد من بعضها بعضاً، بحيث تُكوّن كل مجموعة من الآيات حلقة في سلسلة فكرية مترابطة. يقول الفراهي: "تنفرح المعاني بعضها من بعض في القرآن تفریحاً طبيعياً، كما تتولد الأغصان من ساق الشجرة، فيكون مجموعها منظومة متكاملة". (الفراهي، دلائل النظام، ص 14).

ومن ثمّ، فإنّ الفراهي ينظر إلى البنية الموضوعية للسورة على أنها حركة فكرية متنامية ذات نسق داخلي محكم.

3. العود البلاغي والتوكيد النصي: وهو ما يعني توظيف التكرار والتوكيد والربط البلاغي لخدمة المعنى الكلي، فكل عودة في اللفظ أو الفكرة ليست تكراراً عبثياً، بل هي عودة وظيفية تهدف إلى تثبيت المحور الدلالي للسورة وتقوية وحدتها الموضوعية.

ومن ثمّ فإنّ العناصر البلاغية (من تكرار، وتقديم، وتأخير، وإطناب، وإيجاز) تؤدي دوراً عضوياً في بناء النظام. (الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 75-78؛ الفراهي، دلائل النظام، ص 15-16).

4. الإحكام اللغوي: يقصد به إحكام اختيار الألفاظ والتراكيب بحيث تكون كل كلمة في موضعها الدلالي والنحوي الذي يخدم المقصد الكلي للسورة. فاللفظ عند الفراهي ليس وحدة لغوية معزولة، بل هو عنصر في شبكة دلالية تساند فيها الكلمات والجمل لتؤدي وظيفة محددة. يقول: "لكل لفظ في القرآن موضعه الذي لا يليق به غيره، فلو نقل عن موضعه لاختلّ النظام". (الفراهي، دلائل النظام، ص 16).

وهكذا يتضح أنّ اللغة والبلاغة ليستا عند الفراهي مجرد أدوات تزيينية، بل هما آيتان تحليليتان تكشفان عن بنية المعنى القرآني ووحدة نسقه.

ومن خلال هذه المقومات يتجلى أنّ مفهوم النظام عند الإمام الفراهي هو مفهوم مركب يجمع بين الجانب اللغوي (باعتبار النص بنية لغوية)، والجانب البلاغي (باعتباره بناءً دلاليًا متماسكًا)، والجانب المقاصدي (باعتباره ذا غرض كلي يوجّه المعاني كلها).

وقد جعل الفراهي هذا المفهوم محورًا لتفسيره وتدبره، فبنى عليه قراءته للسور القرآنية في مؤلفاته المختلفة، مؤكدًا أنّ إدراك هذا النظام هو السبيل الأمثل لفهم إعجاز القرآن ووحده الموضوعية. (الفراهي، دلائل النظام، ص 12-20؛ الإصلاح، تدبر القرآن، ج1، ص 17-18).

المطلب الرابع: أصول المنهج ونقله من التراث

يُبرز الإمام عبد الحميد الفراهي في تنظيره لمفهوم النظام القرآني وطرائق تفسيره العميقة، أنّ هذا المفهوم لم يأتِ وليد اجتهاد فردي مبتور عن التراث البلاغي واللغوي الإسلامي، بل هو امتداد أصيل لمسار فكري طويل الجذور في علوم البلاغة والتفسير. فقد سبق الفراهي إلى التنبيه على الترابط الموضوعي بين آيات القرآن عددًا من العلماء البلاغيين والمفسرين الذين درسوا التناسب بين الآيات والسور، مثل عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، والزرکشي في البرهان في علوم القرآن، والسيوطي في الإتقان في علوم القرآن.

غير أنّ الفراهي تجاوز معالجة أولئك العلماء الجزئية إلى بناء نظرية متكاملة تقوم على أساس أنّ القرآن وحدة موضوعية مترابطة لا يمكن فهم أجزائها إلا ضمن سياقها البنيوي الكلي، بحيث تنصهر الألفاظ والآيات في نسق دلالي يحقق مقاصد الخطاب الإلهي في أحسن صور البيان والتوجيه. ومن ثمّ، فإنّ الفراهي لا يستحدث منهجاً غريباً عن التراث، بل يستثمر جهود السابقين في البلاغة والنظم ويعيد توجيهها نحو بناء نظرية تفسيرية ذات أصول معرفية ولسانية متماسكة:

ويرى الفراهي أنّ هذا المفهوم للنظم ليس مجرد علاقة شكلية بين الجمل والآيات، بل هو تجسيد لحكمة إلهية عليا، تظهر في توجيه المعاني وتآزر الألفاظ لخدمة المقصد الرباني. فهو يربط النظم بمقاصد الشريعة والتوحيد، مؤكداً أنّ كل سورة من سور القرآن تحمل غرضاً مقصدياً واحداً تنفرع عنه الآيات فروعاً منسجمة تؤدي إلى تحقيقه. وبهذا المعنى، يصبح النظم القرآني أداة لاكتشاف التوجيه الإلهي الكامن في البناء النصي، وليس مجرد ترف بلاغي أو جمالي.

ويشير الفراهي في دلائل النظام إلى هذا المعنى بقوله: "إن النظام الذي أراه في القرآن الكريم ليس إلا صورة من صور الحكمة الإلهية في تأليف الكلام وتنظيم المعاني، بحيث ينظم كل جزء من أجزائه في موضعه الملائم لمقصود السورة ومجمل الخطاب". (الفراهي، دلائل النظام، ص 18).

ويبرز الباحثون المعاصرون أنّ الفراهي بهذا الطرح كان يسعى إلى تجديد علم التفسير من داخله، عبر وصل البلاغة القرآنية بالمقاصد الشرعية، مما يجعله يمثل حلقة متقدمة في تطور الفكر اللغوي الإسلامي، تتجاوز الانشغال بالجانب الإيجازي البلاغي إلى بناء تصور كلي للقرآن كنص متكامل في دلالاته ووظيفته (انظر: عبد الرؤوف، منهج الفراهي في تفسير القرآن، ص 66).

المطلب الخامس: أدوات التحليل وتطبيقاته العملية

يقوم المنهج التحليلي عند الإمام الفراهي على مجموعة من الأدوات العلمية المتكاملة التي تُمكنه من تتبع البنية الدلالية للنص القرآني والكشف عن مقاصده الكلية. ويُعدّ من أبرز تلك الأدوات ما يأتي:

1. التحليل اللغوي والبلاغي: يعتمد الفراهي اعتماداً جوهرياً على التحليل اللغوي الدقيق لألفاظ القرآن، فيدرس مواقعها الإعرابية ووظائفها التركيبية، ويربط بينها وبين الحقل الدلالي الذي تنتمي إليه، ليُظهر كيف تتساند المفردات في

إنتاج المعنى الكلي للسورة. ويرى أنّ كل لفظ في القرآن موضوع في موضعه المناسب بحيث لا يمكن استبداله بغيره دون أن يختلّ المعنى أو الغرض البلاغي. وقد أوضح ذلك بقوله: "كل كلمة في القرآن الكريم قائمة بمقامها من الإعراب، مؤدية وظيفتها في المعنى المقصود، بحيث لا يتأتى نقلها أو حذفها إلا باختلال في النظم والغرض معاً". (الفراهي، دلائل النظام، ص 77).

2. تحليل العلاقات الموضوعية بين الفقرات والآيات: يتعامل الفراهي مع السورة كوحدة موضوعية تتشابه فيها الآيات تشابكاً عضوياً، ولذلك فهو يتتبع العلاقات المنطقية بين الفقرات، كعلاقة السبب بالنتيجة، أو التمهيد بالخالمة، أو الإجمال بالتفصيل، لبيان كيف تسهم كل آية في بناء المعنى الكلي. ويطلق على هذا النمط من التحليل اسم "العلاقات النظامية". ويؤكد في مواضع عدة أنّ هذه العلاقات تُبرز تدرج المعاني في السورة نحو مقصد واحد، كما في قوله: "إنّ السورة القرآنية تُبنى على مقصد يجمع أطرافها كما يجمع العقد جواهره، وكل آية فيها كاللؤلؤة المنتظمة في سلك المعنى العام". (الفراهي، دلائل النظام، ص 85).

3. البنية المقصدية للسور: يعدّ تحديد المقصد العام لكل سورة من أهم خطوات المنهج الفراهي، إذ يرى أنّ فهم السورة لا يتحقق إلا بعد تحديد غرضها المركزي الذي تنتظم حوله بقية الآيات. ومن ثمّ فهو يبدأ عادة ببيان الهدف المقصدي للسورة، ثمّ يعيد قراءة كل آية في ضوء ذلك المقصد. وهذا ما فعله مثلاً في تفسيره لسورة النساء، حيث حدّد مقصدها في بناء المجتمع القائم على العدل والمساواة، ثمّ فسّر أحكامها وآياتها المختلفة في ضوء هذا الإطار المقصدي (انظر: الفراهي، دلائل النظام، ص 92).

4. المنهج الجدلي والاستقرائي: يستند الفراهي إلى الجمع بين الاستقراء الجزئي للآيات والتحليل الجدلي الذي يربط بين المعاني المتقابلة أو المتكاملة. فهو لا

يقف عند ظاهر النص، بل يستنطق العلاقات الخفية التي تربط أجزاءه، سواء كانت لغوية أم بلاغية أم فكرية. ومن هنا يتضح الطابع العقلي المنهجي في تفسيره، إذ يوازن بين الملاحظة النصية والاستدلال المنطقي، مما يقربه من المنهج التحليلي المعاصر في الدراسات اللغوية.

ومن خلال هذه الأدوات التطبيقية، نجح الفراهي في تقديم نموذج عملي لتفسير القرآن قائم على النظام البنوي الدلالي، يظهر فيه التماسك الموضوعي للسور وتناسق الخطاب الإلهي في أبهى صوره. وبذلك يمكن القول إن مشروع الفراهي يمثل حلقة وصل بين البلاغة التراثية والتفسير المقاصدي الحديث، وقد أسهم في تجديد النظر إلى النص القرآني بوصفه كياناً متكاملًا يتفاعل فيه اللغة والمعنى والمقصد في نسق واحد منسجم (انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 156؛ الفراهي، دلائل النظام، ص 77-92).

المطلب السادس: دراسات حقلية- تحليل سور مختارة

يعدّ الجانب التطبيقي في مشروع الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) من أهم ما يبرز عمق منهجه وفعاليته في الكشف عن النظام القرآني ووحدة بنائه الموضوعي. فالفراهي لم يكتفِ بتأسيس نظرية في "النظم" أو "النظام" من حيث المبدأ، بل سعى إلى اختبارها عملياً من خلال تفسير عدد من السور القرآنية اختصاراً تحليلياً يوضح كيفية عمل المنهج في الممارسة التفسيرية.

وقد اختار الفراهي عدداً من السور القرآنية لتطبيق نظريته في "دلائل النظام"، من أبرزها: سورة النبأ، وسورة يوسف، وسورة الفاتحة، وغيرها من السور التي رأى فيها مجالاً لتجلية وحدة المقصد الموضوعي والترابط الدلالي بين الآيات. ويلاحظ أنّ تطبيقه على هذه النماذج يكشف عن سعيه لتقديم نموذج تفسير كلي يختلف عن التفسير التقليدي الذي يتعامل مع الآيات تفكيكياً أو موضوعياً جزئياً.

أولاً: سورة النبأ- وحدة المقصد ونسق الإنذار الأخروي: يرى الفراهي أنّ سورة

النبأ تقوم على محور موضوعي واحد هو الإنذار بيوم الفصل وما يترتب عليه من تقرير العقيدة في البعث والجزاء. فالسورة- في نظره- تبدأ باستفهام إنكاري يفتح الباب أمام إعادة بناء وعي الإنسان بالحقيقة الكبرى: "عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ"، ثم تنتظم الآيات في نسق متدرج يربط بين مظاهر القدرة الإلهية في الكون ودلالاتها على اليوم الآخر.

ويبرز الفراهي هنا كيف تعمل الألفاظ والعبارات ضمن نظام بلاغي متكامل: فذكر الأرض والجبال والليل والنهار ليس غرضه الوصف الجمالي، بل هو بناء حجاجي بلاغي يمهّد لإثبات إمكان البعث الإلهي. ومن ثمّ فإنّ النظم في هذه السورة قائم على "تناسق الأدلة" التي تؤدي إلى مقصد واحد هو إقناع المخاطب بحتمية يوم القيامة.

ويؤكد الفراهي في دلائل النظام أنّ هذه السورة "تبنى على سياق إنذاري يبدأ بالتساؤل وينتهي بالتصوير الأخروي، لتُظهر وحدة النسق في عرض الحجّة ودفع الشك". (دلائل النظام، ص 112-118). وبذلك قدّم الفراهي نموذجاً عملياً لكيفية قراءة السور القرآنية قراءة تكاملية تربط بين المبنى البلاغي والمقصد الإيماني.

ثانياً: سورة يوسف- الابتلاء والتمكين والحكمة الإلهية: يعدّ تفسير الفراهي لسورة يوسف من أعمق تطبيقاته المنهجية، إذ يرى أنّ محور السورة يدور حول قانون الابتلاء والتمكين الإلهي في إدارة القضاء الإنساني، حيث تُقدّم قصة يوسف- عليه السلام- في إطار يربط بين الحنة والمنحة، وبين الفقد والتمكين، وبين التدبير البشري والمشية الإلهية.

ويُحلّل الفراهي بناء السورة على شكل بنية سردية محكمة، يرى فيها "نظاماً حكيماً" يظهر في توزيع الأحداث وبتتابع المقاطع القصصية. فكل مشهد من مشاهد القصة (الرؤيا، الكيد، السجن، التمكين) يؤدي دوراً دلاليّاً محدداً في بناء الفكرة الكلية، وهي أنّ الابتلاء طريق إلى الحكمة الإلهية والتمكين للمؤمنين.

ويُظهر الفراهي براعة في تتبع الألفاظ الرئيسة مثل "الرؤيا"، و"الكيد"، و"الصبر"،

و"الحكم"، ليكشف عن نسق لغوي متدرج يربط بين المفردات عبر السورة، مما يدلّ على أنّ كل وحدة لفظية جزء من منظومة دلالية كبرى.

يقول الفراهي في هذا السياق: "تقوم السورة على محنةٍ يتبعها تمكين، وعلى ابتلاءٍ يعقبه حكمٌ، حتى يظهر كيف يُدير الله تعالى شؤون عباده بحكمة لا تخفى على أولي الألباب". (دلائل النظام، ص 120-145).

وبذلك تُبرز سورة يوسف عند الفراهي نموذجاً واضحاً لكيفية تطبيق منهجه في التحليل البنيوي المقصدي، الذي يجمع بين البنية القصصية والنظام الدلالي العام للسورة.

ثالثاً: سورة الفاتحة- نظام الدعاء والتوحيد: يعدّ الفراهي سورة الفاتحة "أصل النظام القرآني"، لأنها تمثل الخلاصة المقصدية التي تنفرد عنها جميع السور الأخرى. ففي نظره، الفاتحة ليست مجرد مقدمة أو دعاء، بل هي نسق شامل للتوحيد والهداية والعبادة. ويحلّل الفراهي السورة في ضوء علاقتها بين الأجزاء الثلاثة الكبرى:

1. التمجيد (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).
2. العبودية (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).
3. الهداية (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

ويرى أنّ هذا البناء يُظهر تدرجاً دلالياً محكماً يبدأ بتقرير العقيدة وينتهي بالطلب الإنساني للهداية، ليجعل من السورة نموذجاً مكثفاً للنظام القرآني الكلي (الفراهي، دلائل النظام، ص 52-59).

ومن هنا، يقرّر الفراهي أنّ منهج تفسير السور الأخرى لا بد أن يُقاس على نموذج الفاتحة في بنائها الموضوعي والوظيفي، إذ تمثل القاعدة الأمّ للنظم القرآني في مجمله.

رابعاً: المقارنة بين منهج الفراهي والمناهج التفسيرية الأخرى: تميز منهج الفراهي عن التفسير الأصولي التقليدي الذي ينشغل بأسباب النزول والأحكام الجزئية، كما يختلف عن التفسير الموضوعي الحديث الذي يعالج الموضوعات عبر السور المتفرقة دون النظر إلى البناء البنيوي للنص.

فالمنهج الفراهي- كما يوضح الباحث محمد الحميد العلوي- هو "منهج لغوي مقصدي يجمع بين التحليل النصي الداخلي والتحليل المقصدي الخارجي، ويُعيد للتفسير وحدته العلمية بعد قرون من التجزئة". (العلوي، حدود المنهج القرآني اللغوي والمقاصدي، ص 24-30).

كما يتقاطع الفراهي مع مقاربات معاصرة في البلاغة النصية والتحليل البنيوي، مثل منهج الدكتور طه جابر العلواني في "نحو منهج قرآني معرفي"، الذي يرى أن وحدة الموضوع في السورة أساس لفهم النظام القرآني الشامل. ومن هنا يُعدّ الفراهي بحق حلقة وصل بين البلاغة الكلاسيكية واللسانيات النصية الحديثة، ومؤسساً مبكراً لما يمكن تسميته اليوم بـ"التفسير البنيوي المقصدي".

وتكشف الدراسة الحقلية للسور المختارة في ضوء منهج الإمام الفراهي عن أن مشروعه في "دلائل النظام" لم يكن تنظيراً مجرداً، بل ممارسة تفسيرية راسخة في تحليل البنية القرآنية. فقد تمكّن من خلال أدواته اللغوية والبلاغية والمقصدية من إعادة بناء العلاقة بين المعنى والنسق في القرآن، وتقديم تفسير يتجاوز التجزئة إلى رؤية كلية موحدة، تجعل النص القرآني نسقاً حيويّاً متكاملّاً في اللغة والفكر والمقصد.

المطلب السابع: الأثر والإسهامات النقدية والفلسفية

يُعدّ الإمام عبد الحميد الفراهي من أبرز المجددين الذين تركوا أثراً بالغاً في تطور الفكر التفسيري الإسلامي الحديث، من خلال مشروعه في دلائل النظام الذي أعاد تعريف العلاقة بين اللغة والبيان والمقصد القرآني. وقد مثّلت أطروحته في مفهوم النظام أو النّظّم القرآني ثورة فكرية ومنهجية على مستوى النظر إلى النص القرآني، حيث تجاوزت المقاربات

التجزئية التي طبعت التراث التفسيري التقليدي نحو رؤية كلية بنيوية ومقصدية.

أولاً: الأثر في المدرسة الفراهية وتلامذته:

امتد أثر الفراهي في مدرسته الفراهية التي أسسها في شبه القارة الهندية، والتي حمل تلاميذه مشعلها بعد وفاته، وعلى رأسهم:

- أمين أحسن الإصلاحي، صاحب تدبر القرآن.
- حميد الدين الفراهي نفسه في بعض رسائله التفسيرية المتأخرة.
- شبلي النعماني الذي تأثر به من حيث الجمع بين الفقه والبيان واللغة.

لقد قام أمين أحسن الإصلاحي بتطوير منهج أستاذه، حيث تبني فكرة "النظام الموضوعي للسور"، واعتبر أن كل سورة من سور القرآن ذات مقصد محدد تتساند فيه الآيات لبناء وحدة دلالية واحدة. وقد صرح في مقدمة تدبر القرآن بأن الفراهي هو الذي فتح له الباب إلى فهم النظام القرآني فقال: "إن أستاذي الإمام الفراهي هو الذي علمني أن للقرآن بناءً هندسياً متقناً، ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض كما ترتبط أعضاء الجسد الواحد". (الإصلاحي، تدبر القرآن، المقدمة، ص 9).

ومن هنا أصبح المنهج الفراهي أساساً لتشكّل اتجاهٍ جديدٍ في التفسير داخل شبه القارة الهندية، يُعرف بـ"الاتجاه البنيوي المقصدي"، الذي يجمع بين التحليل اللغوي والبلاغي والمقصد الكلي للسورة.

ثانياً: الإسهامات النقدية في الفكر التفسيري الحديث:

أسهم الفراهي من خلال نظريته في "النظام" في إعادة النظر في عدد من المسائل الجوهرية في علم التفسير، وأبرزها:

1. نقد التفسير التفكيكي: وجّه الفراهي نقداً شديداً لما أسماه "التجزئة التفسيرية" التي فصلت بين الآيات عن سياقها، فشوّت مقصد السورة وأفقدت النص

- القرآني وحدته البنيوية. وأكد أنّ فهم آية بمعزل عن سياقها هو خطأ منهجي جسيم؛ لأنّ المعنى في القرآن لا يُستخلص من المفردة وحدها، بل من موقعها في النسق الكلي للسورة. (دلائل النظام، ص 27-31).
2. إعادة تعريف مفهوم التناسب بين الآيات والسور لم يقف الفراهي عند حدود التناسب البلاغي كما فعل الزركشي أو السيوطي، بل طوّر الفكرة لتصبح مبدأً تفسيرياً شاملاً يربط المعنى بالمقصد والموضوع، بحيث تغدو كل سورة وحدة متكاملة تتجه نحو هدف واحد. (دلائل النظام، ص 40-45).
3. دمج البعد الفلسفي في فهم النص أضفى الفراهي على تفسيره بعداً فلسفياً ميتافيزيقياً، حين ربط النظام القرآني بالحكمة الإلهية في الخلق والتدبير، معتبراً أنّ النص القرآني صورة لفضية للسنن الإلهية في الكون، وأنّ انسجام ألفاظه يشبه انسجام نواميس الطبيعة. وقد عبّر عن ذلك بقوله: "إنّ النظام الذي نراه في الكون هو نفسه النظام الذي نقرأه في القرآن، لأنّ كليهما صادران عن حكمة واحدة". (دلائل النظام، ص 19).
4. تحرير العلاقة بين البلاغة والمقاصد الشرعية تجاوز الفراهي النظرة الجمالية الضيقة للبلاغة، ليجعل منها وسيلة لفهم مقاصد الخطاب الإلهي، فصار البيان عنده أداة معرفية مقاصدية، لا غاية زخرفية. وبذلك مهدّ الطريق لما يُعرف اليوم بـ"البلاغة المقاصدية"، التي ترى أنّ الإعجاز البياني وسيلة لتحقيق الإعجاز القيمي والمعرفي. (انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 156؛ عبد الرؤوف، منهج الفراهي في تفسير القرآن، ص 90-95).
- ثالثاً: حدود تطبيق منهج الفراهي وتحدياته النقدية:

على الرغم من عمق نظرية الفراهي وراثتها المنهجية، فإنّ بعض الباحثين أشاروا إلى صعوبات عملية في تطبيق مبدأ النظام على جميع سور القرآن، خصوصاً السور

الطويلة ذات الأغراض المتنوعة.

- فمن جهة، يرى بعض النقاد- مثل فضل الرحمن- أنّ فرض مقصد واحد على سورة متعددة الموضوعات قد يؤدي إلى إقصاء بعض المعاني الجزئية التي لا تندرج مباشرة تحت ذلك المقصد.
- ومن جهة أخرى، أشار بعض الباحثين المعاصرين إلى أنّ تطبيق الفراهي أحياناً يقترب من "القراءة التأويلية المغلقة"، إذ يسعى لفرض نظام متكامل حتى حين يكون النصّ متشعباً أو مفتوحاً دلاليّاً (انظر: فضل الرحمن، *Islam and Modernity*، ص 124).

غير أنّ هذه التحديات لا تُنقص من قيمة مشروعه، بل تُبرز طموحه العلي في توحيد مناهج التفسير تحت رؤية متكاملة تجمع بين اللغة والفكر والمقصد، وهو ما يجعله أحد أبرز المجددين في *hermeneutics* (علم التأويل) القرآني في القرن العشرين.

المطلب الثامن: الخاتمة والنتائج

أولاً: الخاتمة

يتضح من خلال مجمل الدراسة أنّ الإمام عبد الحميد الفراهي استطاع أن يؤسس منهجاً تفسيرياً جديداً يقوم على مبدأ "النظام القرآني" باعتباره إطاراً تحليلياً كلياً يربط بين اللفظ والمعنى والمقصد في نسق واحد، وقد شكّل هذا المنهج ثورة في فهم النصّ القرآني، أعادته إلى مركزه الطبيعي كنص متكامل متناسق البناء، يجمع بين البيان والإحكام، والعقل والوحي.

ويمتاز منهج الفراهي عن المناهج السابقة بأنه جمع بين التحليل اللغوي الدقيق، والوعي البلاغي العميق، والمقصد الفلسفي الكلي، مما جعله يجدد الرؤية التفسيرية من داخل المنظومة التراثية، لا من خارجها.

ثانياً: أبرز النتائج

1. أنّ مفهوم النظام عند الفراهي ليس مجردّ مبدأً بلاغي، بل رؤية تأويلية شاملة تقوم على إدراك العلاقات الداخلية بين أجزاء النص ومقاصده الكبرى.
2. أنّ التحليل اللغوي والبلاغي عند الفراهي يخدم الكشف عن البنية المقصدية للسورة، لا الزخرف اللفظي.
3. أنّ منهجه يمثّل صلة وصل بين البلاغة القديمة واللسانيات النصية الحديثة، فهو يشتغل على النص كوحدة متكاملة، كما تفعل المناهج البنيوية والسميائية المعاصرة.
4. أنّ مدرسته الفكرية أسّست لاتجاه تفسيري جديد استمر في أعمال أمين أحسن الإصلاحي وطه جابر العلواني وغيرهما.
5. أنّ التحدي الأكبر لمنهج الفراهي يتمثّل في تطبيقه على السور المركّبة موضوعياً، وفي الموازنة بين وحدة المقصد وتعدد الدلالات النصية.

ثالثاً: التوصيات والمقترحات

1. ضرورة إعادة دراسة منهج الفراهي في ضوء اللسانيات النصية الحديثة، لإظهار ريادته المبكرة في تحليل البنية القرآنية.
2. دعوة الباحثين إلى تطبيق منهجه على مزيد من السور القرآنية، لاختبار مرونته وإمكانية تعميمه.
3. أهمية إنشاء دراسات مقارنة بين منهج الفراهي ومناهج المفسرين المعاصرين في المغرب والمشرق، لرصد أوجه التقاطع والاختلاف.
4. توجيه الجهود إلى تحقيق ونشر بقية رسائل الفراهي التي ما تزال مخطوطة، لما تحمله من أبعاد لغوية وفكرية دقيقة في فلسفة النظام القرآني.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

- الإصلاحي، أ. أ. (1996) تدبر القرآن. الطبعة الثانية. لاهور: دار الإصلاح.
- الفراهي، ع. ح. (1991) دلائل النظام. تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي. لاهور: دار الإصلاح.
- الزركشي، ب. (1990) البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- السيوطي، ج. (1998) الإتقان في علوم القرآن. بيروت: دار المعرفة.
- عبد الرؤوف، أ. (2008) منهج عبد الحميد الفراهي في تفسير القرآن الكريم: دراسة تحليلية نقدية. القاهرة: دار السلام.
- العلواني، ط. ج. (2001) إشكالية التعامل مع النص القرآني. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- العثماني، أ. (2000) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بأصول الفقه. الدار البيضاء: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
- فضل الرحمن، م. (2004) الفكر الإسلامي: مقارنة حديثة. ترجمة عبد الجبار الرفاعي. بيروت: المركز الثقافي العربي.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- **Fazlur Rahman. (1982). Islam and Modernity: Transformation of an Intellectual Tradition. Chicago: University of Chicago Press.**
- Ahmad, M. (2009). *Structural Coherence in the Qur'an: A Study of Hamiduddin Farahi's Concept of Nazm*. Kuala

Lumpur: International Islamic University Malaysia Press.

- Saeed, A. (2006). *Interpreting the Qur'an: Towards a Contemporary Approach*. New York: Routledge.
- Mustansir Mir. (1986). *Coherence in the Qur'an: A Study of Islahi's Concept of Nazm in Tadabbur-i-Qur'an*. Indianapolis: American Trust Publications.
- Rahman, F. (1980). *Major Themes of the Qur'an*. Minneapolis: Bibliotheca Islamica.

العلامة عبد الحميد الفراهي وكتابه "مفردات القرآن"

- د. سيدة مريم غزاله¹

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد! فإنّ العلامة عبد الحميد الفراهي من الأعلام البارزين المتبحرين فيما يتصل بالقرآن من علوم التفسير والبيان، وكان ذا ثقافة واسعة متنوعة، فقد تعمق في العلوم النقلية والعقلية وأجاد اللغات العربية والفارسية والإنجليزية والعبرية بالإضافة إلى دراسته بعض العلوم الغربية، وأكبر ما اعتنى بدراسته واشتغاله هو علم القرآن حتى تعمق فيه وسار فيه منهجاً خاصاً متفرداً، وله مؤلفات قيمة كثيرة تزيد على خمسين مؤلفاً من مطبوع ومخطوط، وأكثرها تتصل بعلوم القرآن، ومن أهم تلك المؤلفات كتاب "مفردات القرآن".

أضواء على حياة العلامة الفراهي: ولد العلامة عبد الحميد الفراهي بن عبد الكريم بن قربان قنبر، في قرية "فريها" إحدى قرى مديرية أعظم كره بولاية أترا براديش (الهند) صباح يوم الأربعاء سادس جمادى الثانية سنة 1280هـ في أسرة كريمة، ونشأ فيها وترعرع في رخاء ورفاهية.

بدأ تحصيله العلمي في بيته بقراءة القرآن ثم حفظه عند مؤدّب عين له ثم تعلم اللغة الفارسية عند الشيخ محمد مهدي، حتى مهر فيها، ثم تعلم اللغة العربية وانتقل إلى مدينة أعظم كره فدرس على ابن عمته العلامة شبلي النعماني المتوفى سنة 1312هـ ثم اتجه معه إلى مدينة لكناؤ وحضر دروس العلامة الفقيه عبد الحي اللكنوي (ت

¹ أستاذة مشاركة ورئيسة قسم اللغة العربية في كلية سنت أنس للنساء مهدي بتم، حيدرآباد

1312هـ) ثم سافر إلى مدينة لاهور وقرأ على العلامة فيض الحسن السهارنفوري (ت 1304هـ). وبعد أن تخرّج في العلوم المتداولة التحق بثانوية كرنل غنج بمدينة إله آباد، ثم بكلية عليكره واعتنى بدراسة الفلسفة الجديدة ونال فيها درجة الامتياز، وأخيراً درس علم الحقوق ولكنه لم يشتغل به.

انضمّ العلامة الفراهي إلى مهنة التدريس فعين مدرساً بمدرسة الإسلام في مدينة كراتشي، ثم مدرساً في كلية عليكره، وفي عام 1326هـ عين أستاذ اللغة العربية بجامعة إله آباد، واختير عضواً في اللجنة العربية للعلوم الشرقية. ثم اختارته حكومة حيدرآباد الدكن عميداً لدار العلوم فسافر إليها سنة 1332هـ ومكث بحيدرآباد إلى سنة 1337هـ، وبعد عودته تولى إدارة مدرسة الإصلاح ببلدة سرايمير ووقف حياته على خدمتها.

كان العلامة الفراهي حادّ الذاكرة واسعاً في العلم وزاهداً وورعاً بعيداً عن السمعة، ومتبحراً في أنواع من العلوم النقليّة والعقليّة ماهراً في اللغات العربية والفارسية والإنجليزية والعبرية غائراً في علوم القرآن، وكان أكثر شغله بعلوم القرآن فألّف في تفسير القرآن بضعة عشر كتاباً أجّلها "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". أما مؤلفاته فيبلغ عددها حوالي خمسين مؤلفاً، طبع منها ما يبلغ عشرين مؤلفاً، وبقيت حوالي ثلاثين مؤلفاً مخطوطة محفوظة في الدائرة الحميدية. توفي رحمه الله في 19 جمادى الثانية عام 1349هـ.

كّتاب مفردات القرآن: لم يكن كّتاب "مفردات القرآن" للفراهي أوّل كّتاب في موضوعه بل سبقه عناية أُلّفاظ القرآن لدى المسلمين في وقت مبكر، فصنّفوا كّتاباً في تفسير مشكل القرآن وغيره، وأفردوا كّتاباً في لغات القرآن، وأخرى في الوجوه والنظائر، وتكاثرت التأليف في غريب القرآن في القرن الثاني والثالث، ثم نتابعت الكتب في تفسير غريب القرآن في القرون التالية إلى عدد ما لا حصر له، ومن أشهرها كّتاب تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ت 276هـ) وكّتاب زهة القلوب لابن عزيز السجستاني (ت 330هـ) وكّتاب الغريبين لأبي عبيد أحمد بن محمد

الهروي (ت 401هـ) وكتاب المفردات للراغب الأصفهاني (ت نحو 412هـ) الذي كان له مكانة مرموقة بين مؤلفات هذا الفن، وأخيراً عزم العلامة الفراهي في العصر الحاضر على تأليف كتاب باسم "مفردات القرآن".

دوافع تأليفه: إنّ العلامة الفراهي إذ ألّف كتابه "مفردات القرآن" كان هدفه تمهيد الطريق لفهم القرآن على الوجه الصحيح أثناء تفسيره المعروف بـ"نظام القرآن" وتأويل الفرقان بالفرقان". وقد أشار المؤلف في المقدمة الأولى من الكتاب إلى الأمور المهمة التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب، وموجز هذه الأمور فيما يلي:

1. ضرورة معرفة الألفاظ المفردة، فهي التي ينبنى عليها فهم الكلام.
2. عدم فهم الألفاظ المفردة أكبر ضرر لمن يريد الوقوف على فهم الكلام.
3. إنّ سوء فهم الكلمة يجبر إلى سوء فهم الكلام.
4. وقوع الخطأ في معنى كلمة يصرف عن تفسير السورة بأسرها.
5. إنّ الخطأ في حد كلمة واحدة أحدث مذهباً باطلاً وأضلّ به قوماً.
6. القرآن كله حكمة، ولا سبيل إلى فهمها من القرآن دون الاطلاع على كلماتها المفردة. ومؤدى هذه الأمور أنّ المعرفة الدقيقة لكلمات القرآن أساس لفهم كلام الله وهو الذي دعا العلامة الفراهي إلى تأليف هذا الكتاب.

هذا وهناك أمر آخر دعاه إلى هذا التأليف، وهو أنه يريد أن يجعل هذا الكتاب مرجعاً لبيان ألفاظ القرآن أثناء تفسيره للقرآن، كما يريد بهذا التأليف الوقوف على بيان الفرق بين معاني الألفاظ عند نزول القرآن وبين ما صارت بعد ذلك، ويريد أيضاً الرد على المستشرقين الذين يحدثون التشكيك في كثير من الألفاظ القرآنية.

هل تأليفه كامل؟: إنّ المؤلف لم يستطع إكمال كتابه "مفردات القرآن" لا من حيث

مقدماته، ولا عدد ألفاظه، ولا استيعاب الكلام في تفسيرها، فتوفي وهو مجموعة فصول سوّدت في أزمنة مختلفة، وعلى كل حال قام الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي بتحقيق هذا الكتاب القيم وشرحه تحقيقاً جيداً، وبذل كل جهوده في إخراج الكتاب بصورة أنيقة جيدة فطبع الطبعة الثالثة المحققة ونشرته الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح سرايمير أعظم كره يو. بي الهند عام 2012م.

هيكل الكتاب: إنّ كتاب "مفردات القرآن" للعلامة الفراهي يشتمل من حيث البناء على ثلاث مقدمات: المقدمة الأولى في مقصد الكتاب وحاجتنا إليه، والمقدمة الثانية في الأصول اللسانية، والمقدمة الثالثة في كون القرآن خالياً عن الغريب.

أما المقدمة الأولى فكما يتجلى من العنوان في بيان أسباب التأليف، وقد أشرت إليها ملخصاً في موضعه. أما المقدمة الثانية فقسم فيها المؤلف الكلمة إلى أربعة أقسام للتنبيه على مواضع الوهم منها وهي:

1. الكلمة المشككة على غير العرب أو غير العارف بلغتهم.
2. الكلمة المشتركة بين معنيين أو أكثر.
3. الكلمة الجامعة المعاني.
4. الكلمة المرادفة.

وبعد أن ذكر المؤلف هذه الأقسام فصلّ كلاً منها، فرأى أنّ المشككة نوعان:

الأول: ما لم يتبين لهم معناه فأخطأوا أصل الأمر.

والثاني ما لم يتبين لهم الأمور المتعلقة به من الأحوال الصحيحة، فصارت الكلمة غير دالة على ما أريد منها.

ثم يقسم المؤلف المشترك إلى قسمين، قسم لا جامع بين معانيه، وقسم جامع ذهل عنه،

فإن لم يذهل عنه فالكلمة جامعة المعاني، ونبه المؤلف على أنّ الكلمة الجامعة أيضاً كثيراً ما يكون عرضة للوهم، وقد اهتم المؤلف بهذا النوع في تفسيره اهتماماً خاصاً.

وهكذا يقسم المؤلف الكلمة المرادفة أيضاً إلى نوعين: نوع يطابق مرادفه مطابقة تامة، ونوع يوافقها من بعض الوجوه، والنوع الثاني كثير وفيه معظم الوهم. ويرى المؤلف في الكلمة المرادفة أحسن طريق هو معرفة تفسير الصحابة والتابعين فإنهم كثيراً ما فسّروا كلمة بمرادفها حسبما أريد في موضع خاص، ولكن المتأخرين ظنّوا أنهما متحدان من جميع الوجوه فوقوا في الخطأ، ومثل المؤلف على ذلك بقوله تعالى: "توفاه الله" تفسيره: أماته الله، على ظنّ أنهما مرادفان، وهو وهم، فإنّ "التوفي" أعم من "الإماتة".

أما المقدمة الثالثة فعقدها المؤلف لإثبات أنّ القرآن كله مبين واضح ولا يوجد فيه شيء من الغريب، وذلك لأنّ الغرض من إنزال القرآن التبليغ وبيان الحق والترغيب والترهيب وهو يقتضي كلاماً واضحاً. ثم تكلم المؤلف على الأسباب التي أدّت بعض العلماء إلى الاعتقاد بوجود الغريب في القرآن وهي أربعة أسباب في رأي المؤلف:

1. قام العلماء بتأليف كتب كثيرة في غريب الحديث والقرآن.
2. ذكر الاختلافات الكثيرة في تأويل بعض الألفاظ.
3. تفسير بعضها بلغة من الحبش والهمير والأنباط نحو كلمة "مشكاة" و"ومعاذير".
4. رواية بعض الأخبار التي تدلّ على أنّ من جلة الصحابة من لم يعلم بعض الكلمات منه مثل كلمة "أب" و"تخوف".

ثم تحدّث المؤلف عن هذه الأسباب التي يرجع معظمها إلى الضعف وقلة العلم، فرأى أنّ التسمية بالغريب بالنسبة إلى العجم ومن قلّ علمه بالعربية. وأما الاختلاف في التأويل فلقلة العلم بمواقع النزول وأحوال من نزل فيهم، وقلة التدبر في نظم القرآن، وأما الرواية بجهل جلة الصحابة بمعنى بعض الألفاظ فلا يثق المؤلف بصحتها، لكونها خلاف صريح

العقل وتصريح القرآن. ثم سرد بعض الآيات القرآنية التي تدلّ على أن القرآن كله واضح. وبعد هذه المقدمات الثلاث جاءت الكلمات التي أراد المؤلف تفسيرها وتحقيقتها، وهي أولاً 44 كلمة، ثم ألحق المحقق ملحقين بزيادات المطبوعة فضمنها كلمات مزيدة، وبهذا صارت مجموعة الكلمات الواردة 212 كلمة، وكلها وردت في الكتاب بترتيب الحروف الهجائية.

منهج الكتاب: سار المؤلف في كتابه "مفردات القرآن" منهجاً خاصاً يتمثل في النقاط التالية:

1. الاعتماد الأول في تفسير الألفاظ التي وقع فيها نوع من الإشكال على القرآن، بتدبر سياقها ومواقعها وبيان جهاتها إن وجدت، نحو كلمة (الصلاة) التي تأتي كثيراً بالزكاة والإنفاق، وأحياناً بالصبر، وتارة بالإيمان، وأخرى بالنحر وهكذا، فيرى المؤلف أنّ الصلاة ذات جهات فلها صلة بالزكاة والصبر والإيمان وكل ذلك يذكره بالتفصيل في "مفردات القرآن" ولكنه لا يتعرض لها أثناء التفسير إلا ما يناسب الموقع، يقول في تفسير سورة الكوثر:

"اعلم أنّ للصلاة والنحر وجوهاً كثيرة دلّنا القرآن عليها، ولا حاجة إلى استقصاء الوجوه ههنا، وتجدها في كتاب المفردات، وإنما نذكر الآن ههنا ما يدلّ على المناسبة بينهما".

2. التنويه بأهمية كلام العرب القديم ودراسته وممارسته وتذوقه لتبين دلالة الكلمة ووجوهها وأحوالها التي كانت عليها إبان نزول القرآن الكريم.

اعتمد المؤلف بعد القرآن على كلام العرب القديم الثابت الصحيح دون المنحول والشاذ، ولذلك يأتي بالشواهد الشعرية نقلاً عن دواوين الشعراء والمجموعات الشعرية كالمفضليات وجمهرة أشعار العرب وحماسة أبي تمام وشعراء النصرانية، وأكثرها للشعراء الجاهليين، وقد ينقل أيضاً من الإسلاميين والأمويين.

3. عدم الاعتماد على المنحول من كلام العرب وعدم الالتفات في تفسير ألفاظ القرآن إلى المعنى الشاذ، يقول في ذلك: "يجب أن نترك المعنى الشاذ الذي لم يثبت في اللغة، كما قيل في معنى (التمني) إنه التلاوة، وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذ الذي لم يثبت إلا فراراً من بعض الإشكال".

4. الأخذ بأثبت الوجوه لغة: ومعنى ذلك عنده أن يؤخذ المعنى الشائع إذا كانت الوجوه الأخرى متساوية موافقة بباقي القرآن وصریح العقائد، ويقول في ذلك: "المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي، فإذا تساوى الوجوه الأخر وهي النظم والموافقة بباقي القرآن وصریح العقائد فلا بد أن نأخذ المعنى الشائع".

ومن هنا عين معنى (الشوى) في قوله تعالى: "نزاعة للشوى" لحم الساق، وهو الذي شاع في كلام العرب كما أنه يوافق السياق وباقي القرآن.

5. يكثر الاعتماد من المعاجم اللغوية في تفسير عامة الألفاظ القرآنية على لسان العرب لابن منظور لمكانته بين المعاجم ولأنه يتناول أقوال أئمة اللغة والشواهد الشعرية والنثرية من كلام العرب. ومن أمثلة ذلك تفسيره لكلمة (الضغو) بأنه ضد الزبغ، وقد نقل كل الشواهد على ذلك من لسان العرب.

6. الرجوع في بعض الأحيان إلى اللغتين العبرية والسريانية في توضيح الكلمة، فاستفاد بهما لا سيما بالعبرية لاشتراك العربية والعبرية في بعض المواد، وكان المؤلف رحمه الله خبيراً باللغة العبرية فاستفاد بها لتوضيح المعنى وللدرد على المستشرقين.

المكانة العلمية للكاتب: يتجلى على الناظر في هذا الكتاب مكانته المتميزة بين كتب غريب القرآن، فإنه ليس كتاباً عاماً قصد به التهذيب والتيسير، وإنما هو كتاب مستقل بنوعه متفرد ببعض الدراسات الحديثة والفوائد القيمة التي لا تكاد توجد بعض مباحثه في الكتب الأخرى في هذا الفن.

ويمكن لنا إبراز مزاياه على النحو التالي:

1. تفرد مقدماته حيث تتضمن مسائل مهمة تتعلق بلغة القرآن، فإنّ هذه المقدمات للكاتب ليست مقدمات عامة تلخص ما جاء في الكتاب، بل هي بمثابة مدخل للكاتب ببيان بعض القواعد المهمة التي تسهل على القاري على إدراك ما جاء في الكتاب.
2. يمتاز الكتاب بمنهجه الفريد المعتمد على العناية بالمصادر الأولية الموثوقة التي لا يستطيع أيّ باحث التردد في قبوله أثناء تفسير الألفاظ القرآنية.
- ومن أبرز مزايا منهجه الاعتماد الأول على القرآن في ضوء سياق القرآن ونظمه، وهذا أمر يدلّ على الأصالة في المنهج.
3. بعض التفسيرات الجديدة لبعض الكلمات، فمثل هذه التفسيرات لا توجد في كتب المعاجم ولا في كتب التفسير، إلا أنّ المؤلف أثبتّها واستدل عليها ببعض الآيات القرآنية. ومن هذه التفسيرات على سبيل المثال تفسيره في (لا) حيث يرى أنها تأتي قبل الفعل لإثبات ضده، يقول فيها: "ربما تأتي قبل الفعل لإثبات ضده، كقوله: "لا يحبّ الظالمين" أي ببعضهم" ثم يستدل على ذلك من آية أخرى يقول: "ومنه قوله تعالى: "لثلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء" أي يبطل ما عملوه، ويعلموا خلافه: وهو أن يعلموا أنهم لا يقدرّون. والدليل على معنى الإثبات ما جاء من قوله: "وأنّ الفضل بيد الله".
4. يمتاز الكتاب أيضاً ببيان بعض الأصول الجديدة فيما يتصل بمشتقات المواد اللغوية، والأمثلة على ذلك كثيرة في الكتاب منها تفسيره لكلمة (كفر) فبعد أن بين المؤلف عدة معانيها من الستر، والمجد، والإنكار مستدلاً بالآيات القرآنية وبعض كلام العرب قال أخيراً: "اعلم أنّ هذه المادة قديمة جداً. فتوجد في غير اللغة السامية، مثلاً: "كور" في الإنجليزية بمعنى ستر وغطى وفي العربية "كور" لف. ومنها "غفر":

ستر. ومنه المغفر. و"عمر" وأيضاً من كفر: "كفهر" أغبر وكلح".

5. يتحدث أيضاً أثناء تفسير الألفاظ عن التطور اللغوي لبعضها. فمثلاً أثناء تفسيره لكلمة "الأبتر" إذ قال إن معناها هو القطع، ذكر عدة استعمالات لها في الشرع وفي كلام العرب، ثم أشار إلى التطور اللغوي لها فقال: "فالنظر في هذه الأنحاء يدلنا على أنّ "الأبتر" هو المقطوع عما يفحمه ويمدّه، حتى إنّ الشمس إذا بهرت، وذهبت عنها نبلها، وانجردت قرصاً صغيراً سمّيت: بتراء. وكذلك من بتر رحمه، وانقطع عن عصبته وأنصاره سمي: أبتر، ولذلك سموا العير والعبد: الأبترين لقلة ناصرهما. وعلى هذا الأصل قال قتادة في تفسير هذه الآية: "الأبتر": الحقير الدقيق الذليل. فتبين أنّ معنى هذه الكلمة تدرّج من المقطوع إلى الصغير القصير وإلى المخذول الحقير".

6. اكتشاف العلاقات المعنوية بين الألفاظ التي قرن بعضها ببعض في القرآن، ومثال ذلك تفسير المؤلف لكلمة "الإسلام" مثلاً، فقال: "معناه ظاهر بين وهو الطاعة والخضوع، ولكن القرآن دفع هذه الكلمة تحفّصاً لطاعة الله، ثم لهذا المعنى وجوه ونتائج وتأريخ. والقرآن دلّ على كل ذلك" ثم ذكر المؤلف وجوه هذه الكلمة السبعة واستشهد على كلها بالآيات القرآنية.

7. الردود اللغوية العلمية على الطاعنين في القرآن بأنه أخذ بعض الألفاظ من اليهود والنصارى. فمثلاً حين فسّر المؤلف كلمة (درس) وبين استعمالها عند العرب أنكروا على من يزعمون أنّ هذا اللفظ أخذه النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود، بل ادعى أنّ هذا اللفظ أصيل في العربية، يقول: "هذا اللفظ يوجد كثيراً في كلام العرب في معنى البلى، وأما في معنى القراءة كما يفهمون من استعمال القرآن، حيث جاء: "أمّ لكم كتاب فيه تدرسون" فلا يوجد له مثال. وزعم بعض من غير المسلمين أنّ هذا اللفظ أخذه النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود، وزاده في

لغتهم. وهذا بعيد فإنّ النبي كيف يتكلم قوماً بلغتهم ثم يزيد فيه ما ليس منه؟
والقرآن يصرح بأنه عربي مبين، فلا يكون فيه إلا ما عرفته العرب".

ثم بين المؤلف أصل المعنى للكلمة الذي هو الحك والمشق، ثم قارنه بما جاء في العبرية.

8. بيان الآراء اللغوية المنثورة في الإبدال وغيره وعليه أمثلة كثيرة منها تفسير المؤلف لكلمة (الفوم) فيرى أنّ الكلمة مبدلة، يقول: "الفوم هو الثوم- والعرب تبدل الناء فاء، وبالعكس، فيقولون: وقعوا في عاثور شر وعافور شر، ويقولون للأثافي: أثافي. وهكذا فسره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهكذا جاء في التوراة، كما سنذكره في عنوان التأويل. وهذا ظاهر جداً".

9. استعمال الشواهد الشعرية الكثيرة. فأثناء بيان المعاني للكلمة يستدل المؤلف بالآيات القرآنية ويذكر الشواهد الشعرية الكثيرة، فمثلاً يرى في بيان معنى الشوى أنّ المعنى الكثير الشائع في كلام العرب هو لحم الساق، فيقول: "واختلفوا في معناه. ولكن المعنى الكثير الوقوع في كلام العرب هو لحم الساق" ثم يذكر بعد ذلك شواهد شعرية كثيرة أذكر منها بيتين:

قال ابن حزابة الحماسي:

مشمرّ للمنايا عن شواه إذا ما الوغد أسبل ثوبيه على القدم

قال امرؤ القيس:

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حجاب مشرفات على الفال .٠٠"

هذه هي أهم المزايا لكتاب "مفردات القرآن" للعلامة الفراهي.

نموذج من الكتاب: ونذكر فيما يلي نموذجاً من كلمة "الآلاء" التي شرحها العلامة الفراهي:

وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم 34 مرة: مرتين في سورة الأعراف ومرة

واحدة في سورة النجم (55) والمواضع الباقية في سورة الرحمن. وأجمع أهل اللغة وعامة المفسرين على أنّ معناها: النعم، ولكن العلامة الفراهي رحمه الله تعالى يقول إنّ القرآن وكلام العرب كليهما يبيان هذا المعنى. والظاهر عنده أنّ معناه: الأفعال العجيبة. يقول: "ولما كان غالب فعال الله تعالى الرحمة ظنوا أنّ الآلاء هي النعم، والرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما على هذا، ولكن السلف إذا سئلوا أجابوا حسب السؤال والمراد المخصوص في موضع مسؤول عنه" وقال في موضع آخر: "ولما كانت الرحمة من أغلب شؤون الربّ عزّ وجلّ غلب استعمال هذا اللفظ في معنى النعم، ولكن العربي القح هو الأول، وبه نزل القرآن".

وقد استدل المؤلف على ما ذهب إليه بالقرآن الكريم وكلام العرب. أما القرآن فقد جاء قوله تعالى في سورة النجم: "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذُرِ الْأُولَى" بعد ذكر إهلاك الأقاليم، وفي سورة الرحمن جاءت الآية "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" في خلال وصف يوم القيامة وعذاب جهنم في الآيات (33-45) آخرها قوله تعالى: "هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" وقد أشكل هذا الموضع على المفسرين فتعسفوا في تأويله بأن ذكر جهنم والإنذار من العذاب من النعم لكونه زاجراً عن الشرك والمعاصي.

وقد فطن بعض المفسرين قديماً بأنّ هذه الكلمة ليست في الأصل بمعنى النعمة، فروى الطبري عن ابن زيد أنه قال: "الآلاء: القدرة" وكذلك العلامة الرازي ذكر قولاً من الأقوال يصرح بمعنى عجائب الله دون النعم.

أما كلام العرب فاستدل المؤلف بثمانية شواهد منها قول فضالة بن زيد العدواني وهو من المعمرين:

وفي الفقر ذل للرقاب وقلما رأيت فقيراً غير نكس مذمم

يلازم وإن كان الصواب بكفه ويحمد آلاء البخيل المدرهم ويقول المؤلف: "أي يحمدون صفات البخيل وفعاله. وهذا البيت أوضح دلالة مما ذكرنا قبله على معنى الآلاء".

هذا التحقيق والتفسير الدقيق لكلمة "الآلاء" دقيق ونادر.

وخلاصة القول أنّ العلامة عبد الحميد الفراهي من أفذاذ العلماء المتأخرين كان متبحراً في العلوم الشرعية وبعض العلوم الغربية وماهراً في اللغات العربية والفارسية والإنجليزية والعبرية. وشغل حياته كلها بالبحث والدراسة خاصة في مجال علم القرآن والتفسير فأنتج مؤلفات قيّمة كثيرة من أهمها تفسيره للقرآن الكريم وكتابه "مفردات القرآن" الذي هو مفتاح تفسيره.

ويمتاز كتابه هذا بين كتب تفسير ألفاظ القرآن الأخرى بالمنهج الفريد القائم على الاعتماد أولاً على القرآن ثم الرجوع إلى كلام العرب القديم، وبالتفسيرات الجديدة لبعض الألفاظ، والكشف عن أصول جديدة والشواهد الشعرية. فكتابه هذا ليس زيادة على المؤلفات في مجال التفسير بل هو كتاب فريد يتناول جوانب جديدة وفوائد نفيسة.

المصادر والمراجع

1. البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الحلبي 1376هـ
2. الفهرست لابن النديم، تحقيق: رضا تجدد. مكتبة الأسد، طهران، 1971م.
3. اللغات في القرآن لابن عباس، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت. د.ت.
4. مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الطبعة الثالثة، 2012م.
5. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، تحقيق: عبد الكريم الغرابوي. طبعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1406هـ.

الإمام الفراهي وكتابه "حجج القرآن"

- د. محمود عادل محمود¹

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد حالت أسباب كثيرة- ظاهرة وباطنة- دون أن نستوعب النتاج الفكري الذي ألفه علماء هذه الأمة- قديماً وحديثاً- استيعاباً يليق بجهودهم، ومكانتهم الرائدة في الفنون والمعارف المختلفة، سواء أكان هذا الاستيعاب بالتحقيق، أم بالتعليق والشرح، أم بالتهذيب والاختصار، أم ما شابه ذلك واقترب منه من معايير الصناعة؛ إذ لا يزال الكثير من هذا النتاج في حكم المسكوت عنه، وفي صورة المغيّب المهجور، وهو مع ذلك في حاجة مُلِيّة إلى هضمه واستيعابه، ثم تقديمه وتقريبه في ثوب جديد يمكن بعدها أن يكون مادةً للتأليف المتبادل مع الثقافات الأخرى والحضارات المشتركة، وليس ذلك مع سموّ مطلبه- بميسور؛ لأنّ تأليف السابقين والمعاصرين على دربين؛ درب له عناية بتغليب تجويد الألفاظ والتراكيب ودرب تسبق العناية فيه إلى تأليف المعاني والأفكار.

والمصدر لتقريب النصوص التراثية ومعالجتها لا يعاني من تحرير الألفاظ والتراكيب وتقريبها مثل المعاناة الكبرى التي يعانيها في النباش عن دقائق المناسبة التي أضمرها المؤلّف بين الأفكار والمعاني، ووجوه التوفيق بينهما، وهو ما لا يعرف منازل ومقاماته إلا المؤلّف وحده؛ لأنّ النصوص بناء سياقاتها، وهو ما يجعل التعليق على النص، أو إجلاء بعض غوامضه، أو شرح طرفٍ من فقراته، محاولةً لاستحضار السياق المحيط بالنص في الماضي، والعمل على إعادة تركيبه وتبيئته وصبغه بملونات الحاضر.

¹ الدكتور محمود عادل محمود مدرّب معتمد لدى الأكاديمية المصرية الدولية للتدريب والتنمية والاستشارات له مؤلفات جلية أبرزها "أمراء البيان" و"قلب القرائن" و"منازل البلاغة".

ولأجل ذلك، فإن محاولة الاقتراب من عقل المؤلف محاولة شديدة الإرهاق، تحول دونها عوامل ذاتية وتاريخية وبيئية وثقافية واجتماعية، وسياسية، تجعل الأمر على قدر بالغ من الصعوبة والغموض، وهو ما يصنع تفاوتاً كبيراً واختلافاً معرفياً ممتداً بين المتصدرين للبحث والتأليف في تحديد سلم الأوليات والميل إليه أهو في بذل الطاقة لتحقيق التراث المجهول، أم بذلها في التأليف الحديث؟

وقد طافت بعض أفراد هذا الخلاف المعرفي بالقاضي أبي بكر بن العربي (ت 543هـ)، فقال في استفتاحه لكتابه عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي: "وما كُنْتُ لِأَتَعَرَّضَ لِلتَّصْنِيفِ، وَلَا أَرْتَقِي إِلَى هَذَا الْمَحَلِّ الْمُنِيفِ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُهُ قَدْ خَلَقَتْ سَاحَتَهُ، وَحَيَّتْ دِيَابَجَتَهُ، تَتَعَاوَرُ الْأَغْفَالُ عَلَيْهِ، وَتَعَاوَنَ الْجَهَّالُ فِيهِ. وَلَا يَنْبَغِي لِحَصِيفٍ يَتَصَدَّى إِلَى تَصْنِيفٍ، أَنْ يَعدَلَ عَن غَرَضِينَ؛ إِمَّا يَخْتَرَعُ مَعْنَى، أَوْ يَبْتَدِعُ وَصْفًا وَمَتْنًا، وَمَا سِوَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، فَهُوَ تَسْوِيدُ الْوَرَقِ، وَالتَّحْلِي بِحَلِيَةِ السَّرْقِ".¹

وبغض النظر عن القول الصحيح في هذه المسألة الدقيقة، إلا أننا شئنا أم أبينا أمام كتاب له خصوصية علمية كبيرة؛ وذلك لأسباب:

الأول: أنه ينتسب إلى حضارة واسعة المدى في الإبداع والتفكير والتصنيف في شتى مجالات الفنون والمعارف، ومن جهل حضارة الهند وعظيم مكانتها، فقد جهل طرفاً كبيراً من العلم لا يستهان به.

الثاني: أنه من التراث المسكوت عنه والمزهود فيه، وناهيك بهذا السبب ما فيه من عظيم الإغراء، بالوقوف على مضامينه ودلالاته ومنازله بين نظائره من المؤلفات والتصانيف في بابه.

الثالث: أن النص لرجل من رجالات العلم الذين عزَّ أن تجد لهم نظيراً بشهادة أهل

¹ عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي، 4/1، والمسالك شرح موطأ مالك، 213/2

لسانه وغيرهم من العرب في سعة معارفه، وقوة مداركه، وإحاطة رؤيته، وتنوع روافده، وتمكن قريحته، وسمو ذائقته، وطرافة أساليبه، ودقائق فرائده في الفنون التي امتدّ عقله وبيانه إليها رصداً وتحليلاً وتحريراً وتأصيلاً، فاستوفى في كل فن الكلم، ونصب على كل مشكل العلم، وتبصر معاطف خفاياه، واستظهر لواطفه وخباياه، إنه الإمام عبد الحميد الفراهي، أحد أعلام الهند وأبرز نبلائها البارعين في الكشف عن الغوامض، والغوص على الحقائق، والإشارة إلى الفرائد والدقائق، بفكر صائب، وروية ثابتة، فأبدع كأشد ما يكون الإبداع؛ تألقاً وجمالاً في صياغة إرثنا الثقافي صياغة دانية القطف، مُتَسَنِّية التحصيل للمبتدئ والمنتهي على سواء، وهذا هو المنهج الأمثل الذي يوّأ الثقافة الإسلامية وتراثها مَبوّأ صدق بين مختلف الثقافات العالمية، وحفظ لها سميتها ووقارها العلمي، الذي لا يتقادم عهده فَيُسَام، ولا يُنسخ أثره فيُعدم.

وفي هذا المقام أستنسخ مقالة السابقين، وأستدعي رجاءهم المخفوف بقوة الأمل مع ضعف المهمة، وجريان الضعف، وقصر العمر، فأقول: قد كانت همّي طَمَحَتْ إلى استيفاء كلام الإمام الفراهي بالبيان، والإحصاء لجميع علومه بالشرح والبرهان، إلا أنني رأيت القواطع أعظم منها، والهمم أقصر عنها، وانخطوب أقرب إليها، فتوقفتُ مدّةً، إلى أن تبسّرت هذه الطلبة مع بعض كتبه وأوافها بالفوائد وأثراها بالفرائد فاغتمتها، وانبعث عزمي، وانعقد على شَطْطِي ما اشتملت عليه معلقاتي في تقييد الشرح، وتسويد الطرح.

وليس يخفى أنّ الاحتكاك بنتاج أفكار الحكماء، وآثار عقول العلماء أمرٌ من الصعوبة بمكان، سيما والعالم يتكلم بلسان عصره الذي تشابك فيه الأحداث السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية والاجتماعية، وتمتزج بثقافات صنعته الواسعة؛ لتنسج من وراء ذلك كله عقلاً مُشرباً بهذه الملاحم، التي تؤثر أيما تأثير- في طريقة تفكيره، وطريقة بيانه، وطريقة تحليله، وسبيل منهجه.. نعم، إنها تؤثر في الأسباب والغايات كلها.

وبيان وجه الصعوبة يكمن في معالجة اللاحق للسابق من أئمة الفن وأرباب الصناعة المعرفية؛ إذ إنّ تذييل البيان الذي ظهر في أسيقة تاريخية وفكرية واجتماعية خاصة، واتصل بروافد دينية وأخلاقية وثقافية محددة، ثم تيسيره للعصور المتأخرة والحقب المتعاقبة، وتسخيره للعقول التابعة- أمرٌ مرٌّ شديدة مرارته، يُشكل صعوبة ذاتية وامتدادية. أما الصعوبة الذاتية، ففي تفكيك البيان، وتحليل مفرداته، وتعقب دلالاته؛ ليكون الشرح والتعليق والإيضاح على درجة من التناسب والتقارب الفكري بين عصرين مختلفين أشد الاختلاف.

وأما الصعوبة المتعدية- وهي المرحلة الأخطر والأدقّ بعد سابقتها- ففي محاولة نقل النص من عصر إلى عصر، على أساس تقريب الفائدة، وتذليل المعرفة، وتحقيق الإفادة. وإنّ محاولة تقريب فهم النص ليست تخصّ معالجه ومحققه والمحرر لألفاظه وتراكيبه فحسب، وإنما لعموم أهل زمانه كلهم؛ كي تصير المعرفة ذات رباط من المصاهرة بين العصور، ويصير العلم ذا نسب ورحم بين أهله؛ حتى يظلّ الوثاق بين الأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث أمر شاهد على نشاط المعرفة، وديمومة حركة العقل، التي تأبى أن تفتى بفناء العصور، وتتقضي بانقضاء الأزمان، بل تبقى حيةً باقية في العقول والقلوب، وناطقة جارية على لسان المتأخر كما المتقدم.

تقديم الكتاب

لستُ أخفيكم سرّاً أنّ ثمة عراقاً فكرياً مستطاباً قد جرى بيني وبين الإمام الفراهي بمخاصمة، وبينني وبين كلِّ من تناولتُ إرثهم العلمي والأدبي أو الشرعي بعامة، هذا العراق وتلك الملحمة- غير المتكافئة بالطبع- ظهرت في مغالبة بعضنا البعض، فبينما أنا أحاول بكل جهدي أن أميل بنصه المعرفي إلى عصري، يأبى هو أن يرضى بذلك، فيجذبني جذباً شديداً مرّاً إلى زمانه وعصره؛ حيث مواقع الكلام في بيئة تسم بالنضوج المعرفي الواسع، والثراء الفكري الشامل. ولا أريد منك أن تسمح لخاطرك

أن يوهمك بالندية في هذه المنازلة الفكرية، فشتان بين الثرى والثرياء، وإنما أريد منك أن تعلم أنها محاولة مشفوعة بشغف وطمع، مع حضور العلم بأن سعة المطمع إذا صحبها اقتدار فإنه يطبعها على العدوان، وهذا حق لا مرأى فيه. فإذا ما رأيت عدواناً مني وتعدياً في عدم الوفاء بحق النص وحق صاحبه، فاعلم أن الغلبة قد جرت له وهي كثيرة متعاقبة، وإذا رأيتك سمحاً بتلقي الكتاب، وفهم إيضاحاتي وإنباهاتي وتعليقاتي عليه، فاعلم أنها إحدى محاولاتي المحفوفة بطلب التوفيق من الله، والشاهدة بالبراءة من الحول والقوة. فإذا علمت ذلك، حملك العلم به أن تلتمس لأخيك العذر، إذا رأيت مغلوباً في كثير من المواطن؛ فإن رجلاً بقدر الفراهي يحتاج إلى كتيبة علمية لتفكيك مفرداته، وتحليل بيانه، والتوفيق بين أفكاره ومعانيه، كيف لا؟ وهو إمام في العربية، وأستاذ في البيان، وصاحب قلم فلسفي علمي أدبي، يضرب في كل فن بأسهم بيانه، ويصوب في كل علم بنبل تبيانه.

وإذا كان من مفردات البرّ بعموم الناس، إرشادهم وتعليمهم ونصحهم، فإن البرّ بعلماء الأمة لون زكي من ألوان البرّ، واجب التقدير والصيانة والحفظ. وما تعظيم جهودهم وإحياء آثارهم إلا طريق من الطرق الموصلة إلى مرضاة الرب، إذا اجتمع معها الإخلاص وصحة القصد.

يُضاف إلى ذلك لون آخر من ألوان البرّ بالسادة العلماء، وهو أن كلامهم قد يبدو على الذرورة من الجمال والوضوح والجلال، فكل كلمة فيه تمتزج دلالتها بدلالة صاحبها، وتستلهم عمق تأويلها من مجموع الكلمات والتراكيب السابقة واللاحقة التي تؤدي- بدورها مجموعة- المعاني السامية الواضحة، وفي مثل هذا المقام، ليس لمعالج النص- شرحاً وتعليقاً وتحقيقاً- أن يُفسد هذا الجمال والجلال بغمامة بلادته، وأن يُطفئ بعُشمه ظلال معانيه، وإنما البرّ- كُـلُّ البرّ- في إبقاء نوره المشع، وثبيت ظلاله الوافرة، وهو ما احترزت من مخالفته كثيراً، وانتبهت إليه في هذا الكتاب ذي البيان العالي، فبعض كلماته وفقراته وتأصيلاته

ومسائله جمالٌ دلالتها في صورتها التي هي عليه، فلا تحتاج إلى شرح أو تعليق؛ بل لربما إذا تدخّلتُ - بفضول مني - إلى شرحها وبيانها أسأتُ إساءةً كبيرةً، ووقعتُ فيما أحذر منه من العقوق.

وحتى تكون مقدمتي لكّتاب "حجج القرآن" مهاداً ومدخلاً إلى تقرّيبه وفهمه، سأتناول المحاور الآتية:

(1) حضارة الهند: أثرها وتأثيرها.

(2) ترجمة الإمام الفراهي.

(3) قراءة لمفاصل كّتاب حجج القرآن ومعاقده.

ونبدأ بالمحور الأول:

حضارة الهند أثرها وتأثيرها

لسائلٍ أن يسأل، لماذا الهند؟، ولماذا العناية بترائها؟

والجواب: لسببين: أما السبب الأول: فلأمر خارج عن الهند، وإن كان يتعلق - أشدّ التعلّق - بها وبغيرها، وهو ما يحسن بنا معرفته من أن نعلم أنّ ككّلة المسلمين واحدة مهما فرّقت بينهم الحدود والأطر الجغرافية، وهذه الككّلة المنحوتة في صورة الجسد الواحد قد رسمها الإسلام قبل ما يربو على أربعة عشر قرناً، إلا أنّ عوادي الأيام وقواصم الثوابت محتّ ظلها وظلالها، فقد أخبرنا النبي، فقال: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى".¹ فهل ترى بعد قول الرسول أثراً من بقايا هذا الجسد؟ لقد صرنا إلى زمان تمزق فيه هذا الجسد، وتناثرت

¹ أخرجه مسلمٌ من حديث النعمان بن بشير، كّتاب البرّ والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدِهِمْ، حديث رقم (2586).

أشلائوه بعدما اجتمعت عوامل كثيرة على تمزيقه شرّ ممزق، فتهدم البناء الذي لا بناء يضاهيه في القوة والصلابة والشدة والتلاحم كما قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضُه بعضًا"¹. وإذا أردت أن ترى هذا البنيان كيف كان وإلى أي شيء صار فتأمل في جرأة اليهود، وتكالب أحلافهم من أهل الشرّ وأعاونهم من بني جلدتنا، ومدى اجتماع كلمتهم على إبادة هذا الجسد وكسر شوكته ساعتها ستري رأي العين حديث الرسول يتجلى لك، وهو يخبر عن صورة هذه الجرأة الخبيثة، وهذا الفتك الممنهج، وذلك التداعي الوحشي من الأكلة على قصعتها، وذلك فيقوله: "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقالَ قائلٌ: وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كثيرٌ، وَلَكِنْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنَ. قالَ قائلٌ: يا رَسولَ اللهِ، وما الوَهْنُ؟ قالَ: حُبُّ الدُّنيا وَكراهية الموت"².

ونحن بين أيديهم ضعفاء مقهورون- رغم كثرتنا ووفور أعدادنا- إلا أنه الخزي المضروب على من قدّم الدنيا على الدين، وشغلته الفانية عن الباقية، فصار عبداً لشهواته، وعبداً لمن يبذلها له ويغريه بها، ولو كان من أكابر المجرمين وعتاة المفسدين في الأرض، فيبيع دنياه بآخرته، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وسبيل النجاة أن نزيل كلّ العوائق والموانع الصادّة عن بناء هذا الجسد، واكتمال بنيانه، ومن ذلك مدافعة فكرة الاعتصاب بلحمة النسب، تلك اللحمة التي كانت على درجات متفاوتة حتى امتدّت إلى الأجناس الكثيرة، فتوزّعت على إثرها أمماً

¹ أخرجه مسلم من حديث أبي موسى، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (2586).

² أخرجه أحمد (278/5)، وأبو داود (4297)، وأبو نعيم في "الحلية" (182/1)، من حديث ثوبان، وصححه إسناده الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، حديث رقم (3257).

كالهندي والإنكليزي والروسي والتركاني، ونحو ذلك؛ ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منفعه، وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر، فأصبحنا أشلاء بهذا القانون الجائر، بعد أن كنا جسداً واحداً. ثم وقع التجاوز والتعدي، فلم يتوقف الأمر عند مجرد رفض الآخر علماً بأن ذلك الآخر مسلم ناطق بالتوحيد، وإنما في تشريع القوانين التي تحد من بسط نفوذ المسلم على المسلم، وتحد من فكرة اتصاله وتواصله بغيره، حتى أصبح الوصال تعدياً وعدواناً، والبر خرقاً للسيادة، ولست أدري أية سيادة هذه التي تمنع اكتمال بنيان الجسد في صورته التي تركه الإسلام عليها!

وإنّ المسلم الحق ينفر ويعرض أشدّ الإعراض عن اعتبار الجنسيات. كما يرفض أي نوع من أنواع العصبية ماعدا عصبية إلى دين الإسلام العظيم. فإنّ المتدين بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده، يلهو عن جنسه وشعبه، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة، وهي علاقة المعتقد؛ لأنّ الدين الإسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق. وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى؛ بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد، وبيان الحقوق كليها وجزئها.

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين؛ لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يدعن لرئاسة الروسي، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض، وإنّ المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها، وانتقالها من قبيل إلى قبيل، ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة، ذاهباً مذاهبها، قائماً

بحقها. نعم، إذا نبا في سيره عنها، وجار في حكمه عما نصت عليه، وطلب الأثرة بما ليس له من حقه؛ انصدعت منه القلوب، وتخلت عن محبته الأنفس. وأصبح وإن كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم، وليس من سبيل أمام ذلك إلا الصبر والعمل الجاد، بالإنبابة والرجوع إلى الله وتعليم الناس الخير، وتغيير الطباع والنفوس من عوائدها وأعرافها التي تضاد الشريعة، وتسلب عليها بذنوبها شرّ الناس وشرارهم.

وأما السبب الثاني في الإجابة عن سؤال: لماذا الهند؟، فلأمر يعود إلى الهند ذاتها، وإلى خصوصيتها الفريدة؛ إذ لا تزال الهند- رغم عراقية انتسابها للإسلام، وعميق مساهمتها في فكره- مجهولاً معرفياً كبيراً للعرب، لا يتابعون إنتاجه العلمي في المعارف الإسلامية، ولا يهتمون بمفكره وعلمائه، وربما انصرف الاهتمام العربي إلى متابعة السينما الهندية، أكثر من متابعتهم لمعالم التجديد الفكري هناك.

وأشدّ ما يؤلم في هذا الباب أن يكون غير العرب أعرف بقدر حضارتها، وأقرب منا إلى دراسة تاريخها، ونحن أحقّ بذلك من غيرنا؛ لأنها شريك فكري ضخم، تدّاخل عبر محطات متنوعة في تاريخ الأمة مع الثقافات المؤثرة ذات النزعة الدينية الشائخة، وكان لها دورٌ فعّالٌ في ابتعاث جزء من تراث زكي أكلته عوادي الأيام، ودور نبيل في الاحتفاظ ببعضه- أي التراث- في الدوائر العلمية المختلفة، ومن أنكر ذلك، فقد أنكر معلوماً من الحق بالضرورة.

ومن ثمّ، فإنّ الهند شريك مؤثر في الفكر الإسلامي، طرح علماءها رؤى أثرت في المسيرة الإسلامية في القرون الأخيرة، ولا تزال.

وتاريخياً، لم تزل الهند أحد الجامعات الكبيرة لالتقاء مختلف الروافد الثقافية، ومعماً للتمازج العنصري، وتعايش اللغات واللهجات، وتهجين الرؤى والأفكار؛ فهي موطن فريد للتفاعل البشري في عديد من مجالات الحياة الاجتماعية، ناهيك عن التداخل

الثقافي الذي صنع من الهند بلدًا ضخمًا، لا يشبه أيّ بلاد أخرى؛ بل يشبه- إلى حد كبير- قارات أوروبا وأفريقيا وأمريكا؛ من حيث منزلتها وتنوعاتها الأنثروبولوجية والسوسولوجية والثقافية. وناهيك أيضًا عن ذخائر التراث، ودفائن المخطوطات العربية المودعة في أبرز متاحفها مثل متحف سالار جنغ على سبيل المثال؛ ففيه من نفائس الكتب ونوادير المخطوطات ما هو في حكم المجهول لدى العامة وكثير من الخاصة. كيف لا؟، والمتحف يحتفظ بجملة من المخطوطات العربية التي لا توجد نسخة منها في المكتبات الأخرى، ولا يختلف اثنان في أنّ طبع ونشر مثل هذه المخطوطات يدلّ على النشاط العلمي والأدبي في الهند، وما سايرها من التطورات الثقافية في مختلف مراحل التاريخ.

وقد وقف المشتغلون بالبحث في هذا الشأن على قدر من المخطوطات العربية النفيسة في مكتبة متحف سالار جنغ، يربو عددها على ثلاثة آلاف مخطوطة، أربعمئة منها مخطوطات نادرة ذات قيمة علمية عالية، وأقدم مخطوطة هي تهافت الفلاسفة، للإمام الغزالي رحمه الله مكتوبة بالنسخ الابتدائي، ويرجع تاريخها إلى عام 1113م، وتم استنساخها بعد وفاة المؤلف بعامين.

وإذا قمنا باستعراض هذه المخطوطات على الوجه المفصل ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، إلا أنّ الإشارة كافية في هذا المقام، فمن ذلك:

- (77) مخطوطة في علم المنطق- (171) مخطوطة في علم الكلام والعقائد- (16) مخطوطة في تجويد القرآن الكريم- (85) مخطوطة في تفسير القرآن الكريم- (226) مخطوطة في الحديث وأصوله- (159) مخطوطة في الفقه الإسلامي وأصوله- (61) مخطوطة في التصوف- (16) مخطوطة في فقه اللغة- (145) مخطوطة في الصرف والنحو- (60) مخطوطة في البلاغة والعروض- (24) مخطوطة في الرياضيات- (190) مخطوطة في علم الطب، إلى غير ذلك من

المخطوطات الكثيرة، التي تختص بالعديد من العلوم والفنون المختلفة.¹

وهكذا، فإنّ امتداد الهند الواسع الأطراف قد غطّى التكوينات الاجتماعية، والعلاقات الاقتصادية، والأنماط الحضارية، وهياكل المثل والقيم الخاصة والمختلفة باختلاف المناطق؛ الأمر الذي يعطي انطباعاً لنظام قوي نابض بالحياة خاص بالوحدة في التنوع، وإنّ بعدها القاري وبقاءها واستمرارها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المدون- وربما (2000) سنة من قبل التاريخ مضافاً إلى ذلك عمق التعقيد الاجتماعي والتنوعات الحضارية- يجعل من الهند أقدم المجتمعات التعددية للعالم وأوسعها، وأكثرها تماسكاً، مما يندر له مثال في التاريخ البشري.

أما فيما يتعلق بالموقع الطبيعي لأرضها، فهي شبه قارة ممتدة الأطراف، تحدّها حدودها الطبيعية سلسلة جبال الهمالايا، التي تفصلها من البر الرئيس الآسيوي، وتجعلها تطلّ على البحر على شكل شبه جزيرة رائعة الشكل؛ مما وهبها تجانساً أرضياً واضحاً، لتنشأ فيها حضارة لها ميزتها الخاصة.

إنّ الهند- ويُقال لها "هندستان"- واقعة في الجنوب من شرقي آسيا بين الدرجة السابعة، والسابعة والثلاثين من العرض الشمالي، وكانت تسمى باللغة السنسكريتية القديمة "سند هو"، وكان يُطلق هذا الاسم أولاً على السند، وهي البقاع التي يرويها نهر الإندوس، لكن الفرس أطلقوا لفظ "الهند" على كل البلاد الواقعة جنوبي بلاد التتر بين الفرس والصين، وهي تشمل هندستان وبورما وسيام وكوشين الصين، أما الهند التي نحن في صددنا فهي "هندستان".

وإذا نظرت إلى خارطة الهند، رأيتها عبارة عن أربعة أضلاع غير متساوية الطول، يتألف من التقائها شكل ذو أربع زوايا غير متساوية. فالأضلاع اثنان منها في

¹ للزيد: يمكن مراجعة مقالة "نوادير المخطوطات العربية في مكتبة متحف سالار جنغ"، بقلم سيدة أصفياء كوثر، مجلة ثقافة الهند عدد مارس لسنة 1999م؛ فإنها مقالة كافية شافية في هذا المقام الدقيق المسكوت عنه.

الشمال؛ أحدهما: شمالي شرقي، وهو سلسلة جبال همالايا الفاصلة بين الهند وتبت، والثاني: شمالي غربي، وهو عبارة عن ضفاف نهر الهند أو السند الفاصل بينها وبين أفغانستان وبلوخستان. والاثان الآخران في الجنوب؛ أحدهما جنوبي شرقي، والآخر جنوبي غربي، ويحدّهما الأوقيانوس الهندي.

وأما الزوايا؛ فأحدها شمالية تنتهي بتركستان، والثانية جنوبية في الأوقيانوس الهندي بقرب جزيرة سيلان والثالثة شرقية مستطيلة داخلية بين بورما وتبت، والرابعة غربية تمسّ بلوخستان في جنوبها.

ومع فجر التاريخ، تتجلى لنا صورة القبائل البدائية للمجموعات العرقية في هجرتها التي كانت تتخدر من أصقاع وسط وجنوب وشمال شرقي آسيا، والتي توجهت في شكل موجات إلى سهول الهند غانجية المخصبة، ومن ثم نحو شطر الجنوب إلى أنجاد دكن التي كان المنحسر عنها الماء، وكان يسكنها أقدم سكّان الأرض؛ الأمر الذي وفّر النمط الأول للتمازج بين الأعراق المختلفة على هذه الأرض الرائعة السخية، التي قدر لها أن تكون إحدى البوتقات الضخمة للأعراق والحضارات في التاريخ البشري.

وإنّ الجذور التاريخية لبلورة الحضارة المركبة في الهند ترجع إلى الفترة ما بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر الميلادي، عندما شهدت السهول الهندية الغانجية عملية مستمرة للتمازج والاختلاط بين التراثات، نبعت في ثلاثة أحزمة حضارية محدّدة جغرافياً- أعني الحضارة العربية والإيرانية والهندية- وكانت تمثل ثلاثة منابع رئيسة للنظم الدينية؛ الإسلام، والزرادشتية، والهندوسية.

ومن الناحية الفلسفية، فإنّ الحضارة المركبة تعني أنّ نوعاً خاصاً من الحضارة يقوم على رفض سيادة حضارة واحدة، وإعادة تأكيدها على التعددية، وأنّ الجهد التوفيقى سيكون قاعدة سليمة وقوية، ومرغوباً فيها للتطور الحضاري في مجتمع مختلط، ونظام سياسي تعدّدي عن طريق عمليات تفاعل إضافية بين رافدين فأكثر؛

اعتقاداً بأنّ مثل هذا التكافل الثقافي يتصف بحبوية أكثر، وذلك نظراً إلى تميزه بمقبولية أوسع، بالمقارنة مع حضارة واحدة، سواء أكانت حضارة الفئة الغالبة أم الفئة العرقية المغلوب عليها في منطقة مثل الهند، التي هي عالم قاري مصغر.¹

وإذا كان للمشتغلين بتاريخ الهند وحضارتها المركبة، الإشادة بروادها القدامى ممن شكّلوا نماذج أصلية للمبتكرين الفكريين بمحض عبقريتهم وبصيرتهم الثقافية من أمثال: (أمير خسرو والسانت كبير، والجورونانك، وراجا رام موهان رايني، ودارا شكوه؛ إلخ)، وما كان بعد ذلك من تأثير واضح للهند في الثقافة العربية وآدابها على وجه العموم، وفي الأدب العربي وفنونه المختلفة على وجه الخصوص في العصر الإسلامي وما بعده، فقد التقت الثقافات العالمية اليونانية والهندية والفارسية مع الثقافة العربية

¹ ليس لمشتغل بتاريخ الهند ومفتون ببيان أثر حضارتها، أن يغفل كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" لصاحبه الرحالة أبي ريجان محمد بن أحمد البيروني، وهو من كبار العلماء في القرن الرابع والخامس الهجري؛ حيث أخذ يتلقى العلوم والمعارف المتدولة في عصره بصورة جيدة، وكان مما ساعده على اتساع دائرة معلوماته، رحلاته الكثيرة، واشتياقه المتدفق لاكتساب العلوم، الذي بدأ معه منذ حداثة سنه. فكان منذ البداية يهتم بمسائل لم تكن معهودة ومعروفة بين المتعلمين في القرون الوسطى الإسلامية. لأجل ذلك يعدّ كتابه مرجعاً أساسياً كاملاً للحضارة الهندية، فلم يترك شيئاً فيه إلا وكتبه. ولا بأس كذلك أن يفيد المشتغل من مقالات المستشرقة آنا ماري شيميل Annemarie Schimmel، وذلك لعنايتها الكبيرة بالتاريخ الإسلامي في الهند؛ إذ تعدّ المستشرقة الألمانية واحدة من أهم الباحثات في مجال الاستشراق والبحث عن قضايا التاريخ الإسلامي في الهند، وقد امتدت نشاطاتها العلمية في المشرق الإسلامي وشبه القارة الهندية طولاً وعرضاً، وقضت الشطر الكبير من حياتها في شبه القارة الهندية. وكانت حياتها حافلة بالإنجازات العلمية والفكرية والأدبية، وهي تعدّ نموذجاً للذين أحبوا بصدق الحضارة الإسلامية، ووقفوا على الإسهامات العظيمة التي قدّمتها للإنسانية، وقدموا من خلال دراساتهم وأبحاثهم خدمات رائعة للإسلام والمسلمين؛ فهي شخصية نادرة، كرّست حياتها في دأب وحب لإزالة الشكوك لدى الغربيين حول الإسلام والدين الخنيف وقضت حياتها كلها بلا مبالغة لدراسة الإسلام وتراثه الفكري، وهي صاحبة مشروع ضخم، وتجربة فريدة في مجال الاستشراق والتاريخ الإسلامي والتصوف الإسلامي، وهي من المستشرقين الأوربيين القلائل في القرن العشرين الذين أرسوا قواعد صحيحة في الدراسات؛ فقد وهبت الرؤية الاستشراقية حقها، ونطقت بحقيقتها بلا أدنى مغالطات أو تشويه. وبعيدا عن استيلاء الغرب على الحضارات الأخرى، كما هو سائد لدى العديد من المشتغلين في حقل الاستشراق استطاعت هذه المستشرقة أن تكون نموذجاً راقياً، وأن تؤلّف- عبر إبحارها المعرفي- ما يفوق الثمانين كتاباً ومجلداً بلغات مختلفة، إلا إنّ ذلك لا يصلح أن يكون حكماً عاماً يتناول بمفرده جميع المستشرقين؛ فإنّ في دراساتهم وتحقيقاتهم ورؤاهم من السموم والهاوادم والنواقض والمغالطات ما لا يغتفر. فانتبه!

في بلاط الخلفاء العباسيين عن طريق الترجمة، وتُرجمت كتب عديدة من الهندية إلى العربية، مثل: "كليلة ودمنة"، و"السندباد الكبير"، و"السندباد الصغير"، و"الديك الهندي في الرجل والمرأة"، وساعدت الكتب الهندية في حركة الأدب في العصر العباسي، ونالت عجائب الهند موضوعات مهمة في الأدب العربي، سيما في كتاب الجاحظ "الحيوان"، الذي وصف فيه أشهر الحيوانات في بلاد الهند والطيور أيضاً، ومن ذلك: الفيل والطاووس والبيغاء، والدجاج، والديك الهندي، كما ذكر فضل الهند في الحساب. وكذلك ما أشار إليه ابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار" إلى الهند وما فيها، والمسعودي في "مروج الذهب"، ومنه كذلك إشارات الشعراء العرب إلى الهند، من خلال الشعر والأمثال السائدة والحكم الهندية، فتفاعلت الثقافتان العربية والهندية بشكل واضح ومؤثر، وتركت الثقافة الهندية آثارها في الثقافة العربية، وجعلتها باقية إلى يومنا هذا، وإلى ما يشاء الله لها أن تكون.

لقد وصلت اللغة العربية إلى شبه القارة الهندية في القرن السابع المسيحي، عن طريق الساحل الغربي للهند ونالت رواجاً في القرن الثامن المسيحي، وذلك بعد الفتح العربي، الذي تم على يد القائد الشاب محمد بن قاسم الثقفي، الذي أقام دولة عربية إسلامية، تسببت في انتشار اللغة العربية في شبه القارة الهندية بصفة عامة، وفي إقليم السند بصفة خاصة.

ولم يزل يظهر في شبه القارة الهندية من القرن الثامن المسيحي حتى القرن العشرين علماء وأدباء وشعراء نوابغ طار صيتهم في الآفاق، وأثنى عليهم العرب والعجم وراجت أسواقهم في مشارق الأرض ومغاربها، تفتخر بهم الهند، ويتجمل بهم تاريخ الشعر العربي، وكان للعلماء والشعراء على وجه الخصوص بينهم حظ أكبر ونصيب أوفى، يدلّ على ذلك الاستقصاء، ويشهد به الإحصاء، والفضل في ذلك أولاً يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، اللذين قاما بدور أساسي في نشر اللغة العربية، وثانياً إلى المدارس الإسلامية، ودور العلوم الدينية، والجامعات العصرية العربية التي كثر

عددها في القرنين التاسع عشر والعشرين من الميلاد، فقد نبغ في هذه الفترة كبار الأدباء والشعراء ممن كانت لهم مكانة عالية في صناعة الأدب والشعر العربي.

نذكر فيما يلي أعلام الشعراء الذين برزوا في تقرير الشعر العربي في القرن العشرين، وقاموا بخدمات ملحوظة في هذا المجال، ومن هؤلاء:

أحمد بن عبد القادر الكوكبي، والمولوي نذير أحمد الدهلوي، والعلامة شبلي النعماني، والشيخ عبد الأول بن كرامت علي الجونفوري، وحميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصاري الفراهي،¹ ووحيد الدين العالي الحيدرآبادي، والعلامة السيد سليمان الندوي،² والعلامة أبو محفوظ الكريم المعصومي؛ إلى غير هؤلاء الأماجد، وقد أشرت إليهم تنبيهاً على الحضور القوي للإمام الفراهي ضمن أعلام شعراء الهند في القرن العشرين.³

كذلك نالت الهند الاهتمام في كتب المؤرخين العرب، والرحلات العربية، والفكر العربي وآدابه وثقافته، ومن بين هؤلاء الرحالة: التاجر سليمان السيرافي، وأبو زيد السيرافي، وأبو دلف مسعر بن مهلهل، وبزرك بن شهریار، وأبو إسحاق الأصبخري، وشمس الدين أبو عبد الله المقدسي، وأبو ریحان البيروني.

وهكذا كان التبادل الحضاري والثقافي قائماً بين الهند والعرب في العصور السابقة،

¹ وحميد الدين الفراهي والعلامة شبلي النعماني أخوان من قبل النحال والعم؛ حيث كان الشيخ عبد الكريم والد حميد الدين خالاً للعلامة شبلي، وقد لعب الشيخ الفراهي والعلامة شبلي النعماني دوراً مهماً في تأسيس مدرسة الإصلاح وتطويرها وتقديمها، بتعاون من عشيرته على ترغيب الشيخ محمد شفيق رحمه الله، ووضع منهاجها التعليمي، وقام بإدارتها على أحسن وجه إلى مدة، كما أنّ الفراهي ساعد النعماني في تطوير دار المصنفين وتقديمها وازدهارها.

² رئيس جمعية دار المصنفين، وهو الذي تولى كتابة ترجمة الإمام عبد الحميد الفراهي بعد وفاته بشهرين في مقدمة تفسير نظام القرآن باختصار، وهي مثبتة بتفصيل في آخر كتاب "إمعان في أقسام القرآن".

³ انظر تراجم هؤلاء الشعراء على التفصيل: مقالة "أعلام شعراء الهند في القرن العشرين"، بقلم الدكتور محمد نصر الله الندوي.

فتبادلوا الحوار والشعر والترحال، وتناقلوا العلوم والآداب، مع الاهتمام بالحكمة والفلسفة والعلوم.

أعود فأقول: إذا كانت الإشادة بأعلام الهند القدامى حق مكفول، وشرف منقول لأهل زمانهم ومَنْ أتى بعدهم، فنحن حقنا- نحن المسلمين- أن نفخر وأن نشيد بالعلماء الذين كان لهم أكبر الأثر في تحقيق النمو العلمي الواضح في مجالات اللغة وعلوم الشريعة بخاصة؛ رغبة في ترقية الحضارة، والعمل على ديمومية التنوع الإبداعي في المجالات المعرفية المختلفة.

ومن أبرز هؤلاء الأماجد الأعلام- محلّ الفخر والتقدير- الإمام الفراهي، الذي انتسب إلى هذه الرقعة الحضارية النشطة أديباً وعلماً وفكرياً، وتشكّلت روافده في ضوء هذه الظلال المتعددة المشارب والجهات، فبرز وأطلّ من بقعة ومدينة هي من أكثر بقاع الهند ومدنها إنتاجاً للعلماء الأعلام، ألا وهي مدينة "أعظم كره"، من مديريات الإقليم الشمالي في الهند المسمى بـ(أترابديش)، ومن قرية "فريها" على وجه التحديد.

وعرفاناً بقدر هذه المدينة، وحقّها التاريخي الواجب علينا ألاّ نطويه بغفلتنا عن التعريف والترجمة، أو الإشارة والتنبيه نقول: إنّ مدينة أعظم كره قد طار صيتها في الآفاق؛ لأنها أنجبت شخصيات بارزة في كافة مجالات الحياة، ممن ساهموا في مجال الدراسات الإسلامية مع مساهماتهم الناضجة في حقول تطوير اللغة العربية وآدابها في الهند، ومن أمثلة هذه السلسلة العلمية:

- الشيخ محمد بن عاشق محيي الدين العباسي التشرابي كوتي (972هـ=1564م)، الذي ألّف كتاب "الكوكب الدرّي"، وكتاب "الحاشية على التلويح"، وكتاباً يُسمّى "الجواهر العربية في الفنون الأدبية".

- ومنها الشيخ صبغة الله الأعظمي (1125هـ=1713م)، الشاعر البارِع الذي

كان يكتب الأشعار على منوال الشعراء الكلاسيكيين.

- والشيخ غلام نقشبند الغوسوي (1126هـ=1614)، أستاذ الملائ نظام الدين اللكاوي، وهو صاحب مؤلفات في مجال الدراسات الإسلامية، مع علو كعبه في الشعر وعلم العروض، وشاهد ذلك لاميته التي سماها "اللامية العرشية"، وهي تضاهي لامية العرب ولامية الهند، ومن كتبه في علم العروض، كتاب "شرح القصيدة الخزرجية".

- يتبعه عالم لغوي كبير يُسمى الشيخ عبد القادر بن خير الدين عمادي (1202هـ=1782م)، المنتمي إلى سوغر بور، وهي قرية تقرب من مدينة جونפור. وكان بارعاً في اللغات الثلاث: الفارسية والإنجليزية والعربية، ومن كتبه المحأكمة بين العلوم المشرقية والمغربية، وكتاب "المعجم العربي الأوردي"، و"الرسالة المنظومة في النحو"، إضافةً إلى ديوانه الذي يضم بين دفتيه قصائد رائعة.

ومن أعجب العجب أن هذا الصيت الطائر لـ"أعظم كره" لم يكن لركن خاص من أركانها، وناحية من نواحيها؛ بل كانت أغلب قراءها دفاقةً بالعلماء النابهن، والشخصيات البارزة المؤثرة في تاريخ المجالات العلمية والأدبية، ومن تلك القرى المنتجة للعلماء: قرية "تشرياكوت"، وقرية "بندول"، وغيرهما.

أما قرية "تشرياكوت" فكانت قرية خصبة، أنجبت رجالاً مبرزين من فحول العلماء، نذكر منهم: الشيخ أحمد علي بن غلام حسين بن سعد الله (1272هـ=1855م)، الذي أغنى المكتبة اللغوية وآدابها بعدد من المؤلفات القيمة، مثل: "منبع الصرف"، و"ميزان الأوزان"، و"شرح الكافية".

كما برز نحوي وأديب متقن من القرية نفسها، وهو الشيخ نجم الدين بن الشيخ أحمد علي بن الشيخ غلام حسين (1290هـ=1873م)، وهو يعدُّ أبرز علماء اللغة العربية وآدابها في المدينة، وقد أدى حقَّ اللقب من خلال كتاباته ومؤلفاتهم البارعة في

قواعد اللغة العربية وعلم العروض، كتاب "إعراب أربعة"، وكذلك "رسالة في العروض والقافية".

كذلك نجد شخصية بارزة نالت الذكر الحسن في القرية، وله مساهمات في الدراسات الإسلامية والعربية، وهو القاضي علي عباس التشرية كوتي (1302هـ=1884م)، ومن مؤلفاته: "خلاصة الصرف"، و"أبحاث الصرف"، و"حل الكافية"، و"الإيجاد في الإرشاد"، و"ميزان الأوزان".

ومن العلماء الكبار والجهابذة الأعلام الذين كانوا محلّ إفادة ضخمة لمن جاء بعدهم، محمد فاروق بن القاضي علي أكبر بن القاضي عطا العباسي التشرية كوتي (1327هـ=1909م)، وكان ذا صنعة في الكلام المنثور والمنظوم، فكان يقول الشعر على منوال الشعراء السابقين. يقول عنه العلامة شبلي النعماني: "كل ممتلكاتي العلمية يرجع فضلها إليه".¹

أما قرية "بندول" (Bindawal)، فهي قرية شهيرة في مدينة أعظم كره، ومن أبرز أعلامها الإمام شبلي النعماني (1332هـ=1914)، كان من سكّان تلك القرية، وتعلّم وتأدّب على الشيخ محمد فاروق التشرية كوتي، من شمائله أنه شمر عن ساقه للرد على اعتراضات المستشرقين على الإسلام، حتى نال شهرة واسعة في هذا المجال مع ما تميّز به من إلمام كبير بالتاريخ الإسلامي. ومن مؤلفاته القيمة بالأوردية والعربية "سيرة النبي"، و"شعر العجم"، و"المأمون"، وهي كتب خلّدت اسمه على صفحات التاريخ العلمي العالمي. وله كتاب قيم انتقد فيه ما غلط به جرجي زيدان في تاريخه، وهو كتاب "الانتقاد على التمدن الإسلامي".

إلى غير هؤلاء من العلماء، الذين توالى أعمالهم الدقيقة في المجالات المعرفية بعامّة، والحقول الإسلامية واللغوية بخاصّة، وهم من الكثرة بمكان، وليس مقام يناظر ما نحن فيه بمحتمل لأنّ نحيط الإحاطة الشاملة بعلماء الهند في بقاعها الشاسعة، سيما

¹ انظر كتاب تذكرة علماء أعظم كره، ص 301

الذين كانت لهم سهمة كبيرة في تطور اللغة العربية وآدابها وترجماتها الأدبية، غير أنه يكفي الإشارة- مع مَنْ مضى ذكرهم- باختصار إلى هؤلاء الأعلام، ومنهم:

الشيخ محمد حسين الرسولبوري (1359هـ=1940م)، والشيخ الحكيم محمد أحمد اللهاوي (1368هـ=1948م)، والشيخ محمد شريف المصطفى آبادي (1372هـ=1952م)، والشيخ مبین التشرىاكوتي (1376هـ=1956م)، والشيخ الحكيم محمد يحيى بن الشيخ أحمد حسين المباركفوري (1387هـ=1967م)، والشيخ عبد الرحمن برواز الإصلاحى (1984م)، والشيخ بدر الدين الإصلاحى (1996م)، والحكيم محمد أيوب الإصلاحى (1999م)، والدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحى، العضو المراسل لمجمع اللغة العلمى بدمشق، وقد قام بتحقيق الكتب العربية خير تحقيق، ولنا مثال واضح على ذلك في "مفردات القرآن" للإمام عبد الحميد الفراهي؛ حيث بذل في تحقيقه أكثر من عشر سنوات، فجاء بشيء حير الباحثين والنقاد، وهو ما كشف عن دراية واسعة، وإحاطة سديدة بهذا الحقل المعرفى الدقيق؛ إلى غير هؤلاء الأعلام الكبار.

وعلى مَنْ أراد المزيد من البحث أن ينشط لاستيعاب جهود أئمة اللغة في هذه الناحية من الأرض، وأن يفيدنا بمعجم شامل لمؤلفاتهم ومخطوطاتهم وترجماتهم في القديم والحديث، وهو مشروع ضخم لمن سمتْ همته، وعرف قدر أهل هذه الناحية في هذه الأبواب والحقول المعرفية.¹

والذي يعنيني ذكره وتسليط الضوء عليه من أعلام أعظم كره في هذا المقام هو العالم الهندي الإمام الفراهي، الذي طار صيته ليس في الهند فحسب؛ بل في كافة دول العالم الإسلامى، حيث نادى بفلسفة جديدة عميقة، تُسمى "فلسفة نظام القرآن"،

¹ ولمزيد من النظر في مساهمة الأحياء من علماء الهند بعامة، ومدينة أعظم كره بخاصة في هذا المجال، انظر: بحث "تطور اللغة العربية وآدابها والترجمة الأدبية في أعظم كره"، لأورنك زيب الأعظمي، مجلة ثقافة الهند، عدد يناير لسنة 2005م؛ فهو نفيس ممتع.

أثبت فيها أنّ القرآن الكريم منظم بنظام محكم قوي، كأنه وحدة واحدة، وأنّ كافة آياته وسوره بينها من الارتباط القوي والتناسب الكبير ما لا يسمح بفهمه بمعزل عن هذا القانون الجامع.

وفرقان ما بين تفسير الفراهي والتفسيرات الأخرى، أنّ بعض هذه التفسيرات قد تناولت إبراز النظم المعنوي والترابط الفكري في القرآن الكريم تناولاً جزئياً، مثل تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، وتفسير الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري، وتفسير مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، وتفسير نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لبرهان الدين البقاعي (885=1480)، وقد يُقال: إنها اهتمت بإبراز الترابط الفكري والمعنوي بين الآيات والسور في بعض المواضع، ولكنها لم تلتزم به التزاماً كلياً، ولم تنجح بإبرازه في جميع القرآن، مع أنّ مؤلفيها قد دافعوا عن وجود النظم المعنوي بين آيات القرآن وسوره بحيث يترأى للدارس أنّ فكرة وجود الترابط المعنوي ظلت غامضة وغير متبلورة لدى جميع هؤلاء المفسرين، وأنه كان بمثابة حلم عذب جميل رائع لم يتحقق.

وبمعنى آخر، فإنّ دراسة القرآن من ناحية وجود النظم المعنوي بين الآيات والسور لم تكن محاولة ناجحة ودراسة مرضية ومقنعة، ولم يقدر لأيّ مفسّر طوال هذه الألف والأربعمئة سنة أن يؤلّف تفسيراً يظهر فيه الترابط الفكري بين آيات القرآن وسوره بطريقة كلية واضحة وجلية، فإنهم التزموا بمنهج التفسير المجزء أكثر من التزامهم بالسياق والنظم المعنوي الشامل.

الشيء الآخر الذي زاد مسألة وجود الاتساق المعنوي بين آيات القرآن وسوره تفاقماً وغموضاً وتعقيداً والتباساً، هو أنّ جماعة من العلماء مثل: عزّ الدين بن عبد السلام، والشوكاني، وولي الله الدهلوي- قد أبدوا ما يوهم اعتراضهم على وجود هذه المناسبة والاتساق.

ولننظر في كلام العز بن عبد السلام، وهو يقول: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه

ببعض، ويتشبه بعضه ببعض؛ لثلا يكون مقطعاً، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد، فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لا يقدر عليه إلا يربط ركيك، يُصان عن مثله حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه؛ فإنّ القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض؛ إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب.¹

وأما الشوكاني، فقد انتصب للرد على الأخذ بفنّ التناسب في القرآن وأنحى باللوم والتفريع على أئمة التفسير، وأطال في الاستدلال برأيه، وصال في ذلك وجال.

يقول الشوكاني: "اعلم أنّ كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلّفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة؛ بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسّفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها البلاغ، فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدّمه حسبما ذكر في خطبته".²

وهذه النصوص تؤكد أنّ ثمة فراغاً كبيراً ومُؤسِّفاً في هذا المجال، يستطلب دراسةً، ويستطلب نهضة العلماء لدراسة المسألة دراسة مستفيضة، تبحث جميع جوانبه وتميز بين الجوانب السقيمة والسليمة فيه، وتفند المزاعم والأفكار الباطلة لمنكري النظم المعنوي، وتستجلي الطريق الهادي إلى الحق في هذا الشأن.

¹ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، وبديله: "نبذ من مقاصد القرآن الكريم"، للعز بن عبد السلام، ص 338-339

² فتح القدير، للشوكاني، 86/1

وإذا ما انتبهنا إلى صاحبنا الفراهي، وجدنا سهمته الكبيرة في هذا المجال بعيدة المدى؛ فقد أوقف أوقاته لخدمة القرآن والسنة، متسلحاً ببراعته الذهنية وكفاءته الذاتية التي سخّرها لخدمة القرآن الكريم وعلومه؛ فقد كان يملك مهارة فائقة، وقدرة نادرة، ومملكة وموهبة مثالية في فحص الأقوال ونقدها، والتخصص في مجال علوم القرآن؛ فهو عالم بارز جداً، لا يكاد يوجد له مثيل بين المفسرين في تاريخ إثبات الترابط الفكري والمعنوي بين آيات القرآن وسوره.

وإن كان للأوائل من المفسرين الفضل في الإشارات الدقيقة إلى الترابط المعنوي في القرآن، فللفراهي الفضل في تحديد معالمه، وكيفية البحث عنه في القرآن؛ فقد طور فكرة وجود النظم المعنوي في القرآن، وحركها ونشطها وكأنها لم تكن موجودة من قبل، كما أولى اهتمامه الخاص لإثبات هذه الفكرة، وشرع في كتابة تفسير- بعيداً عن جميع المنازع الشخصية والقومية والحزبية- سماه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، أنفق في فهم معانيه عمره الكامل، خاصة الثلاثين عاماً الأخيرة من عمره، ولكنه لم يستطع إكمال تفسيره؛ لأنه لم يكن يريد أن يؤلف تفسيراً على الطراز التقليدي، الذي يبدو فيه كل مفسر ناقلاً يقتبس شيئاً كثيراً من مفسر آخر، ويسرد لكل مفسر أقوالاً عديدة لمعنى آية واحدة.

إنّ الفراهي الذي توصل إلى هذا الرأي في نهاية القرن التاسع عشر، قد أكدته الدراسة القرآنية للدكتورة عائشة بنت الشاطئ المفسرة المصرية التي تفتخر بها الأمة الإسلامية في ستينيات القرن الماضي.¹

ويبدو من اسم تفسيره أنه أول مفسر بين جماعة المفسرين العرب والعجم- الذين يفوق عددهم الحصر- الذي سمي تفسيره بمثل هذا الاسم، الذي يشير به إلى هدف تفسيره ومنهجه؛ فأسماء معظم التفاسير تشير إلى مدح وتقريظ التفسير، مثل: "جامع

¹ انظر جهودها العظيم في كتاب التفسير البياني للقرآن، وكذلك تحقيقها لمسائل نافع بن الأزرق لابن عباس.

البيان في تأويل القرآن" للإمام الطبري، و"الكشاف عن حقائق التنزيل" للإمام للزمخشري، و"مفاتيح الغيب" للإمام الرازي.

وقد شعر الفراهي بحزن واستياء شديدين لما رأى أنّ المفسّرين يفسّرون القرآن حسب منازلهم، ومتطلبات عصرهم ومجتمعهم، ويبينون معاني عديدة لآية واحدة، وليس الأمر كذلك، فلا بد أن يكون للآية الواحدة معنى واحد قطعي، فحقّق في الأمر واكتشف أنّ الطريق الوحيد للوصول إلى معنى واحد قطعي هو مراعاة الترابط الفكري في القرآن الكريم، وهذا هو عصب منهجه في تفسيره للقرآن، وفي غيره من الكتب كتّاب "حجج القرآن" الذي بين أيدينا.

إنّ هذا المنهج الخاص الدقيق يرسم فلسفة الفراهي، ويكشف قيمة تراثها لعظيم هذه القيمة تكمن في كونه حافزاً للدراسات الجديدة في العلوم القرآنية والعلوم العربية، وإحياء الحركات الجديدة في تطهير العلوم والفنون من العناصر الأجنبية البعيدة عن منطق القرآن الكريم وفلسفته وحكمته. وهو مع ذلك يدعو إلى إجماع الأمة الإسلامية على أساس متين من القرآن والسنة، ويشرح أسباب نشوء الخلافات الفقهية والدينية والنزاعات المنطقية والفلسفية في الأمة الإسلامية، ويقدم حلولاً لها وأشكالاً لرفعها، كما يدعو إلى الأصالة في البحث والتحقيق، ويرفض الجمود والتقليد، ويحثّ على دراسة العلوم الإسلامية من جديد، وتوثيقها بمصادرها الأصلية، بعيداً عن جميع القيود الذهنية والفكرية؛ لتخرج الأمة الإسلامية من الجمود العلمي والفكري الذي أصابها بعد انهيار الدولة الإسلامية، وتتجدد مرة أخرى حركة الاجتهاد في قضايا الحياة. كذلك يحاول الفراهي في كتبه أن يدعو الأمة الإسلامية إلى أن تدخل في الإسلام بأجمعها، فلا تبقى ناحية من نواحي حياتها إلا وهي مستنيرة فيه بوحى من القرآن الكريم، وهو ما يدعو إلى تأملها الدقيق لمنطق القرآن الكريم، وطرق استدلاله في معرفة الشريعة الإسلامية والحكمة الإلهية؛ لكي تستخدم ذلك كله في

معرفة مرضاة ربها في مختلف شؤون الحياة وأنحاءها في: الاقتصاد والسياسة والعدالة والاجتماع؛ حتى تصبح أمة قرآنية هادية غير مُضَلَّلة، متبوعة غير تابعة.

وأهم ما ينبغي أن نلفت النظر إليه، أنّ مهمة الفراهي التي تحدت غاياتها منذ بداية البناء العلمي والفكري لديه هي الرجوع إلى القرآن الكريم في تدوين العلوم الإسلامية، وأنّ هذه العلوم لا بد أن تدوّن في ضوء القرآن الكريم، وهو رافد من أوجب الروافد في حياة العالم بحق؛ فأصول التفسير، وأصول الفقه، وأصول التأويل، وأصول العقائد، كل ذلك وغيره مما امتدّ إليه بيان الفراهي بالتأليف والصناعة مثل: "التكميل في أصول التأويل"، و"القائد إلى عيون العقائد"، و"حجج القرآن"، و"حكمة القرآن"... يجب أن تكون كلها في ضوء القرآن، ووفق دلائل وحدته العامة والخاصة.

ولعلنا نتخذ من هذا الإغراء الموجز عن مكانة الإمام الفراهي، وقوة فلسفته في التأليف والبحث، وليجةً إلى ترجمته والتعريف به على جهة من التفصيل والبسط.

ترجمة الإمام الفراهي

ولكي نستجلي معالم ترجمة هذا الإمام المتمكّن، كان لا بد أن نمضي وفق مسارات محددة، يجمعها مساران:

- عصر الإمام الفراهي وأوضاعه.

- ورقة السيرة الذاتية للإمام عبد الحميد الفراهي

أما المسار الأول:

عصر الإمام الفراهي وأوضاعه

فهي على النحو الآتي:

الوضع السياسي في عصر الإمام الفراهي: أبصر الإمام الفراهي النور حين كانت الخلافة

العثمانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، حتى سقطت سنة 1924م، بعد أن حكمت معظم بلدان العالم الإسلامي قرابة أربعة قرون. أما الهند التي كان يحكمها المسلمون منذ ثمانية قرون، فهي كذلك قد سقطت بيد الاستعمار البريطاني سنة 1858م، وانتقلت إلى الحكم البريطاني، الذي عاصره الفراهي حتى توفي في عهده. وقد ذاق الفراهي وأمثاله من علماء هذه البلاد مرارة هذا الحكم، وعانوا مضايقاته، لكنهم ما ضعفوا وما استكانوا أمامه؛ بل قاوموه بكل ما أوتوا في سبيل ذلك من الوسائل المادية والعلمية.

الوضع الاجتماعي في عصر الفراهي: وبعد سقوط حكم المسلمين في هذه البلاد؛ تفرق المسلمون فيها، وقلّ الوازع الديني فيهم؛ مما أدى إلى انتشار داء التعصب المذهبي، وداء الفرقة، واتساع رقعة الخلاف بين أفراد الأمة، فانتشر الجهل، وشاع الهوى، وظهرت البدع والخرافات، وضعفت القيم الأخلاقية في المجتمع؛ بسبب معايشة المسلمين مع الإنجليز المستعمرين للبلاد. وفي مثل هذه الظروف كان للفراهي وأمثاله من العلماء الأجلاء دورٌ فعّالٌ في إنقاذ المجتمع الإسلامي من تقليد الغرب، وتوجيهه إلى تعاليم الكتاب والسنة، وترشيد الصحوة الدينية فيه.

الوضع التعليمي في عصر الفراهي: لقد بلغت حالة الأمة الإسلامية في عصر الفراهي في كثير من البلدان الإسلامية والعربية دركةً عظيمةً من التديّن العلمي؛ بسبب شيوع الفوضى، وعدم استقرار الوضع السياسي فيها، لكن تستثنى من ذلك حالة المسلمين العلمية في الهند، التي كانت في أحسن حال، وأكثر ازدهاراً وتقدماً؛ وذلك لأنّ زعماء المسلمين في هذه البلاد قد أدركوا أهمية التعليم، سواء أكانت للعلوم الدينية أم العلوم العصرية في ظل الاستعمار البريطاني، فأنشؤوا مدارس دينية وجامعات إسلامية في مختلف بقاع الهند؛ خشيةً على مسلميها من أن يتأثروا بالحكم غير الإسلامي الذي لم يعهده، وحفاظاً على هويتهم الدينية، فكان من أشهر تلك المدارس والجامعات "دار العلوم الإسلامية" بديوبند، و"مدرسة مظاهر العلوم" بهارنפור، و"دار العلوم لندوة العلماء" بلكنؤ.

كما أنشؤوا كذلك مؤسسات وجامعات للتعليم العصري، مثل: "جامعة عليكره الإسلامية" بعليكره، و"الجامعة المليّة الإسلامية" بدلهي، و"الجامعة العثمانية" بجيدر آباد؛ فقد كان لتلك المدارس الدينية أو هذه الجامعات العصرية، دورٌ كبير في إقامة النهضة التعليمية في بلاد الهند كلها، التي لا تزال تُؤتي أكلها، ولا شك أنّ لوجود الفراهي وأمثاله من العلماء والفضلاء في بلاد الهند أيادي بيضاء في ذلك.¹

الوضع الفكري في عصر الفراهي: شهد الفراهي وغيره ما حلّ بالمسلمين في الهند من استعمار غربي لئيم، ركّز على الاستعمار الفكري، بتخطيط دقيق ومؤامرة منظمة، وكان هذا الاستعمار الفكري أخطر على المسلمين من الاستعمار العسكري، فأوقد معركة فكرية خبيثة ضد مسلمي هذه البلاد؛ ليصبحوا غرباء في قيمهم ومثلهم، وحضارتهم وتاريخهم، ويكونوا متنافرين مع دين الإسلام، ومجافين لتعاليمه، وكان أنكى وسائل ذلك الاستعمار جلب نظام التعليم الغربي في الهند، وفرضه على أهلها، وكذلك إنشاء المدارس الاستعمارية والتبشيرية في كل أنحاء البلاد. فكان لعلماء الهند أمثال الفراهي دورٌ كبير في مقاومة التعليم الغربي، وتصحيح الأفكار المعادية ضد الإسلام وتعاليمه في هذه البلاد.

الوضع الديني في عصر الفراهي: أما الوضع الديني في عصر الفراهي، فقد كان في تدهور؛ بسبب سقوط حكم المسلمين، وخضوعهم للاستعمار البريطاني، ونتيجة لذلك، بدأت الحضارة الغربية والتقاليد الأوروبية تتغلغل في أحشاء الهند، وتؤثر في أهلها، وكانت حركات التبشير والتنصير، وكذلك نشاطات الهندوس في تبليغ دينهم الوثني بين المسلمين على أوج ذروته، كما أنّ المسلمين أنفسهم قد غرقوا في ظلمات الجهل والشرك والبدعة، وشاعت فيهم رسوم الهندوس الوثنيين وتقاليدهم وعاداتهم التي تنافي عقيدة الإسلام وتعاليمه. وفي هذه الوضع الحرج، قام بعض الغيورين من علماء

¹ أفد من: محمد واضح رشيد الحسيني الندوي: "حركة التعليم الإسلامي في الهند وتطور المنهج"، ص 79-80

هذه البلاد، وأسّسوا في مختلف بقاع البلاد مدارس دينيةً مهمتها نشر الدين، وتصحيح العقيدة، وإصلاح المسلمين، ومن تلك المدارس- كما مرّ- "مدرسة الإصلاح" في بلدة "أعظم كره"، التي أشرف عليها الفراهي حتى وفاته، فسرعان ما خرّجت تلك المدارس نخبةً طيبةً من الدعاة والمبلّغين والعلماء الراشخين، الذين لعبوا دوراً كبيراً في تلك الآونة الحرجة، في نشر الإسلام في الهند، وتصحيح عقائد المسلمين، وإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك.¹

والمسار الثاني هو:

ورقة السيرة الذاتية للإمام عبد الحميد الفراهي

وفيها ما يلي:

اسمه وكنيته: هو الشاعِرُ والأديب اللغوي والعلّامة المُفسّر الإمام عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي؛ حميد الدين، الفراهي. وكنيته التي كنى بها نفسه أبو أحمد؛ تيمناً بهذا الاسم، ولم يكن له ولد مسمّى به.

وقد ذهب تلميذه العلّامة سليمان الندوي إلى أنّ اسمه الحقيقي هو حميد الدين، لكنه لما رأى أنّ هذا الاسم في العربية لقب فيه تمدح ونوع من الرياء، سمّى نفسه عبد الحميد في أول كتبه باللغة العربية.

وقد رجّح الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي أن يكون اسمه الذي سمّي به بعد ميلاده هو عبد الحميد لا حميد الدين؛ مستنداً في ذلك إلى عدد من الوثائق²، إلا أنه غلب اسم حميد الدين على اسم عبد الحميد، واشتهر به؛ لكونه أقرب إلى ذوق أهل الفارسية والأوردية، وأكثر شيوعاً على ألسنتهم لا سيما بعدما أثبت ذلك في أوراقه

¹ انظر: مقدمة "مفردات القرآن"، ص 13

² أفد من مقالة للدكتور سيد عبد الماجد الغوري: "أحوال الهند المعاصرة"، ص 87-108.

الرسمية ومراسلاته وكتبه التي تصدر بالأوردية والفارسية، أما كتبه التي أصدرها باللغة العربية فقد أثبت اسمه فيها المعلم عبد الحميد الفراهي.¹

مولده: ولد الإمام عبد الحميد لأسرة كريمة ثرية، لها مكانتها الاجتماعية؛ إذ إنَّ أهله من وجهاء منطقته وأعيانها، ولهم أيضاً منزلة علمية؛ فقد كان ابن خال العلامة شبلي نعماني، كلُّ ذلك هيباً له أن ينشأ في رخاء من العيش، وأن يتفرغ لطلب العلم، دون أن يجمل همّ الحاجة إلى وظيفة من أجل لقمة العيش، ولا تحدوه رغبة في التقرب من أهل السلطة والجاه؛ بل عُرف بنفوره منهم، وعدم رغبته في لقائهم؛ ولذلك لم يرتبط بأية علاقة مع الأمراء والأثرياء في حيدرآباد ولا في غيرها، مع رغبتهم هم بذلك.²

والفراهي نسبة إلى قريته "فريها"، التي ولد فيها صباح يوم الأربعاء في السادس من جمادى الآخرة عام 1280هـ،³ وهي من قرى مديرية أعظم كره، التي تتبع للإقليم الشمالي من الهند، ويسمى الآن ولاية أترابرايش.

وذهب الدكتور أحمد مطلوب إلى أنّ أسرته كانت قد هاجرت من المدينة المنورة إلى أفغانستان، وأقامت زمناً في قرية (فراه)، فلها هاجرت إلى الهند، ونزلت في هذه القرية سميت باسم موطنها، وتحرفت على ألسنة الناس.⁴ وما قاله مخالف لما جاءت به مصادر ترجمته كلها، ومنها الترجمة التي كتبها الفراهي بنفسه.⁵

روافده الثقافية ومراحل تعليمه: تشكّلت الروافد الفكرية والثقافية لدى الفراهي

¹ انظر: مفردات القرآن، ص 14.

² الإمام عبد الحميد الفراهي، حياته وأعماله، مجلة الهند، ص 16.

³ هذا التاريخ لميلاد الإمام الفراهي وجدّ في وثيقة ضمن كتاب الدر النضيد للفراهي، وقد وجدها محقق كتاب "مفردات القرآن" الدكتور محمد أجمل أيوب أثناء تصفحه لمخطوطات الفراهي المحفوظة عند الشيخ بدر الدين الإصلاحجي رحمه الله سنة 1980م. انظر: مفردات القرآن، ص 13، ومقدمة كتاب "إمعان في أقسام القرآن"، سليمان الندوي، ص 15.

⁴ جمهرة البلاغة: بحث منشور في مجلة الهند، ص 314.

⁵ انظر: ترجمة الفراهي لنفسه، وهي منشورة في مجلة الهند، ص 46.

مبكراً؛ حيث بدأ تعليمه أولاً بقراءة القرآن على يد المؤدب الشيخ أحمد علي، فحفظه وهو ابن عشر سنوات، ثم تعلم اللغة الفارسية في تسعة أشهر في منزله، على يد مهدي حسن،¹ وبرع فيها إلى درجة أنه كتب في السادسة عشر من عمره قصيدة باري فيها الشاعر الفارسي المشهور خاقاني الشرواني (595هـ)، فأبدع فيها، فوعدت من العلماء والشعراء وغيرهم موقع الإعجاب والقبول، كما ترجم إليها جزءاً من طبقات ابن سعد، وجزءاً من مثنوي جلال الدين الرومي، وغير ذلك.

ثم بدأ وهو ابن أربعة عشر ربيعاً بتعلم علوم العربية، على يد ابن عمته العلامة شبلي النعماني؛ من نحو و صرف ولغة وأدب وفلسفة ومنطق، حتى برع فيها، وألف معظم كتبه باللغة العربية.

وفي هذه الفترة أيضاً تلقى الفقه من الفقيه المحدث الإمام أبي الحسنات عبد الحي الكنوي 1304هـ، بعد انتقاله إلى مدينة لكناؤ؛ مدينة العلم في الهند آنذاك، كما أخذ عن رائد المعقولات في زمانه الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري 1312هـ بعض كتب المعقولات.

ثم غادر لكناؤ إلى لاهور، وعاد إلى دراسة علوم العربية على يد الأديب البارع والشاعر المفلح آنذاك، فيض الحسن السهارنفوري 1304هـ، وبعض كتب المعقولات، فقرأ عليه المعلقات والحماسة، وكثيراً من دواوين الشعراء الجاهليين، حتى صار يقرض الشعر بالعربية.

انتقل بعد ذلك- وهو ابن عشرين ربيعاً- إلى تعلم اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة، فالتحق بثانوية كرنل غنج في مدينة الله آباد، ثم التحق بكلية عليكره، فدرس الفلسفة الحديثة على يد المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد وحصل فيها على درجة الامتياز، إضافةً إلى اهتمامه باللغة الإنجليزية، وقد تعلمها حتى نال فيها شهادة، ولم يكن تعلمه

¹ انظر: المعلم عبد الحميد الفراهي، مجلة الهند، ص 37

للغة التواصل فيها فحسب؛ بل أَلّف فيها "رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة"، ردّاً فيها على النصارى، كما ترجم عنها كتاب أمثال أصف الحكيم.

بدأ بعد ذلك بالتدريس في مدرسة الإسلام في كراتشي عاصمة السند معلماً للعربية والفارسية، واستمر فيها تسع سنوات، كتب فيها وألّف، ونظّم كثيراً من الأشعار، ثم اختير عام 1907م لتدريس العربية في كلية عليكره، وظلّ فيها أعواماً أيضاً، وكان المستشرق الألماني يوسف هارويز (1931م) أستاذ العربية في تلك الفترة، فاستكمل تعلّم العربية على يدي الإمام الفراهي، وعلم الإمام الفراهي اللغة العبرية حتى صار ماهراً فيها متقناً لها، يرجع إلى مصادرها مباشرة، ولا سيما في بحوثه القرآنية، كما درس الحقوق مدة سنتين، ولم يكمل تحصيله فيها؛ لنفوره منها.

وقد كان الدافع إلى تعلم اللغة العبرية هو ما اجتمع لدى أعلام هذه الأمة المباركة من الغيرة الشديدة على تراثها، والحراسة التامة لمقدرتها العلمية والفكرية، ونظراً لانتشار جمعيات التنصير في الهند آنذاك، وشغف الإمام الفراهي بالاطلاع على كتب اليهود والنصارى، ودراستها بدقة وبصورة مباشرة، قام الفراهي بدراسة اللغة العبرانية، وثمر لإجادتها، فاستفاد بمعرفته للغة العبرانية، ووقوفه على الدراسات المتعلقة بصحف أهل الكتاب في اللغة الإنجليزية، في كشف كثير من تحريفاتهم لنصوص كتبهم، كما نرى في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، فقد جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها؛ للرد على زعمهم بأنّ الذبيح هو إسحاق، وناقش علماء أهل الكتاب، وفسّر بعض ما أشكل عليهم من كتبهم.

ولأجل ذلك وغيره، رشّحه العلامة شبلي النعماني للرد على شبهات المستشرقين واقتراءاتهم على القرآن الكريم، وذلك حينما كتب إليه بعض المسؤولين في حكومة (بهوبال)، فأجاب بأنه لا يوجد في الهند كلها من يستطيع أن يقوم بهذا العمل مثل حميد الدين الفراهي.¹

¹ انظر: مكاتيب شبلي النعماني، 25/1

انتقل بعد ذلك من كلية عليكره إلى حيدر آباد الدكن، رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية، التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها، ثم سعى جاهداً من أجل تأسيس الجامعة العثمانية، التي تدرّس العلوم الدينية والعصرية باللغة الأوردية، فكان له ما أراد، كما أسّس مدرسة عربية دينية قريبة من قريته، سماها مدرسة الإصلاح؛ بهدف تدريس علوم القرآن والحديث والفقهاء بعيداً عن العصبية المذهبية، إضافةً إلى تعليم اللغة العربية وعلومها بأساليب معاصرة وطرائق مختلفة عن الطرائق التقليدية غير النافعة، كما أسهم في تأسيس دار المصنّفين؛ تذكراً للعلامة شبلي النعماني، وترأس لجنة المديرين فيها.

منهجه في التأليف: يحسن بنا قبل أن نذكر أسماء ما صنّفه الفراهي من مؤلفات، وما خلفه من آثار علمية أن نشير باختصار إلى منهجه في التأليف؛ حيث يختلف منهجه عن كثير من مناهج المؤلفين؛ فإنّ اطلاعه الواسع على اللغة العربية وآدابها، والنحو والبلاغة، وهضمه للعلوم العقلية والنقلية، حيث التفسير وعلومه، والحديث ومصطلحه والفقهاء وأصوله، والفلسفة والمنطق وأصول علم الكلام وغير ذلك، مع إجادته للغات المختلفة ودرأته الواسعة بالتوراة والإنجيل، فإنه قد قرأ بدقة وعمق بالغين ترجمة العهد القديم والجديد باللغة العربية والأوردية والإنجليزية والعبرانية، حتى إنه ألف كتاباً سماه "الإكليل في شرح الإنجيل"، واستفاد من ذلك في التفسير؛ حيث قام بالمقارنة بينه وبين القرآن في تناولهما للأمكنة التاريخية التي حرّفها النصارى، إلا أنّ وفاته حالت دون إكمال هذا الكتاب- قد أفاده كل ذلك في تفنيد الشبهات، ومدافعة الأباطيل.

ومن ذلك يتبيّن لنا أنّ الإمام الفراهي لم يعتمد على الكتب المقدّسة فحسب، ولم يستخدمها للاستدلال بها على نظريته فقط، بل استخدمها ضد اليهود والنصارى، وضد أفكارهم الباطلة. وشبّيه ذلك ونظيره ما قام به من دراسة العلوم العقلية؛ ليكون حرباً على مناهج الفلاسفة والمتكلمين، الذين أبطلوا بالعقل عمل النقل، وحاربوا

بنظرياتهم أصول العقائد. كل ذلك كان له سهمة في تشكيل فلسفته المنهجية الفريدة،¹ التي تأتي أن تكون تابعة، كما تأتي أن تكون أسيرة عقل آخر، أو أن تستنسخ فكراً ماضوياً وتقدمه لحاضرها؛ لذلك هي فلسفة خاصة لها حضورها المتميز، وتفردها المشهود، وإضافتها الخاصة التي يعزّ أن تجد لها الأشباه والنظائر.

إنّ القضايا التي كانت تشغل الفراهي، ويرى ضرورة الكتابة فيها وحلّ مشكلاتها، كانت ماثلة أمام عينيه، يقوم بالنظر والبحث فيها، والتدقيق في فروعها، حتى إذا حقّق مسألة، أو حلّ معضلة، أو أحكم رأياً، قيّد ذلك وكتب عليه: (من كتاب كذا...)، فإذا اكتملت جوانب البحث، أقبل على تأليفها وتنسيقها؛ ولذلك كان يؤلّف كتباً عديدة في وقت واحد، وقد بقي أكثر مؤلفاته ناقصاً لسببين؛ الأول: نظراً لتبنيّه هذا المنهج، والثاني: لكثرة مشاغله والأمراض التي أنهكته. لذلك فقد أكل بعض مصنفاته، ونشر أكثرها في حياته، وترك بعضها الآخر جملة من الفصول، وبعضها الثالث عبارة عن مباحث أو إفادات متنوعة ومتعددة بين اللغة والأدب والبلاغة والتفسير والعقيدة والفلسفة، ومنها ما هو بالعربية، وما هو بالفارسية والإنجليزية، سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة.

وهذا يكشف بوضوح منهج الإمام في تصانيفه بعامة، فهو يهتدي إلى الفكرة، أو يطرح إشكالاً دقيقاً، أو ينتقد مسألة لها حيز من الحضور عند السابقين، الشيء الذي يخلق تعدداً في منافذ المعرفة، ومسالك العلم بين يديه، حتى إذا تناولها بالدرس والبحث أكلته الأعدار والشواغل، فجاء فيها من النقص وعدم التمام ما يدعو إلى الأسف الشديد، سيما وأنّ طريقة الفراهي فريدة، لا يستطيع أحد أن يستوعبها؛ حتى

¹ ولكل علم من العلوم التي برز فيها الإمام الفراهي مثل: تفسير القرآن، ومقارنة الأديان، والقراءات، وتفسير آيات الأحكام- منهج يميز به، ولك أن تحقق الإفادة بمعرفة ذلك بالنظر في كتاب: الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، للدكتور: محمد فريد راوي بن عبد الله، دار الشاكر- ماليزيا، ط 1، 2025م

يقوى على إتمام عمله وإكمال إنتاجه، اللهم إلا إذا كان يملك من المؤهلات الذاتية والعقلية والعلمية مثل التي يتمتع بها الفراهي في النظر والبحث والتأمل، وهذا لعمري من الصعوبة بمكان، إلا أنه ليس بمحال.

وستجد مع تتبعك لطريقة الفراهي في مؤلفاته أن كلامه مع اختصاره، وقوته، وفاعلية دلالاته إلا أنه يحتاج إلى مزيد بسط وبيان، فهو يأخذ بناصية عقلك إلى منارات ويجذب تلايب قلبك إلى هدايات عزّ أن تجد لها نظيراً عند غيره؛ بل يأتي بفرائد لم ينطق بها سواه، وما كُتب "دلائل النظام"، و"إمعان في أقسام القرآن"، و"أساليب القرآن"، و"أوصاف القرآن"، و"حجج القرآن"، وغيرها، إلا شواهد ناطقة بهذا التفرد وشاهدة عليه. فلست تشعب من بيانه، وليس يسؤوك شيء على نحو ما ستجد من لذة عقلية في كتاب "حجج القرآن" كما يسؤوك انتهاء كلامه، وتوقف بيانه عن بسط المسألة أو الفكرة، أو خروجها غير كاملة، أو بصورة غير مرتبة، أو على هيئة ملاحظات وإشارات موجزة عابرة، حتى إذا حاولت أن تضاهي عقل الفراهي، وتستقرض قلبه لإتمام البيان، أصابك العجز والخلط. وشاهد ذلك أبوابه التي عقدها في انتقاد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام من مقالته الأولى؛ فهي دقيقة غامضة، وشديدة الغور، وتحتاج إلى تفصيل وبسط.

ومن أنماط البيان عند الفراهي- وهو ما يبيّن عن منهجه- ما تراه من التداخل بين الكلام بحيث يبدو في صورة إشارات تثير العقل، وتستوفز الفكر في الوقوف على دقائق هذا الرباط بين الكلام ووشائج القربا بين الأفكار، ووجوه مناسبات المعاني وتسلسلها في الباب الواحد والمقالة الواحدة.

وبالاقتراب من عقل الفراهي، أستطيع أن أحرر قاعدة من أنضح القواعد في باب الحجاج والمناظرة- حيث شكّلت عصب منهجه وفلسفته في العلم- وهي أنّ أيّ خطأ في أساس العلم، يؤدي إلى الوقوع في الظلمة العلمية، وأيّ خطأ في تحرير مقاماته، وتطبيق

أحكامه، يؤدي إلى الظلمة العملية. وهذا نفيس، فعصّ عليه بالنواجذ، وتأمله كثيراً!
كذلك، من مزايا منهج الفراهي في مؤلفاته، أنه لا يكرّر في مؤلفاته ما قاله الآخرون،
دون الوقوف عندها وقفات في غاية الحسن والنفع.¹

ومنه كذلك أنه يتسم بالجرأة والثقة بالنفس في مناقشة المسائل، وهذه صفة لا بد منها للعالم
الذي يعتقد صواب قوله فلا بد له من الجرأة ونبذ التردد، سيما في المسائل العلمية التي يتسع
فيها نطاق الأخذ والرد، ولا يستطيع طرف أن يدعي أنه قال القول الفصل فيها.

ومن النصوص الناطقة بماهية منهج الإمام الفراهي في التأليف، ما قاله تلميذه أمين
أحسن الإصلاحي: "لم يكن الأستاذ الفراهي مؤلفاً بالمفهوم العام للتأليف؛ لأنه لم
يكن يكتب بهدف الكتابة فقط، وكان يبدأ بالكتابة عندما تكون أمامه فكرة، أو
تحقيق جديد، ومن المناسب أن نسميه فيلسوفاً أو مفكراً، بدلاً من مؤلف أو كاتب،
فكان يكثر من التفكير، ويقلل من الكتابة، ويخوض في التفكير في عدة شؤون في آن
واحد.. عندما كانت تخطر له فكرة كان يسجلها على الفور في ورقة، وكان يكتب
الملاحظات مشيراً إلى الكتاب المراد تأليفه، وتصبح هذه الملاحظات بمثابة فصول
للكتاب، وعندما تكتمل الفصول يقوم بترتيب الكتاب، وبسبب هذا المنهج الفريد في
الكتابة- بل في التفكير- كان الفراهي يكتب في عدة كتب في آن واحد، يكتمل
بعضها، وبعضها الآخر يستمر، وبعضها لا يتجاوز فصلاً أو نصف فصل.²

أساتذته وتلامذته: برع الإمام الفراهي في علوم كثيرة، وأتقن لغات عدة، وكان له في
كل منها أساتذة فضلاء، تلقى على أيديهم، ونهل من علمهم، ومنهم:

1- الشيخ أحمد علي، مؤدبه الذي قرأ عليه القرآن، وحفظه وهو ابن عشر سنوات.

¹ انظر: أجمل الإصلاحي، ترجمة الفراهي في "مفردات القرآن"، ص 31.

² الإمام عبد الحميد الفراهي، حياته وأعماله، مجلة الهند، ص 26

- 2- الشيخ محمد مهدي، الذي كان من المؤيدين المشهورين آنذاك، تعلّم على يديه اللغة الفارسية.
- 3- الإمام شبلي النعماني (1273-1332هـ)، مؤرخ كبير، وعَلّامة ناقد، وأديب بارع، كان غزير العلم، واسع الاطلاع على العلوم النقلية والعقلية، وتولّى دار العلوم ندوة العلماء، وبقي فيها حتى وفاته، وقد أخذ الإمام الفراهي عنه علوم العربية في أول طلبه للعلم.
- 4- العَلّامة فيض الحسن السهارةَنفوري (1304هـ)، أحد كبار علماء العربية في الهند آنذاك، وأديب بليغ وشاعر مفلح، كان له أثر عظيم في تعليم العربية هناك، وقد أخذ عنه الإمام الفراهي المعلّقات، وديوانَ الحماسة، ودواوين كثير من الشعراء الجاهليين، وبعض كتب العلوم العقلية.
- 5- الفقيه عبد الحيّ الأنصاري اللكنوي (1304هـ)، عَلّامة الهند، وإمام المحدثين والفقهاء فيها، ولم يكن في عصره من يباريه في العلوم النقلية والعقلية، مع أنه لم يعش إلا تسعة وثلاثين عاماً، وقد أخذ عنه الإمام الفراهي العلوم النقلية.
- 6- الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري (1312هـ)، أحد أكبر البارعين في العلوم العقلية في عصره، وله مؤلفات كثيرة في المنطق وعلم الكلام، وقد أخذ عنه الإمام الفراهي العلوم العقلية.
- 7- الفيلسوف الإنكليزي توماس أرنولد، الذي أخذ عنه الفلسفة عندما كان مدرساً في جامعة عليكره.
- 8- المستشرق الألماني يوسف هارويز، الذي تعلّم على يديه اللغة العبرية.

تلامذته: تتقلّ الإمام الفراهي في مراكز علمية وحلقات علم ومدارس وكليات كثيرة، فقد درّس في مدرسة الإسلام تسع سنوات، كما درّس اللغة العربية في كلية عليكره مدة سنتين 1324-1326هـ، ثم عمل أستاذاً للعربية في جامعة الله آباد مدة ست سنوات

1326-1333هـ، ثم اختير عميداً لدار العلوم في حيدرآباد الدكن 1332هـ، وكانت له فيها حلقة أسبوعية لتفسير القرآن الكريم، يحضرها العلماء والباحثون وطلاب العلم، وفي نهاية الحلقة يعرضون عليه أسئلتهم، فيجيبهم عنها، وبقي فيها حتى عام 1337هـ، ثم استقال، وعاد إلى بلده، وتولّى إدارة مدرسة الإصلاح، فوضع لها منهاجها ومفرداته وطريقة تدريسه، كما أسّس دار العلوم العربية الأميرية النظامية، ودرّس فيها، وكذلك الجامعة العثمانية، وأسهم في تأسيس مؤسسة دار المصنّفين بعد وفاة شيخه العلامة شبلي النعماني 1332هـ، وترأس لجنة المديرين فيها، ولا شك أنّ له في كل محطة من هذه المحطات تلامذة، صار بعضهم من كبار العلماء لاحقاً، لكن لم تحفظ لنا كتب التراجم إلا عدداً قليلاً؛ اثنين منهم كانا ملازمين له، وآخرين كانت لهم علاقة قوية به، يستشيرونه فيما يكتبون، ويحضرون دروسه، ويعرضون عليه أسئلتهم فيجيب عنها، وآخرون تلمذوا على كتبه ومنهجه في التفسير، فبدأ أثره فيهم جلياً. ومن هؤلاء التلامذة:¹

- 1- الشيخ أختار أحسن الإصلاحي (1320-1387هـ)، درس في مدرسة الإصلاح، فنُسبَ إليها، ووقف حياته على خدمتها، وقد لازم الإمام الفراهي طويلاً، ونهل من علمه، وحفظ لنا مسودات كتبه، ونشرها بعد وفاته.
- 2- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي (1318هـ)، درس أيضاً في مدرسة الإصلاح، فنسب إليها. ألف كتاب "تدبر قرآن" باللغة الأوردية في تسعة وعشرين عاماً على منهج الإمام الفراهي، كما ترجم كتبه من العربية إلى الأوردية.
- 3- العلامة سليمان الندوي (1302-1337هـ)، مؤرخ كبير ومؤلف شهير، درس في ندوة العلماء على كبار علمائها، مثل العلامة شبلي النعماني، وقد صرح بأنه استفاد من دروس الفراهي في تلك الندوة.

¹ أفد من: المعلم عبد الحميد الفراهي وتلاميذه البارزون، مجلة الهند، ص 73

- 4- الشيخ إقبال أحمد خان سهيل من علماء الهند الأفاضل، كان ماهراً في مختلف العلوم الشرقية ومحامياً ذكياً، درس على الإمام الفراهي كتب الأدب العربي، وكان الإمام يعترف بعبقريته تلميذه في هذا المجال.
- 5- الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي، تلمذ على يد الإمام الفراهي في فترة إقامته في الحجاز، كان يحضر دروسه، ويستفيد منها.
- 6- الشيخ حسرت موهاني، كان يُقيم بالقرب من منزل الإمام الفراهي في مدينة عليكره، ودرس عليه مباشرة، واستفاد من علمه.
- 7- صاحب السمو الملكي ولي عهد دولة نيپال يوراج بهادر رانا: كان يلتبس من الإمام الإصلاحات في أشعاره الفارسية، واختار اسمه الأدبي "شادي"، فكان هذا الاهتمام بالشعر جسراً بين الإمام والأمير.
- وثمة أسماء أخرى كثيرة استفادت من الإمام مباشرة، منهم وحيد الدين سليم الباني بتي، والشيخ رشيد أحمد الأنصاري، والشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني، والسيد سجاد حيدر، وغيرهم.
- أما الذين تأثروا به، ولم يتلمذوا عليه مباشرة، فن أبرزهم:
- الشيخ الأستاذ عبد الله العمادي (ت: 1366هـ)، من مشاهير علماء الهند في العربية والحديث النبوي، وكان متأثراً جداً بشخصية الفراهي العلمية والأدبية، واقتفى أثره، فأصبح مثله متفنناً في العلوم والآداب.
 - العلامة الأديب عبد الماجد الدرايبادي (ت: 1397هـ)، وهو أديب إسلامي كبير، وكاتب معروف في العلوم الدينية باللغتين الأوردية والإنكليزية، وكانت علاقته قوية بالإمام الفراهي، يستشيريه فيما يكتبه عن تفسير القرآن وعلومه، ويأخذ برأيه حتى بدا أثره فيه واضحاً جلياً.
 - الشيخ مناظر أحسن الكيلاني (ت: 1375هـ).

- العلامة صاحب الرئاستين أبو الكلام آزاد (ت: 1377هـ).

المناصب التدريسية والعلمية والإدارية التي تقلدها الإمام الفراهي:

في مجال التدريس: عين الفراهي مدرساً للغة العربية في "مدرسة الإسلام" بمدينة كراتشي في عام 1314هـ، وظل يعمل فيها قرابة تسع سنوات. ثم انتقل إلى كلية عليكره في سنة 1324هـ، وعين فيها أستاذاً مساعداً للعربية، ودرّس فيها سنتين. ثم انتقل من هناك إلى جامعة الله آباد؛ حيث قام بتدريس العربية بمرتبة أستاذ نحو ست سنوات.

في مجال الإدارة والإشراف: اختارته إمارة حيدرآباد الدكن¹ في عام 1332هـ، عميداً لدار العلوم، التي كانت تُعرف بـ"الكلية الشرقية"، وكان الفراهي بجانب عمادته للكلية يدرس كذلك في هذه الكلية في مرحلة الدراسات العليا. ويُعدّ أحد المؤسسين لـ"الجامعة العثمانية" الشهيرة في حيدرآباد، وإليه يرجع الفضل في تدريس العلوم العصرية في هذه الجامعة باللغة الأوردية.

وقد مكث الفراهي في حيدرآباد زهاء خمس سنوات، وغادرها في سنة 1337هـ، إلى مسقط رأسه "فريها"؛ حيث تولّى إدارة "مدرسة إصلاح المسلمين"، التي أنشأها جمعية إصلاح المسلمين في بلدة "سراي مير". وقد عكف الفراهي على خدمة هذه المدرسة بكل صدق وإخلاص، ووضع لها مقررات تميز عن مقررات جميع المدارس الدينية في الهند، وكان يلقي على أساتذة هذه المدرسة وطلابها الكبار دروساً في تفسير القرآن الكريم. كما اختير الفراهي في سنة 1332هـ رئيساً لـ"دار المصنّفين"² في مدينة

¹ وهي من أشهر الإمارات الإسلامية وأغناها في الهند قبل الاستعمار البريطاني. اشتهرت بثقافتها الممتازة، وجوامعها الكبيرة ومكتباتها القيمة ومؤسساتها العلمية. انظر: غوستافلوبون: حضارات الهند، ص 554.

² أحد أكبر مراكز التأليف والترجمة والبحث والتحقيق في شبه القارة الهندية، قام بنشر الكثير من الكتب القيمة لكبار علماء الهند ومؤلفيها، وله سمعة عالمية في الإنتاج العلمي الوفير المميز باللغة الأوردية والإنجليزية والفارسية. وهي تصدر مجلة علمية محكمة باسم "معارف"، التي تعدّ من أشهر المجلات في شبه القارة الهندية. انظر: أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، ص 140.

أعظم كره، وترأسها حتى وفاته، كما مرَّ.¹

في مجال الإفادة العامة: كان أثناء إقامته في مدينة حيدرآباد يُلقى الدروس في حلقة أسبوعية لتفسير القرآن الكريم، وكان لها دوي في المدينة، وكان يحضر تلك الدروس أعيان المدينة.

صفاته وأخلاقه وثناء العلماء عليه: وُصِفَ الإمام بأنه كان أسمر اللون المائل إلى البياض، حسن الملامح، نحيل الجسم، متوسط القامة، وكانت لحيته مستديرة بيضاء ناصعة، قليل الكلام، كثير الفكر، مُجِباً للعزلة مهيباً وقوراً، رشيداً رزيناً.

وأما أخلاقه فسامية، وقد كان لكاتب "قصص الأنبياء" أثر عظيم في تغذية جوانبه الأخلاقية؛ حيث كان يقرؤه على عمته التي كانت تحبه كثيراً، وثناؤنا بتلك القصص كثيراً، فكان منذ طفولته صالحاً تقياً سليماً صدوقاً صبوراً مطيعاً لوالديه محباً للخير، بمأمن من الإلحاد والتشكيك، رغم أنه كان محباً للنظريات العقلية والفلسفية،² وكان رحمه الله شديد النزاهة، ثقة عند الناس حتى لدى معارضيه، لا تأخذه في الله لومة لائم. يروى أنّ أباه كان في نزاع مع آخرين حول أملاك لهم، فارتضى الطرفان الإمام الفراهي حكماً بينهما، فدرس القضية بتمعن وروية، ثمّ قضى لصالح خصوم أبيه. ومع أنه كان من أسرة ثرية، ويحصل على رواتب عالية، إلا أنه آثر أن يعيش بمستوى معيشة أساتذة مدرسة الإصلاح وطلابها، ولا يتكلف في لباس أو طعام، ومن عجب أنه كان ينفق معظم راتبه على شراء الكتب، ومساعدة الفقراء، ولا سيما أهل العلم.³

ومن يقرأ ما كتب عنه رحمه الله تعالى، يجد أنّ الجميع قد وصفوه بحدة الذكاء، ونفاذ البصر، وسرعة الإدراك، ودقة الاستنباط، وغزارة العلم، والأدب الحسن، والتواضع الجَمِّ، والورع والزهد في الدنيا.

¹ انظر: عبد الحي الحسيني: زهة الخواطر، 1267/8

² انظر: الإمام عبد الحميد الفراهي، حياته وأعماله، مجلة الهند، ص 23-24

³ المصدر السابق، ص 24-25

قال تلميذه العلامة سليمان الندوي: "كان رحمه الله آية من آيات الله في حِدَّةِ الذهن وكثرة الفضل، وسعة العلم ودماثة الخلق، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله".¹

وقال أيضاً: "مَنْ يقرأ أسماء هذه الكتب- يريد كتب الفراهي- يقضي منها العجب، ويؤمن بما أوتي صاحبها من سعة العلم وصحة النظر، وكثرة الفضل، وسلامة الذوق، وتوقُّدِ الذهن، والتأمل في القرآن، وفهم أصوله ومعانيه، وتناول أقصيه وأدانيه".²

وقد أقبلت عليه الدنيا، وتهيأت له فرص لو اغتنمها وسعى إليها سعيه الذي يطلبه أهل الدنيا لنال أجلَّ الرتب وأعلى المناصب، ولحاز كل ما تطمع فيه النفوس من الأموال والألقاب وسعة الشهرة، ولكنه كان زاهداً في ذلك كله، كما كان متواضعاً غاية التواضع، مع عزة نفس وغناها، ودونك بعض شهادات معاصريه:

- قال العلامة شبلي النعماني: "مَنْ جلس إلى عبد الحميد، انصرف قلبه عن الدنيا".³
 - ووصفه المؤرخ الشيخ عبد الحيّ الحسني، فقال: "كان يتمتع بجمود فهم، ووفور ذكاء، وشهامة نفس، وانقطاع لا سيما عن بني الدنيا، وعدم اشتغال بما لا يعنيه".⁴
- ولما أقبل الفراهي على دراسة القرآن الكريم، والتدبر في حكمه وحقائقه، انقطع إليه عن جميع الأشغال والوظائف، وتفرغ في تحقيق نظام القرآن ومعانيه، وغاص في قعر بحاره، فتنور قلبه من أنوار القرآن، وتفتح ذهنه من لمعانه، وانعكست هذه الأنوار القرآنية على شخصيته وأعماله وعاداته، وطرق عباداته، وفي آرائه وأفكاره.
- ومما ينشر من شمائله ولا يطوى، أنّ كل من التقى به، أصبح متأثراً بشخصيته المتواضعة،

¹ انظر: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 21

² انظر: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 29

³ أجلّ إصلاحي: ترجمة الفراهي من فاتحة كتاب "مفردات القرآن"، ص 21

⁴ انظر: عبد الحيّ الحسني: نزهة الخواطر، 1267/8

ومسحوراً بماثره العلمية والأدبية، ومغلوباً بتمسكه بالقرآن والسنة في حياته العملية، حتى استخدم له بعض معارفه وأصدقائه وتلاميذه في رسائلهم الموجهة إليه ألقاباً تتم عن أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعتبرونه عالماً فقيراً، وشيخاً زاهداً، وولياً مرشداً.¹

أما حلقاته ومجالسه فكانت تعجّ بالمناقشات العلمية والدينية، وذكر فناء الدنيا وبقاء الآخرة، والتأكيد على الصلاة، وكان كلُّ مَنْ يصاحبه ويشارك في مجالسه ومحاضراته يتلذذ بجمرة إيمانه، ويتأثر به إلى حد أنه يستولي عليه مقام الآخرة، وذكر يوم الحساب، وتتفاعل في قلبه قيمة التوكل على الله، فيعتبر الدنيا ونعيمها وترفيها من أتفه الأشياء وأسرعها زوالاً، ويتحرر لبرهة من مشاكل الحياة وهمومها.

وقد شهد بذلك الشيخ أمين أحسن الإصلاح، حين قال: "كنت كلما زرت عالماً كبيراً² بعد وفاة العلامة الفراهي، يقول لي: "تعال نؤمن ساعة"، يريد بذلك أن نتحدث عن الفراهي، ونذكر أحواله وأخلاقه؛ لكي نزداد إيماناً واحتساباً".³

إنَّ ما تمثَّع به الإمام الفراهي من هذه المؤهلات الذاتية-مجموعة- قد دلَّت دلالة قوية على عبقرية فذة، جعلته يأتي في كتبه ورسائله بما لم يسبق إليه.

يقول العلامة رشيد رضا عن تفسيره- بعد أن اطلع على بعض أجزاءه:- "وقد ألقينا على بعض رسائله لمحةً من النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني، من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية وإنَّ للمؤلف لفهماً ثاقباً في القرآن، وإنَّ له فيه مذاهب في البيان وطرائق في الاستطراد وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها، ريان من شواهدا".⁴

¹ انظر: الدكتور شرف الدين الإصلاح، ذكر فراهي، الدائرة الحميدية، أعظم كره، 2001م، ص 783.

² يقصد الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب تحفة الأحوذى.

³ انظر: الأستاذ عبد الرحمن ناصر الإصلاح، مختصر حياة حميد، الدائرة الحميدية، 1973م، ص 56.

⁴ انظر: افتتاحية مجلة الهند، ص 9، ومجلة المنار لصاحبها: رشيد رضا، عدد شهر صفر، عام 1327هـ، وكذلك ترجمة الفراهي من كتاب "مفردات القرآن"، ص 21.

ومن جملة شمائله- رحمه الله تعالى- أنه كان متفناً في العلوم، ممتكاً ناصية البيان والقدرة على الإنشاء.

يقول عنه الإمام الكنوي: "كان رحمه الله تعالى من كبار العلماء، له خبرة تامة بالعلوم الأدبية، وقدرة كاملة على الإنشاء والترسل، وتودد إلى معارفه وأصحابه، مع جودة فهم، ووفور ذكاء، وزهد وعفة، وشهامة نفس، وانزواء، لا سيما عن بني الدنيا، وعدم اشتغال بما لا يعنيه، راسخ في العلوم العربية والبلاغة، متعمق فيها، متضلع من أشعار الجاهليين وأساليب بيانهم، واسع الاطلاع على الصحف السابقة، كثير النظر في كتب اليهود والنصارى، عاكف على التدبر في القرآن والغوص في معانيه وأساليبه، يعتقد أن القرآن مرتب البيان، منسق النظام، ويذهب إلى ربط الآيات بعضها ببعض، وقد بنى على ذلك تفسيره نظام القرآن".¹

لقد كان رحمه الله متبحراً في علوم العربية، إلى درجة أدهشت العلماء العرب منه. قال تقي الدين الهلالي المراكشي، بعد زيارته للفراهي في مسقط رأسه في عام 1342هـ، حين كان في زيارة للهند: "ولم أر في بلاد الهند مثله في علوم الأدب العربي، والرجل فصيح لغاية نادر في علماء العرب، فضلاً عن علماء الهند".²

وقال أيضاً عن فصاحته عندما سمع منه مقدمة تفسيره: "والرجل فصيح في التكلم لغاية نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند، سمعتُ منه خطبة تفسيره للقرآن، اغرورقت منها عيناى؛ لفصاحتها وحقيتها... وهو مجتهد في العقائد والعمليات، لا ينتمي لمذهب؛ لكنه يتعبد على مذهب الحنفية؛ لأنه نشأ عليه، ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل، ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردوية، وبالجملة،

¹ الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ص 1267

² افتتاحية مجلة الهند، ص 7.

فهو أعلم من لقيته قبل هذا الحين".¹

آثاره وإنتاجه العلمي: ترك الإمام عبد الحميد الفراهي تراثاً كبيراً غنياً، يقرب من سبعين كتاباً ورسالة، بلغات عدّة؛ كالأوردية والعربية والإنكليزية والفارسية، وبعض كتبه قد أنهى تأليفها، وطبعت في حياته، أو بعد مماته وبعضها الآخر لم يكتمل وطبع بعد وفاته، وخلت كثير منها من مقدمات لتلك الكتب، كما خلّت بعض مباحثها من الشواهد، وبعضها جاء في بضع ورقات؛ ذلك أنه كان يعمل في تأليف أكثر من كتاب في وقت واحد، يتدبر ويتأمل، ثم يدوّن الفكرة في الكتاب المناسب لها، وهذا ما جعل كتبه مفتوحة ليست مقيدة بخطط معين، فلم يُقدّر له إتمام معظمها.

ويمكن تصنيف كتبه بإجمال إلى ثلاث مجموعات كبرى، هي: الإبداع الشعري، والترجمة، والتأليف، وهذه الأخيرة يمكن أن تُصنّف في مجموعات صغرى حسب موضوعاتها، وإن كانت مضامينها تتداخل أحياناً، بين اللغة والدين، أو بين الفلسفة والدين.

وقد نظمت جمعية أبناء مدرسة الإصلاح القدماء ندوة علمية تاريخية عن شخصية ومآثر المفسّر الهندي العظيم العلامة حميد الدين الفراهي، المعروف بعبد الحميد الفراهي (1280هـ-1349هـ) بمدرسة الإصلاح سراي مير أعظم جراه أتراباديش الهند في الفترة ما بين 8-10 تشرين الأول (أكتوبر) الماضي.

كان مما جاء فيها: كان هذا العالم العبقرى ابن تيمية العصر، فنذ شرح شبابه، جعل القرآن الكريم محوراً لتديره وتفكره، واعتاد نفسه للغوص في معانيه وأساليبه وألفاظه، ووقف نفسه لمطالعة القرآن الكريم، حتى نضج فيه، وأخرج لأهل الدنيا درراً لامعةً

¹ انظر: تقي الدين المالبي: مقال له عن الفراهي منشور في مجلة الضياء، الصادرة عن دار العلوم لندوة العلماء "بلكنو" في الهند، المجلد الثاني العدد السابع، ص 260، وافتتاحية مجلة الهند، ص 10. ولمزيد من معرفة قدر الإمام الفراهي عند العلماء، أنصح بالرجوع إلى المقالة الماتعة الفريدة: العلامة حميد الدين الفراهي عند العلماء الهنود والفضلاء العرب" بقلم الأستاذ عرفات ظفر، مركز الدراسات العربية والإفريقية جامعة جواهر لال نهرو دلهي الجديدة، العدد، المجلد 49، سنة 1425هـ، ص 73-84

بصورة تصانيفه القرآنية، والميزة التي جعلته فريداً بين المفسرين الكرام، هي أنه قدم فلسفة نظام القرآن على أسس متينة ثابتة، من خلال كثرة مطالعة القرآن الكريم والسنن والأحاديث النبوية والعلوم الدينية والأجنبية، وإن لم يكن له السبق في إيجاد هذا الفن - أي فن نظم القرآن - فإنه أعطى له شكلاً نهائياً، وجاء بمؤلفات قيمة مثل تفسير نظام القرآن، ودلائل النظام، وأساليب القرآن، والتكميل في أصول التأويل.

ولإبراز فكره وترويج آرائه القيمة عقدت هذه الندوة، التي شارك فيها أبرز علماء الهند وباكستان، وعلى رأسهم حضرة العلامة السيّد أبو الحسن علي الحسيني الندوي الذي افتتح جلستها البدائية بخطابه المؤقر، أشاد فيه بمآثره التفسيرية، وأظهر له قدراً واحتراماً كبيراً، ووصفه بأنه إمام المفسرين لهذا القرن، واستعرض منهجه التفسيري وعدّ العديد من ميزاته التفسيرية، منها: تمهيد الطريق لفهم القرآن والربط فيما بين الآيات، والبحث في أقسام القرآن.

وذكر الأستاذ الندوي من بين مصنفاته كتاب "جمهرة البلاغة" خاصة، وهذا الكتاب قد تعذر حصوله لأصحاب العلم؛ لطبعه مرة واحدة،¹ وهي قبل سنة الأربعين من القرن العشرين. وقال إنّ هذا الكتاب يجب أن يعمّ بين علماء العرب أيضاً، وأبدى أسفه الشديد على عدم تعارف شخصيته ومآثره في العالم العربي.

ومن الشخصيات العلمية التي شاركت في هذه الندوة: الشيخ نجم الدين الإصلاحي، من بقايا تلامذة الفراهي والأستاذ صدر الدين الإصلاحي، صاحب الكثير من المؤلفات الدينية المهمة، والأستاذ بدر الدين الإصلاحي، مدير مكتبة الدائرة الحميدية، والبروفيسور عبيد الله الفراهي، حفيد الإمام الفراهي، وأستاذ الأدب العربي في جامعة لكناؤ.

¹ وأبشر طلاب العلم بعامة، وطلاب علم البلاغة بخاصة أنّ كتاب "جمهرة البلاغة" للفراهي، قد طبع طبعة حديثة مخدومة بالعناية والتحقيق، وهي ضمن محفوظات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - الإمارات، ط1، 2017م.

والمقالات التي عرضت في هذه الندوة أكثرها باللغة الأوردية، ونذكر هنا عناوين بعض أهم المقالات، كما يلي:

- 1- "علم التفسير والعلامة الفراهي"، للسيد جلال الدين أنصر العمري، مدير دائرة التحقيق والتصنيف (بعليكره).
- 2- "الإمام الفراهي من خلال خمس ميزات التفسيرية"، للأستاذ عنایت الله السبحاني (جامعة الفلاح بلريا غنج أعظم كره).
- 3- "الدراسة المقارنة لتفسير سورة الإخلاص للفراهي"، للأستاذ غياث الدين الندوي (كلية الطب لكناؤ).
- 4- "نظرية نظم القرآن والفراهي"، للأستاذ محمد عارف العمري (دار المصنفين، شبلي أكاديمي أعظم كره).
- 5- "أصول التفسير عند الفراهي"، للحافظ أشهد رفيق الندوي (عليكره).
- 6- "منهج الفكر الفراهي في ضوء تكايه جمهرة البلاغة وأساليب القرآن"، للأستاذ نعيم الدين الإصلاحی (جامعة الفلاح بلريا غنج أعظم كره).
- 7- "الروايات التفسيرية والعلامة الفراهي"، للدكتور رضی الإسلام الندوي (كلية الطب جامعة عليكره الإسلامية).
- 8- "علم الحديث والعلامة الفراهي"، للدكتور أطفاف أحمد الأعظمي (جامعة همدر دلهي الجديدة).
- 9- "آراء الفراهي في التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور"، للأستاذ نسيم ظهير الإصلاحی (مدرسة الإصلاح سراي مير أعظم كراه).
- 10- "حواشي الفراهي على الرسائل لابن تيمية"، للأستاذ ضياء الدين الإصلاحی،

رئيس دار المصنفين شبلي أكاديمي أعظم جراه.

11- "تأثير الإمام الفراهي في كتاب سيرة النبي لشبلي النعماني"، للدكتور ياسين مظهر الصديقي الندوي، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة عليكره الإسلامية.

12- "الفكر الفراهي في ميزان شبلي"، للدكتور مسعود الرحمن خان الندوي، أستاذ في كلية الدراسات الآسيوية الغربية بجامعة عليكره الإسلامية.

13- "فكرة الإمام الفراهي حول الحكمة الإلهية"، للأستاذ نظام الدين الإصلاححي، رئيس جامعة الفلاح بلريا غنج أعظم جراه.

14- "فكرة الفراهي حول الحاكمية والخلافة"، للدكتور عبيد الله فهد الفلاح (جامعة عليكره الإسلامية).

15- "مسلك الفراهي في الحديث"، لسلطان أحمد الإصلاححي (دائرة التحقيق والتصنيف الإسلامي بعليكره).

16- "نظرية الإمام الفراهي في الشعر والأدب"، للدكتور عبد الباري شبنم السبحاني.

17- "أفكار الإمام الفراهي التقديرية في الأدب والبلاغة"، للدكتور محمدرشد الندوي، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكره الإسلامية.

18- "الإمام الفراهي: حياته ومآثره" لظفر الإسلام الإصلاححي، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة عليكره الإسلامية.

19- "أساتذة الفراهي"، للأستاذ شرف الدين الإصلاححي (باكستان).

20- "المسلك الاقتصادي للفراهي"، للدكتور عبد العظيم الإصلاححي، أستاذ الاقتصاد بجامعة عليكره الإسلامية.

21- "العلامة الفراهي في ضوء مكاتيب شبلي النعماني"، للدكتور أبو سفيان الإصلاححي،

أستاذ اللغة العربية بجامعة عليكرة الإسلامية.

22- "الإمام الفراهي ونظراته الثاقبة الحساسة" لترجم القرآن في اللغة الهندية السيد محمد فاروق خان (دهلي).

وبالإضافة إلى هذه المقالات تم عرض العديد من المقالات في اللغة العربية، وهي:

23- "مكانة الفراهي بين المفسرين"، للبروفيسور معين الدين الأعظمي، رئيس قسم اللغة العربية في دائرة اللغات الأجنبية بحيدرآباد.

24- "المقارنة بين شعر الفراهي والشعر العربي الجديد"، للدكتور محمد أسلم الإصلاحي، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كاشمير.

25- "الأستاذ الفراهي من خلال كتبه في القواعد"، للدكتور شميم الحسن أمانة الله (جامعة جواهر لال نهرو، دهلي الجديدة).

26- "المفسر المهم"، لحبي الدين الغازي، طالب جامعة الفلاح بلرياغنج أعظم جراه.¹ كما أقامت مكتبة الدائرة الحميدية التي تهتم بتأليف الفراهي- معرضاً لتصانيفه وآثاره التي طبعت في هذه المكتبة، والتي منها:

- (1) تفسير نظام القرآن. (2) مفردات القرآن. (3) إمعان في أقسام القرآن. (4) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح.² (5) جمهرة البلاغة.³ (6) أسباق النحو.⁴ (7) دلائل النظام.⁵ (8) أساليب القرآن.⁶ (9) أصول التأويل.⁷ (10) القائد إلى عيون

¹ انظر: أبا نافع الفلاحي: ندوة علمية حول الإمام الفراهي مجلة البعث الإسلامي، المجلد 37، العدد 2، ص 88 وما بعدها.

² أثبت فيه أنّ إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، وليس إسحاق عليه السلام على رأي اليهود.

³ يرفض فيه علم البلاغة المنقول عن اليونان، ويضع أساس علم بلاغة إسلامي جديد.

⁴ في جزأين بالأوردية

⁵ حول النظم؛ أي تسلسل المعاني في سور القرآن الكريم.

⁶ حول أساليب البيان.

⁷ التي ينبغي مراعاتها عند تفسير القرآن

العقائد.¹ (11) في ملكوت الله.² (12) ديوان أبي أحمد الأنصاري.³ (13) ديوان حميد.⁴ (14) حجج القرآن.⁵ (15) كتاب حكمة القرآن،⁶ وغير هذه التصانيف له رسائل قرآنية، لم يكملها الإمام في حياته، ولم تتحل بحلية الطبع حتى الآن.

وفاته: كان الإمام الفراهي بحالة صحية جيدة، ومُلتزماً للرياضة البدنية؛ لكنه كان يُعاني من الصداع الشديد، ومن احتباس البول، وقد واجه هذه المشكلة مرات عدة، فرحل إلى مدينة (مهورا)؛ ليستشير طبيباً نطاسياً من أبناء قريته يعمل هناك، فلم ينجعه الدواء، ولم يرزق الشفاء، وأنهكته العلة، فأجريت له عملية لم تتكامل بالنجاح، فمات رحمه الله تعالى في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة 1349هـ (الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م)، عن عمر تسعة وستين عاماً، ودُفن في المدينة المذكورة آنفاً في مقبرة الفقراء، تاركاً وراءه إرثاً فكرياً عظيماً، لم ينشر إلا بعد وفاته بسنوات.⁷ وقد رثاه عدد من أصحابه وتلامذته بقصائد عربية وفارسية وأوردية، منها ما قاله الشيخ عبد الرحمن الكاشغري (ت: 1311م):

ويعطر الأيام من أنفاسه عرف الهدى والعلم والعرفان
قد كان كعبة سودد للبركات مشيد الأركان
ويد السماح وهامة الهمم العلى ولسان صدق كيما
ومحجة الحسنى ووجه أهلها ويمين دين الحق والإيمان

¹ حول العقائد الإسلامية في ضوء القرآن

² حول النواميس الكونية في ضوء القرآن

³ ديوانه للقصائد العربية

⁴ مجموعة قصائده بالفارسية

⁵ في الفلسفة القرآنية

⁶ حول الحكمة في القرآن وطرق استنباطها، وهو أيضاً غير مطبوع.

⁷ انظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ص 1267، ومجلة الهند، ص 17

قراءة في كتاب حجج القرآن، وبيان مفاصله ومعاقده

مضت الإشارة إلى بيان اهتمام الفراهي بالعلوم العقلية أيام طلبه للعلم، إذ كانت من المقررات الإجبارية في عصره، كما اهتم بالفلسفة الحديثة حينما دخل كلية عليكره، ونال فيها درجة الامتياز.

يقول الأستاذ عبد الماجد الدرايادي- الذي كان من المتخصصين في الفلسفة الحديثة:- "إنّ الفراهي قد درس الفلسفة دراسة واسعة وعميقة جداً، وكان يقرأ أحدث ما يصدر في الغرب من كتب الفلسفة والمنطق قراءة بحث ونقد ومقارنة"¹.

وكان من أعظم كتبه في هذا الحقل المعرفي بالغ الخطر، كتاب "القائد إلى عيون العقائد"، وكتاب "حجج القرآن"، وهذا الأخير- محل الدراسة- لم يُقدر للفراهي أن يكمله ويمتّه، وهو من الكتب التي لم تُطبع بعد، خلاف نسخته المنشورة ضمن أعمال الدائرة الحميدية بسراي مير أعظم كره، في طبعها الأولى والوحيدة، سنة 2009م. جاء الكتاب في ثلاثمائة وخمسة عشرة (315) صفحة، وهو جزء من مقدمة تفسير الفراهي "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، الذي لم يتمّه الفراهي كما هي العادة في كثير من مؤلفاته على نحو ما سبقت الإشارة إليه في تحرير منهجه.

وقد وضع الفراهي هذا الكتاب؛ للكشف عن طريق القرآن في الاستدلال والحجاج، وإثبات فضله وعلوه على مناهج الفلاسفة والمتكلمين في جدلياتهم وأساليب حجاجهم، مقرونة ببيان ما فيها من ضعف وتهافت وفساد من الناحية العقلية الصريحة والنقلية الصحيحة، وقبل ذلك كله من جهة الفطرة السليمة، ثم قام بشرح الحجج والبراهين التي احتج بها القرآن على التوحيد والرسالة والمعاد، وهي جماع العقيدة الإسلامية، داعماً ذلك بتأصيلات بارعة فريدة، مستنبطة من نصوص القرآن الكريم، على قدر

¹ من مقالة لعبد الماجد الدرايادي في صحيفة الداعي، عدد 3 ديسمبر، 1976م، نقلاً عن كتاب "مفردات القرآن"، ص 25

من التأمل وقوة النظر، في ظلال المعنى وأفياء الدلالة؛ فأراد الله أن يكون كتابه جامعاً بين التنظير والتطبيق.

نهض الكتاب على ثلاث مقالات اشتملت كل مقالة على عدة مباحث؛ المقالة الأولى في انتقاد المنطق والفلسفة والكلام، والمقالة الثانية في تأسيس العلم، والمقالة الثالثة في حجج القرآن. يعني في هذا المقام المتصل ببيان التمكن من العلوم العقلية لدى الفراهي، المقالة الأولى منه في أبوابها الثلاثة: انتقاد الفلسفة والمنطق، وعلم الكلام. وهي شاهدة على قوة الملكات العقلية لدى الفراهي، ونضوجه المعرفي بالعلوم العقلية.

ولتأمل ذلك المنحى العقلي الدقيق الذي تسلح به الإمام الفراهي في تأسيس الكتاب عليه، وتقرير البيان فيه من خلال نصوص الكتاب؛ حيث يقول: "وكنت أجد في القرآن أصولاً للاستدلال والنظر، أقرب إلى العقل، وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها، فتأكد عندي الحاجة إلى جعلها موضوع علم مستقل. وعرضت جملة منها على بعض الأذكياء من العلماء، فألح علي بإتمامه غاية الإلحاح، فرجوت أن يتقبله أهل النظر، ويزول به - بإذن الله - ما منع الناس عن فهم ما جاء به القرآن من بوالغ الحجج؛ لما اشتغلوا به من العلوم السافلة المبعدة من استقامة العقل وسداد الفكر، وذلك من الجهة الكلية الأصولية".¹

ومن النصوص الناطقة ببيان قدر المستويات العقلية، ومدى حضورها في دراسات الفراهي، قوله في الكتاب نفسه: "إن أكثر الذين معظم همهم التدين، والاشتغال بالكتاب والسنة، يظنون أنّ طريق العقل مبانٍ للتعليم الإلهي، فيزعمون بأنّ الإيمان مبني على إخبار من الأنبياء عليهم الصلاة وإنما عرفناهم بالمعجزات، فكل ما علمونا من الإيمان والشرائع تقبلناه بحض إخبارهم؛ فإنه لو كان للعقل سبيل إلى علوم

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: حجج القرآن، الدائرة الحميدية، ص 5

الدين، لكنا في غناء عن الوحي، ولولا ذلك لما مدح الله الإيمان بالغيب.

ومن غلبة هذا الظن، زعموا أنّ الشرائع كلها مبنية على أمر الله تعالى بها، فيلزمنا أخذها من غير طلب الحكمة فيها. ولما صاروا على هذا الرأي، صرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها، فكيف بالتفكير في دلائل القرآن؟!

والباعث الأصلي على هذا الرأي ما وجدوا عياناً من الخبط والشطط في المنتسبين إلى العقل من الفلاسفة والمتكلمين، فأساءوا الظن بالمعقول. ولكن قد تبين لي أنّ ضلالهم لم يكن من جانب العقل؛ بل من تسلط التفلسف، وتركهم طريق الفطرة التي هدى الله سبحانه إليها بكتابه، وإرشادات رسوله. فرأينا الحاجة إلى ذكر هذا الطريق؛ ليركنوا إلى ما جاء به القرآن من الحجج البالغة والحكم البازغة، ومن الحث على استعمال النظر والفكر، ومن مدح أرباب العقل والحجر".¹

أعود فأقول: إنّ هذا الكتاب الفخيم على جلالته قدره لم يطبع بعد كما سبق وذكرنا، وإنما وجدت نشرته الفريدة - حسب اطلاعي ومبلغ بحثي - في الدائرة الحميدية بسرأتي مير أعظم كره، وقد حملتني الرغبة الملحة على إبراز الكتاب، ومحاولة تقريب نصّه العالي، الذي يعدُّ في نظري من التراث الفخيم المسكوت عنه، كما حملتني الرغبة كذلك على ابتعاث مكانة الكتاب العلمية من جديد للناس بعامة، وللمتخصصين في علوم القرآن والمستغلين بتفسيره على وجه الخصوص؛ رغبةً وأملاً في تيسير فهم الكتاب، وتقريب تأصيلاته، والإنباه على بعض فوائده الجمّة، وتحليل منهج صاحبه وفلسفته الخاصة، سيما وقد اعتلى ذروة الرسوخ والدقة في مباحث المعقولات والمنقولات فكان ما كان من العزم على القراءة والتقديم والتعليق.

ولأجل ذلك، لم يكن الفراهي عندي كغيره من العلماء؛ ذلك أنّ الفراهي ينطلق في تقريره وتأسيسه لمسائل العلم من خلال قواعد محكمة أشد الإحكام، وموزونة بميزان

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: حجج القرآن، ص 19-20.

دقيق أوفر الدقة.

ومن المتفق عليه أنّ عقل الرجل يتراءى لك من خلال بيانه، فكيف والرجل هو الإمام الفراهي؟!

ولنقف سوياً على قدر عقله من خلال هذا النص الذي يقول فيه: "إنّ العقائد ليست بالظن فلا يُعتمد فيها إلا على صحيح النقل وصريح العقل؛ ولذلك وجب الاكتفاء بقدر ما يحتمله المعتقد، ويكون فيه على بصيرة وإيقان؛ ولذلك قلت مسأله في عهد الصحابة؛ فإنهم اعتقدوا ما علموه وصدقوه، وإنما كثرت المسائل الخلافية فيما بعد؛ لفساد القلوب، وقلة التقوى، وسخافة العقول، وغلبة الجاهج".¹

ويقول كذلك: "ثم للعقل مجال واسع في تطلب الدلائل التي أودعها الله النفوس والآفاق؛ فإنها لا تُحصى؛ ليزداد بصيرةً ونوراً واطمئناناً. وفي تعيين المراد يرد المشتبه إلى المحكم والحكم باليقين وترك المظنون، فالعقل ليس بمعطل في طريق النقل أيضاً؛ بل هو المعتمد في فهم معاني النقل، وهو المخاطب فيما نزل علينا".²

وهذا النضوج العقلي والوعي المعرفي الذي تمتع به الفراهي، هو الذي جعل العلماء والباحثين ممن حضروا مجالسه ومحاضراته يشبهونه بشيخ الإسلام ابن تيمية،³ في إجادة علوم المنقول والمعقول، وآداب الأمم وتاريخها وفلسفتها، ثم تسخير ذلك كله في خدمة القرآن الكريم وعلومه، خدمة منقطعة النظير، وكيف لا يُشبهه بشيخ الإسلام ابن تيمية وهو صاحب الكتاب الدامغ: درء تعارض العقل والنقل، وهو كتاب قلّ أن تجد له نظيراً في مسأله وتقريراته وبياناته الفريدة، فبان بذلك مدى التقائهما في إجادة المعقول والمنقول. ولكل منهما بيان ومنهج وفهم واستنباط، والله يؤتي رزقه من يشاء.

¹ الإمام الفراهي: القائد إلى عيون العقائد، ص 4

² المصدر نفسه، ص 5

³ انظر: مفردات القرآن، ص 26

وحول هذا التفرد وشرف التخصص الذي حازه الإمام الفراهي في هذه العلوم، نال الشهادات المتواترة، وحاز الثناءات المتعاقبة من تلامذته، ومن هؤلاء تلميذه العلامة سليمان الندوي الذي قال فيه: "ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، ففضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مُكَبَّ على أخذ ما فات من العلماء، ولَفَّ ما نشره، وَلَمَّ ما شَتَّوه، وتحقيق ما لم يحقِّقوه، فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن وصدوره يتدفق بحثًا عن مشكلاته، وقلبه يجري كشفًا عن معضلاته".¹

وبشيء من التفصيل وتحديد البيان، يحسن بنا أن نذكر أهمية الموضوع وأسبابه في ضوء رؤية الإمام الفراهي:

أما الأهمية التي دفعته إلى تأليف الكتاب وتحرير مباحثه، فهي على جهات كثيرة، ذكرها في مقدمة كتابه، منها:

- (1) من جهة كونه أساسًا ومفتاحًا.
- (2) من جهة أنه خطاب إلى أعلى ما فُطر الإنسان عليه من العلم والرشد.
- (3) من جهة أنه الفارق بين الدين الحق الذي بني على الحكمة والهدى، والذي بني على محض التقليد والعمى.²

وأما الأسباب التي دعت به إلى تأليف الكتاب، فهي على النحو الآتي:

- (1) الزعم أنّ طريق العقل مباين للتعليم الإلهي.
- (2) ابتلاء كثير من الناس بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى، مفضية إلى محض الحيرة وصريح العمى.

¹ من ترجمته الملحق بكتاب "إمعان في أقسام القرآن"، ط دمشق، ص 17.

² انظر: الإمام الفراهي: حجج القرآن، ص 18

- (3) أباطيل المنطق التي منعت الناس من معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ.
- (4) الوهم بأنّ مسائل التوحيد والربوبية إنما يُبرهن عليها بطريق الفلسفة، وأنّ الأنبياء لم يأتوا إلا بالإقناعات.
- (5) الغفلة عما هو وراء الحياة الدنيا؛ لشدة انهماك الناس والتهايم بالمشاغل المحسوسة الحاضرة.
- (6) الظن بأنّ القرآن إنما خوطب به الأميون البسطاء، فلا يكون موضعاً للتدبر وإمعان النظر.
- (7) الظن بأنّ القرآن كثير الاقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى من غير مناسبة بينهما.¹

قراءة في مفاصل كتاب حجج القرآن ومعاقده

بعد قراءة مكرورة ومرّرة لكتاب "حجج القرآن"، أستطيع أن أقدم دليلاً هادياً وكشافاً معيناً على رصد الفرائد، وتقييد الفوائد، وتمضيد المعارف التي حواها هذا الكتاب الجليل، وقد استقرّأتها بعد طول نظر، ومعالجة طويلة، وهي على ترتيب نصوص الكتاب على النحو الآتي:

- (1) الكتاب جزء من مشروع الفراهي القرآني العظيم، وهذا يعني أنّ القراءة الدقيقة المستوعبة لكتاب الحجج، والوقوف على فلسفة الفراهي لا تتحقق إلا بمطالعة هذه الكتب أو بعضها؛ فإنها آخذة برقاب بعضها، مثل كتاب: (دلائل النظام- والتكميل في أصول التأويل- وحكمة القرآن- وأساليب القرآن- وأوصاف القرآن- والقائد إلى عيون العقائد)، وهي مجموعها تعين على فهم نصوص الكتاب، والوقوف على عصب منهج المؤلف.
- (2) تتجه كتب الفراهي بعامة وحجج القرآن بخاصة إلى خطاب الإنسان من جهة فطرته، وتدعوه إلى الحق من جهة بصيرته.

¹ المصدر نفسه، ص 19-20.

(3) أقام الفراهي عُمد هذا العلم في تأسيس كتابه على سبعة أركان، أهمها اثنان:

الأول: معارضة المشتغلين بالعقليات الزائفة عن طريق الفطرة، وبيان أنّ أصول الاستدلال في القرآن أقرب إلى العقل، وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، وأنّ توهم وقوع المعارضة بين المعقول والمنقول، أمرٌ لا محل له من الصحة والقبول.

الثاني: بيان أنّ أباطيل المنطق لها أثر كبير في حجب معرفة دلائل القرآن.

(4) اكتسب كتاب حجج القرآن خصوصية علمية فريدة، ويرجع السبب في ذلك إلى قوة الفراهي، وتوغله في دراسة أفكار فلاسفة اليونان، وفلاسفة المسلمين، وفلاسفة الغرب المحدثين، وكتب المتكلمين. ومن وجوه الخصوصية كذلك، أنه كان نقادةً جهبذاً، خبيراً بأسرار صناعة النقد في التمييز بين الغث والسمين، والحق والباطل.

(5) الإمام الفراهي قام بتسويد الكتاب أكثر من مرة، كانت أولها مصحوبة برغبة في تقسيم الكتاب إلى قسمين:

(أ) قسم عمومي: وهو يشكل أساساً ومهاداً لما يليه، حيث الاعتناء بالمباحث الأصولية: كالوحي والحجة والعلم والظن واليقين والشك والعقل والقلب والفطرة.

(ب) وقسم خصوصي: وفيه تفصيل حجج القرآن على الألوهية والمعاد والرسالة، وهو القسم المقصود من وضع الكتاب. وبداخل القسمين، عالج الفراهي فصولهما على أنحاء مختلفة، حتى انتهى به الأمر إلى خطة بديعة متكاملة بفصولها المعدودة. وقد قسم الكتاب في هذه الخطة الجديدة بعد المقدمة إلى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: انتقاد المنطق والفلسفة والكلام.

المقالة الثانية: تأسيس العلم.

المقالة الثالثة: في حجج القرآن.

(6) سعى الكتاب إلى تقديم ثروة فكرية نادرة في مخالفة مذهب المنطقيين والفلاسفة والمتكلمين في الاصطلاح والتقسيمات والأصول وحقول التطبيق، قلما نجد لها نظيراً في كتب القدماء والمحدثين.

(7) ينهض الكتاب في أبواب مقالاته الأولى على كشف وجوه الالتباس عند المناطق في مسائل كثيرة، من أهمها ما يتعلق بحقيقة دلالة الأسماء، وهو الأمر ذو المآلات الخطيرة في فهم النصوص وتأويلها.

(8) أصل الفراهي تأصيلاً بديعاً للحدود، وقرّر أنّ العلم بحدود الشيء هو العلم بماهيته؛ لأنه يعين على التمييز والتميز يحفظ عن التخليط في البحث، والمعرفة بنهاية العلم، وقد أشار مع هذا التأصيل إلى نظر المناطق إلى قضية الحدود، ومدى اضطرابهم وتخليطهم فيها.

(9) لم يقبل الفراهي الزعم بأنّ طريقة المناطق في تقسيماتهم بعامة هي أحسن الطرق في التعليم؛ بل رآها من الطرق الموهمة، حتى لو رأى أصحابه أنها من وسائل تسهيل البيان؛ وهو الأمر الذي يكشف فلسفة الفراهي في الثورة على ما هو شائع ذائع، إلا أن يكون مقروناً بدليل له من القرائن ما يؤيد صحته وصوابه.

(10) كما ثارت ثائرة الفراهي على أصول الاستدلال عند المناطق، سواء في الحدود أو الأقيسة، فسدّ أبواب المغالطة عندهم في الاستدلال، ثم بينّ الميزان الدقيق في هذا الباب.

(11) اشتدّت عناية الفراهي في أكثر من موطن ببيان طريق الحكمة، فعينها، ودلّ على أنها الرجوع إلى الفطرة وأصلها الراسخ، وأنّ هذا يستلزم البراءة من شغب السوفسطائية، ونبد أباطيل الفلاسفة الدائرة حول خطأ الغاية، الذي يجرّ حتماً إلى الضلالة العظمى في أمور الديانة.

(12) بالاقتراب من عقل الفراهي، أستطيع أن أحرر قاعدة من أنضج القواعد في

باب الحجج والمناظرة حيث شكّلت عصب منهجه وفلسفته في العلم وهي أنّ أيّ خطأ في أساس العلم يؤدي إلى الوقوع في الظلمة العلمية، وأيّ خطأ في تحرير مقاماته وتطبيق أحكامه، يؤدي إلى الظلمة العملية. وهذا نفيس، فعضّ عليه بالتواجد، وتأمله كثيراً!!.

(13) من دواعي الإعجاب بفلسفة الفراهي، إنباهه إلى النكات العلمية الدقيقة التي تمثل دعائم قوية للبناء الفكري، ومن ذلك برهنته على أنّ من عجائب الحكمة الإلهية أنّ الباطل يخدم الحق، ثم ضرب على ذلك مثلاً بالفلسفة، مع الإقرار بزيغها.

(14) أكّد الفراهي أنّ منشأ الضلال هو الخطأ في ترتيب العلم وتأسيسه، وفي الغاية منه، وهو ما أدّى إلى اضطرابات وتوهّمات وحيرة مظلمة عند الكثيرين، جعلت المعلوم مجهولاً، والثابت معدوماً.

(15) أفاد الإمام الفراهي بتأكيد عناية القرآن الكريم بالحجج القطرية، التي بنيت على أساس الفطرة الإنسانية، كما أشار إلى ضرورة الانتباه لدلالاتها، من خلال النظر في المبادئ المغروزة في فطرة الإنسان، وأنّ الرغبة عن هذا النظر والفكر يعني استحباب العمى على الهدى.

(16) من الإفادات الدقيقة الواردة في كتاب الحجج، أنّ الحواسّ تشتمل على ثلاثة أمور: إدراك كيفية، ولذة أو ألم خاص، ويقين بالوارد الخارج عن المدرك.

(17) فطرة النفس الإنسانية لها قوتان: علمية وعملية، وهاتان القوتان يبنيان فيها اليقين، فالقوة العلمية تحصل من جانب الإدراك، والقوة العملية تحصل من جانب الذوق؛ وبالإدراك تحكّم على الشيء بالوجود أو العدم، وبالذوق تحكّم بكون الشيء مرغوباً فيه، أو مرغوباً عنه.

(18) من عطاءات الفطرة للنفس: الإدراك، والذوق، والحافظة، والذكر، والفكر والاختيار، والتمييز.

(19) من أبرز عثرات المتفلسفين أنّ فريقاً منهم أثبت أساس اليقين من طريق العقل فحسب، بينما زعم آخرون أنه لا علم ولا يقين إلا بالأثر المحسوس فقط.

(20) للعقل مراحل في بلوغه تشبه مراحل بلوغ الجسد، فالعقل قبل بلوغه يشتغل بما ظهر؛ ولكنه بعد البلوغ يطّلع على ما بطن؛ وسرّ ذلك أنّ العقل يتسع حيناً فتتسع دائرة نظره، ويضيق حتى تضيق دائرة الفكر والنظر تبعاً.

(21) قسم الفراهي العلم إلى درجتين: علم اضطراري، وهو العلم بالباري تعالى والعلم ببريته يريد: النفس والخارج. وعلم استدلاي، وهو العلم بصفات الباري تعالى اللازمة والعلم بأحوال النفس المشهودة، وأحوال ما في الخارج المشهود.

(22) من مهمات البناء العقلي في الاستدلال، العلم بأنّ كل علم تفصيلي فهو منطوق في العلم الإجمالي؛ ولكنه يحتاج إلى نظر ثانٍ، وما من شك أنّ الإنسان كلما جدّد النظر والتأمل، صحب ذلك الوقوف على جمل من الفوائد والمعارف، وطرف من الهدايات؛ لتحرير التأويلات الغامضة.

(23) الاستدلال على الشيء يكون على وجوه، يجمعها وجهان:

- الاستدلال بالأثر.

- الاستدلال بعدم الأثر عند ذهاب المؤثر.

(24) حذر الفراهي من العوائق التي تحول دون العلم الفطري الموجود في النفوس، ومن أبرزها: الاشتغال بالأسفل الذي يصرف عن المعالي، والاستكبار عن مشقة طلب المعالي واستئصال ذلك.

(25) من القواعد الجليلة في الحجاج والمناظرة، أنّ صحة العقل والفؤاد أهم من صحة صورة الاستدلال، ورعاية شروط الأشكال، كما أنّ صحة النظر أهم من صحة المنظار.

(26) مما ينبغي تحريره وفهمه أنّ الأدلة تنقسم إلى أنحاء متفاوتة، وجهات مختلفة،

من ذلك:

- من جهة الغاية.
 - من جهة النسبة التي بين الدليل والمدلول عليه.
 - من جهة المشاعر وما نشعر به في الفطرة.
 - من جهة مواضع الأدلة.
- (27) بناء اليقين يحصل بقدر الموافقة وعدم المعارضة بين العلم والوجود والحسن؛ فإن العلم الحق لا بد أن يوافق الوجود، والوجود لا بد أن يصدر من حسن، ويصير إلى غاية حسنى. وطريق الحكمة لا يُغلق في وجه صاحبه إلا إذا وقعت المخالفة عنده بين العلم والوجود.

(28) من الأصول المهمة في بناء الحكمة أنّ الحق عند الموحدين موافق للوجود، والباطل مطابق للإبطال، وأنّ الظلمة العلية تفضي إلى الظلمة العملية، شاهد ذلك أنّ صاحب الشك والظن لا يمكن بحال أن يكون له اطمئنان في عمل؛ إذ بناء العمل على اليقين لا الشك.

(29) سبيل العلماء المحققين هو التوفيق والتحقيق بين العقل والعلم؛ إذ لا بقاء لهما إذا ناقض بعضهما بعضاً.

(30) حياة العقل وبنائه على حسب ما أودع فيه من التمييز والحكم؛ فالعقل بفطرته مُحِبُّ للعلم والإيقان.

(31) حقيقة الحكمة التوفيق بين الموجودات الظاهرة والباطنة، والمدارك والمشاعر.¹

(32) خصائص طريق القرآن في الاحتجاج: عدم بسط الأدلة؛ ليكون عوناً على الفكر

¹ للفراهي كتاب جليل القدر اسمه "حكمة القرآن"، يُنصح بالناية به وحسن تدبره، والعمل على إبرازه وخدمته ونشره.

والتدبر، فيترى العقل في ضوء ذلك. مزج أقسام الأدلة الآفاقية والأنفسية واللمية. مزج العقائد بالأحوال والأعمال. مزج الأدلة بالتنبيه على القوى الباطنة المستعملة فيها.

(33) من أدق وأغمض أصول الحكمة في إيراد الأدلة، أن نفهم أنّ القرآن الكريم جاء بأوليات الهداية من التوحيد والشرائع على غاية الوضوح، إلا أنه علق تربية العقول بأعمالها. ولو أنّ القرآن الكريم فصل كل دليل، وبسطه غاية البسط لم يكن لتربية العقول أثر، وإنما سيكون التلقين والحفظ.

(34) منهج القرآن في ذكر الحجج هو مخاطبة العقل والقلب معاً، وتركيب الأدلة الإينية مع اللبية، وخلط الدلائل بالترغيب والترهيب.

(35) تكمن بلاغة أمثال القرآن الكريم في تفصيل المشبه به؛ وذلك لغرضين:

(أ) تطويل الذكر؛ لكي يتمكن التصوير في ذهن السامع.

(ب) تكميل التصوير؛ لكي يتبادر الذهن إلى الحكم؛ إما بمحض كون المشبه متصفاً بوصف المشبه به، أو بكون تفاصيل المشبه به المذكورة في المثل مطابقة لتفاصيل المشبه التي لم تذكر، وهذا الأخير يحتاج إلى تفكير ونظر؛ لمعرفة وجه المطابقة.

(36) تركزت فلسفة الفراهي في تدبر نظام القرآن بعامة، وتدبر حكمته وأوصافه وأساليبه وحججه وأمثاله بخاصة في إجراء القاعدة الكلية العظيمة، وهي تأويل القرآن بنفس القرآن؛ فإنّ في ذلك حقاً محضاً، وليس معه خلط من الباطل.

(37) من دقائق ما وقف عليه الإمام الفراهي وأنبه إليه فيما يتعلق بفساد التأويل- أنه أكد تأكيداً واسعاً من خلال الشواهد- أنّ الانصراف عن صحيح التأويل يقع حين ندخل في تأويل القرآن ما ليس منه، إذا لم نجد مخالفاً مخالفة صريحة للقرآن، وهذا هو عين فلسفة البطلان؛ لأنّ ما لا يخالف القرآن صراحةً ربما يكون باطلاً في نفسه، أو ناقصاً أو معوجاً، وهذا يحتاج إلى دقة نظر الراشخين، ووفور تحقيقاتهم؛ لغموضه وخفائه.

(38) من الإفادات الدقيقة الواردة في الكتاب ما جاء بياناً شافياً لحقيقة الحجّة الصحيحة، وأنها لا تلجئ إلى اليقين، ولو كانت واضحة بالغة؛ الأسباب هي- في الحقيقة- علل وقوادح، تجتمع بكليتها على إنكار الحجّة إجمالاً وتفصيلاً، ومن ذلك: المجادلة بالشكوك والظنون، والتقليد الباعث على اتهام الخصم ونسبته إلى سحر البيان، والحيرة الناشئة عن الوقوع في أسر دناءة النفس وجهالاتها، والكبر مع الحسد، وحبّ الشهوات والدنيا، والتوهم أنّ علامة الحق أن يكون مُلجئاً إلى اليقين، فإنّ ألجأ إلى الحيرة والظن رجع بالتهمة إلى الحجّة، فهوّن من صحتها، وأفسد دلالتها، وبلادة العقل، وفساد النظر والعقل؛ بسبب اقتراف السيئات التي بدورها تحجب المرء عن التأثر بالحق، وتدعوه إلى الاشمئزاز عن قبوله.¹

(39) من الأصول العامة التي اعتنى الفراهي ببيانها والتركيز عليها، أنّ سلامة الفطرة تهدي إلى موضع العقل السليم والعلم اليقين والعمل الصالح، فلا تعارض البتة بين الفطرة الصحيحة والعقل السالم من الآفات، فبها- أي الفطرة- تجتمع العلوم كلها للإنسان؛ إما بالبداهة من جهة، وإما بالنظر والاستنباط من جهة أخرى.

(40) طريق الفطرة الإنسانية هو هدايات العقل السليم، والعلم اليقين إلى الرشد، وأن يكون ذلك كله مشفوعاً بالإرادة والعمل؛ لأنه كلما كانت الإرادة منقاداً للعقل والعلم، كان ذلك دليلاً على استقامة الفطرة، أما إذا انقاد العقل والعلم للإرادة فهو الفساد العريض؛ فبحريّة العقل والعلم يتبين الرشد من الغي، وبحريّة الإرادة يهتدى إلى الدين القطري، الذي لا إكراه فيه.

(41) من الأصول التي يكون بها العقل ميزاناً للتمييز بين الحق والباطل، أنّ الحق الجلي الواضح لا بد من اتباعه إيماناً وعقلاً، وأنّ الظن إذا خالف الحق الصريح يُترك، وإذا دلّت عليه الشواهد يتبع، وأنه لا مناقضة بين حقين.

¹ هذه الأسباب الصارفة عن الحق من الأهمية بمكان، فاجعلها منك على ذكر؛ فإنها نفيسة غالية.

(42) أكثر دلائل القرآن إنما هي لواضع تجلب النظر، وقوارع تنبه الفكر، فتفصيلها يبعد عن نهج الفطرة في الفكر، ويحرم الذكي الفصيح من تتبع لطائف المعاني.
(43) لا تكون الحجة حجة إلا بأمر ثلاثة:

(أ) مادة الحجة، وهي المقدمات.

(ب) ومطلوب الحجة، وهو النتيجة.

(ج) وصورة الحجة، وهي تأليف المقدمات على هيئة تثبت بها النتيجة.

(44) تخفى وجوه الاحتجاج على الذين تعودوا الطرق المولدة والاصطلاحات الأعجمية.

(45) طرق القرآن في الاستدلال كثيرة منها: ثبوت الشيء بثبوت لوازمه، والمعلوم يحكم على المجهول، والعلم بالشيء ثم الجهل بلوازمه من الغفلة وقلة الفكر، والدعوة إلى أمر مسلم بين الفريقين، وجعل اليقين أصلاً، وردّ الظن إليه، ويُؤخذ بالأقوى عند تعارض الدلائل الظنية.

(46) من أخص هذه الطرق: الاستدلال من الظاهر على الباطن، ومن البادي على الخافي، ومن الفرع على الأصل. كما أنّ من أدق طرق احتجاج القرآن: تنبيه الإنسان على شهادة فطرته، وهو مسلك نفيس مؤثر. ومنها كذلك: الجمع بين الحجة العامة والحجة الخاصة في مقام واحد.

(47) من أجلّ التنبيهات الدقيقة التي تفرد الفراهي بها، أنه رتب ظهور قوى الفطرة على منازل، كما أشار إلى امتياز العقل عن الحواس في أمر دقيق، هو همه وهمته المصروفان نحو الحق الدائم الباقي؛ فالغيب والشهادة عنده سواء، إلا أنه يؤثر الحق الباقي على الحاضر الفاني، بخلاف الحواس؛ فإنّ همها الحاضر فحسب.

هذه هي أهمّ المفاسل، وأبرز المعاهد التي وقفت عليها، وأنبهت إلى فقها هنا، وفي مواضع

مجلة الهند..... الإمام الفراهي وكتابه "حجج القرآن"

من الكتاب، وهو ما يعني غزارة مادة الكتاب، ومدى شموليته للأصول الرائعة في هذا الحقل الدقيق؛ حقل المناظرة والاستدلال والمجاد، إلا أنّ ما خفي عليّ من العلم أكثر بكثير مما ظهر لي. وليس يشكّ إنسان عاقل أنّ القراءات المتعددة للكتاب المؤسس للمعرفة تبرز مع كل قراءة جُملاً من الفوائد، وعطاءات من الفتوح، لم تكن مع سوابق القراءة والاطلاع. والله الموفق، وهو المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!¹

¹ كتاب "حجج القرآن"، دار المعراج، ص 21-88

نظرات في مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي
(في ضوء ما نُشر في "مجلة الهند" عن الإمام الفراهي)

- د. جمشيد أحمد الندوي¹

﴿5﴾

الرأي الصحيح في من هو الذبيح

المدخل: ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء والرسل موجزًا ومفصلاً حسبما اقتضت الحاجة إلى ذلك. ومنها قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام. ومن قصصه قصته مع أبيه آذر الراعي المعبد والصانع الأصنام وقصة كسر الأصنام وإلقائه في النار التي أصبحت بأمر الله برداً وسلاماً وهجرته ومواجهته الملك نمrod وهبته في الشيخوخة الولد ورؤياه في المنام أنه يذبح ولده الحبيب لوجه الله سبحانه وتعالى وقصته مع الملائكة الذين جاؤوا بأمر الله ليعذبوا قوم لوط عليه السلام لسوء أعمالهم. وهذه كلها قصص حقيقية تحمل في ثناياها أبعاداً تاريخية وثقافية ودينية وفي ذكرى الذبح العظيم السنة الإبراهيمية لا تزال الأمة الإسلامية عبر العالم تقدم أضحى كل سنة وتجري إلى يوم القيامة إن شاء الله.

فمن التحريفات الفظيعة التي ارتكبتها اليهود في كتابهم، ما فعلوه في قصة إبراهيم عليه السلام، ولأهميتها الكبرى كان نصيبها من التلاعب أوفر من القصص الأخرى. فلم يكن الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ليرضوا بأن يذهب إخوانهم بنو إسماعيل بطرف من شرف بله اختصاصهم ببيت الله والمنحرف والنبوة الخاتمة. فلم يألوا جهداً في لبس الحق بالباطل، وحاولوا أن يغيروا بنية القصة كلها بالحذف والتبديل والتقديم والتأخير والكذب والافتراء بغياً وظلماً وحسداً.

¹ رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مومباي، مهاراشترا

وإذا أنعمت النظر في جهودهم لتحريف قصة إبراهيم عليه السلام وطمس معالمها وجدتها ترمي من قريب أو بعيد إلى نقطة واحدة، وهي تمويه قصة الذبيح. فإنها مركز الإشعاع في هذه القصة وقطب رحاها بل إنسان عينها. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره. فترى أمر الذبيح في كتابهم عجباً، فهو يستعلن من حيث يتعمدون إخفاءه. وكلما أخفوا جانباً منه انكشف جانب آخر على رغم أنوفهم.

ولما رأى أهل الكتاب أنّ القرآن الكريم لم ينصّ على الذبيح، ومن ناحية أخرى وجدوا المسلمين يؤمنون برسول الله وأتبيائه جميعاً لا يفرقون بين أحد من رسله، ولا يجلون في صدورهم حقداً وتعصباً على الملل الأخرى، ولا يتخرجون من الاستماع إلى كلام اليهود والنصارى في تاريخ الأوثال وقصص الغابرين وفيما لا يمس بعقائدهم وأصول دينهم، صادفوا فرصة سانحة لبث أكاذيبهم ودس أقاويلهم بين المسلمين. ومنهم ومن الذين أسلموا منهم تلقّيت الإسرائيليات التي ملأت كتب التفسير والتاريخ، وأثارت عثيراً ضلّت فيه الحقائق بعض الأحيان أو كادت. وكَم من قول صار أشهر الأقوال، كأنه أحسنها، وإنما هو أضعفها وأوهنها.

والقرآن الكريم ينبّه على تحريفات أهل الكتاب ويقيم الحجّة عليهم، ولكن له طرائقه وأساليبه الحكيمة في الاحتجاج والجدال والتي هي أحسن، فمن غفل عنها، ولم يتدبر نظام الآيات حق التدبر خفيت عليه مقاصد الكلام، ويخشى أن تجوز عليه دسائس المبطلين.

قد أثبت الإمام الفراهي في كتابه الفريد العظيم "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" في ضوء التوراة والقرآن الكريم والأحاديث والتفاسير والمصادر الأخرى أنّ الذبيح إسماعيل عليه السلام وما كان هو إسماعيل عليه السلام وردّ رداً شنيعاً على اليهود والمفسرين في ضوء الدلائل القوية من التوراة والقرآن والأحاديث النبوية والمصادر الأخرى.

خلفية تأليف الكتاب وأسبابه: تمتاز رسالة الأستاذ الفراهي في هذا الموضوع بالتفرد، ففي بداية الكتاب جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب، ثم قدم

ثلاثة عشر دليلاً من القرآن الكريم وحده واستفاد أيضاً مما روي من الأحاديث وأقوال السلف في الباب الثالث، وقدم ملخص البحث في الأخير كي يكشف الموضوع المحدد "من هو الذبيح؟" كالشمس في رابعة النهار وتجلي ظلمة الشكوك والشبهات.¹

وقد تناول علماء الإسلام مسألة من هو الذبيح ضمن تفسير الآية الكريمة "وَقَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ" (سورة الصافات: 107). وأفرد الشيخ عبد الحميد الفراهي (1349هـ/1930م) رسالة وعالج هذا الموضوع بقدر من التفصيل ومن نواجٍ شتى لهدفين أولهما أنّ الذبيح إسماعيل عليه السلام وثانيهما الكشف عن التحريفات في التوراة ولذلك هو جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة على أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ليس إسحاق عليه السلام.

وقد شرح الإمام الفراهي- رحمه الله- في مقدمة كتابه الأسباب الداعية إلى تأليفه، وهي ثلاثة أمور:

أولها: هو مكانتها العظمى في ملتنا، وتكلم على خطر هذه المسألة في تاريخ الإسلام وأهميتها لفهم حقيقة الإسلام نفسه كلاً في غاية النفاسة، وهو باب عظيم من علم أسرار الدين. ولقد وددنا أن نلخص هذا الكلام هنا، ولكن تعذّر ذلك لما يمتاز بيان المؤلف من شدة الإيجاز وحسن الوصف، فكل ما قاله هو الخلاصة بعينها. يقول في آخره: "فمن زعم أنّ هذا الابتلاء وقع على جبل أورشليم، وقربّ عليه إسحاق عليه السلام كان في غطاء كثيف عن حقيقة هذه البعثة العظمى وحقيقة هذا الذبيح ومكانته في ملتنا".

والأمر الثاني: "أنّ في القرآن آيات كثيرة يتوقف فهم تأويلها ونظامها على معرفة هذه المسألة وما يتعلق بهذا الذبيح --- واستيفاء البيان في كتابنا "نظام القرآن" تحت كل آية تشتمل على ذلك الأمر، يفضي إلى تكرار وإطناب. فأفردت له كتابنا هذا، وجعلناه

¹ قد تمت ترجمة هذا الكتاب في اللغة الإنجليزية، وستطبع قريباً، وتكشف هذه الترجمة الإنجليزية عن خيانة علمية للمستشرقين.

من مقدمة تفسيرنا، لكي نحول إليه عند الحاجة".

والأمر الثالث: "أنّ اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر مثل مبالغتهم في ذلك. فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة في أمر إسماعيل والكعبة --- وقد بين الله قصة هذا الذبيح في التوراة ولكن اليهود قد دسّوا فيها أهواءهم فأصلحها القرآن --- ومع أنّ الناقد من علماء المسلمين من أهل العلم والنظر- كما ستعلم- قد استدلوا بنصوص التوراة أنفسها على كون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، فإنّ اختلاف كهتنا جعل هذا الأمر العظيم من الأمور التي لا يعتدّ بها، بل عدم اعتدادهم به أمكن اختلافهم فيه. فإنهم لو علّوا ما لهذا الذبيح من المكانة في ملتنا لتحذروا عن الغفلة في أمره. فهذه الأمور الثلاثة التي كلها على غاية الأهمية احتجنا إلى كشف القناع عن هذه المسألة".

محتويات الكتاب: يشتمل الكتاب على مقدمة (خطبة الكتاب) وثلاثة أبواب (أفساط) وخاتمة.

واستهل الشيخ الفراهي الكتاب بـ"خطبة الكتاب" وهي في الحقيقة مقدّمة للكتاب. وذكر فيها أنه لماذا سماه هكذا قائلاً: وسميته مؤرخاً (الرأي الصحيح في من هو الذبيح)¹. وقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب وسمّاها بالأفساط.

في المقدمة أشار الإمام الفراهي إلى ثلاثة أسباب لتأليف الكتاب، وقد ذكرناها أعلاه. الباب الأول/القسط الأول في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب. في هذا الباب/القسط قدّم الإمام الفراهي في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب عن القضية وأقام الحجّة على أهل الكتاب من كتابهم فذكر 13 دليلاً من التوراة عن مسكن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وموضع الذبح هو المروة التي عند الكعبة. وبهذا الأسلوب العليّ القطعي قد فاز الأستاذ الفراهي

¹ المصدر السابق، ص 21

بالوقوف على اللغة العبرانية في كشف القناع عن حقيقة من هو الذبيح؟

بدأ الإمام الفراهي هذا الباب /القسط بفصلين تمهيداً لاستدلاله من التوراة:

الفصل الأول في معارف تتعلق بشريعة القربان وبالوحي الذي يكون في الرؤيا وهي عشرة أمور.

والفصل الثاني في ذكر أصول ومبادئ للنظر في صحف اليهود. ثم جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة التي عند اليهود على أنّ الذبيح إسماعيل عليه السلام. ومعظم هذه الدلائل جديدة لم يسبق إليها.

وكشف المؤلف رحمه الله في هذا الباب عن كثير من تحريفات اليهود في كتابهم، وفسّر بعض نصوص التوراة مما استغلق عليهم أو تجنبوا بيانه كتماناً للحق وظناً بأنه لن يفتن أحد لوجه الاحتجاج به.

ومن أهم التحقيقات العلمية التي تضمنها هذا الباب تحقيقه لموضع الذبح. وقد تعرّض اسمه في صحف اليهود لتحريف شديد في قراءته وتفسيره. فجاء في سفر التكوين (2/22) حسب الترجمة السبعينية "إلى الأرض العالية" وحسب النسخة العبرانية "إلى أرض موره" وفي ترجمة أقيلا "الأرض المستعنة" وترجمة سماخوس "أرض الرؤيا". وفي السفر نفسه في مكان آخر (6: 12) في السبعينية "البلوطة العالية" وفي العبرانية "ميدان موره". أما في القراءة فقرأوا "مرياه" و"مورياه" و"موره".

وقد أفاض المؤلف في ذكر هذه التحريفات، ثم أورد أقوال بعض علماءهم في الاعتراف بالتحريف في هذه الكلمة والردّ على زعم اليهود بأنّ هذا الموضع هو مكان هيكل سليمان في أورشليم وزعم النصراني بأنه موضع صلب المسيح حسب معتقدتهم. وأشار إلى اقتراح بعضهم أنّ هذا الموضع على جبل جرزيم، وردّ عليه. ثم نبّه المؤلف على مداخل التوهم والتحريف في الكلمة مستدلاً بقواعد اللغة العبرانية ووجود التشابه

الشديد بين الحروف في الخط العبراني مما يسهل عمل التحريف لمن يتعمده.

ثم أثبت المؤلف رحمه الله أنّ الصواب في اسم موضع الذبح هو "المروة" فقال: "إنّ ذلك الموضع هو الذي في مساكن بني إسماعيل ولم يزل مشهوراً باسم المروة. ويؤيد ذلك ما في صحفهم. فإنه قد جاء في سفر القضاة (7:1): "وكان جيش المديانيين شماليهم عند تلّ موره في الوادي، فتبين أنّ هذا تلّ موره كان معسكراً للمديانيين. ولا شك أنّ المديانيين هم العرب. واسم مديان يطلق عليهم وعلى أرضهم. وقد جاء التصريح في صحفهم بأنّ مديان هم الإسماعيليون".

ثم أورد نصوصاً من التوراة وقال: "فبعد ذلك أي شيء يبقى من دعواهم بأنه على جبل أورشليم؟ أم أي شيء يدفع ما لم يزل الإسماعيليون يعرفونه بالمروة؟ وكانت عندهم أشهر من نار على علم، وكانوا يطوفون بها في حجهم. وحين خاطبهم القرآن في أمر الطواف لم يحتج إلى تعريفها، ولكن بين أنها من شعائر الله. وهناك أشار إلى تحريف أهل الكتاب في أمرها وسوء صنيعهم فيما يكتمون من آيات الله من بعدما بينها الله تعالى في كتابهم".

فيرى المؤلف رحمه الله تعالى أن في قوله تعالى في سورة البقرة (159) "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" بعد قوله تعالى (158) "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾" تلهيماً إلى ما حرفت اليهود في اسم المروة ورسمها وموضعها لحسد إسماعيل وذريته، فردّ الله عليهم بإشارة لطيفة. وتفصيل ذلك في الفصل الثاني والثلاثين.

ونلخص في آخر الفصل قصة الذبيح فقال: "فتطابق الأمور يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام جاء من جهة الشرق، وترك غلاميه على جبل قريب، وذهب بابنه الوحيد إسماعيل إلى المروة ساعياً وملبياً لدعوة الرب. وكان مسكن إبراهيم عليه السلام إلى

جانب الصفا كما جاء في سفر التكوين (12: 1-8) حيث جاء ذكر رحلته إلى أرض موريه في رواية أخرى لقصة الذبح. ولكنهم أسقطوا منها ذكر هذا الذبح، واكتفوا بذكر رحلته، فلم تزل الصفا والمروة في بني إساعيل قائمتين من لدن إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا مع الاسم والرسم والمناسك الدالة على تلبية إبراهيم للرب وسعيه لإتمام أمره. وليس لليهود والنصارى شيء من هذه المناسك...".

وقد أعان المؤلف رحمه الله على القيام بهذا التحقيق العلمي الرائع دارسته لكتب اليهود والنصارى، ومعرفته للغة العبرانية، واطلاعه على الدراسات الحديثة التي قامت على العهدين القديم والجديد.

هذا الباب يبرز بأن الإمام الفراهي يملك ناصية اللغة العبرانية أيضاً ويتضلع ويجيد فيها حتى يستفيد من مصادرها المهمة قراءة وكتابة. قد استفاد الإمام الفراهي من المصادر العبرانية المهمة نحو التوراة وغير ذلك في القضية المذكورة وأثبت من خلال ثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها أن الذبيح ليس إسحاق عليه السلام¹ وكما أشار الأستاذ الفراهي إلى تحريفات النصارى واليهود في كتبهم ورد رداً شنيعاً على الإسرائيليات وكشف القناع عن الحقيقة كما نرى في الكتاب المذكور بأن الإمام الفراهي فقد جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها للرد على زعمهم بأن الذبيح إسحاق عليه السلام، وناقش علماء أهل الكتاب، وفسر ما أشكل عليهم من كتبهم. هذا جدير بالذكر كان يريد أن يجمع فيه جملة من تحريفاتهم في كتابه "الطريف في التحريف" ولكن مع الأسف لم يكمله في حياته.

الباب الثاني/القسط الثاني في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده: بدأه المؤلف رحمه الله كالباب السابق بذكر أصول ومبادئ للتدبر في قصص القرآن وحججه. وهي أمور مهمة لفهم منهج القرآن الكريم في إيراد القصص والاحتجاج في المعقول والمنقول. والوجوه التي استدلل بها المؤلف في هذا الباب جلّها منشور في كتب السابقين ولكنها

¹ راجع للتفصيل: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 39-71

جاءت في هذا الباب على أحسن وجه من التحري والتلخيص والتشديد.

في هذا الباب/ القسط استخدم الإمام الفراهي وجوه الاستدلال المأخوذة من القرآن الكريم وحده، وأتى بثلاثة عشر دليلاً أيضاً ومنها الاستدلال الأول بكون ذكر الذبيح موصولاً بالدعاء والاستدلال الثاني بنظير هذا الدعاء من جهة النظم، والاستدلال الثالث بتطبيق النظيرين من جهة أخرى وغير ذلك.

ومن عجيب ما استدلل به المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدم تسمية الذبيح في القرآن الكريم. فقد جعل ذلك حجة على كون إسماعيل هو الذبيح. فقال: "ليس لقائل أن يقول: إن كان إسماعيل عليه السلام هو الذبيح فلم لم يصرح القرآن به؟ فإن هذا السؤال عائد عليه في أمر إسحاق عليه السلام على سواء، مع أنه لم يكن مانع لذكره، وأما إسماعيل عليه السلام فلعدم التصريح باسمه وجوه من الحكمة".

ثم فصل القول في هذه الوجوه، وهي أربعة أولها: "أنه من عادة القرآن الصفح والإعراض عن اللجاج الذي لا يتقصد لكلاماً يشتغل الخصم به، ويترك ما يلقي إليه من الحجة الدامغة. وقد أدخلت اليهود اسم إسحاق عليه السلام في قصة الذبيح، فلو صرح القرآن بخلاف ذلك لتمسكوا به في كتبهم، وجادلوا باطلهم، وأنكروا بما جاء به النبي لخلافه الصريح بما عندهم. فالقرآن يلزمهم ما كان موجوداً في صحفهم أو كان ظاهراً بيناً عند العقل لكلاماً يترك لهم متمسكاً وعذراً، وقد أشار إلى ذلك في غير ما آية تارة يخاطب النبي ويأمره بالصفح عنهم، وتارة يخاطب المسلمين بترك جدالهم إلا بحسن القول، وتارة يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلى مسلماتهم".

ثم أورد أمثلة على ذلك وقال: "وبالجملة فإن القرآن قد اجتنب مجادلتهم فيما تمسكوا بظاهر الكتاب، وفي ذلك حكمة بينة لعدم التصريح باسم الذبيح، فلو كان هو إسحاق عليه السلام لم يكن مانع من تسميته ههنا".

ومن أروع فصول هذا الباب الفصلان الأخيران اللذان استدلل فيهما المؤلف رحمه

الله بما صرح به القرآن من أحوال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبما جاء في القرآن على سبيل إبطال ما اقترت اليهود في أمر إسماعيل عليه السلام، وكلاهما من جوامع الأدلة. وسترى فيهما كلاماً بديعاً في تفسير معاني الآيات وحسن نظامها ومحكم ترتيبها وبعيد مرامها ولطيف أسلوبها.

وختم المؤلف رحمه الله هذا الباب بقوله: "ولو فصلناها- يعني الأدلة- لصارت أكثر عدداً ولكنا اخترنا الثلاثة عشر كما اخترنا في القسط الأول رعاية لسني عمر إسماعيل عليه السلام حين قدمه للتحليل عليه السلام قرباناً لربه".

الباب الثالث/القسط الثالث فيما روي من الآثار وأقوال السلف وآراء المفسرين والاستدلال بأحوال العرب وأقوالهم قبل الإسلام.

الباب الثالث/القسط الثالث في ما روي في هذه المسألة، ونورد فيه اقوال علمائنا. أما الباب الثالث عشر من هذا الباب /القسط الثالث فأورد فيه المؤلف أولاً ما روي عن الصحابة والتابعين والسلف الأقدمين في هذه المسألة.

وقد قدم كثير من المفسرين والباحثين من الأمة الإسلامية أنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام ومنهم الإمام جرير رحمه الله. فالأستاذ قد أبرز ضعف دعواه الباطلة ولكنه اعترف بأن العلماء المسلمين كانوا مبتعدين عن التعصب العليي وما رفضوا الروايات التي وردت في قربان إسحاق عليه السلام ويقول عن الإمام جرير أنه ما وصل إلى النتيجة الصحيحة وأظهر بطلان رأيه في هذه الكلمات التالية:

“وإذ تبين عدم صحة ما توهمه ابن جرير عاد الاستدلال باتصال الدعاء بالخير على أنّ المراد بالإبن المذكور متصلاً بالدعاء هو المولود أولاً، كما مرّ بيانه في الفصل العشرين وفيما بعده وهو الاستدلال محمد بن كعب القرظي بالقرآن كما مرّ في الرواية الثانية من الفصل الثالث بعد العشرين”.¹

¹ المصدر السابق، ص 116

ثم ذكر في فصل مستقل ما قاله الرازي (ت 606هـ) في تفسيره تبعاً للزخشري (ت 538هـ)، ونبه على بعض مواضع الوهم في كلامهما. ونلخص في فصل تالٍ كلام ابن كثير من تفسيره وقال: "لا يخفى أنّ ابن كثير رحمه الله لأتى بأكثر الأدلة الظاهرة، ولم نجد في المتأخرين من زاد عليها، فلا حاجة إلى استقصاء أقوالهم، ولكن نذكر في الفصل التالي من أقوال المشهورين منهم ما يكفي للدلالة على مذاهبهم في هذه المسألة". فذكر أقوال البغوي (ت 510هـ) والبيضاوي (ت 685هـ) والنسفي (ت 701هـ) والخلازن (ت 741هـ) والجلال المحلي (ت 864هـ) وأشار إلى رسالة السيوطي (ت 911هـ) والظاهر أنّ المؤلف رحمه الله لم يقف عند تأليف كتابه على كلام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد، مع شغفه بمصنفاته، ومصنفات شيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله.

وللمؤلف رحمه الله كلام جميل في هذا الفصل في الدفاع عن العلماء الذين لم يتخذوا موقفاً قوياً في هذه المسألة، فاكتفوا بذكر القولين دون الجزم بأحدهما أو مجرد الترجيح، وقد أحسن كل الإحسان إذ صبر ذلك من مناقبهم فقال: "والسبب في ذلك - والله أعلم - أنّ علماءنا رحمهم الله تعالى براء من التعصب لني من الأنبياء. ثم إنهم لا يجترئون على القطع في تأويل القرآن ما لم يكونوا على بصيرة فيه، ثم إنّ المتأخرين منا على غاية مراعاة الأدب للسلف. فإذا وجد أحدهم اختلافاً من السلف في تأويل أمسك عن القطع بأحد وجوهه، واكتفى بالإشارة إلى ما هو المرجح عنده، ومع ذلك من كان على بينة من أمره جاء بقول فصل. وفي اختيار ابن جرير رحمه الله أنّ إسحاق عليه السلام هو الذيح لأكثر شهادة على أنّ المسلمين لم ينظروا في هذه المسألة نظر المتعصب المعاند، وكذلك الشهادة في عدم القطع من بعضهم بأحد الجانبين".

وآخر فصول هذا الباب في الاستدلال بأحوال العرب قبل الإسلام وأقوالهم تكلة للقرائن التاريخية التي وردت في البابين السابقين، وتفصيلاً للإشارات التي تضمنتها قوله تعالى في سورة آل عمران في أمر بيت الله "فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُبْرَاهِيمُ وَمَنْ

دَخَلَهُ كَانَ عَامِتًا --- ﴿٤٧﴾ الآية.

وبالجملة كتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" يثبت أن الذبيح هو إسماعيل وأن كون إسحاق ذبيحاً فكرة خاطئة. ولقد استدل على هذه الدعوى بدلائل عديدة من القرآن والكتب السماوية القديمة وآثار الصحابة والتابعين.

مباحث الكتاب: قام أ.د. حسن يشو بدراسة جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في خدمة القرآن وعلومه: دراسة النظرية التحليلية التطبيقية بالتفصيل. تحتوي هذه الدراسة على مئات صفحة ومنقسمة إلى فصول متعددة والفصل السادس والعشرون من الدراسة المذكورة مختص لاستعراض كتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح". بدأ أ.د. حسن يشو استعراضه التفصيلي للكتاب قائلاً:

"إن الإمام الفراهي كان مدققاً، بل على غاية التدقيق في كل اختياراته العلمية، وقد ظهر ذلك في تفسيره، ورسائله العلمية، كما أنه برع في إثارة موضوع الذبيح هل هو إسماعيل عليه السلام؟ أم هو إسحاق عليه السلام؟ وقد رجح أن يكون إسماعيل عليه السلام على الرغم من أن بعض علمائنا لم يتعصبوا للأمر ولا لني من الأنبياء، وذلك كاختيار الطبري بأنه إسحاق عليه السلام! أو قول بعضهم: في المسألة قولان! وقد حفر ونبش في القرآن الكريم وتبع الآيات، والسياقات، ونبش في التوراة وقرأها بلغتها، واستخرج ما يدل على أنه إسماعيل عليه السلام بدل إسحاق عليه السلام، وقد أفرد في المسألة كتاباً علمياً نفيساً في بابه سماه بـ"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح".¹ ولما كان الأمر فيه جهد علمي خدم فيه القرآن الكريم ناسب أن نفرده في هذا الفصل عبر المباحث الآتية:

¹ لعل من أهم طبعات الكتاب الطبعة الثالثة للكتاب، والأولى لدار القلم 1420هـ، وتقع في 164 صفحة، وفيها نسخة إلكترونية تعاملت معها. وقد ذُبلت هذه الطبعة بعشرة أنواع من الفهارس: فهرس الآيات، فهرس الأحاديث، فهرس الإحالات على كتب اليهود، فهرس الأشعار، فهرس الأعلام والجماعات، فهرس الأماكن، فهرس الكتب المذكورة في المتن، فهرس الألفاظ التي فسرها، فهرس الفوائد والمعارف، فهرس المراجع المذكورة في الحواشي.

المبحث الأول: أهمية الكتاب: لقد كان الإمام الفراهي محققاً من الطراز الأول، ومدققاً في قضايا كثيرة، وإن هذه المسألة هي مسألة قرآنية بامتياز، لذا كان منهج تصحيح المعلومة فيها بأدلة قرآنية ونظرة ثاقبة ورؤية عميقة، وقد كان الخلاف على أشده فأراد حسمه بحسام الفكر والاستدلال، وأفرد هذه المسألة بتأليف مفرد نفيس في بابه، أثبت فيه أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام؛ والعجيب أنّ الكتاب يزداد أهمية بإثبات رأيه الوجيه بأدلة أيضاً من التوراة واعترافات علماء أهل الكتاب أنفسهم، علاوة على استدلاله القرآنية والحديثية.

هذا وقد نال الكتاب إعجاب ثلة من أعلام الأدب والفكر على غرار الشيخ سليمان الندوي الذي أثنى على الكتاب قائلاً: "لا مانع من أن أقول: ما رأيت في تاريخ الإسلام رسالة أحسن منها".¹

المبحث الثاني: نبذة عن الكتاب: صدر الكتاب محققاً؛ وقد قدّم له الدكتور محمد أجمل الإصلاحي محقق "مفردات الفراهي" بمقدمة طويلة بدأها بنبذة عن تحريفات اليهود للتوراة وأسباب تركيزهم على مسألة الذبح والذبيح، ثم تحدّث عن فحوى الكتاب وسجّل إعجابه به وأشاد بإيجاباته.

المبحث الثالث: أسباب تأليف الكتاب: إنّ هذا السفر الجليل جاء بناء على اقتراح اقترحه العلامة شبلي النعماني على الفراهي كما يفهم من كلام الشيخ الندوي عن خلفية تأليفه لكتابه "سيرة النبي صلى الله عليه وآله"; وذلك في قوله: "ساعدنا العلامة الإمام الفراهي مساعدة غالية في جمع المواد العلمية للباب الذي يتحدّث عن مولد سيدنا إسماعيل ومسكنه وتقربه، وهو الباب القيم من السيرة النبوية، ثم قام بجمع هذه المواد العلمية وتهذيبها وتنسيقها، وبالغ في البحث والاستقصاء وأفرد لها رسالة أسماها "الرأي الصحيح في من هو الذبيح".

المبحث الرابع: هيكل الكتاب ومضمونه: بدأ المؤلف بخطبة بليغة المعنى أجمل فيها

¹ مجموعة تفاسير فراهي، ص 43.

مضمون الكتاب، وبين أنه جزء من مقدمة تفسيره المسمى "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" وأجمل الباعث على تأليفه في ثلاث نقاط، ثم بين أقسام الكتاب المتمثلة في مقدمة وثلاثة أقساط وخاتمة.

فالقسط الأول: في الاستدلال بالتوراة وبعترافات علماء أهل الكتاب على أن الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم، وفي هذا القسط أورد ثلاثة عشر دليلاً من التوراة، وهي تدلّ على أمرين تاليين:

أولاً: الدلالة على تحريف التوراة.

ثانياً: الدلالة على أن إسماعيل هو الذبيح.

وقد شملت هذه الأدلة النواحي الشرعية عندهم المتعلقة بالقرابين، والنواحي اللغوية عندهم، والنواحي التاريخية.

وخص القسط الثاني بإيراد الأدلة من القرآن الكريم على المسألة، وقدم لهذا القسم بذكر بعض الأصول للتدبير في قصص القرآن وحججه وهي في غاية الأهمية، ثم عرج على الاستدلال وساق ثلاثة عشر دليلاً جليها لم يسبق إلى التنصيص عليه مما يدلّ على اتقاد ذهنه، وطول باعه في هذا العلم المبارك، وأثناء ذلك قام بردود لطيفة وبأدب جم على بعض العلماء بخصوص دقائق بعض المسائل، وختم تلك الأدلة بردود القرآن على تحريفات اليهود.

أما القسط الثالث فقد جعله فيما روي في المسألة وأورد أقوال أهل العلم، وقدم له بأمور ثلاثة تستنتج من خلال النظر في هذا القسم وهي:

- اتصاف علمائنا بالإنصاف.
- وأن مأخذ الروايات في هذه المسألة أهل الكتاب وأنه لا يصح في تسمية الذبيح شيء مرفوع.

- وأن هذه الروايات والأقوال ينتج عنها أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

ثم ساق بعض القرائن من أمر الجاهلية وأشعارهم فيها دلالة على أنّ إسماعيل هو الذبيح، وختم الكتاب بالنظر الإجمالي لما ورد فيه بخصوص المسألة فلتخص ما ورد فيها، وتوصل إلى نتيجة نهائية مفادها أنّ الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم، لا إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الخامس: فوائد الكتاب: إنّ للكتاب فوائد كثيرة، وإيجابيات عديدة من أهمها:¹

- الكتاب فريد في نوعه حيث لم يُتطرق لهذا الموضوع بالمناقشة بهذا الشكل.
- كثرة الأدلة بأنواعها الثلاثة وجلّها اجتهادية مستنبطة يصعب أن يقف عليها طالب العلم مجتمعة أو يصل إليها باجتهاده.
- المؤلف له باع طويلة في الدراسات القرآنية، كما أنّ سعة اطلاعه، وعلمه بلغات وكتب اليهود كل ذلك انعكس إيجاباً على الكتاب من حيث الثروة المعلوماتية ومن حيث نوعية المعالجة.
- في الكتاب تعليم لأدب الخلاف والتعامل مع نصوص السلف الصالح.
- يظهر من خلال قراءة الكتاب إتصاف علماء الإسلام وتجردهم عن الذاتية في معالجة المواضيع والموضوعية الصرفة.
- يشير حال المؤلف إلى أنّ إمام الباحث بالجوانب الكثيرة ومعرفته بعدد من العلوم له أثره على آثاره العلمية بما فيه هذا الكتاب.
- إيراده الاحتمالات القوية ومن ثم الرد عليها يؤثر في إقناع المخالف حيث لا يدع له فرصة للتهرب.

¹ انظر ما كتبه الأخ إسحاق سماكي في تقريره عن كتاب (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح) لعبد الحميد الفراهي، في موقع ملتقى أهل التفسير.

• وعموماً الكتاب أروع ما وقفت عليه في موضوع الذبيح بأسلوب علمي أدبي رفيع.
المبحث السادس: أسباب إفراد مسألة "من هو الذبيح؟" في كتاب: وذلك ما ضمنه
مستهل كتابه النفيس بناء على الاعتبارات الآتية:

1- مكانة هذه المسألة العظمى في ملتنا؛ لما ذكره الله تعالى عن ابتلاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.
2- أنّ في القرآن الكريم آيات كثيرة يتوقف فهم تأويلها ونظامها على معرفة هذه
المسألة وما يتعلق بهذا الذبح.

3- أنّ اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر مثل مبالغتهم في ذلك؛ فإنهم قد ارتكبوا
تحريفات وأكاذيب صريحة وكثيرة في أمر إسماعيل والكعبة. وقد ذكرها الله
في التوراة وأخفاها اليهود ودسّوا فيها أهواءهم، فأصلحها القرآن الكريم.

المبحث السابع: أصول النظر إلى روايات اليهود: بعدما ساق الإمام الفراهي روايات
اليهود، بين أصول النظر فيها؛ ونختصرها فيما يأتي:

- 1- لا يعتمد على ما وافق هواهم، وتصريحهم به ليس بشيء، فإنهم بدلوا وحرفوا كثيراً.
- 2- من بدل وحرف يخلط الحق بالباطل.
- 3- الأمر الحق يجمع له حقائق أخرى، ويبقى الباطل مخدولاً.
- 4- يستمد بالمعارف المكتشفة من أحوال العالم.

المبحث الثامن: الاستدلال على أنه إسماعيل عليه السلام: إنّ قراءة هذه الكتب المحرفة
يمكن الاستدلال منه على أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وفق ما يأتي:

- 1- لما بكر إبراهيم عليه السلام لأن يقرب إسماعيل عليه السلام لم يكن إسحاق عليه السلام معه بل كان
إسماعيل عليه السلام ساكناً معه، والذي أدخل اسم إسحاق عليه السلام في الموضوع لم يتفطن
لهذا الأمر بقي دليلاً على إدخاله.

- 2- إن إسماعيل عليه السلام كان وحيد أبيه، وفي نصوصهم: "أمر بذبح ابنه الوحيد".
- 3- إن إسماعيل كان أحبّ إلى أبيه.
- 4- إن موضع الذبح كان المروة وهو موضع عند الكعبة.
- 5- إن إسماعيل كان هو الأولى بأن يقرب.
- 6- ثم إن البشارة بإسحاق تمنع أن يكون هو قرباناً.
- 7- وقوع التضحية قبل ولادة إسحاق عليه السلام.
- 8- كون إسماعيل عليه السلام نذراً لله وهو بمعنى القربان.
- 9- يكون إسماعيل عليه السلام أمام الرب؛ وهو بمعنى أمام القربان.
- 10- لو كان إسحاق عليه السلام قرباناً لله لبقى شيء في شريعة اليهود من أثر هذا الأمر العظيم.
- 11- لما أمروا به من توجيه قرايئهم إلى جهة الكعبة.
- 12- بما جعل مسكن إسماعيل عليه السلام قبلتهم.
- 13- يكون الكعبة هي بناء إبراهيم عليه السلام ومنحره.

المبحث التاسع: أدلة القرآن على الذبيح: أنزل القرآن على غاية الإيجاز وتهذيب العبارة، وإنما يؤتى بالقصص من أجل العبرة وتعليم الحكمة، وقد جاء في كتاب الله ما يدل على تعيين الذبيح انطلاقاً من النصوص القرآنية منها:

قوله تعالى: "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي فِي الْمَنَامِ أَنَّي أَبْحُكُ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَعْمَلُ مَا تُوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا

أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٢﴾ وَنَدَيْتَهُ أَنْ يَتَابِرْهِيمُ ﴿١٣٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْيَاءَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتُؤُا الْمُبِينُ ﴿١٣٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِجٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٨﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٤٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٤٤﴾. [سورة الصافات: 97-114]. ومن الاستدلالات منها ما يأتي:

- 1- ذكر الذبيح في الآيات موصولاً بالدعاء، ولا سيما في قوله تعالى: "فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" فكان الولد استجابة لدعائه حيث لم يكن له ولد، فكان إسماعيل أول مولود، وكان هو الذبيح!
- 2- وقوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٦﴾" [سورة إبراهيم: 39] والدعاء المذكور هاهنا يشير إلى دعائه المذكور في قصة الذبيح في الصافات.
- 3- وإسماعيل هو الذبيح المذكور في الدعاء الأول؛ لأن إسماعيل هو إجابة الدعاء أي "سمع الله". وكأما قال: "الحمد لله الذي وهب لي إسماعيل إجابة لدعائي ثم وهب لي إسحاق نافلة".
- 4- تقديمه ووصفه بالصبر حين قال الذبيح: "سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" [سورة الصافات: 102]، ووصفه الله بها باسمه في قوله: "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾" [سورة الأنبياء: 85].
- 5- ووصف الذبيح وإسماعيل بالوفاء بالوعد قال تعالى: "وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٧٧﴾" [سورة النجم: 37]، أي بنذره، وقوله: "وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾" [سورة مريم: 54].

6- بما فرق به بين إسماعيل وإسحاق بذكرهما ذكراً مستقلاً في قوله تعالى: "وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾" [سورة الصافات: 113]. فجعلهما اثنين وأنّ المبشر به أولاً غير المبشر به ثانياً، وأنّ الذبيح الأول.

7- إنّ عدم التصريح بالذبيح دليل على أنه إسماعيل عليه السلام؛ وقد كان ذلك لحكم؛ لإعراض القرآن عن اللجاج، وترك الفخر بالآباء؛ لأنها من الجاهلية.

8- بما صرح به القرآن من أحوال إبراهيم وإسماعيل؛ وهو من جوامع الأدلة؛ وبناءً عليها فإنّ التضحية لا تنفك عن بيت الله، وموضع النسك والصلاة، وكذلك الذبيح الذي قربه لا بد أن يكون هو الخادم لهذا البيت والساكن عنده، ولا بد أن يكون هذا البيت وهذا المنحر هما أكبر شعائر الله للناس لتعظيم الرب وتذكّر العبودية، وكذلك بعدما تقبل الله هذه التضحية وهذه المشاعر لا بد أن يبقى إلى الأبد، ولا بد أن يجعل هذا المكان مأموناً من كيد الأعداء. وقد بين القرآن هذه الأمور كلها:

- فذكر أنّ بيت مكة أول بيت وضع للناس مثابة، فجعل الحج إليه فرضاً، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يعلن به في الناس.

- وكذلك ذكر كون إبراهيم وإسماعيل بانين وخادمين لهذا البيت.

- وكذلك ذكر أنّ الصفا والمروة من شعائر الله، وجعل المنحر عند هذا البيت.

- وكذلك ذكر أنّ الحج إليه والنحر لديه سنة باقية إلى الأبد، وجعله ذنباً عظيماً.

- وكذلك ذكر أنّ الله تعالى جعل هذا الموضع مأموناً من كيد الأعداء إجابة لدعاء إبراهيم.

9- ما جاء في القرآن من إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل؛ وهو من جوامع الأدلة أيضاً؛ كقوله تعالى: "يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ

تَشْهَدُونَ ﴿٧٦﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ [سورة آل عمران: 70-71]، وقوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ [سورة المائدة: 15]. حيث إن اليهود أهبوا مكان البيت، وجعلوا المنحر المشهور في مساكنهم عند بيت المقدس، واقتراء قصة إخراج إسماعيل وأمه من مسكن إسحاق وأمه.

10- وفيه استدلال بالروايات التي ساقها المفسرون كالإمام نضر الرازي في "مفاتيح الغيب"، و"تفسير ابن كثير"، والرد على ما رجحه ابن جرير الطبري من أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

قضية "من هو الذبيح" عند المفسرين المتقدمين؟ السؤال المطروح: من كان الذبيح من ولدي إبراهيم عليه السلام؟ إسماعيل أم إسحاق عليهما السلام؟ وما هي الأدلة التاريخية على ذلك؟ وماذا يقول القرآن الكريم الذي هو أصح كتاب على الأرض حيث إن اليهود يدعون أن إسحاق عليه السلام كان ذبيحاً وفئة من علماء المسلمين أيضاً قالوا. ولكن أغلب علماء الإسلام يؤمنون بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. جنح بعض كبار المفسرين رحمهم الله إلى أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، وانتصر لقوله كالإمام ابن جرير (ت 310هـ). ومنهم من اكتفى بسرد الروايات دون نقده. ومنهم من ذكر القولين دون ترجيح إلا أنه قدّم القول بكون الذبيح إسماعيل مما يشير إلى رجحان ذلك عنده. وبعضهم قال إن ذلك هو الأظهر.

أما الذين صرحوا ببطلان هذا المذهب، ولم تعرّهم الأقوال المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، فهم العلماء المحققون النقاد الذين كانوا من أهل العلم بالقرآن، وقد اطلعوا على كتب اليهود والنصارى أيضاً، نحو شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ) وتلميذه الإمام ابن القيم (ت 751هـ) رحمهما الله. فيقول ابن القيم في زاد المعاد:

"وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقًى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم".¹
ونص كلام شيخ الإسلام في الفتاوى:

"--- وفي الجملة فالنزاع مشهور ولكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل. وهذا الذي عليه الكتاب، والسنة، والدلائل المشهورة، وهو الذي تدلّ عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب".²

ومنهم الحافظ ابن كثير (ت 774هـ) الذي يقول في تفسيره:

"وما أظن ذلك- يعني القول بأن الذبيح إسحاق- تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً يعني حجة".³

وكان يجب بعد هذا القول الفصل في القضية أن يختم الخلاف فيها، ولا يتلجلج أحد في هذا الحق الأبلج، ولكن للروايات سلطاناً على النفوس، وتعلقاً بالقلوب. والذين يعتمدون عليها أكثر من اعتمادهم على نظام الآيات وسياق الكلام ودلالات الألفاظ والأساليب يشقّ عليهم التخلي عنها، فألف العلامة السيوطي (ت 911هـ) بعدما اطلع على كلام الإمام ابن القيم رسالة في الذبيح سماها "القول الفصيح"⁴ ولكنه ختمها بقوله: "وكنتم ملت إليه- يعني القول بأن الذبيح إسحاق- في علم التفسير. وأنا الآن متوقف في ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم"،⁵ فأراد السيوطي- رحمه الله- كما ترى أن يفصح فأعجم وجمجم.

¹ زاد المعاد، 71/1

² مجموع فتاوى شيخ الإسلام، 321/4

³ تفسير ابن كثير، 16/4

⁴ هذه الرسالة ضمن كتاب الحاوي للفتاوى للسيوطي، 492/1-498

⁵ الحاوي، 498/1

ولعل وقوفه على كلام ابن القيم هو الذي أدّاه إلى التوقف في هذه المسألة، ولولا ذلك لظلّ على مذهبه السابق الذي نسبه القرطبي للأكثرين.¹

وقد تناول عدد من العلماء غير السيوطي مسألة الذبيح في رسائل مفردة نحو مكّي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ) في "كتاب الاختلاف في الذبيح من هو؟"² والقاضي أبي بكر ابن العربي (ت 543هـ) في رسالته "تبيين الصحيح في تعيين الذبيح"³ وتقي الدين السبكي (ت 756هـ) في رسالته "القول الصحيح في تعيين الذبيح"⁴ وابن طولون (ت 953هـ) في رسالته "الميمون التصريح بمضمون الذبيح"⁵ وعلي بن برهان الدين الحلبي (ت 1044هـ) في رسالته "القول المليح في تعيين الذبيح".⁶

وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل كرسالة السبكي. أشار في أولها إلى بعض الأدلة التي احتج بها القائلون بأنّ الذبيح إسماعيل، ثم قال: "وهي أمور ظاهرة لا قطعية، وتأمّلت القرآن، فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه، ولم أر من سبقني إلى استنباطه. وهو أن البشارة مرتين ---". وفصّل هذا الدليل، ثم ردّ ما يمكن إيراداه عليه. وهذه الرسالة في ورقة واحدة.⁷ ورسالة السيوطي التي مرّ ذكرها في ثلاث ورقات. وقد وصلت رسالتا القاضي ابن العربي وابن طولون أيضًا لكن لم نطلع عليهما.⁸

¹ تفسير القرطبي، 99/15

² معجم الأدياء، 170/19، إنباه الرواة للقفطي، 316/3، وذكر أنه في جزء.

³ ذكرها في كتابه أحكام القرآن، 1617/3، ويدلّ كلامه في الأحكام أن الذبيح عنده إسماعيل.

⁴ كشف الظنون، 1364/2

⁵ المرجع السابق، 1919/2، وقف عليها مؤلف الكشف فقال: "صرّح فيها بأنّ الذبيح إسماعيل" ونسخة منها في التيمورية.

⁶ المرجع السابق، 1365/2

⁷ وقد علقها السبكي سنة 751هـ، ونسخة منها ضمن مجموع مخطوط في مكتبة عارف حكمت برقم 272 مجاميع (ق 134-ب-135/أ)

⁸ انظر قانون التأويل لابن العربي، مقدمة المحقق، ص 154

دراسة كتاب الإمام الفراهي حول مَنْ هو الذبيح وما هي الأدلة عليه؟ أَلَفَ الإمام رسالته "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" في أثناء قيام بحيدرآباد وهي رسالة استشهد فيها بآيات من التوراة والقرآن على كون سيدنا إسماعيل عليه السلام ذبيحاً بأمر الله. وأزال فيه الستار عن تحريف اليهود في التوراة.

ناقش الإمام الفراهي أولاً في هذا الكتاب حقيقة الأضاحي وأهميتها في الإسلام ثم أتى بالأدلة ليثبت أنّ إبراهيم عليه السلام قدّم ابنه إسماعيل عليه السلام للتضحية وليس ابنه إسحاق عليه السلام كما يدّعي اليهود.

يعتقد اليهود أنّ الذبيح هو سيدنا إسحاق عليه السلام بدليل أنه هو ابنه الوحيد المحبوب الذي رآه في المنام أنه يذبحه لله سبحانه وتعالى. ولكن كتب تاريخ اليهود مليئة بالتناقضات وقد برهن ذلك الشيخ سيّد أبو الاعلى المودودي والفراهي استناداً إلى كتبهم. وهناك فئة من علماء اليهود أيضاً الذين يؤمنون بأنّ إسماعيل هو ابن إبراهيم الأكبر وهو الذي فداه لربه.

فيكتب الشيخ المودودي في تفسير الآية "وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ": "وفي التوراة: امتحن الرب إبراهيم فقال له يا إبراهيم: اذهب أنت مع ابنك الوحيد الحبيب إلى بلاد مورياه وقربه في أحد الجبال الذي أقول لك". (الميلاد: 22: 1-2)

وإشارة إلى هذا البيان يقال أنّ الله كان قد طلب تضحية إسحاق ابناً وحيداً له. ولكن البيانات من التوراة تفيد بأنّ إسحاق لم يكن ابناً وحيداً له، لئلا تصريحت التوراة الأخرى.

"ولم تلد سارة له ولداً، كانت لها جارية مصرية تسمى بـ"هاجرة" فقالت سارة لإبراهيم إنّ الرب قد حرمني من الأولاد فاذهب إلى جاريتي لعل بيتنا يصبح معموراً منها. وقبل إبراهيم رأي سارة وكان إبراهيم قد قضى عشر سنوات في كنعان. ولما أعطته زوجته جاريتها لتكون زوجة له فذهب بـ"هاجرة" وحملت. (الميلاد: 16: 1-3)

وقال ملك الرب أنت حامله وتولد ولدًا. فسمّيه إسماعيل". (16: 11)

ولما ولدت زوجة إبرام هاجرة إسماعيل كان قد بلغ إبرام من عمره 86 سنة (16: 16).

وقال الرب لإبرام إنّ سارة التي هي زوجتك ... سأعطيك ولدًا... فسمّيه إسحاق... الذي سيولد في نفس الوقت المحدد في السنة القادمة. نخرج إبرام مع ابنه إسماعيل وسائر رجال البيت وقام بختانهم بذلك اليوم بحكم ربه. وكان قد بلغ إبرام من عمره 99 سنة لما تم ختانه وكان إسماعيل قد بلغ من عمره 13 سنة لما تم ختانه. (الميلاد: 17: 15-25)

ولما ولد ابنه إسحاق فكان إبرام قد بلغ من عمره مائة سنة. (الميلاد: 21-5)

واتضح تناقضات التوراة من التفاصيل المذكورة آنفًا. ومن البين أنّ إسماعيل كان ولدًا وحيدًا لإبراهيم لمدة 14 عشر سنة. فإنه إذا طلب أخصية الابن الوحيد فمن الطبيعي أنه لم يكن إسحاق بل كان إسماعيل وإلا يكون من خطأ أن يقال أنّ التضحية طلبت للابن الوحيد¹.

وقد ذكر الفراهي قصة الذبح استنادًا إلى التوراة فينقل منها: "جاء في سفر التكوين (18-1-22): "وحدث بعد هذه الأمور أنّ الله امتحن إبراهيم عليه السلام فقال له: يا إبراهيم، فقال: ها أنا ذا. (2) فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. (3) فبكر إبراهيم صباحًا وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وشق حطبًا لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله. (4) وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد".

بعد ذلك ذكر مجيئه واستعداده لتقديم القربان حتى ناداه الرب. فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا لأنّي الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني. (13) فرفع عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكًا في الغابة بقرنيه

¹ تفهيم القرآن، 297/1-298

فذهب إبراهيم وأخذ الكيش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. (14) فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يرأه حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرى. (16) وقال بذاتي أقسمت، يقول الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة...¹.

فمن كان ابنه الوحيد معه؟ فيكتب نقلاً عن التوراة: "وكان إبراهيم ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبراهيم، وفيه أيضاً: (21-5)، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه"². وبهذا ثبت أن ابنه الوحيد كان إسماعيل.

أما علماء الإسلام فانقسموا على فئتين: فئة قالت إن الذبيح هو إسحاق عليه السلام وفئة أخرى قالت هو إسماعيل عليه السلام. ولا نذكر أسماء الصحابة والتابعين وغيرهم من المفسرين والعلماء ونكتفي بقول ابن جرير الطبري المفسر العظيم وابن كثير رحمهما الله وأدلتهما.

ويكتب ابن جرير الطبري قائلاً: "واختلف أهل التأويل، في المفدي من الذبح من ابني إبراهيم، فقال بعضهم: هو إسحاق." ويذكر أقوالاً كثيرة من مختلف الرواة وهي متكررة فعلى سبيل المثال ذكر قول ابن عباس مرات وكرات فلا نذكر إلا مرة "عن العباس بن عبد المطلب (وَقَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ) قال: هو إسحاق. ورواية أخرى عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، قال: افتخر رجل عند ابن مسعود، فقال: أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله. ورواية ثالثة عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار في قوله (وَقَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ) قال: من ابنه إسحاق. وعن مسروق، في قوله (وَقَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ) قال: هو إسحاق. وعن عبد الله بن عمير قال: (قال موسى: يا ربّ يقولون يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قطّ

¹ الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص 46-47

² المصدر السابق، ص 51

إلا اختارني عليه، وإنَّ إسحاق جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجود، وإنَّ يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظنّ".

وعن أبي مسرة، قال: قال يوسف للملك في وجهه: ترغب أن تأكل معي، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيّ الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

ثم يذكر قول الآخرين وهو أنّ الذي فُدي بالذبح العظيم من بني إبراهيم: إسماعيل.

فعن ابن عمر أنه قال: الذبيح: إسماعيل. وعن ابن عباس (وَقَدَّيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ) قال: إسماعيل. وقول ابن عباس ذكره مرات وكرات. وعن عبد الله بن عباس أنه قال: المُفَدِّيَّ إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود. وعن عامر أنه قال في هذه الآية (وَقَدَّيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ) قال: هو إسماعيل، قال: وكان قرنا الكبش منوطين بالكعبة. وعن الشعبي، قال: رأيت قرني الكبش في الكعبة. وعن ابن إسحاق، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إنّ الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من بنيه إسماعيل، وأنا لنجد ذلك في كتاب الله في قصة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبح ابنه إسماعيل، وذلك أنّ الله يقول، حين فرغ من قصة المذبح من إبراهيم، قال: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ يقول: بشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود ما وعده الله، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وعن محمد بن كعب القرظي، أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة، إذ كان معه بالشام فقال له عمر: إنّ هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما هو؛ ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً، فأسلم فحسُن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء يهود، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك، فقال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أيّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإنَّ يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم

معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم، فالله أعلم أيهما كان، كل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لربه.

وعن الصنابحي، قال: كما عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم: (كما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله عد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين؛ فضحك عليه الصلاة والسلام؛ فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم، نذر لله لئن سهل عليه أمرها ليدبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فنعته أخواله، وقالوا: أفد ابنك بمئة من الإبل، فقدها بمئة من الإبل، وإسماعيل الثاني).

وبعد ما نقل الطبري القولين في من هو الذبيح. قارن بينهما وقال: "وأولى القولين بالصواب في المفدي من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل قول من قال: هو إسحاق، لأن الله قال: (وَقَدَيْتُهُ يَذْبَحُ عَظِيمًا) فذكر أنه فدى الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين، فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فإذ كان المفدي بالذبح من ابنه هو المبشر به، وكان الله تبارك اسمه قد بين في كتابه أن الذي بشر به هو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال جل ثناؤه: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد، فإنما هو معني به إسحاق، كان بينا أن تبشيره إياه بقوله فَبَشَّرْنَاهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن.

وبعد: فإن الله أخبر جل ثناؤه في هذه الآية عن خليله أنه بشره بالغلام الحليم عن مسأله إياه أن يهب له من الصالحين، ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلا في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين، لأنه لم يكن له من ابنه إلا إمام الصالحين، وغير موهم منه أن يكون سأل ربه في هبة ما قد كان أعطاه ووهبه له. فإذا كان ذلك كذلك فعلوم أن الذي ذكر تعالى ذكره

في هذا الموضوع هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشره به وذلك لا شك أنه إسحاق، إذ كان المفديّ هو المبشر به. وأما الذي اعتلّ به من اعتلّ في أنه إسماعيل، أنّ الله قد كان وعد إبراهيم أن يكون له من إسحاق ابن ابن، فلم يكن جائزاً أن يأمره بذبحه مع الوعد الذي قد تقدم؛ فإنّ الله إنما أمره بذبحه بعد أن بلغ معه السعي، وتلك حال غير ممكن أن يكون قد ولد لإسحاق فيها أولاد، فكيف الواحد؟ وأما اعتلال من اعتلّ بأنّ الله أتبع قصة المفديّ من ولد إبراهيم بقوله وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا ولو كان المفديّ هو إسحاق لم يبشر به بعد، وقد ولد، وبلغ معه السعي، فإنّ البشارة بنبوّة إسحاق من الله فيما جاءت به الأخبار جاءت إبراهيم وإسحاق بعد أن فُدي تكرمه من الله له على صبره لأمر ربه فيما امتحنه به من الذبح، وقد تقدمت الرواية قبلُ عن ابن عباس قال ذلك. وأما اعتلال من اعتلّ بأن قرن الكباش كان معلقاً في الكعبة فغير مستحيل أن يكون حُمل من الشام إلى الكعبة. وقد روي عن جماعة من أهل العلم أنّ إبراهيم إنما أمر بذبح ابنه إسحاق بالشام، وبها أراد ذبحه.¹

والآن نعود إلى تفسير ابن كثير فقام بشرح الآية "وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ" بقدر من التفصيل فيكتب: ذكر من قال: هو إسحاق [عليه السلام]:

ثم ذكر الرواية التي ورد فيها أن يوسف عليه السلام قال: وأنا- والله- يوسف بن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق ذبيح الله... ثم الرواية التي قال فيها عزّ وجلّ: إنّ إبراهيم لم يعدل بي شيء... إلخ. ثم ذكر ابن كثير أسماء الرواة من الصحابة والتابعين وغيرهم وعلق عليها قائلاً: "وهذه الأقوال- والله أعلم- كلها مأخوذة عن كعب الأبحار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر، عن كتبه، فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة- والله أعلم- حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

وقد حكى البغوي نفس الرواية مع ذكر أسماء الرواة وعلق عليها: وهي إحدى الروايتين

¹ تفسير ابن جرير، آون لائن، تفسير الآية وفديناه بذبح عظيم

عن ابن عباس. وقد ورد في ذلك حديث- لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده- وينقل ما قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- في حديث ذكره قال: هو إسحاق. ويعلق قائلاً: ففي إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك. وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث.

بعد نقل الأقوال والتعليقات الآتفة الذكر يذكر ابن كثير الآثار الواردة بأنه إسماعيل- عليه السلام- وهو الصحيح المقطوع به.

فعن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل- عليه السلام- وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وكذا قال ابن عمر، ومجاهد ويوسف بن مهران وقال الشعبي: هو إسماعيل- عليه السلام- وقد رأيت قرني الكباش في الكعبة. وعن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك: أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل.

ثم ينقل ابن كثير: قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل. وأنا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبح من ابني إبراهيم قال: (وَكَشَرْنَا بِاسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ). يقول الله تعالى: (فَبَشَّرْنَاهَا بِاسْحَاقَ وَمِنَ وَّرَاءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبَ)، يقول ابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله] الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم؛ أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك- قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز- فقال له عمر: أي ابني

إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يحقدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، يكون إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله -تعالى-.

وأما قول ابن جرير الطبري أنّ الذبيح إسحاق فقد علق عليه ابن كثير قائلاً: وإنما عول ابن جرير في اختياره أنّ الذبيح إسحاق على قوله تعالى: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) [سورة الذاريات: 28]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فن الجائز أنهما نقلتا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أنّ من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم¹.

ونعود الآن إلى الفراهي وكيف أتى بدلائل هامة في هذا الصدد. ومن أهمها أنّ موضع الذبح هو المروة التي عند الكعبة. فيكتب: "في اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد". زعمت اليهود أنّ هذا الموضع هو موضع هيكل سليمان في أورشليم، وزعمت النصارى أنه موضع صلب المسيح عليه السلام حسب معتقدتهم، ولكن المحققين منهم قد علموا أنه باطل محض.

وإن يقع موضع الذبح الذي قرب فيه إبراهيم؟ فينظر فيه ويتدبر في ما ذكر في كتب اليهود وتحريفاتهم. ويكتب أنّ صورة أصل الكلمة هي مروة والصور المبدلة هي (مريه)، (موريه)، و(موره) وقراءتهم (مرياه)، (مورياه)، و(موره).

¹ تفسير ابن كثير، أون لائن، تفسير الآية وفديناه بذبح عظيم

وأنّ مورّه هو اسم موضع في مساكن بني إسماعيل ولم يزل مشهوراً باسم المروّة. ويؤيد ذلك ما في صحفهم فإنه قد جاء في سفر القضاة: (7:1): "وكان جيش المديانيين شماليهم عند تل مورّه في الوادي"، فتبين أنّ هذا تل مورّه كان معسكر المديانيين، ولا شك أنّ المديانيين هم العرب، واسم مديان يطلق عليهم وعلى أرضهم. وقد جاء التصريح في صحفهم بأنّ مديان هم الإسماعيليون.

وقال (سيل) مترجم القرآن في الإنكليزية: "مديان من مدن الحجاز... وكانت على بحر قزقم في الجنوب والمشرق من سيناء، ولا شك أنها موديانه التي ذكرها بطليموس". فاتضح مما ذكرنا أنّ مورّه كان في مساكن مديان، وأنّ مديان هم بنو إسماعيل، وأنّ أرض مديان في الحجاز على بحر قزقم.

وقد مرّ آنفاً أنّ (مورّه) هي تحريف (مروّة)، وقد اعترف المحققون منهم بأنّ هذا الموضع لم يكن في الشام في مساكن اليهود، وإنما أدخلوا هذا الاسم في صحفهم، واخترعوا له موضعاً لم يثبت عند المحققين وجوده، بل نصوص صحفهم قد دلّت على أنه في أرض الحجاز في مساكن بني إسماعيل.¹

ويدعم الفراهي قوله بما كتبه أحد مشايخ اليهود أعني كولنزو (G.W.Colenso) فإنه ذكر من لغتهم في اسم الموضع الذي سمّوه "أرض المريا"، ثم صرح بتحريفهم في هذه التسمية. وهذا ما ذكره من الاختلاف.

فحسب النسخة السبعينية- إلى الأرض العالية، البلوطة العالية، قرب البلوطة العالية، عند جبل مورّه، (حسب ترجمة أقيلا الذي ناقض السبعينية)، وحسب النسخة العبرانية، إلى أرض مورّه، (حسب ترجمة سماخوس).

ويقول كولنزو: الأولى: أنّ هذا الاسم بمكان الهيكل لا يوجد في سائر الصحف،

¹ الرأي الصحيح في من الذبيح، ص 60-61

فقال: "لا يوجد هذا الاسم في أحد من الكتب بعد سليمان، فإن كتب الأنبياء والمزامير الأولى لا تذكر الجبل الذي بنى عليه الهيكل إلا باسم "صيهون"، ولا تذكر (مريا) أبداً لمكان الهيكل".

والثانية أنّ صفة ذلك الموضع لا تصدق على مكان الهيكل، فقال: "وليس هناك صعيد يطابق بقوله: "مكان بعيد" الذي رفع إليه ابراهيم عينيه، فإن المكان الذي تزعمه اليهود موضع القربان أعني جبل الهيكل جبل مورياه- ولا دليل عليه غير هذه التسمية- فإنه لا يرى إلا بعد ما بلغه المسافر من الجانب الشرقي من وادي هنوم الذي يطلع عليه فينظر إلى الهيكل من فوق".¹

وبهذا ثبت أنّ موضع الذبيح هو المروة المقامة عند الكعبة وليس في أورشلیم كما زعمت اليهود والنصارى.

ولننظر إلى الروايات التفسيرية التي ذكرها ابن جرير الطبري فقد ردّ عليها ابن كثير ولا داعي إلى تكرارها. ويكتب عن قرن الكبش المعلق على جدار الكعبة وإمكانية حمله من أورشلیم إلى مكة فيرد عليه الفراهي قائلاً: "ولا يخفى أنّ دليل قرن الكبش ليس مما يعول عليه، ولا ذكر له في القرآن، فسواء عندنا أثبت أم لم يثبت، فلو ترك التعرض له لكان أولى به. ولكن إذ أجاب عنه، فنقول: إنّ الإمكان العقلي لوسيع، ولكنه مستحيل جداً في عادة الأمم أن يرضوا بأن ينقل من عندهم آثارهم المقدسة القديمة، بل على مثل ذلك تشبّ نيران الحرب، وتهاق المهج". ثم يضيف إلى ذلك قائلاً: "ومتى غلبت العرب على اليهود أو النصارى قبل الإسلام حتى تسلبهم هذا الأثر المقدس عندهم لو كان لهم؟ ولو وقع ذلك لاشتهر ذكره عند الفريقين".²

أما القرآن الكريم فلم يصرح بمن هو الذبيح والآيات الواردة في هذا الصدد تتطلب

¹ المصدر السابق، ص 55

² المصدر السابق، ص 118

إلى دراسة متأنية في سياقها. وقد قام الفراهي رحمه الله بدراسة منظمة تدعم القول إنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. ويكتب: "لا يخفى أنّ الذبيح حين قرب كان غلاماً لم يدخل في حد الرجال، لقوله تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ) (سورة الصافات: 102)، وخطاب إبراهيم إياه بقوله: "يَبْنِي". وهكذا في التوراة. والبخارة بإسحاق تتضمن البشارة بنبوته، فكيف يمكن لإبراهيم أن يظن أنه أوحى بذبحه بعد صراحة البشارة من الله تعالى بخلاف ذلك؟"¹

ويضيف إلى ذلك رداً على ابن جرير الطبري "بعد ما ذكر الله تعالى المبشر به الذي صار ذبيحاً، والمبشر به الذي هو إسحاق، ذكر من أحوالهما بقوله: "وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ". (سورة الصافات: 113)، فجعلهما اثنين مرتين، وإذا ثبت أنّ المبشر به أولاً غير المبشر به ثانياً، والذبيح هو الأول، وإسحاق هو الثاني، ثبت ما ادعينا. وأما القول بأنّ المراد ههنا بالاثنين هو إبراهيم وإسحاق عليهما السلام فهو تأويل ضعيف.²

وقال تعالى: "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾".³

ففي هذه الآية ذكر الله سبحانه تعالى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. أي أولاً إسماعيل ثم إسحاق. هذا أيضاً يدل على أنّ إسماعيل كان أكبر ولدي إبراهيم عليه السلام. وفي مكان آخر يذكر القرآن الكريم: "وَأْمُرْهُمْ بِرَأْسِهِمْ قَائِمَةً فَاصْبِرْ لَهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَرَاءَ

¹ المصدر السابق، ص 83

² المصدر السابق، ص 87

³ سورة البقرة: 133-134

إِسْحَاقُ يَعْقُوبٌ..¹ ويصرح بأن الله يهبه ولداً اسمه إسحاق وبنفس الوقت يبشر بأنه يمنح إسحاق ولداً يكون اسمه يعقوب. فلا يجوز أن يكون الذبيح إسحاق إذ يبشر الله سبحانه بأنه يهبه ولداً اسمه يعقوب. وليس في مكان آخر بل في نفس الكلام ونفس الجملة.

أهمية كتاب "الرأي الصحيح في من هو الذبيح": هذا أروع الكتب في هذا الموضوع وذلك لأن الإمام الفراهي كان بارعاً في الكتب السماوية بجانب مهارته في علوم القرآن والحديث والأدب العربي فقد جاء الإمام الفراهي بكتاب فريد من نوعه. وقد أثنى على هذا الكتاب القيم العلامة السيد سليمان الندوي فقال: "لا مانع من أن أقول: ما رأيت في تاريخ الإسلام رسالة أحسن منها".²

قام أ.د. حسن يشو باستعراض كتاب "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" بالتفصيل وذكر أهمية الكتاب ومكانته فقال "لقد كان الإمام الفراهي محققاً من الطراز الأول، ومدققاً في قضايا كثيرة، وإن هذه المسألة هي مسألة قرآنية بامتياز، لذا كان منهج تصحيح المعلومة فيها بأدلة قرآنية ونظرة ثاقبة ورؤية عميقة، وقد كان الخلاف على أشده فأراد حسمه بحسام الفكر والاستدلال، وأفرد هذه المسألة بتأليف مفرد نفيس في بابه، أثبت فيه أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام؛ والعجيب أن الكتاب يزداد أهمية بإثبات رأيه الوجيه بأدلة أيضاً من التوراة واعترافات علماء أهل الكتاب أنفسهم، علاوة على استدلالاته القرآنية والحديثية.

هذا وقد نال الكتاب إعجاب ثلة من أعلام الأدب والفكر على غرار الشيخ سليمان الندوي الذي أثنى على الكتاب قائلاً: "لا مانع من أن أقول: ما رأيت في تاريخ الإسلام رسالة أحسن منها".³

¹ سورة هود: 71

² الفراهي، عبد الحميد، مجموعة تفاسير فراهي: 19-28

³ مجموعة تفاسير فراهي، ص 43.

قد قام د. محمد فريد راوي بن عبد الله في مقاله "الشيخ عبد الحميد الفراهي حياته وجهوده في مجال الدراسات القرآنية" باستعراض سريع للكاتب المذكور فقال:

"تعرض الفراهي في هذا الكتاب لإبطال ما زعمه اليهود من أن الذبيح إسحاق - عليه السلام - والكشف عن تحريفاتهم لإثبات ذلك في التوراة، وقد يظن بعض الناس أن هذه المسألة مسألة فرعية جزئية من التاريخ، وسواء إسماعيل كان الذبيح أم إسحاق عليهما السلام، فكلاهما من أنبياء الله ورسله، فليست لذلك أهمية شرعية تستوجب اهتماماً كبيراً كهذا، ولكنه ظن لا نصيب له من الصحة.

نظراً إلى أهمية قضية الذبيح الشرعية والتاريخية، نهض الفراهي لحسم الخلاف والإتيان بفصل الخطاب وإيضاح الحق، وألف كتاباً قيماً حافلاً بالحجج والبراهين الساطعة، وسمّاه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" حاول فيه إثبات كون إسماعيل هو الذبيح لا غير، مستنداً في رأيه أولاً على التوراة واعترافات علماء أهل الكتاب أنفسهم، وثانياً على الاستدلال بالقرآن المجيد، وثالثاً بالروايات وأقوال علماء الإسلام".

أبرز الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي أهمية كتاب الإمام الفراهي قائلاً:

"ويبدو أن الرسائل المذكورة كلها كانت لطيفة صغيرة الحجم. أما هذه الرسالة التي تقدّمها اليوم فهي كتاب حافل في هذا الباب. وقد سبق ما أشار إليه الإمام ابن القيم - رحمه الله - من أن القول بكون الذبيح إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجهاً. ولكن لم تقف على تلك الوجوه ولا على نصفها فيما وصل إلينا من مصنفات العلماء قبله أو بعده، وإنما وجدنا مصداق كلامه في هذا الكتاب القيم، فإنه جاء حقاً بأكثر من عشرين دليلاً على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، ونصفها من التوراة المحرّفة التي لا يزال اليهود والنصارى متمسكين بها. وما رأينا من هذه الوجوه المستنبطة من التوراة في غير هذا الكتاب إلا وجهاً أو وجهين.

وهو كتاب فريد لإمام نابغة من جهاذة علماء الإسلام... وتصدى الإمام الفراهي

رحمه الله في كتابه لإبطال ما زعم اليهود من أن الذبيح إسحاق عليه السلام، والكشف عن تحريفاتهم لإثبات ذلك في التوراة. وقد يظن بعض الناس أن هذه المسألة مسألة فرعية جزئية من التاريخ، وسواء إسماعيل كان الذبيح أو إسحاق، فكل من أنبياء الله ورسوله. فليست لذلك أهمية شرعية تستوجب اهتماماً كبيراً كهذا. ولكنه ظنّ لا نصيب له من الصحة".

وقال في مكان آخر:

"والكتاب كله من أوله إلى آخره نمط عالٍ من التحقيق والتأليف، ومثل خليق بالاحتذاء في أدب الخلاف والمجادلة الحسنة، في أسلوب علمي يتميز ببراعة التحليل ودقة الاستنباط، وقوة الاستدلال، وحسن التأني للعضلات، ونقد الآراء في تواضع جم واحترام تام لأصحابها، مع إحكام النسيج، ونهاية الإيجاز، ونصاعة البيان".

وكما أشار إلى أهمية الكتاب المذكور عند طبعته المحققة قائلا "يسعدنا اليوم أن نقدم طبعة ثانية¹ نرجو أن تكون لائقة- إلى حد ما- بمكانة هذا الكتاب الذي تصل مباحثه بعدة علوم: فهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، ودراسة العهد القديم، وعلم أسرار الدين ديناً قيماً ملة إبراهيم".

وأبرز أ.د. عبدالرحمن طيب أهمية الكتاب قائلا: أن "الرأي الصحيح في من هو الذبيح؟" هو من أهم الكتب حول الموضوع ولعله وحيد فريد في نوعه وأسلوبه واستدلالاته ودراساته. ويتناول أهم موضوع من موضوعات التاريخ والدين الإسلامي.

الرأي الصحيح في من هو الذبيح؟: مصدر من مصادر سيرة النبي للعلامة شبلي: هذا جدير بالذكر بأن الكتاب المذكور هو مصدر من مصادر سيرة النبي للعلامة شبلي الشهيرة التي طارت صيته في سائر العالم ويقال لا يوجد أي كتاب في أي لغة وهو

¹ صدرت عن الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره، الهند، عام 1414هـ.

يوازي سيرة النبي للعلامة شبلي في مكتبة السيرة النبوية العالمية.

وقد حَقَّق الأستاذ هذه المسئلة للعلامة شبلي عند اشتغاله بتصنيف كتابه الشهير في سيرة النبي ﷺ وبعدهما قضى شبلي النعماني وطره منها، طبعه الأستاذ بعد الاستقصاء التام وزيادة بعض الأشياء.

فيمكننا تحديد إفاداته في "سيرة النبي" في ضوء استفسارات شبلي¹ مثلاً إذا قارنا بين كون سيدنا إسماعيل ذيباً وحقيقة الأضحية ومفهومها في "سيرة النبي" وتأليف الفراهي "الرأي الصحيح في من هو الذبيح"² لظهر جلياً أنّ مناقشة شبلي لهذه المواضيع المذكورة تعتمد بشكل كامل على ما تحقيقات الفراهي.

الطبقات

- قد أوضح د. محمد أجمل الإصلاحي في تقديم طبعة الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح المحققة من حظ هذا الكتاب القيم أنّ الإمام الفراهي رحمه الله تعالى قد أنجز تأليفه خلافاً لكثير من كتبه، وسمّاه اسماً تاريخياً يشير إلى سنة 1331هـ. وقد طبع الكتاب في حياته طبعة حجرية بالخط الفارسي في مطبعة معارف بأعظم كره سنة 1338 هـ/1919م.
- وصدرت طبعة أخرى منه عن الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره سنة 1414هـ/1994م.
- صدر الكتاب محققاً عن دار القلم بدمشق سنة 1420 هـ/1999م. وقد قدّم له الدكتور محمد أجمل الإصلاحي محقق "مفردات الفراهي" بمقدمة طويلة.

¹ للزيد من التفصيل انظر "سيرة النبي شبلي مين فكر فراهي" للدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي "علامة حميد الدين فراهي: حيات وأفكار" (المقالات المقدمة في مؤتمر الفراهي)، ص- 416-441.

² المطبوعة مطبعة معارف، أعظم جره، 1919م، الترجمة في اللغة الأردنية "ذبيح كون هي" (للشيخ أمين أحسن الإصلاحي) الدائرة حميدية، سرائي مير، أعظم جره، (بدون تاريخ).

يحتوي على 164 صفحة بحجم متوسط.

ذكر في بعض المقال بأنّ الكتاب صدر الكتاب عن دار القلم، دمشق سنة 1430هـ وهو خطأ، وكما ذكر في بعض المقال بأنّ إصدار الكتاب عن دار القلم هو طبعة ثالثة.

هذا القول صحيح من ناحية بأنه طبعة ثالثة حسب الترتيب الزمني أي سنة 1338هـ/1919م من مطبعة معارف بأعظم كره (الطبعة الأولى)، وسنة 1414هـ/1994م من الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كره (الطبعة الثانية)، وسنة 1420هـ/1999م من دار القلم بدمشق (الطبعة الثالثة).

ومن ناحية غلط بأنه هو طبعة أولى من دار القلم بدمشق ولم تصدر أية طبعة بعد سنة 1420هـ/1999م حتى الآن.

الترجمات: قام الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بترجمته باسم "ذبيح كون هـ؟ سنة 1357هـ". هذه الترجمة تشتمل على 118 صفحة، وصدرت عن الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره. المطبعة كوه نور بدلهي، ب. ت. الطبعة الأولى. صدرت لهذه الترجمة عدة طبعات.

هذا جدير بالذكر هذه الترجمة نشرت أولاً في مجلة "الإصلاح" ¹ الشهرية.

وقد ترجم قبل سنتين باللغة الإنكليزية أيضاً.

¹ المصدر السابق، 11-1/3 و 4-1/4

الاستفهام

- الإمام عبد الحميد الفراهي¹

تحقيق وتقديم: د. أوزنك زيب الأعظمي²

(13) ومنها الاستفهام³

الاستفهام يدلّ على معانٍ كثيرة بطريق الكناية، وربما عدة معانٍ مثلاً يجمع الاستبعاد والتحقيق، ولذلك لا بد من شرح أمثله ليسهل تعيين المراد من بين المعاني المختلفة.

الاستفهام يكون بالإثبات وبالنفي، ولكل دلالة، انظر في الأمثلة:

(1)

أ لستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح⁴

¹ الشخصية التي خصصنا بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

³ "أساليب القرآن" كتاب رائع للإمام عبد الحميد الفراهي، لم يخصّه الإمام بذكر أساليب القرآن بل أراد أن يبيّن فيه أساليب العربية بما فيها أساليب القرآن. ولذا سمّاه "كتاب الأساليب"، ولكنه لم يوفق له سوى بيان بعض أساليب القرآن فسمّاه الجامع رحمه الله بـ"أساليب القرآن". قت بتحقيقه حينما كنت طالباً في مدرسة الإصلاح بأعظم كره، ولكن لم يتيسّر لي تضيقه على الكمبيوتر إذ شغلني أعمال علمية عديدة ولكن بقيت ألحق خلال هذه المدة إضافات مفيدة بالكتاب وسترونها حينما يطبع إن شاء الله تعالى.

"الاستفهام" مبحث من مباحث هذا الكتاب الرائع، شرع الإمام الفراهي في كتابته ولكن المنية عاجلته فلم يوفق لإتمامه فبقي، كمباحثه الأخرى، غير تام. سبق أن نشرنا مبحث "الاعتراض" و"الزيادة" و"التلخيص" و"التفصيل بعد الإجمال"، والآن ننشر هذا المبحث.

⁴ هذا البيت لجرير، أنظر: ديوانه، ص 77 وشرح المفصل لابن يعيش، 123/8 وقد سبق جرير الأعشى الكبير فقال:

يا خير من يركب المطاي ولا يشرب كأساً بكفٍ من بخلا

ديوانه، 492/2

وقالت الشاعرة الجاهلية خالدة بنت هاشم بن عبد مناف:

أبكي خير من ركب المطايا ومن لبس النعال ومن حذاها

فيه تنبيه للمخاطب على أمر مشهور بين الناس مع ذهوله عنه. وبذلك دلّ على أنّ الجود منه عادة وبخية وليس للسمعة والتنافس.

(2)

ألست ترى السّماع والناس أحوالي¹

شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 113
وجاء رجل النبي ﷺ يشكو رجلاً من الأنصار شجّه:
يا خيرٍ من يمشي بنعلٍ فرد
أوهبه لهدهٍ ونهد
لسان العرب: فرد
وقالت الخنساء:

وجودي بدمعك واستعبري
على خيرٍ من يندب المعولون
كسحّ الخليج على الجدول
والسيد الأيدٍ الأفضل
ديوانها، ص 98، أيد: ذو الأيد: القوة
وقال أبو الأسود:

ألا أبلغ معاوية بن حرب،
قتلتم خيرٍ من ركب المنايا
فلا قرّت عيون الشامتينا،
ومن لبس النعال ومن حذاها
وخيسها ومن ركب السفينا
ومن قرأ المثاني والمثينا

ديوانه، ص 152
وقالت أروى بنت الحارث ترضي علياً كرم الله وجهه:
رزينا خيرٍ من ركب المطايا
شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 132
وقال القطامي:

أما قريش فلن تلقاهم أبداً
إلا وهم خيرٍ من يحفى وينتعل
ديوانه، ص 29
وقال أبو النجم:

آكرم من يمشي على النعال
من كلّي جدٍ وأبٍ وخالٍ
خيرٍ من ركب المطايا

ديوانه، ص 388
¹ لامرئ القيس من معلقته، وصدر البيت:
فقالت سبائك الله إنك فاضحي

ديوانه، ص 125

أي فعلك يدلّ على أنك لا ترى والأمر بين ظاهر، فاستفهم للتنبيه والاستعجاب.¹

¹ وفي كلام العرب شواهد أخر تدلّ على هذه الفوائد فأذكر طرفاً منها وأشير على القارئ أن يراجعه فقال امرؤ القيس:

وإن شفائي عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من معول
ديوانه، ص 111. وقال تأبط شراً:

عاذلتي، إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ، وهل متاع وإن أبقته باقي
ديوانه، ص 141. وقال سلامة بن جندل:

وقفْتُ بها ما إن تَبَيَّنَ لسائلٍ وهل تفقه الصم الخوالد منطقي
ديوانه، ص 156. وقال عنتر بن شداد يخاطب فرسه:

ألسْتُ بصاحبي يوم التقينا بسيفٍ، وصاحبي يوم الكتيب
شرح ديوانه، ص 33. وقال زهير بن أبي سلمى:

أليس بفياض يده غمامة ثمال اليتامى، في السنين، محمد
ديوانه، ص 40. وقال الحارث بن حلزة:

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو، وهل لذاك انتهاء
ديوانه، ص 31. وقال حاتم الطائي:

أفضح جارتني وأخون جاري أفضح جارتني وأخون جاري
ديوانه، ص 72 وله أيضاً:

فهل تركت قبلي حُضورَ مكانها وهل من أتى ضيماً وخسفاً مخدّد
ديوانه، ص 104 وقال النمر بن تولب:

ألسْتُ بشيخٍ قد خَطِمْتَ بلحية فتقصر عن جهل الغرائقة المرّد
أساس البلاغة: خطم، خُطِمَ بلحية إذا صارت في خديه. وفي ديوانه (ص 57): "فتقصر" مكان

"فتقصر". وقال النابغة الذبياني:
حلفت فلم أترك لنفسك رية وهل يأتمن ذو أمة، وهو طائع

ديوانه، ص 55

وقال أمية بن أبي الصلت:

ألسْتُ ترى فيما مضى لك عبرة فه لا تكن يا قلب أعمى يلدّد
ديوانه، ص 374. وقال الأعشى الكبير:

ودّع هريرة إنَّ الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
ديوانه، 203/1 وله أيضاً:

جعلت الغواية من باليه وهل يطلب اللهو أمثاليه

على حين لاح مشيب القَدال
ديوانه، 730/2. وقال عامر بن الطفيل:
لقد علمت عليا هوازن أني
وقد علم المنزوق أني آكره
إذا ازور من وقع الرماح زجرته
فأنبأته أن الفرار خزاية
ألسنت ترى أرماعهم في شرعا
ديوان الأصمعيات، ص 215. وقال ذو الرمة:
ألسم الأمم الثقلين كهلا
نفتك هوازن وبنو تميم
أنفرا حين تحمل قريتاكم
متى رجعت امرؤ القيس السرايا
ديوانه، ص 98. وقال علي بن أبي طالب:
هب الدنيا تساق إليك عفوا
ديوانه، ص 82. وقال معاوية بن أبي سفيان:
أليس فتى البطحاء ما تنكرونه
ديوانه، ص 78 وكذا "ما" في "ما تنكرونه" جاءت للعاقل. وقال الفرزدق:
ألسم عائجين بنا لعنا
فقالوا: إن فعلت فأغن عنا
ديوانه، ص 597 ولعنا أي: لعنا. وقال أبو ذؤيب:
تريدن كيما تجعيني وخالدا
ديوان الهذليين، 159/1. وقال مسكين الدارمي:
وإن ابن عم المرء، فاعلم، جناحه
جمهرة رسائل العرب، 234/2. وقال الجعدي:
يا بنت عمي! كآب الله أنخرجني
أساس البلاغة: كتب. وفي ديوانه (ص 138): "يا بنة عمي" مكان "يا بنت عمي". وقال عمر بن أبي ربيعة:
استقبلت ورق الرياح تمقطفه
ألسنت تعرفني في الحي جارية
ديوانه، ص 164. وقال أبو دواد الرواسي:
متى يقل تنفع الأرقام قولته،
أليس أقربهم خيرا، وأبعدهم
لا يحسد الناس فضل الله عندهم،

وأقصرَ باطلَ أخذانيه
أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر
على جمعهم كَر المنيح المشهر
وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر
على المرء ما لم يبيل جهدا فيعدر
وأنت حصان ماجد العرق فاصبر
وشباناً والأمهم صغارا
وأنتك الشمال والنجارا
ولو ما في المواطن وانكسارا
من الأخلاق أو حمت الذمارا؟
أليس مصير ذلك إلى النزول
وأول من أثني بتقواه خنضري
نرى العرصات أو أثر الخيام
دموعا غير راقية السجام
وهل يجع السيفان ويحك في غمد
وهل ينهض البازي بغير جناح
عنكم، وهل أمنع الله ما فعلا
وعنبر الهند والوردية الجدد
ولم أخنك ولم تمدد إلي يدا
إذا اضمحل حديث الكذب الولعة
شرا، وأسمحهم كفا لمن منعة
إذا تشوه نفوس الحسد الجشعة

وكذلك في قوله تعالى: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ" ١.

الاستفهام أجمع للمعاني الإنشائية، يتضمن الإقرار من المخاطب بما نكارته ظاهرة، كما قال تعالى:

"أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُم مِّنْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" ٢.

ومن فوائده: التأكيد، والإقرار، والتنبيه، والإنكار، والزجر، والأمر، والتحقير. فمن الأمر ما جاء من قوله تعالى:

"قَالِمٌ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" ٣.

وأيضاً على تأويل:

"وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا" ٤.

وأيضاً:

"فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٦ يَقُولُ أَتَىكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ٧ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٨ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلِمُونَ

لسان العرب: كذب، الولع: كدبة (جمع الوالع). وقال الشاعر:

فلا تخش نجفي إني لك مبغض وهل تنجا العين البغض المشوها

العياب الزانح: نجياً

وشواهد عدة أخر أصرف النظر عنها مخافة أن يمل منها القارئ.

١ سورة القيامة: 3

٢ سورة البقرة: 85

٣ سورة هود: 14

٤ سورة الفرقان: 20

﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾¹.

فقوله تعالى "هَلْ أَنْتُمْ مُّظَلِّعُونَ" أمر. وكذلك في الأمثلة السابقة.²

ومن التحقير ما جاء: "أَعِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ"³.

وأيضاً:

"إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيْفَاكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾"⁴.

وأيضاً: "قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٦٥﴾"⁵.

وأيضاً....⁶

¹ سورة الصافات: 50-55

² وقال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٥٥﴾". (سورة المائدة)
وقال: "فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِءِ صَدْرِكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٥٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَنْزَلُهُ قُلٌّ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنَ اسْتَضَعْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَا تَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٨﴾". (سورة هود)
وقال: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ لَهَا مُرْسِلُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٥٩﴾". (سورة الفرقان)
وقال: "فَجَمِيعَ السَّحَرَةِ لِيَمِيقَتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿٦٥﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٦٦﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ ﴿٦٧﴾". (سورة الشعراء)

³ سورة الصافات: 52

⁴ سورة الصافات: 85-86

⁵ سورة الشعراء: 25

⁶ ومن الزجر قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾". (سورة المؤمنون)
وللحسرة والرجز: "وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ إِلَّا يَنْتَفُونَ ﴿٤٠﴾". (سورة الشعراء)

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م
3. أساليب القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكنتها، سرائير مير، أعظم كره، الهند، ط1، 1389هـ
4. جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
5. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
6. ديوان أبي النجم العجلي، جمع وشرح وتحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 2006م
7. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
8. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
9. ديوان الحارث بن حلزة بشرح الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م
10. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، 2004م

ولالإفهام والتنبيه قال: "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُثْمِنُوا شَجَرَهَا أَلَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" (سورة النمل)
وإذ أكثر الكاتب من الآيات وإذ فيها كفاية فلا أزيد فيها. وليس القرآن من يدي القارئ بعيد.

11. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
12. ديوان القطامي، تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1960م
13. ديوان النابغة الجعدي، جمع وتحقيق: د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م
14. ديوان النابغة الذبياني بشرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م
15. ديوان النمر بن تولب العُكلي، شاعر مخضرم، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
16. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
17. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
18. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحميد السطلي، دمشق، 1974م، د.ت.
19. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م
20. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
21. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م
22. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
23. ديوان حاتم الطائي، شرح: أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب

- العربي، بيروت، ط1، 1994م
24. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
25. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التبية العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
26. ديوان سلامة بن جندل، صنعة: محمد بن الحسن الأحول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م
27. ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
28. ديوان معاوية بن أبي سفيان، جمع وتحقيق وشرح: الدكتور فاروق أسليم بن أحمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م
29. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع وترتيب: بشير يموت، المطبعة الوطنية، ط1، 1934م
30. شرح المفصل لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.
31. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
32. العباب الزاخر واللباب الفاخر للحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، تحقيق: فير محمد حسن المخدومي، قابل أصوله وأعاد تحقيقه: تركي بن سهو بن نزال العتيبي، دار صادر، بيروت، ط1، 2022م
33. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.

[مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَا فَعَلَ]

- د. أورتك زيب الأعظمي¹

جاء في كتاب "أسباق النحو" للإمام عبد الحميد الفراهي في نفي الفعل الماضي بالأحرف: "مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَا فَعَلَ"².

سأدرس فيما يلي قول الفراهي هذا في ضوء كلام العرب والقرآن الكريم والحديث النبوي: وجدتُ عندما درستُ هذه المصادر أنّ هناك حروفاً تدخل على الفعل الماضي فتحولّه إلى النفي وهي:

1. إِنْ فَعَلَ: لم يفعل. قال عروة بن أذينة:

وما في يدِ نلنا بها ذا حميةٍ وإن ذاقَ طعمَ الذلِّ إلا احتسابها³
وقال تعالى: "فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ
إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفِّيْنَا"⁴. (سورة النساء)

وقال: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"⁵. (سورة التوبة)
وقالت عائشة في الردّ على السؤال: هل كان رسول الله له صومٌ معلوم سوى
رمضان؟ "والله! إن صام شهرًا معلومًا سوى رمضان حتى مضى لوجهه، ولا أظفر
حتى يصوم منه"⁶.

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

² أسباق النحو، ص 72

³ شعره، ص 285

⁴ سنن النسائي، رقم الحديث: 2187

مجلة الهند مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَا فَعَلَ

وجاء في حديث فقيه ماتت زوجته فجاءته امرأة أخرى تستفتيه ولزمت بابه قائلة:
"إِنْ أَرَدْتُ إِلَّا مَشَافَهَتَهُ"¹.

وشواهد أخرى.

وجاء في الحديث: "إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ جَعَلَ يَسَّبُ كَفَّارَ قَرِيشٍ وَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَاللَّهِ مَا كَدْتُ أَنْ أَصْلِيَ الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ: فَوَاللَّهِ إِنْ صَلَّيْتُهَا"².

وكذا تدخل على الاسم فتتفي خبره كما قال تعالى: "وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ" (سورة البقرة)

وقال: "... وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" (سورة المائدة)

وجاء في حديث أكل الجراد محرماً أنّ كعب الأبحار قال: "إِنْ هِيَ إِلَّا نَثْرَةٌ حَوَتْ
يَنْثَرُهُ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ"³.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "... وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مُؤْمِنٍ غَيْرِي وَغَيْرِكَ"⁴.
وكذا هي تدخل على المضارع كما قال تعالى: "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ
وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ" (سورة الأنعام)

وجاء في الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا نُوذِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ

¹ الموطأ، رقم الحديث: 572

² صحيح مسلم، رقم الحديث: 631

³ الموطأ، رقم الحديث: 811

⁴ صحيح البخاري، رقم الحديث: 2217

مجلة الهند - - - - - مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَا فَعَلَ

له ضراطٌ حتى لا يسمع التأذين. فإذا قضي التأذين أقبل حتى إذا تُوبَّ بالصلاة أدير حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له: اذكر كذا واذكر كذا لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظلَّ الرجل إن يدري كيف صلَّى".¹

2. لَا فَعَلَ: لم يفعل وكذا يعني: لا يفعل. وتأتي مفرداً ومع التكرار فقال امرؤ القيس:

ألا قَبَّحَ اللهُ البراجمَ كلها وجَدَّعَ يربوعاً وعَفَّرَ دارما
وأثر بالملحاة آل مجاشع رقابَ إماء يقتنين المفارما
ولا فعلوا فعلَ العُويرِ بجاره لدى بابِ هندٍ إذ تجرَّد قائماً²
وقال عنتره بن شداد:

وحقِّي هواكِ لا داويتُ قلبي بغير الصبر يا بنتَ الكرام³
وقال أيضاً:

لحى اللهُ الفراقَ ولا رعاه فكم قد شكَّ قلبي بالنبال⁴
وقال أبو دواد الإيادي:

فإن لم نثاراني في عكَبِّ فلا أوريتما أبداً صدياً⁵
وقال النابغة الذبياني:

ما قلتُ من سيءٍ مما أتيتَ به، إذا فلا رفعتُ سوطي إليّ يدي⁶

¹ صحيح مسلم، رقم الحديث: 389 (5)

² ديوانه، ص 160

³ شرح ديوانه، ص 187

⁴ شرح ديوانه، ص 130

⁵ ديوانه، ص 183

⁶ ديوانه، ص 15

مجلة الهند - مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَا فَعَلَ

وقال أمية بن أبي الصلت:

إِنْ تَغْفِرُ اللَّهُمَّ تَغْفِرُ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ لَا أُمَّأ¹
ف"لا ألم" يعني: لم يرتكب اللهم.

وقال الأعشى الكبير:

فَأَيَّةَ أَرْضٍ لَا أُتِيْتُ سَرَاتِمَا وَأَيَّةَ أَرْضٍ لَمْ أَجِبْهَا بِمِرْحَل²
وقال الأعشى أيضاً:

وَأَيَّ بَلَاءِ الصِّدْقِ لَا قَدْ بَلَوْتُمْ³ فَمَا فُقِدَتْ كَانَتْ بَلِيَّةً مَبْتَلِي³
وقال المثقب العبدى:

وَأَيَّ أَنَاسٍ لَا أَبَاحَ بَغَارَةَ يُوَازِي كُبَيْدَاتِ السَّمَاءِ عَمُّودُهَا⁴
وقال المرناق الطائي:

إِنْ أَجَزَ عُلْقَمَةَ بِنَ سَيْفِ سَعِيهِ لَا أَجْزَهُ بِبَلَاءِ يَوْمٍ وَاحِدٍ
لَا حَبْنِي حَبَّ الصَّبِيِّ وَرَمْنِي رَمَّ الْهَدْيِ إِلَى الْغَنِيِّ الْوَاجِدِ⁵
وقال ذو الرمة:

خَلِيلِي! لَا لِأَقِيمَتِي، مَا حَيِّتُمَا، مِنْ الطَّيْرِ إِلَّا السَّانِحَاتِ وَأَسْعَدَا⁶
وقال تعالى: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٦﴾ فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١٧﴾". (سورة البلد)

¹ ديوانه، ص 491

² ديوانه، 638/2

³ ديوانه، 639/2

⁴ ديوان المفضليات، ص 152، كبيد: مصغر كبد: وسط.

⁵ موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 303

⁶ لسان العرب: سنح

مجلة الهند..... ما فعل، إن فعل، ما إن فعل، لا فعل

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يقولن أحدكم صمت رمضان ولا فُتته كله".¹
وقال نصيب:

عليك السلام لا مِلت قريبةً، وما لك عندي، إن نأيت، قلاء²
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صام الأبَدَ فلا صام".³ وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "لا صام من صام الأبَدَ".⁴

وكذا تأتي مكرراً فقال الحارث بن عباد:

أي: لا كانوا ينفعون ولا ضرّوا ولا حمدوا.

وقال الشماخ:

أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ولا زلت في خضراء دانٍ بريرها⁵
وقال الراعي التميري:

فلا حملت أنثى ولا أب غائبٌ ولا ولدت أنثى إذا مات خالد⁶
وقال الفرزدق:

فلا شربوا إلّا بملج مُرّج، ولا نسكوا الإسلام إن لم تندم⁷
كما تأتي مع ما النافية فقال جنادة بن عامر الهذلي:

لعمرك ما وفي ابن أبي أنيس ولا خام القتال ولا أضاعا⁸

¹ سنن النسائي، رقم الحديث: 2111

² لسان العرب: قلاء، قلاء: قلى.

³ سنن النسائي، رقم الحديث: 2375 و2377 و2378 وغيرها.

⁴ سنن النسائي، رقم الحديث: 2399 و2401

⁵ ديوانه، ص 438

⁶ ديوانه، ص 97

⁷ ديوانه، ص 520

⁸ موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 104

مجلة الهند..... مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَأ فَعَلَ

وقال تعالى: "فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾". (سورة القيامة)

كما أنها تكررت على الاسم فقال النابغة الذبياني:

أبى الله إلا عدله ووفاءه فلا النكرُ معروفٌ، ولا العرفُ ضائعٌ¹

وقال جرير:

فلا حملتُ بعد الفرزدق حرّةً ولا ذاتُ حملٍ من نفاسٍ تعلّتُ²

وقال لبيد لابنته وهنا كررت "لا" ثلاث مرات:

فقوما فقولا بالذي قد علمتما ولا تخمِشا وجهًا ولا تحلقا شعراً

وقولا: هو المرءُ الذي لا خليله أضاعَ، ولا خان الصديقَ ولا غدرَ³

وكذا أنها تتكرر بدون اتحاد الزمان فقال الأعمى الهذلي:

وفريتُ من جزعٍ فلا أرمي، ولا ودعتُ صاحبُ⁴

3. لا إِنْ فَعَلَ: ووجدت "لا" النافية مع "إِنْ" هذه فقال نهبك بن قعب:

تهكمتما حولينٍ ثم نزعتما، فلا إِنْ علا كعبا كما بالتهم⁵

ولمّا أجد شاهداً آخر غير هذا. ذكرته لعل الله يوفق باحثاً فيعضد رأبي هذا.

4. مَا فَعَلَ: هذا مثل "لا فعل" فهو ينفي الفعل الماضي ويأتي مفرداً ومكرراً

ويتكرر لا. فقال تأبط شراً:

فما كان يدعاً أَنْ يُصاب، فثله أصيبَ، وحَمَّ الملتجون القدادر⁶

¹ ديوانه، ص 57

² ديوانه، ص 72

³ ديوانه، ص 79

⁴ لسان العرب: فرو

⁵ لسان العرب: همك، تهمك: وقع في القوم.

⁶ ديوانه، ص 81

وقال السمّوع:

وما قلّ مَنْ كانت بقاياها مثلنا، شبابٌ، تسمى للعلی، وكهول¹
وقال دريد بن الصمة:

وما قصرتُ يدي عن عظیم أمرٍ أهمّ به ولا سهمي بنكس²
وقال حسان بن ثابت:

يناديهم رسولُ الله لما قذفناهم بكابٍ في القلب
ألم تجدوا حديثي كان حقًا وأمرُ الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنتَ ذا رأيٍ مُصيب³
وهذا شائع.

وأما شواهد تكرارها فقال أبو قيس بن صيفي:

لقد رأيتُ بني عمرو فما وهنوا عند اللقاء وما هموا بتكذيب⁴
وقال الربيع بن زياد العبسي:

جنيّة حربٍ جناها فما تفرّج عنه وما أسلها⁵
وقال الراعي النميري:

أزرى بأموالنا قومٌ أمرتهم بالعدل فينا فما أبقوا وما قصدوا⁶

¹ ديوانه، ص 11

² ديوانه، ص 118

³ شرح ديوانه، ص 24

⁴ ديوانه، ص 70

⁵ شرح ديوان الحماسة، 187/1

⁶ ديوانه، ص 89

مجلة الهند - - - - - مَا فَعَلَ، إِنْ فَعَلَ، مَا إِنْ فَعَلَ، لَأ فَعَلَ

وقال حسن بن ثابت الأنصاري:

أعطوا نبيّ الهدى والبرّ طاعتهم
فما ونا نصرهم عنه وما نزعوا¹

وقال سنان بن الفحل الطائي:

وقبلك ربّ خصمٍ قد تمالوا
عليّ فما هلعتُ وما دعوتُ²

وقال سويد بن كراع العكلي:

لا يُبعد الله من يعطي الجزيل ومن
يجبو الخليل وما أكدي وما صلدا³

وقال جرير:

وما زادني بعدُ المدى نقضَ مرّةٍ
وما رِقَّ عظمي للضُّروس العواجم⁴

وقال سلامة بن عامر القشيري:

فما طعمتُ عيناي نوماً للذة
وما زالتنا من ذكره تكفان⁵

وهذا أيضاً شائع ولو لم يشر إليه النحاة.

وأما شواهد مجيئها مع "لا" فقال تأبط شراً:

وما ولدتُ أمّي من القوم عاجزاً،
ولا كان ريشي من ذنابي ولا لغب⁶

وقال ضرار بن ضبّة:

وما شكرتُ حرثانُ نعمةٍ ناعمٍ
ولا أدركتُ من دمنةٍ عند واطر⁷

¹ شرح ديوانه، ص 204

² شرح ديوان الحماسة، 416/1

³ عشرة شعراء مقلّون، ص 91

⁴ ديوانه، ص 457

⁵ شعر الخوارج، ص 186

⁶ لسان العرب: لغب

⁷ قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب، ص 73

وقال الفرزدق:

وما وَجَعَتْ أزديةً من ختانةٍ ولا شربتُ في جلدِ حوبٍ مُعلَّبِ
وما انتابها القنَّاصُ بالبيضِ والجنَّا ولا أكلتُ فوزَ المنيحِ المُعَبِّبِ
ولا سمكتُ عنها سماءٌ وليدةٌ مَظَلَّةٌ أعرابيةٌ فوقَ أُسْبِ
ولا أوقدتُ نارٌ ليعشو مُدلجٌ إليها، ولم يُسمعَ لها صوتُ أكلبٍ¹

وقال إياس بن مالك:

فما كَلَّتِ الأيدي، وما ناظر القنا ولا عثرت منا الجدودُ العواثرُ²
وقال عمران ابن الحصين: نهى رسول الله عن الكيِّ فاكْتَوَيْتُ فما أفلحتُ ولا أنجحتُ.³

5. ما إن فعلَ: وهذه أيضاً تنفي الماضي كما تنفي الاسم فقال حاتم الطائي:

أم الهلكُ أدنى، فما إن علمتُ عليَّ جُناحاً، فأخشى الوعيد⁴
وقال النابغة الذبياني:

ما قلتُ من سيءٍ مما أُتيتَ به، إذا فلا رفعتُ سوطي إليَّ يدي⁵
ويروى نفس البيت كما يلي:

ما إن نديتُ بشيء أنت تكرهه إذا فلا رفعتُ صوتي إليَّ يدي⁶
وليست هذه الرواية في الديوانين.

¹ ديوانه، ص 19

² موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 83

³ سنن ابن ماجه، رقم الحديث: 3490

⁴ ديوانه، ص 61

⁵ ديوانه، ص 15

⁶ أساس البلاغة ولسان العرب: ندي

وقال المزرد الشيباني:

وما إن أحسّ ابنا عبيدٍ كلاهما
ولكنه نقتّ ضفادعُ بطنه
تذكر صرمَ ابني زياد بن حابس
وقال أبو ذؤيب الهذلي:

ألا زعمت أسماء أن لا أحبها
جزيتك ضعف الودّ لما شكيتني
وقال أبو بكر رضي الله عنه:

ربّ رجح لأناسٍ عصفت
وكذا تأتي مكرراً مع لا كما قال لبيد:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ
وقال عمرو بن معديكرب:

كم من أبح لي صالح
ما إن جزعتُ ولا هلع
بواته بيديّ لحدا
ولا يردّ بكاي زندا⁵

¹ ديوانه، ص 50، نقتّ ضفادعُ بطنه: جاع

² شرح ديوان الهذليين، 35-34/1

³ ديوانه، ص 121

⁴ ديوانه، ص 215

⁵ شعره، ص 81 وروى ابن دريد: ولا لطمتُ عليه خدّاء، نفس المصدر، ص 82، وفي حماسة البحري (ص 82):

ما إن هلعْتُ لفقده ليس البكاء يردّ زندا

مجلة الهند - - - - - ما فعل، إن فعل، ما إن فعل، لا فعل

وقال دريد بن الصمة:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله كاليوم طالي أيقنُ حرب¹
وقال دريد أيضاً:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله حامي الظعينة فارساً لم يقتل²
وأما شواهد دخولها على الاسم فقال الشنفرى الأزدي للجذب والسنين:

وأمّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتهم إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت
تخاف علينا العيلَ إن هي أكثرتُ ونحن جياعٌ، أي آلٍ تألت
وما إن بها ضنٌّ بما في وعائها ولكنها من خيفة الجوع أبقت³
وقال أبو حية النميري:

أحين شميم، فلم يترك له ترة، سيفٌ تلقده الرئبال ذو اللبد
سلتموه عليكم يا بني حسن ما إن لكم من فلاح آخر الأبد⁴
وأنشد الفراء:

ما إن لهم بالدوِّ من محيصٍ سوى نجاءِ القربِ العمليص⁵
6. لا إن يفعل: وكذا وجدتُ شاهداً على "لا إن يفعل" ولكنه ليس من هذا
البحث فقال الشاعر:

زعاكيكُ لا إن يعجلون لصنعةٍ، إذا علقتم بالقيِّ الحبائل⁶

¹ ديوانه، ص 43

² ديوانه، ص 151

³ ديوان المفضليات، ص 110-111، عيل: عيلة

⁴ شعره، ص 138

⁵ لسان العرب وتاج العروس: عملص

⁶ لسان العرب: زعك، زعاكيك جمع زعكوك من الإبل: سمين

مجلة الهند..... ما فعل، إن فعل، ما إن فعل، لا فعل

7. ما إن يفعل: وهكذا وجدتُ شواهدَ عديدةً على "ما إن يفعل" كما قال امرؤ القيس:

فقال: يمين الله ما لك حيلةً وما إن أرى عنك الغواية تنجلي¹
وقال زهير:

وما إن أرى نفسي تقيها كرهيتي وما إن تقي نفسي كرائمُ مالي²
وقال حجر بن خالد:

كلبيةً علق الفؤاد بذكرها ما إن تزال ترى لها أهوالاً
فاقني حياءك لا أبا لك إنني في أرضِ فارسٍ موثقٌ أحوالاً
وإذا هلكتُ فلا تريدني عاجزاً غسّاً ولا برماً ولا معزلاً³
وفي "فاقني حياءك" التفات إلى الكلبية.
وقال سلامة بن جندل:

وقفتُ بها ما إن تُبينُ لسائلٍ وهل تفقه الصمُ الخوالدُ منطقي⁴
وقال أبو دواد الإيادي:

وتراهنّ في الهوادج كالغز لأنّ، ما إن يناهنّ السهامُ
نخلاتٌ من نخلٍ يبسان أينع ن، جميعاً، ونبتنّ توأم⁵
وقال الأعشى الكبير:

على كلِّ أحوالِ الفتى قد شربتها غنياً، وصعلوكاً، وما إن أقاتها⁶

¹ ديوانه، ص 114

² ديوانه، ص 141

³ شرح ديوان الحماسة، 1/131

⁴ ديوان الأصمعيات، ص 133

⁵ ديوانه، ص 161

⁶ ديوانه، 1/254

وقال زيد الخليل:

سريعٌ إلى الهيجاءٍ شاكٍ سلاحه فما إن يكاد قرنه يتنفس¹

وقال جميل بثينة:

دعوتُ أبا عمرو فصدَّقَ نظرتي وما إن يراهنَّ البصيرُ لحين²

ولكنه أيضًا خارجٌ عن بحثي هذا.

كذا تدخل "ما إن" على الاسم فتنتفيه كما قال امرؤ القيس:

حلفتُ لها بالله حلفَةً فاجر: لناموا، فما إن من حديث ولا صالي³

وقال الحارث بن حلزة:

وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للحائنين دماء⁴

وقال الشنفرى:

وأمَّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتهم إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت

تخاف علينا العيلَ إن هي أكثرتُ ونحن جياعٌ، أي آلٍ تألت

وما إن بها ضنٌّ بما في وعائها ولكنها من خيفة الجوع أبقت⁵

وقال النابغة الذبياني:

محالفُ الصيد هباشٌ له لحم ما إن عليه ثيابٌ غير أطمار⁶

¹ ديوانه، ص 74

² ديوانه، ص 43

³ ديوانه، ص 125، صالي: مستدقٌ بالنار.

⁴ ديوانه، ص 33

⁵ ديوان المفضليات، ص 110-111

⁶ ديوانه، ص 23، أطمار: ثوب بالٍ

وقال الأعشى الكبير:

وما إن على قلبه غمرة¹ وما إن بعظم له من وهن¹

وقال كعب بن زهير:

لا يقطع الطعن إلا في نحورهم² ما إن لهم عن حياض الموت تهويل²

وقالت الخنساء:

من الهضبة العليا التي ليس كالصفا³ صفاها وما إن كالصخور صخورها³

ولكنه أيضاً لا يأتي ضمن هذا البحث.

فظهر مما قمتُ به من شرح قول الفراهي أنّ الفعل الماضي تنفيه "ما" كما أنه تنفيه "إن" و"لا" وأنّ "ما" تأتي مكرراً كما أنها تأتي مكرراً مع "لا" وكذا أنّ "ما" و"لا" تتبعها "إن" أي: ما إن فعلَ ولا إن فعلَ. وهكذا أنّ "ما" و"لا" الداخلتين على المضارع يتبعهما "إن" أي: ما إن يفعلُ ولا إن يفعل. وهذه كلها تنفي الاسم أيضاً.

¹ ديوانه، 1/134

² ديوانه، ص 67

³ ديوانها، ص 67

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م
3. أسباق النحو مع تحفة الإعراب للعلامة حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، 2019م
4. تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1965م
5. حماسة البحري، تحقيق: محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، د1، 2007م
6. ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله، صنعة: الدكتور محمد شفيق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة السعودية، الجمهورية اليمنية، صنعاء، ط1، 2020م
7. ديوان أبي دواد الإيادي، جمع وتحقيق: أنوار محمود الصالحي ود. أحمد هاشم السامرائي، دار العصماء، سورية، ط1، 2010م
8. ديوان أبي قيس صفي بن الأسلت، دراسة وجمع وتحقيق: د. حسن محمد باجوده، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1391هـ
9. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
10. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
11. ديوان الحارث بن حلزة بشرح الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م

12. ديوان الحارث بن عباد، جمع وتحقيق: أنس عبد الهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، 2008م
13. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
14. ديوان الراعي النميري، شرح: د. واضح الصمد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995م
15. ديوان السمائل، شرح وتحقيق، علي سابا، مكتبة صادر، بيروت، د.ت
16. ديوان الشماخ بن ضرار الشيباني، تحقيق وشرح: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، د.ت.
17. ديوان الشنفرى، جمع وتحقيق: د. إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 1996م
18. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
19. ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، مطبعة أسعد، بغداد، ط1، 1962م
20. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
21. ديوان النابغة الذبياني بشرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م
22. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
23. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
24. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحميد السطلي، دمشق، 1974م، د.ت.
25. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م

26. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
27. ديوان حاتم الطائي، شرح: أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
28. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، شرح: ضابط بالحربية، مطبعة السعادة، مصر، دت
29. ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، دت.
30. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
31. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
32. ديوان زيد الخليل الطائي، صنعة: د. نوري حمودي القيسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، دت.
33. ديوان سلامة بن جندل، صنعة: محمد بن الحسن الأحول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م
34. ديوان شعر المثقب العبدى، تحقيق وتعليق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، 1971م
35. ديوان كعب بن زهير، تحقيق: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م
36. ديوان ليبد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، دت.
37. سنن ابن ماجة للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد الربيعي ابن ماجه القزويني، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، أبريل 1999م
38. سنن النسائي الصغرى للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنام النسائي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، أبريل 1999م

39. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
40. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
41. شعر أبي حية النيري، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975م
42. شعر الخوارج، جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م
43. شعر عروة بن أذينة، تحقيق: د. يحيى الجبوي، دار القلم، الكويت، ط2، 1981م
44. شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق: مطاع الطرايبشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط2، 1985م
45. صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2002م
46. صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م
47. عشرة شعراء مقلون، صنعة: أ.د. حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، 1990م
48. قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك البغدادي، د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط1، 1983م
49. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.
50. موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، عبد عون الروضان، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2001م
51. المؤطأ للإمام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت- لبنان، ط1، 2013م

شرح لفظ "بلاء"

- د. أوزنك زيب الأعظمي¹

البلاء في القرآن الكريم يدلّ على معانٍ منها الامتحان بالحسنة أو السيئة ومنها تمرير الشيء بمختلف مراحل النمو كما قال الله تعالى:

"فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَاوُا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٨﴾". (سورة البقرة)

"وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾". (سورة الأعراف)

"وَإِذْ نَجَّيْنَاهُكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَمَيْسَتَحِيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾". (سورة البقرة)

وقال: "هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهرٍ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿١﴾ إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴿٢﴾ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴿٣﴾". (سورة الإنسان)

والشعراء أيضاً استعملوه لمختلف مدلولات منها الامتحان خيراً كان أو شراً كما قال عنترة بن شداد العبسي:

اليوم تبلو كل أنثى بعلمها فاليوم يحميها ويحمي أهلها²

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند
² شرح ديوانه، ص 115

وقال عبيد بن الأبرص:

ولا تُظْهَرُنْ حَبَّ امرئٍ قَبْلَ خُبْرِهِ، وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمد¹
وقال الحارث بن حلزة اليشكري:

إِنَّ عَمْرًا لَنَا لَدَيْهِ خَلَالٌ غَيْرَ شَكٍّ فِي كَلْمَنِ الْبَلَاءِ²
وقال أبو العيال الهذلي:

إِنَّ الْبَلَاءَ لَدَى الْمَقَاوِسِ مُخْرَجٌ مَا كَانَ مِنْ غَيْبٍ وَرَجْمٍ ظَنُونٌ³
وقال زهير بن أبي سلمى:

فَقَرِّي فِي بِلَادِكَ إِنَّ قَوْمًا مَتَى يَدْعُوا بِلَادَهُمْ يَهُونُوا
أَوْ اتَّجِعِي سَنَانًا حَيْثُ أَمْسَى فَإِنَّ الْغَيْثَ مُنْتَجِعٌ مَعِينٌ
لَهُ لَقَبٌ لِبَاغِي الْخَيْرِ: سَهْلٌ وَكَيْدٌ، حِينَ تَبْلُوهُ، مَتِينٌ⁴
وقال مسكين الدارمي:

ولا تحمد المرء قبل البلاء ولا يسبق السيل منك المطر⁵
وقال أوس بن حجر:

وإن نعط لا نجهل ولا ننطق الخنا ونجز القروض أهلها ثم نقصد
لا تُظْهَرُنْ ذَمَّ امرئٍ قَبْلَ خُبْرِهِ وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمد⁶

¹ ديوانه، ص 60

² ديوانه، ص 31

³ ديوان الهذليين، 259/2

⁴ ديوانه، ص 128

⁵ ديوانه، ص 38

⁶ ديوانه، ص 27

وقال قيس بن ذريح:

لقد لاقيتُ من كلفي بلبني بلاءً ما أسيغ به الشراباً¹
وقال المقنع الكندي:

أبلُ الرجال إذا أردت إخالهم وتوسّمن فعالمهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي اللبانة والتقى فبه اليبدين، قير عين، اشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلةً فعلى أخيك بفضل حلك فاردد
وإذا اخنا نقض الحبي في موضع ورايت أهل الطيش قاموا فاقعد²
وقال أبو الأسود الدؤلي:

تعودت مسّ الضرّ حتى ألفتُه وأسلمني طولُ البلاء إلى الصبر³
وقال رؤبة بن العجاج:

بقوة الحازم غير الألوث
إذا التوت أمراسه لم تُتكث
وقد بلوا منك بليث أليث
أعطى أبا سارة حمض المغلث⁴

وقال أبو صخر الهذلي:

سألتُ مليكي إذ بلاني بفقده وفاةً بأيدي الروم بين المقانب⁵

¹ ديوانه، ص 55

² ديوانه، ص 96

³ ديوانه، ص 340

⁴ شرح ديوانه، 44/3

⁵ شعراء أمويون، ص 49

وتارة يوصف البلاء بالصدق أو السوء فقال الأعشى الكبير:

وأَيُّ بلاءِ الصدقِ لا قد بلوتمُّ فما فُقِدَتِ كانت بليَّةً مبتلي¹
وقال زهير بن أبي سلمى:

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فألاهما خيرَ البلاءِ، الذي يبلو²
وينسب إلى الكميت الأسدي:

وما أرضى بغير بلاءٍ سوءٍ لهمدان التريصُ والأيننا³
وقال الفراهي: "بلاء أي اختبار، من بلاه يبلوه: اختبره وجربه. قال تعالى: "وَبَلَوْنَهُمْ

بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ" الأعراف: 168. وكذلك ابتلاهن قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
بِنَهْرٍ" البقرة: 249. وإذ يختبر أوصاف المرء بالخير، كما يختبر بالشر، صار البلاء عامًّا لهما".⁴

ومنها يعني المشكلة كما قال عنتر بن شداد العبسي:

ورنت، فقلت غزاة مذعورة، قد راعها، وسط الفلاة، بلاء⁵
ومنها يعني الكشف كما قال الأحوص الأنصاري:

ستبقى لها في مضمرة القلب والحشا سريرةٌ ودِّ يوم تُبلى السرائر⁶
وقال عبيد السلامي:

وإني لأستبقي إذا العسرُ مسني بشاشةٍ وجهي حين تبلى المنافع

¹ ديوانه، 639/2

² ديوانه، ص 86

³ ديوانه، ص 471

⁴ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 302/1

⁵ شرح ديوانه، ص 21

⁶ شعره، ص 145

مجلة الهند شرح لفظ "بلاء"

مخافة أن أقلى إذا جئتُ سائلاً ويرجعني نحو الرجال المطامعُ
وأعرضُ عن أشياء لو شئتُ نلتها حياءً إذا ما كان فيها مقادع
ولا أدفع ابنَ اعمِّ يمشي على شفاً ولو بلغتني من أذاه الجنادع¹
فالبلاء يعني المعركة كما قال الحارث بن حلزة:

وهو للربِّ والشهيدُ على يو م الحيارين، والبلاء بلاء²
كما يعني نتيجة البلاء فقال الفرزدق:

شكرنا لعبد الله حسنَ بلاءه غداةً كفانا كلَّ نكسٍ مؤاكل³
وقال المرار الفقعسي:

حميدَ البلاء متينَ القوى مُبينَ البراءة من كلِّ داء
سوى ما أصاب السرى والسمو مُ وليس بناسٍ جميلَ الحياء⁴
فالبلاء عمل رجولي كما قال عمرو بن مخلاة الحمار الكلي:

وأيامَ صدقٍ كلَّها قد عرفتم نصرنا ويومَ المرج نصرًا مؤزرا
فلا تكفروا حسنى مضت من بلاءنا ولا تمنحونا بعد لينٍ تجبراً⁵
وقال الأعشى الكبير:

فذلك من أيامنا وبلائنا ونعمى عليكم إن شكرتم لأنعم⁶

¹ كتاب الأشباه والنظائر، 76/1

² ديوانه، ص 29

³ ديوانه، ص 454

⁴ كتاب الوحشيات، ص 56

⁵ شرح ديوان الحماسة، 890/2

⁶ ديوانه، 324/1

وله ما يلي:

لقد سَفرْتُ بنو عبدان حيناً فإِ شَكَروا بِلأئِي وَاَمْتَدَاحِي¹
قال أبو ذؤيب الهذلي:

مَتَحَامِينِ المَجْدِ، كَلَّ وَاثَقُ بِلأئِهِ وَاَلْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ²
وقال المثقب العبدي:

فإنَّ أبا قابوس عَندي بِلأؤِها جِزَاءٌ بِنَعْمِي لا يَحِلُّ كُنُودُها³
وقال أعشى باهلة:

فإن جِزَعنا فَقد هَدَّتْ مَصيبتنا وَإِن صَبَرنا فإِنا مَعشَرٌ صُبرُ
إِنِّي أَشَدُّ حَزِيبِي ثُمَّ يُدِرِكُنِي مِنْكَ البِلاءُ وَمِنَ الآئِثِ الذِّكْرُ⁴
وقال الفرزدق:

لقد كان فِينا لو شَكَرْتُم بِلأئِنا وَأَيامَنا اللاتِي تَعَدُّ جِسامَها
لنا فِكم أيدٍ وَأَسبابُ نَعْمَةٍ إِذا الفِئْتَةُ العِشاءُ شُبَّ احتِدامُها⁵
وقال الأخطل:

وأنت يا بن زيادٍ عَندنا حَسَنٌ مِنْكَ البِلاءُ وَأنتِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ⁶
وأما معنى تمرير الشيء بمختلف مراحل النمو فلم أجده في كلام العرب.

¹ ديوانه، 628/2

² ديوان الهذليين، 19/1

³ ديوان المفضليات، ص 151

⁴ ديوان الأصمعيات، ص 91

⁵ ديوانه، ص 562

⁶ ديوانه، ص 214

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
3. ديوان الأخطل، شرح: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994م
4. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
5. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
6. ديوان الحارث بن حلزة بشرح الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م
7. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
8. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
9. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
10. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
11. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
12. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة

- والنشر، بيروت، 1980م
13. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
14. ديوان عبيد بن الأبرص، بشرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م
15. ديوان قيس بن ذريح، شرح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م
16. ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري و خليل إبراهيم العقبة، مطبعة دار البصرى، بغداد، ط: 1، 1970م
17. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
18. شرح ديوان رؤبة بن العجاج، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ط1، 2011م
19. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
20. شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة: أ.د. أحمد سامي زكي منصور، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والثلاثون، 2011م
21. شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1985م
22. شعراءأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1990م
23. كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.
24. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، اعتناء: د. عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، الهند، ط2، 2018م

أفكار الإمام الفراهي

- أ.د. أبو سفيان الإصلاحي¹

ترجمة الأردوية: د. محفوظ الرحمن²

أفكار الإمام الفراهي ليست بدءاً من مدارس التفسير بل هي عبارة عن "تدبر القرآن" وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "أعربوا القرآن، واتمسوا غرائبَه"، أي أمعنوا النظر في لغته، وتوغلوا في استكشاف دقائقه ومشكلاته.

وقد كان لعلماء الهند ومفكرها فضلٌ كبيرٌ في تمهيد مناهج تدبر القرآن وتسهيل فهمه، وفي إحياء روح النظر العميق في معانيه ومقاصده، وكان في مقدمتهم: الشاه وليّ الله الدهلوي، والسير سيد أحمد خان، والشيخ عبد الحميد الفراهي، والمولانا أبو الكلام آزاد، والشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ أمين أحسن الإصلاحي، والشيخ بدر الدين الإصلاحي، والشيخ داؤد أكبر الإصلاحي، والشيخ صدر الدين الإصلاحي، والبروفيسور الطاف أحمد الأعظمي، إذ كان لكلٍ منهم إسهامٌ جليلٌ في خدمة القرآن، وترسيخ منهج التدبر الواعي لمعانيه الخالدة.

لقد نذر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي حياته العلمية لخدمة أفكار الإمام الفراهي، فبسط معالمها في مجالسه ومذاكراته، وعمّق دالاتها في دروسه وخطبه، وأحكم بناءها في مؤلفاته وتفسيره، حتى غدت هذه الأفكار حاضرة في ثنايا كلامه حضوراً الروح في الجسد. وفي هذا الإطار تكتسب إحدى كتاباته عن خصائص مدرسة الفراهي الفكرية أهميةً خاصة³، لما حوته من دقة في التصوير وعمق في التحليل وسداد في

¹ كان الكاتب أستاذ اللغة العربية وآدابها في قسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيودلهي

³ مجلة "تدبر" الفصلية، العدد: 3، فبراير 1982م، ص 43-46.

البيان. وإن رسم صورة أفكار الفراهي على وجهه الأكل لا يكاد يتأتى لأحد كما تيسر له. ثم إذا قَدِّرْ لهذه الأفكار أن تجد بعده من يصوغها في قالبٍ بيانيٍّ بديعٍ، ويُجسِّدُها في صورةٍ فكريةٍ ناصعةٍ، فإنما كان ذلك في شخصية الشيخ بدر الدين الإصلاححي. ويقف إلى جانبه في هذه السلسلة الذهبية المضيئة الشيخ ضياء الدين الإصلاححي والدكتور خالد مسعود.

وقد قضى الشيخ أمين أحسن الإصلاححي جلَّ حياته في نشر أفكار الفراهي وتوضيحها، حتى صارت هذه الأفكار سِمَةً بارزةً في مسيرته العلمية، وقد كتبت عن ذلك في كتابي "تدبر قرآن- إليك تجزياتي مطالعه" (تدبر القرآن: دراسة تحليلية). قدّم الإمام الفراهي عصارة تدبره في القرآن الكريم من زوايا متعددة وذاع صيت أفكاره في شبه القارة الهندية وخارجها، فقد شهد له بفضله واعترف بإنجازاته التفسيرية عديدٌ من أجلِّ علماء الهنود والعرب، من أمثال الشيخ محمد أسلم الجيراجبوري، والشيخ رشيد رضا، والشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي، والشيخ مناظر أحسن الجيلاني، والشيخ عبد الماجد الدرايا بادي، والشيخ أبي الأعلى المودودي، والشيخ فاروق أحمد خان، والأستاذ شكري فيصل، والدكتور أحمد حسن فرحات، والأستاذ محمد الشربجي، والدكتور مطلوب أحمد فرحمهم الله جميعاً.

وربما يفوق الإمام الفراهي قدماء المفسرين في تقديم بعض معارفه القرآنية، وتظهر هذه الخصائص بأجلى صورها في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". وأول ميزة يمتاز بها تفسير الإمام الفراهي هو اهتمامه بتفسير القرآن بالقرآن بما أنه هو الأصل. ثم بعد ذلك فهم النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه. وقد أسس تفسيره بعض العلماء على الأحاديث كابن جرير الطبري رحمه الله الذي حكوا على تفسيره أنه لم يصنّف مثله ولكن الأحاديث فيها أكثرها ضعاف والمرفوع فيه قليل وإنما جمع فيه أقوال أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينها.

ويؤكد الإمام وهو رأي لا يستهان به أن الأحاديث لا تحتل في باب تفسير القرآن منزلة الأصل، بل إن مكانتها عنده منزلة المؤيد والشارح فحسب؛ ذلك أن القرآن الكريم هو البرهان القاطع والحجة الأساسية القائمة بين الأمة، وهو الميزان الذي توزن به سائر الأقوال. ومن نماذج تفسير القرآن بالقرآن ما جاء في قوله تعالى:

"وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿١٢﴾".

ويكتب الإمام رحمه الله في شرح لفظ "الريم" قائلاً:

"الريم أي البالي المنكسر من الحبل والعظم والشجر. فإن الرميم يطلق على كل ذلك إذا صار واهناً واهياً. والريح الشديدة تكسر وتزعزع وتدك، والصرصر لبردها ويسبها تذهب بالقوة والغضارة والحياة. وبشبه ذلك قوله تعالى في ذكر عاد: "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿١٢﴾".¹

ومن ذلك أيضاً تفسير قوله تعالى في سورة المرسلات: "وَالنَّشِيرَاتِ ذُفْرًا ﴿١٠﴾"، إذ استعان بآيات متعددة لتحديد الدلالة المقصودة.

"وَالنَّشِيرَاتِ ذُفْرًا" نشره: بسطه، وبثه وأثاره، وأنبته. وهذه معان متقاربة. قال تعالى: "وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾" (التكوير 81: 10)، وأيضاً: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْعَنَقَبَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾" (الشورى 42: 28). وأيضاً: "وَجَعَلَ اللَّتَاهِرَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾" (الفرقان 25: 47). فالناشرات ههنا الرياح، لجمعها وجوها من النشر. فإنها تثير السحاب، وتبسط في السماء، وتنشر رحمة الرب، وتنبت النبات. ولا يخفى أن هذا وصف مستقل غير متعاقب للعصف، فعطفه بالواو.²

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، الطبعة الأولى 2008م، ص 151

² المصدر نفسه، ص 251

ومن أهمّ معالم تفسير الفراهي أنه يصرح أنّ القرآن الحكيم كلام منظم ومرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته ولا في سوره، بل آياته مرتبة في كل سورة كالفصوص في الخواتم وسوره منظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد، حتى لو قدّم ما أخر، أو أخر ما قدّم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان.

يتجلى تفصيل ذلك من خلال كتابيه "دلائل النظام" و"فاتحة نظام القرآن". اعتنى الفراهي في تفسيره "نظام القرآن" وتأويل الفرقان بالفرقان" ببيان مفردات القرآن وتوضيح معانيها، لأنّ فهم الآية لا يكتمل إلا بفهم كلماتها فهماً صحيحاً. وفي هذا المجال لا بدّ من الاستفادة من معاجم اللغة، وأبحاث اللغويين، وآراء النحاة، مع الإمعان في نظم القرآن؛ فهذه الأمور كلّها لا تؤتي ثمرتها إلا إذا اجتمعت معاً. وقد ظهر هذا المنهج بوضوح في كتاب الإمام الفراهي "مفردات القرآن" وبناءً على هذه الأصول، حدّد الإمام معاني بعض الألفاظ القرآنية، فرأى مثلاً أنّ المقصود بـ"الكوثر" هو البيت الحرام، وأنّ "الآلاء" تدلّ على نعم الله العظيمة ومظاهر قدرته، وأنّ "الروح" يراد به جبريل عليه السلام.

ومن خصائص تفسير "نظام القرآن" أيضاً أنّه يستشهد بكلام العرب في شرح الألفاظ والمفردات الواردة في القرآن، لأنّ القرآن نزل بلسانٍ عربيّ مبين. ولهذا نجد الاستشهاد بالشعر العربي والنثر القديم في كتبه "نظام القرآن" و"مفردات القرآن" و"التكميل في أصول التأويل" و"القائد إلى عيون العقائد" و"أقسام القرآن". وقد استشهد الإمام رحمه الله بكلام العرب الأتقاح لفهم ألفاظ قرآنية مثل: العُرف، والذاريات، والمقسمات، وذات الحُبك، والطوفان، وصَغَتْ قُلُوبُكُمْ، وأبْتَر، وتَرَمِيمُهُمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، وغيرها من الكلمات التي توضّحت معانيها في ضوء اللغة العربية الأصيلة.

واهتمامه هذا أي تفسير المفردات وألفاظ القرآن في ضوء كلام العرب، مما يفتح

معاني جديدة للقرآن. ومن الجدير بالذكر أنّ الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي اختار "مفردات القرآن" موضوعاً لرسالة دكتوراه، وقد امتازت هذه الرسالة بشرح الأشعار الواردة مع الاستشهاد بمزيد من أشعار العرب وقد نُشرت هذه الرسالة في دار الغرب بدمشق عام 2002م.

وتبيّن هذه الرسالة ما هي أفكار الفراهي، وتوضح المنهج الذي ينبغي لأتباعه أن يسيروا عليه، كما تُظهر أهمية الاستشهاد بكلام العرب في تفسير القرآن، ومن خلال دراستها يتضح أنّ لفهم القرآن الصحيح لا بد من دراسة دواوين العرب والرجوع إليها، كما أوضح ذلك الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره "تدبر قرآن"، حيث ذكر أنه درس الشعر الجاهلي بدقة تامة.

يؤكد الفراهي على أنّ القرآن الكريم هو نصّ قطعي الدلالة، وليس لعبارة إلا مدلول واحد، ولهذا فإنّ أصدق طرق التفسير هي تفسير القرآن بالقرآن، فهذا المنهج لا يضلّ الإنسان عن سبيل الحق والعدل. واتباعاً لهذا النهج، أوضح الإمام الفراهي أنّ قوله تعالى "وَوَجَدَكَ ضَالًّا" لا يُقصد به معنى "غافل أو خاطئ" وإنما المقصود "تائه". وقد أيد هذا التفسير أيضاً في "كنز الإيمان" للإمام أحمد رضا خان.

جاءت في سورة الفتح، كلمة "ذنب"، ومقصودها ليست "خطيئة" بل اللوم أو التهمة، وهذا التفسير اعتمده الإمام أحمد رضا خان أيضاً. وكذلك، الآية الكريمة "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا"، فلفظ "أمة" لا يعني "قوم أو جماعة"، بل يحمل معنى الكمال أو الاستقامة التامة، وقد ناقش الإمام هذا المعنى بالتفصيل في كتابه "التكميل" ويؤكد الإمام أنّ الروايات ليست قطعية الدلالة، يمكن الاطلاع على توضيح رأيه في "تدبر قرآن"، وفي مقال الدكتور خالد مسعود بعنوان "حديث وسنت كي تحقيق كا فراهي منهاج" (منهج الإمام الفراهي في دراسة الحديث والسنة)، وفي مقال الأستاذ أطفاف أحمد الأعظمي "مولانا فراهي اور علم حديث" (الإمام الفراهي وعلم الحديث)، وكذلك في كتابات

الأستاذ نسيم ظهير الإصلاحي. كما نُشر للأستاذ نسيم ظهير الإصلاحي مقال بعنوان "مولانا فراهي- حديث وسنت" (الإمام الفراهي: الحديث والسنة) في مجلة "نظام القرآن" الفصلية (مدرسة الإصلاح، سراي مير) في ثلاث حلقات، ونُشرت إحدى هذه الحلقات بعنوان "تصور سنت اور علماء امت" (رأي علماء الأمة عن السنة) ومن خلال هذه الكتابات يمكن فهم تصور الإمام الفراهي للسنة والحديث¹.

انتقد الحافظ صلاح الدين يوسف وآخرون نظرية الإمام الفراهي والشيخ الإصلاحي عن الحديث واتهموها بإنكار الحديث، وكانت هذه الاتهامات لا أساس لها. والمثير للأسف أنّ الحافظ صلاح الدين ربط بين فكر الإمام الفراهي والشيخ الإصلاحي وفكر السير سيد، وذلك لأنه لم يطلع على كتاب "القائد إلى عيون العقائد" للفراهي، حيث قام الإمام الفراهي بدحض نظرية السير سيد حول قانون الطبيعة.

في سؤالي الأيام، أتهم العلامة شبلي والإمام الفراهي بالكفر، فقام الشيخ السيد أبو الأعلى المودودي والشيخ تشودري غلام أحمد برويز بالرد على ذلك في مقالهما "فتنة التكفير"، وبعد ذلك أبدى بعض العلماء أسفهم على هذا الاتهام الباطل. وأما الحافظ صلاح الدين يوسف، فلا علاقة له بتدوير القرآن والتفكير في آياته ومعانيه، بل اقتصر على التقليد المذهبي والجدلي. وقد انتقد السير سيد نقداً لاذعاً، لكنه على ما يبدو لا يعرف قدره العلمي جيداً. وقد عاد في زماننا الحاضر مذهب أهل الحديث أسلوب الجدل والمناظرة من جديد.

ولفهم نظرية الإمام الفراهي أنّ القرآن قطعي الدلالة، وليس لعبارة إلا مدلول واحد، لا بد من قراءة بحثه حول تدوين القرآن في تفسيره لسورة القيامة. رغم أنّ هذا البحث يشتمل على صفتين أو ثلاث فقط إلا أنها تغطي بشكل شامل ترتيب القرآن، تدوينه وتاريخه، ومن الشاذ أن يوجد نظيره في تراثنا العلمي.

¹ راجع مقال: "تصور سنت اور علماء امت" (رأي علماء الأمة عن تصور السنة)، مجلة "نظام القرآن" الفصلية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، يناير 25-2024، 26/2.

يؤكد الفراهي على أنّ القرآن محفوظ تماماً كما هو في المصحف الموجود بين أيدي الناس مطابق للقرآن في اللوح المحفوظ من حيث عدد الآيات والحروف، ولا يوجد أيّ اختلاف. وقد أوضح الدكتور خالد مسعود هذه النقطة بتفصيل في كتابه "حياة رسول أمي"، مشيراً إلى أنّ القرآن قد تم جمعه في حياة الرسول ﷺ، وكان هذا المصحف موجوداً في صندوق في المسجد النبوي ويرجع إليه الصحابة عند الحاجة أثناء التلاوة.

أشار الإمام الفراهي أيضاً إلى أنّ ما اشتهر من أنّ الإمامية يقولون بذهاب بعض القرآن بخلاف تصريح علماءهم كالسيد المرتضى، وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي وأبي علي الطبرسي صاحب "مجمع البيان" ومحمد بن علي بن بابويه.

أما بالنسبة لترتيب السور، فإن رأي العلامة شبلي في "مقالات شبلي" بأنّ ترتيب السور غير توقيفي، يعتبر غير دقيق وفق ما بينه الإمام الفراهي. وذلك البحث الذي أثار الفراهي وخالد مسعود، قد أضاف فيه الدكتور شهزاد سليم وأجاد في كتابه "A Critical Study - History of the Quran".

كما قدّم الشيخ عبد اللطيف الرحمانى دراسة جادة عن تدوين القرآن في كتابه "تاريخ القرآن" (بالأردوية)، وهي دراسة نادرة في أيّ لغة. وكتب الشيخ فيصل البهتكي الندوي عن حياة وأعمال الشيخ الرحمانى في كتاب "مفتى عبد اللطيف رحمانى: أحوال وآثار"، قد ردّ عبد اللطيف الرحمانى في كتابه "تاريخ القرآن" ردّاً مقنعاً على الشبهات التي أثيرت حول ترتيب وتاريخ تدوين القرآن وهي بإيجاز: 1- قد تم جمع القرآن وتدوينه في حياة النبي ﷺ. 2- وهذا القرآن كان موجوداً عند عدد من الصحابة. 3- عشرات الصحابة حفظوا القرآن كاملاً. 4- القرآن كان يُروى مباشرةً من النبي ﷺ. 5- ليس فقط الآيات، بل ترتيب السور أيضاً توقيفي، أي من عند الله تعالى.¹

¹ راجع: فيصل أحمد الندوي: مفتى عبد اللطيف رحمانى- احوال وآثار (سيرة وأعمال المفتي عبد اللطيف الرحمانى)، ادارة احياء علم وادب لكهنو، مكتبه الشباب العلمية، شارع ندوة العلماء، لكهنو، ص 251

وفي الحقيقة أنّ تدوين القرآن تدوين إلهي، وأما تدوين الأحاديث فهو بشري. لذلك اقترح السير سيد إلى مراجعة مجموعات الأحاديث وتنقيحها. واعتبر الشيخ شبير أحمد الأزهري الميرتمبي أنّ كثيراً من أحاديث البخاري ضعيفة أو موضوعة. وشرح البروفيسور الطاف أحمد الأعظمي موقف السير سيد من الأحاديث في كتابه "تفهم سرسيد" بوضوح واعترف أنه أخطأ خطأ فاحشاً في تضعيف الروايات الصحيحة.

ومن المفيد قراءة رسالة الشيخ محمد أسلم الجيراجبوري عن علم الحديث، لكي يتضح أمامك بكل صراحة أنّ القرآن قطعي الدلالة وليس لعبارة إلا مدلول واحد. هذه الرسالة لا تؤيد أبداً أنّ الشيخ كان ينكر الأحاديث، وقد أوضح الكاتب ذلك في كتابه "مولانا محمد أسلم جيراجبوري: حياة وخدمات". ومن المؤسف أنّ الشيخ المودودي والشيخ تقي العثماني قالوا إنّ الشيخ محمد أسلم الجيراجفوري كان منكرًا للحديث، وهذا غير صحيح.

قام العلامة شبلي النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي بتعريف أفكار الإمام الفراهي البديعة أمام المفكرين والعلماء. وكان العلامة شبلي يعرف قيمة تلميذه العلمية تماماً، لذلك قدّم تعريف تفسيره "نظام القرآن" وكتابه "جمهرة البلاغة" في مجلة "الندوة" بطريقة جميلة، وعرف العلماء بتفرده الفكري ومكانته في فن التفسير.

كان يثني على قدرات الإمام الفراهي رحمه الله العلمية والأدبية في رسائله، ويشير إلى مهارته في اللغة وفهمه العميق لرموز القرآن، وإجادته اللغة الفارسية. وذكر شاعريته الفارسية أمام الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني وقال: "هذه هي الفارسية في الحقيقة". وكما استفاد من علم الإمام رحمه الله وعمقه في "سيرة النبي" وكتاب "شعر العجم".

أما تلميذه العلامة السيد سليمان الندوي، فقد أقر في مقالاته بنبوغته العلمي والفكري وبندرته في القرآن. وبعد وفاة الإمام الفراهي، ذكر في افتتاحية مجلة "معارف" في مقال بعنوان "الصلاة على ترجمان القرآن"، وقال إنه كان مثل ابن تيمية في عصره، وكانت مكانته في اللغة العربية كسوق عكاظ. واعتبره آية من آيات الله، وذكر أنه من

المحال أن يجود الزمان بمثل هذا الرجل العبقري في المستقبل.

هناك مقال بعنوان "المعلم عبد الحميد الفراهي" وهو مقدمة لكتاب "أقسام القرآن" ذكرت فيه مؤلفات الإمام الفراهي، وكان الهدف منه تعريف العرب بحياة الإمام ومكانته في علوم القرآن، وإظهار تمكنه من اللغة العربية وآدابها. ويجدر بالذكر هنا أن كتاب "أقسام القرآن" حَقَّقْتُهُ، لكنه نُشِرَ دون ذكر اسمي. وعندما قلت للبروفيسور عبيد الله الفراهي عن هذا العمل، قال لي: "خدمتك هذه عند الله مأجورة، ومن الحكمة ألا تبحث عن الشهرة أو المظاهر الدنيوية". فالتزمت الصمت وقد اعتبرت أنه من سوء الأدب التفاخر أمام الأستاذ، لأن هذا العمل كان خلافاً للأدب والتواضع.

كما كتب العلامة السيد سليمان الندوي مقالاً آخر بعنوان "مولانا حميد الدين فراهي"، ونُشِرَ لاحقاً في مجلة "الإصلاح" نوفمبر وديسمبر 1937م. وكذلك كتب مقالاً في مجلة "الإصلاح" (أغسطس 1936م) بعنوان "مولانا شبلي اور مولانا حميد الدين فراهي پر غوغائے تکفير" (تكفير العلامة شبلي والإمام عبد الحميد الفراهي)، عبّر فيه عن حزنه الشديد وأسفه البالغ باتهام هذا العالم الجليل ومرجع "سيرة النبي" بالكفر، رغم أنه أمضى حياته لنشر الإسلام، وعانى من موجات الردة والاضطهاد. كما رثى سقوط الخلافة العثمانية بحزن وتأثر باستشهاد مسجد كانبور. وقال إن إصدار فتوى بالكفر على مثل هذا الرجل هو تصرف غير حكيم وجهل.

قضى الإمام عبد الحميد الفراهي حياته كلها في دراسة القرآن وفهم معانيه. حتى وصل إلى خالقه الحقيقي. وقد شرح سورة الإخلاص وأبرز التوحيد بطريقة نادرة لم يسبقها إليها كثير من المفسرين. ومن سوء الحكمة أن يصدر على مثل هذا الموحد فتوى بالكفر، فهذا سوء فهم.

أدى الأستاذ والتلميذ معاً دوراً ريادياً في مدح أفكار الإمام الفراهي. ولا بد من صراحة هنا أنه ذكر في كتاب "حياة شبلي" من أهم آثار الفراهي العلمية والقرآنية في

مدرسة الإصلاح بشكل جميل. كما أنا كتبت مقالاً بعنوان "الإمام الفراهي والعلامة السيد سليمان الندوي" في مجلة "فكر ونظر"، وسلّطت الضوء على أنّ الأستاذ والطالب عملاً معاً على تقديم أفكار الإمام الفراهي بكل جهد واهتمام.

ومن أصول تفسير الإمام الفراهي أنه يرى أن نستفيد من الكتب السماوية أيضاً. رغم التحريفات اللفظية والمعنوية التي وقعت فيها، تحتوي هذه الكتب على كثير من الأمور والأحداث التي يمكن أن تساعد في تفسير القرآن. تشير الآية "مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ" إلى أنّ هناك علاقة بين القرآن والكتب السابقة. فالتوراة والإنجيل تحتويان على أمور تتوافق مع القرآن.

كتب الشيخ بدر الدين الإصلاحي مقالاً في مجلة "الإصلاح" يوضح فيه كيف تتطابق بعض الأمور بين القرآن والكتب السماوية. وناقش السير سيد هذا الموضوع في كتابه "تبيين الكلام"، ويندر وجود مثل هذا البحث العلمي والتحليلي في تراثنا القيمة. كان السير سيد أحمد قد أحسن وأجاد في دراسة الكتب السماوية وعرف معرفة تامة بأفكار المفسرين للتوراة والإنجيل. وقارن بين القرآن والكتب السابقة ورفض نظرية الثالث. إلا أننا لم نتفق مع رأيه حينما يقول إنّ التحريف في الكتب السماوية معنوي فقط وليس لفظياً.

من المهم أن نعرف أنّ الإمام الفراهي رحمه الله استفاد من السير سيد أحمد وأنا أثبتُّ في مقالي "السير سيد والفراهي: مقارنة في التفسير" أنّ الفراهي قد تأثر بتفردات السير سيد العديدة وقدمها في صورة جلية في تفسيره. ومثال ذلك: هناك تشابه كبير بين تفسيرهما لسورة الفيل وقصة موسى عليه السلام وعبور نهر النيل مع قومه. وذكر ظفر أحمد الصديقي هذا التطابق، لكننا لم نتفق مع رأيه فيما يتعلق بالمعجزات، إذ لم يكن هناك توافق كامل بينهما في هذا الجانب. من المهم أن نعرف أنّ الإمام الفراهي كان يخالف نظرية السير سيد حول "قانون الطبيعة"، وقد ذكر ذلك في كتابه

"التكميل في أصول التأويل" و"القائد إلى عيون العقائد". فقد أدت نظرية السير سيد إلى بعض الأخطاء وجعلته غير قادر على فهم معنى "سنة الله". وقد قمت بتوضيح هذا في مقالي بعنوان "المعجزات القرآنية والسير سيد" في مجلة "علوم القرآن".

وكتب الإمام الفراهي في تفسيره ومؤلفاته عن أساليب القرآن. ولا بد من فهم هذه الأساليب، للتدبر الصحيح في القرآن. ولهذا ألف كتاباً مستقلاً بعنوان "أساليب القرآن"، ناقش فيه طرق التخاطب المختلفة في القرآن. وخاطب الله تعالى في القرآن أقواماً مختلفة، أنبياء، رسلاً، أشخاصاً، كفاراً، مشركين، يهوداً ونصارى بأساليب مختلفة. وبدون فهم هذه الأساليب، لا يمكن تفسير الآيات جيداً. وفهم ترتيب الآيات وروح القصص القرآني جزء من أسلوب القرآن. وأيضاً المقارنة بين المؤمنين والكفار هي طريقة قرآنية مهمة. وبدون قراءة هذه الأساليب، يصعب فهم القرآن.

قام الدكتور خالد مسعود بدراسة رسائل الإمام الفراهي المختلفة في كتابه "أصول فهم القرآن" وشرح فيها هذا الجانب بشكل جيد. كما رتب في كتاب "توضيحات فكر فراهي" (إعداد حسان عارف، في مجلدين) كثيراً من أفكار الفراهي. وحتى في مقاله الوجيه "فكر فراهي"¹ يظهر تأثير أفكار الفراهي بوضوح.

والجدير بالذكر أن الدكتور خالد مسعود نلخص تفسير "تدبر قرآن"، وهو عمل عظيم، حيث جمع خلاصة تسعة مجلدات في هذا التلخيص. وقد أضاف هوامش جيدة توضح أهم مزايا تفسير "تدبر قرآن".

وبما أن الدكتور خالد مسعود استفاد من كتب الفراهي والإصلاحي، فقد استطاع أن يقدم روح تفسير "تدبر قرآن" بشكل متكامل، بحيث لا يشعر القارئ بأي نقص. وكما كتب الشيخ ضياء الدين الإصلاحي والشيخ نعيم الدين الإصلاحي مقالات

¹ مجلة "تدبر" الفصلية، العدد: 23 ديسمبر 1987م، فبراير 1988م، ص 3-6

رائعة توضح مزايا أساليب القرآن بطريقة قيمة. كما أنّ الشيخ ضياء الدين الإصلاحى سلط الضوء على الفكر الفراهي في مقال "مجلة الإصلاح- ايك تعارف" (مجلة "الإصلاح": دراسة تعريفية) وأجاد في تعريف المساهمين في هذه المجلة. ومن المهم أن نذكر أنّ مقالة الشيخ ضياء الدين رحمه الله عن تعليقات الإمام الفراهي على رسائل ابن تيمية، تساعد على فهم منهج أفكار الفراهي. كما أنّ كثيراً من مقالات الشيخ القرآنية، إضافة إلى كتاب "إيضاح القرآن"، ما زالت متفرقة في ملفات مجلات مختلفة، وهي بأمر حاجة إلى جمعها في كتاب واحد.

ونشكر الله على أنّ الدكتور ظفر الإسلام خان والشيخ جاويد سليم قد جمعا وفيات الشيخ ضياء الدين الإصلاحى التي نُشرت في مجلة "معارف" تحت عنوان "وفيات مشاهير". لكن هذا العنوان ليس دقيقاً، لأنّ بعض الأشخاص المذكورين ليسوا من المشاهير. وكان من الأفضل الحفاظ على تقليد دار المصنفين وتسميتها "ذكر الراحلين". وتخرج في مدرسة الإصلاح عدد كبير من العلماء الذين انتشر بسببهم أفكار الإمام الفراهي، وفي مقدمتهم: الشيخ أبو الحسن علي الفراهي، الشيخ أبو الليث الندوي، والشيخ عبد المجيد الندوي، والشيخ نجم الدين الإصلاحى، والشيخ بدر الدين الإصلاحى، والشيخ صدر الدين الإصلاحى، والشيخ عبد اللطيف الأعظمي، والحكيم مختار الإصلاحى. ومن خلال انطباعات الشيخ ضياء الدين الإصلاحى عن هؤلاء النوابع يمكن فهم اتجاهات مختلفة من أفكار الفراهي.¹

كتب الإمام الفراهي في مؤلفاته عن جوانب كثيرة من القرآن الكريم. ومن أهم هذه الكتب "جمهرة البلاغة"، وهو كتاب ممتاز لا نظير له في التراث الإسلامى، وقد اهتم به الباحثون في العالم العربي. في هذا الكتاب نقد الإمام الفراهي علماء البلاغة العرب لأنهم

¹ راجع: الشيخ ضياء الدين الإصلاحى: وفيات مشاهير (ترتيب: د. ظفر الإسلام وسليم جاويد)، دار المصنفين أكاديمية شبلي، أعظم كره، 2024م، ص 581

جعلوا أرسطو أساس علم البلاغة، وتأثروا بالفكر اليوناني. ورفض الفراهي نظرية المحاكاة عند أرسطو، وأكد أنّ الكذب والمبالغة لا علاقة لهما بالبلاغة.

كان بعض النقاد يرون أنّ الكذب والمبالغة يزيدان جمال الكلام وبهائه، وقد أخذوا هذا الرأي من هوميروس وسوفوكليس. لكن الفراهي بين، اعتماداً على فهمه للقرآن، أنّ بلاغة القرآن قائمة على الصدق والوضوح، وهي خالية تماماً من الكذب والمبالغة.

ولم تكن البلاغة عند أرسطو مبنية على الصدق، بل على تزيين الكلام والاختلاق. لذلك رفض الإمام الفراهي هذا الفهم، وبين أنّ البلاغة الحقيقية موجودة في كلام الله.

وقد كتب البروفيسور محمد راشد الندوي رحمه الله والدكتور عبد الباري شبنم سبحاني رحمه الله مقالات قيمة توضّح قيمة كتاب "جمهرة البلاغة" وأهميته. كما تحدّث الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله في أحد خطباته في مدرسة الإصلاح، وأشاد بهذا الكتاب، واعتبره تحفة علمية نادرة في العالم الإسلامي، واقترح تعريف العالم العربي به وترجمته إلى اللغة الإنجليزية.

ولا يكتمل فهم أفكار الفراهي إلا بقراءة كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح". ويتضح من هذا الكتاب أنّ تفسير القرآن لا يمكن بدون الاستفادة من الكتب السماوية السابقة.

يرى كثير من اليهود والنصارى وبعض المفكرين المسلمين أنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام، وقد قال بهذا الرأي الإمام ابن جرير الطبري والسير سيد. لكن ابن كثير والإمام الفراهي وغيرهما من العلماء خالفوا هذا الرأي وأثبتوا بالبراهين القاطعة أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لا غير. وقد أثبت الإمام الفراهي أيضاً في ضوء القرآن والكتب السماوية والأحاديث أنّ الذبيح، أي الذبيح العظيم، هو إسماعيل عليه السلام.

وأعدّ عبد الستار غوري وإحسان الرحمن غوري في هذا الموضوع كتاباً بعنوان

”The Only Son Offered for Sacrifice: Isaac or Ishmael“. ويظهر من هذا الكتاب أنّ الكاتبين قد قدّما كتاب الإمام الفراهي العربي باللغة الإنجليزية. وقد أطلعت نفسي على هذا العمل.

كتاب الإمام الفراهي هذا فريد في موضوعه، ولا يمكن أن يكتبه إلا من كانت له براعة تامة في اللغة العبرية. وقد اعترف بهذه القدرة المستشرق المعروف جوزيف هوروفيتز، الذي تعلّم العبرية أيضاً على الإمام الفراهي.

ويعتبر كتاب "أقسام القرآن" من الكتب المهمة التي توضح أفكار الفراهي فقد تناول العلماء بحثاً ودراسة: لماذا أقسم الله بمخلوقات وأشياء مختلفة؟ وقد شرح الإمام هذه المسألة شرحاً علمياً واضحاً.

في القرآن أقسم الله تعالى بأشياء مختلفة من أمثال: التين، الزيتون، الأرض والسماء، الشمس والقمر، اللوح والقلم، والليل والنهار. وهذه الأقسام تُظهر آيات الله وعجائب قدرته، وتبين عظمته، كما تبرز مكانة القرآن الكريم وعظمته. ما هو الفرق بين القسم والحلف؟ لقد شرح الإمام الفراهي هذا الفرق بوضوح. فلفظ "الحلف" في القرآن يُطلق على الشخص الذي يكتر من الأيمان الكاذبة، وهذه صفة ذُكرت لليهود والنصارى.

وقد ناقش الشيخ داود أكبر الإصلاحي موضوع أقسام القرآن شرحاً علمياً واضحاً في كتابه "مشكلات القرآن"، وقد قام حسان عارف بنشر هذا الكتاب. ومن المفيد أن نذكر أنّ الشيخ عبد اللطيف الرحمانى له أيضاً كتاب مهم بعنوان نفسه "مشكلات القرآن".

يعدّ الشيخ داود أكبر الإصلاحي من كبار الشارحين لأفكار الفراهي، وله خدمات قيّمة في (تأويل الآيات القرآنية) وقد جمع الشيخ عارف العمري مقالاته كلها في كتاب بعنوان "مولانا داود أكبر اصلاحي كقراى مقالات" (المقالات القرآنية للشيخ داود أكبر الإصلاحي). ومن خلال هذه المقالات يمكن فهم كثير من جهات أفكار الفراهي. كما أنّ له مكانة مميزة بين كتّاب مجلة "الإصلاح".

ويعدّ كتاب "حكمة القرآن" من أهم كتب أفكار الفراهي، وهو كتاب فريد في التراث الإسلامي والقرآني أيضًا. ناقش فيه موضوع الحكمة بطريقة علمية، وهي إرث ضالّ من الأمة الإسلامية.

يقول الإمام إنّ الوصول إلى هذا العلم كان صعباً، وليس له علاقة بالأولياء أو المتصوفة، بل يأتي من تدبّر القرآن وفهم آياته، فالذين يتدبرون القرآن ويتفكرون في آياته بالأسحار، هم يقربون من سحره وحكمته.

وكان الإمام الفراهي لا ينام في الليل إلا قليلاً، فلذلك منحه الله فهم حكمة القرآن. وبين الفراهي بالدلائل أنّ الحكمة هنا ليست تعني الحديث، وأنّ تفسير بعض العلماء مثل الإمام الشافعي للحكمة كان خاطئاً. بدون الحكمة، لا يمكن فهم القرآن الكريم حقاً. تختلف الحكمة عن التقوى، فالتقوى تساعد الإنسان على الاقتراب من الحكمة لكنها ليست نفسها.

كتب الدكتور خالد مسعود مقالاً مهماً عن تصوّر الإمام الفراهي للحكمة في كتابه بعنوان "مولانا حميد الدين فراهي- حيات وافكار" (الشيخ عبد الحميد الفراهي: حياته وأفكاره) أما الشيخ تقي أميني فقد كتب أيضاً عن حكمة القرآن لكنه فسرها على أنها حديث، مما يدلّ على أنه لم يدرس كتاب "حكمة القرآن" للإمام الفراهي جيداً، ورحلته إلى قرية الشيخ بدر الدين الإصلاحي "نيوج" لم تغير رأيه كثيراً، لكن بعد العودة أعجب بذكاء بدر الدين الإصلاحي وفهمه العميق للقرآن.

وقد قام الدكتور خالد مسعود بترجمة كتاب "حكمة القرآن" إلى اللغة الأردوية وأضاف قيمة كبيرة إلى دراسة القرآن، كما قدّمت تعريفاً بهذا الكتاب في مجلة "علوم إسلامية" بجامعة علي غره الإسلامية.

ويختلف كتاب الإمام الفراهي رحمه الله "القائد إلى عيون العقائد" عن كتبه

الأخرى، لأنه يتناول فيه موضوع الفلسفة والفلاسفة. وهذا يدل على أنّ الإمام الفراهي رحمه الله درس الفلسفة بعمق واهتمام كبير، وكان لتدبره في القرآن الكريم خلال إقامته في عليكره، قام بدور مهم في تكوين فكره، كما كان لشخصية "أرنولد" أثر عميق في تنمية ميوله الفلسفية. ومن الواضح أنه كان ينظر إلى كل هذه القضايا من منظور قرآني، ويزنها بميزانه.

لكن من المؤسف أنّ الإمام رحمه الله لم يُتيح له الوقت لترتيب هذا الكتاب وإكماله. ثم جاء الشيخ بدر الدين الإصلاحي، فجمع مواد المبعثرة ورتبها، فظهر من خلاله مدى قوة الإمام الفراهي رحمه الله وعمقه في الفلسفة.

وقد ناقش الإمام رحمه الله في هذا الكتاب قضايا الألوهية، والرسالة، والآخرة، وبين أنّ كثيراً من المتقدمين أخطؤوا في هذه المسائل؛ لأنهم اعتمدوا على العقل وحده، ولم يعطوا النصوص المنقولة المكانة اللائقة بها. كما انتقد آراء الملاحدة، والفلاسفة، وأهل المنطق، والمعتزلة، والماتريدية، والأشاعرة، والظاهرية.

وتناول أيضاً موضوعات مثل الزمان والمكان، وأنه لا خالق إلا الله، والوجود والظهور، والخير والشر، والحسن والتأج، والرحمة والعقاب، والهداية والضلالة، والوحي، وعصمة الأنبياء، وسنة الله، والمعجزة، وإيجاز القرآن، وعالم الغيب، وعالم الشهادة، والحجر الأسود، والجنة والنار، بأسلوب علمي واضح.

اختار الإمام رحمه الله القرآن الكريم أساساً ومحوراً لكل هذه المباحث، وكان يرى أنّ حلّ جميع هذه القضايا الدقيقة لا يمكن إلا بالفرقان المجيد. فهو المفتاح الأكبر الذي يزيل كل إشكال، ولذلك سمّاه الشيخ المودودي "المفتاح الرئيسي (Master Key)" ويرى الإمام رحمه الله أنّ الفلاسفة الغربيين قد وقعوا في الضلال، وأنّ هذا الكتاب يقود عباد الله إلى طريق النور، بينما تؤدي سائر الطرق إلى الظلمة والانحراف. ولهذا السبب واجه السير سيد صعوبات في تفسير سنة الله وبيان حقيقة

الجنة والنار، وزلت أقدامه في تأويل المعجزات. فجاء هذا الكتاب ردًّا على كثير من أخطائه، ونقدًا لتفسيره القائم على الرأي الشخصي. ومن خلال هذا الكتاب يتبين أنّ فهم كثير من أسرار القرآن الكريم يحتاج إلى معرفة مبادئ الفلسفة.

وتفسير الإمام الفراهي رحمه الله المسمّى "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" لم يكتمل، لكن من خلال هوامشه القرآنية يمكن القول أنه قد فسّر القرآن كلّ، وقد تناول في هذه الهوامش عمود كل سورة ومباحثها، وشرح موضوعات السور، وفسّر عددًا كبيرًا من ألفاظ القرآن، كما تناول آراء المفسّرين بحثًا ونقدًا. وقد عرّف الدكتور أبو سعد الإصلاحي بهذه الهوامش تعريفًا علميًا في مجلة "علوم القرآن".¹

كما أنّ الفراهي استشهد بكلام العرب في هذه الهوامش، وذكر أقوال المفسّرين من كتب التفسير المختلفة، واعتبر نظم القرآن أمرًا أساسيًا لفهم الآيات وتفسيرها. ومن المهم أن نعرف أنّ هذه الهوامش مختصرة وعبارة عن خواطر وأفكار ظهرت له في أثناء تدبر القرآن الكريم، قيدها تذكّرة لنفسه، لا للنشر وقد يكون رجع عن بعض أقواله الواردة فيها، ولعل بعض أقوال المفسّرين التي ذكرها فيها لا لموافقته لهم فيها بل لنقدها، ومن ثم لم يكن تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي رحمه الله يحبّ نشرها عندما طلب منه كاتب هذه السطور، إلا أنه استفاد من هذه الهوامش في تفسيره "تدبر قرآن". فعندما نشرت هذه الهوامش وقام بترتيبها وتنسيقها الدكتور عبيد الله الفراهي وتجنّس مراجعتها العالم الجليل الشيخ أمانة الله الإصلاحي مع ما يكابده من أمراض وأوجاع، وتولّى بمهمة نشر هذه المجموعة كغيرها من مطبوعات الدائرة الحميدية الشيخ أشفاق أحمد الإصلاحي، فبعد نشر هذه الهوامش أصبحت وسيلة هامة لمعرفة آراء الفراهي حول كل آية من سور القرآن. واهتم الدكتور عبيد الله

¹ مقال: "مولانا فراهي كے قرآنی حواشی، ایک تعارفی مطالعہ" (التعريف بتعليقات الإمام الفراهي على القرآن الكريم)، يوليو-سبتمبر 2013م، ص 85-106

الفراهي بترجمة هذه الهوامش إلى اللغة الأردوية أيضاً لكي يستفيد الناس منها بشكل عام. فكلّ مَنْ أسهم في حفاظ هذا التراث العلمي وقام بترتيب وتدوين ونشر والصيانة عليها جدير بشكرنا وتقديرنا وإشادتنا، فجزاهم الله عنا أحسن الجزاء.

لا بد هنا أن نوضح أنّ الشيخ أشفاق أحمد الإصلاحي والبروفيسور عبيد الله الفراهي قاما بإسهامات كبيرة في نشر أفكار الفراهي، وذلك من خلال ترتيب ونشر أعمال ندوة عن الفراهي في كتاب مسمّى "علّامه حميد الدين فراهي- حيات وافكار" (سيرة وأفكار العلامة عبد الحميد الفراهي). وكان الشيخ أشفاق أحمد الإصلاحي حريصاً طول حياته على أن تُنشر جميع مؤلفات الإمام الفراهي وتصل إلى الناس. ولهذا استعان بأقاربه وأصدقائه وبأخيه مرزا اشتياق أحمد، وبالتعاون العلمي والتحقيقي مع الدكتور عبيد الله الفراهي، تمّ نشر جميع مؤلفات الفراهي غير المطبوعة.

كما يجدر الذكر أنّ الأستاذ البروفيسور الفراهي كان قد درس مؤلفات جدّه بعناية كبيرة، وكان دائماً يؤكّد على ضرورة الاهتمام بالقرآن الكريم وتناوله بحثاً ودراسة من نواجٍ متعددة، ولم يكن يرى أهمية كبيرة للأبحاث غير القرآنية، بل كان أحياناً يُظهر عدم رضاه عنها. والمقصود هنا أنّ تعريفه بكتاب الدكتور مستنصر مير Coherence in the Quran، المنشور في مجلة "علوم القرآن" (المجلد 2، العدد 4، يوليو-سبتمبر 1989م)، يعدّ تعريفاً علمياً مهماً. وقد أوضح فيه أنّ مؤلف الكتاب نسب كثيراً من أفكار الإمام الفراهي إلى الشيخ الإصلاحي.

ومن المناسب أيضاً أن نذكر أنّ الدكتور عبيد الله الفراهي أعدّ، بمناسبة الندوة عن الفراهي، كتاب "نظم قرآن- ايک تعارف" (نظم القرآن: تعريف)، ونقل فيه إشارات الإمام الزركشي والإمام ابن تيمية حول نظم القرآن، ليبين أنّ الله تعالى منح الإمام الفراهي فهماً خاصاً وبصيرة عميقة في هذا المجال.¹

¹ نظام قرآن- ايک تعارف، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، 1994م، ص 96

قام الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بدورٍ مهم في شرح ونشر أفكار الفراهي من خلال مجلات "الإصلاح" و"ميثاق" و"تدبر" وكذلك من دروسه العلمية.

وكتب الدكتور خالد مسعود في مجلة "ميثاق" عددًا كبيراً من المقالات التي شرح فيها أفكار الفراهي بأسلوب واضح وسهل، والتي تشتمل على الموضوعات مثل: الشفاعة، مكانة المعجزة، حقيقة الصلاة، نظام الدين، أصول التفسير، وأمثال القرآن، وشرح فكر الفراهي بوضوح.

ومن أعداد مجلتي "ميثاق" و"تدبر" يتبين أنّ الدكتور خالد مسعود كانت له مكانة خاصة بين من شرحوا أفكار الفراهي؛ إذ فهم هذا الفكر بعمق، وجعله هدف حياته، رغم أنه عاش بعيداً عن الشهرة. وقد عرّف الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بالإمام الفراهي في الأوساط العلمية من ترجمته لكتب "نظام القرآن"، و"أقسام القرآن"، و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" إلى اللغة الأردوية.

كما قدّم في مقدمة تفسير "تدبر قرآن" صورة واضحة وشاملة لفكر الفراهي، في ترجمة جميلة وقوية.

وقام البروفيسور عبيد الله الفراهي بترجمة تفسير سورة البقرة (وهو غير مكتمل)، فقرب أفكار الفراهي إلى القارئ الأردوي. ثم تابع هذا العمل الدكتور محمد راشد أيوب الإصلاحي، فترجم تفسير مولانا الفراهي غير المكتمل لسورتي آل عمران والحج. غير أنّ لغة الترجمة تحتاج إلى مراجعة دقيقة ولا يبلغ مستوى لغة ترجمة الشيخ الإصلاحي والدكتور الفراهي، وكان يمكن أن تكون ترجمته أفضل لو اقتربت من أسلوب الشيخ الإصلاحي، كما كان من الممكن زيادة قيمة العمل بالرجوع إلى مؤلفات الفراهي الأخرى.

ومن المهم أيضاً أن نذكر أنّ الدكتور محمد راشد أيوب الإصلاحي أعدّ كتاب "فراهي-إصلاحي: لغات القرآن"، الذي يوضّح أصول مدرسة الفراهي الفكرية، ويساعد على فهم جذور ألفاظ القرآن الكريم. وهذا العمل مفيد جداً في فهم القرآن، ويضمّ أبحاثاً للإمام

الفراهي، والشيخ أمين أحسن الإصلاحي، وكذلك للشيخ أختر أحسن الإصلاحي. كان من الأفضل أن يُسمّى هذا العمل "شرح مفردات القرآن: بقلم الفراهي والشيخ أمين أحسن الإصلاحي" وبين الشيخ الإصلاحي في كتاب "مبادئ تدبرّ قرآن" معنى فكره، وما هي متطلبات فهم القرآن؟ وفي مقال "نظام القرآن" المنشور في مجلة "معارف"، أوضح الشيخ الإصلاحي معنى النظام في القرآن عند الفراهي وعلاقة السورة بعضها ببعض. وفي تفسير "تدبرّ قرآن"، قسّم الشيخ الإصلاحي السور إلى سبع مجموعات يُسهّل فهم أبواب القرآن، وقد شرحت هذا الموضوع في كتابي "تدبر قرآن- تجزياتي مطالعه" (تدبرّ القرآن: دراسة تحليلية).

ويعتبر الشيخ الإصلاحي القائد الأول في شرح أفكار الفراهي. وكما كتب الدكتور محمد راشد أيوب الإصلاحي مقالاً مهماً نُشر في مجلة "إسلام أور عصر جديد" (دلهي)، وقد استفاد من الشيخ بدر الدين الإصلاحي خلال كتابة هذا المقال العلمي وترتيبه.

وقد سبق ذكره أنّ الفراهي وشيبي قد اتهما بالكفر وإنكار الحديث. وفي الحقيقة كتب العلامة شيبي كتاباً مهماً مثل كتاب "سيرة النبي"، وبين البروفيسور محمد ياسين مظهر صديقي أهميته في كتابه "مصادر سيرة نبوي" (مجلدين)، وقت بتحليل ذلك الكتاب في مقالي "سيرة نكار: البروفيسور محمد ياسين مظهر الصديقي" (البروفيسور محمد ياسين مظهر الصديقي كاتباً للسيرة النبوية). ووصف الشيخ السيد سليمان الندوي الإمام الفراهي بأنه "ابن تيمية الهند"، ومن الغريب أن يعتبر ابن تيمية هذا الهندي منكرًا للحديث. أما كتاب الحافظ صلاح الدين يوسف بعنوان "فكر فراهي اور اس كے گمراه كن اثرات- ايک علمی و تحقیقی جائزہ" (أفكار فراهي وآثاره المضللة)، فإنه قد درس مؤلفات الفراهي بمنظور مذهبي ضيق فقط، ولم يفهم الرموز القرآنية العميقة فيها. كما شنّ هجمات على السير سيد دون أن يدرس أيّاً من مؤلفاته، واعتمد على سماع الأقاويل لنشر مزاعمه.

وكذلك إنه حاول أن يربط أفكار الفراهي وأفكار الإصلاحي بالسير سيد بهذا الشكل

غير العلي. لو درس الحافظ يوسف كُتاب هارون عثمانى: "مولانا امين احسن اصلاحى كى نثرى خدمات" (خدمات الشيخ أمين أحسن الإصلاحى النثرية) بموضوعية، لما اختار هذا الأسلوب المعاند تجاه الشيخ الإصلاحى. ومما لا شك فيه أنّ تعليقات الحافظ النقدية غالباً تصور عاطفته ولا تعبر عن علميته، فهو يحتاج إلى الانسجام الأكاديمي. لو قرأ كُتاب الدكتور أختَر حسين عزمي بعنوان "مولانا امين احسن اصلاحى- حيات وافكار" (الشيخ أمين أحسن الإصلاحى- سيرته وأفكاره) بالدقة والأمانة العلمية، لما استخدم ألفاظاً غير لائقة أو أسلوباً غير أخلاقي. كان الأفضل له أن يدرس أفكار السير سيد والفراهي والإصلاحى بتعمّن قبل توجيه أيّ نقد إليهم.

كان للشيخ أختَر أحسن الإصلاحى دور مهم جداً في دعم وتعزيز مكانة الشيخ أمين أحسن الإصلاحى، الذي كان يعتبره صديقاً وأخاً كبيراً. وذكر الدكتور عنيت الله الإصلاحى سبحانه ذكاء الشيخ أختَر الإصلاحى وقدرته على التدبر في القرآن في كتابه "شيدائے قرآن"، (محبّ القرآن) كما قدّم البروفيسور اشتياق أحمد الظلي هذا الجانب في خطبته الرئيسية حول ندوة تاريخ مدرسة الإصلاح بأسلوب ممتاز.

من المهم أن نعرف أنّ كُتاب "ندوة تاريخ مدرسه الإصلاح" نُشر، رغم أنّ بعض المقالات التي تم تقديمها في هذه الندوة لم يُدرج فيها، ومع ذلك أظهر أهداف المدرسة التعليمية وزوايا أفكار الفراهي بوضوح. ولهذا تستحق اللجنة المركزية لأبناء مدرسه الإصلاح بالتقدير والإشادة.

وقام الدكتور عرفات ظفر أيضاً بترتيب افتتاحيات مجلة "الإصلاح"، ونشرها حسان عارف، وهذه الافتتاحيات ستقوم بدور مهم في تفهيم أفكار الفراهي.¹

كان يهتم الدكتور عرفات ظفر بنشر أفكار الفراهي منذ أن كان طالباً في مدرسة

¹ راجع: شذرات اصلاحي (افتتاحيات الشيخ الإصلاحى)، ترتيب: د. عرفات ظفر، اداره تدبر قرآن وحديث، أكتوبر 2024م، ربيع الثاني 1446هـ، ص 323

الإصلاح، فقد كتب في زمن دراسته مقالاً بعنوان "مولانا فراهي والتقوى" في مجلة مجمع طلبة مدرسه الإصلاح، كما جعل موضوع رسالته للماجستير حول الإمام الفراهي تحت عنوان "الإمام عبد الحميد الفراهي: حياته وأعماله اللغوية والأدبية".

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ مجلة طلبة مدرسه الإصلاح السنوية لعبت دوراً رئيسياً في إحياء ونشر أفكار الإمام الفراهي. فقد تناولت أعداد المجلة المختلفة شرح وتفسير أفكار الفراهي، وخاصة عدد شخصيات الشيخ الإصلاحى الذي يحظى بمكانة خاصة.¹

ويمكن من خلال مختلف أعداد هذه المجلة فهم نهج الإمام الفراهي الفكري، وقد سعى العديد من العلماء الإصلاحيين لإظهار آفاق وأبعاد أفكار الفراهي بأسلوبهم الخاص. وقد قال الشيخ الإصلاحى بعد اطلاعه على أحد أعداد المجلة إنّ مقالاتها ومباحثها كانت فوق ما يؤمل.

كما تجدر الإشارة إلى العشرات من المجلّات الجدارية لطلبة مدرسة الإصلاح الموجودة في مكتبة المعلومات، فهي تحتوي على كنوز فكرية لفهم أفكار الفراهي، ويمكن منها الاطلاع على جوانب عديدة من أفكار الفراهي.

وقد حظي الكاتب أيضاً بشرف العمل ككاتب مدير مجلة جدارية "الجيل الجديد" (طلبة مدرسه الإصلاح)، التي ضمت مقالة له عن الشيخ المودودي.

لقد قضيت حوالي 35 سنة في إبراز حياة وإنجازات أساتذة مدرسة الإصلاح وخريجها المتميزين، ونشرها في مقالات ورسائل مختلفة. ونتج عن هذه الجهود كتاب "نير تابان" (ط. 2010)، الذي كتبت فيه عن شخصيات مثل: الشيخ نجم الدين الإصلاحى والشيخ أبي الليث الإصلاحى الندوي والشيخ صدر الدين الإصلاحى والشيخ بدر الدين الإصلاحى والشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحى الجامعي والشيخ

¹ مدرسة الإصلاح، سرائى مير، أعظم كره، العدد: 9، 1996م

أبي الحسن علي الفراهي والشيخ غالب أحسن الإصلاحى والدكتور مظفر أحسن الإصلاحى والدكتور شرف الدين الإصلاحى والشيخ مناج الدين الإصلاحى والشيخ ضياء الدين الإصلاحى والشيخ محمد شعيب القاسمى رحمهم الله تعالى.

وكان الهدف هو التركيز على الجوانب المرتبطة بأفكار الإمام الفراهي القرآنية ومؤلفاته وتفسيره. فلعديد من مقالاتي الشاملة في كتابي "نير تابان" تميظ اللثام عن تصاوير الفراهي العلمية وتبرزها، واستمرت في تسجيل أحوال وآثار الخريجين الراحلين. وكتبت في السنوات الأخيرة عن أحوال كل من الشيخ عبد الحسيب الإصلاحى والشيخ نظام الدين الإصلاحى والشيخ جليل أحسن الندوي والشيخ أحمد محمود الإصلاحى والشيخ محمد أيوب الإصلاحى والدكتور عبيد الله الفراهي والدكتور أطفاف أحمد الأعظمي والشيخ أشفاق أحمد الأعظمي والشيخ اشتياق أحمد الأعظمي والشيخ سلطان أحمد الإصلاحى والشيخ رفيق أحمد خان، وسجلت من خلال ذلك كل أنشطتهم المتعلقة بأفكار الفراهي وأعمالهم العلمية والفكرية.

وسأجمع جميع هذه المقالات التي كتبتها عن الشخصيات المذكورة في كتاب مستقل. ويعتبر البروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي من أبرز العلماء الذين نقلوا أفكار الفراهي وإنه أعد كتاباً باسم "تجليات حق- وجود خدا كا اثبات" (تجليات الحق: إثبات وجود الله) حاول فيه أن يوضح أن القرآن يحتوي على العديد من الآيات التي تحمل معاني دقيقة. وهذا كان أول كتابه وبدأ منذ ذلك الوقت اهتمامه بعلوم القرآن.

كتب البروفيسور الأعظمي أكثر من عشرة كتب تناول فيها القرآن من زوايا مختلفة. وتفسيره "ميزان القرآن" يعتبر من أهم التفاسير باللغة الأردوية، لاعتنائه الشديد بتفسير القرآن بالقرآن.

مما لا شك فيه أن الدكتور الأعظمي قام بدور مهم في شرح كلمات القرآن. ففي تفسير سورة الفاتحة خلال شرح كلمة "الهداية" قدم نموذجاً رائعاً لتوضيحه اللغوي

والعلمي وقام بتقديم تصور "الشفاعة" من منظور قرآني وردّ على التصورات المتداولة. وقد كتب تفسير سورة الفاتحة قبل نشر "ميزان القرآن" أثناء إقامته في جونفور، وبما أنه طيب فقدّم شرحاً وافياً للكلمات الطيبة، مثل تفسير "العلة"، وأوضح أنّ معنى كلمة "الدخان" في القرآن بأنه "الغاز" وليس الدخان العادي.

استفاد البروفيسور الأعظمي في تفسيره من مؤلفات الفراهي، لكنه اختلف عنه أيضاً حيث تقتضي الحاجة إليه، ولم يبن عليها النقاشات كما في تفسير "تدبر قرآن".

لفهم تفسير الأعظمي المسمّى "ميزان القرآن" بشكل جيد، من المهم قراءة كتاب "تفسير قرآن كے اصول ومسائل" (مبادئ وأصول تفسير القرآن)، حيث شرح البروفيسور الأعظمي أصول وآداب التفسير وخاصة تناول التفسير بالرأي بحثاً ودراسة وأكد على أنّ التفسير بالرأي هو الأصل في باب التفسير إذا يوفي الشروط الملتزمة له.

من خلال كتب البروفيسور الطاف أحمد الأعظمي مثل: "نظم قرآن- ايک تجزياتی مطالعہ" (نظم القرآن: دراسة تحليلية)، و"توحيد كآ قرآنی تصور" (مفهوم التوحيد في القرآن)، و"قرآن كى بصيرت افروز تعليمات اور مسلمانوں كا طرز عمل" (تعاليم القرآن البصيرة وسلوك المسلمين)، و"وحدة الوجود ايک غير اسلامی نظريه" (وحدة الوجود: نظرية غير إسلامية)، و"مولانا حميد الدين فراهي كے بنيادی افكار" (أفكار الإمام عبد الحميد الفراهي الأساسية)، و"في ملكوت الله" (ترجمة أردوية)، يتضح أنّ البروفيسور الأعظمي بنى نهجاً جديداً في الدراسات القرآنية يعتمد على التدبر والتفكير، وهو أسلوب نادر عند المفسرين بعد الشاه ولي الله. وهذه هي أفكار الفراهي.

وقد أوضح البروفيسور الأعظمي في تفسيره أنّ مجرد جمع آراء قديمة لا يُسمّى "تدبر القرآن"، وهذا ما نجده في تفاسير مثل "بيان القرآن"، "ضياء القرآن"، "تفسير ماجدي"، و"تفسير أحسن البيان" للحفاظ صلاح الدين يوسف.

وأنا نشرت كتاباً لفهم فكر وأسلوب الدكتور الأعظمي بعنوان: "ميزان القرآن- تعارف

وتجزئته" (ميزان القرآن: التعريف والتحليل)، ركزت فيه على ميزات تفسير "ميزان القرآن" وانتقدت الأسلوب المذهبي في التفسير. هذا الكتاب نشره مطبع خليق أحمد نظامي بجامعة علي غره الإسلامية.

يعدّ الدكتور عنایت الله سبحانی من العلماء البارزين الذين قاموا بتعريف أفكار الفراهي وترويجها في الأوساط العلمية وأضافوا إليها أبحاثه النادرة القيمة، وإنه كرّس حياته كلها لإدراك أسرار القرآن. هو يعتبر من الأشخاص الذين يضحون بوقتهم وجهدهم لنشر أفكار الفراهي.

يتمتع الدكتور سبحانی بمكانة خاصة في دراسة فلسفة نظم القرآن، وعمل في ترسيب أفكار الفراهي في اللغة العربية والأردوية كليهما. وتستحق خدماته الجليلة في باب القرآن أن يتناول الباحثون موضوعاً للبحث والدراسة في الجامعات ويبرز مكانته العلمية وإسهاماته القيمة في مجال علوم القرآن.

من أهم مؤلفاته: "حقيقت رجم" (حقيقة الرجم)، و"تفسير تدير قرآن- قرآني علوم كا خزانه" (تفسير "تدير قرآن" خزينة للعلوم القرآنية)، و"البرهان في نظام القرآن"، و"إمعان النظر في نظام الآيات والسور"، و"التحرير والتحرير في أصول التفسير"، و"بهجة الجنان في تاريخ تدوين القرآن" وضوابط صارمة لدراسة تاريخ القرآن وعند الجمال في تقويم تدير القرآن.

توضح هذه الكتب جهوده الجبارة ومسايعه القيمة في دراسة نظم القرآن، وأصول فهمه، وتاريخه، وتديره، وهو من الشخصيات المهمة التي أبرزت أفكار الفراهي وأضاف إليها إضافات جيدة لا يستهان بها.

نسأل الله أن يواصل الدكتور عنایت الله سبحانی تقديم إسهاماته العلمية في علوم القرآن. لا يمكن الحديث عن أفكار الفراهي دون ذكر اسم الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي.

فقد كرّس سنوات طويلة من عمره لخدمة مؤسسة علوم القرآن، وساهم بإخلاص في بنائها وتطويرها وازدهارها، كما كانت له جهود بارزة لا تُنسى في ترقية مجلة "علوم القرآن" وترسيخها في الأوساط العلمية. ومن ثمّ، فإنّ تاريخ هذه المؤسسة لا يكتمل من غير الإشارة إلى عطائه.

ويُعدّ كتابه "كتايب فراهي" صورة متكاملة لأفكار الفراهي؛ إذ يكشف عن أبعاده المختلفة، ويتيح للقارئ التعرف إلى زوايا أفكار الإمام عبد الحميد الفراهي وآفاق الدراسات الفراهية. ومن اللافت أنّ المؤلف استهل الكتاب بمقال بعنوان "مولانا حميد الدين الفراهي"، تناول فيه مراحل حياته بترتيب زمني دقيق، ونبه إلى بعض الأخطاء المتداولة، مقدّمًا الحقائق في صورتها الصحيحة.

كما قدّم الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي في مجلة "علوم القرآن"، على حلقات، عرضًا للأعمال التي أنجزت في مجال الدراسات القرآنية في العهد الوسيط من تاريخ الهند، ومن الجدير بالذكر هنا دور الدكتور حفيظ الله، الذي كان شديد الحرص على نشر أفكار الفراهي؛ إذ تبرع قبل نحو خمسين عامًا بمبلغ خمسين ألف روبية لإنشاء الدائرة الحميدية في مدرسة الإصلاح بسراي مير، واهتم بطباعة مؤلفات الفراهي ونشرها، واقترح إصدار مجلة "الإصلاح"، وكما استضاف الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في بارابنكي مدة شهرين أو ثلاثة، وناقش معه حول السبل الكفيلة بإيصال أفكاره إلى الأوساط العلمية، ولا سيما إلى القراء باللغة الأردية.

وفي هذا الإطار، كتب الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي مقالًا رائعًا عن خدمات الدكتور حفيظ الله، نُشر في العدد انلخاص حول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي من مجلة علوم القرآن.¹ ولا يخفى أنّ مؤسسة "علوم القرآن" قامت بدور مهم في نشر أفكار الفراهي، ويُعدّ هذا العدد الإصلاحي شاهدًا موثوقًا على تلك الجهود العلمية.

¹ يناير 1998-ديسمبر 2000م

ويشتمل هذا العدد على نحو ستمئة صفحة، ويتناول جوانب متعددة من حياة الشيخ الإصلاحى ومسيرته الفكرية. ولا يمكن فصل نتائجه الفكرية عن فكر الإمام عبد الحميد الفراهي؛ فقد أوضح الشيخ الإصلاحى في تفسيره "تدبر القرآن" أنّ هذا التفسير هو ثمرة تدبر قرآنى امتد قرابة مئة عام بين الأستاذ وتلميذه. وعلى أى حال، يميّز هذا العدد الإصلاحى بتفرده في حسن الترتيب وتنوع الموضوعات، ولا يمكن أن ننسى الجهود الكبيرة التي بذلها الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحى في إعداد وإصداره.

ويرأس مؤسسة علوم القرآن الأستاذ الدكتور اشتياق أحمد الظلي، الذي تشهد المؤسسة في عهده نشاطاً علمياً متواصلًا. فقد نظمت نحو اثنتي عشرة ندوة علمية تناولت فيها موضوعات مختلفة في الدراسات القرآنية، وجاءت تقاريرها لتشكل وثائق مهمة تُبرز أبعاداً متنوعة من علوم القرآن.

كما تُعقد باستمرار محاضرات قرآنية تحت عناوين متعددة، أسهمت في الكشف عن آفاق جديدة في مجال الدراسات القرآنية. وقد مثلت مجلة "علوم القرآن" الصوت المعبر عن هذه الجهود، إذ عرّفت عالم الدراسات القرآنية باتجاهات وروى جديدة. وأسهم الأستاذ الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحى بإعداده كشاف المجلة في توسيع دائرة الاهتمام بأفكار الفراهي ونشره بين الباحثين والمهتمين بالدراسات القرآنية.

لا يكتمل الحديث عن أفكار الفراهي إلا أن نذكر اسم الشيخ وحيد الدين خان. فعلى الرغم من أنه لم يكن من خريجي مدرسة الإصلاح على نحو كامل، فإنّ لهذه المدرسة دوراً كبيراً أدته في تكوينه العلمي وفي ترسيخ جهوده الفكرية والتأليفية. وقد عمل على صقل فكره من خلال دراسة متأنية لفلاسفة الشرق والغرب. كما يبدو تأثير المنهج العلمي للسير سيد أحمد خان جلياً عند شخصيتين بارزتين هما الشيخ المودودي والشيخ وحيد الدين خان.

وقد عبر الشيخ وحيد الدين خان في أحد مقالاته عن انطباعاته تجاه مدرسة الإصلاح وأساتذتها، وهي كتابة ذات قيمة خاصة. أما تفسيره "تذكير القرآن" فيُعدّ

بلا شك هدية نفيسة لمحبيه، غير أنّ هذا التفسير يكشف عن ضعف في منهج التدبير القرآني، ويبدو فيه ابتعاد عن المنهج الذي قام عليه أفكار الفراهي.

وفي هذا السياق، يبرز ذكر ابنه الدكتور ظفر الإسلام خان، مدير دار المصنفين، وهو من الذين نهلوا من فيض مدرسة الإصلاح. فقد كانت له عناية خاصة بدراسة القرآن، واطلاع واسع على تفاسير المستشرقين ودراساتهم في علوم القرآن. وكان يدرك أنّ عدداً من المفسرين والمترجمين الغربيين قد وقعوا، عمداً أو سهواً، في أخطاء كثيرة عند تفسير الآيات القرآنية، الأمر الذي حال دون إبراز الصورة الحقيقية لتعليمات القرآن الكريم.

وقد اضطلع بكشف هذه الأخطاء والتحريفات عدد من العلماء البارزين، منهم بيكّال، والدكتور محمد حميد الله، والشيخ الدريابادي، والدكتور عبد الرحيم القدوائ. وفي امتداد لهذا الجهد العلمي، قدّم الدكتور ظفر الإسلام خان عمله الموسوم بـ The Glorious Quran. وقد استهله بمقدمة مفيدة عرض فيها تاريخ القرآن الكريم، مؤكداً أنه محفوظ من كل تحريف، وأنه قد جُمع في عهد الرسالة، وكانت لدى عدد من الصحابة رضي الله عنهم نسخ منه، كما كان محفوظاً في صدور الكثيرين منهم.

يوضح هذا التقديم أنّ عثمان بن عفّان رضي الله عنه شكّل لجنة قامت بجمع المصحف الإمام وترتيبه، ثم أحرقت المصاحف الأخرى ذات الرسوم المختلفة، فصار هذا المصحف هو الأساس لما عُرف لاحقاً بالمصحف العثماني. كما يذكر أنّ أول نسخة مطبوعة معتمدة للمصحف العثماني ظهرت سنة 1877م.

وأشار كذلك إلى أنّ الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه كان أول من بدأ بترجمة بعض آيات القرآن إلى اللغة الفارسية، وأنّ أول ترجمة كاملة للقرآن أُنجزت في منطقة السند. ويذكر الدكتور ظفر الإسلام خان أنّ هذه الترجمة تضمّنت في هوامشها شروحاتاً لعدد من القضايا العلمية، وُضعت مع مراعاة فهم الجيل الجديد.

وقد قام الأستاذ الدكتور عبد الرحيم القدوائ بتحليل هذه الترجمة، وأشار فيه إلى

بعض الملاحظات، مع الإشادة والتقدير لجهوده في الوقت نفسه على ما فيها من جوانب إيجابية كثيرة. ويلاحظ أنّ السيّد خان كان مدرّكاً لمتطلبات العصر، لذلك راعى في ترجمة الآيات وفي الهوامش الفكر المعاصر. غير أنّ بعض هذه الشروح اتسم بشيء من المبالغة في التجديد. فالاجتهاد مطلوب، لكن ينبغي أن يكون على حذر، حتى لا يؤثر في أسس الدين وثوابته.¹

وتبدأ سورة الفتح بذكر كلمة "ذنب" عند الحديث عن النبي ﷺ، وتأتي نفس الكلمة في سورة الشعراء (الآية 14). وسياق الآية هنا أنّ موسى عليه السلام ضرب رجلاً من قوم فرعون بقصد الإصلاح، لكنه مات، فاتهمه معارضوه بالقتل، وكان فرعون يسعى لقتله. وهذا يوضح أنّ كلمة "ذنب" هنا تعني اتهاماً أو تهمة، وليس المعصية أو الذنب الحقيقي.

ويُستعمل لفظ "ذنب" في اللغة العربية، أحياناً بمعنى التهمة. ورغم أنّ البروفيسور عبد الرحيم القدوائى والدكتور ظفر الإسلام خان يرون أنّ الذنب يعني المعصية، إلا أنّ السياق في هاتين الآيتين يشير بوضوح إلى الاتهام أو البهتان.

وقد ترجمه الدكتور تقي الدين الهلالي بعبارة Charge of Crime، وهو ترجمة مناسبة لأنها لا تحمل معنى الذنب الشرعي.² ونفس الترجمة أوردها عبد الله يوسف علي³ وأحمد رضا خان في أعمالهم.

وقبل الدكتور ظفر الإسلام خان بعض ملاحظات البروفيسور القدوائى، وردّ على بعضها الآخر.⁴ ومن المهم أن نعرف أنّ العلامة شبلي النعماني كان حريصاً على إعداد ترجمة

¹ راجع مقال: "إيك نيا ترجمه قرآن وتفسير نقد ونظر" (ترجمة جديدة للقرآن الكريم- دراسة ونقد)، للبروفيسور عبد الرحيم القدوائى، "تحقيقات اسلامي" الفصلية، علي كره، أبريل-يونيو 2021م، ص 25-42

² راجع: The Noble Quran مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشرى، المدينة المنورة، ص 490

³ راجع: ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية، عبد الله يوسف علي، امانة كور بوريش، 1409هـ/ 1989م، ص 910

⁴ راجع: مجلة "تحقيقات اسلامي" الفصلية، علي كره، يوليو-سبتمبر 2024م، ص 107-114

إنجليزية دقيقة للقرآن الكريم لحماية عقول الجيل الجديد من شبهات المستشرقين ومزاعمهم الباطلة، وبدأ نواب عماد الملك هذا المشروع، وتولى الإمام عبد الحميد الفراهي مهمة مراجعته وتنقيحه. وقد أنجز نصف العمل بعون الله، لكن الظروف حالت دون نشره على الفور. ولا بد من الصراحة هناك أنّ ترجمة الدكتور ظفر الإسلام خان قد حققت أخيراً أمنيته العلامة شبلي النعماني الطويلة. ومع ذلك، يحتاج هذا العمل إلى المراجعة الدقيقة لتوضيح الأفكار التجديدية الموجودة في الهوامش بشكل أفضل.

ويعتبر جاويد أحمد الغامدي من أشهر الأسماء في شبه القارة الهندية. ورغم الاختلاف مع بعض آرائه، لا بد للقبول من أنّ أسلوبه المعاصر قد تأثر في الشباب أشدّ تأثيراً، وخصوصاً في الطلاب الذين يدرسون في الجامعات. وقد درس الغامدي بإمعان النظر والدقة كتابات الفراهي، والشيخ الإصلاحية، وعلماء السلف قديماً وحديثاً، والمستشرقين، مما جعله قادراً على تقديم أفكاره بطريقة جذابة للجيل الجديد.

وراعى الغامدي في إعداد ترجمته القرآنية "البيان" النظام والترتيب، واستخدم الأقواس للحفاظ على الخدوفات والروابط بين الآيات. وعند مقارنة ترجمته بترجمة "تفهيم القرآن" وتفسير "تدبر قرآن" يظهر أنه ما أضاف كثيراً، بل اعتمد على هاتين الترجمتين كأساس.

وقد كتب الكاتب مقالاً عن "البيان" في مجلة "فكر ونظر" بعليكرة، واستعرض خصائصه. وبشكل عام، لعب الغامدي من خلال أعماله الأخرى مثل "إشراق"، "الميزان"، و"البيان"، و"المحاضرات" دوراً مهماً في تعريف الجيل الجديد بأفكار الفراهي ونشرها بطريقة واضحة.

وتجلى ما كان للشيخ أختر أحسن الإصلاحية من دور وعمل وعلو مكانته العلمية وطموحاته عن طلاب مدرسة الإصلاح واهتمامه بأمورهم خلال دراسة رسائل أختر أحسن الإصلاحية الشاملة في كتب "مكاتيب مشاهير ومكاتيب ناصر" و"نكارشات ناصر"، التي جمعها ورتبها أبو سفيان الإصلاحية. وقد كتب البروفيسور ظفر الإسلام مقالاً بعنوان "مكاتيب مشاهير اور مكاتيب ناصر- تعارف وتجزية"

(الخطابات بين المشاهير وناصر: التعريف والتحليل) وتحدث فيه عن خصائص هذا الكتاب وأشاد بجهودي في جمعه وترتيبه.¹

ومن أبرز ممثلي أفكار الفراهي الشيخ محمد أمانت الله الإصلاحي، الذي استوعب أفكار الإمام الفراهي في حياته. وكان القرآن محور حياته، وكرس معظم وقته لدراسة القرآن مع التركيز على التدبر والفهم العميق للآيات، حتى وإن لم يستمر في التأليف. يمكن القول إن تدبر القرآن كان غاية حياته، وكان دائماً يراعي ميزات مؤلفات الفراهي أثناء دراسته للقرآن.

وقد أعدّ الدكتور محي الدين غازي كتاب "رهنماي ترجمه قرآن" بالاعتماد على أفكار الشيخ أمانت الله الإصلاحي. ويحتوي الكتاب على تحليل مقارن لترجمات "تفهم القرآن" و"تدبر قرآن" وبعض التراجم الأخرى، ومع توضيح محاسنها ونقائصها، ليقدّم صورة واضحة وشاملة عن هذه الترجمات.

وركز الدكتور غازي في هذا الكتاب على نقد تفسير "تدبر قرآن" بشكل خاص، واختار أساليب مختلفة للتقليل من شأن هذا التفسير في مواضع متعددة. وقد عرض تراجم التفاسير الأخرى مع إبراز تفوق ترجمة الشيخ أمانت الله الإصلاحي.

ولا يمكن إنكار أنّ الله قد منّ على الشيخ بفهم القرآن، وإنه استفاد في فهم القرآن من أصول الإمام الفراهي قد زاد رُقي فكره واستيعابه. لكن يظل السؤال قائماً: هل يمكن نسب جميع هذه الترجمات والتحقيقات في المفردات إلى الشيخ أمانت الله الإصلاحي؟ هل هناك دليل يجعلها جزءاً من فهمه للقرآن؟

لو أنّ هذا الكتاب قد نُشر في حياة الشيخ، لكان هذا النسب قد تجاوز جميع الشكوك

¹ راجع مقال: "مكاتيب مشاهير ومكاتيب ناصر- تعارف وتجزيه" (الخطابات بين المشاهير وناصر)، مجلة "نظام القرآن" الفصلية، مدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره، 25-262024/622-78 وبنلير 2/26، ص 78-82

والريية. ومع ذلك، يحتوي الكتاب على بعض العمق والاكتشافات التي يمكن اعتبارها نتيجة لفهم الشيخ للقرآن.

وفيما يلي بعض الأمثلة من هذا الكتاب. يقول الشيخ أمانت الإصلاحي عن "ضلال بعيد":

"لقد ورد ذكر "ضلال بعيد" في القرآن الكريم في مواضع متعددة. وكلمة "ضلال" معناها الضلال، و"بعيد" معناها البعيد، وهذا صحيح، كما أنّ "بعيد" صفة لـ"ضلال" أيضًا. لكن الحقيقة هي أنّ الإنسان بعد أن يضلّ عن الطريق الصحيح، كلما ابتعد أكثر ازداد ضلاله. فكأن الضلال نفسه ليس قريباً ولا بعيداً، وإنما الضالّ هو الذي يكون قريباً أو بعيداً.

لذلك ترجمة "ضلال بعيد" بـ"الضلال البعيد" ليست دقيقة، والأولى أن تُترجم بـ"لوقوع بعيداً في الضلال" أو "الذهاب بعيداً في الضلال".¹

ورد في القرآن الكريم في آيات متعددة قوله تعالى: "عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ"، فما الترجمة الصحيحة لكلمة "أعقاب"؟

يقول الشيخ أمانت الله: إنّ معنى "العقب" هو كعب القدم، وهذا هو المعنى الذي ذكره أهل اللغة غالباً. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في مواضع عدة، أحياناً بصيغة المثني وأحياناً بصيغة الجمع. كما أنّ المترجمين عادةً ما يترجمونه بمعنى "الرجوع على الأعقاب" لكن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمه بمعنى "الرجوع إلى الخلف (خلف الظهر)"، وهذا المعنى لا تؤيده المعاجم العربية. كما أنّ استخدام اللفظ بصيغة المثني يدل بوضوح على أنّ المقصود هو كعبا القدمين لا الظهر. ويُحتمل أنه راعى تعبيراً في اللغة الأردوية، غير أنّ التعبير الشائع في الأردوية أيضاً هو "الرجوع على الأعقاب"، لا "الرجوع خلف الظهر". وقد استعمل صاحب "تدبر قرآن" هذا

¹ الشيخ أمانة الله الإصلاحي: رهنمائے ترجمہ قرآن (الدليل إلى ترجمة القرآن)، ادارہ فکر اسلامی، يناير 2023م، ص 76

المعنى في أكثر من موضع، ولذلك لا يمكن اعتباره مجرد خطأ عابر، بل هو رأي مقصود لديه، إلا أنّ هذا الرأي ما زال بحاجة إلى دليل¹.
يوضح هذا النص الفرق بين "مصدق له" و"مصدق به" في القرآن الكريم وفقاً لشرح الشيخ أمانت الله الإصلاحي:

وردت كلمة "مصدق" في القرآن في عدة مواضع، وغالباً مع لام الصلّة، ومعناها هنا أنّ الخبر أو النبوءة قد تحقّق، أي أنّ ما جاء في المستقبل يحدث مطابقاً لما تنبأ به القرآن أو سبق ذكره. وهذا ما أكدّه الإمام الفراهي. وفي تفسير "تدبر قرآن"، التزم صاحب التفسير بهذا المعنى في معظم المواضع، لكن أحياناً وُجِدَت ترجمات خاطئة بمعنى "تصدق على" بدل "تحقق الخبر". وبعض هذه الأخطاء صُحِّحت لاحقاً في النسخة التي نشرها المرحوم خالد مسعود، مثل سورة آل عمران، الآية 18، بينما بقيت بعض الأخطاء في أماكن أخرى مثل سورة الأحقاف، الآية 30.

أما المصدّق رُحِف اللام، فيفسّرُها أيضاً بمعنى أنّ الحدث أو الشخص يكون مصداقاً لما جاء في خبر أو كلمة من الله. مثال ذلك ما ورد في سورة آل عمران، الآية 39:
نادت الملائكة يحييا وهو قائم يصلي في المحراب: إنّ الله يبشرك يحييا الذي سيكون مصداقاً لكلمة من الله، قائداً، زاهداً، ونبياً من الصالحين.

إذن، الفرق الأساسي هو: مصدق له = تحقّق الخبر أو النبوءة، أي أنّ الحدث جاء مطابقاً لما سبق ذكره. مصدق به = الشيء نفسه يُعتبر تحقّقاً لكلمة أو خبر سابق.
يشير الشيخ أمانت الله الإصلاحي إلى أنّ فهم هذا الفرق يساعد على دقة فهم معاني القرآن. يوضح هذا النص رأي الشيخ أمانت الله الإصلاحي حول كلمة مصدق في القرآن:

¹ المصدر نفسه، ص 117-118

- إذا جاءت مصدق مع لام الصلوة، معناها تحقق الخبر أو النبوءة.
- أما إذا جاءت مصدق مع باء الصلوة، فمعناها التصديق أو تأكيد الخبر، وليس مجرد تحقق الحدث.

مثال على ذلك في سورة آل عمران، الآية 45:1 "إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ". وترجمته: "الله يبشرك بكلمة منه، وهي تصديق كلمة الله، أي عيسى عليه السلام، الذي ذكره القرآن، ويكون له مكانة في الدنيا والآخرة ومن المقربين". كما يشير النص إلى أسلوب الكتاب:

1. الموضوعية: تناول الأمور بطريقة حيادية وموضوعية.
2. جهود مضيئة في تتبع أخطاء الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: تم متابعة أخطاء تفسير الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بعناية، مع ذكر أعمال مفسرين آخرين بالتقدير والإشادة، لكن تم تجاهل بعض النقاط المهمة في تفسير "تدبر قرآن".
3. الأسلوب النقدي والتصحيحي: يظهر أن الشيخ أمانت الله الإصلاحي كان يستخدم أسلوب التنقيح والتعديل عند مراجعة التفاسير، وهو ما يلاحظه القارئ أثناء الدراسة.

باختصار، الكتاب يوضح الفروق الدقيقة في معاني القرآن ويبرز دقة واجتهاد المفسر في دراسة التفاسير المختلفة.

لا يمكن الحديث عن نشر فكار الفراهي دون ذكر كتابي "حيات حميد" و"مباحث القرآن" (والأخير مجموعة مقالات اشيع اختر أحسن الإصلاحي التي أعدهما الشيخ

¹ المصدر نفسه، ص 118

عبد الرحمن ناصر الإصلاححي، أحد تلامذة الشيخ الإصلاححي والشيخ أختر أحسن الإصلاححي). هذان الكتابان من أوائل المصادر التي تناولت ذكر الإمام الفراهي، وقد استفاد منهما كثير من العلماء مثل: الشيخ عنایت الله سبحاني، والشيخ شرف الدين الإصلاححي، والدكتور ظفر الإسلام، والدكتور خالد مسعود.

كما لعبت المجالات والكتب المختلفة دوراً مهماً في نشر أفكار الفراهي، منها: مجلة "علوم القرآن" و"مجلة الهند"، وكتب أبو سفيان الإصلاححي عن دور الإمام عبد الحميد الفراهي في بناء مدرسة الإصلاح.

شارك العديد من العلماء في دراسة وتحليل أفكار فراهي، مثل: الشيخ نجم الدين الإصلاححي في كتاب "تذكرة ديوبند" والشيخ أبو الليث الإصلاححي في مجلة "الضياء" والشيخ صدر الدين الإصلاححي في "تيسير القرآن" والدكتور خالد مسعود في مجلة "تدبير" وجاويد أحمد الغامدي في مجلة "إشراق".

كما قامت عدة دراسات أكاديمية حول الفراهي في الجامعات، منها مقالات سعيد أحسن العابدي، والدكتور حسن كي شو، والدكتور أحمد حسن فرحات والدكتور محمد إقبال أحمد فرحات، والدكتور محمد خالد الرحادي والدكتور عامر خليل الجراح، والتي أبرزت نقاط تفسير الفراهي، وأسلوبه الأدبي والبلاغي.

ومما لا شك فيه أنّ أفكار الفراهي لا تزال تستمر في الشرق والغرب، وهناك جهود لنقل مؤلفاته إلى العربية والإنجليزية من قبل علماء مثل: مستنصر مير، معين الدين الأعظمي، الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاححي، الدكتور طه فريد راوي، الدكتور هيرمن (أستراليا)، الدكتور أرشد الأعظمي، الدكتور أبوذر متين، الدكتور عرفات ظفر، والدكتور أبو سعد الأعظمي. واهتمّ الدكتور أبو ذر متين بالفراحيات ونشر مقالات لتوضيح أفكار الفراهي. كما درس أرشد الأعظمي الفراهي منذ صغره واستفاد من جدّه، وكتب مقالة عن دور مدرسة الإصلاح في تطوير الدراسات العربية

والأدبية في الهند. وللدكتور أبو سعد الأعظمي مكانة مرموقة بين خريجي مدرسة الإصلاح، وارتباطه بعلوم القرآن وأفكار الفراهي، وكتبه وتعليقاته تظهر عمق فهمه، وكتابه "مطالعات فراهي" يعكس تواصله العميق مع تفسير القرآن وأفكار الفراهي.

نُشر هذا الكتاب في يناير 2025م، ونسأل الله أن يبقى أثر الدراسات القرآنية وأفكار الفراهي مستمراً.

لا أستطيع أن أكتب عن جميع جوانب أفكار الفراهي بالتفصيل، لكن من المهم ذكر خدمات الشيخ محمد عمر أسلم الإصلاحي، أستاذ مدرسة الإصلاح الذي أعد كتاباً في مجلدين بعنوان "اختصار تدبر قرآن". هذا الاختصار مختلف عن تلخيص الدكتور خالد مسعود لتدبر القرآن، لأنّ تلخيص الدكتور مسعود كان يعتمد على ترجمة الآيات والحواشي فقط، بينما جمع الشيخ محمد عمر أسلم الإصلاحي كل النقاشات التفسيرية مع الترجمات، معتمداً كثيراً على اقتباسات الشيخ الإصلاحي. ولكي يختصر النصوص الطويلة، استخدم كلماته الخاصة، وبهذا ظهر تفرد الشيخ الإصلاحي وأفكاره المهمة بوضوح.

ومن المهم أيضاً ذكر أنّ مجموعة شعرية للشيخ الفراهي ترجمها الحافظ قمر حسن إلى الأردوية، ونُشرت في فبراير 2022م. وقد رأيت هذه الترجمة، وهي مفيدة جداً.

"حجج القرآن" للإمام الفراهي

- د. غياث الإسلام الصديقي¹

اسم الكتاب: حجج القرآن

اسم المؤلف: الإمام عبد الحميد الفراهي

تحقيق: د. محمود عادل محمود

تقديم: أ. د. فيصل الحفيان، وأ. د. خالد فهمي

عدد الصفحات: 560

الناشر: دار المعراج، دمشق، سورية

سنة النشر: 1447هـ / 2025م

تمهيد: القرآن الكريم بحر لا تنقضي عجائبه، وقد شغلت معانيه وشرحه كثيراً من العلماء في مختلف العصور والأمصار، فألّفوا مؤلفات مهمة حول علومه وطرق الاستدلال منه، وحججه وبراهينه القوية القاطعة، ومنها "حجج القرآن" للإمام عبد الحميد الفراهي، وهو في شرح الحجج والبراهين التي احتج بها القرآن على التوحيد والرسالة والمعاد، وقد ألّفه تقديمياً لتفسيره "نظام القرآن"، وبقي غير مكتمل وغير منشور كمؤلفاته الأخرى إلى أن نشرته الدائرة الحميدية سراي مير عام 2011م، ثم اعتنى به الدكتور محمود عادل محمود فجاءت هذه الطبعة مع تحقيقه في حلة قشبية ومزينة ومنقحة. والإمام الفراهي شخصية معروفة تحدّث عنها الكثيرون، وهذا العدد أيضاً خاصّ به فلا نخوض في ذكر سيرته وأعماله، ونقول للقراء أن يراجعوا هذا العدد والأعداد الخاصة للمجلة بسيرته وأعماله.

¹ مدرّس ضيف، الكلية الطبية الآيورفيدية واليونانية التابعة لجامعة دلهي، الهند

أما محقق هذا الكتاب: فهو الدكتور محمود عادل محمود، من مدينة حلوان، القاهرة، جمهورية مصر العربية، وحصل على الدكتوراه في البلاغة العربية، كلية الآداب جامعة دمياط عام 2024م، وهو مدرّب معتمد لدى الأكاديمية المصرية الدولية للتدريب والتنمية والاستشارات. ومن مؤلفاته "قلب القرائن على قراءات الحدائين للسنة"، و"حراسة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة"، ومن بحوثه المنشورة "أثر السياق في إجراء التغليب في القرآن الكريم"، و"القرائن اللغوية المشكلة في قراءة الحدائين للسنة"، و"الموسيقا في شعر النزعة الذاتية والقبلية عند القطامي".

وقدم لهذا التحقيق الأستاذ الدكتور فيصل الحفيان (ولد عام 1378هـ/1959م) وهو باحث ومحقّق سوري، وخبير بالخطوط. عمل مديراً لمعهد المخطوطات العربية (2013-2020م)، ومديراً مكلفاً لمعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سابقاً. وهو عضو مجمع اللغة العربية الليبي، وخبير مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضو مراسل بجمع اللغة العربية بدمشق، ومدير المشروعات وأحد أعضاء هيئة الأمانة لدى دار المخطوطات بإستانبول حالياً. وهو مستحدث برنامج أكاديمي يمنح درجتَي الماجستير والدكتوراه في "علم المخطوطات وتحقيق النصوص"¹.

وكذا قدّم له الأستاذ الدكتور خالد فهمي (ولد عام 1390هـ/1970م) وهو أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب جامعة المنوفية منذ عام 2011م، وخبير بجمع اللغة العربية بالقاهرة. وله كثير من التحقيقات والبحوث بما فيها "تراث المعاجم الفقهية في العربية"، و"المعاجم الأصولية في العربية"، و"معاجم المصطلحيات العربية"، و"مقاصد علم اللغة في الحضارة العربية والإسلامية"، و"زمان المعجم"، و"معاجم المصطلحات الحديثة العربية المعاصرة"، و"نحو وعي معجمي"، و"في اللسانيات العربية المعاصرة"².

¹ فيصل الحفيان - ويكيبيديا

² منصة فصحى لعلوم العربية وآدابها - الدكتور / خالد فهمي

وهكذا قدّم مفصلاً للكاتب محققه الدكتور محمود عادل محمود.

أصل الكتاب وهدفه: لقد وضع الفراهي هذا الكتاب؛ للكشف عن طريق القرآن في الاستدلال والحجاج، وإثبات فضله، وعلوه على مناهج الفلاسفة والمتكلمين في جدلياتهم وأساليب حجاجهم، مقرونة ببيان ما فيها من ضعف وتهاوت وفساد من الناحية العقلية الصريحة والنقلية الصحيحة، وقبل ذلك كله من جهة الفطرة السليمة، ثم قام بشرح الحجج والبراهين التي احتج بها القرآن على التوحيد والرسالة والمعاد، وهي جماع العقيدة الإسلامية، داعماً لذلك بتأصيلات بارعة فريدة، مستنبطة من نصوص القرآن الكريم، على قدر من التأمل وقوة النظر، في ظلال المعنى وأفناء الدلالة؛ فأراد رحمه الله أن يكون كتابه جامعاً بين التنظير والتطبيق.¹

محتويات الكتاب: يستهل الكتاب بتقديمين كتبهما الأستاذ الدكتور فيصل الحفيان والأستاذ الدكتور خالد فهمي، ثم "بين يدي الكتاب" الذي أعده الدكتور محمود عادل محمود، فتقديم الكتاب بقلبه. وبالتالي "كلمة الناشر" من قبل الدائرة الحميدية، وعقب ذلك محتويات الكتاب كما يلي:

المقدمة بقلم المؤلف وهي في فصلين:

الفصل الأول في موضوع الكتاب والغاية والحاجة من جهة اختصاصه بعلوم التفسير. والفصل الثاني في بيان موضع هذا الكتاب من الجهة العمومية.

وبالتالي يشتمل الكتاب على ثلاث مقالات وهي تحوي أبواباً وفضولاً وموضوعات كالاتي:

المقالة الأولى في انتقاد المنطق والفلسفة والكلام

الباب الأول في انتقاد المنطق:

¹ الفراهي، الإمام عبد الحميد: حجج القرآن، تحقيق: محمود عادل محمود، ص 74.

- (1) النظرة الأولى فيما التبس على المناطق من حقيقة الحمل
- (2) النظرة الثانية في الحد من جهة الغرور الناشئ منه
- (3) النظرة الثالثة في الحد من جهة أن طريقه يفضي إلى الحيرة
- (4) النظرة الرابعة في الحد من جهة كونه سدّاً عن معرفة الأشياء
- (5) النظرة الخامسة في الحد من جهة كونه عثرة في طريق المعرفة
- (6) النظرة السادسة في التقسيم المنطقي، وما فيه من الغرور
- (7) النظرة السابعة في عقم استدلالهم عموماً، سواء كان في الحد أو القياس

الباب الثاني في انتقاد الفلسفة:

- (1) ابتداء الفلسفة وانتهاءها
- (2) خطوهم في الغاية جرّهم إلى ضلالة عظمى في الديانة
- (3) خطوهم في موضوع العلم الأعلى أوقعهم في الظلمة العلمية
- (4) خطوهم في أساس العلم أوقعهم في الظلمة العملية
- (5) خدمة الفلسفة للحق على رغم أنفها

الباب الثالث في انتقاد الكلام:

تقصير عظيم في أدلة المتكلمين

المقالة الثانية في تأسيس العلم

الباب الأول في الميزان وهو المنطق الأعلى

- (1) الموضوع وموضع هذا العلم

- (2) طريق الاستدلال الذي يختص بالمنطق الأعلى المسمى بالميزان
- (3) تأسيس الحكمة وموضع المنطق فيه
- (4) عموم الكلام في اليقين والمعرفة
النظر في فطرة الإنسان
- (5) عموم الكلام في فطرة النفس الإنسانية وقواها العلية والعملية
- (6) طريق ناقص لإبطال الشك المطلق
- (7) الكلام في انقطاع هذا الطريق دون الغاية بذكر ما ورط فرقا من المتفلسفة في الضلال
- (8) طريق آخر لدفع الشك وهو من جهة الفؤاد، وهو أقرب من الفطرة
- (9) الطريق الحقيقي للعلم واليقين وأساسهما الرايخ
تذكرة: ضلالات المنطق
- (10) انشغاب العلم من أصله الرايخ حسب درجاته
بيان العلم الاستدلالي ببعض التفصيل
الاستدلال على وجود العلم، الذي هو أصل البدييات
بيان العائق عن العلم الفطري الموجود في النفوس
أقسام الاستدلال
قاعدة لمعرفة النسبة التي بين الأصل والفرع في العلم والإرادة
تقسيمات الأدلة من جهات مختلفة

من المقالة الثانية: التي هي في تأسيس العلم

الباب الثاني في الحكمة البارغة

الفرق بين الفلسفة والحكمة من جهة الغاية

(1) الحكمة بناؤها على التوحيد والتوفيق

(2) تقرير شبهات المتكرين

(3) الجواب عن الشبهات المذكورة

(4) مفهوم الحكمة حسماً دلّ عليه القرآن

(5) الحكمة ظاهرة بنفسها على فطرة الإنسان

الباب الثالث في طريق احتجاج القرآن

(1) خصائص طريق القرآن في الاحتجاج

(2) الحكمة في إيراد الأدلة بالإيجاز والاكتفاء بالتنبيه على موادها

(3) أمثلة من الحجج لتعرف بها طرقها

(4) بيان المطالب الثلاث التي يحتج عليها وبيان النسبة بينها

المقالة الثالثة في حجج القرآن

الباب الأول في أدلة الربوبية

(1) الدعوى في هذا البحث على ثلاثة مواقف

وجوه الاستدلال بالآيات الآفاقية على الإله الحق وصفاته الكاملة

الآيات الأنفسية في إثبات الألوهية وصفاتها

فصل في هذا العالم

التأويل حسبما ظهر للفراهي بعد التدبر والتمسك بالقرآن وحده

فصول من كتاب الحجج من غير ترتيب

(1) من الآيات الأنفسية على النبوة

(2) الإيمان يعطيه الرب تعالى لمن يعقل ويفهم

القسم الثاني: مباحث الكتاب من المسودة الأولى والثانية وغيرهما

فصل: القسم العمومي في الأصول والأمور العامة (فطرة الإنسان، وموضع العقل

السليم، والعلم اليقين، والعمل الصالح)

فساد الفطرة وموضع الغفلة والظن والهوى

فطرة النفس هي حرية العقل والعمل

الفرق بين العقل الكلي والعقول الجزئية، وكذلك بين العلوم الكلية والجزئية

القسم العمومي: العقل هو الفارق بين الإسلام والكفر

اليقين ضروري أودع في فطرة الإنسان

تقسيم الناس إلى فريقين

فطرة الفؤاد ومبادئها؛ الطهارة والشكر والإحسان

وفي الأرض آيات للمؤقنين

محل التقوى من العلم والهداية

من عيون المسائل التي تفصل وتبين

تعريف الحجّة، والفرق بينها وبين الدليل والآية

مبادئ الاحتجاج؛ الاستدلال الأعلى

(1) موضع الحجّة في الدين

(2) ماهية الحجّة وطرقها حسبما يذكر في هذا الكتاب، وهي أقرب إلى الفطرة

تعريف الحجّة وتقسيمها الأوّلي وطرقها غجماً

الفرق بين الأدلة الدينية وغير الدينية

بيان الطريق الخاص للاحتجاج الفطري وبيان الفرق بينه وبين الطريق العام

ما يتعلق به اليقين

التقسيم المنطقي الذي صار منشأ للشك والضلالة

تذكرة: (الجوهر والعرض) اصطلاح خاص للصوفية

مثار الضلالات

تذكرة: تقصير المنطق من وجوه

فلسفة سقراط وأفلاطون (أرسطاقليس)

أقسام الاستدلالات

الدليل من النطق

طريق القرآن في الاحتجاج، وهو طريق الفطرة

طريق استدلال القرآن

ذكر ما شغل الناس عن التدبير في أدلة القرآن وما في ذلك الشاغل من التقصير وقلة النفع

كلام كلي في طريق احتجاج القرآن

الدلائل بالأمثلة مبنية على أمرين

لا بد للاحتجاج من أمرين

دفع شبهة على حرية العقل والإرادة

الحكمة والميزان

المستدل ومنصبه الرفيع

أمثلة الحجج

حجج القرآن

أصول الاستدلال كما يستنبط من القرآن

إثبات الخالق

الاستدلال بوجوه الخير والشر

الاستدلال بضرورة حسّ الملك والحق

الاستدلال بضرورة الحسّ بالبرّ والإثم

(1) إثبات الفاعل المرید من الكون

(2) إثبات صفة الرحمة من الكون المحض

(3) إثبات التوحيد من الكون

(4) إثبات التوحيد من محض وجود اليقين وهو صحة الفطرة واليقين

(5) إثبات الخالق العالم الرحيم من محض وجود النفس

إثبات العلم التام والقدرة التامة

إثبات الخلق وإبطال تعدد القدماء

ترتيب ظهور قوى الفطرة

إثبات الخلق وإبطال القدماء

القديم هو القادر المطلق

الاستدلال من الأصل الأول والثاني على الخالق الفعال

الفرق بين الإرادة والأثر

معرفة الرب تعالى بديهية

الإلهام بوجود المرید

الآيات والاستدلال على حدوث كل شيء إلا الله الواحد القهار

في بيان التوحيد

(إبطال الشرك من صفاته تعالى)

إثبات الإله الواحد الرحمن الرحيم من نفس اليقين

التوجه إلى الله أقوى من جبلنا عليه

لا محيص عن الشك إلا بالتوحيد

أول علم النفس بكونها مربوبة محتاجة، وهذا العلم يهديها إلى ربها

الآيات الآفاقية على التوحيد

الآيات النفسية على التوحيد

باب العقل والإدراك

باب الفؤاد

باب الصفات الإلهية في بيان صفة إحاطته بجميع الأشياء

سبب الحمد والكفر

تفسير قوله تعالى: الله نور السموات والأرض

التضرع جالب للرحمة

للحجج آيات الفطرة الجامعة

من الآيات الفطرية

الجزاء لا بد أن يكون بعد الموت

(القسط الثاني في المعاد وفيه فصول)

(في الكلام الكلي على المعاد)

الآيات الآفاقية على المعاد

بالنفس اللوامة

إثبات المعاد من اليقين بالبر

(الآيات النفسية على المعاد)

(القسط الثالث في الرسالة)

(الآيات الآفاقية على النبوة) الآيات النفسية على النبوة

من الآيات النفسية على الألوهية والنبوة

(مشكاة، زجاجة، مصباح، زيت، زيتونة)

(جريان نور الإيمان من القلب إلى أعماله)

فهرس الفوائد والمعارف للكتاب

المراجع المذكورة في الحواشي

تقديمات الكتاب: تتزين هذه الطبعة لـ"حجج القرآن" بتقديمات قيّمة جميلة، يزداد بها نفع الكتاب، وتتجلى فيها أهمية الكتاب وضرورته، كما تبين مكانة مؤلفه بين المؤلفين والمفسرين الذين لم يألوا جهداً في خدمة القرآن وعلومه.

التقديم الأول: وقد حكي الأستاذ الدكتور فيصل الحفيان خلفية لتقدمه: "ولقد كانت أوقاتي مزحومة، وأعبائي كثيرة، وانشغالي لا تنتهي، بيد أنني ما استطعت أن أرد الطلب (المركب) فاستعنت بالله تعالى على أن أقتطع من الوقت، لأقرأ؛ إذ لا كتابة من غير قراءة، كما هو معلوم".

وبالتالي يعبر عن إعجابه بهذا الكتاب: "ولما قرأت استحال العبء، أو الذي ظننته عبئاً، والجميل، أو ما ظننته جميلاً، أسديه إلى واحد يظن نفسه من طلبتي.. استحال العبء الثقيل حرية وحركة، والجميل المزهود فيه امتناناً"¹.

وبعد كلمات استهلاكية، عبّر الأستاذ عن خواطره تجاه الكتاب، وأحاط بعدة جوانب مهمة منه، وأشاد بخدمات مؤلفه، وحدّد كلّ ذلك بخمسة عناوين تالية:

1- أيّ عالم وأيّ كتاب!

2- حماس وإحساس بالعجز

3- ساكن في القرآن

¹ المصدر نفسه، ص6.

4- نظم لا يستقيم بعضه إلا بكلمه

5- فلسفة الفراهي ومعمار كتابه.

وإعراباً عن علاقة هذا الكتاب بالقرآن الكريم، وإشارةً إلى خصائصه البديهية، يقول الأستاذ فيصل الحفيان: "هذا كتاب من كتب القرآن العظيم، كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على الدهر، وله في كل زمان، رجال يميطنون اللثام عن شيء منه، غفل عنه السابقون، وأعجزهم أن يصلوا إليه".

كما يشيد بالعلامة الفراهي والتزامه الصارم بخدمة القرآن قائلاً: "ومن أولئك الرجال؟ حميد الدين، أو عبد الحميد الفراهي، عالم من البعيد البعيد، من أقصى الشرق، الهند، سكنه القرآن، وملك عليه نفسه، وسكن هو في القرآن، فإذا به، وهو المتأخر زماناً، يطاول كبار المفسرين في القرون الأولى، إن لم يفقههم، فسبحان الله العظيم الذي سنن لكلامه في كل زمان من يخدمه ويقدم جديداً يفتح الله به عليه".

وبالتالي يلفت الأستاذ انتباه القارئ إلى ميزة الفراهي في هذا المجال: "وجديد الفراهي ذو عرف خاص لا يكاد يشركه فيه أحد. إنه جديد، يتصل بنظام القرآن، وبحجج القرآن، وبحكمة القرآن، وبرؤية القرآن. لقد استطاع هذا الرجل الهندي أن يقع على أمر عظيم من أمور القرآن هو نظامه، وما ترك النظام الذي وقع عليه فكرة لفت إليها، أو نبه عليها، لكنه أصلها، وفرع منها، ورتب عليها، فإذا به يبني صرحاً عالياً، بهر اللاحقين من المشتغلين بالقرآن".¹

ويوضح الأستاذ ماذا يقصد الفراهي بالنظام القرآني فأتى بعنوان: "نظم لا يستقيم بعضه إلا بكلمه"، ويقول فيه: "القرآن كل لا يقبل التجزئة، وسوره عالم واحد لا ينفصل، وآياته آية واحدة، إذا أردت أن تفهم سورة أو تستبطن آية، فعليك أن تنظر فيه كله،

¹ المصدر نفسه، ص 9.

هو نظم واحد لا يستقيم لك بعضه إلا بكله. الفكره عميقة أكلت عمر صاحبها، أسقاها دمه، وأطعمها لحمه، حتى استوت".

ويبين الأستاذ ميزة الفراهي: "وإذا كان شيوخ التفسير العظام قد تناولوا شيئاً من النظام في القرآن، فإنّ الفراهي جعل من (النظام) قضيه القرآن كله. فرق بين شيوخ التفسير والفراهي. الفراهي احتشد للقضية احتشاداً نظراً وتنزيلاً، وإن لم يتمكن من جهة التنزيل أن يصل به أو بها إلى أقصى مدى؛ لأنه ارتحل عن الدنيا قبل أن يكمل تفسيره".

وفي التنويه بالعلامة الفراهي وفهمه العميق في الموضوع يقول الأستاذ: "من يقرأ (الحجج) يبدو له الفراهي بالغ السيطرة على أدواته المعرفية، كبير الثقة في آرائه، ثاقب النظر في طروحاته، إنه لا يرى بديلاً لطلائق القرآن في الاستدلال وفي الحجج. أما تلك المناهج التي يستخدمها المتكلمون والفلاسفة وهم يجادلون ويحاججون فإنها- في رأيه- ضعيفة، بل متهافئة، بل فاسدة، على المستويين: مستوى العقل، ومستوى الفطرة".¹

ومّا لا مرية أنّ الأستاذ الدكتور فيصل الحفيان قد أجاد في إبراز مناحي مختلفة للكاتب وصاحبه بكلماته الأنيقة ومشاعره المتدفقة بالروعة والجمال، وبذلك نتضح أهمية المؤلف وكتابه وموضوعه، وتزيد هذه الطبعة بهاءً وأناقَةً.

التقديم الثاني: كتبه الأستاذ الدكتور خالد فهمي بعنوان "انبلاج النور"، وفيه عناوين ذبيلية آتية:

- مدخل: سيظل النور ساطعاً!
- الانتماء المعرفي
- القيمة العلمية والحضارية
- حجج القرآن: خطاب التشغيل الحضاري في الأمة

¹ المصدر نفسه، ص 10.

• نشرة الدكتور محمود عادل محمود : على سبيل المدح

وفي سياق خطاب التشغيل الحضاري في الأمة، يصرّح الدكتور فهمي بأن "مفهوم التشغيل الحضاري هو الخطوة العملية لمنجز النشر النقدي / أو تحقيق النصوص ونشرها؛ ذلك أن التحقيق بما هو استعادة للصورة التاريخية للنص كما تركه صاحبه مجرد خطوة في طريق الاستلهام وطريق الاستثمار المعاصرين لخدمة قضية الأمة المتراجعة حضارياً".

وبالتالي استقطب الأستاذ المحقق أنظار القراء إلى تعرّض المؤلف لهذا الجانب بصورة خاصة، فيقول: "وهذا الكتاب يمثل نقطة مهمة جداً يعزّز السير في مسارات التشغيل الحضاري"، وذلك يتمثل في نقاط تالية:

أولاً- مسار تعزيز بحوث عالمية الرسالة، لتحقيق فكرة السلم العالمي بعد تمدد الصراع في جنباته، وعلى قاعدة استمثار المشترك "التوحيدي" الذي يجمع بين قطاعات عريضة من سكان هذا الكوكب الأرضي.

ثانياً- مسار تعزيز بحوث وحدة الأمة على قاعدة فكرية وثقافية تقرر أنّ الكتاب العزيز هو أعلى مرجعية صانعة لهذه الوحدة، وهو الدستور الضامن للوحدة الثقافية في الأمة مع تنوع شعوبها، وتنوع أعراقهم، وتنوع أقاليمهم.

ثالثاً- مسار تعزيز بحوث الاستدلال والحجاج في عدد من الحقول المعرفية المعاصرة في ميادين:

أ- اللسانيات

ب- البلاغة

ج- المنطق

د- التأويل

ه- النقد الأدبي

و- التفسير

ولا شك في أنّ الأستاذ قد أجاد في تناول موضوع الكتاب وتاريخه، وذكر مؤلفات قيمة أساسية في هذا الموضوع، وركّز تركيزاً خاصاً على جانبه الحضاري في تقديمه، وبذلك يزداد نفع هذه الطبعة.

وأتبع ذلك "بين يدي الكتاب" بقلم المحقق، وهو يبرز أهمية الكتاب بأن له خصوصية علمية كبيرة؛ وذلك لأسباب:

السبب الأول: أنه ينتسب إلى حضارة واسعة المدى في الإبداع والتفكير والتصنيف في شتى مجالات الفنون والمعارف، ومن جهل حضارة الهند وعظيم مكانتها، فقد جهل طرفاً كبيراً من العلم لا يستهان به.

السبب الثاني: أنه من التراث المسكوت عنه والمزهود فيه، وناهيك بهذا السبب ما فيه من عظيم الإغراء، بالوقوف على مضامينه ودلالاته ومنازله بين نظائره من المؤلفات والتصانيف في بابيه.

السبب الثالث: أنّ النص لرجل من رجالات العلم الذين عرّ أن تجد لهم نظيراً- بشهادة أهل السنة وغيرهم من العرب- في سعة معارفه، وقوة مداركه، وإحاطة رؤيته، وتنوع روافده، وتمكّن قريحته، وسموّ ذائقته، وطرافة أساليبه، ودقائق فرائده في الفنون التي امتدّ عقله وبيانه إليها رسداً وتحليلاً وتحريراً وتأصيلاً فاستوفى في كلّ فنّ الكلم، ونصب على كلّ مشكل العلم، وتبصّر معاطف خفاياه، واستظهر لواطفه وخباياه، إنه الإمام عبد الحميد الفراهي، أحد أعلام الهند، وأبرز نبلائها البارعين في الكشف عن الغوامض، والغوص على الحقائق، والإشارة إلى الفرائد والدقائق، بفكر صائب، وروية ثابتة، فأبدع كأشد ما يكون الإبداع؛ تألقاً وجمالاً في صياغة إرثنا الثقافي صياغةً دانية

القطوف، متسنية التحصيل للمبتدئ والمنتهي على سواء، وهذا هو المنهج الأمثل الذي بوأ الثقافة الإسلامية وتراثها مبعوثاً صدق بين مختلف الثقافات العالمية، وحفظ لها سمها ووقارها العلمي، الذي لا يتقدم عهده فيسأم، ولا ينسخ أثره فيعدم¹.

ألقى الدكتور محمود عادل ضوءاً على صعوبة يواجهها الباحث في مجال التحقيق وإبراز التراث العلمي، وهو يقول: "وليس يخفى أن الاحتكاك بنتاج أفكار الحكماء، وآثار عقول العلماء أمر من الصعوبة بمكان، سيما والعالم يتكلم بلسان عصره الذي تتشابك فيه الأحداث السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية والاجتماعية، وتمتزع بثقافات صنعته الواسعة؛ لتنسج من وراء ذلك كله عقلاً مشرباً بهذه الملاحم، التي تؤثر- أيما تأثير- في طريقة تفكيره، وطريقة بيانه، وطريقة تحليله، وسبيل منهجه.. نعم، إنها تؤثر في الأسباب والغايات كلها. وبيان وجه الصعوبة يكمن في معالجة اللاحق للسابق من أئمة الفن وأرباب الصناعة المعرفية؛ إذ إن تذليل البيان الذي ظهر فيه أسيقة تاريخية وفكرية واجتماعية خاصة، واتصل بروافد دينية وأخلاقية وثقافية محددة، ثم تيسيره للعصور المتأخرة والحقب المتعاقبة، وتسخيره للعقول التابعة- أمر مرّ شديد مرارته، يشكل صعوبة ذاتية ومتعدية"².

التقديم الثالث: وهو بعنوان "تقديم الكتاب" وقد أسهب الدكتور محمود عادل محمود في بيان أحوال المؤلف وكتابه وبلده، وذلك ليكون تقديمه مهاداً ومدخلاً إلى تقریب هذا الكتاب وفهمه، وهو يشتمل على ثلاثة محاور أولها: "حضارة الهند: أثرها وتأثيرها"، والمحور الثاني: "ترجمة الإمام الفراهي"، والمحور الثالث: "قراءة لمفاصل كتاب حجج القرآن ومعاقده".

وفي المحور الأول يبدأ الأستاذ كلامه بطرح سؤال من يسئل: "لماذا الهند؟ ولماذا العناية بتراثها؟" ويحدد جوابه بأمرين؛ أولهما: اعتبار المسلمين كلهم جسداً

¹ المصدر نفسه، ص 23.

² المصدر نفسه، ص 23، 24.

واحدًا، والثاني: إذ لا تزال الهند رغم عراققة انتسابها للإسلام، وعميق مساهمتها في فكره- مجهولًا معرفيًا كبيرًا للعرب، لا يتابعون إنتاجه العلمي في المعارف الإسلامية، ولا يهتمون بمفكره وعلائه، وربما انصرف الاهتمام العربي إلى متابعة السينما الهندية، أكثر من متابعتهم لمعالم التجديد الفكري هناك. وذلك رغم كون الهند شريكًا مؤثرًا في الفكر الإسلامي، طرح علماءها رؤى أثرت في المسيرة الإسلامية في القرون الأخيرة ولا تزال".¹

وعلى هذا المنوال، واصل الدكتور ذكر إسهام علماء الهند في الفكر الإسلامي والعلوم العربية وخص بالذكر عدد المخطوطات العربية في الموضوعات المتنوعة المتوفرة في مكتبة متحف سالار جنغ، إلى جانب ذكر بعض علماء اللغة العربية في الهند، وأواصر الهند باللغة العربية في مختلف المجالات منذ القدم بقدر من التفصيل.

ويميّز الدكتور محمود عمل الفراهي في التفسير عن غيره، ويميط اللثام عن حقيقته بأسلوب رائع ويقول: "وإن كان للأوائل من المفسرين الفضل في الإشارات الدقيقة إلى الترابط المعنوي في القرآن، فللفراهي الفضل في تحديد معالمه، وكيفيه البحث عنه في القرآن؛ فقد طور فكرة وجود النظم المعنوي في القرآن، وحركها ونشطها وكأنها لم تكن موجودة من قبل، كما أولى اهتمامه الخاص لإثبات هذه الفكرة، وشرع في كتابة تفسير- بعيداً عن جميع المنازع الشخصية والقومية والحزبية- سماه "نظام القرآن وتفسير الفرقان"، أنفق في فهم معانيه عمره الكامل، خاصة الثلاثين عاماً الأخيرة من عمره، ولكنه لم يستطع إكمال تفسيره؛ لأنه لم يكن يريد أن يؤلف تفسيراً على الطراز التقليدي، الذي يبدو فيه كل مفسر ناقلاً يقتبس شيئاً كثيراً من مفسر آخر، ويسرد لكل مفسر أقوالاً عديدة لمعنى آية واحدة".²

¹ المصدر نفسه، ص30.

² المصدر نفسه، ص44.

وعلى هذا المنوال يركّز الدكتور المحقق على إبداع العلامة الفراهي في تسمية تفسيره "نظام القرآن" ويقول: "يبدو من اسم تفسيره أنه أول مفسرٍ بين جماعة المفسرين العرب والعجم- الذين يفوق عددهم الحصر- الذي سمّي تفسيره بمثل هذا الاسم، الذي يشير به إلى هدف تفسيره ومنهجه؛ فأسماء معظم التفاسير تشير إلى مدح وتقريظ التفسير، مثل: "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام الطبري، و"الكشاف عن حقائق التنزيل" للإمام الزمخشري، و"مفاتيح الغيب" للإمام الرازي".¹

وفي المحور الثاني قدّم الدكتور عادل ترجمة الإمام الفراهي فذكر أولاً الأوضاع السياسية والاجتماعية والتعليمية والفكرية والدينية في عصره. ثم ركّز تركيزاً خاصاً على سيرته الذاتية وذكر اسمه وكنيته ومولده وروافده الثقافية ومراحل تعليمه، ومنهجه في التأليف، وأساتذته وتلامذته، ومناصبه التدريسية والعلمية والإدارية، وصفاته وأخلاقه، وثناء العلماء عليه، وآثاره وإنتاجه العلمي.

وفي المحور الثالث عرض المحقق قراءة في مفاصل كتاب حجج القرآن ومعاقده، وذكر عمله تحقيق هذا الكتاب. وفي الختام يقول: فهذا الإمام الفراهي رجل من بلاد الهند، وأنا مصري أباً عن جدّ، وبيننا من البعد المكاني ما لا يدلّ على شيء سوى فاعلية الإسلام في إثناء الحب في الله، والنصح لعلماء الأمة. فأني شيء دفعني إلى برّه سوى الحبّ في الله، وأي شيء دفعني إلى إبراز علمه إلا رابطة الإسلام، التي تحو حدود الفرقة، وتجمع بين القلوب العقول في حياة أصحابها وبعد موتهم".²

وقد استغرق هذا التقديم 67 صفحة، ويستحق أن يفرد في رسالة مستقلة بأنه يحيط بجوانب مختلفة من ترجمة العلامة الفراهي وجهوده العلمية والفكرية، وقد جمع بين كثرة المواد وحسن الترتيب بلغة فصيحة وبأسلوب علمي جميل.

¹ المصدر نفسه، ص 45.

² المصدر نفسه، ص 92.

عمل المحقق في الكتاب:

- اعتمد الدكتور محمود عادل محمود في خدمة الكتاب على النسخة المحفوظة بالدائرة الحميدية في الهند، التي كانت أول نشرة للكتاب ضمن أعمالها، سنة 2009م، وقد اجتهد في البحث عن أية طبعة أخرى للكتاب، أو نسخة ما تكون محفوظة بدار من دور الكتب، فلم يحظ بذلك، ولم يقف عليه قدر جهده ومبلغ اطلاعه.
- كتب مقدمة وجعلها مدخلاً لدراسة الكتاب.
- زين الكتاب بتعليقات على النصوص التي تحتاج إلى الإيضاح والبيان.
- قام بعزو جميع الآيات القرآنية الواردة في الكتاب، وكذلك قام بتخریج الأحاديث النبوية الواردة فيه.
- استعان بشرح بعض جمل الكتاب في إزالة غموض بعض العبارات.
- أبقى على عمل الناشر والناشر من تعليق وبيان في الهامش، مع الإشارة إلى أنّ الكلام لهما، وليس للمحقق.
- لاحظ أخطاء كبيرة في نص الإمام الفراهي في النسخة المحفوظة بالدائرة الحميدية، فحاول في تخلص الكتاب منها.¹

نماذج لتعليق المحقق:

- يذكر العلامة الفراهي قاعدة لمعرفة النسبة التي بين الأصل والفراع في العلم والإرادة، ثم شرحها. فيعلق المحقق على ذلك: "قلت ولا أزال أكرّر: إنّ كثيراً من كلام الفراهي - ومنه هذه القاعدة - لا تصلح معالجته بتعليق أو شرح، بل يبقى على حاله

¹ المصدر نفسه، ص 88-90.

وبهائه، حيث أنني أحاول في مواطن كثيرة أن أشرح وأن أتكلم، فأجد أن كلامي سيفسد حلاوة ما نطق به، ويحرف بلاغه ما أبان عنه؛ لذا أكتفي بنقل عن الكبار، أو إيضاح لمشكل، أو بيان في حدود الطاقة، وإلا فالرجل قد أوتي من حسن البيان والفهم ودقة التحرير ما لا يستطيع معه الاقتراب إلا بجزر، وكذا الحال مع كل عالم رزق السداد في القوة العلمية والعقلية".¹

• ويعرض العلامة الفراهي فكرة: "وكون الشيء مفيداً لا يُثبت كونه حقاً، فإنّ الكذب ربّما يجلب نفعاً مع كونه كذباً، فإن لم يُثبت العقلُ العقائد التي أيقنا بها، لن نتخذها حقاً ثابتاً في نفس الأمر، وإن عملنا ببعضها لنفعها الحاضر".²

ويعلق المحقق عليها: "وهذا من أفسد الأقيسة التي ينطق بها مرده الإنس وأبطلها، وهو هضم للعقل وليس تعظيماً له؛ إذ إن لسلطان العقل حدوداً لا يتعداها، فلا يمكن بحال أن ينشر سلطانه على النقل، ولا أن يعارضه بشبهة أو قياس. وقد أحسن أبو حيان التوحيدي حين قال: "واعلم أنّ العقل، وإن كان شريفاً؛ فإنه خالق الله، حكمه منوط بخالقه، وحاجته إلى الخالق كحاجة الناقص للعاقل، والنقص لاحق به وجائز عليه، وإنما هو ضياء بيننا وبين الخالق، به تتعاطى وتتواطى، وتتعامل وتتقابل، وعلى مقداره نفضل ونعدل، وبهدياته نرشد ونكمل، فأما أن يكون العقل حكماً بيننا وبين الله تعالى؛ ما أجازة حسن فعله، وما أباه قبح فعله، فهذا ما لا يكون. كيف يكون هذا وهو إله من قبل العقل والعاقل والمعقول، وإنما أبدع هذه كلها داعية إليه لا معترضة عليه، وواصله به لا قاطعة عنه، ودالة على قدرته لا مضلة عن حكمته، ومتيقنة لما بان لا شاكّة فيما أشكل. وما أحسن ما قاله أبو زيد البلخي، قال: العقل آلة

¹ المصدر نفسه، ص 256.

² المصدر نفسه، ص 281.

أعطيناها لإقامة العبودية، لا لإدراك الربوبية، فن طلب بآلة العبودية حقيقته الربوبية فائته العبودية ولم يحظ بالربوبية".¹

- يقول العلامة الفراهي: "من الآيات الأنفسية على النبوة شدة احتياج الإنسان إلى التربية، وخلقته على كمال الاستعداد لقبولها؛ فإنه يميل إلى التعلم، ويشتاق إلى حكاية ما يرى ويسمع، ثم هو يصيخ إلى الناصح المشفق، ويفرق بين الحب والبغض، ونظر الرضا والسخط، وينشأ على محبي المدح وكراهة الذم. فبالتعلم يأخذ كل ما به يصير إنساناً بالفعل. فالإنسان إن جرى على فطرته إذا وجد داعياً إلى صلاحه وحسن أخلاقه، وناصحاً مشفقاً متصفاً بجمال الخلق والخلق، حثته فطرته، ولبي قلبه من بين جنبه إلى قبول تلك الدعوة، لما وجد المطابقة بينها وبين فطرته، فتلقاها على بصيرة ودليل من فطرته، لا على التقليد؛ بل التقليد هو المانع في أكثر الأحوال".²

وقد جاء التعليق على ذلك في الحاشية: "هذا الاستعداد الفطري يؤكد دائماً أنه لما كان الإنسان مفطوراً على عبادة الله تعالى؛ إذ إنه مأمور بذلك وجوباً، لزم أن تكون تلك العبادة على علم بالمعبود الحق - وهو الله تعالى -، وهذا العلم لا يمكن الوصول إليه مفصلاً بالعقول المجردة، كما العبادة لا يمكن معرفة كفيها بالعقول المجردة، وبذلك يكون الإنسان في حاجة ملحة إلى خبر من مصدر موثوق يمكنه من معرفة الله تعالى، ويهديه إلى كيفية عبادته، وهذا لا سبيل إليه إلا من خلال الرسل الذين يبلغون رسالات الله، ويهدون الخلق إلى الحق، ويرشدون الأتباع إلى قانون التمييز بين الهدى والضلال، والصحة والفساد، والحق الباطل".³

- ويذكر العلامة الفراهي أن معرفة الرب تعالى بديهية، ثم يشرحها، فيعلق المحقق

¹ المصدر نفسه، ص 88-90، 281، نقلًا عن البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي.

² المصدر نفسه، ص 353.

³ المصدر نفسه، ص 353.

على ذلك قائلاً: "وقد ذكر الشيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن أساطير الفلاسفة القدماء، ومبلغ إفلاسهم في معرفة الله تعالى القائم على نظرياتهم القياسية المشحونة بالظنون والارتياب، فقال: "وبكل حال، فقد لا يحتاج إلى هذه المقاييس وهذه الطرق النظرية؛ بل استغنى عنها بالفطرة البديهية الضرورية عاماً خاصاً، وبالآيات المشهودة والمسموعة، وعلم جماهير الخلق من هذا الباب، وهو أثبت وأرسخ من علم أولئك؛ فإن أولئك عندهم من الشك والارتياب وأنواع التلون والاضطراب ما لا يوجد عند عامة هؤلاء، فضلاً عن من كان من ذوي الألباب والآيات، لا يحتاج فيها إلى القياس، كما أنّ الشعاع آية على الشمس، وليس ذلك بقياس الشمس على غيرها من المؤثرات، وقياس الشعاع على غيره من الآثار؛ بل عند الناس علم فطري بالحس والعقل أنّ نفس الشعاع مستلزم للشمس على وجه لا يشرك الشمس في ذلك غيرها، وما من مخلوق إلا وهو نفسه آية على خالقه على وجه لا يشركه فيه غيره".¹

الحجة وتقسيمها الأولي وطرقها إجمالاً: موضوع الكتاب هو "حجج القرآن" ونجد المؤلف يعرف الحجة فيقول: "الحجة هي إثبات أمر بما علمنا وأيقنا به، وذلك مبني على اليقين بصحة فطرتنا في علمها ومجاري أعمالها الأولية، فكل ما علمنا باضطراب الفطرة جعلناه أساساً، ثم جرت عليه قوى الفكر حسب فطرتها، كما بينت في فن المدارك والمنطق، والعلم قسمان:

(1) جسماني

(2) روحاني

أما الجسماني فهو علم بأمور تدوم وتصح بدوام هذا العالم وفطرتة، فتي بقي بقيت كحرارة

¹ المصدر نفسه، ص 477 نقلاً عن بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية.

النار، وزيادة الأجسام بالحرارة، وتجاذب الأجسام، وانعكاس الشعاع على زوايا خاصة وغير ذلك. وأما الروحاني فهو علم بأمر تبقى أبدأ؛ كشناعة الظلم وشرافة الإحسان ولزوم الشكر، أو كلزوم وجود العلة لكل حادث، وشرف العلة على معلولها، ووجود حامل لكل عرض، وغير ذلك من اليقينيات الروحانيات العقلية الثابتة، وإن فنيت الأرض والسماء، أو تبدلت أركانها وما بينهما. ثم هذا القسم الجسماني من العلوم بناء كليتها على الاستقراء، وإنما البديهي جزئياته، والاستقراء لا يربو على الظن.

وأما القسم الروحاني من العلوم فكليته كجزئياته متقينة، والنفوس مفطورة على الإيمان بها. ثم لما أنّ الحجة تبتنى على الكليات، والقضايا الجزئية التي تحصل بالتجربة لا تثبت شيئاً حتى تزيد عليها قضايا كلية مأخوذة من العقل. فكانت الحجج الجسمانية عيلاً على العقل، فهو حاكم عليها بكلياته اليقينية مع كليات مظنونة استقرائية؛ فالحجج الجسمانية مع كونها مظنونة مبنية على العقلية.

ولكن الحجج العقلية الروحانية تغشاها الشهوات والأهواء. فمع كونها حق اليقين، يذهل عنها الغافلون المنغمسون في غمرات الشهوات وظلمات الأهواء، فتخفى عليهم وهم عنها عمون. فلزم هذا القسم من الحجج ذكر المواعيد والزواجر، وتصوير المنافع والمضار، وأخذهم بالحسنات والسيئات؛ لعلمهم ينتهبون. ولزم أيضاً تطهيرهم من الأخلاق المظلمة بالصبر وقمع الشهوات، وحثهم إلى الأخلاق الزكية من المحبة والتقوى.

وباطل ما زعموا أنّ هذه الحجج ليست يقينية كقضايا الطبيعيات؛ كلاً بل هي أقوى وأجلى، ولكن الغفلة والأعمال السيئة صارت سداً وحجباً وغشاوة على اليقين المودع جذر فطرتهم.

ثم هذه الحجج العقلية الروحانية لا تثبت مجهولاً؛ لكونها فطرية... بل تذكرهم ما قد علموا. والقرآن بين هذا الأمر كثيراً، فقال: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾". (العنكبوت)

والحجج الروحانية الفطرية أقوى وأوثق، وأكثر المستدلين زعموا الحجج الرياضية أوثق، فاستعملوها في الإلهيات، وقصارى أمرهم إبطال الدور والتسلسل، فضعفت دلائلهم، ولم تبطل الشكوك، ولم تشف الغليل. وأما القرآن ففيه الحجج الفطرية التي بلغت القلوب، كما قال تعالى: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ". (الأنعام)، وجُبلت عليها النفوس.¹

الأوائل من المتكلمين والفلاسفة أثبتوا الإلهيات بالدلائل الرياضية، والمتأخرون يثبتونها بالطبيعيات؛ وذلك لأنهم اعتمدوا على ما كان أرسخ في قلوب الناس، ولكن فيه ظلما على الإلهيات؛ فإنها من العلوم النفسانية، فالاعتماد فيها على فطرة النفس، لا على فطرة الأجسام ولا المقادير.²

إثبات التوحيد من الكون: ومن أهم الموضوعات التي قد تناولها هذا الكتاب هو إثبات توحيد الله تعالى، فناقش المؤلف عقيدة التوحيد من وجوه شتى، وعرض لها دلائل متنوعة من القرآن الكريم، ومنها إثبات التوحيد من الكون، فيقول: هذا الكون دليل على قديم متوحد؛ أما القديم فلضرورة فقر الحادث، ولا يجدي فرض عدم الثنائي؛ فإنَّ الضرورة لا تبطل به.. وأما المتوحد فلأنَّ إحاطة القدرة بالخلق إحاطة تامة، وهذه تنفي الشركة، وأما قدرتنا فليست تامة؛ بل محدودة وتحت قدرة تامة، قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ (كثيرة) إِلَّا اللَّهُ (الذي علمنا من صفته القدرة التامة، والعلم المحيط) لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ (أي مالك العالم بأسره) عَمَّا يُصِفُونَ « (الأنبياء). أي عما يجعلون له من شركاء.

فالتكوين كمال القدرة وتماها وإحاطتها. ثم إن كان العالم تحت آلهة كثيرين، استحال توافقهم؛ لتضاد المخلوقات؛ فإنَّ بعض الكون إبطال بعضه، ثم كونهم ناقصين يخرجهم عن الألوهية الحققة، وكونهم كاملين موافقين مشتركين، يجعلهم عبثاً باطلاً،

¹ المصدر نفسه، ص 406-407.

² المصدر نفسه، ص 408.

إثبات الرسالة: وعلى هذا المنوال تعرض المؤلف كثيراً لعقيدة الرسالة وأثبتها بطرق متنوعة، ومنها إثبات الرسالة بصفات الله وآياته في الآفاق والأنفس، فيؤكد على أنه جاء كثيراً في القرآن، ويقول: "وربما تجد ذكر هذه الدلائل معاً، فمنها ما جاء في سورة الطلاق بعد ذكر الأحكام، وهي المراد بالنبوة، وأمر الرب على عباده"، ثم يذكر الآيات التالية: "وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾". (الطلاق) أي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ونزل بينهن ما أراد من التدبير، فيجري بينهن، فكذلك نزل أمره في النفوس، فأنزل الذكر، وأرسل به الرسل، فإن قدرته وعلمه وربوبيته محيطه. فكما أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما ﴿٣٠﴾ (الأنبياء) ففتقهما بالمطر والضيء، فكذلك النفوس كانت رتقا ففتقها بصيب ذكره ونور كتابه، فأثبتها وأثمرها وباركها. وهذه الأمثلة جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن والحديث، فكما رزق الخلق حسب أعمالهم وقواهم، فإنهم كلهم عاملون دائبون في طلبه، فكذلك يرزق العاملين الصالحات رزقاً حسناً أبدياً.

فانظر كيف بدأ بذكر الآيات الآفاقية على صحة الرسالة، وكونها من الله تعالى،

¹ المصدر نفسه، ص-471470.

فذكرهم ما علموه من إهلاك الأمم العاتية الذين عصوا ربهم، ولم يطيعوا رسله الذين جاؤوا بأمره. ثم خاطب أولي الألباب، فألقى عليهم الطرف الغامض من أمره في النفوس، بما أودعها من التذكر والإيمان والصلاح؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، بناء على ربوبيته العامة التي ظهرت في الآفاق. فلما بلغ هذا المقام، نبه على صفات الله من القدرة والعلم على الإطلاق. وساق هذا الكلام إلى إثبات النبوة، وعبر عنها بالتقوى؛ فإنها هي الداعية إلى التطهر من رجس الجسماني، والخروج من الظلمة إلى النور. والحاصل أنه تعالى رب رؤوف بعباده، فكما أنه رزقهم من السماء والأرض، فكذلك يرزقهم بالوحي ونور أودع ألبابهم".¹

الآيات الآفاقية على المعاد: لقد جاء هذا الكتاب بدلائل جمة على إثبات يوم القيامة، ومنها الآيات الآفاقية على المعاد، وهي نوعان: الأول ما لا يزال يجري من سنة الله تعالى في العالم عموماً. والنوع الثاني: ما وقع من الحوادث التاريخية التي تدل على دينونة الرب تعالى.

أما الأول فقسمان: القسم الأول هو المثبت. والقسم الثاني هو المبطل شبهاتهم. أما القسم الأول فيدل من أربعة وجوه: منها الوجه الأول من جهة الغاية؛ فإنه تعالى لا يفعل إلا الحكمة وغاية، نخلق الإنسان من غير جزاء لأعمالهم خلاف لرعاية الحكمة. والثاني: من جهة الرحمة؛ فإنه تعالى إن لم يرض الصالحين، ولم ينعم عليهم، كان خلاف الرحمة.

والثالث من جهة العدل؛ فإنه إن لم ينتقم من الظالمين، كان خلاف عدله. والرابع: قدوسيه الكاملة، مع إحاطة علمه وقدرته وملكه، فلو رضي بالسيئات ولم يجازها، لم يكن له هذه الصفات.

¹ المصدر نفسه، ص 525-526.

وأما القسم الثاني من مبطلات شبهاتهم فهذه الأدلة مزوجة بعضها مع بعض، وإنما ذكرنا أنواعها ليكون لك تمهيدا للتدبر فيها، فتعلم وجه الاستدلال. والآن نورد الأمثلة مع توضيح يسير. فنما ما قال تعالى: "فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعِيكُم عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾". (يونس).

فاستدل على القيامة بما يقع من أمره على زهرة الدنيا بغتة، فيرون أنها تحت قدرة رب قادر يعطي ويسلب، فكذلك يجري أمره على الدنيا بأسرها، يطويها كما نشرها، ويعيدها كما بدأها؛ ليحق الحق ويبطل الباطل. وصرح بأنه تعالى فصل هذه الدلائل للذين يتفكرون، فيؤمنون بالقيامة، كما قال في آيات 3- 14 من سورة يونس.¹

أهداف العقل والفلسفة: ويوضح العلامة الفراهي أهداف استخدام العقل لدى مختلف الشعوب والأمم فيستهل هذا البحث بقوله: "استعمال العقل لا يكون إلا لغاية؛ فالفلاسفة مولعون بالعلم وتكميل النفس"، ثم يقدم مدلول ذلك في نقاط تالية:

- 1- أما اليونان فعظم همهم إكمال النفس بالعلم، وقد صرحوا بذلك، وظنوا أنه تشبه بالآلهة، وأن كل خير في العلم ومعنى الفلسفة، وهي كلمة يونانية، حب العلم.
- 2- وأما الهند فعظم همهم زياده قوى النفس، فطلبوا الكشف والنجوم والسحر وزيادة العمر والاستمداد بالروحانيات.
- 3- ومنهم من زعم أن الحياة أم الآلام، فطلبوا النجاة منها، بتجريد النفس عن كل

¹ المصدر نفسه، ص 517-518.

شهوة جسمانية، لكيلا يبقى فيها حاجة، فلا تعود إلى الحياة أبداً. وهذا فلسفة بوذا والهنود، أكثرهم يزعمون أنّ النفس بعد التجرد التام تصير إلهاً، فالألوهية عندهم صفة تحصل بالتزكي.

وفي هذا السياق يخصّ بالذكر اتجاه ثلثة من الفلاسفة، وهو يقول: وطائفة من الفلاسفة أولعوا بالصناعات المفيدة في العيش الدنياوي من الطب والسحر والنجوم والهندسة والموسيقى والطبيعة وسائر الصناعات، فهؤلاء مستخدمون للعقل:

(1) للذة العلم وإكمال النفس به

(2) وإما لمنافع هذه الحياة

(3) وإما للخلاص عن آلام الدنيا

وبالتالي يوضح المؤلف هدف العقل وغاية الحياة لدى المسلمين قائلًا: "وأما أهل الإيمان بالإله الواحد- وهم أتباع الأنبياء الذين أخبروهم بالآخرة- فغايتهم ما وراء هذه الحياة، وذلك بأنهم عرفوا الرب تعالى بكونه حيًّا قيومًا ربًّا رحيمًا قدوسًا حكيمًا، فأحبّوه وتقربوا إليه وحده.

فالأساس الذي عليه بناء أفكارهم وأعمالهم هو محبة الرب تعالى، والرغبة في قربه بالشكر والطهارة والإحسان، فهم دائمون في ذكره، راجين لقاءه بعد هذه الحياة".¹

من كنز القرآن الكريم: وقد استخراج العلامة الفراهي في هذا الكتاب كثيرًا من الدرر العلمية والنكات البليغة من كنز القرآن الكريم، وإليكم بعضها على سبيل المثال:

إنه يعتبر الشكر أول الحكمة بناء على قول الله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ۗ" (لقمان)، ويعدّه ملاك الحكمة، ويبيّن أنه تعالى لا احتياج له إلى

¹ المصدر نفسه، ص 267-268.

شكرنا؛ بل هذا لشرف أنفسنا وطهارة أخلاقنا، فقال: "وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٤﴾". (لقمان).

ويوضح المؤلف فضيلة الشكر مزيداً أنه ينفي الشرك؛ لأنّ الشرك كفران نعمه، فيستدلّ بالآية: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَكَ دُشْرَكَ ۖ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾". (لقمان).

ويتقدّم إلى الأمام في هذا الصدد ويبيّن بداهة حسن الشكر، وأنه بفطرة الله، ولذا أثبت الله حق شكره بحجتين، فقال: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾". (لقمان)، ثم بين أمر المصير، وأنه هو المولى، فبرهن على نفي الشرك، ولزوم القيامة، والفضل لعلمه. فبعد هذا أمر بالصلاة لكونها شكراً، ومصيراً بالفعل إلى المولى، ونفياً للشرك، وتسليماً بالكلية، ثم أمر بإصلاح الناس، وسائر الخيرات، ثم أمر بالصبر ونفي القساوة والكبرياء. فبعد هذه الأمور قال: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿١٥﴾". (لقمان)، ثم نفى الشرك. فبعد ذلك قال: "وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٦﴾". (لقمان)، فبين لزوم المصير إلى الله؛ أي الجزاء والبعث.

ويتوصّل المؤلف من خلال كلّ ذلك، إلى نتيجة أنّ الشكر أصل الخيرات والدين، ودعماً لذا ساق آياتٍ أخرى من سورة الزمر وسورة الزخرف.¹

خصوصية الإنسان: وعلى هذا المنوال يتضمن الكتاب مختلف الحقائق المتعلقة بالإنسان، وطبيعته، ومنها على سبيل المثال ما بين العلامة الفراهي من مزايا النوع البشري فيقول:

¹ انظر للتفصيل ص 446 في المصدر نفسه.

"لا يخفى أن الإنسان ليس كسائر الحيوانات، جارية على منحج الطبيعة ومقتصرة عليها؛ بل إنه خلق على غاية الضعف والعجز في جوارحه ومداركه، ثم إنه أعطي استعداداً لينال به فضلاً كبيراً على سائر الحيوان في الفكر والعمل والمنطق والتدبير؛ ولكنه يكسب كل ذلك أولاً بالتقليد والسمع، ويستمر على ذلك برهة من عمره، فبعد ذلك، إذا جرب خطأ من حوله جعل يستبد برأيه فيما حوله، مع بقاءه في أمور دقيقة على التقليد وآراء مأثورة من الخلف كالأب عن كابر، فيستوثق التقليد في الدين، ثم حبه للعاجلة وغلبة الشهوات التي لم تتمعها تربية كبرائه، وقد جبل على شدة الاحتياج إلى التربية؛ لضعف عزمه ونسيانه وإيائه وطغواه عند استغنائها، يغلب عليه ذمائم الأخلاق".

وفي الحاشية جاء التعليق على ذلك: "هنا أمور ثلاثة، تؤكد لك أسباب الضلالة المشار إليها سلفاً: استيثاق التقليد، وحبّ العاجلة، وغلبة الشهوات، وإنّ واحدة من الثلاثة كافية في هدم الإنسان- عقلاً وتربيةً وسلوكاً- فكيف وقد اجتمعت؟!، فما الذي يبقى للإنسان من الإنسان؟!، وما الذي يبقى للعقل من العقل، وما الذي يبقى للدين من الدين؟!".¹

الخاتمة: وعقب دراسة هذا الكتاب، يتوصّل القارئ إلى أنه نافع جداً في موضوعه، وتنعكس فيه سعة اطلاع الإمام الفراهي على معاني القرآن الكريم، ودقّة نظره في مفاهيم آياته، وقوة أدلته وحججه في شرح التوحيد والرسالة والمعاد، بالإضافة إلى مواضع القوة والضعف في دلائل الفلاسفة والمتكلمين وعلماء النفس، المتعلقة بموضوع الكتاب، وكذلك يتبلور من هذه الطبعة للكتاب مدى جهود المحقق الدكتور عادل محمود عادل في إصاغته في صورة أحسن، وذلك من خلال تعليقاته وتحقيقاته فيه، وقد تزيّن الكتاب بتقديمات علمية جميلة مفيدة كتبها الأستاذ الدكتور فيصل الحفيان، والأستاذ الدكتور خالد فهمي، فصار أكثر نفعاً ممّا كان من قبل، وصدر

¹ المصدر نفسه، ص 369.

مجلة الهند..... حجج القرآن للإمام الفراهي

في حلّة قشبية ومزينة ومنقحة. فهذا الإنجاز عطاء ثري للأوساط العلمية والأكاديمية، وقد انضافت به إضافة قيمة إلى المكتبة العربية العلمية، وبنفتح به الباب للقراء العرب للاطلاع على علم شامخ من أعلام الهند، ومساعدته في خدمة القرآن الكريم. والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.